الآثار الكاملة



الدكتور كمال مظهر

المجلد العاشر

اعداد

الدكتور جبار قادر الدكتور دلشاد محمود

الدكتور آزاد عبيد الدكتور كامران محمد

أربيل
٢٠٢٢

الآثار الكاملة

الدكتور كمال مظهر

المجلد العاشر

اعداد

الدكتور جبار قادر　　الدكتور دلشاد محمود

الدكتور آزاد عبيد　　الدكتور كامران محمد

اربيل ٢٠٢٢

* اسم الكتاب: الآثار الكاملة - الدكتور كمال مظهر - المجلد العاشر

* اعداد: اللجنة المختصة بجمع ونشر الآثار الكاملة للأستاذ الدكتور كمال مظهر احمد

* الاعمال الفنية والاشراف على الطبع: عثمان پيرداود كواز

* صورة الغلاف: الفنان نورالدين الجاف

* الطبع: مطبعة دانشفر- أربيل

* عدد النسخ: ١٠٠٠

* رقم الايداع (٩١٨) لسنة ٢٠٢٢

* السعر(٦٠،٠٠٠) دينار

المجلد العاشر:

يضم هذا المجلد الكتب التالية:

* دور الشعب الكردي في ثورة العشرين العراقية.
* إنتفاضة عام ١٩٢٥ الكردية في تركيا (دراسة تحليلية).
* حول مسألة الإقطاع بين الكرد.
* ميكافيلي والميكافيلية.
* محاضرات في تاريخ الدول الكبرى بين الحربين العالميتين.

تقديم

من دواعي الفخر للجنة المختصة بجمع ونشر النتاج العلمي والثقافي للراحل المؤرخ الفذ والمربي الكبير الأستاذ الدكتور كمال مظهر أن تضع بين أيدي قراء اللغتين الكردية والعربية الكرام أعماله الكاملة التي تتوزع على عشرة مجلدات، الستة الأولى منها بالكردية ومايليها حتى العاشر منها بالعربية وهي بمجملها تمثل القسم الأول من مشروع كبير يهدف الى جمع ونشر مجمل منجزه العلمي والثقافي.

يعد الدكتور كمال مظهر أحمد رائدا للدراسات التاريخية الكردية الحديثة، بل ومؤسسا لمدرسة تاريخية كردية متميزة؛ فقد إطلعت أجيال عديدة منذ سبعينات القرن الماضي لأول مرة على دراساته المتعلقة بتاريخ الكرد وكوردستان وفق منهجية علمية لم يألفوها من قبل، إذ كانت هاتيك الأجيال تقرأ حكايا وأساطير تغنت بمناقب أمرائهم وزعمائهم المحليين وتحسبها مصادر ومظانا تاريخية! وبتأثير كتبه المؤلفة ومقالاته التاريخية عشقت الأجيال الجديدة من سواد القراء ومن المثقفين تاريخ الكرد، وراحت تدلو بدلائها في دراسة تاريخ أمتها الكردية المستضعفة إضافة الى دوره الكبير في دفع العديد من الطلبة في أقسام التاريخ في الجامعات لإكمال دراساتهم العليا في مجال التاريخ داخل العراق وخارجه، كما وجدت محاضراته على الطلبة ومعظمهم من غير الكرد دورا مماثلا في التوجه الى الدراسات العليا لدراسة التاريخ بمنهج علمي وظلوا أمناء لمعلمهم الكبير طوال حياتهم ومسيرتهم العلمية. ولم يقتصر عمله هذا على الطلبة الكرد فقط بل وشمل الجميع ممن أشرف عليهم أو إستشاروه في دراساتهم ومشاريعهم البحثية.

لطالما أكد الدكتور كمال على أن مجال التاريخ الكردي كالأرض غير المحروثة والمزروعة؛ وتحتاج هذه المهمة الكبيرة الى أجيال من الباحثين لكي ينجزوا جزءا من هذه المهمة! وكان من أسباب سعادة الدكتور كمال أن يلتفت الى منجزه التربوي فيشهد العديد من الباحثين والمتخصصين في التاريخ الكردي من الذين أسهم مباشرة في إعدادهم تعليما أو إشرافا أو تنويرا من خلال مؤلفاته كتبا ومقالات وبحوث علمية وما ترجمه من أعمال في التاريخ والفكر التاريخي التي كانت تثير إهتمام أوساط واسعة من القراء والمثقفين الكرد والعراقيين عموما.

غني عن القول أن جمع وتحقيق الآثار الكاملة لمؤرخ غزير الإنتاج مثل الراحل كمال مظهر يستوجب تكاتف العديد من الباحثين والمثقفين، بل إنه مهمة مؤسسة متخصصة مع كوادر علمية وإدارية متفرغة لهذه المهمة، وليست مهمة لجنة من

المتطوعين غير المتفرغين يعملون هنا وهناك، ومنهم أساتذة في الجامعات منهمكون بإعداد محاضراتهم وبحوثهم العلمية.

لقد إرتأت اللجنة المتشكلة قبيل وفاة العلامة كمال مظهر بأيام معدودة؛ بهدف جمع تراثه العلمي والثقافي وتصنيفه، ومن ثم طبعه ونشره، إرتأت تقسيمه الى ستة أقسام على النحو الآتي:

القسم الأول والذي يسرنا أن نضعه بين أيدي القراء يضم كل مؤلفاته المنشورة باللغتين الكردية والعربية في عشرة مجلدات، بلغ مجموع صفحاتها سبعة آلاف ومائتين وخمسين صفحة.

القسم الثاني: سيشتمل على بحوثه العلمية ومقالاته المنشورة في الصحف والمجلات الكردية والعربية، وقد قامت اللجنة بتصوير وجمع قسم منها، لكنما مازال هناك الكثير مما ينتظرها في هذا المجال؛ وهو يستوجب بذل جهود شاقة من قبل عدد أكبر من أعضاء اللجنة المشرفة.

القسم الثالث: وسيضم أعماله العلمية والصحفية باللغة الروسية وسيربو عدد صفحات هذا القسم على ألف وخمسمائة صفحة. ومن الضروري ترجمته الى اللغة الكردية وقد خطت اللجنة الخطوات الأولى على هذا الطريق. ولقد تبين لنا عند الإطلاع علّى قائمة مؤلفاته وبحوثه أنه قد ترجم بعض بحوثه ومقالاته في حينها من الروسية الى الكردية أو العربية أو وظفها كنواة لدراساته وبحوثه اللاحقة.

القسم الرابع: وقد خصص لجمع كلمات التقديم التي كتبها لعدد معتبر من الكتب والمؤلفات لباحثين كرد وعرب فضلا عن مذكرات قام بتقديمها وإعدادها للنشر، وتنطوي هذه المقدمات على أفكار ومعلومات مهمة تفرض علينا الإهتمام بجمعها في أكثر من مجلد.

القسم الخامس: تسعى اللجنة الى تخصيصه ليضم لقاءاته الصحفية والحوارات معه، التي عبر من خلالها عن آرائه وتصوراته عن الكثير من المسائل العلمية والقضايا الفكرية والثقافية، وهي تشهد على إطلاعه الواسع وواقعية تصوراته وعمق تحليلاته. وهي تشكل مادة غنية؛ لإجراء البحوث والدراسات عن رؤاه الفكرية وتوجهاته الثقافية.

القسم السادس: من المأمول أن يتضمن كل ما كتب ونشر عن الراحل من دراسات وبحوث ورسائل علمية وما قيل عنه أثناء وفاته أو في الذكرى السنوية الأولى

لرحيله. ووجدنا من الضروري أن ندرج في هذا القسم رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه التي أشرف عليها الأستاذ الدكتور كمال مظهر أحمد وهي بحوث مشتركة بحكم التعليمات. وكان الراحل خلاقا في دعم المنجز العلمي لطلبته في مشاريع رسائلهم وأطاريحهم فكرة وعنوانا وموضوعا وتحليلا وتركيبا؛ ولذا وجدنا من الضروري أن نفهرس في هذا القسم عناوين رسائل الماجستير وأطاريح الدكتوراه التي أشرف عليها الدكتور كمال مظهر وإسم الطالب ومستوى العمل وتاريخه. والجدير بالذكر هنا إسهاماته المشهودة في مناقشة العشرات من رسائل الماجستير وأطاريح الدكتوراه. ولئن كانت هاتيك المناقشات مسجلة صورة وصوتا؛ فسنسعى الى الإتصال بذوي العلاقة للحصول على نسخ من هاتيك التسجيلات، وسنقوم بتفرغيها وطبعها ورقيا وإصدارها ضمن الأعمال الكاملة. كما ستعمل اللجنة على الإتصال بتلامذته المتميزين؛ لكتابة مقالات عن أسلوبه في محاضراته.

لقد قامت اللجنة المتخصصة المشكلة من: (الأستاذ الدكتور جبار قادر، الأستاذ الدكتور آزاد عبيد، الأستاذ المساعد الدكتور دلشاد محمود عبدالرحمن والأستاذ المساعد الدكتور كامران محمد حاجي) قامت خلال العام الأول من عمرها بإنجاز بيبليوغرافيا أولية لمجمل الأثار العلمية والثقافية للراحل كمال مظهر فضلا عن إعداد مؤلفاته وترجماته باللغتين الكردية والعربية للطبع، وهو هذا القسم الذي نضعه بين أيدى القراء والباحثين. كما قامت اللجنة بجمع كل ما ظفرت به في مكتبته الشخصية وكل ما وقع تحت أنظار أعضاء اللجنة والعديد من الزملاء والأصدقاء من خارج اللجنة من المقالات والبحوث والكتب المتعلقة بالراحل باحثا أو مترجما أو معلقا على مسألة عامة أو خاصة أو قام به تلامذته وأساتذتهم وأصدقاء الراحل من كتابات عن سيرته وترجمة لحياته الشخصية والعلمية. كما قامت اللجنة بطبع العديد من مقالاته وبحوثه ومراجعتها بصورة دقيقة. وستواصل اللجنة بعد نشر مؤلفاته الكاملة سعيها لإنجاز المراحل الأخرى من هذا المشروع العلمي والثقافي الكبير؛ خدمة للحقيقة والتاريخ وتذكيرا لعطاء هذا الإنسان العالم والمؤرخ والمربي الكبير الذي قلما يجود الزمان بمثله.

ومن هنا تناشد اللجنة المشرفة الباحثين والقراء المهتمين بتراثه العظيم أن تمد يد المساعدة للجنة بتزويدها بما يتوافر لديهم من صحف ومجلات تضم بحوثا ومقالات أو لقاءات صحافية منشورة للراحل. ومن المؤكد أن مؤازرتهم ستساهم

حتما في تأسيس مكتبة خاصة ومتحف خاص يجمع فيهما كل ما يتعلق به.

شكل توزيع مؤلفات الراحل الكبير من حيث المواضيع وعدد الصفحات تحديا أمام اللجنة وجرى نقاش مطول حول الأمر الى أن إستقر الرأي في النهاية على توزيعها على الشكل التالي، ونثبت هنا عناوين الكتب المنشورة في مجلدات القسم الأول:

المُجلد الأول: "كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى"، "التاريخ- دراسة علمية موجزة عن التاريخ والكرد والتاريخ" و"كتاب الحركة التحررية للكرد والآذربايجانيين في إيران".

المجلد الثاني: "تيگەیشتنی راستی (أي فهم الحقيقة) – وموقعها في الصحافة الكردية" و"صفحات من تاريخ الشعب الكردي – الجزء الأول".

المجلد الثالث: "صفحات من تاريخ الشعب الكردي – الجزء الثاني".

المجلد الرابع: الترجمات الكردية لكتبه "مكياڤيللي والمكيافيلية"، و"النهضة"، و"الطبقة العاملة العراقية: التكون وبدايات التحرك" ومؤلفه "المرأة في التاريخ".

المجلد الخامس: "الكرد وكردستان في الوثائق السرية للحكومة البريطانية".

المجلد السادس: "الكرد وكردستان في الوثائق السرية للحكومة البريطانية". وكما أسلفنا فإن هذه المجلدات الستة تضم مؤلفاته باللغة الكردية أو التي ترجمت إليها من اللغة العربية.

المجلد السابع: الترجمة العربية لكتاب: "كوردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى" ومؤلفه "كركوك وتوابعها، حكم التاريخ والضمير – دراسة وثائقية عن القضية الكردية في العراق ".

المجلد الثامن: "دراسات في تاريخ إيران الحديث والمعاصر" و"أضواء على قضايا في الشرق الأوسط "و"النهضة".

المجلد التاسع: "صفحات من تاريخ العراق المعاصر"، و"الطبقة العاملة العراقية – التكون وبدايات التحرك"، و"ثورة العشرين في الإستشراق السوفيتي"، و"رأي للمناقشة".

المجلد العاشر: "دور الشعب الكردي في ثورة العشرين"، و"إنتفاضة ١٩٢٥ في كردستان تركيا"، وترجمته لكتاب شاميلوف"حول مسألة الإقطاع بين الكرد"، و"ميكافيللي والمكيافيلية" و"تاريخ الدول الكبرى بين الحربين العالميتين". وكما نوهنا فإن المجلدات الأربعة الأخيرة هي باللغة العربية.

وختاما تشكر اللجنة كل من أبدى إستعداده لدعم المشروع ماديا أو معنويا وهم كثر، وفي مقدمتهم رئيس الأكاديمية الكردية الأستاذ الدكتور عبدالفتاح البوتاني الذي خصص غرفة خاصة للجنة في الأكاديمية. كما تشكر اللجنة الأستاذ الدكتور عماد الجواهري الذي كان لملاحظاته دورا مهما في إضافة محور جديد الى القسم السادس من المشروع، وكل من ساهم ولو بإعلام اللجنة بوجود مقالة أو دراسة للراحل في صحيفة ما أو مجلة. وتعبر اللجنة كذلك عن إمتنانها للأستاذ جلال زنگابادي على جهوده المخلصة لإخراج المشروع بأفضل صورة.

اللجنة المختصة
بجمع ونشر الآثار الكاملة
للدكتور كمال مظهر احمد

الدكتور كمال مظهر أحمد

دور الشعب الكردي في ثورة العشرين العراقية

دور الشعب الكردي

في

ثورة العشرين العراقية

تأليف

الدكتور كمال مظهر أحمد



بغداد ـ ١٩٧٨

المقدمـة

لم يحظ حتى اليـوم حـدث في تأريـخ العـراق المعـاصر باهتمام المؤرخين والكتاب العراقيين ، وغيرهم ، مثلما حظيت « ثورة العشرين »(١) • فقد كرس المؤلفون العراقيون العديد من الكتب

---

(١) لاينطبق مفهوم الثورة علميا على الاحداث التي شهدتها الساحة العراقية في صيف العـام ١٩٢٠ • فالثورة لابـد لهـا من ان تستهدف احداث تغيير جذري في القاعدة والقمة ، أو تؤدي اليه، كأن تؤدي اقتصاديا الى تغيير العلاقات الاقطاعية باخرى راسمالية وتفضـي سـياسيا الى انتقـال السلطـة مـن الاقطاعيين الى البورجوازيين ، مما يشكل طفرة نوعية كبيرة الى أمام • والثورة الفرنسية الكبرى نموذج مثالي لهذا النوع من التحول •واحيانا تشكل حركة ما ، بالرغم من أهميتهـا وسعـة نطاقهـا وعمـق نتائجها وجسامة ضحاياها ونبل اهدافها ، مجرد انتفاضـة جماهيرية ، او حركة تحررية موجهة ضد مستعبد اجنبي ، وهي لاتقل اهمية عن الثورة ، بل تشكل في اغلب الاحيان مقدمـة ضرورية لثورة لاحقة ، الا اننا لانستطيع وصفهـا بالثـورة اذا توخينا الدقة العلمية• وان ماحدث في العام ١٩٢٠ نموذج لهذا النوع من التحرك الجماهيري الذي يصفه الغربيون بالتمرد ، بينما اختارت له الجماهير العراقية اسم «ثورة العشرين»• وقد غدت الاخيرة مصطلحا متداولا على الالسن وفي جميع المؤلفـات العراقية تقريبا ، فيكون استخدامنا لها نابعا عن هذا الواقع •

والبحوث لدراسة أهم الجوانب السياسيه لهذه الثـورة (٢) • كما نشر عدد من المشاركين فيها او ممن عاصروها مذكراتهم التي تناولت بدورها جوانب معينة من أحداثها (٣) • وفي السنوات الاخيرة جاء دور معالجة قضايا محددة تخص جانبا واحدا من جوانب الثورة من قبيـل « صحافـة ثـورة العشريـن » (٤) و « البطـولة في ثورة العشرين »(٥) و « ثورة العشرين في الشعر العراقي » (٦) وما شابه تلك من مواضيع •

ومع ان جميع هؤلاء ، وغيرهم من المؤلفين العراقيين، بذلوا جهودا قيمة لتقديم صورة واضحة الى حد كبير عن أحداث «ثورة

---

(٢) على سبيل المثال : عبدالرزاق الحسني ، الثـورة العراقيـة الكبرى ، الطبعة الثالثة الموسعة ، صيدا ، ١٩٧٢ ؛ الدكتـور عبدالله الفياض ، الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠ ، الطبعة الثانية ، بغداد ، ١٩٧٤ ؛ الدكتورعلي الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، الجزء الخامس ، القسـم الاول ، بغداد ، ١٩٧٧ ، القسم الثاني ، بغداد ، ١٩٧٨ •

(٣) على سبيل المثال : علي آل بازركان ، الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية ، بغداد ، ١٩٥٤ ؛ محمد مهدي البصير ، تاريخ القضية العراقية ، بغداد ، ١٩٢٣ ؛ فريق المزهر آل فرعون ، الحقائـق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ، بغداد ، ١٩٥٢ •

(٤) راجع : يعقوب يوسف كوريا ، صحافة ثورة العشرين ، بغداد ، ١٩٧٠ •

(٥) راجع : عبدالشهيد الياسري ، البطولة في ثـورة العشريـن ، النجف ، ١٩٦٦ (٣٦٠ صفحة) •

(٦) ابراهيم الوائلي ، ثورة العشرين في الشعر العراقي ، بغداد ؛ ١٩٦٨ (١٩٠ صفحة) •

العشرين » ، فان ماقالته جريدة «الاهالي» البغدادية بمناسبة صدور كتابين عن الثورة في العام ١٩٥٢ لايزال يحتفظ بجانب غير قليل من قوته • فقد كتبت تقول : « اننا بحاجة ماسة الى مؤرخ يتمتع بتفكير سياسي واحساس تأريخي يجعلانه ينظر الى الثورة العراقية نظرة العالم الى الظاهرة الطبيعية ، يخضعها لمنهج علمي واضح »(٧) • والواقع اننا نلاحظ تحيزا ملموسا في بعض الدراسات (٨) ، وسطحية واضحة في بعض اخر منها ، وتأكيدا على جوانب من العوامل التي هيأت ظروفا موضوعية لانفجار الثورة مع تجاهل مطلق للعديد من العوامل المهمة الاخرى ، في قسم ثالث من تلك الدراسات ، كما حاول البعض شد القاريء الى ماكتب عن الثورة برواية الطريف له من الاحداث • وفي ذلك يكمن أحد الاسباب الرئيسة لما تثيره كل اصدارة جديدة عن «ثورة العشرين» من جدل ومناقشات مسهبة(٩) •

---

(٧) «الاهالي» ، بغداد ، ٢٧ حزيران ١٩٥٢ •

(٨) من الجدير بالذكر ان بعض المؤلفات عن «ثورة العشرين» ظهرت بدافع الرد على اراء وردت في كتب لمؤلفين آخرين بصدد أحداث الثورة •

(٩) خير دليل على ذلك ما أثاره صدور الجزء الخامس بقسميه من كتاب الدكتور علي الوردي الذي تصدى لمناقشته عدد كبير من الكتاب سواء على صفحات الجرائد والمجلات ، أو على شكل كتب مستقلة (على سبيل المثال : مقال الاستاذ عزيز السيد جاسم ، ـ «الجمهورية» ، بغداد ، ٣٠ اب ١٩٧٧ ؛ الدكتور سليم علي الوردي ، علم الاجتماع بين الموضوعية والوضعية• مناقشة لمنهج الدكتور علي الوردي في دراسة المجتمع العراقي،
=

مع ذلك فان المؤرخين العراقيين دشنوا بداية جديدة لدراسة « ثورة العشرين » ، مما يسهل حتما مهمة من يتصدى لمعالجة أي جـانب من جوانب الموضوع نفسه في المستقبل ٠

تحتل « ثورة العشرين » ، في الوقت نفسه ، مكانة بارزة في جميع الدراسات الاجنبية المكرسة للبحث عن تاريخ العراق الحديث والمعاصر ، كما اختيرت موضوعا لرسالة علمية لنيل شهادة الدكتوراه على صعيد الاستشراق (١٠) ٠وقد كتب عنها أبرز المسؤولين الانكليز الذين كان لهم دورهم في خلـق الاسبـاب التي أدت الى انـدلاع

=

بغداد ، ١٩٧٨ ؛ ستار جبر ناصر ، هوامش على كتاب علـي الوردي لمحات اجتماعية في تاريخ العـراق الحديـث الجـزء الخامس ، بغداد ، ١٩٧٨) ٠ وقد عالج عدد من المؤلفين الكتاب الذي أصدرناه بعنوان «ثورة العشرين في الاستشراق السوفيتي» على صفحات جريدتي «طريق الشعب» و «العراق» ومجـلات «الثقافة الجديدة» و «الخليـج العربي» و « صوت الاتحـاد » و «بين النهرين» ٠

(١٠) نقصد بها الرسالة التي تقدم بها ل٠ ن٠ كاتلوف الى معهـد الاستشراق التابع لاكاديمية العلوم السوفيتيـة بعنـوان : « انتفاضة ١٩٢٠ الوطنية ـ التحررية في العراق » والتي نشرت بعد الدفاع عنها في كتاب مستقل (موسكو . ١٩٥٨) ٠وقد قـام الدكتور عبدالواحد كرم بتعريب الكتاب ونشره تحت عنـوان «ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق» (الطبعة الاولى : بغداد ، ١٩٧١ ، الطبعة الثانية : بيروت ، ١٩٧٥) ٠

الثورة (١١) أو في قممها (١٢) ٠

وبالرغم من كل ذلك فان صفحات مهمة من «ثورة العشرين» تبقى تنتظر البحث الجدي الذي لابد منه حتى تستكمل أبعاد صورتها٠ ويأتي دور الكرد في الثورة على رأس المواضيع التي يجب معالجتها (١٣) لا من حيث مدى الاشتراك الفعلي لجزء مهم من أبناء الشعب العراقي في أحداث الثورة نفسها فقط ، بل كذلك من منطلق دوره الواضح في العملية الثورية التي اجتاحت مناطق مختلفة من العراق مع انتهاء الحرب العالمية الاولى ، أي عشية الثورة ، ومن حيث توفر أمثلة حية عن واقع المناطق الكردية اثر الاحتلال البريطاني بامكانها اضفاء بعد جديد على أهم عوامل استياء الشعب العراقي ككل ٠ وأخيرا فان توضيح الاشتراك الفعلي للاكراد في

---

(١١) على سبيل المثال الجزء الثاني من كتاب وكيل الحاكم المدني العام ارنولد ولسن الذي يحتوي على معلومات مهمة ٠
(A. T. Wilson, Mesopotamia 1917—1920. A clach of loyalities, London, 1931).

(١٢) مثلا كتاب هالدين الذي كان قائدا عاما للقوات البريطانية العاملة في العراق ٠
(A. L. Haldane, The Insurrection in Mesopotamia, Edinburgh, 1922).

(١٣) جلب هذا الموضوع انتباهي منذ سنوات ، فحاولت معالجته في مناسبات مختلفة (راجع : «التآخي» ، ١ تموز ١٩٧٠ ، «ثورة العشرين في الاستشراق السوفيتي» ، بغداد ، ١٩٧٧ ، ص ٧١ ــ ٧٩) ٠ كما نشرت جزءا أساسيا من هذا الكتاب على شكل بحث مستقل في «مجلة المجمع العلمي الكردي» (بغداد ، المجلد السادس ، ١٩٧٨) ٠

«ثورة العشرين» يساعد ، بدوره ، على تفنيد اراء الغربيين غير الموضوعية عنها باعتبارهم اياها «تمردا» أو رد فعل رجعيا شرقيا على الحضارة الاوروبية ، أو نتيجة عوامل جانبية كاختلاف الدين وجهل الموظفين البريطانيين للغة العربية وما شابه (١٤) •

تكتنف دراسة هذا الموضوع صعوبات غير قليلة ، يأتي في مقدمتها عدم توفر المصادر لالقاء ضوء كاف على حجم وطبيعة الاحداث التي شهدتها كردستان أيام «ثورة العشرين» • فلم يتطرق الجيل السابق من المؤلفين الكرد الى هذا الموضوع الا في اطار محدود للغاية • كما تخلو المذكرات القليلة المنشورة للوطنيين الاكراد من معلومات تخص «ثورة العشرين» ، فيما عدا شذرات مهمة وردت في الجزء الثالث من مذكرات الاستاذ رفيق حلمي (١٥) • ومن المفيد أن نشير في هذا المجال الى حقيقة مثيرة وهي أن محاكم العهد الملكي أصدرت حكما بالسجن لمدة ثلاثة أشهر على عاصم الحيدري لمجرد قيامه بنشر

---

(١٤) هكذا قيمت الثورة من قبل ا• ل• هالدين (راجع الهامش رقم ١٢) و هـ• ا• فوستر و س• و• لونكريك وغيرهم (راجع :
H. A. Foster. The Making of Modern Iraq, Oklahoma, 1935. PP. 79—88; S. H. Longrigg, Iraq 1900 to 1950, London, 1968. PP. 113—116;
(للتفصيل اكثر راجع : «ثورة العشرين في الاستشراق السوفيتي»، ص ٢٨ـ٣٠ ، ٦٨ـ٦٩) •

(١٥) رفيق حلمي ، يادداشت «المذكرات» ، باللغة الكردية ، الجزء الثالث ، بغداد ، ١٩٥٦ •

مقال عن دور الكرد في «ثورة العشرين» (١٦) • أما المؤرخون الآخرون فقد تكلموا عن مشاركة المناطق الكردية في أحداث الثورة ومقدماتها اما بشكل عرضي (الاستاذ عبدالرزاق الحسني ، الدكتور عبدالله الفياض (١٧) وغيرهما) أو ضمن اطار الثورة العام (الدكتور علي الوردي(١٨)) أو من خلال البحث عن نشاطات المحتلين المتشعبة أيام الثورة (آرنولد ولسن ، هيي ، هالدين وغيرهم (١٩)) أو ضمن الكلام عن نشاطات «جمعية العهد ـ فرع الموصل » عشية الثورة (٢٠) •

(١٦)راجع مجلة «هەولير» (أربيل) ، باللغة الكردية ، أربيل ،العدد الثاني ، ايلول ١٩٧١ •

(١٧) راجع الهامش رقم ٢ •

(١٨) راجع الجزء الخامس ، القسم الثاني من كتاب الوردي •

(١٩) ترد معلومات ضافية عن ذلك ضمن البحث •

(٢٠) نشر انشط قادة هذه الجمعية (عبدالمنعم الغلامي ، محمد رؤوف الغلامي ، محمد طاهر العمري وغيرهم) معلومات قيمة عن النشاط السياسي في الموصل خلال الفترة القصيرة الواقعة بين انتهاء الحرب العالمية الاولى واندلاع الثورة يخص قسم منها الاكراد وما شهدته منطقتهم من حوادث متلاحقة • وقد وردت ضمن بحوث هؤلاء وثائق مهمة من شأنها القاء الضوء على خفايا كثيرة من الامور ، مما يساعد على التوصل الى استنتاجات موضوعية ضرورية (ترد معلومات ضافية عن مؤلفات هؤلاء ضمن البحث عن مقدمات الثورة وعوامل اقتصار الاخيرة على قطاعات كردية محدودة) • وفي الواقع ان نشاطات فرع الموصل لجمعية العهد بحاجة الى دراسة خاصة ، فقد تميز ذلك الفرع بتقييمات صحيحة ومواقف ثابتة تختلف الى حد كبير عن الخط التساومي السائد في الجمعية ككل ، وسوف نلاحظ جوانب من هذه الحقيقة ضمن المواضيع الواردة في الفصل الاول من هذا الكتاب •

دفع كل ذلك بعض المستشرقين الى الاعتقاد بأن الاكراد لم يسهموا اصلا في «ثورة العشرين» (٢١) ، وتطرق آخرون بشكل عابر الى اشتراكهم فيها ، ولكن دون أن يتجنبوا الوقوع في بعض الاخطاء الواضحة (٢٢) • ويوجد ايضا بين المؤلفين العراقيين من لم يعط موقع الكرد في «ثورة العشرين» حقه • ففي رأي فريق المزهر آل فرعون ان « الثورة سرت من لواء ديالى حتى وصلت الى لواء كركوك ••• ومن كركوك سرت نيران الثورة الى أربيل ، غير انه لم تقع مصادمات أو حوادث مهمة في هذين اللوائين»(٢٣) • وفي رآي الدكتور عبدالله الفياض أن دور «الاقسام الشمالية من العراق» في ثورة العشرين «كان ضئيلا أو معدوما» (٢٤) •

مما سبق يبدو واضحا أن على من يتصدى لدراسة موقع الكرد في «ثورة العشرين» بذل جهود كبيرة لجمع المعلومات المتفرقة التي

---

(٢١) راجع على سبيل المثال :
ن• و• اوهانيسيان ، نضال القوى الديمقراطية العراقية من أجل الغاء الانتداب الانكليزي (١٩٢٠ ـ ١٩٣٢) ، في كتاب «بلدان الشرقين الادنى والاوسط» ، باللغة الروسية ، يريفان، ١٩٦٧ ، ص ٢٥ •

(٢٢) راجع على سبيل المثال :
ا• ف• فيدجينكه ، نضال شعوب العراق من اجل الاستقلال والتقدم الاجتماعي (١٩١٧ـ١٩٥٨) ، رسالة باللغة الروسية لنيل شهادة الدكتوراه ، موسكو ، ١٩٦٧ ، ص ٦٩ •

(٢٢) فريق المزهر آل‌فرعون ، المصدر السابق ، ص ٣٢٦ •

(٢٤) الدكتور عبدالله الفياض ، المصدر السابق ، ص ٢٥٥ •

ورد معضمها بشكل عابر في الوثائق والصحف والمصادر الاخرى المتوفرة بعدد من اللغات • ومن الضروري جدا اجراء اتصالات مباشرة بأسرع مايمكن مع من بقي على قيد الحياة من اولئك الاكراد الذين كان لهم دور في أحداث العام ١٩٢٠ بشكل أو بآخر ، وهو أمر مهم للغاية ظهرت له بوادر جديرة بالتقدير (٢٥) • وبالرغم من الاهمية القصوى لهذا الامر بالنسبة للاحداث التي شهدتها المنطقة الكردية أيام «ثورة العشرين» ، الا انه مايزال يعتبر ضروريا كذلك بالنسبة للمناطق الاخرى من البلاد • فان بحثا ميدانيا أجراه أحد طلابي في منطقة السماوة (٢٦) استجوب خلاله عددا كبيرا من الفلاحين والعمال والكسبة والملاكين الذين اشتركوا في الثورة فعلا ، أفضى الى نتائج رائعة بالامكان عن طريق تعميقها وتوسيعها

---

(٢٥) استند الدكتور مكرم الطالباني في كتابه «ابراهيم خان ثائر من كردستان » (بغداد ، ١٩٧١) الى أقوال شهود عيان في سرد العديد من الاحداث التي شهدتها منطقة كفري أيام « ثورة العشرين » • كما قدم السيد فاضل كريم في الحلقات ٤ و ٥ و ٦ من مسلسلته «خانقين خلال ربع قرن ١٩٠٠ـ١٩٢٥ » («التاخي» ، ١٣ و ١٤ و ١٧ حزيران ١٩٧٣) معلومات مهمة عن وقائع منطقة خانقين ايام الثورة استقاها بالاساس من الذين عاصروها •

(٢٦) هو رجاء أحمد بهيش الزبيدي الطالب في قسم الاعلام بكلية الاداب (جامعة بغداد) الذي توسمت فيه الجد والذكاء مع اهتمام خاص بمواضيع «ثورة العشرين» ، وقد أدى ماكلفته به في شباط ١٩٧٨ على أحسن وجه يبدو بعض نتائجه ضمن الحقائق الواردة في الفصل الاول من هذا الكتاب • (في الهوامش القادمة : رجاء أحمد ، بحث ميداني عن «ثورة العشرين») •

القاء الضوء على خفايا كثيرة وتجسيد قضايا اخرى تساعدنا في فهم أدق لظروف الثورة وعوامل انفجارها وبطولات رجالها من بسطاء الناس الذين لم يجلبوا نظر أي من المؤلفين ممن عالجوا مواضيع « ثورة العشرين » • وكما يبدو من بعض الحقائق الواردة في هذا الكتاب ومن المقال الطريف الذي اعده الدكتور صالح جواد الكاظم بمناسبة الذكرى الاخيرة لـ «ثورة العشرين» (٢٧) ، انه لايزال يوجد مجال كبير لسبر أغوار الارشيفات الخاصة التي من شأنها تقديم الجديد الكثير عن أحداث الثورة وعواملها المحركة مع ماكان لمختلف الفئات الاجتماعية من دور في خلق وقائعها البارزة •

توجد ، الى جانب المصادر التي سبقت الاشارة اليها ، مراجع أخرى يمكن الوقوف من خلال المعلومات الواردة فيها على جوانب معينة من الوضع العام في المنطقة الكردية قبيل «ثورة العشرين» وفي أيامها ، منها جريدة « پيشكەوتن » (التقدم) التي أصدرها الانكليز باللغة الكردية خلال الفترة ١٩٢٠ ـ ١٩٢٢ في مدينة السليمانية(٢٨)• وتحتوي صحيفتا «العرب» و «العراق» البغداديتان على معلومات

---

(٢٧) راجع : «ايام من ثورة العشرين في بغداد» ، ترجمة واعداد الدكتور صالح جواد الكاظم ، ـ «العراق» ، بغداد ، ٢٩ حزيران ١٩٧٨ •

(٢٨) كان حاكم المدينة السياسي الميجرسون يشرف بنفسه على اصدار « بيشكەوتن » ويحرر قسما من مقالاتها باللغة الكردية• وقد صدر العدد الاول من هذه الجريدة في ٢٩ نيسان ١٩٢٠ •

ضرورية ورد معظمها ضمن البلاغات الرسمية التي أصدرتها سلطة الاحتلال بخصوص العديد من الاحداث المهمة التي شهدتها المنطقة في تلك المرحلة • وقد عالج العديد من المستشرقين السوفيت موضوع «ثورة العشرين» ، مؤكدين بشكل خاص ، وبالاستناد الى مصادر مختلفة ، على العوامل التي حركتها وتناسب القوى الطبقية فيها وعوامل فشلها في تحقيق جميع أهدافها مع ابراز طابعها التحرري واهميتها التأريخية (٢٩) • وقد تطرق عدد من هؤلاء ، ولاسيما الدكتور ل• ن• كاتلوف في بحثين له (٣٠) ، الى موقع الكرد في الثورة ، وبشكل خاص في المقدمات التي هيأت الطريق لانفجارها •

قبل أن آتي على نهاية هذه المقدمة أود أن اشير الى انني أبقيت النصوص المنقولة من جرائد الثورة ومن البلاغات الرسمية المنشورة في جريدتي «العرب» و «العراق» على وضعها الاصلي ، اسلوبا ومضمونا ، حسب ما تقتضي الامانة العلمية •

---

(٢٩) من الجدير بالذكر ان المستشرق السوفيتي كوركو كرياجين انجز اول دراسة علمية عن «ثورة العشرين» (راجع : ف• ا• كوركو كرياجين ، حركة التحرر الوطني في المشرق العربي • بلاد مابين النهرين ، ـ « المشرق الجديد ، الكتاب الثاني ، موسكو ، ١٩٢٢) •

(٣٠) راجع : ل• ن• كاتلوف ، النضال التحرري الوطني للشعب العراقي قبيل انتفاضة ١٩٢٠ • راجع كذلك الهامش رقم ١٠ •

وفي الختام أقدم جزيل شكري للزميلة عاليـة سوسة وللاستاذ نجدة فتحي صفوت لما قدما لي من وثائق لها علاقـة بالموضـوع ، وللاستاذ نريمان مصطفى لما قدم لي من معلومات نادرة عن أحداث منطقة كفري جمعها خصيصا من والده وأقربائه ومعارفه ممن عاصروا تلك الاحداث او اشتركوا فيها فعلا (٣١) ، ولاخي الاستاذ محمـد الملا عبدالكريم المدرس لما بذل من جهود في مراجعته الكتاب وتصحيحه واخراجه في صورته الراهنـة ، وللعاملين في مكتبـة المجمع العلمي العراقي ، ولاسيما مديرها الاخ صباح ياسين نوح والاخ وليدالاعظمي لما قدما من تسهيلات ومساعدات قيمـة ، ولـلاخ كامـل منصـور وعمال مطبعـة الحـوادث ، لما بذلوا من جهود لطبع الكتاب . كمـا أشكر من صميم قلبي تلميذي المجد رجـاء أحمد بهيش الزبيدي الذي انجز باخلاص ودقة جديرة بالتقدير ماكلفته به من اجـراء اتصال مكثف بابناء فئات اجتماعية مختلفة من الجيل المعاصر لـ «ثورة العشرين» في احدى أهم بؤرها .

وأخيرا ارجو أن أكون قد وفقت في القاء بعض الضوء عـلى صفحة اخرى من صفحات «ثورة العشرين» المشرقة ومعها جـانب من تأريخ الشعب الكردي المعاصر ، الموضوع الذي أكد العديد مـن

---

(٣١) ينوي الاخ نريمان اعداد بحث مستقل حول هذا الموضوع ، وهو أمر ضروري من شأنه القاء أضواء جديدة على الاحـداث الثورية التي شهدتها منطقة كفري في العام ١٩٢٠ .

المثقفين العرب على أهميته وضرورة بحثه (٣٢) ٠

(٣٢) راجع التقريض الذي نشره الدكتور جليل كمال‌الدين عن كتاب «ثورة العشرين في الاستشراق السوفيتي » في مجلة «صوت الاتحاد [لسان اتحاد الادباء التركمان] » ، بغداد ، العدد ٢٠ ، ١٩٧٨ ، ص ١٤ ٠ وقد اكد اخوان اخرون على ضرورة البحث في هذا الموضوع منهم الاستاذ عبدالرزاق الحسني والدكتور عبدالقادر احمد اليوسف والدكتور هاشم صالح التكريتي والدكتور صالح جواد الكاظم ٠ وقد ترك الدكتور الوردي أمر دراسة احداث كردستان العاصفة في تلك المرحلة الى اخوانه «الباحثين الاكراد» (راجع : الدكتور علي الوردي، المصدر السابق ، الجزء الخامس ، القسم الثاني ، ص ٦٥) ٠

الفصل الأول

« ثورة العشرين » ـ عوامل ومقدمات

كانت «ثورة العشرين» ، كأي حدث تاريخي معاصر كبير ، نتيجة منطقية لتفاعل عدد كبير من عوامل داخلية اساسية وخارجية مساعدة دفعت التناقض بين الشعب العراقي والمحتل البريطاني الى طور الانفجار الذي توفرت أسبابه (١) • والعوامل الداخلية التي نحن بصددها كانت سياسية واقتصادية واجتماعية نجمت عن التغيرات الكبيرة التي طرأت عليها مع استكمال الاحتلال البريطاني للعراق • فان الوعي السياسي لدى طبقات وفئات اجتماعية عراقية معينة قد بلغت قبل الحرب العالمية الاولى مستوى التقيم الصحيح لمفهوم الاستقلال ، مما انعكس في النشاطات السياسية التي بدأت تتبلور

---

(١) التناقض بين الشعب والمحتل من الامور الحتمية ، الا انه لايؤدي ، بالضرورة ، الى الانفجار دائما ، ذلك لان كل فورة سياسية تحتاج ، كظواهر الطبيعة نفسها ، الى توفر شروط محددة تحول التراكمات الكمية الى تغيير نوعي •

بشكل ملموس في عصر نهوض آسيا ، ولاسيما مع انتصار ثورة الاتحاديين في العام ١٩٠٨ • فقد اشترك عدد غير قليل من العراقيين بحماس في تاسيس الجمعيات والمنظمات والمؤتمرات السياسية والادبية في الخارج ، بل ان بعض المثقفين العراقيين المقيمين في استانبول هم الذين بادروا الى تأسيس عدد من الجمعيات التي ظهرت قبل الحرب (٢) • وقد ربط الوطنيون العراقيون ، مثل غيرهم ، تحقيق الاستقلال بانهيار الامبراطورية العثمانية ، وهو أمر غذاه الحلفاء بشكل ذكي ، لاسيما من خلال عهودهم ووعودهم الكثيرة فيما يخص مستقبل المنطقة • ولكن سرعان ما انكشفت النوايا الحقيقية ، وتبين ان الذين حلوا محل العثمانيين هم أشد مكرا واكثر تمسكا بأرض الآخرين وثرواتهم ، مما أقنع الوطنيين بأن لابديل عن النضال من أجل الاستقلال بعد ان بدأت «مخالب الانكليز» تنشب «في جسم الامة العراقية الحية » حسب تعبير «الاستقلال» احدى جريدتي الثورة (٣) التي زينت صدر الصفحة الاولى من عددها الاول حتى آخر عدد صدر منها بشعار أن «لاحياة بلا استقلال» لانها ادركت ان «الاستقلال والحرية» هما «اساس النجاح وقاعدة عمران

---

(٢) مثل داود الدبوني الموصلي الذي اسس في استانبول جمعيتي «العلم الاخضر» و «اليد السوداء» •

(٣) « الاستقلال » ، النجف ، العدد السابع ، ٢٩ محرم ١٣٣٩ ، ١٢ تشرين الاول ١٩٢٠ • (في الهوامش القادمة نشير الى مكان صدور الجريدة ، مدينة النجف ، وذلك لتفادي الالتباس بين هذه الجريدة و «الاستقلال» البغدادية) •

البلاد» (٤) • وقد جاء التعبير أبلغ حتى من ذلك على لسان «الفرات» جريدة الثورة الاخرى ، التي كتبت تقول :

« وقد نفد صبر الامة مما تلاقيه كل يوم من جور حكام الاحتلال ، ولاسيما في هذه الايام التي ضج فيها العراق وملأ دوي احتجاجاته الآفاق تحقيقا لمبدأ (تقرير المصير) وتأييدا للاستقلال التام » ، ذلك لانه « أدرك العراقيون أن المطالبات القانونية والمظاهرات السلمية لاتجدي نفعا ولا تسترجع حقا ، ولاسيما ان صدى الاحتجاج العادل لاينعكس الى الاندية السياسية في العالم لاستئثار الانكليز بكافة أدوات الوصل في البلاد » (٥) •

ومع ان الجيش الرئيس للثورة لم يبلغ من الوعي مستوى يقيم كل ، أو معظم أفراده مفهوم الاستقلال كما يجب ، الا انه لم يصعب عليه فهم ضرورة التغيير السياسي (٦) ، أو على الاقل ازاحة كابوس الاحتلال الذي جلب له ظروفا اقتصادية اسوأ من السابق (٧) • أما

---

(٤) ورد ذلك في افتتاحية العدد الخامس من الجريدة («الاستقلال» ، النجف ، ٢٥ محرم ١٣٣٩ ، ٨ تشرين الاول ١٩٢٠)

(٥) «الفرات» ، النجف ، العدد الثاني ، ٢٨ ذي القعدة ١٣٣٨ (١٤ اب ١٩٢٠) •

(٦) انعكس ذلك بشكل او باخر في اهزوجات الشعراء الشعبيين كما نبين ذلك ضمن خاتمة هذا الكتاب •

(٧) لعبت نتائج الحرب العالمية الاولى دورا أساسيا في تعقيد الوضع الاقتصادي العام في البلاد وفي تجسيد الاثار السلبية لسياسة الانكليز في هذا الميدان •

الفئات الاجتماعية الاخرى التي جعلت من الاستقلال شعارها الرئيس للنضال أيام الثورة فقد ادركت ضرورة تعميم هذا المطلب السياسي الملح بشكل يمتد مفعوله الى الجميع . وفي ما يلي نص ما جاء في احد مناشير الثورة بهذا الصدد :

« ان الوطن الذي الزم كل فرد منكم بالدفاع عنه يلزمكم ايضا بان تراعوا الشروط التالية :

١- يجب على كل رئيس قبيلة ان يفهم كافة أفرادها ان المقصود من هذه الثورة انما هو طلب الاستقلال التام ،

٢- ان يهتف للاستقلال كل في ميادين القتال » (٨) .

هذه المسألة كانت عامة بالنسبة للجميع . فان الاكراد لم يعانوا بدورهم القليل من عهود ومواثيق المسؤولين الانكليز ، وغيرهم ، منذ أن دخلت القوات البريطانية المناطق الكردية في السنة الاخيرة من الحرب . فان تلك العهود ، كما يقول المؤرخ البريطاني المعروف آرنولد توينبي ، ما كانت تخص الاكراد أقل من غيرهم (٩) .

لم يلعب العامل الاقتصادي دورا قليلا في اثارة حفيظة الشعب

---

(٨) نص المنشور راجع : عبدالرزاق الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ٢١٥ - ٢١٦ . وقد ورد فيه مايبرز وجها مشرقا من وجوه «ثورة العشرين» .

(٩) راجع :
((Survey of International Affairs, 1934)), London, 1935, P. 123.

العراقي ، ولاسيما طبقاته المسحوقة ، ضد الانكليز • وهو أمر لم يوله معظم الباحثين عن «ثورة العشرين» ما يستحق من اهتمام ، بل تبدو المغالطات واضحة في دراسة بعضهم لهذه النقطة الحساسة•وكما لايخفى فان للعامل الاقتصادي تأثيره في كل تحرك جماهيري من النوع الذي حدث في العراق عام ١٩٢٠ ، وذلك بغض النظر عن التعبير الظاهري لهذا العامل على شكل مطاليب وشعارات أو عدمه • فمن قوانين الحياة نفسها انالوضع الاقتصاديالسيء يخلقلدىالفرد وضعا نفسيا يجعله اكثر استعدادا للتضحية ولتقبل افكار المعارضة والاشتراك في الاعمال التي تعبر عن الاستياء العام ، والعكس صحيح مطلقا • ومن هذه الزاوية يجب تقييم دور العامل الاقتصادي في « ثورة العشرين » •

تشير جميع المصادر والوثائق والتقارير الرسمية ، وغير الرسمية ، الى حقائق توضح مدى تردي الوضع الاقتصادي في العراق خلال سنوات الحرب العالمية الاولى وبعدها مباشرة • ولايقع وزر كل ذلك على الانكليز بالطبع ، الا أن الناس لايلقون تبعة سوء وضعهم الاقتصادي ، عادة ، الا على السلطة القائمة فعلا • ثم ان المحتلين انفسهم قد تبنوا سياسة اقتصادية مجحفة لم تنجم عن طبيعتهم الاستغلالية حسب ، بل وايضا عن التردي الفظيع الذي انتاب الحياة العامة ، لاسيما الاقتصاد البريطاني ، من جراء الحرب • فقد كلفت الحرب العالمية الاولى انكلترا (بدون الهند) حياة حوالي ٧٥٠ ألف

شخص وجرح حوالي ١ر٧ مليون (١٠) أصيب معظمهم بعاهات جعلتهم عالة على المجتمع • وان هؤلاء كانوا يشكلون قسما أساسيا من خيرة قوى البلاد الانتاجية على أساس أن الجانب الاكبر ممن نزلوا الى سوح القتال كانوا في أوج شبابهم • وحسبما يبدو فان خسارة انكترا لهذا الصنف من العمر كانت اكبر حتى من المانيا (١١) • فبموجب معطيات ونستون جرجل ان خسائر الانكليز من الضباط في الحرب الاولى بلغت ١١٥ر٤٧١ شخصا يقابلهم ٤٧ر٢٥٦ ضابطا المانيا ، أما خسائر المراتب الادنى فقد بلغت ٢ر٣٢٥ر٩٣٢ شخصا من الانكليز يقابلهم ١ر٦٣٣ر١٤٠ من الالمان • بمعنى ان الانكليز خسروا مقابل كل ضابطين المانيين خمسة من ضباطهم ، ومقابل كل المانيين من المراتب الادنى فقدوا ثلاثة اشخاص (١٢) •

اما من الناحية المادية الصرفة فقد كلفت الحرب انكلترا ما لا يقل عن ثلث ثروتها القومية • فهي خسرت ما مجموعه ٥ر٨ مليار

---

(١٠) للتفصيل راجع :
C. F. Cruttwell, A history of the Great War 1914—1918, Oxford, 1969, P. 630.

(١١) لايقصد بذلك مجموع الخسارة العامة التي بلغت بالنسبة لالمانيا ١ر٨٠٨ر٥٤٥ قتيلا و ٤ر٢٤٧ر١٤٣ جريحا (راجع :
C. F. Cruttwell, Op. Cit., P. 631).

(١٢)
W. S. Churchill, The Great War, Vol. III, London, PP. 1253—1255.

جنيه استرليني (١٣) ، مما يزيد على خسارة فرنسا المادية بمقدار ٧٠٪ • وقد تقلص الانتاج الصناعي البريطاني في ١٩١٤ - ١٩١٨ بمقدار الخمس • اما القروض المترتبة على الدولة فانها بلغت في العام ١٩١٩ حـوالي ٧٨٢٩ مليـون جنيه استرليني مقـابل ٦٥٠ مليون فقط في العام ١٩١٤ • ومن الجدير بالذكر ان نصيب الولايـات المتحدة وحدها من هذا القرض قد بلغ ٨٥٠ مليون جنيه استرليني بعد ان كانت في يوم من الايام هي التي تستقرض من انكلترا • وفي الوقت نفسه ، ومن جراء كل ما سبق تقلصت صادرات البلاد ، عصب حياتها الاقتصادية ، بشكل خطير ، بحيث انها لم تبلغ فـي العام ١٩١٩ اكثر من ٤٥٪ من صادراتها قبل الحرب (١٤) •

في مثل هذه الظروف حاول المستعمرون الانكليز جني اكبر الارباح الممكنة من الاقطار التي فرضـوا عليها سـيطرتهم بالقـوة ، وصرف أقل ما يمكن على اجهزة ادارتهم وقواتهم الموجودة في تلك

---

(١٣) تقدر اضرار الحرب بالنسبة لجميع البلدان بحوالي ٣٣٨ مليار دولار (راجع :
W. Z. Foster, Outline Political history of the Americas, New York, 1951 (the Russian ed., M., 1953), P. 497.

(١٤) راجع :
ب• ف• كورفيج ، انكلترا ، «تاريخ العالم» ، باللغة الروسية، الجزء الثامن ، موسكو ، ١٩٦١ ، ص ٣٠٢-٣٠٣ ؛
مجموعة مؤلفين ، بريطانيا العظـمى ، - «الانسكلوبيديـا التاريخية السوفيتية » ، الجزء الثالث ، موسكو ، ١٩٦٣ ، ص ١٩٨-١٩٩ •

الاقطار لعجز دافع الضريبة البريطاني عن تحمل عبء اكبر مما كان يتحمل ، فقد بلغ استياؤه حد خلق جو سياسي متوتر في الداخل • وفي ضوء هذا الواقع تصرف المحتلون في العراق ، بان حاولوا القاء ثقل مصروفات ادارة الاحتلال وقواتهم الكبيرة على العراقيين، فلجأوا الى شتى الوسائل واغربها بهدف ضمان اكبر قدر من المدخولات لميزانية السلطة المحتلة • فحسب المعلومات الواردة في الوثائق البريطانية الرسمية ارتفعت الضرائب المباشرة في المناطق المحتلة ، في العام ١٩١٨ - ١٩١٩ ، بمقدار ١ - ٦٥ر١ مرة قياسا الى ما كانت عليه في العام ١٩١١ - ١٩١٢ • وارتفعت في السنة المالية التالية (١٩١٩ - ١٩٢٠) بمقدار اكثر من مرتين (١٥) • وتتجسد هذه الصورة اكثر اذا علمنا ان واردات الادارة المدنية البريطانية في العراق خلال ١٩١٧-١٩١٨ بلغت ٥ر١٥٢ لك (١٦) روبية جاء

---

(١٥) للتفصيل راجع :
((Civil Commissioner of Mesopotamia. Review of the Civil Administration of Mesopotamia presented to both Houses of Parliament by Command of His Majesty)), London, 1920, P. 118;
ل٠ن٠ كاتلوف ، انتفاضة ١٩٢٠ الوطنية التحررية ، ص٦٩ ، الدكتور محمد سلمان حسن ، طلائع الثورة العراقية • العامل الاقتصادي في الثورة العراقية الاولى ، الطبعة الثانية ، بغداد ، ١٩٥٨ ، ص ٢١ • (حسب المعلومات الواردة في الكتاب الاخير بلغ مجموع الدخل الحكومي الزراعي في العهد العثماني حوالي ٦٩٠ الف دينار سنويا ارتفع الى مليون و ٣٠٠ الف في العام ١٩١٩) •

(١٦) « لك » كلمة فارسية أو هندية الاصل تعني مئة الف• يعادل اللك الواحد مئة الف روبية أو ٧٤٤٨ جنيها استرلينيا •

اكثر من نصفها (٧٩٫٥ لك) من الضرائب الزراعية والبقية تقريبا (٦٧٫٥ لك) من الرسوم ، بينما أصبح الخط البياني للواردات نفسها في العام التالي على هذا النحو : بلغت الواردات ٢٩٣ لك جاء اكثر من ثلثيها (٢١٧٫٥ لك) من الضرائب الزراعية ، بينما انخفض المقدار النسبي والمطلق للرسوم المجباة بحيث بلغت هذه المرة ٦٥ لكا فقط ، علما بان انتاج الحبوب قد هبط في العام ١٩١٨ الى ربع ماكان عليه في العام ١٩١٣ (١٧) ٠ وتتجسد الصورة نفسها اكثر من خلال ما ذكره أحد الموظفين الاداريين البريطانيين الذي اعترف بان معدل ماكان يصيب الفرد العراقي من الضرائب المجباة بلغ ضعف ماكان يصيب الفرد في مقاطعة البنجاب الهندية التي مضت حوالي مئتي عام على الوجود البريطاني فيها ٠ والابلغ من ذلك مانشرته جريدة ال « ديلي ميل » في عز أيام الثورة بهذا الصدد ٠ فقد كتبت الصحيفة الانكليزية في عددها الصادر يوم ١٢ تموز ١٩٢٠ تقول ما نصه :

« كشفت ميزانية العراق للسنة ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ عن ضرائب بلغت خمسة ملايين ونصف المليون جنيه استرليني ، اي ما يعادل جنيهين للفرد الواحد من السكان ٠ وفي قطر شرقي تعتبر هذه الضرائب شيئا لم يسمع به تقريبا ٠ ففي بريطانيا العظمى ، التي كانت يوما ما غنية جدا ، كانت كل ضريبتنا قبل الحرب ثلاثة جنيهات

---

(١٧) الدكتور محمد سلمان حسن ، المصدر السابق ، ص١٤ ٠

ونصف الجنيه فقط للفرد الواحد ، (١٨) •

مما سبق لا يبدو غريبا ان المؤسسة الوحيدة التي ظلت تعمل ضمن الادارة المدنية البريطانية طيلـة سنوات الحـرب كانت ••• مديرية الواردات !! •

الى جانب هذه الامثلة العامة التي امتدت اثارها لتشمل جميع الفلاحين العراقيين ، فان بالامكان ايراد أمثلة خاصة عانت منهـا المنطقة الكردية وحدها ، او اكثر من غيرها ، وذلك بحكم الظروف الطبيعية التي تميزها عن بقية المناطق • فان الانكليز ، مثلا ، كانوا يفرضون على الأراضي الاميرية في بعض المناطق الكردية ضرائب تفوق بمقدار ١٦٪ الحد الاعلى المقـرر قانونـا بالنسبـة للمنـاطق المطرية (١٩) • وقد اتخذ هذا الموضوع بعدا أبعد بالنسبة لزراعة التبغ الـذي اولى الانكليز انتاجه اهتمامـا خاصا منـذ الايـام الاولى لاحتلالهم للمنطقة • فقد استقدموا الخبراء من الخـارج لدراسـة مشاكله وسـبل تطويره ، منهـم الخبـير الامريـكي شتراوس (H. P. Strause) الذي دعي الى العراق في مطلع العام ١٩٢٠ • كما اعدوا التقارير المفصلة للغرض نفسه ، ومن أجـل كل مايتعلـق بالضرائب المفروضة على انتاجه وتسويقه ، ودشنوا الخطوات الاولى

---

(١٨) راجع : الدكتور صالح جـواد الكاظم ، عن ثـورة العشرين وبعدها القومي ، ـ « العراق » ، ٣٠ حزيران ١٩٧٧ •

(١٩) راجع :

((Report by His Majesty's Government on the Administration of Iraq for the period April 1923 — December 1924)), London. 1925, P. 138

على طريق انحصاره (٢٠) مما أثار استياء كبيرا بين زراع التبغ فيما بعد • وقد تمخضت عن كل ذلك ضرائب جديدة لم يعهدها زراع التبغ من قبل ، فانهم أصبحوا ملزمين بعد الاحتلال بأن يدفعوا عن كل كيلوغرام من متوجهم ضريبة تزيد بمقدار ١٥ مرة عما كان يدفعه اسلافهم في العام ١٩١١ (ارتفعت هذه النسبة في بداية الثلاثينيات الى ١٥٠ مرة) (٢١) ،مما كان يشكل عبئا ثقيلا ، خاصة وان التبغ كان يشكل آنذاك دعامة الحياة الاقتصادية لمعظم المناطق الكردية •

وازداد الضغط بنفس المستوى تقريبا على أصحاب المواشي والحيوانات التي كانت تشكل بدورها دعامة اساسية لحياة الفلاح الكردي • وهنا ايضا لم يقتصر الامر على رفع الضرائب المفروضة على أصحاب الحيوانات بشكل ملموس حسب ، بل أن المسؤولين الانكليز قد اعدوا بعد الاحتلال مباشرة تقارير مفصلة عن دقائق كل مايتصل بالثروة الحيوانية للمنطقة ، لغاية تسجيل كل مايمتلكه الفرد

---

(٢٠) للتفصيل حول الموضوع راجع : المركز الوطني للوثائق (في الهوامش القادمة م• و• و•) ، الملف رقم ١/١٨ (التبوغ في الموصل ، كركوك والسليمانية) ، ١٩١٨ ـ ١٩١٩ ؛ الملف رقم ١٠١٢ للعام ١٩٢٠ (التبوغ) •

(٢١)

((Report by His Majesty's Government on the administration of Iraq for the period April 1923 — December 1924)), P. 110; ((The Iraqi Directory. A general and commercial Directory of Iraq, 1936)), Baghdad, 1936, P. 225.

في بعض المناطق (٢٢) • ومن يرجع الى التقارير والمراسلات الرسمية التي تعود الى تلك الفترة ير كيف انالانكليز بدأوا بدراسة كل مايتعلق بمختلف منتوجات البلاد ، استخداماتها ، شبيهها في الخارج، كمية المنتوج منها سنويا ، صادرات الهند او وارداتها منها وماشابه تلك من مواضيع(٢٣)• ولم يعكس ذلك الواقع الحضاري للمحتل الجديد بقدر ماكان يعكس اهتمامه لضمان الموارد الضرورية لادامة ادارته واعماله في البلاد ، مما وقع ثقله على الفئات الاجتماعية الكادحة من الشعب العراقي •

ومما كان يزيد من ثقل الضرائب على الناس ان بعض حكام المناطق الكردية كانوا يضعون بأنفسهم تعليمات خاصة بقصد رفع واردات الخزينة • ففي السليمانية ، مثلا ، أصدر الميجر سون لائحة خاصة مؤلفة من ٢٣ بندا نشرت على شكل ملحق مستقل للعدد الثامن من جريدة «پيشكەوتن» (٢٤) • وقد نص قسم من مواد هذه اللائحة

---

(٢٢) راجع مثلا: م• و• و• ، رقم الملف ١٢/٨ (١٩١٨ ـ ١٩١٩)؛
51/3, P. II, 1919 (Plough Cattle — Sulaimaniyah, Kirkuk and Mosul).

(٢٣) راجع مثلا: م• و• و• ، رقم الملف
168/58 (Agriculture in Erbil, 1919) ; 168/57 (Irrigation Schemes for Kurdistan, 1919); 21/D (Agriculture — Arbil Division, 1920).
ومن الطريف ان نذكر ان الملف الاخير مخصص لموضوع انتاج (السماق) في المنطقة الجبلية •

(٢٤) « بيشكەوتن » ، ١٧ حزيران ١٩٢٠ •

على أن يكون بعض الضرائب الزراعية نقدية ، ونصت مواد أخرى منها على ان تكون الضريبة المفروضة على المنتوج في الاراضي الاميرية والسنية ٤٠ ٪ ، مما كان يشكل نسبة عالية للغايه (البندان ٦ و ٧) . وبموجب البند العاشر الزم اصحاب الاشجار بدفع روپية واحدة عن كل شجرة تبلغ ٥ سنوات من العمر ، وحوالي ١٫٥ روپية عن الشجرة التي عمرها سبع سنوات أو اكثر . وقد كانت هذه النسبة أعلى بكثير مما فرض على اشجار النخيل في الوسط والجنوب . وقد تضمنت اللائحة نفسها بنودا جعلت من التهرب عن دفع الضريبة أمرا صعبا للغاية ، واخرى نظمت أمور تخمين الحاصل بشكل دقيق لم تر المنطقة لها مثيلا في السابق (البنود ١١-٢٣) . وبهذا الاسلوب تمكن سون من ضمان اكتفاء ذاتي لمنطقة السليمانية التي لم تكلف خزينة سلطات الاحتلال في عام الثورة فلسا واحدا ، مع انه صرف على الامور العسكرية والبوليس وبناء الطرق والجسور الضرورية للعمليات العسكرية حوالي ٢ مليون روپية ، فقد بلغت واردات المنطقة في السنة المذكورة ٣٫١٧٨٫٩٨٠ روپية وشكلت مصروفاتها المبلغ نفسه(٢٥) .

كان على الفلاح العراقي ان يؤدي للمحتلين الانكليز ما يؤديه للعثمانيين من أعمال سخرة او اعمال الزامية لقاء اجر قليل ، مما كان يعني ابعاد الوف مؤلفة من الفلاحين وغيرهم من اعمالهم الاصلية . وباعتراف المسؤولين البريطانيين انفسهم لم تعدم حالات كانوا يلجأون

---

(٢٥) راجع التقرير الخاص بواردات ومصروفات السليمانية في « بيشكه‌وتن » ، ٢٣ كانون الاول ١٩٢٠ .

فيها الى استخدام القوة لجمع الناس من المناطق النائية بسبب حاجتهم الى الايدي العاملة لانجاز مشاريعهم العسكرية وغيرها والتي مس قسم منها مصالح المنتجين الزراعيين مباشرة. فحسب مايشير التقرير الخاص الذي رفع الى مجلس العموم واللوردات عن سير الادارة في العراق ، انجزت السلطات البريطانية في منطقتي سوق الشيوخ والعمارة مشاريع لرفع مستوى المياه في نهر دجلة وهور الحمار بقصد تسهيل الملاحة امام السفن التي كانت تزود قوات الاحتلال بالمؤن والذخيرة مما أدى - باعتراف التقرير نفسه - الى قطع المياه عن حقول الرز العائدة للعديد من العشائر المحلية في حوض دجلة (٢٦) .

لم يقتصر ثقل الضرائب الجديدة على الفلاح والريف . فان السلطات البريطانية لم تتردد في فرض الرسوم حتى « على جثث الموتى » ، والتي وضعها حاكم النجف لكونها مربحة ، اذ بلغت وارداتها في العام ١٩١٨ حوالي ٤٨ ألف روبية كان من المقرر ان ترتفع خلال عام واحد الى حوالي ١ر٢ مليون روبية (٢٧) .

بالامكان ايراد أمثلة اخرى كثيرة تبين الواقع الضريبي المجحف الذي رافق الاحتلال البريطاني للعراق والذي أثار استياء مشروعا لدى فئات اجتماعية مختلفة . وليس عبثا ان معظم الذين استجوبوا في

---

(٢٦) راجع : ل. ن. كاتلوف ، انتفاضة ١٩٢٠ الوطنية - التحررية، ص ٦٧ - ٧٠ .

(٢٧) للتفصيل راجع : الدكتور عبدالله الفياض ، المصدر السابق، ص ١٧٤ - ١٧٥ ، ٢٢٢ .

السماوة يتذكرون جيـدا بأن الانـكليز كانـوا يأخذون عن النخلة الواحدة ما يعادل ١٦ فلسا ، بينما كان العثمانيون يأخذون عن الشجرة نفسها ٦ فلوس فقط (٢٨) • ومما كان يزيـد مـن ثقـل الضرائب بالقياس مع ماكان سائدا في العهد العثماني السياسة المركزية التي اتبعها الانكليز في جمعها ، بحيث قلت بشكل ملموس فرص التهرب عـن الدفع اوالتحايل أثناء التخمين الذي كان يجري قبل الدراسة عادة • فاذا كان ٢ الى ٤ من الضبطية الذين كانوا دوما « في فقر وضيق » والذين «لم يتناول أحدهم بالسنة اكثر من راتب شهرين أو ثلاثة اشهر » يزاولون جمع الضرائب في معظم المناطق الكردية التي كانت تهرب أصلا عن دفع ما يترتب عليها او تكتفي بجزء قليل منه (٢٩) ، فان الانكليز، باعتراف احدى مجلاتهم، بدأوا يستعينون حتى بالطائرات لتحقيق نفس الهدف (٣٠) • ويتذكر معظم الذيـن استجوبـوا في

---

(٢٨) رجاء أحمد . بحث ميداني عن «ثورة العشرين» • ذكر الفلاح طاهر لبد بدير ، البالغ من العمر حوالي ٨٥ عاما ، ان الانكليز فرضوا الضريبة على كل شيء ، « حتى على حلانة التمر الموجودة بالشارع » وعلى « التخت الموجود أمام المقهى » • ولا يخلو من معنى ان رؤساء العشائر الكردية كانوا يؤكدون في مراسلاتهم الخاصة مع الانكليز بعـد الاحتـلال عـلى موضوع الضرائب وضرورة تنظيمها (راجع مثلا : F. O: 371 / 5069) .

(٢٩) صديق الدملوجي ، امارة بهدينان الكردية أو امارة العمادية ، موصل ، ١٩٥٢ ، ص٨١ ، ١٤٩ ـ ١٥٠ •

(٣٠)
((The Near East and India)), November 23, 1922, PP. 149—150.

السماوة كيف ان الانكليز استخدموا اليهود لتخمين الضرائب ، وكيف ان هؤلاء كانوا يؤدون مهمتهم بدقة لا متناهية ، بل ان بعضهم لم ينس حتى اليوم اسم « ساسون افندي » الذي كان يحسب حساب الحبة الواحدة • كما يتذكرون جيدا ان التهرب من دفع الضريبة كان يكلف المتهرب اكساءه ملابس حمراء والطواف به في سوق المدينة اهانة له وعبرة للاخرين (٣١) •

ومن المهم ان نشير بهذا الصدد الى انه تتوفر بين وثائق الثورة نفسها ما يؤكد صراحة التأثير المباشر للعامل الاقتصادي ، ولا سيما سياسة المحتلين الضريبية ، في اثارة حفيظة الناس• فقد كتبت جريدة « الفرات » في عددها الخامس ، وهي تخاطب الحاكم المدني العام ، ما نصه :

« لقد هدمتم هذا الركن بمقالع من السياسة التي اهلكت الحرث والنسل وأتت على الاخضر واليابس ، فتراب كل منطقة يشهد بانكم سلبتم الحب حتى من منقار الطائر ، واستخرجتم المخ من العظم ، وضاعفتم الخراج أضعافا للزراع فأصبحوا يسألون الناس الحافا وانتم تسألونهم فوق الجهد وتكلفون نفوسهم فوق الوسع ، أهذا

---

(٣١) رجاء احمد ، بحث ميداني عن « ثورة العشرين » •

(٣٢) « الفرات » ، العدد الخامس ، ٢ محرم ١٣٣٩ (١٥ أيلول ١٩٢٠) •

عدلكم ؟ » (٣٢) •

وجه الاندماج بالسوق الرأسمالية العالمية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ضربة مميتة الى الانتاج الحرفي في كل البلاد والذي لم يتوقف بسبب ذلك عند حد عدم استطاعة الانتقال الى مرحلة أعلى حسب ، بل اخذ يتقلص بسرعة كبيرة ايضا • وبفضل الاحتلال زالت نهائيا العوائق الجزئية السابقة امام الربط النهائي لاقتصاديات العراق بعجلة العالم الرسمالي ، مما تحول ، مع سياسة الانكليز الضريبية ، الى القشة الاخيرة التي قصمت ظهر هذا الفرع الاساس من حياة البلاد الاقتصادية • ولم تختلف المنطقة الكردية في ذلك عن بقية المناطق الا في بعض التفاصيل الجزئية • فاذا انخفض عدد أنوال النسيج في بغداد خلال نصف قرن من ١٢ ألف الى مئات قليلة فقط ، فمن المائة والخمسين من محلات تصليح الاسلحة وتعبئة الخراطيش التي شاهدها مارك سايكس عام ١٩٠٢ في مدينة السليمانية (٣٣) لم يبق فيها بعد الحرب سوى محل أو محلين فقط سرعان ما اختفيا بدورهما •

لم تقتصر مظاهر تردي الوضع الاقتصادي في العراق بعد الاحتلال على ما سبق ذكره • فان الانتاج الزراعي قد انخفض من

---

(٣٣) راجع :
C. J. Edmonds, Kurds, Turks and Arabs. Politics travel and research in North—Eastern Iraq, London, 1957, P. 80.

جراء العمليات الحربية وتجنيد الفلاحين وهلاك عدد كبير من قوى الانتاج ووسائله ، بما في ذلك المواشي ، الى ربع ماكان عليه عشية الحرب ، ولم يستعد مستواه السابق الا في أواسط العشرينيات . وقد ادى ذلك ، مع مجموعة عوامل اخرى سبقت الاشارة الى قسم كبير منها ، الى حدوث ارتفاع كبير في اسعار الحاجيات الضرورية . فقد ارتفعت اسعار الحبوب بمقدار ١٫٥ الى ٢٫٥ مرة والشاي بمقدار ٣ مرات والسكر بمقدار ٥ مرات . وكان معظم هذه الحاجيات توزع بواسطة البطاقات وبكميات قليلة للغاية (٣٤) . وارتفعت اسعار بعض الحاجيات المتوفرة ، مثل الاسماك ، بمقدار ٤ مرات ، مما اعتبره الناس « مضرا الى اهالي البلد والفقراء » حسبما ورد في عريضة بعض السماكين الى المسؤولين الانكليز (٣٥) . وقد انعكس جوع الناس في اهزوجات تلك الايام .

وكان من الطبيعي أن تعاني المناطق الكردية من آثار كل ذلك بقوة ، ولاسيما ان اكثريتها فقدت جراء الحرب ما لايقل عن ثلثي سكانها (٣٦) والجانب الاكبر من دورها ومبانيها . فعلى سبيل المثال

---

(٣٤) راجع : الدكتور محمد سلمان حسن ، المصدر السابق ، ص ١٥ ؛ علي آل بازركان ، المصدر السابق ، ص ١٥ .

(٣٥) م. و. و. ، رقم الملف
125/514 (Fish Tax, 1915—1918)

(٣٦) راجع :
A. T. Wilson, Loyalities Mesopotamia 1914—1917. A personal and historical record, London, 1930, P. 226; C. J. Edmonds. Op. Cit., P. 81;

=

بلغ الخراب في السليمانية حد ان تقريرا رسميا بريطانيا يحمل تاريخ ١٦ آذار ١٩١٩ اقترح ترك المدينة نهائيا وبناء اخرى جديدة بالقرب منها • وقد عرض التقرير نفسه ما أصاب السليمانية بهذا الشكل :

	١٩١٣	١٩١٨	مازال من الوجود خلال الحرب
الجوامع	٢٩	١٠	١٩
التكايا	٣	–	٣
الخانقاهات	٢١	٢٠	١
الدور	٣ر٢٠٥	١ر٣٢٩	١ر٨١٣
الحوانيت	٧٦٠	٣٣٨	٤٢٢
المقاهي	٣١	١٥	١٦
الحمامات	١١	٦	٥
الطواحين المائية	٢٤	١٩	٥
البساتين	١٨	٥	١٣
الخانات	٢٠	١١	٩
الاسواق	٦	٢	٤
الدكاكين في هذه الاسواق	٣٩٩	١٣٤	٢٦٥ (٣٧)

=

م٠ س٠ لازاريف ، كردستان و المشكلة الكردية (من تسعينيات القرن التاسع عشر حتى العام ١٩١٧) ، موسكو ، ١٩٦٤ ، ص ٣١٤ ٠

(٣٧) م٠ و٠ و٠، الملف
25/01 (Sulaimaniyah — Municipality, 1920)

وقد جاء في احدى البرقيات المرسلة الى بغداد من السليمانية بعد دخول الانكليز فيها ان « ٨٠٪ من سكانها قد اختفوا وان معظم المدينة عبارة عن خرائب • اما الانتاج العام للمنطقة فقد انخفض في حدود ٨٠٪ ، اذ يباع طن القمح بـ ١٦٠٠ روبية والرز بـ ٢٤٠٠ روبية » (٣٨) •

ولم يقتصر الامر على مثل هذا الخراب الفظيع • فقد فقدت معظم المناطق الكردية جانبا كبيرا من دوابها ومواشيها ، كما تركت اكثر من ٥٠٪ من أراضيها الزراعية المستغلة قبل الحرب بورا مثل غيرها • وهذا يفسر لنا لماذا أن الغلاء لم يبلغ في أي جزء من العراق مستوى مابلغه في منطقة السليمانية باعتراف المصادر الرسمية نفسها (٣٩) •

وعلى الغرار نفسه تتوفر شواهد عديدة تبين التشابه القريب من المطلق بين الاوضاع الثقافية والاجتماعية في المنطقة الكردية وماكان سائدا في بقية انحاء البلاد في ظل الاحتلال • فقد شهدت تلك المنطقة لاول مرة السماح رسما لبعض الممارسات المنافية للقيم الروحية السائدة في العالم الاسلامي ، كمنح الاجازات لبيع الحشيشة علنا ، وتعاطي البغاء وما شابه ، مما أثار قطاعات واسعة من الناس بشكل ملموس• وقد

---

(٣٨) م٠ و٠ و٠ ، الملف
. 67/17 (Sulaimaniyah, Scarcity: 1918)

(٣٩) راجع : « العرب » ، ٣ ايار ١٩١٩ ٠

ذهب أحد المؤرخين الاكراد الى القول ان البادينى (٤٠) ظل «متمسكا بتقاليده السامية وعاداته العالية ، وسجاياه الحميدة الى أيام الاحتلال الانكليزي سنة ١٩١٨ ، حيث بدأت الرذائل والاخلاق الفاسدة تتسرب الى هذه البلاد شيئا فشيئا ، وتدب بين أهاليها تدريجيا ، لاسيما بعد أن دخل المسلمون البادينانيون الجيش الانكليزي الليفي (٤١) ...»(٤٢) ٠

تكررت في كردستان نفس صورة التعنت والتعالي للحكام والضباط السياسيين الانكليز الذين اثاروا بتصرفاتهم استياء مختلف الفئات الاجتماعية في الوسط والجنوب (٤٣) ٠ فاذا كان رجال حاكم النجف السياسي كرينهاوس (Greenhouse) يستعملون السوط حينما كان يمر لفتح الطريق أمامه ، فان زميله الميجر سون كان يعيد

---

(٤٠) نسبة الى سكان منطقة بادينان الممتدة الى الشمال من الموصل٠

(٤١) « الليفي » (Levy) اي المجندون ، قوة عسكرية شكلتها السلطات البريطانية لتحل محل قواتها العاملة في العراق وذلك بهدف تقليص مصروفاتها العسكرية في البلاد ٠ كان من المقرر ان يكون ضباطها من الانكليز وجنودها من السكان المحليين ٠

(٤٢) أنور المائي ، الاكراد في بهدينان ، الموصل ، ١٩٦٠ ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ ٠

(٤٣) لا يزال المسنون في العديد من المناطق يتذكرون جيدا ما اتبع المسؤولون الانكليز من أساليب فظة في تعاملهم مع الناس ٠ يقول الفلاح خفيف حلالي من الوركاء والبالغ من العمر حوالي ٩٠ عاما ، ان « الانكليز صاروا كالذئاب التي تنهش الناس لذنب ارتكبوه او بدون ذنب» (رجاء أحمد، بحث ميداني عن « ثورة العشرين ») ٠

الشيء نفسه بفظاظة أكبر في السليمانية ، ويفرض غرامات يومية على عدد من الناس البسطاء بحجج واهية ، بل كان يجبر الجميع على أن يرفعوا فروض الطاعة لاصغر موظف لديه . فكان مساعده عزيز خان الحاكم بأمره ، يتصرف كما يشاء بخشونة وتعال غدا حديث أهل المدينة (٤٤) ، كما كان يستغل منصبه لجني اكبر الارباح غير المشروعة الممكنة . ووصولا لهدفه ابتدع عزيز خان هذا اساليب لم يألفها سكان السليمانية ، من قبيل بيع حاجة ما بواسطة اليانصيب (٤٥) ليحصل عن طريقه على أضعاف ثمنها الحقيقي .

جعلت تصرفات الميجرسون ومساعده عزيز خان من مدينة السليمانية تغلي غيظا ، حسبما يروي رفيق حلمي في مذكراته (٤٦) . وقد اضطر العديد من الوطنيين الكرد الى ترك مناطقهم تحت ضغط

---

(٤٤) من الجدير بالذكر ان عزيز خان هذا كان اميا ، لايعرف القراءة والكتابة . عن تصرفاته وصداها بين الناس راجع : رفيق حلمي ، المصدر السابق ، الجزء الثاني ، بغداد ، ١٩٥٦ ، ص ١٠٧-١٠٨ .

(٤٥) راجع : «بيشكه‌وتن» ، ٦ ايار ١٩٢٠ .

(٤٦) رفيق حلمي ، المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص ١٠٧ - ١٠٩ . عن تصرفات الميجر سون راجع كذلك : « خه‌باتي كه‌لي كورد له يادداشته‌كاني (ئه‌حمه‌د ته‌قي)دا . لابه‌ره‌يه‌ك له شورشه‌كاني شيخ مه‌حمود وسمكو وهه‌ستانه‌كه‌ى ره‌واندز ، ريكخستن وئاماده كردنى بو جاب : جه‌لال ته‌قي ، به‌غدا ، ١٩٧٠ ، ل ٢٥ - ٢٦ ، ٣٤ - ٣٥ (نضال الشعب الكردي في مذكرات احمد تقي . صفحة من ثورات الشيخ محمود وسمكو وانتفاضة رواندوز ، اعداد جلال تقي ، بغداد ، ١٩٧٠ ، ص ٢٥ - ٢٦ ، ٣٤ - ٣٥) .

سون ، واللجوء الى مناطق اخرى ، منهم الوطني المعروف محمـــود جودت (٤٧) • ومن الطريف أن نشير هنا الى انه لم يمض وقـت طويل عندما الحق كرينهاوس نفسه بالميجر سون ليصبح مساعدا لـه في الادارة والفظاظة معا • وقد امتدت اثار الاخيرة لتشمل شـــخص الشيخ محمود (٤٨) • ولم تكن تصرفات الكابتن وايلي في العماديـة بأحسن من ذلك ، مما كان له وقع مشابه على سكان هذه المنطقة(٤٩)• وكما يروي معاصرو تلك المرحلة زاول جنود الليفي في منطقة بادينان صنوف المظالم باسم «الانتقام من البادينيين» مما ولد في نفوسهم « كثيرا من العداوة والكره والسخط » (٥٠) •

وقد ورد في تقرير لـ « جمعية العهد ـ فرع الموصل » رفعتـه في ١٤ اب ١٩١٩ الى المركز ، مايلي تعقيبا على الاعتداء الذي تعرض له احد الشيوخ النقشبنديين مع افراد اسرته : « نكتب اليكم هذا ونحن على أشد مانكون من القلق على هؤلاء الشيوخ ••• فلم يتورع الانكليز عن المضي في اذلال كل عزيز والتنكيل بكل رئيس لاينقاد اليهم انقيادا أعمى، أو لاينصاع الى أوامرهم كما يروق لهم ، وهم في الوقت نفسه

---

(٤٧) راجع : « نضال الشعب الكـردي في مـذكرات احمد تقي » ، ص ٤٨ •

(٤٨) نفس المصدر ، ص ١٥ •

(٤٩) راجع : عبد المنعم الغلامي ، ثورتنا في شمال العراق (١٣٣٧ ـ ١٣٣٨ هـ ، ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ م) ، الجزء الاول ، بغداد ، ١٩٦٦ ، ص ٤٢ •

(٥٠) راجع : انور المائي ، المصدر السابق ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ •

لايريدون أن يروا ذا نفوذ لايستطيعون استغلاله لمآربهم وان كان ذلك النفوذ معنويا أو روحيا، كما هو النفوذ الذي يتمتع به حضرة الشيخ بهاءالدين افندي النقشبندي » (٥١) •

ولم يمر اكثر من اسبوعين عندما أخبرت الجمعية مركزها بما يلي : « أوقف الانكليز قبل مدة سعيد اغا وابنه وبعض رفقائه فيأربيل لقتلهم شاويشا انكليزيا وجرح شرطيين أحدهما انكليزي والاخر عراقي مستخدم عند الانكليز واثنين من الدرك ، كما جرح بضعة أفراد من رجال سعيداغا ايضا وذلك بسبب الضرب والاهانة التي الحقها ذلك الجاويش بأبن سعيد اغا عندما كان جالسا في التياترو قبل وقوع الحادثة بيوم » (٥٢) •

وبامكان وثيقة اخرى تعود للجمعية نفسها اعطاء ابلغ صورة عن واقع تصرفات الحكام الانكليز مع الناس في المنطقة الكردية • جاء في الوثيقة المذكورة التي تحمل تاريخ ٨ تشرين الثاني ١٩١٩ مايلي نصا:

« لم تترك الحكومة الاحتلالية شيئا من انواع الشدة والقسوة الا واستعملته مع الاهلين ، وان ادنى خطأ يصدر من أحد الناس يكون جزاؤه الضرب على عجزه مجردا عن الثياب حتى ان الدم كثيرا ماكان

---

(٥١) راجع : «صدى الاحرار» ، الموصل ١٣ شباط ١٩٥٣ • نشر أحد معاصري تلك الفترة سلسلة مقالات مهمة في جريدة « صدى الاحرار » باسم مؤرخ ، يخص جانب كبير من المعلومات الواردة فيها احداث كردستان •

(٥٢) راجع : « صدى الاحرار » ، ٢٠ شباط ١٩٥٣ •

يتطاير من جسده وتبقى مواضع السياط قروحا لاتندمل مدة طويلة • أما الجزاء النقدي الذي قد شكل أعظم منبع لواردات حكومة الاحتلال فان المحكومين يعدونه نعمة كبرى ازاء العذاب الجسماني والحقارة التي توجه اليهم بتشغيلهم بالاشغال السافلة • ويا ليت جميع المجرمين في نظر الانكليز هم مجرمون حقا ! ، فكم من اناس ذاقوا عذاب السجن مدة طويلة من دون أن يوقف لهم على ذنب ولم تحكمهم محكمة • من ذلك سجنهم لثمانية عشر رجلا من الكويان (٥٣) من الذين لم يكن لهم علاقة بوقائع الجبال ، انما كانوا مقيمين في الموصل منذ مدة ويشتغلون بمهنة الحمالة ، ولم يطلق سراحهم الا بعد ان نقل الحاكم السياسي الكولونيل لجمن من الموصل الى منطقة الدليم وحل محله الكابتن بيل » (٥٤) •

والواقع ان مثل هذه التصرفات التي عانى منها الشمال مثل الوسط والاخير مثل الجنوب هي التي دفعت جريدة «الفرات» لتكتب عن الانكليز في افتتاحيتها « ضلال الانكليز ونظرة في مجلس المبعوثين » مثل الاقوال الجارحة التالية :

« شاهدنا قوما ليسوا من البشر افسدوا البلاد واضطهدوا العباد وسحقوا القوانين العامة وهتكوا حرمة الشرايع الموضوعة وهدموا دعائم

---

(٥٣) عشيرة كردية تقطن في شمال زاخو ، وهي اول جماعة حملت السلاح ضد الانكليز في كردستان كما نعود الى تفاصيله فيما بعد •

(٥٤) « صدى الاحرار » ، ٣ نيسان ١٩٥٤ •

النظام الاجتماعي الجديد ... قلب صفحات التاريخ القديم والحديث فلا تجد سوى الانكليز افسدوا النظام واسقطوا حقوق الانسان ، فلا حرية ولاطمأنينة ، ونزعوا الملكية وهي من حقوق الانسان المقدسة لانها من لوازم الحرية والمساواة ، نعم فهم كما اسقطوا حقوق الانسان المدنية اسقطوا حقوقه السياسية ، فعاد ولا حق له ، محروما من كل مميزاته ، محروما من عمومياته وذاتياته » . فان حكومة الاحتلال شاءت « ان ترينا كل يوم نوعا جديدا من الباطل » .

وبعد أن تستعرض الجريدة في مقال آخر تحت عنوان « مكر الانكليز في العراق » « جور الانكليز واعتسافهم » تقول : « هنا تظهر الحرية باجلى مظاهرها ، فسلام على القرون الوسطى والاجيال الفرعونية ، وصلوات على جنكيزخان وتيمور وامم الهون ! اللهم انك تعلم انهم أرق عاطفة وأحسن قلبا من قساة الانكليز وبرابرتهم»(٥٥).

وقد بينت «الفرات» قبل ذلك لماذا طفح الكيل ، وبلغ الاستياء مبلغه ، فقد « اشتد الظلم حتى بلغ منتهاه ونفد صبر الامة مما تلاقيه كل يوم من جور حكام الاحتلال » (٥٦) .

ولم يكن الوضع الثقافي البائس في المناطق الكردية سوى صورة مصغرة لما كان يسود بقية أرجاء البلاد . فان الانكليز خصصوا

---

(٥٥) «الفرات» ، العدد الرابع ، ١٣ ذي الحجة ١٣٣٨ (٢٨ اب ١٩٢٠) .

(٥٦) « الفرات » ، العدد الثاني ، ٢٨ ذي القعدة ١٣٣٨ (١٤ اب ١٩٢٠) .

لاحتياجات التعليم في كل العراق خلال السنة المالية ١٩١٩ - ١٩٢٠ مبلغا يعادل حوالي ٧٠ ألف ليرة تركية ، أي أقل من ضعف ماخصصه العثمانيون لولاية بغداد وحدها في العام ١٩١١ - ١٩١٢ ، مما أدى الى أن يتقلص عدد المدارس الرسمية والاهلية في البلاد الى نصف عددها في العام ١٩١٤ • لذا لاغرابة في أن سلطات الاحتلال اغلقت في مدينة الموصل مدرسة لاعداد المعلمين واخرى ثانوية ، مع عدد من المدارس الابتدائية تعود الى العهد العثماني (٥٧) بحجة « فقدان المعلمين القديرين » (٥٨) •

وبامكان بعض الامثلة المستقاة من المنطقة الكردية تجسيد هذا الواقع المزري بشكل معبر للغاية • فان الميجر سون كان يصرف على التعليم لكل منطقة السليمانية ومن وارداتها بالذات ٦٣ ألف روبية سنويا ، وهي أقل مما خصصه للقوات الخاصة والشرطة اللتين اسسهما بمقدار حوالي ٢٠ مرة (٥٩) ، ويعادل حوالي ٢٪ فقط من مجموع واردات المنطقة للعام ١٩٢٠ (٦٠) • لذا ليس من الغريب أبدا أن

---

(٥٧) راجع : «صدى الاحرار» ، ٣ نيسان ١٩٥٣ •

(٥٨) راجع : « العرب » ، ٣ ايار ١٩١٩ • اننا لا نقصد من هذه المقارنات القول بان وضع التعليم في العهد العثماني كان جيدا ، انما نريد ان نبين ان الوضع انتقل من سيء الى أسوأ ، على الاقل بعد الحرب مباشرة ، مما تحول الى عامل استياء ، وذلك بغض النظر عن أسبابه •

(٥٩) خصص سون لهما اكثر من مليون روبية •

(٦٠) راجع التقرير السنوي عن واردات السليمانية في « بيشكه‌وتن» ، ٢٣ كانون الاول ١٩٢٠ •

نلاحظ اللوحة «المعبرة» التالية : في العام ١٩١٥ شكل عدد الطلاب في مدينة السليمانية وحدها ١٠٪ من مجموع الطلبة في كل العراق ، بينما لم يبلغ مجموع طلبة المنطقة الكردية بأسرها عددا يشكل مثل هـذه النسبة بعد الاحتلال . فبعد الحرب فتح الانكليز مدرسة واحدة فقط في السليمانية ، وذلك في شباط ١٩١٩ (٦١) ، بينما بلغ عدد مدارسها الحكومية في أواخر العهد العثماني مدرستين ابتدائيتين ومدرسـة اعدادية واحدة مع « الرشدية العسكرية » ، بلغ مجموع طلابها ٣٣٠ طالبا يقوم بتدريسهم ٢٠ معلما (٦٢) . وقد تقلص عدد طلاب الدراسة المتوسطة في المدينة نفسها من ١٦٣ في العام ١٩١٤ الى ١٠ فقط فيأواخر العشرينيات . و «الابلغ» من ذلك ان مجموع عدد الطلاب في المدارس الكردية بلغ في ظل الانتداب ١٥٤٥ طالبا فقط يقابلهم ٦٣٠٠ طالب في المدارس المسيحية و ٨٤٠٠ طالب في المدارس اليهودية (٦٣) .

---

(٦١) راجع : « العراق » ، ٣ ايار ١٩١٩ .

(٦٢) راجع : محمد أمين زكي ، تأريخ السليمانية وانحائها ، ترجمة محمد جميل بندي الروزبياني ، بغداد ، ١٩٥١ ، ص٢١٠ .

(٦٣) جرى حساب هذه الارقام بالاستناد الى المعلومات الواردة في : عبد الرزاق الهلالي ، تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني، ١٦٣٨ ــ ١٩١٧ ، بغداد ، ١٩٥٩ ، ص ١٨١ ؛ محمد أمين زكي ، المصدر السابق ، ص ٢٠٥ ــ ٢١٠ ؛ « العالم العربي » بغداد ، ٢٠ كانون الثاني ١٩٣١ ؛ رفيق حامي ، مقالات ، بغداد ، ١٩٥٦ ، ص ٧١ ؛
((Special Report by His Majesty's Government in the United Kingdom of Great Britain and Northern Ireland to the Council of the League of Nations on
=

توجد مجموعة عوامل اخرى اسهمت بشكل جدي في تهيئة الظروف الموضوعية لانفجار «ثورة العشرين» ، والتي كانت ذات طابع عام من حيث تاثيرها على العراقيين • وياتي الشعور الديني على راس تلك العوامل قاطبة • بل ان دوره في اثارة الناس كان كبيرا الى حد دفع معظم المؤرخين العراقيين الى اعتباره العامل الاول في تاجيج نار التمرد ضد الاحتلال الاجنبي في نفوس الجماهير • وفي الواقع ان العديد من مسؤولي الانكليز اساءوا التصرف في تعاملهم مع رجال الدين ونظرتهم الى العتبات المقدسة في البلاد والتي امتدت ايديهم حتى الى مواردها المالية • ولقد ورد في تعليق لجريدة «الفرات» على موقف المحتلين من القضايا الدينية ما يلي :

« أي دولة حرة قبل انكلترا منعت انعقاد المواليد الدينية ، وأي رؤساء ادارة أو سياسة أو جندية تجاسروا قبل قواد الانكليز هؤلاء على خرق حرمة هذا القانون المتبع • وهب ان في رجال السياسة او الادارة أو الجندية نفوسا جبلت على الوحشية فهي تميل الى العبث بالقوانين الحرة العامة ، فمن الصلف ان تدعي المدنية مع ذلك ••• » (٦٤) •

=

the progress of Iraq during the period 1920 — 1931)), London, 1931, PP. 232 — 234; ((Report by His Majesty's Government on the administration of Iraq for the period April 1923 — December 1923)) PP. 201, 217.

(٦٤) « الفرات» ، العدد الرابع ، ١٣ ذي الحجة ١٣٣٨ (٢٨ اب ١٩٢٠) • حوالي نصف صفحات هذا العدد من الجريدة كرس لهذا الموضوع بالذات •

وفي الواقع تركت فتاوى رجال الدين وتعليماتهم تأثيرا أكبر على بسطاء الناس من اي عامل روحي او ادبي اخر ، ولاسيما انها جاءت في توافق مع مهمات المرحلة التاريخية • وليس مجرد صدفة ان كل الذين استجوبوا في السماوة اكدوا بشكل خاص على تأثير العاطفة الدينية الكبير في دفعهم الى حمل السلاح ضد سلطة الاحتلال• وقد اعتبر معظمهم الانكليز كفارا ، كما ذكر بعضهم صراحة انهم « ماكانوا يفهمون معنى الاستقلال يومذاك » ، لكنهم اعتبروا « الجهاد ضد الانكليز واجبا » لكونهم « أجانب وكفارا » (٦٥) •

ومع ان فتاوى رجال الدين لم تكن تصل ـ حسب معلوماتنا(٦٦)ـ الى المناطق الكردية ، الا ان الشعور الديني لعب هنا ايضا دوره الكبير في اثارة الناس ضد الانكليز • ثم ان رجال الدين الاكراد انفسهم لم يكن لهم دور قليل في هذا المجال ، فقد اشترك عدد كبير منهم بحماس في النضال المعادي للاستعمار سواء في العشرينيات أو بعدها • وأخيرا لم تكن معظم اجراءات الانكليز تجاه القضايا الدينية بخافية على الاكراد • فان جريدة «پيشكەوتن» ، مثلا ، نشرت القرارات التي اتخذتها ادارة الاحتلال في بغداد بصدد منع عقد الاجتماعات الدينية وتشكيل محكمة عسكرية خاصة « لانزال أشد العقوبات بحق

(٦٥) القول لبادي علوان (كاسب وعامل سابق) ، في حدود الخامسة والثمانين من العمر (رجاء أحمد ، بحث ميداني عن « ثورة العشرين ») •

(٦٦) استفسرنا العديد من الجيل السابق عنها •

كل مخالف ، لتلك القرارات • ثم نشرت تحت الخبر ، وعن قصد واضح ، نبأ « اصدار المحكمة العسكرية حكم الموت بحق أربعة أشخاص من المفسدين الذين نفذ فيهم الحكم » (٦٧) •

لم تكن « ثورة العشرين » من الاحداث التأريخية التي يمكن حصرها في اطار داخلي ضيق • ولاشك في أن أي محاولة من هذا القبيل (٦٨) تعتبر تجنيا على الثورة نفسها لا لانها تتعارض كليا مع المنطق حسب ، بل وكذلك لانها تنافي كل المألوف في تأريخ الشعوب• فان «ثورة العشرين» ، وفي ضوء قانون الترابط الافقي بين الاحداث ، تأثرت بأحداث خارجية وأثرت في احداث خارجية بدرجات متفاوتة حتمتها ظروف الزمان والمكان • وكان من الطبيعي ان تتأثر الثورة على الصعيد الخارجي بأحداث المنطقة نفسها (الحجاز ، سوريا ، مصر ، تركيا وايران) قبل أي شيء آخر • وتأتي بعد ذلك تأثيرات اخرى ، وعلى رأسها انتصار اول ثورة اشتراكية في العالم •

وقبل الخوض في صلب الموضوع يجدر بنا ان نشير الى أن التأثيرات المتبادلة بين الوقائع التأريخية الكبيرة المعاصرة لاتحتاج ، بالضرورة ، الى شواهد مادية ملموسة، فانها قد تفعل فعلها بصورة غير مباشرة ، أو عن طريق التأثير في تناسب القوى على صعيد منطقة

---

(٦٧) « بيشكه‌وتن » ، ١٩ اب ١٩٢٠ •

(٦٨) راجع مثلا : ستار جبر ناصر ، المصدر السابق ، ص ٧٤ـ٨٥؛ الراصد التقدمي ، ثورة العشرين • البعد القومي والاهداف الوطنية ، ـ « العراق » ، ٢٩ حزيران ١٩٧٨ •

محددة أو شاملة • ولتقريب الموضوع الى الاذهان أكثر نورد مثلا واحدا له صلة بثورة العشرين نفسها • فان الاخيرة أثرت حتما على الحركة الوطنية في ايران ، وربما لاتتوفر أدلة مادية تبين هذه الحقيقة التأريخية على شكل صورة محددة الابعاد • ولكن الا يكفي أن اضطرار الانكليز الى سحب ما لا يقل عن ١٤ ألف رجل من قطعاتهم العاملة في ايران قد سهل الى حد ما مهمة الحركة الوطنية للشعب الايراني الذي كان يخوض نضالا عادلا ضد المعاهدة الانكلو - ايرانية للعام ١٩١٩ (٦٩) ، وان ذلك اثر على موقف الانكليز بشكل أو بآخر • وحتما ان المئات من الزوار الايرانيين كانوا ينقلون معهم مايشاهدون من مظاهر الاستياء السائدة في العتبات المقدسة •

ولكن بغض النظر عن هذه الحقيقة الثابتة فان سجل « ثورة العشرين » ، والحركة الوطنية العراقية في تلك المرحلة ككل ، مليء بالشواهد والوثائق التي تجعل من أمر تاثر قطاع مؤثر من الوطنيين العراقيين بالاحداث والمتغيرات العالمية حقيقة مسلمة • فقد ذكرت جريدة «الفرات» ، لسان حال الثوار ، في عددها الاول مايشير الى

---

(٦٩) وقعت هذه المعاهدة بين الطرفين في طهران يوم ٩ اب ١٩١٩ عندما كان وثوق الدولة ، المعروف بموالاته للانكليز ، رئيسا للوزارة الايرانية • وقد أثارت بنودها استياء شعبيا عاما انعكس في موجة من المظاهرات والانتفاضات بلغت اوجها في العام ١٩٢٠، ولا سيما في المناطق الاذربيجانية ، وقد بذل الانكليز جهودا كبيرة للقضاء على المعارضة الوطنية الايرانية •

ذلك بشكل لالبس فيه • كتبت «الفرات» تقول : « لم تبق أمة ذاقت طعم الحكم الاستعماري الا وقد انتفضت وانقضت عليه ، فتخلصت أمة وبقيت أخرى تدافع عن حياتها وتطالب باثبات صفاتها » (٧٠) • وفي عددها الثاني تقرر الجريدة ان « الثورة العراقية (٧١) تشبه اختها الثورة الايرلندية والمصرية من كل الوجوه » (٧٢) • وكما يروي الدكتور محمد مهدي البصير الذي كان من انشط دعاة الثورة في بغداد والذي تأثر بخطبه (٧٣) حتى عدد من المثقفين الاكراد (٧٤) ، ان أحداث الانتفاضة المصرية التي كانت تصل بشكل خاص عن طريق جريدة «العقاب» السورية ، قد غدت حديث الخاص والعام في العراق بشكل قلما خلا مجلس من ذكرها (٧٥) •

كان لاحداث الحجاز وسوريا تأثير اكبر على الوضع العام في

---

(٧٠) « الفرات » ، العدد الاول ، ٢١ ذي القعدة ١٣٣٨ (٧ اب ١٩٢٠) •

(٧١) القصد هو « ثورة العشرين » •

(٧٢) « الفرات » ، العدد الثامن ، ٢٨ ذي القعدة ١٣٣٨ (١٤ اب ١٩٢٠) • يؤكد محمد طاهر العمري الذي عاصر الحركة الوطنية العراقية في العشرينيات واشترك فيها ، ان العراقيين تأثروا بالانتفاضة المصرية العامة التي قادها سعد زغلول في العام ١٩١٩ ، (محمد طاهر العمري ، تاريخ مقدرات العراق السياسية ، الجزء الثالث ، بغداد ، ١٩٢٥ ، ص ٩٩) •

(٧٣) كان المثقفون يشبهونه بميرابو خطيب الثورة الفرنسية •

(٧٤) يشير رفيق حلمي في مذكراته بشكل مؤثر الى ماتركته خطب وقصائد الدكتور البصير في جامع الحيدرخانة ايام الثورة من انطباع عميق في نفسه (راجع : رفيق حلمي ، المصدر السابق ، الجزء الثالث ، بغداد ، ١٩٥٦ ، ص ٨١ ــ ٨٤) •

(٧٥) محمد مهدي البصير ، المصدر السابق ، الجزء الاول ، ص٧٧ •

العراق ، ولاسيما أن العديد من العراقيين الذين اندمجوا بالحركة السياسة قبل الحرب اجتمعوا في سوريا وتعاونوا مع الامير فيصل هناك ، وعقدوا في اذار ١٩٢٠ مؤتمرا عراقيا على غرار «المؤتمر السوري » ، واجروا بعض الاتصالات مع الاوساط الوطنية داخل العراق ، وعرضوا مشاكل البلاد السياسيه على الدول الكبرى عن طريق ممثليها في المنطقة • وكانت احداث نضال الشعب السوري ضد المستعمرين الفرنسيين تتسرب الى العراق بشتى السبل (٧٦) ، خاصة وان الانكليز انفسهم كانوا يرغبون في ان تجري الامور هناك بشكل يؤدي الى حصر النفوذ الفرنسي الى اقصى حد ممكن ، لذا كانوا يغضون الطرف عن انتشار انباء مظالم الفرنسيين ومقاومة السوريين لها • وكان العهديون في الموصل يشكلون حلقة وصل بين العراقيين والسوريين، فأولوا نقل النشرات والجرائد السورية الى العراق اهتماما خاصا ، كما كانوا ينقلون بدورهم أخبار العراق ، بما في ذلك الانتفاضات الكردية ، الى سوريا (٧٧) •

---

(٧٦) كانت جريدة « العقاب » السورية تصل الى مناطق مختلفة من العراق ، وكانت متفائلة بشكل عاطفي في عرضها للاحداث وتوقعاتها للمستقبل ، مما ترك اثرا واضحا على الوسط المثقف العراقي ، حيث كان « يقوم الملا بقراءة الجريدة فيصغي اليه الحاضرون ، ويعلقون عليها » (راجع : الدكتور علي الوردي ، المصدر السابق ، الجزء الخامس ، القسم الاول ، ص٤٦) •

(٧٧) للتفصيل راجع سلسلة المقالات المنشورة بقلم « مؤرخ » في جريدة « صدى الاحرار »الموصلية التي وردت الاشارة اليها في هوامش هذا الكتاب • عن الرسالة والنشرات راجع كذلك :ــ
Gh. R. Atiyyah, Iraq 1908—1921. A political study, Beirut, 1973, P. 329.

تركت الحركة الوطنية بقيادة مصطفى كمال في تركيا تأثيرا ملموسا على مختلف الاوساط السياسية في العراق • وبحكم جملة من العوامل ، منها القرب الجغرافي واهتمام الكماليين بولاية الموصل، كان تعبير هذا التأثير اكثر وضوحا في المنطقة الشمالية • فقد ظهرت بين المثقفين ورؤساء العشائر الكرد ، مثلا ، فئة نشطة أطلق المعادون على أفرادها اسم « ذوي الملابس المعوجة » • وقد دفعت تصرفات الانكليز بعدد كبير من الوطنيين الاكراد الى اقامة اتصالات مباشرة مع الكماليين ، تعود بداياتها الى العام ١٩٢٠ بالذات (٧٨) • ومن الجدير بالذكر ان نشرات الكماليين كانت تصل المنطقة الكردية بسهولة ، وان بعضا منها كان يدبج خصيصا لمخاطبة المشاعر الكردية في العراق ولحمل الناس على اعلان « الجهاد المقدس » ضد الانكليز (٧٩) • وقد أشار حاكم كركوك لونكريك الى ان محتوى افكار الاستقلال التي كانت تتسرب في بداية العشرينات من تخوم تركيا الى كردستان قد تغيرت كثيرا ، وارجع سبب ذلك الى « أعمال البلاشفة » (٨٠) •

---

(٧٨) راجع : « نضال الشعب الكردي في مذكرات احمد تقي » ، ص ٤٥ ـ ٥٠ ؛ المس بيل ، فصول من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر خياط ، بيروت ، ١٩٤٩ ، ص ١١٦ •

(٧٩) راجع نص ماورد في بيان من هذا القبيل في
C. J. Edmonds, Op. Cit., P. 246

(٨٠)
S. H. Longrigg, Iraq 1900 to 1950. A political, social and economic history, London, 1953, P. 101.

لم تبق هذه النشاطات دون نتائج ملموسة • فقد ورد في تقرير رفعته « جمعية العهد ـ فرع الموصل » الى المركز في ٨ تشرين الثاني ١٩١٩ عن الاوضاع العامة في ولاية الموصل انه اذا كان هناك «نوع من الامل في الخلاص من الانكليز عند الكثير من الناس فانما يتوقعونه من مصطفى كمال ، حيث ان لهذا القائد اسما كبيرا في هذا البلد »(٨١) • وقد دفع ذلك بالانكليز وانصارهم الى شن حملة دعاية واسعة ضد الحركة الكمالية ، انعكست آثارها على صفحات جريدة «بيشكه‌وتن» كذلك (٨٢) •

وفيما يخص « ثورة العشرين » نفسها فانه تتوفر وثائق ومعلومات مختلفة تبين ان الحركة الكمالية التي جابهت عن جدارة جيوش مجموعة كبيرة من الدول الاستعمارية ، على رأسها انكلترا (٨٣) ، تركت بصماتها واضحة على فكر المثقفين العراقيين • فقد تتبعت جرائد الثورة، بالرغم من ضعف امكاناتها ، اخبار الحركة الكمالية على صفحاتها(٨٤)•

---

(٨١) راجع : « صدى الاحرار » ، ٣ نيسان ١٩٥٣ •

(٨٢) راجع مثلا : « بيشكه‌وتن » ، ١٣ ايار و ١٩ اب و ٤ تشرين الثاني ١٩٢٠ •

(٨٣) بلغ عدد جنود وضباط الاحتلال البريطاني في تركيا عام ١٩١٩ اكثر من ٤١ الف شخص ، وبلغ عدد القوات الفرنسية حوالي ٤٩ الف والايطالية ١٧ ألف ، وبعد فترة دخلت قوات يونانية كبيرة البلاد ، كما رابطت في مياهها الاقليمية أساطيل انكليزية وفرنسية وامريكية ويونانية وايطالية كبيرة• وكان من الطبيعي ان يلفت النضال الناجح ضد هذه الجيوش الجرارة نظر الجميع •

(٨٤) راجع مثلا «الفرات» ، العدد الثاني ، ٢٨ ذي القعدة ١٣٣٨ (١٤ اب ١٩٢٠) •

وفي التقارير السرية البريطانية التي تعود الى الفترة التي سبقت انفجار الثورة ما يشير الى تأثر علماء النجف وكربلاء بالدعاية الكمالية(٨٥)٠ كما توجد اشارات الى اتصال ضباط عراقيين بالمسؤولين الكماليين في بعض المدن القريبة من الحدود العراقية والسورية(٨٦)٠ وقد جاء التعبير عن تأثر فئات سياسية عراقية معينة بالحركة الوطنية في تركيا دقيقا في وثيقة للعهد الموصلي تؤكد ان « اتحاد العرب والترك » يشكل « قوة اسلامية لايستهان بها ، تحيي الامل في قلوب كافة المسلمين الذين قد بلغت ارواحهم الحناجر من ضغط المستعمرين » (٨٧) ٠ ومن المهم ان نشير الى ان بعض المناشير التي وزعت في بغداد أيام الثورة أشارت صراحة الى اسم مصطفى كمال ٠ فقد ورد في أحداها : « ان عالم الاسلام كله أجمع اتحد على كلمة واحدة واعلن الجهاد على جميع دول الحلفاء ، فان تحت قيادة مصطفى كمال باشا اكثر من مائة ألف مجاهد وهم فائزون بالظفر والخير على العدو في جميع الانحاء » ٠ كما ورد في منشور آخر ان « مصطفى كمال باشا » قد أرسل « قوة عظيمة الى دير الزور من نصيبين والى الموصل أيضا » ٠

يستحق موضوع تأثير ثورة اكتوبر الاشتراكية وقفة خاصة لان الامر لايزال يكتنفه بعض الغموض ويدور حوله النقاش والخلاف في التقييم ، ولان ماعرضته في بعض المناسبات بصدده قد أثار رأيين متناقضين كل التناقض ، أحدهما الصق بي « التغني العاطفي » بثورة

---

(٨٥) راجع : Gh. R. Atiyyah, Op. Cit., PP. 329—330

(٨٦) علي آل بازركان ، المصدر السابق ، ص١٨٥ ٠

(٨٧) راجع : « صدى الاحرار » ، ٣ نيسان ١٩٥٣ ٠

اكتوبر ، والآخر اتهمني بمحاولة تقليل أهمية تأثيرها (٨٨) ٠

قبل كل شيء لم يكن في وسع كل أسوار العالم حصر دوي الانفجارة غير الاعتيادية شكلا ومضمونا داخل ابراج الكرملين ٠ فقد بدأ الناس في مشارق الارض ومغاربها يتحدثون عنها ، سلبا او ايجابا ،

---

(٨٨) عندما نشرت بحثا عن « مؤتمر شعب الشرق» الذي انعقد بمدينة باكو في أيلول ١٩٢٠ (راجع « افاق عربية » العدد ١٢ ، اب ١٩٧٦ ، ص ٨٦ ـ ٩٧) اتهمني « قارىء » في تعقيب له ب « التغني العاطفي» (راجع : « افاق عربية » ، العدد الثالث ، ١٩٧٦ ، ص ١٥٥ ـ ١٥٧) ، فجاء ردي عليه في مجلة « الثقافة » (بغداد ، العدد الاول ، ١٩٧٨ ، ص ٥٢ـ٦٠) ٠ وعندما نشرت كتابي « ثورة العشرين في الاستشراق السوفيتي» أخذت علي الزميلة الدكتورة صبيحة الخطيب في تقريضها عن الكتاب (راجع : « طريق الشعب » ، بغداد ، ٢٨ تشرين الثاني ١٩٧٧) قولي انه مهما كان تأثير ثورة اكتوبر « كبيرا في اطار الترابط الافقي بين الاحداث التأريخية فانه لم يبلغ حد ان تتوجه « الشخصية الدينية والسياسية المعروفة الخالصي » الى « صورة لينين » قائلا : « ان الشرق الذي ايقظته ينتظر الفرصة لكي يحقق افكار حياتك حول اتحاد شعوب الشرق ، حول حق كل انسان ، بله كل شعب ، كبيره او صغيره ، متحضره أو متأخره ، في الحياة والاستقلال » ٠ وقد بينت الحجج التي تثبت ما ذهبت اليه (للتفصيل راجع ص ٨٠ ـ ٨٥ من كتاب « ثورة العشرين في الاستشراق السوفيتي ») وهو ، حسبما اعتقد ، امر واضح لا يحتاج الى جدل ، وهو لا يمكن ان يقلل من الاهمية البالغة لثورة اكتوبر التي لا يصح تقييمها الا من خلال الوقائع المادية المنطقية والملموسة التي لايستطيع انكارها حتى دهاقنة الاستعمار والرجعية ٠ وقد حاولت ان القي هنا من جديد اضواء اخرى على تأثيرات هذه الثورة وذلك بالاستناد الى مجموعة من الحقائق المقنعة ٠

كل حسب انتمائه الفكري والاجتماعي • وبين أيدينا اكثر من دليـل مقنع يبين ان الشعب العراقي لم يختلف ، في اطار ظروفه الخـاصة ، عن الشعوب الاخرى في هذا المجال • ولنستهل الموضـوع بعـرض بعض الامثلة عن المنطقة الكردية (٨٩) •

ورد في تقرير سري لحاكم مدينة السليمانية الميجر سون بعثه في العام ١٩١٩ الى وكيل الحاكم العام في بغداد ارنولد ولسـن حـول الوضع في منطقته «ان اسم البلشفية وعقائدها أصبحت معروفة هنا لسوء الحظ » (٩٠) • كما يؤكد اسماعيل حقي شاويس ، السياسي المعـاصر

---

(٨٩) للتفصيل حول هذا الموضوع راجع : د• كمال مظهر احمد ، ئوكتوبه‌رو مه‌سه‌له‌ى كورد ، ـ « برايه‌تي » ، به‌غدا ، ژماره ٩ ، سالى١ ، خولى دووه‌م ، سه‌ره‌تاى كانونى يه‌كه‌مى ١٩٧٠ ، ل ٤ ـ ١٢ (راجع تعريب المقال ـ اكتوبر والمسألة الكردية ـ للاستاذ محمد الملا عبدالكريم المدرس في مجلة «الثقافة الجديدة» ، بغداد ، العدد التاسع والعشرون ، تشرين الاول ١٩٧١ ، ص ١٥٢ ـ ١٦٩) •

(٩٠) راجع :

A. T. Wilson, Mesopotamia 1917—1920, P. 145

ولذلك فان سون ، كما سنرى ، اولى موضوع الدعاية ضد البلشفية اهتماما خاصا في الجريدة التي أصدرها في السليمانية• ولكن ما يجلب النظر في قول سون الانف الذكر هو تأكيده على ان هذه الافكار كانت تنتشر بين سكان السليمانية عن طريق « جريدة كركوك » بشكل خاص•والمعروف ان الصحيفة الوحيدة التي كانت تصدر انذاك في كركوك هي « نجمة كركوك » ، وهي كانت حكومية صغيرة الحجم (٢٩ × ١١ سم) ، بدأ حاكم المدينة لونكريك بنشرها اعتبارا من ١١ربيع الاول ١٣٣٧ ، ١٥ كانون الاول ١٩١٨ ، ولم يتغير اسمها الى «كركوك» لغاية تشرين

=

لتلك المرحلة ، ان « الشباب الكردي المثقف كان مطلعا بما فيه الكفاية على تفاصيل الحدث الثوري الذي وقع في روسيا ، وعلى طبيعته واهدافه ••• وان بعضا منهم كان قد اطلع على الافكار الاشتراكية قبل ثورة اكتوبر ، وذلك اثناء دراستهم او عملهم في استانبول وغيرها من المدن العثمانية الكبيرة ، بل وحتى الاوروبية » (٩١) • وفي ذلك بالذات بعض التفسير لحقيقة ان ٨ اشخاص مثلوا الاكراد في « مؤتمر شعوب الشرق » الذي انعقد بمدينة باكو في عز أيام « ثورة العشرين » ، وان عددا اكبر من المثقفين الكرد رغبوا في الاشتراك فيه لولا عوائق حالت دون تحقيق ذلك (٩٢) • وان الرسالة التي بعثها الشيخ محمود الى السلطة السوفيتية الجديدة عن طريق ممثليتها في تبريز بعد القضاء على « ثورة العشرين » بفترة وجيزة مؤشر مهم لواقع ملموس لايتحمل التأويل أو الدحض • فعندما « دوي صوت الحرية الحقيقية في العام ١٩١٧ ••• استقبلت جميع الشعوب المظلومة على وجه الارض هذا الصوت بحرارة وبدأت النضال في سبيل الحرية » ، هكذا استهل

=

الثاني ١٩٢٦ • ثم انني لم أجد بين جميع الاعداد التي اطلعت عليها من هذه الجريدة مايشير الى الدعاية للبلشفية ، بل على العكس من ذلك فان «نجمة كركوك» حاولت ، مثل بقية الجرائد التي أصدرتها سلطات الاحتلال ، تقديم صورة مشوهة عن أول نظام اشتراكي في العالم •

(٩١) في حديث مع الاستاذ اسماعيل حقي شاويس سجله المؤلف بتاريخ ١٧ آب ١٩٧٠ •

(٩٢) لتفصيل راجع : الدكتور كمال مظهر أحمد ، أضواء على قضايا دولية في الشرق الاوسط ، بغداد ، ١٩٧٨ •

الشيخ رسالته المذكورة (٩٣) •

وفي ضوء الحقائق السالفة الذكر يجب تقييم ما ورد في احدى الوثائق الرسمية البريطانية من ان الانكليز يخشون ان يزعزع الكماليون والاكراد مواقعهم في جميع انحاء ما بين النهرين تحت تأثير البلشفية (٩٤) • وكما يبدو واضحا من التقارير السرية البريطانية فان العديد من الرؤساء الكرد (سمكو ، السيد طه الشمزيني، الشيخ عبدالقادر وغيرهم) حاولوا مرارا استغلال مخاوف الانكليز من البلشفية في اتصالاتهم الخاصة بهم (٩٥) • وقد اقترح بعضهم حشد طاقات رؤساء العشائر الكردية « لردع البلشفية والحركة الكمالية » عند الضرورة • وحسبما يشير التقرير الخاص الذي بعثه حاكم الموصل السياسي في ٢١ ايلول ١٩٢٠ الى الحاكم العام ببغداد فان السيد طه كان « يرى في كردستان » الحاجز الوحيد للحيلولة دون وصول « البلشفيك ومصطفى كمال الى بلاد ما بين النهرين » (٩٦) •

---

(٩٣) راجع نص الرسالة في :
« النشرة الصحفيه لمفوضية جمهورية روسيا السوفيتيةالاشتراكية في ايران » ، العدد الثالث ، اذار ١٩٢٨ (الملحق رقم ١٢) •
وقد نشر نص الرسالة للمرة الاولى باللغة الكردية بعد ثورة تموز ١٩٥٨ (راجع مجلة «روناهي» ، بغداد ، العدد الاول ، ١٩٦٠) •

(٩٤) راجع :
((Documents on British Foreign Policy, 1914—1939)). First Series, Vol. XIII, P. 667.

(٩٥) راجع مثلا : F. O. 371/4342; 371/13428

(٩٦) F. O. 371/4342

وبعد ٤ أيام فقط ذكر الكابتن هيي حاكم اربيل السياسي في تقرير مشابه بعثه الى بغداد ان السيد طه يؤكد انه اذا لم يتخذ الانكليز خطوات عاجلة فان « أنور باشا (٩٧) والبلشفيك سوف يستميلون العشائر الكردية الى قضيتهم » (٩٨) • وقد أولى المسؤولون الانكليز في بغداد هذه الآراء اهتماما خاصا جعلهم يتبادلون البرقيات بشأنها مع الهند (٩٩) •

وعلى الغرار نفسه تتوفر وثائق مهمة حول موضوع ثورة اكتوبر والعراق ككل ، حيث جاءه « دعاة البلشفية ••• في زي زوار وطلبة ايرانيين » حسب تعبير الوردي (١٠٠) • وتشير التقارير البريطانية السرية التي تعود الى ماقبل انفجار « ثورة العشرين » بفترة وجيزة الى ان الادبيات البلشفية كانت تصل المدن المقدسة العراقية ، بما في ذلك كتاب « مبادىء البلشفية » الذي جلبه الزوار من حلب ، والى ان اخبار التغيرات والحوادث الثورية وتقدم البلاشفة في روسيا كانت تناقش في مجالسها • بل تذهب تلك التقارير الى القول بأن الشيرازي أصدر فتوى تدعو الى اعتبار البلاشفة أصدقاء

---

(٩٧) القصد هو انور باشا وزير الدفاع العثماني السابق الذي انتقل يومذاك الى القفقاس ومناطق اسيا الوسطى واشترك عضوا في «مؤتمر شعوب الشرق» في محاولة بائسة منه للعودة الى الحياة السياسية مرة اخرى •

(٩٨) F. O. 371/4342

(٩٩) F. O. 371/13428

(١٠٠) الدكتور علي الوردي ، المصدر السابق ، الجزء الخامس ، القسم الاول ، ص ٥١ •

للاسلام (١٠١) • وقد ذهبت « جمعية العهد ـ فرع الموصل » الى رأي مشابه لذلك في احدى وثائقها التي تعود الى ٨ تشرين الثاني ١٩١٩ • فبعد أن اعطت الجمعية تقييما صحيحا لطبيعة الدول الاستعمارية انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة الامريكية تساءلت :

« فهل يمكن الاعتماد على هذه الدول أو على احداها ؟ • اننا لانعتقد بذلك ••• ونحن لاأمل لنا (١٠٢) ولارجاء من وراء القيام بالاعمال الادبية والمفاوضات مع هؤلاء الامم (١٠٣) المتكالبة على استعبادنا ، بل ولا في الاتكال على سوريا (١٠٤) ولا على الحجاز • والذي نتصوره ان لاخلاص للعرب خاصة ، وللاسلام عامة ، بعد ان كشف الحلفاء عن مكنوناتهم واسفروا عن مكرهم وخداعهم ، الا باتفاق العرب والترك مع البلشفيك والمانيا والنمسا ••• ولايخطر على بالنا في هذا البحران السياسي واسطة أخرى لحياة العرب والاسلام الا ما نتصوره من الاتحاد الاسلامي ـ البلشفي ـ الجرماني » (١٠٥) •

وأكثر من ذلك فان بعض التقارير الخاصة تؤكد ظهور أشبه

---

(١٠١) راجع :
Gh. Atiyyah, Op. Cit., PP. 311, 328 — 329

(١٠٢) في النص : « اما نحن فلا أمل لنا ••• » •

(١٠٣) القصد : الدول •

(١٠٤) من الجدير بالذكر ان العديد من العراقيين الموجودين في سوريا انذاك قد أصيبوا بخيبة أمل واضحة من مواقف الامير فيصل ازاء القضية العراقية •

(١٠٥) راجع : « صدى الاحرار » ، ٣ نيسان ١٩٥٣ •

مايكون بتنظيمات بلشفية في بعض مناطق البلاد • فقد ورد في تقرير سري للبوليس يحمل تاريخ ٢٠ اذار ١٩٢٠ خبر تأسيس منظمة سرية تحمل اسم « الجمعية البلشفية » (١٠٦) • وبعد فترة وردت اشارة مشابهة لنوع من النشاط البلشفي في خانقين (١٠٧) •

وهنا يجب الا ننسى ان العراق كان يشكل القاعدة الرئيسة لتجهيز وتموين الحملة العسكرية البريطانية بقيادة الجنرال دنسترفيل (L. C. Dunsterville) على مناطق القفقاس، ولاسيما على مدينة باكو الاذربيجانية • حتى ان بعض الضباط الانكليز الذين اضطلعوا بمهام ادارية قبل ذهابهم الى هناك ، وقعوا في أسر ثوار المنطقة ، منهم الضابط الضليع في الشؤون الكردية الميجر نوئيل (Maj. Noel) (١٠٨) • ولم يكن في الامكان اخفاء أخبار نشاطات الانكليز ضد النظام الاشتراكي الاول ، لاسيما وقد اولتها جريدتا «العرب» و «العراق» البغداديتان اهتماما خاصا (١٠٩) • ولابد ان ذلك قد أثار تساؤلات منطقية لدى الوطنين العراقين الذين كانوا يعطفون بحكم الواقع على كل عدو حقيقي لمحتلي بلادهم ومغتصبي ثرواتهم • وان كل انتصار عليهم كان من شأنه ان يشد أزر الوطنين العراقين ويقوي عزائمهم • وفعلا أشارت جرائد

---

(١٠٦) راجع : Gh. R. Atiyyah, Op. Cit., P. 311

(١٠٧) راجع : الدكتور عبدالله الفياض ، المصدر السابق ، ص ٢٨٤ •

(١٠٨) راجع : C. J. Edmonds, Op. Cit., P. 33

(١٠٩) نعود الى الموضوع في مكان آخر من هذا الفصل •

الثورة نفسها الى انتصارات البلاشفة على القوات البريطانية أكثر من مرة ، كما أعترف الجنرال هالدين بأن تقدمهم الى مدينة انزلي الايرانية عشية الثورة ترك تأثيره على العراقيين (١١٠) .

ولم يلعب المحتلون انفسهم الدور الاخير في اطلاع العراقيين على ثورة اكتوبر وأهداف البلاشفة ، وعلى جوانب مما كان يجري هناك . فان من يتصفح جريدتي «العرب» و «العراق» العربيتين و «پيشكەوتن» و «تيكەيشتني راستي» (فهم الحقيقة) (١١١) الكرديتين و «نجمة كركوك» التركمانية (١١٢) يرى كيف أن الانكليز كرسوا الجانب الاكبر منها للدعاية ضد البلشفية . ويصعب

---

(١١٠) A. L: Haldane, Op. Cit., P. 247

(١١١) جريدة أصدرها الانكليز ببغداد من ١ كانون الثاني ١٩١٨ ، وتوقفت عن الصدور بتاريخ ٢٧ كانون الثاني ١٩١٩ ، لتحل محلها بعد فترة جريدة «بيشكەوتن» . كرس الانكليز «تيكەيشتني راستي» للترويج لسياستهم بقصد كسب الشعب الكردي الى جانبهم ، وهي ، بحكم ذلك ، طافحة بمعلومات وحقائق مجهولة من شأنها القاء ضوء ساطع على جوانب خافية من سياسة انكلترا تجاه المسألة الكردية في احدى أهم مراحلها الحساسة . وقد كرسنا كتابا مستقلا لمعالجة هذا الموضوع بعنوان «تيكەيشتني راستي وموقعها في الصحافة الكردية » (بغداد ، ١٩٧٨) .

(١١٢) صدرت الاعداد الاولى فقط من هذه الجريدة باللغة العربية ، أما البقية منها فقد صدرت باللغة التركمانية . وحسبما يبدو من الملفات المحفوظة في « الدار الوطنية للوثائق» ان حاكم مدينة كركوك لونكريك كان يبعث بنسخ من هذه الجريدة خصيصا الى المسؤولين البريطانيين في بغداد .

على المرء ان يصدق ان اكثر من ثلث مواد بعض اعداد «العرب» و «العراق» قد خصص لهذا الموضوع بالذات (١١٣) • كما نشرت جريدتنا « تيكه‌يشتني راستي » و «پيشكه‌وتن» أغرب الاخبار عن البلشفيك (١١٤) • ومن الجدير بالذكر ان «حماس» الصحافة العراقية الموالية للانكليز ضد البلشفية والحركة الكمالية بلغ حدا جلب نظر المراقبين الغربيين (١١٥) • وبالطبع ان ذلك وحده كان يكفي ليبين للمثقف العراقي ان البلشفية هي عدوة لدودة للاستعمار الانكليزي • ولكن الى جانب ذلك فقد كان يتسرب أحيانا من خلال هذه الحملة الدعائية بعض الافكار التي لم تكن لتتفق مع أهدافها • فان جريدة «العرب» ، مثلا ، كتبت في احدى مقالاتها المفصلة بعنوان

---

(١١٣) تستثنى من ذلك طبعا الاعلانات الرسمية التي كانت تشغل حيزا كبيرا من صفحات الجريدتين (راجع على سبيل المثال : «العرب» ، ٣ و ٤ و ١٢ نيسان و ٩ ايار ١٩٢٠)•

(١١٤) راجع على سبيل المثال : «تيكه‌يشتني راستي» ، ٢ أيلول ١٩١٨ و ١٣ كانون الثاني ١٩١٩ ؛ «بيشكه‌وتن» ، ١٣ ايار و ٥ و ١٢ و ١٩ اب و ٢٣ ايلول و ١٤ و ٢١ تشرين الاول ١٩٢٠ (استمرت «بيشكه‌وتن» على نفس النهج حتى اخر عدد صدر منها في أواسط العام ١٩٢٢) • ويبدو من اسلوب المقالات والاخبار التي نشرت في «بيشكه‌وتن» بهذا الصدد ان الميجر سون كان يدبجها بنفسه ، مما يدل على اهتمامه الخاص بالموضوع والذي انعكس جليا في التقرير السري الانف الذكر الذي رفعه الى ارنولد ولسن وكيل الحاكم العام في بغداد •

(١١٥) راجع :

((The Near East and India)), December 7, 1922, P. 723

« الاشتراكية في العالم » (١١٦) « لقد أصبح أمر الاشتراكية عجيبا في انتشاره بين امم كثيرة ، حتى بين الامم التي هي ابعد الناس عنه »، فيمكن ان يصير بعد حين من الزمن مذهب العالم بأسره الذي ينشده كل انسان ويتمنى الخير عن طريقه » (١١٧) • وقد اشارت «العراق» في افتتاحية لها تحمل عنوان « غاية البلشفيين » (١١٨) الى ان «المبدأ البلشفي لايرمى به الى غاية احداث انقلاب اجتماعي في العالم فقط ، بل يرام ان يستنهض به في آسيا ثورة سياسية على اوروبا» ، لذا يعمل دعاتها في سبيل « تكوين اتحاد عام يضم ثوار الاناضول والايرانيين والمسلمين ••• وبعبارة أشمل جميع اقوام آسيا للحركة ضد أوروبا عموما ، وضد الانكليز خصوصا » ، وقد أوفد وزير الخارجية جيجيرين « الوفود الى مصر وممالك أفريقيا الشمالية ••• يدعوها الى هذه الغاية » (١١٩) •

وبالاسلوب نفسه تسربت افكار ايجابية أو قريبة من هذه الى الصحف الكردية أيضا • فان « روسيا البلشفية اقتسمت كل مالديها مع العوام الالمان » وهي « تتهكم من رأي الحلفاء حول ارسال

---

(١١٦) يشغل المقال كل الصفحة الثالثة وقسما من الصفحة الرابعة من ذلك العدد ، ولم يشر صاحبه الى اسمه •

(١١٧) «العرب» ، ٥ حزيران ١٩١٩ • بالرغم من هذه الحقيقة ، وبالرغم من ورود مقارنة ذكية بين الاشتراكية وأفكار الثورة الفرنسية ، فان المقال لايخلو ايضا من بعض الطعون والشكوك •

(١١٨) مترجمة من اللغة الفارسية •

(١١٩) «العراق» ، ٧ تشرين الاول ١٩٢٠ •

تعزيزات جديدة الى روسيا » وان « الشغيلة الروس على استعداد للوقوف جنبا الى جنب مع الالمان على ضفاف الراين ضد الرأسماليين الانكليـز » (١٢٠) •

وفي كل ماسبق التفسير الواقعي لذلك الاهتمام الملموس الذي اولته صحافة « ثورة العشرين » للمسألة البلشفيـة • فقـد نشرت «الاستقلال» في عددها الثالث « ان الافكار البلشفية أخذت تتوسـع في سوريا » وان الرسائل التي كتبها لينين وتروتسكي والتي تبـين اعترافهما باستقلال البلاد العربية قـد انتـشرت في جميـع انحـاء سوريا » (١٢١) •

وقد اولت جريدة «الفرات» الموضوع نفسه اهتماما اكبر ، وناقشته من جميع جوانبه • فانها نشرت في عددها الاول مقالة تحت عنوان « البلشفية ـ العامل الذي أوجدها » (١٢٢) ناقشت فيها أركان «ثورات الشعوب» و «أقسام البلشفية» • ومما جاء فيها ايضا : « يقول المسيو بوانكاره ان البلشفية مكروب لايعدي بهـا سـوى الامـم المقهورة (١٢٣) • وعند بعض الكتاب ان البلشفية دعوة لاتفرخ سوى

(١٢٠) راجع : «تيكه‌يشتني راستي» ، ١٣ كانون الثاني ١٩١٩ •
(١٢١) «الاستقلال» ، النجف ، العدد الثالث ، ١٠ تشريـن الاول ١٩٢٠ •
(١٢٢) تقول الجريدة انها «ملخصة عن مقالة لبعض الكتاب» • وهي تحتوي فعلا على وجهة نظر غربية للموضوع ، ولكن اهميتها تكمن في انها تربط بين البلشفية والفقر والاستياء من الاوضاع المجحفـة •
(١٢٣) الكلام لمسؤول فرنسي كبير ، فيجب تقييمه من خلال ذلك •

ولاتفقس الا حيث تلائمها الاحوال واهمها ان تجد تربة صالحة لنموها . ومن أعظم أسباب الخصب في هذه التربة استياء الناس من حالتهم الادبية والاقتصادية ونزوعهم الى تحسينها بأقرب مايوحي اليهم من الوسائل » (١٢٤) .

وفي محاولة منها لتحديد طبيعة « ثورة العشرين » ورد في افتتاحية العدد الثاني (١٢٥) من الجريدة نفسها عن اكتوبر مانصه : « ويختلف تأثير الثورة باختلاف مقاصد الثوار ، فقد تكون لقلب نظام خاص وابداله بآخر كثورة الامم على حكوماتها ، وقد تكون لتغيير نظام العالم كله كالثورة البلشفية التي أصبح تأثيرها عاما هاج الشعوب لطلب حريتها وتبديل نظام الكون »(١٢٦) .ويبدو من بعض الاخبار التي نشرتها صحف الثورة ان قادتها كانوا على علم بما يجري من تعاون بين النظام الاشتراكي الجديد في روسيا وحركات التحرر في المنطقة (١٢٧) .

ومن المحتم انه لو لم تكن الامور بهذا الشكل لما جعل تقرير

---

(١٢٤) «الفرات» ، العدد الاول ، ٢١ ذي القعدة ١٣٣٨ (٧ اب ١٩٢٠) .

(١٢٥) عنوان الافتتاحية : «ثورة العراق» .

(١٢٦) «الفرات» ، العدد الثاني ، ٢٨ ذي القعدة ١٣٣٨ (١٤ اب ١٩٢٠) .

(١٢٧) نشرت «الفرات» ، مثلا ، ان الاتراك اخذوا «يجهزون جيوشهم لمحاربة اليونان في جبهة الازمير وذلك بعد أن نجحوا في توثيق صلاتهم السياسية مع البلشفيك » (راجع العدد الثاني من الجريدة) .

لوزارة الحرب البريطانية يحمل تأريخ ١٧ شباط ١٩٢١ من عدم اتفاق الامير فيصل مع البلشفية وكرهه لها واحدا من الاسباب الرئيسة لاختياره ملكا على العراق(١٢٨)،ولما لجأ بعض من قادة «ثورة العشرين» نفسها (الخالصي ومحمد الصدر وابراهيم حلمي وآخرون) الى جيجيرين ، دون غيره ، ليرفع احتجاجهم ضد خرق الانكليز لاستقلال بلادهم الى مؤتمر لوزان قائلين مانصه : اننا تقديرا منا « للموقف الصادق لدولتكم تجاه الشعوب الصغيرة » نرفع لكم المذكرة التالية لترفعوها بدوركم الى مؤتمر لوزان (١٢٩) ٠ ومن المناسب ان نشير هنا الى ان بعض الشبان العراقيين قد نشروا عشية « ثورة العشرين » « مقالات ضافية عن القضية العراقية » في جريدة

---

(١٢٨) F. O. 371/6349 نشرت خبر هذه الوثيقة في تموز ١٩٧٧ وفي حدود علاقتها بالموضوع بعد ان حصلت عليها من مجموعة الزميل الدكتور فاروق صالح العمر وذلك ضمن كتابي «ثورة العشرين في الاستشراق السوفيتي» (ص ٨١) ٠ وقد نشر الدكتور فاروق بعد ذلك مضمون النقاط الاربع التي تجعل من فيصل الشخص المناسب لاشغال العرش العراقي (راجع : الدكتور فاروق صالح العمر ، حول السياسة البريطانية في العراق ١٩١٤ ـ ١٩٢١ ٠ دراسة وثائقية ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ص ١٠٤ـ١٠٥) ٠ ثم نشر الاستاذ نجدة فتحي صفوت نصها كاملا بعد مرور اكثر من عام وذكر انها «وثيقة مهمة لم يسبق نشرها ايضا» (راجع : نجدة فتحي صفوت، عرش يبحث عن ملك ، «افاق عربية» ، العدد ١٢، اب ١٩٧٨ ، ص ٢٤) مما اقتضى التنويه ٠

(١٢٩) راجع :
«وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي» ، الجزء السادس ، موسكو ، ١٩٦٢ ، ص ٧٨ـ٧٩ ، ٦٠٦ ٠

« لومانيته » الفرنسية (١٣٠) ٠

بالرغم من كل ذلك فانه في ظروف العراق انذاك لم يكن في الامكان ان يتعدى تأثير ثورة اكتوبر المثقفين من سكان المدن ٠ فان الفلاحين ، جيش الثورة الرئيس ، كانوا في وضع اجتماعي ومستوى من الوعي لا يسمح لهم بالتفاعل مع المتغيرات الخارجية الكبرى بشكل مباشر ٠ لذا من الطبيعي ان جميع الفلاحين الذين استجوبوا في منطقة السماوة ذكروا انهم لم يسمعوا قبل ١٩٢٠ لا بثورة اكتوبر ولا بالحركة الكمالية ، وان قسما منهم فقط ذكروا بانهم سمعوا بحركة الحسين في الحجاز ونجله فيصل في سوريا ٠ وقد ذكر عدد أقل حتى من هؤلاء انهم سمعوا بعد القضاء على « ثورة العشرين » بفترة عن اكتوبر والكمالية وغيرها من أحداث العالم والمنطقة(١٣١)٠

ولكن حتى بالنسبة لسكان المدن ومفكري الثورة فان التأثير ظل غامضا ومحدودا يعكس بوضوح واقعا اجتماعيا في مرحلة تأريخية معينة ٠ فان « جمعية العهد ــ فرع الموصل » لم تبتغ في وثيقتها الانفة الذكر سوى « الاستمداد من قوة الروس والاستفادة من هذا الاسم الجديد »(١٣٢) ٠ وان مفكري الثورة انفسهم ، وباعترافهم ، كانوا ما يزالون تخامرهم « الشبهة والشكوك في أمر

---

(١٣٠) راجع : محمد طاهر العمري ، المصدر السابق ، الجزء الثالث، ص ٤٩ ٠

(١٣١) رجاء أحمد ، بحث ميداني عن «ثورة العشرين» ٠

(١٣٢) راجع : «صدى الاحرار» ، ٣ نيسان ١٩٥٣ ٠

البلشفيك وفي مبلغ اخلاص نياتهم قبل الاطلاع على مقاصدهم الحقيقية»(١٣٣) ، لذا ارادوا « النظر في امكان التفاهم معهم أو مع الانكليز على أساس الاستقلال » (١٣٤) .

وبالرغم من أهمية كل ما سبق فان على المتتبع ان ينظر الى تأثير ثورة اكتوبر الكبير من زاوية اخرى تماما . فانها كانت أقوى ضربة وجهت الى النظام الرأسمالي الذي تحول الى أثقل عبء على كاهل الشعوب المختلفة ، فغيرت بذلك تناسب القوى على الصعيد الدولي بشكل غدا من الضروري اجراء تعديلات في كل الحسابات السابقة للمستعمرين . وهي تحتل بذلك « موقعا متميزا في التأريخ البشري لانها دشنت عصرا جديدا ، هو عصر انتصار الاشتراكية وانهاء استغلال الانسان للانسان » (١٣٥) . ثم ان النظام الاشتراكي الجديد لعب دورا حاسما في انتصار حركات تحررية لشعوب مجاورة للعراق تركت نجاحاتها ـ كما لاحظنا ـ تأثيرا ملموسا على الوعي السياسي لدى رجال الحركة الوطنية العراقية ككل . واخيرا ان انتصار ثورة اكتوبر أفضى الى فضح أقذر صفحة من صفحات الدبلوماسية الاستعمارية السرية التي حبكت أخطر مؤامرة على مصير جميع شعوب الشرقين الادنى والاوسط ، بما فيها العرب والكرد . فبعد يوم واحد من الثورة ، اعلن النظام الجديد رفضه القاطع للدبلوماسية

---

(١٣٣) راجع : «الفرات» ، العدد الثاني ، الافتتاحية .

(١٣٤) راجع ص ٤ من العدد نفسه .

(١٣٥) «الجمهورية» ، بغداد ، ٦ تشرين الثاني ١٩٧٦ .

السرية وتعهد بنشر جميع المعاهدات والاتفاقات التي عقدتها الحكومة القيصرية السابقة مع الدول الكبرى وغيرها ٠ وبعد اسابيع قليلة تم فعلا نشر حوالي مائة معاهدة وعدد كبير من الوثائق والرسائل الدبلوماسية في الصحف المحلية ، بما في ذلك النص الكامل لمعاهدة « سايكس ـ بيكو » المعروفة (١٣٦) ٠ وقد أثار الامر ضجة سياسية كبيرة على صعيد الشرق والغرب ، فاعادت العديد من الصحف العالمية نشر الوثائق السرية هذه ، مما شكل الصدمة الكبرى الاولى والتجربة العملية التي جعلت شعوب المنطقة امام الوجه الحقيقي للدول الاستعمارية ٠ فبدأت الاوساط السياسية تفقد ثقتها بالحلفاء ، بعهودهم ومواثيقهم ، وتتبنى اساليب جديدة في النضال ٠ وان ابلغ دليل على ذلك في مجال بحثنا هذا هو ان « مكتب الثورة » الذي لعب دورا مهما في تهيئة الظروف لتفجير «ثورة العشرين» وقيادتها ، قد دشن اعماله في النجف بعد فضح بنود معاهدة «سايكس ـ بيكو»، كما يذكر ذلك احد مؤسسي المكتب (١٣٧) ٠ وأخيرا فان مواقف وتصريحات مسؤولي النظام الاشتراكي الجديد منحت العديد من ساسة الشرق الاوسط الامل في ظهور قوة جديدة ذات شأن يمكن الاعتماد عليها في مقارعة المستعمرين ، مما يبدو جليا في الحوار الذي

---

(١٣٦) فللتفصيل راجع :
«تاريخ الدبلوماسية» ، (باللغة الروسية) ، الجزء الثاني ، موسكو ـ لينينغراد ، ١٩٤٥ ، ص ٣٠٤ـ٣٠٥ ٠

(١٣٧) راجع : السيد محمد علي كمال الدين ، معلومات ومشاهدات في الثورة العراقية الكبرى لسنة ١٩٢٠ ، بغداد ، ١٩٧١ ، ص ٧٠ ٠

أجراه علي جودت الايوبي (١٣٨) عشية « ثورة العشرين » مع فيصل الاول في سوريا (١٣٩) •

لعبت بنود الرئيس ولسن الاربعة عشر (صدرت يوم ٨ كانون الثاني ١٩١٨) دورا واضحا ، كعامل خارجي ، في تحريك الجو السياسي في العديد من المناطق ضد حليفتي بلاده انكلترا وفرنسا • وبغض النظر عن اهدافها الحقيقية التي لم يكن من السهل ادراك كنهها يومذاك ، فان تلك البنود احتوت على تأكيدات واشارات الى قضايا تخص « وضع نهاية للمعاهدات الدبلوماسية السرية » (البند الاول) ، و « حل حر و صريح ومنصف بشكل مطلق لجميع المنازعات الخاصة بالمستعمرات» مع مراعاة «مصالح سكان المستعمرات» « بنفس وزن الطموحات المشروعة للحكومة التي تحدد حقوقها » (البند الخامس) ، و « ضمان سيادة اكيدة للاجزاء التركية من الامبراطورية العثمانية » ، ومنح الشعوب غير التركية في تلك الامبراطورية « فرصة مطلقة مصونة لتطوير الاستقلال الذاتي » (البند الثاني عشر) (١٤٠) •

---

(١٣٨) تتوفر ، طبعا ، شواهد كثيرة اخرى وردت على لسان ساسة الشرقين الادنى والاوسط او في مواقفهم، وقد اقتصرنا نحن هنا على ذكر هذا المثل لعلاقته المباشرة بالعراق وبثورة العشرين •

(١٣٩) راجع : علي جودت الايوبي ، ذكريات ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٩٠-٩٢ •

(١٤٠) عن نص البنود راجع :
C. E. Black and E. C. Helmreich, Twentieth Century Europe, New York, 1950, PP. 839—840.

انتشرت انباء بنود الرئيس ولسن في كل انحاء العالم بسرعة ، وذلك من جراء الحملة الدعائية الواسعة التي نظمتها الاوساط الامريكية المسؤولة ، ونتيجة الاهتمام الكبير الذي اولته اياها الصحافة والاوساط السياسية الاوروبية المختلفة . وقد نشرت الصحف الشرقية بدورها البنود ، وعلقت عليها . اما في العراق فقد نشرت جرائد « العرب » باللغة العربية(١٤١) و « تيكه‌يشتنى راستى » بالكردية (١٤٢) و « نجمة كركوك » بالتركمانية (١٤٣) ملخصا للبنود الاربعة عشر . وفي تعليق لها على البنود ذكرت « العرب » انها تستهدف « تلبية نداء الشعوب المستعمرة والاذعان لرغباتها ومطاليبها » (١٤٤) .

تتوفر شواهد كثيرة ومختلفة تبين مدى عمق الاثار التي تركها المظهر الخارجي لبنود الرئيس الامريكي في نفوس عدد كبير من زعماء الشرق الاوسط وغيرهم (١٤٥) . فان الشيخ محمود حارب الانكليز في العام ١٩١٩ رابطا فوق زنده الترجمة الكردية للبند الثاني

---

(١٤١) «العرب» ، ٣١ كانون الثاني و ٧ شباط ١٩١٨ .

(١٤٢) «تيكه‌يشتني راستي» ، ١٥ و ١٩ و ٢٢ كانون الثاني ١٩١٨ .

(١٤٣) «نجمة كركوك» ، ٨ شباط ١٩١٩ .

(١٤٤) «العرب» ، ٣١ كانون الثاني ١٩١٨ .

(١٤٥) يقول مؤرخ «الثورة العربية» أمين سعيد ان موقف الرئيس ولسن قوى من تمسك زعماء المنطقة «باستقلالهم ثقة منهم بوعوده وعهوده » (راجع : أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى . تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن ، المجلد الاول ، القاهرة ، بلا ، ص ٣١٧) .

عشر من بنود الرئيس ولسن مدونة مع تصريحات اخرى للحلفاء على أوراق من المصحف الشريف جابه بها الحكام الانكليز اثناء محاكمته ببغداد قائلا لهم انه « حاربهم باسم هذه البنود » ، فلا يحق لاي محكمة عسكرية ان تقوم بمحاكمته (١٤٦) • كما يذكر أحد زعماء « العهد » الموصلي ان عددا من رؤساء العشائر الكردية في منطقة بادينان قد بعثوا عن طريق الجمعية بمذكرات الى مؤتمر الصلح وصاحب البنود الاربعة عشر (١٤٧) •

وكان اول اتصال للشيرازي (١٤٨) على الصعيد الخارجي مع الامريكان • فقد بعث في ١٣ شباط ١٩١٩ برسالة الى الوزير الامريكي المفوض في طهران استعان فيها « بحكومة الولايات المتحدة على المطالبة بحقوق الشعب وانجازها » • وسرعان ما خاطب شخص الرئيس ولسن في رسالة اخرى استهلها بالقول : « ابتهجت الشعوب

---

(١٤٦) راجع :

A. T. Wilson, Mesopotamia 1917—1920, P. 139,

ي٠ ليفين ، العراق ، موسكو ، ١٩٣٧ ، ص ١١٦ ؛ رفيق حلمي ، المصدر السابق ، الجزء الثاني ، بغداد ، ١٩٥٦ ، ص ١٧٠ • يقول وكيل الحاكم العام ارنولد ولسن ان الشيخ محمود جابهه شخصيا بالبند الثاني عشر من بنود الرئيس ولسن وبالتصريح الانكلو ـ فرنسي المعروف الذي صدر يوم ٨ تشرين الثاني ١٩١٨ والذي كان يلتقي في محتواه العام مع ما ورد من أمور في البنود الاربعة عشر للرئيس الامريكي •

(١٤٧) راجع : عبدالمنعم الغلامي ، ثورتنا في شمال العراق ، ص ١١٢ـ١١٤ ، ١٢٨ •

(١٤٨) هو المجتهد الاكبر محمد تقي الحائري المعروف بالشيرازي •

جميعها بالغاية المقصودة من الاشتراك في هذهالحروب الاوروبية من منح الامم المظلومة حقوقها وافساح المجال لاستمتاعها بالاستقلال حسب الشروط المذاعة عنكم • وبما انكم كنتم صاحب المبدأ في هذا المشروع ، مشروع السعادة والسلام العام ، فلا بد ان تكونوا الملجأ في رفع الموانع عنه » (١٤٩) •

واذا حاولنا ان نقترب من « ثورة العشرين » نفسها خطوة اخرى فاننا نرى جريدة «الاستقلال» البغدادية (١٥٠) التي يرى فيها الكثيرون الصحيفة الثالثة للثورة (١٥١) ، تعتبر « مبادىء ولسن ومنشورات الحلفاء ووعودهم » في مقدمة العوامل التي فجرت « ثورة العشرين » على اساس انها رصنت «روح الاستقلال المتسربة في جسم المجتمع العراقي » (١٥٢) • وبعد القضاء على الثورة بفترة وجيزة اكد الدكتور محمد مهدي البصير ، أحد انشط مثقفي الثورة ، الرأي نفسه بالقول :

---

(١٤٩) حول نص الرسالتين راجع : الدكتور علي الوردي ، المصدر السابق ، الجزء الخامس ، القسم الاول ، ص ١٠٤ـ١٠٥ •

(١٥٠) صدر العدد الاول منها في ١٤ محرم ١٣٣٩ ، ٢٨ أيلول ١٩٢٠ ، وكانت تدافع عن قضية الثورة في حدود الامكان ، وأصرت على ضرورة منح العراق الاستقلال التام • وقد رحبت صحافة الثورة بصدورها •

(١٥١) راجع مثلا : عبدالرزاق الحسني ، تاريخ الصحافة العراقية، الطبعة الثالثة ، صيدا ، ١٩٧١ ، ص ٨١ـ٨٢ ؛ يعقوب يوسف كوريا ، المصدر السابق ، ص ٢٥ •

(١٥٢) «الاستقلال» ، بغداد ، ٣ تشرين الثاني ١٩٢٠ •

« واذا اضفنا الى هذه الوعود (يقصد وعود الحلفاء ـ ك٠م٠) اعلان مبادىء الرئيس ولسن الذي كان وقتئذ رسول الحرية الاكبر، تحقق لدينا ان العرب شعروا جميعا بان ساعة انشاء الامبراطورية العربية العظيمة قد دنت » ، فاعتقد العراقيون « انه ليس بينهم وبين تحقيق أمانيهم السياسية المضمون نجاحها بوعود وعهود اعظم ساسة العالم الا اماطة اللثام عن حقيقة الاحوال السائدة عندهم ، فيجب والحالة هذه ان يبرهنوا للملأ على رغبتهم الشديدة في الاستقلال مهما كلفهم الامر ، ثم لا خوف عليهم ما دامت أمريكا نصيرة الانسانية وقائد لواء الحرية بين البشر ، واقفة للمعتدين بالمرصاد ٠ واختمرت هذه الفكرة في رؤوس العراقيين خصوصا في الداخل ، فكان لها الاثر في جميع ما قاموا به من الاعمال الوطنية » (١٥٣) ٠

ومع ان بنود الرئيس ولسن تركت اثرها الواضح في الوسط السياسي العراقي ، كما كان عليه الامر في كل أقطار الشرقين الادنى والاوسط ، الا ان قطاعا محدودا من الوطنيين العراقيين يدخلون ضمن القلائل جدا من ساسة المنطقة «١٥٤» الذين ادركوا في وقت مبكر كنه تلك البنود٠ فعندما كان يسود الوسط السياسي السوري، وأوساطا سياسية عراقية ، تفاؤل غير مبرر بسبب صدور البنود الاربعة عشر ومجيء كنك وكريين ممثلين عن الرئيس الامريكي الى فلسطين

---

(١٥٣)؛ محمد مهدي البصير ، المصدر السابق ، الجزء الاول ، ص ٥٥ـ٥٦ ٠ وردت عبارات مشابهة في ص ٧٦ من الكتاب نفسه٠

(١٥٤)؛ منهم مصطفى كمال أتاتورك ٠

وسوريا ، وعندما كانت التأكيدات تأتي من مركز « جميعة العهد » في دمشق حول ضرورة طلب «مساعدة امريكا الديمقراطية»(١٥٥)، هب فرع « العهد » في الموصل ليعطي الموضوع حقه بشكل مدرك • ففي رد الفرع بتاريخ ٨ تشرين الثني ١٩١٩ على ما أثاره المركز حول الموضوع ورد مثل هذا الرأي النادر جدا لوقته :

ان « امريكا لم تدخل الحرب لاجل تخليص الامم الضعيفة كما تزعم ، انما دخلت الحرب مضطرة » • وبعد تأكيد التشابه بين موقف الولايات المتحدة وموقف انكلترا يقول الرد « وعلى هذا فليس لنا من أمل نعقده على هذه الدولة » (١٥٦) • وعند تقييمنا لمثل هذا الموقف الصائب يجب ان نتذكر ان معظم قادة الشرق (سعد زغلول، عصمت اينونو ، أبرز زعماء سوريا وغيرهم) كانوا يعقدون آمالا جساما على موقف امريكا ، ولاسيما على البنود الاربعة عشر للرئيس ولسن •

وقد قيم مثقفو « ثورة العشرين » انفسهم وعود وعهود الحلفاء ومقررات مؤتمراتهم بشكل صحيح ، مما له دلالته السياسية عند تقييم الثورة • فقد وردت في العدد الاول من جريدة «الفرات» الملاحظة الدقيقة التالية :

---

(١٥٥) هذا ما ورد في رسالة بعثها مولود مخلص من سوريا الى فرع الجمعية في الموصل بتاريخ ٢٥ حزيران ١٩١٩ (راجع : «صدى الاحرار» ، ٩ كانون الثاني ١٩٥٣) •

(١٥٦) راجع : «صدى الاحرار» ، ٣ نيسان ١٩٥٣ •

وقد صبر العراقيون « حتى عيل صبرهم من مؤتمر «فيرساي»• وجاء مؤتمر «سان ريمو» ضغثا على ابالة ، تمثل في مقرراته احكام العصور المظلمة ، مستهينا بالامم الشرقية ، ساحقا مميزاتها القومية ، متنكرا حقوقها الطبيعية كأن هذه الامم أكلة سائغة » (١٥٧) •

هذ مجتمعة كانت العوامل التي هيأت الظروف الموضوعية التي دفعت بكل الحركة الوطنية العراقية الى مجرى معاد للاستعمار البريطاني ، وهي تختفي بنسب مختلفة وراء الانتفاضات والتحركات التي شملت معظم انحاء العراق منذ أن وضعت الحرب العالمية الازلى أوزارها • ومن الجدير بالذكر ان العديد من المسؤولين الانكليز (وكيل الحاكم المدني العام ولسن والقائد العام للقوات البريطانية العاملة في العراق هالدين وغيرهما) يقرون ، بشكل أو بآخر ، تأثير هذه العوامل في خلق جو عام من الاستياء بين العراقيين (١٥٨) • وقد أكد العديد من وثائق «ثورة العشرين» ومصادرها أو المشاركون فيها أهمية هذه العوامل (١٥٩) التي تجسدت مع ظهور المقدمات الاولى

---

(١٥٧) «الفرات» ، العدد الاول ، ٢١ ذي القعدة ١٣٣٨ (٧ اب ١٩٢٠) •

(١٥٨) راجع مثلا :

A. T. Wilscn, Mesopotamia 1917—1920, PP. 311—312

(١٥٩) راجع مثلا : «الاستقلال» ، بغداد ، ٣ تشرين الثاني ١٩٢٠ ؛ محمد مهدي البصير ، المصدر السابق ، الجزء الاول ، ص ٦٤ـ٧١ • لخصت جريدة «الاستقلال» في عددها المذكور أسباب الثورة بسبعة عوامل أساسية هي روح الاستقلال ، =

للثورة وفي الانتفاضات الكردية التي شملت اكثر من منطقة قبل أن تنفجر تلك .

مقدمات الثورة والمنطقة الكردية

غالبا ما تسبق الانفجارة الاكبر انفجارات متفرقة أصغر تهيء الاذهان اكثر للهجمة العاصفة التي تستوعب عادة تلك الروافد لتشكل معا مجرى موحدا . وهكذا كان الامر بالنسبة لـ « ثورة العشرين » التي سبقها نضال جماهيري شكل الرفض الاول للاحتلال البريطاني . وقد برزت مدينة النجف بشكل خاص في ذلك النضال . فان هذه المدينة قد شهدت في السنتين الاخيرتين من الحرب العالمية الاولى نشاطا سياسيا فريدا من نوعه بالنسبة لظروف الحرب . فعندما كانت تختفي المنظمات السياسية في المناطق العثمانية الاخرى ، كانت تتشكل في النجف جمعيات سرية جديدة من قبيل «النهضة الاسلامية»(١٦٠)، ويظهر اسلوب توزيع النشرات السرية المعادية للمحتلين

=

مبادىء ولسن ووعود الحلفاء، سوء تصرف الحكام ، اعتماد الانكليز على من لايعتمد عليهم الشعب ، قمع انتفاضة النجف بقسوة ، استياء الزعماء وأخيرا نفي الوطنيين .

(١٦٠) اسسها عدد من رجال الدين المعروفين في النجف ضد الاحتلال ، وقد زاولت نشاطا سياسيا واسعا خلال السنة الاخيرة من الحرب .

الانكليز (١٦١) ، وتجري الاتصالات مع جهات مختلفة ، بما في ذلك أسياد البلاد السابقين ، في سبيل ضمان استقلال البلاد . وسرعان ما تمخض هذا النشاط عن نضال ايجابي ضد السيطرة الاجنبية الجديدة . فلم تستكمل القوات البريطانية احتلال العراق في السنة الاخيرة من الحرب عندما انفجرت انتفاضة جماهيرية ضدها في المدينة لتدشن بداية سلسلة من الحركات والانفجارات المحلية التي شكلت مقدمات مهمة وضرورية للثورة (١٦٢) . فمنذ مطلع العام ١٩١٨ وقعت في منطقة النجف اعمال معادية لقوات الاحتلال أسفرت عن مقتل وجرح عدد من رجالها . وفي ١٩ آذار اغتال النجفيون حاكم المدينة الكابتن مارشال W. M. Marshall وذلك في حركة منظمة لعب فيها اعضاء « جمعية النهضة الاسلامية » الدور الفعال والقيادي. وقد أثار ذلك المسؤولين الانكليز الذين أزمعوا على اتخاذ اجراءات مشددة تصبح درسا لكل من يفكر بالخروج على ارادتهم .وهكذا فرضوا على مدينة النجف حصارا استمر لمدة حوالي ٤٠ يوما ، وفي ٣٠ آيار ١٩١٨ نفذوا حكم الموت بحق ١١ وطنيا ، والقوا القبض على عدد كبير من الناس ، وابعدوا ١٢٣ شخصا الى الهند .ولكن كل هذه

---

(١٦١) راجع : محمد رضا الشبيبي ، ثورة النجف ضد الاستعمار البريطاني ١٩١٧-١٩١٨ ، - «الثقافة الجديدة» ، بغداد ، العدد ٤ ، تموز ١٩٦٩ .

(١٦٢) للتفصيل عن أحداث النجف في تلك الفترة راجع : عبدالرزاق الحسني ، ثورة النجف بعد مقتل حاكمها الكابتن مارشال ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٧٨ .

الاجراءات لم يفت من عضد الوطنيين كما توقع الانكليز، بل على العكس من ذلك ، وحسب منطق التاريخ وقوانينه ،أجج نار الحقد الدفين في نفوس النجفيين وغيرهم (١٦٣) ، مما انعكس واضحا في النشاط السياسي المتصاعد الذي تميزت به مدينة النجف ، وفي الدور الابرز الذي لعبته بعد ذلك في «ثورة العشرين» ، وأخيرا في سلسلة الحركات والانتفاضات التي شهدت المناطق العراقية المختلفة انفجاراتها المستمرة • ومن الجدير بالذكر ان صحافة الثورة اشارت صراحة الى ما تركته انتفاضة النجف من تأثير عميق في تنبيه أذهان العراقيين الى واقع المحتل الجديد (١٦٤) •

وعلى غرار النجف لم تمض سوى فترة وجيزة على فرض السيطرة البريطانية على المنطقة الشمالية في الايام الاخيرة للحرب العالمية الاولى حتى انفجرت هناك سلسلة متواصلة من الانتفاضات • فان عوامل الاستياء من سياسة الانكليز العامة كانت تعمل عملها في الوسط الكردي بمستوى وشكل لايختلفان في شيء عما كان عليه الامر في بقية انحاء البلاد • وفي ذلك يكمن التفسير الاول لذلك المد الثوري العارم الموجه ضد الوجود البريطاني ، مما كان له موقعه بين العوامل التي هيأت الظروف الموضوعية لانفجار

---

(١٦٣) هذا ما يؤكده جميع الذين اشتركوا في الثورة وكتبوا عنها فيما بعد ، منهم ، كما ذكرنا في حينه ، الدكتور محمد مهدي البصير •

(١٦٤) راجع مثلا : «الفرات» ، العدد الثاني ، ٢٨ ذي القعدة ١٣٣٨ (١٤ اب ١٩٢٠) •

«ثورة العشرين» التي لم يكن في وسع المنطقة الكردية ، للاسباب نفسها ، أن تبقى بعيدة عن أوارها .

وقعت الانتفاضة الكردية الاولى ضد الانكليز في منطقة زاخو، عندما اعلنت عشيرة كويان (١٦٥) في أواخر اذار ١٩١٩ خروجها على سلطة الاحتلال ، وذلك بسبب استياء أفرادها الكبير من السياسة التي اتبعها المحتلون في منطقتهم . وكان اول عمل مهم قام به الثوار انهم دبروا أمر اغتيال ضابط المنطقة السياسي الكابتن پيرسون A. C. Pearson في كمين نصبوه له عندما كان يقوم بجولة تفقدية ، ولكن دون ان يصيبوا احدا من مرافقيه وحراسه بأذى ، مكتفين بتجريدهم من أسلحتهم فقط ، وقد كان معظمهم من السكان المحليين من كرد وعرب ، مما دفع المسؤولين الانكليز الى الاعتقاد بأن هؤلاء كان لهم يد في وضع خطة الاغتيال (١٦٦) . ومع ان المحتلين لجأوا مباشرة الى استخدام الطائرات ضد الثوار ، ومع أن حاكم الموصل ليجمن أسرع الى المنطقة لاتخاذ الاجراءات الكفيلة بوضع نهاية لانتفاضة الكويان ، الا ان نطاق الانتفاضة قد توسع خاصة وانها حفزت افراد العشائر الاخرى للانتفاض

---

(١٦٥) كانت عشيرة نصف متنقلة ، بلغ تعدادها انذاك اكثر من الفي أسرة ، وقدر عدد مسلحيها باكثر من الف شخص .

(١٦٦) راجع : مس بيل ، المصدر السابق ، ص ٩٧ .

بدورهم (١٦٧) • ولم تتمكن قوات الاحتلال من القضاء على الانتفاضة حتى أواخر الصيف• وفي تعقيب له على عمليات قواته العسكرية في هذه المنطقة ذكر أرنولد ولسن انها لو جرت أثناء الحرب « لما كانت تشغل كل الصحافة حسب ، بل كانت تسجل كذلك صفحة خالدة في التاريخ الرسمي لحرب العراق »(١٦٨) • وحسب قوله ايضا ان هذه التجربة أثبتت مدى حاجتهم الى وجود قوات نظامية كبيرة في المنطقة الكردية •

استخدم المحتلون الانكليز كل ما توفر لديهم من أساليب القسوة للقضاء على انتفاضة الكويان ، فاضطر العديد من الثوار للاختفاء في المناطق الحصينة أو العبور الى الجانب الاخر من الحدود • وقد امتدت آثار اجراءات سلطات الاحتلال الى أفراد هذه العشيرة المسالمين حيثما وجدوا ، وذلك بسجنهم او محاربتهم في عيشهم (١٦٩) •

قبل ان يستطيع الانكليز القضاء على الحركة في كويان اندلعت

---

(١٦٧) للتفصيل عن وقائع الكويان راجع : محمد طاهر العمري ، المصدر السابق ، الجزء الثالث ، ص ١١٤ـ١١٦ ؛ عبدالمنعم الغلامي ، ثورتنا في شمال العراق ، ص ٣٤ـ٤١ ؛
A. T. Wilson, Mesopotamia 1917—1920. PP. 147, 150—152; S. H. Longrigg, Op. Cit., P. 102.

(١٦٨)
A. T. Wilson, Mesopotamia 1917— 1920, PP. 150—151.

(١٦٩) راجع : مؤرخ ، صفحات مطوية من تاريخ الحركة الوطنية ، ـ «صدى الاحرار» ، ٣ نيسان ١٩٥٣ •

نيران انتفاضة اكبر ضدهم في منطقة السليمانية بقيادة الشيخ محمود (١٧٠) الذي انزل العلم البريطاني من على سارية مقر الحاكم السياسي والقى القبض على جميع الانكليز الموجودين في المدينة . وقد استمرت الحركة تتوسع بحيث عجزت مناورات الانكليز وكذلك حملتهم الاولى عن وضع حد لها . وقد خسر المحتلون خلال حملتهم تلك من سيارات النقل فقط ١٩ سيارة (١٧١) . بعد ذلك اضطروا الى توجيه حملة عسكرية كبيرة بقيادة الجنرال فريزر (T. Fraser) ضد الثوار الذين تحصنوا في مضيق بازيان . ولكن خيانة احد الاقطاعيين وجرح الشيخ نفسه سهلا مهمة هذه القوة التي تمكنت بعد قتل ٤٨ وجرح عددا كبر وأسر ١٢٠ من الثوار (١٧٢) من القضاء على الانتفاضة . الا أن المحتلين الانكليز احتاجوا الى ما لا يقل عن شهرين اخرين قبل ان يتمكنوا من اعادة سيطرتهم السابقة على كل المنطقة . اما الشيخ نفسه فقد قدم الى محكمة عسكرية

---

(١٧٠) تحتاج الانتفاضة التي قادها الشيخ محمود في العام ١٩١٩ الى دراسة مفصلة نظرا لاهميتها ، ولكونها بداية مهمة لحركة واسعة استمرت لسنوات كثيرة بعد القضاء على « ثورة العشرين » . واننا هنا نستعرضها باختصار كمؤشر اخر لحركة التحرر الوطني للشعب الكردي في تلك المرحلة ، ولما كان لها من وقع كبير في المناطق الاخرى .

(١٧١) A. T. Wilson, Mesopotamia 1917—1920, P. 137

(١٧٢) C. J. Edmonds, Op. Cit., P. 46 ؛ علي سيدو الكوراني ، من عمان الى العمادية او رحلة في كردستان الجنوبية ، عمان ، ١٩٣٩ ، ص ١٠٦ .

أصدرت حكم الموت بحقه ، ولكن وكيل الحاكم العام ولسن اضطر الى تبديل الحكم الى السجن لمدة عشر سنوات مع غرامة قدرها ١٠ آلاف روبية ، علما بأنه كان يرى في موت الشيخ « أهم عنصر للاستقرار في كردستان الجنوبية » حسب أعترافه (١٧٣) ، الا انه كان يخشى عواقب ذلك ، ولاسيما ان الاوضاع كانت تشير بوضوح الى ان العراق كله مقبل على انفجار عام • وقد برر البلاغ الرسمي تبديل الحكم هذا بحسن تصرف الشيخ مع المعتقلين الانكليز (١٧٤)•

لم تضع هذه الضربة القوية ايضا نهاية للانفجارات الكردية المعادية للاستعمار الانكليزي • فانتقل الثقل من جديد الى منطقة بادينان التي شهدت قبل حلول العام ١٩٢٠ مصرع العشرات من قوات الاحتلال (١٧٥) ، بما في ذلك عدد كبير من ضباطهم ، منهم الحاكم السياسي لمنطقة الموصل بيل (J. Bill) الذي يقيم ولسن

---

(١٧٣) A. T. Wilson, Mesopotamia 1917—1920, P. 139

(١٧٤) راجع نص البلاغ في «العرب» ، ٢ أيلول ١٩١٩ •

(١٧٥) تقدر بعض المصادر هذه الخسائر بالفي قتيل ومئات من المفقودين (راجع : عبدالمنعم الغلامي ، الضحايا الثلاث ، الموصل ، ١٩٥٢) • ويقدر انور المائي خسائر الانكليز في موقعة واحدة بالقرب من بامرني بـ ٥٠٠ قتيل وحوالي ٨٠٠ جريح و ٣٢ أسير (راجع : انور المائي ، المصدر السابق ، ص ٢٣٨) • ولئن كان في ذلك مبالغة واضحة ، الا انه يدل، في كل الاحوال ، على عظم الخسائر وماكان الناس يتداولون بشأنها •

خبراته وخدماته عاليا (١٧٦) والضابط السياسي في العمادية وايـلي (D. Willey) ومساعداه ضابطا البوليس مكدونالد H. Macdonald وتروب (R. Troup) ومعاون الحاكم السياسي في عقرة الكابتـن سكوت (K. Scott) وغيرهم .

تعتبر « انتفاضة تلعفر » من الاحداث المهمة التي سبقت « ثورة العشرين » والتي يرى فيها معظم المؤرخين واحدة من المقدمات المهمة للثورة المذكورة (١٧٧) . وتكمن اهمية اخرى للانتفاضة في انهـا جسدت ، بشكل او بآخر ، ارادة وتضامن جميع القوميات العراقيـة في مناهضة الاحتلال البريطاني (١٧٨) . وقد أدت هذه الانتفاضـة

---

(١٧٦) راجع :
A. T. Wilson, Mesopotamia 1917—1920, P. 152

(١٧٧) للتفصيل عنها راجع : قحطان أحمد عبوش التلعفري ، ثورة تلعفر ١٩٢٠ والحركات الوطنية الاخرى في منطقة الجزيرة ، بغـداد ، ١٩٦٦ .

(١٧٨) من الطريف ان نشير هنا الى ان الثوار عندما حرروا بلدة تلعفر ووصل قسم منهم الى مقر حكومة الاحتلال فيها وحاول سلب موجودات خزانتها توجه اليهم عبدالحميد الدبوني ، من قادة الانتفاضة البارزين ، وأخذ « يخاطبـهم بالعربيـة تـارة ، وبالتركية تارة ، وبالكردية تارة ، حيث ناشدهم ان يتركوا المال ... » (راجع : قحطان أحمد عبوش التلعفري ، المصدر السابق ، ص ٢٢٣) . عن موقف الاكراد من «انتفاضـة تلعفر» راجع كذلك :

W. Empson, The Cult of the peacock angel. A short account of the yezidi tribes of Kurdistan, London, 1928, P. 92.

التي انفجرت في بداية حزيران ١٩٢٠ الى تحرير تلعفر من قبضة الانكليز ومقتل جميع البريطانيين والهنود العاملين هناك • ومع أن سلطة الاحتلال تمكنت من القضاء على الانتفاضة بعد أيام قلائل بقسوة (١٧٩) ، الا انها تركت صداها في الاوساط والمناطق الاخرى، بما في ذلك الوسط الكردي • فباعتراف الكابتن هيي أن احداث تلعفر ادت الى تردي وضع الانكليز في اربيل بشكل ملموس ، لاسيما جراء تصاعد نشاطات المعادين للوجود البريطاني ، ممن كانوا « يبشرون بالثورة علنا في الميادين والمقاهي »(١٨٠) •

ومما يجدر بالذكر هنا ان فرع الموصل لجمعية العهد قد وزع منشورا على رؤساء العشائر الكردية عشية انتفاضة تلعفر يحثهم فيه على المساهمة في الحركة المرتقبة ، وذلك بالاشتراك مع اخوانهم «بفريضة الجهاد» ليكونوا « يدا واحدة على الاعداء الغاصبين » • ومما جاء في المنشور أيضا :

« ايها الموحدون : انكم اكثر عددا واقوى شكيمة من هؤلاء الاعداء ، وانتم على الحق وهم على الباطل ، فان استعنتم بالله عليهم وصبرتم كما صبر اسلافكم في المعارك وميادين الجهاد فالله تعالى ينصركم ويثبت أقدامكم كما نصرهم من قبل ، ويعيد اليكم كرامتكم،

---

(١٧٩) اضطر معظم سكان تلعفر وابناء العشائر المجاورة الذين اشتركوا في الانتفاضة ، الى ترك مناطقهم ، وقد وجد العديد منهم المأوى بين العشائر وفي القرى الكردية •

(١٨٠) W. R. Hay, Op. Cit., PP. 267 — 268

ويحفظ حقوقكم ويرد كيد المبطلين عنكم ... هذا ويجب ان تعلموا وتذكروا ، ايها المسلمون ، ان في بلادنا جماعات كثيرة من غير المسلمين ، عاش فيها اباؤهم منذ مئات السنين ، وقد أوجب علينا الدين الاسلامي ان نراعي حقوقهم ، ونصون كرامتهم ، ونحفظ جوارهم ، وان لانؤذيهم ونعتدي عليهم (١٨١) ، ان الله لايحب المعتدين » (١٨٢) .

ماكان بوسع هذه الانفجارات أن لاتؤثر بشكل أو بآخر ، على الاقل في اطار الترابط العمودي بين الاحداث ، في تهيئة جو اكثر ملائمة للانفجارالاكبر المتمثل في «ثورة العشرين» . فقبل كل شيء ان الحركات الكردية اسهمت جديا في اضعاف موقع الانكليز في جزء حساس من البلاد ، وهو ما تعترف به الوثائق الرسمية البريطانية صراحة . ففي برقية من وزير الهند الى الحاكم البريطاني العام في بغداد تحمل تاريخ ٢٢ اب ١٩١٩ جاء ما نصه :

« ان حكومة صاحب الجلالة ايدت حتى الان انتشار النفوذ البريطاني في كردستان الجنوبية لانها كانت واثقة من ان السكان يرحبون بالانكليز ... ولكن غدا الان واضحا عدموجود مايبرر مثل هذا الاعتقاد ، فان السكان لايرغبون في النفوذ البريطاني ، بل يعادونه

(١٨١) موقف جدير اخر من مواقف العهديين في الموصل يدل على تقديرهم الصائب للامور ولما كان يبذله الانكليز من محاولات لدق اسفين بين العراقيين عن طريق استغلال العواطف الدينية والطائفية والقومية جريا على سياستهم المعروفة .

(١٨٢) راجع : «البلاد» ، بغداد ، ٢٦ تموز ١٩٥٥ .

بقوة ، لذا من الضروري تشييد السكك لكبح جماحهم » • وجاء في برقية اخرى مماثلة مؤرخة في ٢٢ تشرين الثاني من العام نفسه ان «كردستان يجب ان تترك وشأنها »(١٨٣) • ومن المهم ان نشير الى ان هذا الامر لم يكن خافيا على بعض الاوساط العراقية • فقد ورد في احدى وثائق « جمعية العهد ـ فرع الموصل» ما نصه :

« من جملة استخباراتنا أن حكومة لندن قد أمرت حكومة الاحتلال (١٨٤) باخلاء بعض المناطق الكردية شمالي زاخو والعمادية وبعض جهات عقرة من سكانها بأي وسيلة كانت » (١٨٥) •

ومن جانب آخر انتشرت انباء الانتفاضات الكردية بسرعة بين الناس في المناطق الاخرى ، فلم يكن في الامكان اخفاء مثل تلك الاحداث الكبيرة التي كانت تتكرر بين يوم وآخر • كما لعبت المنظمات السياسية السرية العاملة في مدينة الموصل على نشر أخبارها، ولاسيما ان قادتها كانوا على اتصال مباشر بعدد من زعماء منطقة بادينان وكانوا يتلقون أخبار اندحارات الانكليز بحرارة بالغة ويعملون

---

(١٨٣) راجع :
S. S. Gavan, Kurdistan. Divided Nation of the Middle East, London, 1958, PP. 29—31.

(١٨٤) في النص : « حكومة العراق » •

(١٨٥) ورد ذلك ضمن تقرير بعثه الفرع الى المركز في الشام بتاريخ ٢٧ اب ١٩١٩ (راجع : «صدى الاحرار» ، ٢٠ شباط ١٩٥٣) •

على نشرها بما تيسر لهم من سبل (١٨٦) ٠ فقد ورد في وثيقة مهمة لـ «جمعية العهد ـ فرع الموصل» بعثتها يوم ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٩ الى مركز الجمعية في الشام ان «الانكليز لايتركون العراق الا اذا اضطروا بقوة السلاح ، اما سكان البلاد (١٨٧) فلا تنتظر منهم فائدة لانهم مشتغلون بتحصيل رزقهم ابان هذا الغلاء المستولي على العراق، وقد استخنث الكثير منهم ، فلم يبق الاعتماد بطرفنا الا على أعضاء جمعيتنا وهم قوة لايستهان بها ، وكذلك على سكان البوادي والجبال، فالكرد عصيانهم متوال على الحكومة الاحتلالية ، وفي كل يوم لهم وقائع وأخبار،وقد قتلوا سابقا حاكم زاخو ثم حاكم العمادية ، وفي أوائل الشهر قتلوا حاكم ولاية الموصل المستر بيل وحاكم عقرة... ثم استولوا على عقرة نفسها ، فاثارتهم ممكنة ...» (١٨٨) ٠ وبالاسلوب نفسه كان «العهد» الموصلي يزود فرع الجمعية وبعض الشخصيات في بغداد بأخبار مايجري في كردستان من وقائع ضد الاحتلال (١٨٩) ٠

---

(١٨٦) راجع : عبدالمنعم الغلامي ، الضحايا الثلاث ، ص ٦٢ ٠ أكد المؤلف الشيء نفسه في الجزء الاول من كتابه الاخر «ثورتنا في شمال العراق» (راجع عنه الهامش رقم ٤٩) ٠ وكما نلاحظ فيما بعد وردت معلومات طريفة حول هذا الموضوع في جريدتي «صدى الاحرار» الموصلية و «البلاد» البغدادية ٠ راجع ايضا : قحطان أحمد عبوش التلعفري ، المصدر السابق، ص ٩٠ ٠

(١٨٧) تقصد فئات معينة من سكان مدينة الموصل ٠

(١٨٨) راجع : « صدى الاحرار » ، ٣ نيسان ١٩٥٣ ٠

(١٨٩) راجع : عبدالمنعم الغلامي ، ثورتنا في شمال العراق ، ص ٦٨٠

وكما تبين وثائــق الجمعية نفسها ان أحداث كردستان وجدت شيئا من الانعكاس العملي بين الوسط الثقافي العربي في مدينةالموصل. فعندما قامت قوات الاحتلال بقيادة ليجمن بضرب بــامرني وباعتقــال شيوخها النقشبنديين في بداية اب ١٩١٩ ، رفع فرع الموصل تقريرا مفصلا عن الحادث الى المركز العام بدمشق وشعبته في حلب يــوم ١٤ اب وردت فيه هذه النقطة التي لها مغزاها في مجال بحثنا :

« ... ولما علم أهالي الموصل بأعتقال الشيخ بهاءالدين افنــدي وأقاربه بهذه الصورة المؤلمة تألموا كثيرا وتكدرت منهم الخواطر بالنظر الى المنزلة الدينية التي يتمتع بها حضرته ، وبعد مداولات واتصالات بين بعض العلماء والكبراء والشبان على اختلاف في الميول الوطنيــة والمباديء السياسية ، قصد بعض العلماء الحاكم السياسي ليجمن في محله الرسمي للتوسط باخلاء سبيل الشيخ ورفقائه من السجــن وابقائهم تحت النظارة في الموصل فيما اذا كان مايمنــع اعــادتهم الى مكانهم ، ولكن الحاكم السياسي لما علم مقصدهم غضب غضبا شديدا وأخذ يصرخ ويتوعد ، فانصرف من عنده العلماء خائبين » (١٩٠) .

ويؤكد هذا الانعكاس لاحداث كردستان نفسه اكثرفي جواب المركز على تقرير فرع الموصل الذي ذكر بالنص :

---

(١٩٠) راجع نص التقرير في «صدى الاحرار» ، ١٣ شباط ١٩٥٣ (أسماء الذين قابلوا لجمن في مقره مذكورة في نفس العدد من الجريدة) . حول الموضوع راجع كذلك مايذكره عبدالمنعــم الغلامي في ص ٦٦ من كتابه «ثورتنا في شمال العراق» .

« ... وقد تأثرنا جدا من خصوص ضرب قرية بامرني واعتقال أكابرها وأتباعهم ، وما يقوم به الجيش المحتل من مظالم وتعسفات ، ولاشك ان هذا كله مما يدعونا الى بذل كل ما في الامكان لتخليص بلادنا ، كما يدعوكم الى التمسك بشدة في عروة الاتحاد التام والصبر والسكون الى الوقت المرهون » (١٩١) .

وعندما نفي الشيخ بهاءالدين النقشبندي الى بغداد اتصل عهديو الموصل ببعض الشخصيات في بغداد طالبين منهم الاهتمام به ورعايته كوطني تعرض لاضطهاد الانكليز (١٩٢) .

الى جانب ذلك كانت الجرائد المحلية الناطقة بلسان الانكليز - «العرب» ومن ثم «العراق» في العاصمة و «الموصل» في الموصل و «الاوقات البصرية» في البصرة - تذيع انباء كردستان بشكل ملفت للنظر ، خاصة ماكان يتعلق منها بمقتل الضباط والحكام الانكليز الذين كانت تنشر هذه الصحف ، عادة ، نبذة عن تاريخ حياة وخدمات كل واحد منهم في مكان بارز . فمثلا عندما اغتيل الحاكم السياسي لمنطقة الموصل بيل ومعاون الحاكم السياسي في عقرة سكوت كتبت جريدة «العرب» تحت عنوان «حادث مؤسف» مايلي :

« وافت أخبار من الموصل تنبيء بوفاة المستر ج. هـ. بيل

---

(١٩١) راجع نص الرد في «صدى الاحرار» ، ٢٧ شباط ١٩٥٣ .

(١٩٢) راجع : عبدالمنعم الغلامي ، ثورتنا في شمال العراق ، ص ٦٨.

حاكم سياسي الموصل (١٩٣) والكابتن ك. سكوت معاون حـاكم سياسي عقرة،وقد قتلهما المعادون من الاكراد في ٢ تشرين الثـاني. وتدل التقارير الواردة ان الحاكمين بينما كانا قائمين بجولة بحراسة قوة كبيرة من الخفر خرج عليهم كمين من الاعداء بالقرب مـن بيره‌كه‌بره ...، فقتلهما (١٩٤) . ومن الجدير بالذكر ان مقتـل الكابتن كينت سكوت ترك صدى كبيرا في مختلف الاوساط لكونـه نجل جيمس سكوت معاون سكرتير نائب الملك في الهند سابقا .

لم تمر سوى فترة وجيزة عندما نشرت الجريدة نفسها في مكان بارز على صدر صفحتها الاولى (! !) نبأ « ختام الاعمال الحربية في كردستان » الذي تحدث عن تجريد قوة «قوامها أربعة طوابـير من المشاة الهنود ومن مدفعية جبلية وثلاث فصائل من النسـاطرة » «لاقت صعوبات جمة» في شمـال شرقي الموصـل وجنـوب شرقي العمادية (١٩٥) . كما نشرت الصحف المحلية أنباء بامرني وضربها من قبل قوات الاحتلال واعتقال مشايخها (١٩٦) .

أحدثت الانتفاضة التي قادها الشيخ محمود صدى أكبر من كل ذلك في بقية أرجاء البلاد . ولم ينجم ذلك عن زخم الحركة وحجمهـا حسب ، بل كذلك عما كان يتمتع بها قائدها من سمعة في مختلـف

---

(١٩٣) نقل دون تصرف .
(١٩٤) «العرب» ، ١٢ تشرين الثاني ١٩١٩ .
(١٩٥) «العرب» ، ٢٩ كانون الاول ١٩١٩ .
(١٩٦) راجع : «العرب» ، ١٥ اب ١٩١٩ .

المناطق كسليل أسرة دينية معروفة وكأحد قادة موقعة الشعيبة ضد الانكليز في بداية الحرب ، والذي منحته ، واجداده ، احدى الاهزوجات الشعبية الجنوبية في حينه «ثلث الجنة» (١٩٧) . فكان

---

(١٩٧) في محاولة لوقف زحف القوات البريطانية اثناء الحرب العالمية الاولى عمل المسؤولون العثمانيون لتحريض العشائر العربية والكردية على الاشتراك في القتال الدائر ضد الانكليز بأسم « الجهاد » ، واستطاعوا فعلا اثارة مشاعر الكثيرين عن هذا الطريق . فلم يمر على احتلال البصرة وقت طويل حتى احتشد حوالي عشرة الاف مقاتل قرب مدينة الناصرية يدفعهم الحماس الديني لردع القوات الغازية . وكان يوجد بين هؤلاء اكثر من الف خيال كردي يقودهم الشيخ محمود ، والذين اشتركوا في المعركة المعروفة التي وقعت في نيسان ١٩١٥ بالقرب من الشعيبة . وقد جلب اشتراك هؤلاء الاكراد انتباه الناس في الوسط والجنوب حيث كانوا يستقبلونهم بحماس في كل مكان يمرون به ، وكانوا يقدمون لهم كل مايحتاجون دون مقابل . يصف احد المشتركين في قوات الشيخ محمود الامر هكذا : « ما ان وصلنا ... بغداد حتى اصطف الناس على جانبي الطريق ، يهلهلون ويكبرون ويصفقون لنا ، ويقرعون الطبول والدفوف ويرددون الاهازيج الحماسية والمدائح الدينية التي تحث على الجهاد، كما تعالت زغاريد النسوة في الفضاء ، وهن محجبات ، يتطلعن الى الموكب من اعالي السطوح في منطقة قرب الجسر العتيق (المأمون حاليا) ... لقد خرجت بغداد بشيبها وشبابها وأطفالها ونسائها لاستقبال اخوتهم الاكراد» (راجع : حسين احمد الجاف ، دور الشعب الكردي في ثورة العشرين الوطنية التحررية ، ـ «العراق» ، ٢٩ حزيران ١٩٧٨) . وانذاك ظهرت اهزوجة شعبية رددها الناس بنوعين : «ثلثين الجنة لهادينا وثلثها لكاك احمد وأولاده » او « ثلثين الجنة لهادينا وثلثها للشيخ أحمد واكراده » . ومن الجدير بالذكر ان الكثيرين من ابناء الجيل السابق لايزالون

=

من الطبيعي ان تولي الصحافة حركته اهتماما اكبر من غيرها وذلك بحكم حجمها وعدم امكان اخفائها اولا ، وثانيا لان سلطات الاحتلال كانت تريد ان تظهر نفسها بمظهر القوة وتعطي عبرة ـ حسب اعتقادها ـ لمن تسول له نفسه الخروج على ارادتها سواء من جراء تذمرها او بتاثير إنتفاضة الشيخ محمود . فاذاعت عددا كبيرا من البلاغات الرسمية عن تحركات قواتها واجراءاتها . وقد نشرت الجرائدالمحلية معظم هذه البلاغات في واجهة الصفحة الاولى وفي مكان المقالالافتتاحي بالذات . واكثر من ذلك بادرت سلطة الاحتلال ، مع انفجار الحركة مباشرة ، الى توزيع بيان مستقل بصفحة واحدة (٢٤٫٥ × ١٩ سم) كملحق لجريدة «العرب» البغدادية هذا نص ما ورد فيه :

=

يتذكرون هذه الحوادث جيدا . فان عامل البناء سابقا الحاج عبد جرجان من السماوة والبالغ من العمر حوالي ٨٠ عاما ذكر عند استجوابه مانصه : « عندما ذهب المجاهدون الى معركة الشعيبة كان معهم «بعض اخوتنه الاكراد» ، وعددهم حوالي ١٥٠٠ رجل ، وكان قائدهم الشيخ احمد (يقصد الشيخ محمود ـ ك. م.) ، ولما مروا بالسماوة قمنا باستضافتهم في بيوتنا ، وهؤلاء جاءوا للحرب ضد الانكليز ، لنصرة امتنا الاسلامية ، لانهم اخوتنه ومسلمين ، لهذا فقد كانت هذه الهوسة تردد عندما ذهبوا للقتال في الشعيبة : ثلثين الجنة لهادينا وثلثها للشيخ احمد واكراده » (رجاء احمد ، بحث ميداني عن «ثورة العشرين» . يؤكد صاحب البحث رجاء على صدق وحماس وقوة ذاكرة هذا العامل البسيط) .

(١٩٨) راجع على سبيل المثال : «العرب» ، ٦و٧و١٠و٢٠و٢١و٢٣ و ٢٤ حزيران و ٧ و ١٧ تموز ١٩١٩ .

« الاضطراب في السليمانية »

بينما يفرغ مؤتمر الصلح قصارى جهده للتوصل الى حل لجميع المسائل بصورة تضمن السلم والرقي في العالم ، كان بعض المحركين الذين يريدون ان يصطادوا في الماء العكر يسعون منذ بضعة أشهر في اثارة المشاغب والفتن في كردستان كأن تلك البلاد لم يكفها ماقاسته من الاتراك في هذه الحرب ومانزل بها من جراء المشاغب والمنازعات بين القبائل •

وقد وافتنا الاخبار تنبيء ان أحد الشيوخ ، ويدعى الشيخ محمود الذي القيت على عاتقه تبعة الاحتفاظ بالامن والنظام في السليمانية (١٩٩) قد نكث كل عهد وقبض على زمام الحكومة وسرق خزينتها واعتقل الحكام السياسيين في السليمانية •

وقد سارت الان الى كركوك قوة كبيرة من الجنود الانكليزية مؤلفة أفرادها من جميع صنوف السلاح الحربي وهي تقصد اعادة النظام الى نصابه في الحدود الكردية • وقد جمعت اكبر شيوخ قبيلة الجاف قواتها وهي تستعد الى الاشتراك معنا على الشيخ محمود •

وقد تعهد كل من بابكر اغا شيخ عشيرة (پشدر) والسيد طه

---

(١٩٩) علما ان الوثائق البريطانية الخاصة تسمي الشيخ محمود بـ « حكمدار كردستان الجنوبية »(F. O. 371/4342, 5069) وفعلا اتفقوا معه في البداية على هذا الاساس ثم تنكروا له•

شيخ شمدينان (٢٠٠) ان يشتركا في العمل لقمع هذه الحركة الفوضوية التي لاتنتج سوى الضرر لكردستان في وقت أخذ يعود اليها العمران ويلوح مستقبلها في منظر أبهى مما كان في أي زمن من الازمان في مدة الـ ٤٠ سنة الماضية » .

وزع البيان على الناس مجانا ، فقد كتب في صدره « ملحق جريدة العرب العدد الـ ٥٦٣ المؤرخ في ٢٧ آيار ١٩١٩ . مجانا » (٢٠١) .

وقد نشرت الصحف المحلية كذلك انباء قمع الحركة الذي استمرت عملياته لمدة اكثر من شهرين (٢٠٢) ، وخبر صدور الحكم على الشيخ محمود وتخفيضه (٢٠٣) . وبعد الاعلان عن «هدوء الحالة» بفترة وجيزة صدر في مكان بارز من الصحف بلاغ عن القيادة العامة لقوات الاحتلال عن مقتل « الحاكم السياسي للعمادية ومعاونيه » في ليلة ١٥ تموز ، وذلك «في قيام» يظهر «ان

---

(٢٠٠) كان الانكليز يحاولون ان يجعلوا من السيد طه ندا للشيخ محمود .

(٢٠١) يبدو ان البيان طبع بعناية ، فلم يرد فيه خطأ مطبعي واحد.

(٢٠٢) في ٢٩ حزيران دخلت القوات البريطانية كلعنبر (خورمال) ، وفي اواسط تموز حدثت مصادمة بين « سرايا من الجنود » وعدد من الثوار الذين فقدوا ، حسب بيان السلطة المحتلة ، عشرة قتلى (راجع البلاغات الرسمية المنشورة في «العرب» ، ٧ و ١٧ تموز ١٩١٩).

معظم أهالي القرى المجاورة «مشتركة فيه» (٢٠٤) .

وكان من الطبيعي ان تجلب اخبار انتفاضة الشيخ محمود انتباه الاوساط المعادية للانكليز في المناطق الاخرى . وقد ابلغت « جمعية العهد - فرع الموصل » المركز بتفاصيل الانتفاضة الى ان « تمكن الانكليز بواسطة قواتهم الكثيرة ومعونة بعض خونة البلاد من التغلب على الأكراد الثائرين في السليمانية وطاسلوجة وجمجمال »(٢٠٥) .

واخيرا فان أحداث كردستان ساعدت على كشف القناع عن وجه المحتل الجديد وسياسته الماكرة ، كما بينت انه ليس بالقوة التي لايمكن تحديها او الوقوف بوجهها في سبيل فرض ارادة الجماهير . وهي لعبت بهذا ، كما يذكر ل. ن. كاتلوف ، «دورا كبيرا في تهيئة الجماهير الكادحة من عربية وكردية للمعارك المقبلة ضد المحتلين » (٢٠٦) . وكان ذلك في الواقع بمثابة البادرة الاولى المهمة للتفاعل العضوي المباشر بين النضال التحرري للشعبين في مرحلته الجديدة والذي انتقل ايام «ثورة العشرين» الى اسلوب عملي انعكس في شكل محدود من النضال المشترك لقواهما الوطنية .

---

(٢٠٣) « العرب » ، ٢٩ تموز ١٩١٩ .

(٢٠٤) ورد ذلك ضمن رسالة بعثها الفرع الى المركز بتاريخ ١ تشرين الاول ١٩١٩ (راجع : «صدى الاحرار» ، ١٣ اذار ١٩٥٣) .

(٢٠٥) ل. ن. كاتلوف ، انتفاضة ١٩٢٠ التحررية الوطنية في العراق ، ص ١٠٦ .

الفصل الثاني

موقع الكرد في « ثورة العشرين »

من وقائع « ثورة العشرين »

لم تؤد مظاهر الاستياء والانتفاضات والخسائر في الارواح وتدهور الوضع السياسي المستمر الى تراجع الانكليز عن خططهم بالنسبة للعراق . فقد استمرت نشاطاتهم المتشعبة على الصعيدين الداخلي والخارجي لاحكام سيطرتهم على العراق ، ولحجب حق شعبه في تقرير مصيره بنفسه . وكان من الطبيعي ان يثير ذلك مختلف الفئات الاجتماعية ، وعلى رأسها المثقفون الدينيون والعلمانيون. فشهد العراق في النصف الاول من العام ١٩٢٠ تحركا سياسيا واسعا، بل وجديدا في العديد من مظاهره التي انعكست في وقائع الثورة

كذلك (١) • ولم تفت تهديدات الانكليز ومحاولاتهم لشراء الذمم من عضد الناس الذين كانوا يزدادون اصرارا على التنديد بالاحتلال والمطالبة بالاستقلال ، مما كان يقرب موعد انفجار الثورة اكثر فاكثر •

يتفق المؤرخون على اعتبار يوم ٣٠ حزيران ١٩٢٠ بداية للثورة • ففي ذلك اليوم انطلقت الشرارة الاولى من الرميثة عندما اعتقلت سلطات الاحتلال رئيس الظوالم شعلان ابو الجون فحرره رجاله من السجن بعدقتلهم لاثنين من حراسه • وقد تحولت هذه الحادثة الى السبب المباشر لتفجير البركان المتراكم من الحقد المقدس• وسرعان ما انتشرت الثورة الى المناطق المجاورة بحيث بلغ عدد المشتركين فيها ، حسب بعض القديرات ، اكثر من ١٣٠ الف شخص • وقدتم تحرير مناطق واسعة من الفرات الاوسط ، وساد بغداد توتر كبير ، وتتابعت الصدامات الدموية على مدى أشهر ثلاثة وردت تفاصيلها في مؤلفات العديد من العراقيين والاجانب (٢) • ونحن

---

(١) انعكس ذلك في التوتر العام الذي خيم على مختلف الاوساط والمناطق ، وفي الاحتفالات الدينية والمناقب النبوية التي تحولت في الواقع الى منابر للتنديد بالاحتلال والتأكيد على الاستقلال ، وفي الموقف الذي اتخذه الناس من الاستفتاء الشكلي الذي اجراه الانكليز بحجة معرفة رغائب السكان حول شكل الحكم الذي يرغبون فيه ، وفي النشاط الملموس الذي دب في المراكز الدينية الحساسة ، وفي التحرك غير المعهود لرؤساء العشائر وغيرهم ، وفي نشاطات أخرى كثيرة وردت تفاصيل وافية عنها في مؤلفات المؤرخين العراقيين الذين عالجوا الموضوع •

(٢) راجع الهوامش ٢ و ٣ و ١١ و ١٢ من مقدمة هذا الكتاب •

نحاول في هذا القسم التأكيد فقط على بعض الصفحات المشرقة من « ثورة العشرين » ، بما في ذلك مسائل جديدة لم يرد لها ذكر في المؤلفات الاخرى ، او لم يجر التأكيد عليها كما يجب ، او ذكرت بشأنها معلومات غير صحيحة .

تعتبر « ثورة العشرين » ذروة ما بلغته حركة التحرر الوطني للشعب العراقي منذ ظهور هذه الحركة حتى يوم انفجار الثورة . انها كانت تحولا نوعيا في الاسلوب والهدف. فان شعار الاستقلال الوطني لم يتبلور في النضال التحرري للشعب العراقي حتى وقت متأخر ، وبالضبط حتى ايام الحرب العالمية الاولى(٣) ، بينما تحول هذا الشعار عشية « ثورة العشرين » وفي أيامها الى الراية التي التف حولها الجميع. وان وثائق الثورة ووقائعها المختلفة مليئة بالشواهد المعبرة عن هذه الحقيقة اكثر من أي شيء أو هدف اخر (٤) .

كل قوى التخلف ، وجميع الاوساط المعادية للعراق حاولت على مدى قرون طوال تأصيل الخلاف والتناقض الطائفي في أعماق المجتمع ، بله في نفس كل فرد من أفراده .وقد حاول الانكليز من جانبهم تغذية هذا الورم السرطاني الخطير في الكيان العراقي . ولكن اذا باحداث « ثورة العشرين » تتحول الى تلك القوة السحرية التي

---

(٣) يومذاك اقتصرت مطاليب العراقيين ، مثل غيرهم من مواطني الامبراطورية العثمانية ، على الحكم اللامركزي .

(٤) اشرنا الى نماذج منها ضمن بحثنا عن عوامل الثورة في القسم الاول من الفصل السابق .

جمعت أبناء مختلف الطوائف في خندق واحد لتتحول بذلك الى تجربة فريدة ، ودرس بليغ في تأريخ العراق الذي لم يشهد له مثيلا حتى في أيام هولاكو العصيبة . فقد بدأت جموع الشيعة والسنة ، من العلماء وحتى البسطاء ، تجتمع في جامع واحد وفي ميدان واحد للتأكيد على المطالب السامية لكل الشعب العراقي (٥) . وقد تعدى أثر هذا الاجماع الطائفي ليشمل أبناء الاديان المختلفة كذلك . والشيء المهم والجدير بالذكر هنا هو أن هذا التحول جرى بمثابة رد ثوري ذكي على محاولات الانكليز الملتوية لاثارة النعرات الطائفية في ظروف التوتر التي سادت البلاد يومذاك . فما أن علم علماء الاسلام في بغداد بأن المحتلين يحيكون خيوط مؤامرة تستهدف ضرب احتفال ديني مسيحي بايد اسلامية مصطنعة ، حتى ساروا الى كنيسة الكلدان لتفويت الفرصة على المتآمرين ، وليتحول الاحتفال المسيحي الى تظاهرة دينية رائعة مجد فيها المسلمون المسيح والكنيسة و « الجامعة الوطنية » ، وهتف المسيحيون اثناءها « لاخوانهم

---

(٥) عقد أول اجتماع من هذا القبيل في ١٤ ايار ١٩٢٠ بجامع القبلانية في سوق البزازين ببغداد . ولكن حتى قبل ذلك ظهرت بوادر التقارب الشيعي ـ السني . فعندما توفي السيد كاظم اليزدي كبير علماء الامامية في نيسان ١٩١٩ شاطر السنيون الشيعة احزانهم ، فاقاموا بدورهم حفلات التأبين بهذه المناسبة (للتفصيل اكثر راجع : محمد مهدي البصير ، المصدر السابق ، الجزء الاول ، ص ٨٩) .

المسلمين» (٦) • وبنفس الدافع حث الخطباء الوطنيون في الاحتفالات التي كانت تقام في جوامع بغداد ، حثوا الجمهور ، كما تشير التقارير السرية لبوليس العاصمة ، « على التأكيد لليهود بانه لاتوجد أي خشية من ان تتعرض دكاكينهم للسلب » (٧) •

تعتبر « ثورة امعشرين » الحلقة الاولى في حركة التحرر الوطني العراقي التي جربت اولى أشكال التنظيم في العمل الثوري للجماهير • فان ظهور المنظمات ودورها في النضال (٨) ، وعقد الاجتماعات والندوات ، وتوزيع وتعليق النشرات ، واصدار البلاغات (٩) ، بل وحتى التحول الظاهر في مضامين الفتاوى ، ومحاولات تنظيم الادارة في المناطق المحررة ، والاتصال المستمر بين

---

(٦) من الطريف ان بعض المسؤولين الانكليز كانوا حاضرين في هذا الاحتفال (للتفصيل راجع : عبدالجبار العمر ، مصرع الكولونيل لجمان ، ـ «آفاق عربية» ، العدد ١١ ، تموز ١٩٧٧ ، ص ١٠٤ـ١٠٥) •

(٧) ورد ذلك ضمن الكلمةالتي القاها محمد مهدي البصير في جامع السيد سلطان علي مساء ١٦ حزيران ١٩٢٠ (راجع : « أيام من ثورة العشرين في بغداد » ، ترجمة واعداد الدكتور صالح جواد الكاظم ، ـ «العراق» ، ٢٩ حزيران ١٩٢٠) •

(٨) ولاسيما «مكتب الثورة» الذي تطرقنا الى تأسيسه في الفصل الاول •

(٩) صدرت بلاغات عديدة منظمة عن سير القتال في ميادين الثورة المهمة ، وذلك شيء لم يعرفه العراقيون من قبل ، أو على الاقل لم يبلغوا في نضالهم السابق مستوى يقدر أهمية مثل هذه الامور •

رؤساء العشائر ومراكز الثورة في المدن (١٠) . كل ذلك ، وغير ذلك ، يعد من المظاهر المهمة والجديدة لعنصر التنظيم في «ثورة العشرين» . وان اقامة حكومة مؤقتة في النجف ، واتخاذ بعض الخطوات لتأسيس مجلسين احدهما تشريعي والاخر تنفيذي (١١) ،من الامور التي من شأنها القاء الضوء على أهداف الثورة وعناصر التنظيم فيها .

تعتبر صحافة الثورة صفحة مشرقة أخرى من صفحاتها ، ومؤشرا مهما لما حدث من تحول نوعي ملموس في نضال العراقيين واسلوب تحركهم السياسي . ان اصدار المثقفين لجريدتين تنطقان بأسم «ثورة العشرين» لايعتبر خطوة نوعية الى الامام حسب ، بل هو ايضا تجسيد لارادة فئة مؤثرة من المجتمع العراقي حاول المحتلون الانكليز عزلها وتجريدها من وسائل العمل الفعال بين الجماهير(١٢).

---

(١٠) يقول أحد معاصري الثورة بهذا الصدد ان الاتصالات كانت « لاتنقطع بين زعماء الثورة ومديريها في النجف وبين رؤساء العشائر الفراتية الذين أزمعوا أيضا على اعلان الثورة » (راجع : محمد علي كمال‌الدين ، المصدر السابق ، ص ٨٣) .

(١١) للتفصيل راجع : المصدر نفسه ، ص ٨٧ـ٨٩ .

(١٢) ادرك الانكليز جيدا ان الشعب العراقي بلغ مستوى لايمكن له البقاء دون صحافته ، لذا حاولوا ملء هذا الفراغ الفكري بانفسهم وباسلوب يخدم وجودهم في البلاد . ومن هنا كان اصدارهم لمجموعة من الصحف منذ ان وطأت أقدام قواتهم أرض العراق ، ومن هنا ايضا جاء اهتمامهم الكبير بموضوع الصحافة والطباعة (راجع : م.و.و.
51/15—54, 1918 (Al—Arab) ; 51/13—86, 1918 (Newspapers) ; 151/15, Vol. III, 3. 1920).

يقول البصير في تعليق له على السياسة العامة للمحتلين عشية الثورة ان من « اهم الاغلاط التي أثارت سخط الشعب على الحكومة (١٣) ووقعت في نفوس المفكرين من ابنائه اسوأ وقع ٠٠٠٠ خنق الحريـة الفكرية ومنع اصدار أي جريدة سياسية غير الجرائد الرسمية ٠٠٠ وقد ادت مصادرة حرية الصحف في البلاد الى رغبة لاحد لها في قراءة الجرائد السورية الحرة وصحف مصر » (١٤) ٠ لذا لم يكن مجرد صدفة ان تحولت « حرية الصحافة » قبيل الثورة الى احد مطاليـب الوطنيين العراقيين الرئيسة ٠ فقد قدم الوفـد الذي مثـل احـدى المظاهرات التي سبقت انفجار الثورة باقل من شهرين عريضـة الى وكيل الحاكم العام البريطاني تضم مطاليب المتظاهرين ، وقـد كان مطلبهم الثاني هو «اطلاق حرية الصحافة فورا ليستطيع الشعب التعبير عن شعوره الوطني ويشرح مطاليبه واحتياجاته »(١٥) ٠ ثم ان تقارير بوليس العاصمة السرية التي تعود الى تلك الفترة تؤكد مرارا أن حرية الصحافة غدت واحدة من المطاليب الاساسية التي نادى بها الخطبـاء والمجتمعون في الندوات والاحتفالات الدينية ٠ فكمـا يشـير أحـد

---

(١٣) يقصد السلطة المحتلة ٠

(١٤) محمد مهدي البصير ، المصدر السابق ، الجزء الاول ، ص٦٧ـ ٦٨ ٠

(١٥) راجع : فائق بطي ، الصحافة العراقية ٠ ميلادها ، تطورهـا ، بغداد ، ١٩٦١ ، ص ٢٦ ٠

التقارير ، طالب محمد مهدي البصير في اجتماع عقد بجامع الحيدرية بتاريخ ١٧ حزيران ١٩٢٠ ، طالب الجمهور بتقديم احتجاج شديد على تأخر سلطات الاحتلال في الاستجابة لمطاليب الوطنين العراقيين حول اطلاق الحرية للصحافة • ويشير تقرير اخر الى ان المجتمعين بجامع الوزير يوم ١٥ تموز طالبوا «بصحافة حرة» (١٦) •

لذا كان من الطبيعي ان تكون لـ «ثورة العشرين» صحافتها الحرة المعبرة عن أهدافها • فقد أصدر عدد من المثقفين(١٧) جريدتين أيام الثورة في مدينة النجف المحررة ، احداهما باسم «الفرات» والاخرى باسم «الاستقلال» • واول ما يجلب النظر ان لاسمي الجريدة مغزاهما ، وكذلك الامر بالنسبة لشعاراتهما • فالهدف السياسي الاساس للثورة كان «الاستقلال» ، وقلب الثورة النابض من أجل الاستقلال كان منطقة الفرات • ومثلما ذكرنا في القسم الاول من الفصل السابق فان جريدة «الاستقلال» زينت صدر جميع أعدادها بشعار « لاحياة بلا استقلال » •

صدر العدد الاول من جريدة «الفرات» يوم السبت المصادف

---

(١٦) للتفصيل راجع : « أيام من ثورة العشرين في بغداد » ، ترجمة واعداد الدكتور صالح جواد الكاظم •

(١٧) اشرف محمد باقر الشبيبي على اصدار «الفرات» ، اما جريدة «الاستقلال» فقد اشرف على اصدارها كل من محمد عبدالحسين الكاظمي وعبدالرزاق الحسني الذي ورد اسمه على الجريدة نفسها هكذا : السيد عبدالرزاق البغدادي •

٢١ ذي القعدة عام ١٣٣٨ ، أي في ٧ اب ١٩٢٠ (١٨) • ومع أن الجريدة اعتبرت «اسبوعية ـ سياسية ، أدبية ـ تأريخية » (١٩) الا انها كانت سياسية صرفة ، ولم يصدر منها حتى ١٥ أيلول ١٩٢٠ ، يوم توزيع عددها الاخير (٢٠) ، سوى خمسة أعداد فقط ، وهي كانت تصدر باربع صفحات وبحجم صغير نسبيا (٣٤ × ٢٠ سم)•

---

(١٨) لم يذكر حتى الان يوم صدور «الفرات» بالتاريخ الميلادي بشكل صحيح ، خاصة وان الجريدة نفسها كانت تنشر يوم صدور اعدادها بالتاريخ الهجري فقط • فقد اعتبر الاستاذ عبدالرزاق الحسني ، ومن بعده آخرون ، ١٥ أيلول ١٩٢٠ (غرة المحرم) يوم صدور العدد الاول من جريدة الفرات (راجع : عبدالرزاق الحسني ، تاريخ الصحافة العراقية ، الطبعة الثالثة ، صيدا ، ١٩٧١، ص ٨٠ـ٨١ • راجع على سبيل المثال كذلك : منير بكر التكريتي ، الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية من ١٨٦٩ـ١٩٢١ ، بغداد ، ١٩٦٩ ، ص ٧١) • وذكر البعض ان الجريدة صدرت في اوائل اب (راجع مثلا : يعقوب يوسف كوريا ، المصدر السابق ، ص١١) • أما الدكتور علي الوردي فقد اختزل يوما واحدا من تأريخ صدور الجريدة بسبب الاختلاف في تحديد بداية شهر ذي القعدة بين الشيعة والسنة ، فيقول بان «الفرات» صدرت في ٦ اب (راجع: الدكتور علي الوردي ، المصدر السابق ، الجزء الخامس ، القسم الاول ، ص ٣١٥) • بينما بموجب جميع الجداول ، وحسبما ورد في الصحف الصادرة انذاك يصادف السبت الاول من شهر اب الذي صدرت فيه «الفرات» يوم ٧ اب ١٩٢٠ ، مما يجب تثبيته في تأريخ الثورة والصحافة العراقية •

(١٩) وردت هذه العبارة تحت اسم الجريدة •

(٢٠) ذكرت «الفرات» يوم صدور عددها الاخير ، مثل بقية أعدادها. بالتاريخ الهجري فقط ـ الاربعاء ، ٢ محرم ١٣٣٩ •

أما جريدة «الاستقلال» فقد صدر عددها الاول في ١ تشرين الاول ١٩٢٠ (٢١) بصفحتين ، ولكن بحجم اكبر من «الفرات» ، وبلغ مجموع ما صدر منها ٨ أعداد فقط •

يعود سبب قلة الاعداد التي صدرت من الجريدتين الى ظروف الثورة الصعبة • فحسبما يذكر أحد المطلعين على قضايا الثورة ان « الاستقلال صدرت بدراهم شاب كان لاجئا للثوار » (٢٢) • ويتحدث الحسني ، الذي اشترك في تحرير هذه الجريدة ، عن «ندرة الورق» التي حالت دون صدورها بشكل منظم (٢٣) •

مع ذلك فان هاتين الجريدتين تدخلان ضمن أروع مخلفات «ثورة العشرين» وتشكلان واحدة من أهم صفحات تأريخ الصحافة العراقية • ولقد بلغتا ، ولاسيما «الفرات» ، مستوى رفيعا من حيث اللغة والمضمون ، وان لم تخل الاخيرة من بعض المبالغات الناجمة عن الرغبة في بعث روح الحماس بين صفوف الثوار ، وهو أمر طبيعي اذا أخذنا مستوى الوعي السائد يومذاك بنظر الاعتبار •

---

(٢١) بالرغم من أن «الاستقلال» كانت تنشر تاريخ صدورها حسب التقويمين الهجري والميلادي ، الا ان بعض المؤلفين ذكروا يوم انتشار عددها الاول بشكل غير صحيح (راجع مثلا : يعقوب يوسف كوريا ، المصدر السابق ، ص ٢٢ ؛ منير بكر التكريتي، المصدر السابق ، ص ٧١) •

(٢٢) راجع : محمد علي كمال‌الدين ، المصدر السابق ، ص ٧٩ •

(٢٣) عبدالرزاق الحسني ، تاريخ الصحافة العراقية ، ص ٨٢ •

نشرت جريدتا «الفرات» و «الاستقلال» أخبار الثورة في جبهات القتال ، وبعضا من أحداث المناطق الاخرى ، ولاسيما مدينة بغداد ، وأنباء عالمية من شأنها ان تبين ضعف الانكليز وحراجة موقفهم في كل مكان • كما كانتا تنشران مقالات سياسية بروح حماسية عالية • وفي الواقع تدخل هاتان الجريدتان حتى اليوم ضمن أهم المصادر الاصيلة لدراسة مختلف أوجه «ثورة العشرين» (٢٤) • بل هناك من الحقائق ما لاتتوفر عنها مصادر موثوقة غير «الفرات» و «الاستقلال» • فمعاملة الثوار للاسرى البريطانيين ، مثلا ، والتي تعتبر واحدة من الصفحات المشرقة للثورة ، وجدت لها انعكاسا واضحا في جريدة «الفرات» ، مما يعطي المؤرخ امكانية أفضل للوقوف على نفسية ومرامي الذين قادوا الثورة • وفيما يلي نقتطف جزءا مما ورد في جريدة «الفرات» بصدد هذا الموضوع مؤشرا لاحدى صفحات الثورة الناصعة ، ودليلا على أسلوب صحافة الثورة الرفيع • كتبت «الفرات» ضمن مقال مفصل في عددها الخامس تخاطب وكيل الحاكم البريطاني العام قائلة :

« ••• هل يقابل بين رحمتنا ورحمتكم ؟ • فهي عندكم تبعيد الابرياء من العلماء واولاد الفقراء والزعماء وتعذيب المنفيين والأسراء يئنون فيه القيود الثقيلة والاغلال المؤثرة ، قيود لاتصبر عليها أعناق الفهود ، أما عندنا فلطف بالاسير ، ونظرة الى الاجنبي ملوءه العطف ،

---

(٢٤) بالرغم من ذلك فان جريدتي «الفرات» و «الاستقلال» لم تستخدما لدراسة أحداث ودوافع «ثورة العشرين» الا في نطاق ضيق •

فنتفقد شؤونه ، ونرعى أحواله ، ونسهر لترويحه ، ونحرص على حياته ، فالاسير عندنا غير أسير ، والاجنبي كالوطني نساويه في الحقوق ونواسيه في كل شيء ... أخلاق أخذناها من شريعتنا ، وفضائل تلقيناها من مدنيتنا وكبارنا ، واقرأوا وسائل علمائنا في الرفق باسراكم ، والرحمة بمرضاكم ، انظروا كيف اوكل المقام الروحاني أمره الى من لزمه بذلك من المشاهير فكتب اليه الرسالة الاتية :

« بسم الله الرحمن الرحيم . سلام عليك ، وثناء على اخلاصك . وبعد ، فغير خفي على نباهتك ان للاسرى في الشريعة الاسلامية مكانة عالية ، فالعناية بهم فرض ، والتوجه الى اكرامهم حق ، واني اوصيك ، أطال الله حياتك ، بتعهدهم على الاتصال ، وتفقد أحوال صحتهم ومعاشهم ماداموا وديعة مقدسة ، وأمانة محترمة ، فيلزمك البذل لهم ، والتوفير عليهم ، ويجب تصديك لتحقيق راحتهم أكثر من الايام الماضية ، واني قوي الامل بانك تنشط الى هذا التكليف لانه شرعي ، مدني ، انساني ، تواظب على الانفاق عليهم حتى يتبين الى نفقاتهم مورد خاص ، فقد اعتمدتك واوكلت ذلك الى عهدتك والزمتك به ، ولاعذر لك ، ودم مؤيدا . شيخ الشريعة الاصفهاني » .

هذا مثال صغير من رحمتنا ، فهل أظهرتهم لنا شيئا من رحمتكم ؟ » (٢٥) .

---

(٢٥) «الثورات» . العدد الخامس ، ٢ محرم ١٣٣٩ (١٥ ايلول ١٩٢٠) .

ومن الجدير بالذكر ان قيادة الثورة نشرت في ٢٨ تموز ١٩٢٠ منشورا خاصا بصدد الاسرى ورد فيه :

« لقد جيء قبل امس بالاسرى من الكفل الى النجف والكوفة ، وكان عددهم ١٤٤ ، منهم ٨٠ بريطانيا فيهم ضابطان ، و ٦٦ هنديا بين مسلم ووثني وسيك • فخرج الناس لاستقبالهم • ووكل العلماء والنواب والاشراف والرؤساء بهم من يتعهدهم ويقضي حوائجهم • فزار المسلمون منهم حرم الامام ، ثم سيروا مع رفاقهم الى الكوفة في العربات ، تحرسهم ثلة من رجال الخفر الوطني • فوصلوا الى الكوفة، واجتمعوا مع اخوانهم، وقدمت لهم موائد الطعام، فأكلوا وزال وجلهم وظهر سرورهم • ثم ارسلوا الى ابي صخير (مقر الاسرى) بتمام الهدوء • فحافظ العرب على نظام الاسرى وقوانينه ، وبالغوا في اكرامهم واحترامهم ، ووزعوا عليهم مبلغا من النقود ، وهيأوا لهم علب السجاير والمواد الغذائية الاوروبية ، وغير ذلك مما لم يكن مباحا للاسرى في الحرب عند الدول والحكومات »(٢٦) •

ومن خلال جريدة « الفرات » كذلك يمكننا الوقوف على صفحتين بارزتين مجهولتين تخصان بعضا من مواقف «ثورة العشرين» التي لها مغزاها الخاص • فان «ثورة العشرين» هي اول حركة سياسية عراقية اعطت في مثل ذلك الوقت المبكر تقييما صحيحا لمسألة النفط أولا

---

(٢٦) مقتبس من : الدكتور علي الوردي ، المصدر السابق ، الجزء الخامس ، القسم الاول ، ص ٣١٠-٣١١ •

ولشخصية نوري السعيد ثانيا (٢٧) • ففي عددها الثاني نشرت جريدة «الفرات» صورة الاحتجاج الذي قدمه عدد من العراقيين المؤيدين للثورة ، والذين شكلوا قبيل انفجارها « المؤتمر العراقي » في سوريا، الى الحكومة البريطانية ، والى « سائر الدول » بشأن « منابع الزيت في العراق » فيما يلي نصه :

« نصت المادة ١٢٢ من مواد قانون عصبة الامم على الاعتراف باستقلال الامة العراقية على ان تنال المشورة الادارية بطريق الانتداب ، وفضلت رأي الشعب المستقل على غيره في أخذ هذه المشورة •

فعملا بهذا النص الصريح قرر الشعب العراقي مصيره واعلن استقلاله ، ولكن رفض كل انتداب ، واذاع قراره هذا وابلغه الى الحلفاء والدول المعظمة طورا بواسطة المؤتمر العراقي ، وتارة بواسطة الجمعيات السياسية داخل القطر وخارجه •

لقد بدأت السلطة الانكليزية المحتلة في العراق ، رغما عن هذا النص الصريح ، وخلافا لرأي العراقيين العام ، تتصرف بموارد البلاد تصرف الحاكم المطلق ، فجاهر المستر لويد جورج بوضع يد الحكومة الانكليزية على منابع الزيت في العراق ، وتخصيصها لسد

---

(٢٧) من الغريب ان جميع المؤلفين الذين استخدموا صحيفتي «ثورة العشرين» مصادر لبحوثهم لم يتطرقوا الى هذين الموضوعين المهمين •

نفقات الادارة البريطانية في البلاد تخصيصا لا مسوغ ولا مبرر له بوجه من الوجوه •

وعلى هذا فنحن اعضاء المؤتمر العراقي نرفض باسم الامة العراقية هذا التصرف المطلق الغير المشروع ، ونحتج عليه ، ونذيع ما يأتي :

أولا ـ تحتفظ الامة العراقية لنفسها ، لا لغيرها ، بجميع موارد البلاد ، ومن جملتها منابع الزيت ؛

ثانيا ـ تحتفظ الامة العراقية لنفسها حق اعطاء الامتياز باستغلال(٢٨) هذه المنابع لمن تشاء ؛

ثالثا ـ نفضل الاتفاق الذي جرت عليه الحكومة العثمانية قبل الحرب بشأن هذه المنابع •

هذا احتجاجنا نرفعه اليكم وتقبلوا في الختام احتراماتنا الفائقة »(٢٩) •

وفيما يلي نص وثيقة مهمة اخرى نشرتها « الفرات » ، وهي تعتبر اول تقييم صحيح لشخصية نوري السعيد الذي أصبح بطل الميدان السياسي الرسمي للعراق على مدى أربعين عاما اعقبت «ثورة العشرين» • وتزداد أهمية الوثيقة اكثر اذا تذكرنا ان نوري السعيد كان يعتبر يومذاك احد الوطنيين العاملين في سبيل القضية العربية ، وانه كان

---

(٢٨) ورد في النص «باستقلال» خطأ •
(٢٩) «الفرات» ، العدد الثاني •

واحدا من أنصار الامير فيصل المقربين في سوريا ، والذي لم يقف احد بعد على دقائق صلاته السرية مع الانكليز (٣٠) وعلى ايمانه المطلق بانه « اذا كان نهر دجلة لا يزال يجري ، فما ذلك الابفضل الانكليز »(٣١) • وعلى ما يبدو ان الانكليز عقدوا النية على ارسال نوري السعيد للاتصال بالزعماء العراقيين عندما اقتربت ازمة البلاد من الانفجار•وعندما أحس أعضاء «المؤتمر العراقي»(٣٢) بذلك بعثوا برسالة عاجلة الى « رؤساء الشامية في النجف الاشرف » خصصت لها جريدة « الفرات » اكثر من نصف الصفحة الثالثة من عددها الثاني• تقول الرسالة نصا :

« سوف ترفعون شأن القطر العراقي وتعلون مكانته في انظار الامم والشعوب بهذا المظهر الشريف الذي تظهرون به من حين لاخر كأمة راقية متحدة تطلب حقها الطبيعي بالاستقلال التام ، مما حمل كثيرا من الامم على ان تفكر فيكم

---

(٣٠) اتضح ذلك كليا بعد انكشف عن الوثائق السرية البريطانية ، أي بعد مرور عشرات السنين على التقييم الصحيح الذي نشرته جريدة «الفرات» أيام «ثورة العشرين» •

(٣١) القول لنوري السعيد (راجع : أسعد داغر ، مذكراني على هامش القضية العربية ، ص ١١٢) •

(٣٢) حسبما تذكر الوثائق البريطانية السرية فان نوري السعيد كان يتجسس على أعمال «المؤتمر العراقي» في سوريا ، ويزود المصادر المختصة بتقارير سرية مفصلة عنها (راجع : الدكتور فاروق صالح العمر ، حول السياسة البريطانية في العراق (١٩١٤ـ١٩٢١) ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ص ٦٤ـ٦٥) •

وتهتم بمصيركم ، وخصوصا تلك الدولة التي تحتل جيوشها بلادكم اليوم • فان حركات ساستها وتصريحات رجالها وأقوال صحفها تدل دلالة واضحة على ما يخامرها من القلق العظيم والاهتمام الكبير باحوال العراق •

أصبحت هذه الدولة تسعى السعي الحثيث للمحافظة على نظام حكمها الحالي في العراق مع تغيير طفيف تهدئة للخواطر الثائرة وتسكينا للنفوس في الوقت الحاضر (٣٣) ، وقد علمت انها لا تنجح وحدها في الوصول الى غايتها هذه بدون مساعدة بعض أبناء البلاد نفسها ، فبذلت جهدها للحصول على ذلك ، وتوهمت انها نجحت في تسخير بعض العراقيين الى مآربها هذه •

ربما يحضر اليكم من الشام (الجنرال نوري السعيد) ليقوم بهذه المهمة المشار اليها التي أناطتها به السلطة البريطانية ، الا وهي توطيد أركان الاحتلال وتثبيت أقدامه في العراق بمفاوضة العراقيين ودرس أفكارهم وتسكين خواطرهم وتعليلهم بالاماني والمواعيد الكاذبة ، وربما اتخذت السلطة المحتلة جميع الوسائل المادية والمعنوية التي من شأنها ان تجعل لكلامه شأنا ، ولشخصه قبولا أينما حل ، فتكثر من ذكر اسمه مقرونا بالجهر والثناء عليه ، وعلى مبادئه ، وتتظاهر باحترامه وتبجيله •

---

(٣٣) وهذا ماحدث فعلا •

لايحتاج بعد هذا ان نبين لكم واجبكم الذي تقومون به ازاء هذا الرجل اذا فارقنا اليكم بهذه المهمة ، وخصوصا الاجتهاد بمقاطعته ، والاعراض عن أقواله ، وتحذير الناس من الوقوع في حبائله ، والسهر على تتبع خطواته ، ومراقبة حركاته ، وعرقلة مساعيه .

لا تبالوا ، ايها الاخوان ، ولا تقيموا له وزنا ولو ادعى الكلام باسم الملك حسين والملكين فيصل وعبدالله ، او باسم المؤتمر العراقي ، أو اي جمعية اخرى ، فانه غير مفوض ، ولا مرخص ، وهكذا يجب عليكم الاعراض عن كل أحد يرد عليكم من الشام ، وعدم مذاكرته بمسائلكم ما لم يكن بيده تفويض من المؤتمر العراقي الموجود في حاضرة الشام.

فلا تفتروا عن ترويج دعوتكم ، وبث روح النهضة في الامة بكل وسيلة مع المحافظة على قواكم لاستعمالها في حين الحاجة ، هذا ونحن ننتظر موافاتكم لنا بالاخبار الطيبة على الدوام . وفقكم الله للخير والسلام » (٣٤) .

في الامكان ايراد امثلة اخرى غير قليلة من شأنها تجسيد صفحات « ثورة العشرين » المشرقة والتي تعتبر في واقعها ردا منطقيا على جميع انواع محاولات الانتقاص من تلك الهبة الجماهيرية . ومما لاشك فيه تشكل بعض صور بدايات النضال العربي - الكردي المشترك أيام الثورة صفحة مشرقة اخرى جديرة بالاهتمام .

---

(٣٤) «الفرات» ، العدد الثاني .

المساهمة الكردية في « ثورة العشرين »

اتخذ اشتراك الكرد في « ثورة العشرين » طابعا عفويا في الغالب، وهو لم يجر بشكل واحد أو بنفس الزخم ٠ففي بغداد اشتركت الاوساط الكردية في المظاهرات والاجتماعات الجماهيرية التي نظمت هناك عشية الثورة وفي أيامها (٣٥)٠ وكما يشير الاستاذ رفيق حلمي في مذكراته فقد اشترك مصطفى بك ، الذي كان من الاكراد المعروفين ببغداد ، في النشاطات المعادية للانكليز أيام الثورة بحماس عرضه لملاحقة المحتلين ٠ وكان جلال بابان واحدا من مؤسسي جمعية « حرس الاستقلال » القلائل (٣٦) التي لعبت دورا ملموسا في أحداث العراق السياسية أيام الثورة وقبلها ، وقد انتخب عضوا في الهيئة الادارية للجمعية التي اكدت في أحد بنود منهاجها الاساسي على ضرورة العمل «قبل كل شيء» في سبيل «توحيد كلمة العراقين على اختلاف مللهم ونحلهم » (٣٧) ٠ وقد تعاون حمدي باشا بابان بدوره

---

(٣٥) ينقل رفيق حلمي في مذكراته صورا واقعية عن أحداث صيف العام ١٩٢٠ في بغداد وذلك لاشتراكه فيها ٠ وفي الواقع يصلح الجزء الثالث من مذكراته مصدرا أصيلا لالقاء بعض الضوء على تلك الاحداث ٠

(٣٦) محمد مهدي البصير ، المصدر السابق ، الجزء الاول ، ص ١٣٧ ٠

(٣٧) نفس المصدر ، الجزء الاول ، ص ١٣٨ ٠

مع المعارضة الوطنية في بغداد أيام الثورة (٣٨) ٠

والاهم من كل ذلك في هذا المجال ان عددا من أنشط الوطنيين الاكراد في تلك المرحلة ، من أمثال رفيق حلمي وفائق توفيق (المعروف بفائق طابو) والمحامي رفيق توفيق من السليمانية وكريم الحاج عبدالله من كركوك ، حاولوا عن طريق مصطفى بك الانف الذكر اقامة نوع من الصلات مع الثوار في بغداد ٠ الا أن اضطرار مصطفى بك للاختفاء أدى الى الا تثمر هذه الفكرة،علما بأن الممثلين الاكرادقد اجتمعوا مرة واحدة بعدد من الشباب العرب في دار مصطفى بك (٣٩)٠

امتدت نيران الثورة الى منطقة ديالى منذ السادس من اب ١٩٢٠ ، وسرعان ما أصبحت كل من بعقوبة ودلتاوة وشهربان و دلي عباس وما والاها من مناطق خارجة على سلطة الاحتلال ٠ وقد وجه ثوار هذه الجبهة بعض الضربات الموجعة الى قوات الاحتلال ومصالحها ٠ فتحول ذلك الى السبب المباشر لانخراط عدد من العشائر الكردية المجاورة في صفوف الثورة ٠ وكانت عشائر خانقين السباقة في ذلك ، وبشكل خاص عشيرة دلو المعروفة التي قاد كريم خسرو بك عن

---

(٣٨) وهو غير حمدي بك بابان الذي كان على علاقات جيدة مع الانكليز منذ أن احتلت قواتهم بغداد في العام ١٩١٧ ٠ أما حمدي باشا فقد تحولت داره الى منتقى لزعماء بغداد المعارضين للاحتلال (راجع : محمد مهدي البصير ، المصدر السابق ، الجزء الاول ، ص ١٤٢) ٠

(٣٩) للتفصيل راجع : رفيق حلمي ، المصدر السابق ، الجزء الثالث، ص ٧٦-٧٧ ، ٨٢ ٠

جدارة هجماتها على قوات الاحتلال ٠ وقد كان كريم بك ، واخرون من زعماء المنطقة ، على اتصال بالشيخ محمود أثناء انتفاضته في العام ١٩١٩ ٠

وجه الثوار الاكراد ضربتهم الاولى في ١٤ اب عندما حرروا قزلرباط ، ثم أحرقوا مقر حكومة الاحتلال في خانقين ، وهاجموا مؤسسات شركة النفط الانكلو ـ ايرانية في نفطخانة ، كما قطعوا خط السكك بين بعقوبة وخانقين ، وأحرقوا محطة قوره‌تو ، ودمروا أحد جسور السكة الاساسية مع الخط المتوجه شمالا الى كنكربان ٠ وقد اضطر معاون الحاكم السياسي في خانقين للانسحاب مع اسرته الى قوره‌تو ، بينما وقع الطبيب الانكليزي أسيرا في قبضة الثوار (٤٠) الذين تعهدوا له بالحفاظ على حياته لقاء عنايته بالجرحى والمرضى ٠ وقد أنزل الثوار العلم البريطاني ورفعوا مكانه العلم العثماني ، وعينوا خورشيد بك حاكما للبلدة ، كما قاموا باطلاق سراح السجناء وبتوزيع موجودات المخازن الحكومية على الناس (٤١) ٠

تركت أحداث خانقين صدى جيدا في النفوس ، لاسيما لان قيادة الثورة كانت مهتمة بتوسيع جبهات القتال ، وقطع خطوط

---

(٤٠) ل٠ ن٠ كاتلوف ، انتفاضة ١٩٢٠ الوطنية ـ التحررية في العراق ، ص ١٣٧ ؛

A. L. Haldane, Op. Cit., PP. 157—158.

(٤١) راجع : فاضل كريم ، خانقين خلال ربع قرن (١٩٠٠ـ١٩٢٥)، ـ « التاخي » ، ١٤ حزيران ١٩٧٣ ٠

مواصلات العدو مع ايران • وكان من الطبيعي أن يكون رد فعل الانكليز عليها كبيرا ، لانهم كانوا يخشون كثيرا ان تتعرض خطوط مواصلاتهم مع ايران للخطر لما كان له من تأثير على الامدادات العسكرية التي كانت تأتيهم من هناك • ففي أيام الثورة اضطر المحتلون لان يسحبوا من قطعاتهم الموجودة في ايران ما لايقل عن ١٤ ألف رجل (٤٢) •

هكذا اضطرت قيادة قوات الاحتلال الى اتخاذ اجراءأت عاجلة لقمع الانتفاضة في منطقة خانقين ، والعمل للحيلولة دون انتشارها الى المناطق المجاورة ، بما في ذلك المناطق الايرانية حسب توقعات المسؤولين الانكليز انفسهم (٤٣) • وقد أشرف الكولونيل لاكين (Lakin) على العمليات العسكرية في هذه الجبهة ، فارسل قوة بامرة الضابط ب• ادوارد (D. B. Edward) بقصد «وضع نهاية سريعة للاضطراب » ، ولكن تصدت لها مجموعة من الثوار قوامها ، حسب المصادر الانكليزية ، « ٤٠ شخصا من الجبليين » • وفي ١٦ اب هاجمت قوة من الثوار مؤلفة من حوالي ٢٠٠ مسلح محطة قطار خانقين حيث تركزت قوات الكولونيل لاكين ، فوقعت معركة طاحنة بين الطرفين قتل خلالها من الثوار فقط ما لايقل عن ١٥ شخصا •

---

(٤٢) ل• ن• كاتلوف ، انتفاضة ١٩٢٠ الوطنية ـ التحررية في العراق ، ص ١٩٢ •

(٤٣) A. L. Haldane, Op. Cit., P. 157

اضطر الانكليز ، بعد تفاقم الوضع بهذا الشكل ، الى جلب تعزيزات عاجلة بواسطة السيارات من قزوين وكرند ، كما استعانوا برجال بعض العشائر الموالية لهم للحد من نشاط الثوار (٤٤) • وبهذا الاسلوب فقط تمكن المحتلون الانكليز من اعادة سيطرتهم على خط خانقين ، ودخلوا المدينة نفسها حيث فرضوا على سكانها ، وعلى عدد كبير من القرى المجاورة غرامات حربية كبيرة ، كما اضطر عدد كبير من الناس الى ترك مناطقهم واللجوء الى قصر شيرين في الجانب الاخر من الحدود •

بالرغم من ذلك فقد احتاج الانكليز الى اتخاذ اجراءات اخرى لفرض سيطرتهم الكاملة على هذه المنطقة الحساسة ، ولاسيما ان بعض التقارير أشارت الى ان الثوار اشتروا كميات كبيرة من الاسلحة ، وان من المتوقع ان يرتفع عددهم بشكل ملموس بحيث يبلغ عشرة الاف رجل (٤٥) • ومما أدخل الحذر في نفوس الانكليز أكثر أن التقارير نفسها أشارت الى احتمال انضمام العشائر الكردية الايرانية الى الثورة ، بينما كانوا هم يرومون تحويلها برمتها الى اداة لقمع حركات التحرر في المنطقة • وقد عزز هذه التوقعات قيام حوالي ٣٠٠ من رجال العشائر بالهجوم في ٢٥ اب على القوات البريطانية التي كانت تقوم باصلاح الخط الحديدي بين خانقين وقزلرباط ، والتي انقذتها التعزيزات العاجلة التي جاءتها من خانقين ، فاضطر الثوار

(٤٤) Ibid, PP. 158—159

(٤٥) Ibid, PP. 160—161

للانسحاب بعد أن استشهد منهم حوالي ٤٠ شخصا .

ساعدت بعض الظروف الانكليز على اعادة سيطرتهم بالتدريج الى جميع مناطق خانقين . فانهم بدأوا يعتمدون بشكل متزايد على رجال العشائر الموالية لهم . ففي ٢٥ اب ، مثلا ، استطاع الكابتن مور (J. B. Moore) بمساعدة عدد كبير من مسلحي عشيرة سنجاوي توجيه ضربة الى أحد الرؤساء المعادين وتخريب كل ما أقام من استحكامات استعدادا للهجوم على قوات الاحتلال. وقد لجأ المسؤولون الانكليز الى تعزيز مثل هذا الاتجاه الخطير عن طريق الاغراء والحرب النفسية . اذ انهم وعدوا رجال الكلهور والسنجاوي، مثلا ، بدفع ٥ روبيات لكل واحد منهم ، واطلاق يده لنيل مايستطيع أخذه من الغنائم . وقد جاء في منشور للقائد العام لجيش الاحتلال ا. هالدين ، موجه في ٣ أيلول الى «مشائخ لواء بعقوبة وعشائرها » ما نصه :

« نخبركم بأننا قد صممنا على ارسال العساكر الى السكة الحديدية في بعقوبة وقورەتو وكنكربان لفتح خط مواصلاتنا مع ايران (العجم) . وكما تعرفون ان هذه الثورة قد صارت سببا للالام والشدائد وازهاق النفوس في نقاط عديدة من لواء بعقوبة ، وقد تعطلت التجارة، وأصبح الناس خائفين من السفر الى أوطانهم . وقد سررت جدا حينما علمت ان بعض العشائر لم تشترك في هذه القلاقل الاخيرة . والامل انهم سيبذلون خصوصا جهدهم كي لايقع هجوم على الحكومة فيما بعد ، ويقطع دابر المفسدين الذين يقطعون الطريق الان ،

ويسلبون الابرياء في قراهم •

فقد صدرت الاوامر الى العساكر بأن لايبادروا بقتال العشائر ، او القرى أثناء سيرهم الى السكة الحديدية اذا لم تقع لهم معارضة ، أو لم يهاجموا السكة الحديدية ، ولكن يمكنكم ان تروا بأنفسكم أن الجيوش المحتشدة تتكون من رجال أقوياء يتمكنون من عقاب أي عشيرة تتجرأ على المهاجمة •

ولذلك نعاهدكم بأسم الدولة البريطانية المعظمة ، ونؤمن مشايخ العشائر والفخوذ الذين لم يشتركوا في القلاقل الاخيرة ، فليرفعوا علما أبيض ، ويحضروا حالا بين يدي حضرة الجنرال كوننهام رئيس الاعمال العسكرية ونائبي العسكري ، ولهم حظ وبخت ، وعندئذ تقدرون على مساعدة الجنرال المشار اليه لاعادة الامن في لواء بعقوبة • واما بعض الفخوذ الذين جاهروا بالعداء ، وارتكبوا القتل والمظالم ، فلهم يوم عصيب •ا• هو لدين القائد العام لجيش الاحتلال » • ومن الجدير بالذكر ان المنشور طبع في أبرز مكان على الصفحة الاولى من جريدة «العراق» (٤٦) •

لم تبق هذه المناورات بدون نتائج ملموسة• ففي أواخر أيلول نشرت سلطات الاحتلال في بلاغ رسمي لها نبأ «خضوع ٢٢ شيخا من شيوخ لواء ديالى وقبولهم لشروطها » (٤٧) • وسرعان ما نشرت

---

(٤٦) راجع : «العراق» ، ٦ أيلول ١٩٢٠ •

(٤٧) راجع البلاغ الرسمي ليوم ٢٧ أيلول في جريدة «العراق» ، ٢٩ أيلول ١٩٢٠ •

« مضبطة شيوخ لواء ديالى » التي تضمنت أسماء عدد كبير جدا من رؤساء العشائر الذين استسلموا دون قيد أو شرط (٤٨) • وهكذا بدأ يتبدد التفاؤل السابق من الانباء الواردة من بعقوبة والخالص وشهربان وغيرها من المناطق التي دخلتها القوات البريطانية تباعا ، فارضة عليها غرامات كبيرة ، ومستخدمة أشد الاساليب قسوة لفرض حكم الاحتلال من جديد • وكما كان متوقعا ، فت كل ذلك من عضد الثوار وعزائمهم في المناطق الاخرى • فجاء اسم خانقين للمرة الاخيرة في البلاغ الرسمي الصادر يوم ٤ تشرين الثاني ١٩٢٠ بهذا الشكل : « واطلقت النار في الليلة الماضية على موقع موسى عثمان على بعد ٩ أميال من خانقين الى الشمال » (٤٩) •

لم يبق أمام ثوار خانقين تحت ضغط القوات الانكليزية والمرتزقة سوى اللجوء الى المناطق الجبلية الوعرة والتخطيط للعبور الى الجانب الاخر من الحدود • وقد توالت المؤامرات ضدهم ، نجحت احداها عندما تمكنت شرذمة من السنجاويين من اغتيال عدد من زعماء الحركة كان كريم خسرو بك واحدا منهم •

امتدت نيران الثورة في نفس الوقت تقريبا الى منطقة كفري التي تأثرت ، حسبما يبدو ، بانباء نجاحات الثوار في الوسط

---

(٤٨) راجع نصها في «العراق» ، ٧ تشرين الاول ١٩٢٠ •

(٤٩) راجع البلاغ في «العراق» ، ٨ تشرين الثاني ١٩٢٠ •

والجنوب (٥٠) والتي كانت تصل هذه المناطق مع شيء كثير من المبالغة (٥١) • وكان لاحداث خانقين تأثيرها المباشر على كفري ، خاصة وان ابناء عشيرة دەلو الموزعين على المنطقتين المتجاورتين كانوا يشكلون قوة الثورة الاساسية هناك • وكما تشير بعض المصادر فقد جرى اتفاق مسبق بين فرعي العشيرة على القيام ضد المحتلين الانكليز في وقت واحد (٥٢) •

وقد توفرت جميع عوامل الاستياء من الوجود البريطاني في هذه المنطقة • فمثل العديد من حكام الانكليز لم يحسن الكابتن سالمون (G. H. Salmon) ومساعده التصرف مع سكان كفري

---

(٥٠) ننقل أدناه مايرويه الاستاذ عبدالرزاق الحسني بهذا الصدد :
« كان أهل كفري يتشكون من سلوك حاكمهم السياسي الكابتن سالمون مر الشكوى ، لما كان يوجهه اليهم من اهانات مقصودة ، وما يفرضه عليهم من غرامات لامسوغ لها ، وكان في بلدية كفري موظف بريطاني ـ هندي لايقل عن سالمون في سلوكه الشائن وتعسفه البغيض • وقد مر بقصبة كفري في اب ١٩٢٠ السيد سليمان فتاح ، أحد الشبان الوطنيين في بغداد ، فلما سمع الاهلين يتشكون من هذين الموظفين ، أخذ يسرد على الرؤساء والمتنفذين حوادث الثورة في الفرات الاوسط ، وكيف أن ظل الاحتلال البريطاني في العراق بسير نحو الزوال بخطى سريعة ، الامر الذي أدخل في روعهم ان قيامهم في وجه الحكومة أمر لامناص منه •••» (عبدالرزاق الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ١٨٥) •

(٥١) راجع : الدكتور علي الوردي ، المصدر السابق ، الجزء الخامس ، القسم الثاني ، ص ٤٢ •

(٥٢) راجع : فاضل كريم ، خانقين خلال ربع قرن ، ـ «التآخي» ، ١٣ حزيران ١٩٧٣ •

الذين زاد استياؤهم اكثر جراء محاولاته لفرض الموالين للانكليز في المراكز الحكومية الحساسة ، ولاطلاق يدهم للتصرف مع رجال العشائر وغيرهم ، كما يشاؤون ، ولاعتماده المطلق عليهم في جمع الضرائب ، فتحول أخلص اتباعهم الى شرطة غير نظاميين أطلق الناس عليهم اسم « بال ـ باز » (٥٣) • وكان الشيخ حميد الطالباني أكثر الرؤساء حظوة لدى المحتلين الذين آزروه بشتى السبل ، خاصة وقد كان مع نجله الشيخ عبدالوهاب الطالباني على اتصال مباشر بهم قبل انتهاء الحرب العالمية الاولى واحتلال كل البلاد من قبل القوات البريطانية (٥٤) • وكان سالمون يريد تعيين الشيخ حميد قائمقاما على المنطقة ، مما أثار حفيظة اعدائه أكثر ودفعهم الى حمل السلاح والتحصن في جبل باوەشاسوار المطل على بلدة كفري اعتبارا من ٢٢ اب • فيعتبر ذلك اول شرارة للثورة في هذه المنطقة •

كان يقود الثوار في منطقة كفري ابراهيم خان أحد صغار رؤساء عشيرة دەلو (٥٥) المؤيدين للشيخ محمود ، يساعده وەيس بك الذي كان يشغل مركزا ادنى منه فى العشيرة نفسها • وقد وقفت

(٥٣) كان هؤلاء الشرطة غير النظاميين يشدون على سواعدهم شارة بيضاء فاطلق الناس عليهم اسم «بال باز» (بال في الكردية يعني العضد وبازك الابيض) (للتفصيل اكثر راجع : مكرم الطالباني ، المصدر السابق ، ص ٦٠ـ٦١) •

(٥٤) راجع : م• و• و• 8/12 (Khanaqin, 1918—1919)

(٥٥) هذا هو الشائع عن ابراهيم خان ، الا أن الدكتور مكرم الطالباني يؤكد انتمائه الى عشيرة (هرمزيار ـ ورمزيار) (راجع كتابه : ابراهيم خان ثائر من كردستان) •

الى جانب الثورة كذلك بعض فخوذ الجاف ، ولاسيما روغزايي وترخاني • كما كان زعيم الانتفاضة ابراهيم خان على علاقات ودية مع عشيرة البيات ، وبعض العشائر العربية في المناطق المجاورة ، ولاسيما مع عشيرة العزة •

حاول سالمون في البداية اقناع ابراهيم خان بالعدول عن نكرة الانتفاض ضد السلطة ، فذهب بنفسه الى جبل باوەشاسوار يرافقه عدد من الرؤساء الموالين ، منهم جميل بك بابان والشيخ عبدالوهاب الطالباني • الا ان ابراهيم خان لم يكتف بعدم الاستجابة لهذه المحاولة حسب ، بل أمر كذلك بحجز الكابتن سالمون في قريته (ئاوايي ابراهيم خان) • وقد تمكنت عقيلة سالمون من انقاذ نفسها باللجوء الى الحامية الانكليزية المتمركزة في كنكرەبان المجاورة (٥٦) التي تحولت الى ملجأ للاعداء ومركز لمناوراتهم • وهكذا تم تحرير بلدة كفري نفسها التي انتقلت نهائيا الى قبضة الثوار في ٢٤ اب • وقد ذكر البلاغ الرسمي عن أحداث كفري مايلي :

« أما (رجال ـ ك• م•) قبائل لواء كركوك فانهم غير ساكنين، وقد هجموا على كفري وأسروا معاون الحاكم السياسي • على ان فصائلنا المرابطة على طول الخط الممتد من كفري الى ديالى هي سالمة• وتفيد الانباء ان العصاة الذين هجموا على مواقعنا قد منوا بخسائر

(٥٦) A. L. Haldane, Op. Cit., PP. 244—246

فادحـة » (٥٧) ٠

حاول الانكليز مرة أخرى حمل ابراهيم خان على التراجع ، فارسلوا اليه وفدا ثانيا من الوجهاء عرض عليه ٥٠ ألف روبية ومنصب قائمقام كفري لقاء القائه للسلاح والافراج عن سالمون ٠ الا أن ابراهيم خان لم يخضع لهذه الاغراءات ، وأصر على عدم عـودة الانكليز الى كفري ، وتعهد بالافراج عن سالمون لقاء السماح للشيخ محمود بالعودة من منفاه في الهند والذي تحول ، حسب اعترافات التقارير البريطانية الخاصة ، الى مطلب عام للجماهير الكردية يومذاك (٥٨) ٠

تطورت الاحداث الثورية في منطقة كفري بسرعة ، فقد انضـم فلاحو قرى نكه وعين شكر وزهرداو وجبـارة الواقعـة الى جنـوب كفري وغربها ، الى الثوار ونظموا سلسلة من الهجمات على الامدادات الانكليزية التي كانت تنقل الى كنكربان بواسطة الخط الحديدي الذي خربوه في أماكن عدة (٥٩) ، فغدا طريق المواصـلات بـين كركوك وخانقين «غير مأمون» حسب وصف القائد العام للقوات البريطانيـة العاملة في العراق ا٠ هالدين (٦٠) ٠

---

(٥٧) راجع نص البلاغ في «العراق» ، ٣٠ اب ١٩٢٠ ٠
(٥٨) راجع :
((Iraq. Report on Iraq Administration April 1922 — March 1923)), London, 1924, P. 33;
C. J. Edmonds, Op. Cit., P. 123.
(٥٩) للتفصيل راجع : مكرم الطالباني ، المصـدر السـابق ، ص ٧٣ ـ ٧٥ ٠
(٦٠) A. L. Haldane, Op. Cit., P. 244

أنزل الثوار العلم البريطاني وأعلنوا ، وسط ابتهاج النـــاس ، انتهاء حكم الاحتلال الذي أقاموا مكانه «حكومة مؤقتة» برئاسة ابراهيم خان وعضوية شقيقه أكبر خان وويس بك من الدهلو وحمـه جان من روغزايي والحاج محمد من ترخاني وحميد عبدالرحمن كهـريزي الذي استشهد في اول صدام مع الاعداء فيما بعد . واعيد تنظيم بعض الدوائر ، ومنع تداول الروبية الهندية واستؤنف العمل بالعملة العثمانية السابقة مؤقتا ، كما تم توزيع ماخزنه الانكليز في البلدة من مـواد ضرورية كالحبوب والسكر والشاي ، على الناس (٦١) .

كانت أحداث كفري نذير شر للانكليز الذين اهتموا كثـيرا بالحفاظ على الهدوء في الرقعة الواسعة التي كان يشرف على شوؤونها العسكرية الجنرال فريزر ، وذلك لصعوبة ضبطها أولا ، ولعجز قوات فريزر من التوزع على جبهات متعددة ثانيا ، ولاستحالة امدادها بقوات جديدة أخيرا . لذا لم يكن بد من اتخاذ اجراءات عاجلة لقمع انتفاضة أهالي كفري قبل تفاقم خطرها بانتشار نيرانها الى المنـاطق المستـاءة الاخرى . فنشط الضابط السياسي في كركوك لونكريك لتحشيد رجال بعض رؤساء العشائر الكردية الموالية (طالباني وزنكنه (٦١)) ، ولتوجيه كل مايمكن الاستغناء عنه من قواته ، بما فيها رجال الشبانة ، للالتحاق

---

(٦١) لم تؤيد جميع فروع وقطاعات هذه العشائر الانكليز . فـان قسما من الزنكنة ظل ، باعتراف البلاغ الرسمي ، خارجا على سلطة الاحتلال حتى أواخر أيلول ١٩٢٠ (راجع البلاغ الرسمي الصادر يوم ٢٧ أيلول في جريدة «العراق» ، ٢٩ أيلول ١٩٢٠).

بالحامية الموجودة في كنكربان .

هاجم الاعداء على جبل باوەشاسوار من ثلاث جبهات : من كنكربان بقيادة لونكريك نفسه ، ومن سەرجەم وكاريز بقيادة مساعده الذي كان الناس يطلقون عليه اسم (أبو جوماغ) ، ومن دوازده امام حيث تركزت قوات الموالين للانكليز من الطالبانيين والزنكنة . وكان هؤلاء المرتزقة هم السباقين الى جبل باوەشاسوار حيث وقع أول صدام عنيف بين الطرفين كان النصر فيه حليف الثوار الذين استشهد قائدهم في هذه الجبهة حميد كهريزي ، مما كان له وقع كبير في نفوس الناس . فقام رشيد محمد أحد حراس سالمون في آوايي ابراهيم خان باغتياله يوم ٢٨ اب انتقاما لحميد كهريزي . وقد أصبح رشيد محمد هذا يعرف منذ ذلك اليوم باسم (رەشە حاكم كوژ) أي (رشيد ـ قاتل الحاكم) . وبالرغم مما تركه مقتل الكهريزي في نفس ابراهيم خان ، الا انه لم يكن راضيا ـ حسب رواية أهل كفري ـ من مقتل سالمون الذي ترك صدى كبيرا في نفوس المسؤولين الانكليز ، جاء التعبير عنه في احدى رسائل ملكة العراق غير المتوجة المس بيل على النحو التالي :

« انها قصة مثيرة ، لكن المتوحشين حينما يذهبون الى الحرب يرتكبون أعمالا وحشية ... انا احبذ بالكلية اعدام المذنبين اعداما ينتشر ذكره بين الناس ، اذا كان من الممكن القبض عليهم ، ثم معاقبة الاخرين من الرعاع عقابا خفيفا ، وهذا رأي ولسن أيضا ، على

ما أظن » (٦٢) ٠

لم يستطع الثوار ، بالرغم من تحصنهم واستعداداتهم المستمرة، الاحتفاظ ببلدة كفري التي دخلها الانكليز من جديد في ٣٠ اب ، وقد فرضوا على سكانها غرامة مقدارها ١٠ آلاف روبية و ٥٠٠ بندقية. وبعد ذلك أعلنت القيادة العامة في بلاغها الرسمي الصادر يوم ١٨ أيلول أن « الاحوال عادت في منطقة كفري ، فاستقرت غاية الاستقرار » (٦٣) ٠

أما في الواقع فقد ظلت الاوضاع في المناطق المجاورة غير مستقرة تماما ٠ فبعد أكثر من أسبوع وافتنا البلاغات الرسمية بانباء اخضاع عدد اخر من عشائر المنطقة (٦٤) ٠ وقد أعلنت مجموعة من قرى ليلان القريبة من كركوك خروجها على الانكليز الذين أرسلوا اليها قوة عسكرية قامت ، حسب اعترافات المسؤولين انفسهم ، « بحرق

---

(٦٢) تحمل الرسالة تاريخ ٥ أيلول ١٩٢٠ ، أي ان المس بيل كتبتها بعد وصول أخبار كفري الى بغداد مباشرة (راجع : «العراق في رسائل المس بيل» ، ترجمه وعلق عليه جعفر الخياط ، بغداد ، ١٩٧٧ ، ص ١٧٦) ٠

(٦٣) راجع : «العراق» ، ٢٠ أيلول ١٩٢٠ ٠

(٦٤) راجع مثلا : «العراق» ، ٢٩ أيلول و ٢٢ تشرين الاول ١٩٢٠ ٠ فقد جاء في البلاغ الصادر يوم ٢١ تشرين الاول ان «فخوذ البيات قبلت بدفع غرامة قدرها عشرة الاف روبية وتسليم ٢٠٠ بندقية وتأدية ما عليها من الاموال الاميرية خلال شهر واحد فقط ، فاوقفت على هذا الاساس العمليات العسكرية ضدها » ٠

وابادة ثلاث قرى نهائيا » (٦٥) • كما توترت الاوضاع بين أكراد زنكنة وداوده ، وقد وقعت في ٢٨ اب معركة في طاوق بين أتباع رفعت اسماعيل بك داوده والقوات الانكليزية استمرت لمدة ساعة واحدة ، تبعتها أعمال حرق وتدمير ومطاردة لافراد عشيرة داوده امتدت آثارها الى طوزخورماتو(٦٦)• ومن الجدير بالذكر ان رفعت بك كان يتمتع بشعبية واسعة في منطقته مما نجم عن مواقف أسرته الوطنية• فان ابن عمه نامق علي آغا كان أحد شهداء الكرد في سوح الشعبية عام ١٩١٥ ، كما أن أفراد أسرته وقفوا بحماس الى جانب الشيخ محمود قبيل « ثورة العشرين » •

والى جانب كل ذلك دب الرعب في كل مكان ، خاصة لماكان يزاوله المرتزقة من أتباع الرؤساء الموالين للانكليز من أعمال النهب والسلب والثأر بفظاظة بالغة • أما قائد الانتفاضة ابراهيم خان فقد اضطر ، بعد أن عجز عن اعادة الكرة ثانية ، الى الاختفاء (٦٧) بين أبناء عشيرتي العزة العربية (٦٨) والبيات الذين أيدوا الثورة بكل جوارحهم، فأولوه جل احترامهم الى أن فارق الحياة بسبب مرض

---

(٦٥) راجع : «بيشكه‌وتن» ، ٢٦ اب و٢ أيلول ١٩٢٠ •

(٦٦) راجع : « بيشكه‌وتن » ، ٢ أيلول ١٩٢٠ •

(٦٧) ساعده على الاختفاء والانتقال الى مناطق البيات والعزة ابناء عشيرة داودة من أتباع رفعت بك المعروف بمعاداته للانكليز•

(٦٨) كانت سلطات الاحتلال على علم بلجوء ابراهيم خان الى العزة ، فقد أشارت جريدة « بيشكه‌وتن » الى ذلك في عددها الصادر يوم ٣٠ أيلول ١٩٢٠ •

شديد ألم به ، وقد دفن فوق احدى قمم جبل حمرين حسب وصيته (٦٩) ٠

كان لوفاة ابراهيم خان بهذا الشكل وقع اليم في نفوس الناس ، فغدا رمزا للنضال ضد المستعمرين واحتلالهم ٠ وقد ظل أبناؤه على اتصال مباشر بالشيخ محمود منذ عودته من منفاه في أيلول ١٩٢٢ ، حيث وقف في طريقه الى السليمانية خصيصا في كفري التي استقبلته بحفاوة بالغة لم يرتح منها المسؤولون الانكليز(٧٠) ٠ ومن الجدير بالذكر أن الشيخ محمود بعد أن استغل فرصة أحداث ايار ١٩٤١ فهرب من منفاه الثاني ، وصل منطقته بمساعدة أبناء ابراهيم خان ٠

لم تكن الاوضاع في أربيل ، ولاسيما في المناطق التابعة لها ، بأحسن مما كان عليه الامر في كل من خانقين وكفري ، خاصة وأن محاولات السلطات البريطانية لعزلها عن أحداث الثورة في الوسط والجنوب لم تؤد الى النتائج المطلوبة (٧١) ٠ فقبل أن تتخذ الثورة طابعها المسلح عقد أهالي المدينة أكثر من اجتماع عبروا فيه عن

---

(٦٩) مكرم الطالباني ، المصدر السابق ، ص ٩٩ ـ ١٠٣ ٠

(٧٠) يذكر شهود عيان ان الشيخ محمود عندما علم بوفاة ابراهيم خان لم يتمالك نفسه ، فبكاه بحرارة أمام جمع كبير من الناس ٠

(٧١) أشار حاكم اربيل ايام الثورة الكابتن هيي في كتابه « سنتان في كردستان » اكثر من مرة الى تأثير الاخبار التي كانت تصل من وسط البلاد وجنوبها على سكان اربيل وما والاها من مناطق ٠

تأييدهم المطلق لمطاليب قادتها في بغداد • وقد نظم الموظفون السابقون المستاؤون من وضعهم (٧٢) حملة دعـاية واسعـة ضـد الوجـود البريطاني ، وقد كانوا يبشرون في كل مكان بقرب عـودة الاتراك وطرد الانكليز من المنطقة نهائيا • كما وزع منشور في المدينة يدعـو المواطنين الى « حمل السلاح ضد الكفار » •

لم يقتصر الامر في أربيل وضواحيها على هذا الاسلوب السلبي من النضال ، فمع توارد أخبار نجاحات الثوار في الفرات الاوسـط وانضمام المناطق المجاورة الى الثورة توترت الاوضاع في أربيل بسرعة واتخذ طابع العمل العلني ضد الوجود البريطاني • ففي بداية اب جرت محاولة لاغتيال حاكم المدينة السياسي الكابتن هيي ، ووقعـت محاولة اخرى لحرق داره التي اضطر فيما بعد لتركها والعيش في الثكنة العسكرية استعدادا للهرب في أي لحظة ، ولاسيما وان وكيل الحاكم العام ولسن أخبره برقيا بعجز سلطات الاحتلال عن امداده باي شكل من أشكال المساعـدة العسكريـة • وفي ١٢ اب دبـرت مجموعة من سكان المنطقة هجوما خاطفا في مضيق رواندوز على هيي الذي نجا ، هو وزوجته ، من الموت باعجوبة (٧٣) • كما جـرت محاولات عديدة لاغتيال مساعده • وبامكان مايرويه الكابتن هيي في

(٧٢) فقد معظم موظفي العهد العثماني وظائفهم بعد الاحتلال ، فكانوا يشكلون فئة مستاءة من وضعها ، مؤثرة بحكم ثقافتها عـلى الرأي العام في معظم المدن العراقية •

(٧٣) A. L. Haldane, Op. Cit., P. 246;

« العالم العربي » ، ١ كانون الثاني ١٩٣٢ •

مذكراته عن تلك الايام اعطاء فكرة واضحة عن الوضع في منطقة أربيل • يقول هيي مانصه :

« ••• لقد غدت سلطاتي كضابط سياسي معدومة عمليا ، ومن جراء الخدمات الطبية التي قدمها كل من خورشيد آغا وأحمد أفندي تمكنت من ممارسة بعض النفوذ » • كما يذكر ايضا ان الناس بدأوا يتوقعون هروبه في كل لحظة ، خاصة بعد ان اضطر البريطانيون لنقل موجودات الخزينة من أربيل الى كركوك (٧٤) ، وتم فعلا اجلاء العديد من الموظفين الانكليز من المدينة • وبسبب الظروف المتوترة هذه اضطر الحاكم البريطاني العام ارنولد ولسن للسفر الى اربيل بطائرة خاصة في ٨ أيلول (٧٥) حيث اجتمع بالمسؤولين وبعدد كبير من سكان المدينة الذين القى فيهم خطابا مطولا تحدث فيه عن الانتصارات الكبرى في مناطق الفرات الاوسط وأشار بشكل خاص الى « هدوء الوضع في السليمانية » (٧٦) • ولم ينس أن يقدم الشكر

---

(٧٤) راجع : W. R. Hay, Op. Cit., PP. 325—326

انجز الحاكم السياسي لكركوك لونكريك بنفسه مهمة نقل موجودات الخزينة من أربيل الى كركوك ، وقد استخدم للامر رتلا كاملا من السيارات وعددا كبيرا من الحراس •

(٧٥) من المفيد ان نشير هنا الى ان ولسن كان قد أخبر هيي بنبأ قدومه برقيا ، وقد رد الاخير عليه ببرقية مفادها انه قد يضطر الى ترك المدينة قبل وصوله بسبب تأزم الموقف ، فاذا لم يجد من طائرته العلم البريطاني مرفوعا فوق بناية مقره عليه الا يهبط ويرجع الى حيث أتى •

(٧٦) راجع :

A. T. Wilson, Mesopotamia 1917—1920, P. 288

خصيصا الى رؤساء العشائر والمتنفذين الذين وقفوا الى جانبهم •

ولكن بالرغم من ذلك لم تمر سوى أيام معدودات على عـودة الحاكم العام الى بغداد حتى تم الكشف عن خطة لطرد الانكليز واقامة حكم محلي ، مما أجبر المسؤولين لارسال قوتين من كركوك والموصل تمكنتا ، بمساعدة بعض العشائر الموالية في منطقة دزه‌يي ، من اعادة السيطرة البريطانية على المدينة (٧٧) التي ظل هدوءها مشوبا بالحذر ومليئا باحتمالات الانفجار من جديد ، بحيث ان البلاغات الرسميـة الثلاثة التي أصدرتها القيادة العامة في النصف الاول من شهر أيلول لم تعلن بصدد هذه المنطقة اكثر من « ان الموقف قد تحسن قليـلا في اربيل » (٧٨) • فقد ظل الناس ينظرون بازدراء الى الانكليز ، وبصورة خاصة الى الذين كانوا يتعـاونون معهـم مـن السـكان الاصليين(٧٩) • وليس أدل على ذلك مما أبداه حاكم المدينة مـن قلق على مصير ولسن أثناء زيارته لاربيل ، مع أن ثلاث طائرات حربية رافقته الى هناك ، كما اتخذت اجراءات واسعة لضمان سلامته(٨٠) •

---

(٧٧) راجع :
A. L. Haldane, Op. Cit., PP. 246—247; W. R. Hay, Op. Cit., PP. 333, 345.

(٧٨) راجع نصوص البلاغات في جريدة «العراق» ، ٦ و ١٤ و ١٦ أيلول ١٩٢٠ •

(٧٩) راجع : W. R. Hay, Op. Cit., P. 239

(٨٠) Ibid, PP. 333, 335—337 من الطريف ان نذكر بهذا الصدد ان القلق قد استبد بالمسؤولين الانكليز اثناء زيارة ولسن لاربيل الى درجة انهم بدأوا يخشون قطيع غنم استعدوا لمقاومته باعتباره هجوما عشيريا ! •

وفي الواقع لم تستتب الامور داخل مدينة أربيل نفسها الا بعد وصول القوتين العسكريتين المذكورتين اللتين وصلتا تباعا من الموصل في ١١ ايلول ومن كركوك في ١٤ منه •

ومع ان الانكليز تمكنوا في نهاية الامر من احكام سيطرتهم على مدينة أربيل ، الا ان الاوضاع ظلت متوترة لفترة اخرى في المناطق التابعة لها اداريا ، ولتي اضطر جميع الانكليز العاملين فيها على الانسحاب منها الى المدينة نفسها • فقد ذكر البلاغ الرسمي الصادر يوم ١٥ أيلول ان « السكون قد عم أربيل منذ وصول جنودنا هناك ، أما القبائل التي في الجبال فانها مازالت غير مستقرة » (٨١) • ففي كويسنجق توترت الاوضاع بشكل أكدت عليه القيادة العامة في بلاغاتها أكثر من مرة (٨٢) • وقد اضطر معاون الحاكم السياسي البريطاني كيرك (F. C. Kirk) الى ترك المدينة في ٨ أيلول ، عاهدا ادارتها الى أحد رؤساء العشائر الموالية للانكليز (٨٣) • وكان الثوار قد قطعوا قبل ذلك خطوط التلغراف بين أربيل وكويسنجق التي لم يستطع الانكليز اعادة ادارتهم اليها لغاية أوائل تشرين الاول ١٩٢٠ • وظلت الاوضاع متوترة في منطقة خوشناو طيلة شهر اب وأوائل أيلول ، مما كلف الانكليز العديد من رجالهم ، كان معظمهم من المجندين

---

(٨١) « العراق » ، ١٧ أيلول ١٩٢٠ •
(٨٢) راجع : « العراق » ، ١٦ أيلول ١٩٢٠ •
(٨٣) « العالم العربي » ، ١كانون الثاني ١٩٣٢ ؛
A. L. Haldane, Op. Cit., P. 246

المحليين • وعجزت جميع محاولات معاون الحاكم السياسي وجهود الموالين من رؤساء بعض العشائر عن اعادة الامور الى نصابها في هذه المنطقة لفترة غير قصيرة من الزمن •

انفجرت الاوضاع بشكل خطير في باتاس و رواندوز بسبب قيام عشيرة سورجي المعروفة التي تمكن رجالها من تحرير باتاس في الاول من أيلول ومن هناك توجهوا صوب رواندوز حيث حاصروا القوة المعسكرة بداخلها والتي تمكنت من الانسحاب الى أربيل بصعوبة وذلك بعد معركة فقدت فيها ١٨ من أفرادها (٨٤) • وقد وقعت معركة كبيرة اخرى بين ٦٠٠ من رجال السورجي وقوة أخرى بالقرب من الزاب الكبير في ١٥ أيلول أسفرت عن الحاق خسائر جسيمة بالاكراد تختلف المصادر في تقديرها • فقد جاء في بلاغ القيادة الانكليزية العامة ليوم ٢٢ أيلول ١٩٢٠ بشأنها :

« هجم في ١٥ أيلول أكراد سورجي على (قوة •واليةـك•م•)، فاعاد أفرادها الكرة عليهم ودحروهم الى ماوراء الزاب • ويدعي هؤلاء أنهم قتلوا ١٤٠ منهم وأغرقوا ٦٠ ولم يمنوا الا بخسائر قليلة » (٨٥)• أما وكيل الحاكم العام آرنولد ولسن فيذكر بتشف واضح بأن الموالين ذبحوا ٦٠ من الثوار الكرد « وأجبروا الاخرين على عبور الزاب حيث لقي ١٤٠ آخرون منهم حتفهم كما يقال » • وهو يقدر خسارة

---

(٨٤) A. L. Haldane, Op. Cit., P. 27

(٨٥) راجع نص البلاغ في : « العراق » ، ٢٣ أيلول ١٩٢٠ •

الجانب الاخر بأربعة قتلى و٨ جرحى فقط (٨٦) • ويروي قائـد القوات البريطانية العاملة في العراق ا• هالدين في كتابه نفس المعلومات تقريبا عن الحادث (٨٧) • بينما تشير بعض الوثائق البريطانية الى أن الجنود « قضوا » بقيادة الضباط البريطانيين ، على ٦٠٠ من الاكراد » الذين هاجموا المعسكر (٨٨) • ومهما يكن من أمـر فـان الجنرال هالدين قد اعترف ، حسبما ورد في الوثائق نفسها ، بأنه « لولا هذا العمل فان الفوضى كانت تغلب على قسم كبير من القوات العسكريـة المتمركزة في الموصل » (٨٩) •

ومن الجدير بالذكر ان هذه الواقعة وجدت لها صدى أكبـر من أحداث كردستان الاخرى أيام ثورة العشرين • والمهم بهـذا الصدد أن جريدة «الاستقلال» النجفية نشرت بدورها نبأ تكبـد « السورجية في هجومها ٦٠ قتيلا » (٩٠) •

تشعبت نشاطات السورجي لتشمل منطقة واسعة ، مما استدعى قلقا كبيرا لدى المسؤولين الانكليز (٩١) ، ولاسيما انهم غدوا في احدى

---

(٨٦) A. T. Wilson, Mesopotamia 1917—1920, P. 291

(٨٧) A. L. Haldane, Op Cit., P. 246

(٨٨) F. O. 371/16849

(٨٩) Ibid

(٩٠) « الاستقلال » ، العدد الاول ، تشرين الاول ١٩٢٠ • لم تعلق الجريدة على هذا الحدث بالرغم من أهميته •

(٩١) ان من يتصفح كتاب الكابتن هيي « سنتان في كردستان » يفهم جيدا ما أثاره السورجيون من مصاعب ومخاوف للانكليز طيلة أيام « ثورة العشرين » •

المرات على بعد ١٢ ميلا فقط من مدينة أربيل نفسها ، بل أنهم ، مع رجال الخوشناو ، فرضوا خلال أيلول نوعا من الحصار على المدينة ، مما جعل الانكليز الموجودين بداخلها في وضع لايحسدون عليه(٩٢).

توترت الاوضاع أيام الثورة في بعض مناطق بادينان كذلك . فقد أشار البلاغ الرسمي الصادر يوم ١٨ أيلول ١٩٢٠ الى أن « الاحوال غير مستقرة في عقرة » (٩٣) . ومن الجدير بالذكر أن مقتل الكولونيل ليجمن على أيدي ثوار الزوبع قد وجد له صداه بين سكان هذه المنطقة الذين عانوا في حينه الكثير منه، ومن حملاته الانتقامية (٩٤) وخططه العنصرية التي استهدفت تجريدهم من أرض الاجداد ، حتى انه نقل من الموصل الى الدليم على أساس انه كان يجيد التعامل مع العرب أكثر من الاكراد الذين دشن وجوده بينهم

---

(٩٢) انهم كانوا دوما على اهبة الاستعداد للهرب من المدينة ، بل بادروا اكثر من مرة الى ذلك ، الا ان موقف بعض الموالين لهم قد شد من أزرهم وحال دون تركهم لمدينة أربيل ، مما اعترف به الكابتن هيي في كتابه مرارا .

(٩٣) راجع : « العراق » ، ٢٠ أيلول ١٩٢٠ .

(٩٤) قاد الكولونيل ليجمن بنفسه العديد من الحملات العسكرية التي استهدفت ثوار المنطقة الكردية قبل « ثورة العشرين ». وقد تصدى هؤلاء له ، وحاولوا قتله في صيف العام ١٩١٩ ، الا انه تخلص من الموت باعجوبة . وقد انتشر الخبر بين الناس بسرعة ، حتى ان « جمعية العهد ـ فرع الموصل » زودت المركز بتفاصيل الحادث ضمن تقرير رفعته اليه في ٧ أب ١٩١٩ (راجع : « صدى الاحرار » ، ٣٠ كانون الثاني ١٩٥٣) .

منذ الايام الاولى التي أتبعت انتهاء الحرب ، بفظاظة تشمئز منهـــا النفس (٩٥) ٠

لم تكن الاوضاع متوترة في السليمانية وما والاها بالقياس الى معظم المناطق الاخرى ، ذلك لانه لم تكن قد انقضت بعد سوى اشهر قلائل على الضربة القوية التي وجهتها القوات الانكليزية الى حركة الشيخ محمود في هذه الاصقاع ، كما تمكن حاكم المدينة الميجر سون من التأثير على أوساط متنفذة فيها ، ولاسيما كبار التجار ممن عرفوا بموالاتهم للانكليز (٩٦) الذين كان وجودهم يعني تطوير مصـــالح هؤلاء بشكل عام ، وتوثيق صلاتهم التجارية مع بغداد بشكل خاص. وليس عبثا أن يؤكد ســون في تقرير خاص رفعه الى الحاكم العـام في بغداد على «الاخلاص المطلق» لهؤلاء التجار الذين ، قال عنهـم ، انهم « ليسوا موالين لبريطانيا فقط ، بل يشكلون نواة تلك الطبقـة

---

(٩٥) راجع مايرويه عنه عبدالعزيز القصاب الذي كان قائمقامـا عثمانيا في زيبار التي دخلها ليجمن بعد الحرب مباشرة (عبد العزيز القصاب ، من ذكرياتي ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ١٨٧ ـ ١٨٩) ٠

(٩٦) بعـد مجـيء الانكليز تطـورت مصـالح هؤلاء التجار بشكل ملموس ، وازداد ارتباطهم باسواق بغداد اكثر فاكثر ، حتى ان بعضا منهم انتقلوا اليها ٠ وقد تجلى موقف هؤلاء بشكل واضح ايام انتفاضة الشيخ محمود في العام ١٩١٩ ٠ فعندما منح الانكليز الشيخ منصب الحكمدارية بعد الحرب مباشرة، وقف كبار تجار المدينة الى جانبه بحماس ، وعندما غير هؤلاء موقفهم منه انقلب عدد من ابرز تجار السليمانية الى شهـود اثبات ضد الشيخ محمود اثناء محاكمته في بغداد ! ٠

التي أخبرتني مرة عن ضرورة تحويلها الى سند نشيط للحكومة » (٩٧) • وقد تمكن سون أيضا من كسب قطاع مؤثر من مثقفي السليمانية ، بما فيهم معظم الضباط السابقين في الجيش العثماني ، عن طريق تعيينهم في بعض المراكز الحكومية الحساسة(٩٨) وبخلق جو ثقافي لم تعهده المدينة من قبل (٩٩) • والى جانب ذلك ضمن الميجر سون ولاء العديد من رؤساء العشائر للسلطة ، بحيث قام بابكر اغا البشدري بارسال عدد من رجاله المسلحين الى المدينة تحسبا للطواريء (١٠٠) •

اتخذ سون اجراءات اخرى تدل بوضوح على انه كان يحاول سبق الاحداث • ففي عز أيام الثورة والتوتر في السليمانية رفع رواتب رجال الشرطة من السكان المحليين بمقدار ١٢ ـ ٢٠ ٪ ، كما منحهم

---

(٩٧) F. O. 371/4342

(٩٨) تم تعيين جمال بك في مركة وعوني افندي في تانجرو ورضا بك في شاربازير وقرب سون أمير اللواء السابق مصطفى باشا ياملكي وهكذا •

(٩٩) خلق الميجر سون جوا ثقافيا نشيطا في السليمانية ايام ولايته عليها ، ولاسيما من خلال جريدة « بيشكه‌وتن » التي أصدرها باللغة الكردية وجمع حولها عددا من ابرز الشعراء والكتاب ، منهم الشيخ نوري الشيخ صالح وجمال عرفان وعلي كمال بابير وغيرهم •

(١٠٠) أشارت الى ذلك :

((Journal of the Central Asian Society)), London, Vol. IV, Pt. III, 1928, PP. 266—268.

(راجع كذلك : ل• ن• كاتلوف ، انتفاضة ١٩٢٠ الوطنية ـ التحررية في العراق ، ص ١٣٩) •

امتيازات أخرى كثيرة(١٠١) • ولاشك في أن كل ذلك يدل على أن الوضع في السليمانية لم يكن هادئا بالشكل الذي صوره ولسن لسكان أربيل• فبالرغم من حالة الجزر التي أصابت الحركة الوطنية في المنطقة ، الا ان الرأي العام فيها قد استقبل انباء الثورة بارتياح كبير• ويأتي أنصار الشيخ محمود ومؤيدو الحركة الكمالية في تركيا في مقدمة الناس الذين رحبوا بما كان يجري على الساحة السياسية في الوسط والجنوب ، وفي بعض مناطق كردستان • وبرز في تلك الايام بعض الشخصيات المعروفة في المدينة ، منهم الحاج ملا سعيد وشقيقه اللذين تصفهما التقارير الانكليزية السرية بـ « أعداء الداء لبريطانيا » (١٠٢) • وقد أثر الاول منهما على حمدي بك بابان مما انعكس واضحا ـ باعتراف الوثائق البريطانية ـ في مضمون ولهجة الرسائل التي بعثها الاخير أيام الثورة الى الحاكم العام البريطاني ، منها رسالته المفصلة التي تحمل تأريخ ٦ اب ١٩٢٠ ، والتي يبدو مما ورد فيها انه كان يطمح في أن يجعله الانكليز «حاكم كردستان الجنوبية » (١٠٣) •

ولكن حتى في السليمانية لم يقتصر النضال أيام « ثورة العشرين » على هذا الاسلوب السلبي • فقد شهدت بعض نواحيها

---

(١٠١) راجع : « بيشكه‌وتن » ، ٣٠ أيلول ١٩٢٠ •

(١٠٢) F. O. 371/4342 تشير هذه الوثيقة الى ان مصالح الحاج ملاسعيد قد تاثرت بشكل ملموس مع مجيء الانكليز الى السليمانية •

(١٠٣) F. O. 371/4601

حركات عفوية معادية للانكليز في تلك الايام ، كما حدث في سنكاو مثلا ، حيث اضطر الكابتن ليز (G. M. Lees) للذهاب من السليمانية الى هناك وتمكن من ارجاع الامور الى وضعها السابق بعد أن اجتمع بالشيخ عبدالقادر شخصيا (١٠٤) . ولم تمض سوى فترة وجيزة حتى قامت مجموعة من أفراد عشيرة دزلي المعروفة بموالاتها للشيخ محمود (١٠٥) بالهجوم على دار السيدة المتنفذة المؤيدة للانكليز خان بهادر عادلة الجاف في حلبجة والتي كانت على أوثق علاقة بالميجر سون (١٠٦) ، فقامت طائرتان حربيتان بتدمير قريتي بارام آوا وبلخه وقرى أخرى في منطقة هەورامان(١٠٧) . وقد أشار الى الحدث الاخير البلاغ الرسمي الصادر يوم ١٥ أيلول(١٠٨) . أما جريدة «بيشكەوتن» الكردية فقد تهجمت على ثوار هەورامان بعنف ونعتتهم بأوصاف غير لائقة (١٠٩) .

---

(١٠٤) راجع : « بيشكەوتن » ، ٢٦ اب ١٩٢٠ .

(١٠٥) شكل أبناء هذه العشيرة جانبا كبيرا من قوات الشيخ محمود اثناء انتفاضة العام ١٩١٩ ، وقد ظلوا يعادون الانكليز على مدى سنين طوال فيما بعد .

(١٠٦) تعود بدايات تلك العلاقات الى الفترة التي زار فيها سون كردستان متنكرا . وقد ظلت هي ، وابناؤها على علاقات طيبة مع الانكليز . كما انها لعبت دورا ملموسا في حصر نفوذ الشيخ محمود أيام انتفاضته ، وفي مساعدة المحتلين لاعادة سيطرتهم الى منطقة حلبجة .

(١٠٧) « بيشكەوتن » ، ٢٣ أيلول ١٩٢٠ .

(١٠٨) راجع : « العراق » ، ١٧ أيلول ١٩٢٠ .

(١٠٩) « بيشكەوتن » ، ٢٣ أيلول ١٩٢٠ .

وهكذا نجد صورة مصغرة لاحداث «ثورة العشرين» في المناطق الكردية التي لم تبق ، وماكان بالامكان ان تبقى بعيدة عن آثار الاحداث الكبيرة التي هزت المناطق الاخرى من البلاد • والواقع أنه لولا الظروف الخاصة الناجمة عن مجموعة عوامل محددة لكان في الامكان تطوير الاحداث في كردستان أيام الثورة بشكل أكثر فاعلية ، وهو أمر كان يخشاه المحتلون كثيرا لما كان ينطوي عليه من مضاعفات متوقعة ، فبذلوا ـ كما سنرى ـ جهودا كبيرة ، ولجأوا الى أساليب ملتوية للحيلولة دون حدوثه ، ولاسيما لان مشاكلهم في المناطق الاخرى كانت تجعلهم عاجزين عن توجيه القوات الكافية لقمع أي حركة واسعة تنفجر بين الاكراد (١١٠) •

تأتي على رأس قائمة العوامل التي حددت من اشتراك المناطق الكردية في «ثورة العشرين» الضربة القوية التي وجهتها قوات الاحتلال لجماهيرها خلال العام ونصف العام الذي سبق انفجار الموقف في الوسط والجنوب • فالقتل والغرامة والسجن والنفي والتشريد بالجملة كان من نصيب الوطنيين حيثما قاموا بوجه المحتلين• فمثلا بعد أن اعادت القوات الانكليزية احتلال العمادية في ٦ اب ١٩١٩ فرضت على أهلها غرامة مقدارها ١١٢ بندقية و ٩ صناديق

---

(١١٠) حول هذا الموضوع راجع :

W. Ormsby, The organization of British responsibilites in the Middle East,— ((Journal of the Royal Central Asian Society)), Vol. VII, 1920, PP. 86—87.

من الذخيرة وغيرها ، كما ألقت القبض على عدد كبير مـن النـاس المشتركين ، وغير المشتركين ، في الانتفاضة ونفذت حكم الموت بحق ٥ منهم علنا ونشرت بلاغا رسميا بصدد ذلك (١١١) ٠

لم تلعب الرجعية الكردية الدور الاخير في تحجيم آثار الثورة٠ ففي كردستان كذلك وقف العديد من رؤساء العشائر ومتنفذي المدن الى جانب الانكليز ولعبوا دورا كبيرا للحيلولة دون انتشار نـيران الثورة الى مناطق كثيرة ٠ كما انهم اسهموا فعلا في قمع بؤر الثورة وبوادرها هنا وهناك ، مثلما سبقت الاشارة الى بعـض شـواهده ٠ ولابأس في ان نورد هنا بعض الامثلة الحية الاخرى بهذا الصدد ٠ فعندما توترت الاوضاع في منطقة خانقين قام القنصل البريطـاني في كرمانشاه بتحشيد ٢٥٠ فارسا من عشيرة سنجاوي و ٢٠٠ اخريـن من كلهور وكوران الذين استخدم قسم منهم في العمليات العسكرية بقيادة الكابتن مور ضد الثوار ، كما عهد الى قسم اخر منهم بمهمـة حراسة منشآت النفط في منطقة نفطخانة القريبة من الحدود (١١٢)٠ وفي منطقة كفري أجرى المسؤولون الانكليز اتصالات واسعة مـع عدد من رؤساء العشائر بقصد استخدام رجالهم ضد الثوار ، أو على الاقل للحيلولة دون اشتراكهم في الثورة ٠ ومع ان النجاح لم يحالف

---

(١١١) راجع : «العرب » ، ١٥ اب ١٩١٩ ٠

(١١٢)

A. L. Haldane, Op. Cit., PP. 158—160; P. W. Ireland, Iraq. A study in Political development, London, 1937, P. 270.

الانكليز في محاولاتهم دائما (١١٣) ، الا أنهم لم يحققوا كذلك مكاسب قليلة في هذا الميدان . فقد لعب عدد من الشيوخ الطالبانيين دورا ملموسا في عرقلة تطور التحرك الكردي المعادي للانكليز أيام الثورة . فمثلا انضم الشيخ حميد الطالباني مع أتباعه الى لونكريك الحاكم السياسي في كركوك ، وبعث عددا من فرسانه المسلحين الى مناطق داوده وزنكنه (١١٤) . وقام أخرون من الرؤساء والمتنفذين الكرد بجولات في المناطق الكردية زاروا خلالها الضباط السياسيين الانكليز بشكل خاص ، كما فعل ذلك الشخصية المعروفة السيد طه الشمزيناني وبابكر اغا البشدري (١١٥) .وكما يروي هيي فان أحد رؤساء العشائر الموالين للانكليز قد حشد حوالي ٣ الاف مسلح لاستخدامهم عند الحاجة. والواقع انه لولا الخدمات الكبيرة التي قدمها خورشيد اغا من رؤساء دزهيي للانكليز بكل اخلاص لما استطاعوا الاحتفاظ بمدينة أربيل في عز أيام الثورة وقد استحق هذا الرجل،دون الاخرين ، سيارة فورد قدمها له الحاكم البريطاني العام خصيصا اعترافا منه بما اسداه لهم من خدمات في أحرج أيام حكمهم لاربيل وضواحيها .

---

(١١٣) راجع مثلا : A. L. Haldane, Op. Cit., P. 246

(١١٤) « بيشكه‌وتن » ، ٢ و ٩ أيلول ١٩٢٠ . عن الدور المعادي للشيوخ الطالبانيين راجع كذلك : مكرم الطالباني ، المصدر السابق ، ص ٨٠ ، ٨٦ ـ ٨٧ .

(١١٥) راجع : « بيشكه‌وتن »، ١٦ أيلول ١٩٢٠ .

ولم يصمد العديد من الرؤساء الذين اشتركوا في الثورة حتى النهاية . فانهم غالبا ما كانوا يتراجعون ويتركون سوح النضال عند أول ضربة يتلقونها . ودخل الكثير منهم في مساومات مباشرة مع المسؤولين الانكليز ، كما حدث بالنسبة لزعماء خوشناو وكردي وحتى سورجي(١١٦) . وانتظر الكثيرون فوق التل ليختاروا في اللحظة المناسبة الطرف الذي ينضمون اليه ! ، حتى ان البعض تحفز في البداية للاشتراك الى جانب الثوار ، الا ان اول اندحار أصاب هؤلاء جعلهم يرفضون مجرد التعاون معهم ، بل كان بينهم من لم يتردد في التعاون مع الانكليز . وكل ذلك يعكس ، في الواقع ، طبيعة القيادة التي كان زمام التحرك السياسي يومذاك في يدها .

بذل الانكليز جهودا كبيرة لابقاء المنطقة الكردية بعيدة عن أحداث الثورة . فانهم غالبا ما كانوا يؤكدون في بلاغاتهم الرسمية الاولى « السكون السائد في كردستان » (١١٧) . كما انهم في لقاءاتهم الخاصة بالاكراد كانوا يحاولون تصوير الامر في الوسط والجنوب وكأنه تمرد عربي متخلف محدود يقتصرعلى رقعة ضيقةمن الفرات الاوسط . وكانوا يؤكدون من قصد على ان الشيعة هم الذين يقفون على رأس الثورة هناك ، كما فعل ولسن أثناء زيارته الخاصة

---

(١١٦) راجع : ل. ن. كاتلوف . انتفاضة ١٩٢٠ الوطنية_التحررية في العراق ، ص ١٦٧ .

(١١٧) راجع مثلا البلاغ المنشور في جريدة « العراق » ، ٢١ اب ١٩٢٠ .

لأربيل (١١٨) • وقد لاحظنا كيف انه حاول الايحاء لسكان المدينة بان الوضع في السليمانية هادىء • وكان الانكليز يبالغون في عرضهم لعمليات قواتهم في الوسط والجنوب بهدف القاء الرعب في نفوس الناس • والى جانب الضباط والمسؤولين الانكليز وعملائهم لعبت جريدة «بيشكه‌وتن» الكردية دورا ملموسا في هذا المجال • فانها كانت تحاول دائما تصوير الثورة في المناطق الاخرى كحركة عربية صرفة لاتهم الكرد في شيء ، كما كانت تنشر أبناء «الاندحارات المستمرة» للعشائر العربية وخسائرها الجسمية في الارواح (١١٩) ، وتشير الى القوات الكبيرة والاسلحة الحديثة التي تصل البصرة وبغداد تباعا (١٢٠) ، وتبرز أوامر السلطة الصارمة وأخبار تنفيذ احكام الموت الصادرة بحق الثوار (١٢١) ، وتؤكد على قطع المياه من العشائر « الخارجة على القانون »(١٢٢) وعلى ما يفرض عليها من غرامات كبيرة (١٢٣) ، وتبين تراجع الكثيرين عن « خطاياهم » ورفع دخالتهم الى السلطة

---

(١١٨) A. T. Wilson, Mesopotamia 1917—1920, P. 288

(١١٩) راجع : « بيشكه‌وتن » ، ٥ و ١٢ و ١٩ اب و ٢ أيلول ١٩٢٠ •

(١٢٠) راجع مثلا : « بيشكه‌وتن » ، ١٢ و ١٩ اب و ٢ أيلول ١٩٢٠ •

(١٢١) راجع مثلا : « بيشكه‌وتن » ، ١٩ اب و ١٦ أيلول ١٩٢٠ •

(١٢٢) راجع نفس الاعداد •

(١٢٣) راجع مثلا : « بيشكه‌وتن » ، ٢٦ اب و ٣٠ أيلول و ٤ تشرين الثاني ١٩٢٠ •

المحتلة وقبولهم لجميع شروطها (١٢٤) ٠

وقد أكدت « بيشكەوتن » بشكل خاص على ابراز مواقف الاكراد الموالين للانكليز في المناطق الاخرى ٠ فان « شيوخ الطالباني عقدوا مجلسا وقدموا تقريرا الى الحاكم السياسي في كركوك يظهرون فيه اخلاصهم وتأييدهم ، ويعربون عن رغبتهم في معاقبة القرى الخمس القريبة من ليلان لانها (بخروجها على الانكليز ـ ك٠م٠) أرادت الاساءة الى سمعة الطالبانيين »(١٢٥) ٠ أما الاكراد الذين «ضللتهم دعايات العرب » فقد تم دحرهم بسهولة في كل مكان ، فهرب ابراهيم خان ، وتشرد جميع رجاله ، والتجأ رفعت بك داوده الى ايران (١٢٦) ٠ كما كانت الجريدة تنشر بكل صراحة وعن قصد واضح أخبار القسوة المتبعة مع الثوار الاكراد ، وتؤكد على حرق قراهم وبيادرهم دون رحمة ، وفرض غرامات كبيرة عليهم تبلغ في بعض الحالات عشرات الالوف من الروبيات مع اكثر من ١٠٠ بندقية (١٢٧) ٠ وكان القصد من كل هذه الحملة ابعاد شبح الثورة عن هذه المنطقة ٠

وهناك عامل مهم أخر لعب دوره في عدم انتقال التحرك

---

(١٢٤) راجع مثلا : « بيشكەوتن » ، ٢٦ اب و ٩ و ٣٠ أيلول و ٤ تشرين الثاني ١٩٢٠ ٠

(١٢٥) «بيشكەوتن» ، ٢٦ اب ١٩٢٠ ٠

(١٢٦) راجع مثلا : «بيشكەوتن» ، ٢و ٣٠ ايلول و ٧ تشرين الاول ١٩٢٠ ٠

(١٢٧) راجع مثلا : « بيشكەوتن » ، ٢ و ١٦ و ٣٠ أيلول ١٩٢٠ ٠

الجماهيري الكردي أيام الثورة الى مستوى الاحداث ، يرتبط مباشرة بضيق افق تفكير القيادتين العربية والكردية يومذاك . فقد وقع العديد من الوطنيين الاكراد فعلا تحت تأثير الدعاية الانكليزية فيما يخص الطابع القومي والديني للثورة ، بحيث ان تلك الاوساط لم تحاول استغلال ظروف الثورة وتردي وضع المحتلين لتنظيم هبة جديدة تستهدف فرض ارادتها على المستعمر ، أو على الاقل اجباره على بعض التراجع . ولهذا السبب ظلت فورة المناطق الكردية عفوية في الاغلب ، غير منظمة ومتباعدة الحلقات .

ومن جانب اخر لم تتخذ قيادة الثورة من الاجراءات ما بامكانها دفع الاوساط الوطنية الكردية الى أوار الثورة مع انها اهتمت ، حسبما يذكر عادل غنيمة ، بـ « ضم مناطق العشائر العربية والكردية الى الحركة الثورية للاعتماد عليها في الكفاح المسلح » (١٢٨) . ومما يجسد قصور القيادة أكثر ان الاوساط الوطنية العربية كانت عشية الثورة على قدر من العلم بان عوامل الانفجار تسود المنطقة الكردية. فقد جاء في رسالة لجمعية العهد ـ فرع الموصل الى مولود مخلص تحمل تاريخ ١٣ اذار ١٩٢٠ ذكر أربع نقاط رئيسية حول الوضع العام ، هذا نص الثالثة منها :

« الاكراد مستاؤون جدا من الانكليز ، ومستعدون للقيام بثورة

---

(١٢٨) عادل غنيمة ، تطور الحركة الوطنية في العراق ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٩ .

جديدة ، وكذلك العشائر العربية » (١٢٩) • وقبيل ذلك ورد التأكيد على الشيء نفسه في وثيقة اخرى لهذه الجمعية تقول : « لقد سمعنا من بعض مشايخهم (مشايخ الاكراد والبدو ـ ك• م•) بعض التذمرات كقولهم ماذا نصنع فقد راجعناكم وراجعنا دمشق واتصلنا بالقسطنطينية بخصوص القيام بحركة ضد الانكليز فلم نأخذ جوابا شافيا » (١٣٠) • وبعد أقل من اسبوعين أكدت قيادة الجمعية نفسها هذا الامر في رسالة أخرى لها بعثتها الى مركزها في الشام واستهلتها بالقول : « ان الاكراد بطرفنا قد تهيأوا للثورة مجددا وهم ينتظرون اشارتنا اليهم ، ونحن لازلنا على اتصال معهم ومخابراتنا مع كثير من رؤسائهم لم تنقطع ، وقد عزمنا على ارسال ضباط عسكريين من أرباب الوطنية والمقدرة الى طرفهم لادارة حركاتهم عند القيام بالثورة » (١٣١) •

وأهم من ذلك ما ورد في كتاب سري بعثته جمعية العهد ـ فرع الموصل الى « شعبة جمعية العهد العراقي في بغداد » يحمل تاريخ ١٠ رجب ١٣٣٨ (٣٠ أو ٣١ اذار ١٩٢٠) ، نعرض فيما يلي نصه:

« ٥ ـ اخواننا الاكراد المجاورون لنا مستعدون للثورة ، وانهم بانتظار اشارتنا ، وكذلك عرب الجزيرة سيقومون بمثل ذلك ، ولنا الامل بالنجاح التام ان شاء الله • فالى العمل

---

(١٢٩) راجع : « صدى الاحرار » ، ٢٦ أذار ١٩٥٣ •
(١٣٠) « صدى الاحرار » ، ٣ نيسان ١٩٥٣ •
(١٣١) « صدى الاحرار » ، ١٦ تشرين الثاني ١٩٥٣ •

أيها الاخوان فقد آن وقته » (١٣٢) •

ولكن بالرغم من كل ذلك لم تحاول قيادة الثورة الاتصال بالقوى الكردية المعادية للانكليز ، مع أن قطاعا منها نزل الى سوح النضال من جديد بشكل يستلفت النظر ، بحيث قلما صدر بلاغ رسمي منذ اب ١٩٢٠ لم يرد فيه ذكر اسم منطقة كردية أو أكثر بدأت أخبارها تتسرب حتى الى صحافة الثورة بشكل أو بآخر(١٣٣)، ولكن دون أن تقيم أهميتها كما يجب فتحاول استغلالها ، أو مجرد التعليق عليها •

ولاينكر أن فرع الموصل لجمعية العهد أبدى تفهما أعمق من غيره في هذا المجال ، فكان على بعض الاتصال بالاوساط الكردية المعادية للانكليز في منطقة بادينان ، وبذل زعماؤه جهودا مخلصة لدفع القيادة العامة للجمعية الى التعاون مع الحركة الثورية الكردية، الا أن تلك القيادة لم تكن لتؤمن ـ حسبما جاء في وثائق مهمة لها ـ «بالثورات الدموية المسلحة» ، بل أرادت أن تكون كل المساعي « محصورة على الثورات الفكرية الادبية » (١٣٤) • ولم تكن الجماهير المستاءة تؤمن بمثل هذا الاسلوب من النضال • فقد جاء

---

(١٣٢) « صدى الاحرار » ، ٣١ تموز ١٩٥٣ •

(١٣٣) راجع مثلا : « الاستقلال » ، النجف ، العدد الاول ، ١ تشرين الاول ١٩٢٠ ؛ العدد الثاني ، ٣ تشرين الاول ١٩٢٠؛ العدد الثالث ، ٥ تشرين الاول ١٩٢٠ •

(١٣٤) « صدى الاحرار » ، ١٦ كانون الثاني ١٩٥٣ •

في رسالة بعثتها جمعية العهد ـ فرع الموصل الى المركز في الشام مانصه :

« لقد سئم الناس من التحريض الادبي في طلب الاستقلال ، أو بأسم الجنسية والوطن ، فعلينا ان نترك أمثال هذه الامور ، وان نكون عمليين بانتهاز الفرص والتكتل بأسم الجامعة الاسلامية والاتفاق مع الامم المناهضة لسياسة الحلفاء » (١٣٥) ٠

ومما لاشك فيه أن مثل ذلك الموقف غير العملي للقيادة المركزية للعهد قد أثر سلبا على التحرك الجماهيري ، على الاقل في منطقة بادينان ٠ فقد ورد في وثيقة مهمة لفرع الموصل للجمعية أن «الثورات قائمة على قدم وساق ، وبين مد وجزر ، في بعض المناطق الكردية كزاخو والعمادية والسليمانية وغيرها ، أما نحن فلا زلنا مكتوفي الايدي بالنظر الى التعليمات التي كنا قد تلقيناها منكم بوجوب الاخلاد الى الهدوء والسكينة لحين مجيء الوفد الامريكي الى طرفنا ، ولولا ذلك فان الفرص مواتية في الوقت الحاضر للقيام بثورات مسلحة لان الكثير من عشائر الاكراد الذين لم يثوروا بعد ، وكذلك العشائر العربية الكائنة غربي الموصل مستعدة للثورة عند أول اشارة »(١٣٦)٠

ولكن بالرغم من كل هذا الزخم واضحة المعالم فان قيادة الثورة في بغداد ومدن الفرات الاوسط ظلت معزولة عن المنطقة الكردية ٠

---

(١٣٥) « صدى الاحرار » ، ٣ نيسان ١٩٥٣ ٠

(١٣٦) « صدى الاحرار » ، ٣٠ كانون الثاني ١٩٥٣ ٠

فلم يكن لدى «مكتب الثورة» وحزب «حرس الاستقلال» تصور واضح للمسألة الكردية أو حتى مجرد فرع أو نشاط في المنطقة مع انهما كان لديهما فروع ومعتمدون في معظم المدن والقصبات العراقية، وكانا على اتصال بزعماء الانتفاضة في العديد من المناطق المجاورة لبؤر الثورة في كردستان (١٣٧) • ومما يجسد هذا النقص أكثر أن «مكتب الثورة» كان منذ تأسيسه في العام ١٩١٨ «على علم بجميع مايجري من الاوامر والحركات العسكرية والسياسية لحكام الاحتلال ولجيشه الجرار ، حسب قول أحد مؤسسيه (١٣٨) •

وفي الواقع لايمكن فصل هذه الحقيقة عن طبيعة القيادة نفسها، التي لم تدرك ، وماكان بامكانها أن تدرك ، أهمية النضال المشترك في التحرك الجماهيري فتوليه مايستحق من اهتمام ، وهي بحكم تركيبها كانت تفتقر أصلا الى الوسائل الفعالة التي يمكنها من تحقيق هذه الغاية المهمة •

من كل ماسبق يبدو واضحا أن فرصا غير قليلة قد ضاعت قبيل الثورة وفي أيامها ، كان بالامكان استغلالها وتحويلها الى قوة دفع أخرى لثورة العشرين • علما بأن الترابط اللاارادي بين أحداث المنطقتين كان قويا الى درجة ان انحسار الثورة ثم اندحارها في

---

(١٣٧) راجع : علي ال بازركان ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ ــ ١٧٣ ، ١٨١ ؛ محمد علي كمال الدين ، المصدر السابق ، ص ٢٦ ــ ٧٨ •

(١٣٨) محمد علي كمال الدين ، المصدر السابق ، ص ٧٨ •

الجنوب قد اثرا بشكل مباشر على زخم التحرك المعادي للانكليز في الشمال • فاذا استثنينا النشاطات المحدودة للكماليين ومجيء اوزدمير (١٣٩) الى منطقة رواندوز مع بعض التحركات الصغيرة المرتبطة بذلك ، فان الانكليز لم يروا منذ انتهاء الحرب هدوئا نسبيا في كردستان يشبه ماحدث بعد القضاء على «ثورة العشرين» وعلى مدى أكثر من عام واحد •

من شأن هذه الحقائق أن تتوضح أكثر من خلال استعراضنا السريع لاهمية « ثورة العشرين » والعوامل التي أدت الى اخفاقها في تحقيق جميع مهماتها ، وذلك في خاتمة الكتاب •

---

(١٣٩) اوزدمير باشا من العسكريين العثمانيين السابقين ، وكان مطلعا على شؤون المناطق الكردية ، بعثه الكماليون في العام ١٩٢١ على رأس قوة صغيرة الى منطقة رواندوز حيث زاول بعض النشاط الدعائي والعسكري ضد الوجود البريطاني ، وقد اتصل من اجل ذلك بعدد من الرؤساء المتنفذين في رواندوز وكويسنجق وأربيل ورانية وكركوك والسليمانية ·

الخــاتمة

تحتل « ثورة العشرين » مكانة جد بارزة في حركة التحــرر الوطني للشعب العراقي • فهي تشكل اول انتفاضة عامة معاديــة للاستعمار ، اشترك فيها ممثلــو جميع الطبقات والفئات الاجتماعيــة والقوميات والطوائف الدينية الذين كان يجمعهم هدف أعلى واحد• وبحكم ذلك كان من الطبيعي ان تؤدي الى نتائج مهمة على الصعيــد السياسي بشكل خاص •

فقبل كل شيء اقتنع المستعمرون الانكليز بفشل سياستهم العامة في العراق ، وبعدم امكانية حكمه باساليب ما قبل الحرب الكولونيالية، مما أجبرهم على تراجعات معينة أسفرت عن اقامة نظام يعتمد عــلى «ملك واحد والف شيخ» أطلقوا عليه اسم «الحكــم الوطني» الذي كان ، بالرغم من كل نواقصه ومثالبه ، خطوة الى أمام بالقياس مــع ماكان سائدا قبل ذلك من حكم احتلالي مباشر • ومهما يكن مــن أمر فان الانكليز لم يكونوا على استعداد لمثل هذا التراجع الجزئــي قبل صيف العام ١٩٢٠ ، أي قبل ان تكلفهم هبة جماهيرية واحــدة

في أحرج أيامهم أموالا طائلة (١) غدت موضوع نقـاش حـام في

---

(١) تختلف المصادر في تقدير خسائر الانكليز المادية بسبب « ثورة العشرين »· فحسب بعض المصادر كلف قمعها ٤٠ مليون باون (راجع :

((Iraq. An introduction to the past and present of the Kingdom of Iraq)), P. 24)

ويقدر البعض هذا المبلغ بثلاثة أضعاف ما قدمته انكلترا مـن مساعدات خلال الحرب الشريف مكة على شكل ذهب وأسلحـة وتجهيزات (راجع :

Seton Lloyd, Twin Rivers. A brife history of Iraq from the earliest times to the present day)), third editition, Bombay, 1961. P. 212) .

وكما تشير مصادر اخرى فان « ثورة العشرين » كلفت الخزينة البريطانية ما لايقل عن ١٠٠ مليون باون (راجع :

W. Ireland, Op. Cit:, P. 273 ;

ا·م· مينتيشاشفيللي، العراق فيسنوات الانتداب البريطاني موسكو ، ١٩٦٩ . ص ١٠٠ ـ ١٠١ (في الترجمة العربيـــة للدكتور هاشم صالح التكريتي ـ بغداد ، ١٩٧٨ ـ ص ١٦٩)· وفي الواقع لا يصح حصر خسائر الانكليز الماديةفي ماعرفوه خلال صيف وخريف ١٩٢٠ ، أي اثناء العمليات الفعلية ضد الثوار· فان اثار « ثورة العشرين » فرضت على الانكليز الاحتفاظ بقوات كبيرة في العراق لمدة غير قصيرة ، تحولت الى عبء كبير على كاهل الخزينة البريطانية · فان كلفة تلك القوات بلغت فـــي العام الذي اتبع الثورة ما لايقل عن ٢١ مليون باون (راجـع : ب· م· دانتسيك . العراق بالامس واليوم، موسكو، ١٩٦٠ . ص ٢٤)·اما خسائر الطرفين في الارواح فقد أجتمعت المصادر تقريبا على تقديرها بحوالي ٤٢٦ قتيلا و ١٢٢٨ جريحا و ٦١٥ مفقودا في الجانب الانكليزي وحوالي ٨٤٥٠ قتيلا وجريحا في جبهة الثوار ·

البرلمان الانكليزي وعلى صفحات الجرائد البريطانية وفي مجالات اخرى من شانها توضيح أبعاد ذلك التراجع • فقد وصمت جريدة الـ «تايمس» في عددها الصادر يوم ٧ اب ١٩٢٠ «سياسة الحكومة تجاه بلاد مابين النهرين » بالغباء وطالبت باعادة النظر فيها (٢) • أما جريدة الـ «اوبزيرفر» فانها اعتبرت في عددها الصادر يوم ٢٣ اب ١٩٢٠ ان من المضحك «التفكير في ان واجبنا الاساس هو فرض قوانيننا على شعب بين لنا بوضوح تام انه ليس بحاجة لها » • وجاء ابلغ تعبير حول الموضوع نفسه على لسان جريدة الـ «ساندي تايمس» التي ذكرت في عددها الصادر يوم ٢٣ اب ١٩٢٠ ما نصه :

« أو ليس من الافضل لنا ان نعترف بفشلنا ونكف عن التدخل في حياة ثلاثة ملايين عربي يودون شيئا واحدا فقط : التمتع بامكانات تسمح لهم بان يصبحوا سادة مصيرهم ؟ • ان روما لم تضمحل عندما تنازل ادريانوس عن فتوحات ترايانوس » (٣) •

---

(٢) ذهبت بعض الصحف الانكليزيه الى حد أبعد من ذلك عندما طالبت ، تحت تاثير ضربه « ثورة العشرين » ، بتغيير مجمل السياسة البريطانيه في الشرق الاوسط (للتفصيل راجع : الدكتور فاروق صالح العمر ، حول السياسة البريطانيه في العراق ، ص ٨٨ ـ ٨٦) •

(٣) في هذا التشبيه تكمن بلاغة الجريدة • فمن المعروف ان امبراطور روما ترايان (أو ترايانوس Traianus) قد حقق خلال فترة حكمه (٩٨ ـ ١١٧م) فتوحات واسعة امتدت الى مناطق شرقية مختلفة ، الا ان خلفه الامبراطور أودريان (أو ادريانوس ـ هدريانوس Hadrianus) (١١٧ ـ =

أن مثل هذا الموقف لم يعبر سوى عن يأس واضح أمام ارادة الشعب العراقي ، وهو في واقعه صورة موسعة ليأس مشابه انتاب الانكليز جراء الحركات الكردية عشية «ثورة العشرين» ، والذي أشرنا الى تفاصيله ضمن القسم الثاني من الفصل الاول ٠

كانت « ثورة العشرين » اول تحد عام للشعب العراقي بوجه المستعمرين ، فتكون بذلك اول درس مهم على درب النضال المرير الذي ظل في مضمونه وأهدافه هو هو على مدى أربعة عقود لاحقة ، وان تغير في شكله ٠ وهي لم تساعد على كشف حقيقة المستعمر أكثر حسب ، بل بعث الثقة في نفوس العراقيين الذين أيقنوا انهم يتمكنون بنضالهم الدؤوب من فرض ارادتهم وتطهير أرضهم من رجس المحتلين ٠ وليس مجرد صدفة أن جميع الذين استجوبوا في السماوة من أبناء الفئات الاجتماعية المختلفة أكدوا ، دون استثناء ، ان الثورة لم تفشل ، بل على العكس من ذلك انها انتصرت وفرضت ارادتها على الانكليز ٠ وقد ذهب بعضهم الى القول بأن المحتلين هم الذين اضطروا الى طلب الصلح والرضوخ لجميع مطاليب الثوار (٤) ٠ ومرة اخرى ليس مجرد صدفة ان اكثر الرؤساء مساومة ظلوا

=

١٣٨م) تنازل عن ممتلكات الامبراطورية في الشرق وذلك بسبب عدم توفر الامكانات الضرورية التي تتيح له الحفاظ على تلك المناطق ٠

(٤) رجاء أحمد ، بحث ميداني عن « ثورة العشرين » ٠

يتفاخرون فيما بعد باشتراكهم في «ثـورة العشرين» ، ويحاولـون استغلال ذلك لتعزيز مركزهم السياسي وللنيل من خصومهم • وقـد حدث مرارا ان تباهي نواب عشيريون في البرلمان باشتراكهم في الثورة• ولايخلو من مغزى ان النظام الملكي عندما مني بهزيمة كبرى جعلته على حافة الهاوية تحت زخم الانتفاضة الجماهيريـة للعـام ١٩٤٨ ، كلف السيد محمد الصدر لتشكيل الوزارة الجديدة باعتباره واحدا من قادة « ثورة العشرين » •

كل ذلك ، وغير ذلك ، جعل لـ «ثورة العشرين» مكانة خاصة في قلوب العراقيين عربا وكردا واقليات • فانها تحولت الى مصـدر وحي للادباء ، ولاسيما الشعراء منهم الذين تغنوا بامجادها وبطولاتها بشكل لم يسبق له مثيل (٥) • وقد أصبحت عنوان احدى الروايات العراقية المبكرة التي تعود الى العام ١٩٣٨ (٦) •

وأحدثت الثورة صدى ملموسا لها عـلى الصعيـد الخـارجي انعكس ، كما بينا ، على الوضع السياسي في انكلتـرا وعلى نضـال

---

(٥) راجع : ابراهيم الوائلي ، ثورة العشرين في الشعر العراقي ، بغداد ، ١٩٦٨ (١٩٠ صفحة) • لم تنعكس « ثورة العشرين » في الادب الكردي حتى الان ، ويعود سبب ذلك حتما الى ان ادباء الكرد لم يلمسوا ، كما يجب ، بطولات ابائهم في تلك الانتفاضة الجماهيرية الرائعة •

(٦) نشر عبدالحميد الراضي رواية بعنـوان « الثـورة العراقيـة الكبرى » في العام ١٩٣٦ (راجع : ابراهيم الوائلي ، نفس المصدر ، ص ١٦٥) •

الايرانيين ضد المعاهدة الانكلو ـ ايرانية (٧) • وقد تجلت آثارها واضحة في أعمال ومقررات مؤتمر شعوب الشرق الاول الذي انعقد بمدينة باكو في أيلول ١٩٢٠ (٨) •

تعد «ثورة العشرين» مؤشرا مهما للايذان ببزوغ فجر جديد مهم في النضال التحرري العراقي الذي شهد بداية تحول الشعارات البورجوازية الوطنية الى أهداف سياسية سامية التفت حولها مختلف قطاعات الشعب العراقي • فقد بدأت قضايا الوطن والاستقلال السياسي ، بل وحتى التحرر الاجتماعي ، تحل محل المطاليب العشيرية او المحلية الضيقة • ويعتبر تحول المدن الى احد أهم مركزين للنضال والقيادة واحدا من النتائج التي تمخضت عن هذا التحول • فاذا كان الريف ، مركز العشيرة ، يشكل قبل الحرب الوسط الاساس للتحرك السياسي، فان المدينة بدأت تضاهيه في الاهمية أيام « ثورة العشرين » ليتحول ذلك الى أشبه مايكون بمقدمات جعلت من«المدينة

---

(٧) راجع ص ٤٨ من الفصل الاول •

(٨) أثناء التحضير لعقد المؤتمر عشية «ثورة العشرين» جرى التأكيد على شعوب تركيا وايران والقفقاس فقط ، بينما تغير الموقف كثيرا بعد انفجار الثورة التي دفعت بالقيمين على أعمال المؤتمر الى ايلاء بقية شعوب الشرق الاوسط اهتماما اكبر ، فانعكس اسم «بلاد مابين النهرين» و «نضال فلاحيها» ضد المستعمرين الانكليز ، ونهب هؤلاء لثرواتها ، بارزا في كلمات الخطباء ومقررات المؤتمر بشكل عام (للتفصيل راجع : زهير أحمد القيسي ، القضايا العربية في مؤتمر باكو ـ ١٩٢٠ ، ـ « آفاق عربية » ، العدد ١٢ ، اب ١٩٧٦ ، ص ٨٠ ـ ٨٥) •

تجر وراءها القرية ، سياسيا بعد قمع الثورة بفترة وجيزة • ولمثل هذا التحول أهميته السياسية والاجتماعية ، لان جيش النضال الرئيس في المدن يكون عادة اكثر وعيا من نظيره في الريف • وفعلا تحولت شغيلة بغداد الى لولب من نوع جديد في التحرك الذي شهدته المدينة عشية «ثورة العشرين» وفي أيامها • فان اجتماعات بغداد التي كانت تمثل احدى أهم ذروات الوعي العراقي يومذاك ، كانت تعتمد على الشغيلة بالاساس ، يحركها أبناء الفئة المثقفة • ونورد هنا نموذجين من التقارير السرية لبوليس بغداد لهما مغزاهما العميق جدا • فقد وصف أحد التقارير المظاهرة التي حدثت في «شوارع شرق بغداد» والتي كانت « تقرع الطبول والصفائح وتهتف للاستقلال » بقيادة شخصين ••• « أحدهما ، وهو الشيخ طه بن خضير ، كان بائع أخشاب صغيرا من غرب بغداد ، أما الثاني ، وهو عبدالرزاق بن علي، فقد كان طباخا من محلة الفضل » • وقد ورد في تقرير سري اخر للبوليس عن الاجتماع الذي عقد في جامع الحيدرية بتاريخ ١٥ تموز ١٩٢٠ ما نصه :

« وعندما أخذ الجمهور بالتفرق لم يكن بوسع المرء الا أن يلحظ النوعية الفقيرة من الناس ـ الشغيلة ورواد المقاهي »(٩) •

ومن المهم ان نلاحظ هنا أيضا ان فكرة الاستقلال لم تتبلور في ذهن الفلاح العراقي من قبل بالشكل الذي حدث أيام «ثورة

(٩) راجع : «أيام من ثورة العشرين في بغداد» ترجمة واعداد الدكتور صالح جواد الكاظم •

العشرين » ، وذلك بغض النظر عن التأثير المحدود الذي لعبته هذه الفكرة بالقياس مع بعض العوامل الاخرى في تحريكهم • ولكن ، مثلما ذكرنا ، فان القيادة الروحية قد طلبت من رؤساء العشائر ان يهتفوا ، هم ورجالهم ، للاستقلال في ميادين القتال • وان في ما قاله البسطاء من الشعراء الشعبيين أيام الثورة بعض الدليل على هذه الحقيقة (١٠) •

ليس من شك في ان «ثورة العشرين» ساعدت على « رفع الوعي لدى العرب والكرد ، وأسرعت بشكل ملموس في عملية توحيد القوى الوطنية في صراعها ضد الاستعماريين الانكليز » (١١) • فهي دشنت ، بوقائعها ودروسها ، بداية جديرة للنضال العربي ـ الكردي المشترك الذي تحول الى عنصر محرك أساس لمجمل حركة التحرر الوطني في العراق •

صحيح انه كان بامكان الشعب الكردي ان يلعب دورا اكبر في أحداث « ثورة العشرين » لولا تفاعل مجموعة عوامل نابعة من ظروف خاصة وعامة تطرقنا الى تفاصيل معظمها ، الا ان لدوره المحدد ذاك مكانته في تأريخ الثورة باعتباره بداية مهمة لتحول نوعي في النضال

---

(١٠) راجع النماذج التي يذكرها الفياض في كتابه (الدكتور عبدالله الفياض ، المصدر السابق ، ص ٢٦١ـ٢٦٤) •

(١١) راجع : « العراق المعاصر » ، مجموعة من المستشرقين السوفييت ، موسكو ، ١٩٦٦ ، ص ١٣٥ ؛
((Iraqi Review)), Vol. I. No. 6, July 2, 1959, P. 3.

لم يجربه العراقيون طيلة تأريخهم الحديث الذي سبق العام ١٩٢٠ ٠ ومع ذلك فان عدم تكريس كل الطاقة الكردية لخدمة القضية المشتركة في العام ١٩٢٠ يدخل ضمن العوامل التي حالت دون ان تتمكن « ثورة العشرين » من تحقيق جميع أهدافها ٠ وهو أمر يؤكده العديد من الباحثين ، بما فيهم عدد غير قليل من المستشرقين(١٢) ٠

وبالرغم من اهمية هذا العامل ، فان عوامل اكبر وأهم اسهمت في خلق الظروف المناسبة للتعجيل في قمع الثورة من قبل الانكليز ٠ وبالطبع يأتي الاختلاف الكبير في ميزان القوى بين الثوار والمستعمرين على رأس قائمة هذه العوامل ٠ فقد استخدم المستعمرون الانكليز قوات كبيرة تجاوز تعدادها ١٠٠ ألف شخص مزودين باحدث الاسلحة وبغطاء جوي فعال شل نشاط الثوار في العديد من المناطق ودفع بعشائر كثيرة الى اتخاذ موقف حذر للغاية من الثورة ٠ وقد أثر ظهور الطائرات مرارا في سماء المناطق الكردية على موقف بعض العشائر هناك ، ولاسيما في أربيل وخوشناو ٠

---

(١٢) راجع مثلا : ب٠ م٠ دانتسيك ، المصدر السابق ، ص ٢٣ ؛ ا٠ م٠ مينتيشاشفيللي ، المصدر السابق ، ص ١٠١ (في الترجمة العربية ص ١٦٩ـ١٧٠) ٠ راجع كذلك : سعاد خيري ، من تأريخ الحركة الثورية المعاصرة في العراق ١٩٢٠ ـ ١٩٥٨ ، الجزء الاول ، الطبعة الثانية ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ص٣١٠

ولم يكن لطبيمة الكيان الاجتماعي القائم في العراق يومذاك الدور الاخير في رسم مصير « ثورة العشرين » • فان قرونا من الاستغلال الاقطاعي الاسيوي المتخلف ، وان قوة بقايا الاشكال المبكرة من النظام القبلي ، وعوامل اخرى حددت وعي الفلاحين ـ جيش الثورة الرئيس ـ الى حد كبير • فحينما تحرك رئيس العشيرة تحرك معه الفلاحون ، ومتى ما القى هو السلاح القوا هم بدورهم السلاح وتركوا سوح النضال • بل ان قطاعات واسعة من الفلاحين لم تحمل السلاح أصلا بالرغم من استيائها ، وذلك لمجرد سبب « بسيط » واحد هو ان الانكليز تمكنوا من كسب زعمائها الى جانبهم قبل الاحتلال او بعده مباشرة ، كما حدث بالنسبة لمناطق واسعة في حوض دجلة الجنوبي وغيره حيث بقيت « العشائر » موالية للانكليز ، مما كان يعني تحديد نطاق المناطق الثائرة أولا ، وتسهيل مهمة القوات المعادية بتركيز نشاطها على أقل المساحات ثانيا • وقد تجسد هذا الواقع بشكل واضح في العديد من المناطق الكردية التي لم تختلف كثيرا عما ساد حوض دجلة الجنوبي أيام «ثورة العشرين»• وقدلاحظ الدكتور كاتلوف بحق ان المجتمع العراقي كان مقسما انذاك الى « عدة مئات من القبائل العربية والكردية الكبيرة والصغيرة التي كانت تضع (كل واحدة منها ـ ك• م•) العشيرة في مقابل بقية سكان البلاد »(١٣) •

---

(١٣) ل• ن• كاتلوف ، انتفاضة ١٩٢٠ الوطنية ـ التحررية في العراق ، ص ٦١ •

ومن جانب اخر فان الولوج الى ما وراء المظاهر يبين انه كان هناك اصطفاف واضح للقوى المؤيدة للثورة ، وتلك التي كانت تعاديها عن ادراك . واذا لم يكن الامر قد اتخذ طابعا طبقيا واضحا ، فذلك لان أربعة قرون من السيطرة العثمانية المتخلفة والتطورالبطيء في القاعدة الاجتماعية ، وعوامل اخرى مرتبطة بهما ، حالت دون تعميق التناقضات الداخلية التي خفت اكثر تحت وطأة المحتل الجديد الذي ارتكب في البداية من الاخطاء ما مس أيضا مصالح فئات اجتماعية عليا معينة . ومع ذلك فان جانبا مهما من هذه الفئات وكل الكومبرادور العراقي ، وقف في الخندق المعادي للثورة . ومن المفيد ان نورد هنا ما يرويه الدكتور محمد مهدي البصير عن « القاء الحكومة (١٤) نفسها في أحضان زمرة من الاغنياء والاشراف عرفوا بالتزلف الى القوات المسيطرة ، وقد أقنع اولئك النفعيون ممثلي السلطة بان الجمهور في قبضتهم ورهن اشارتهم ، وانهم يديرون مقاصده وأفكاره حسب ما يشاؤون » ، فلقيت « هذه الوساوس صدورا رحبة في دوائر السلطة المحتلة » لانها كانت تجعلها في غنى « الى حامية كبيرة في بلاد يضعها أشرف أبنائها في قبضة الحكومة المحتلة عن طيب خاطر » (١٥) .

وفعلا لم يلعب العديد من الرؤساء ، بمافيهم رؤساء كرد ،

---

(١٤) يقصد سلطة الاحتلال .

(١٥) محمد مهدي البصير ، المصدر السابق ، الجزء الاول ، ص ٦٨-٦٩ .

دورا قليلا في فت عضد الناس وابعادهم عن الحركة الوطنية في أدق مراحلها (١٦) • فان « بعض سماسرة الاستعمار كانوا يزينــون الخيانة لبعض الزعماء » أيام الثورة ، وبتأثير من ذلك فان « بعض الزعماء الذين لم يعرفوا الخيانـة من قبل » أصبحــوا « من ذوي الوجهــين ، وجـه وطـني أمـام الوطنيين ، ووجـه انكليزي أمـام أسيادهم »(١٧) • بل وقبل ذلك ، وبالضبط أثناء حوادث النجف البطولية في ربيع ١٩١٨ عرض « بعض شيوخ العرب الذين عـلى الفرات ان يرسلوا عشائـرهم لتأديب اولئك المفسدين » حسبمـا أكدت صحافة السلطة المحتلة (١٨) ، كما دل أحد الاقطاعيين قوات الاحتلال على الطريق الذي يمكن من خلاله توجيه الضربة القاضية الى الثوار الاكراد المحصنين ايام انتفاضـة الشيخ محمود في العـام ١٩١٩ • ولا غرو في ان تحولت أحداث « ثورة العشرين » الى محك لمعرفة أخلص الرؤساء للانكليز • فقد فتحت أمام البعض ممن أثبتوا الاخلاص أبواب الثروة والوظائـف والبرلمـان ، وأمتـد الـكرم

(١٦) يتطرق احد المعاصرين للثورة الى هذا الواقع باسلوب بسيط وطريف (راجع : محمد طاهر العمري ، المصدر السابق ، الجزء الثالث ، ص ١١١ـ١١٣) •

(١٧) القول لال بازركان الذي يؤكد انه شاهد بنفسه أناسا اتوا من الحلة الى النجف باسم الزيارة ولكنهم ، في الواقـع ، كانـوا يبتغون جمع المعلومات عن الوضع (للتفصيـل راجـع : علي ال بازركان ، المصدر السابق ، ص ١٩٩ـ٢٠٠) •

(١٨) راجع : «العرب» ، ٢٩ اذار ١٩١٨ •

الانكليزي ليشمل بعض السنجاويين (١٩) الذين تبوأوا مراكز لـم يحلم بها أبناء معظم العشائر الكردية الاخرى • كما بدأ المسؤولون الانكليز يعتمدون اكثر على الرؤساء الموالين لجمع الضرائب (٢٠)، مما تحول الى وسيلة للاثراء بالنسبة لهؤلاء على حساب الفلاحين •

وانا لا نبتغي من عرض هذه الامثلة سوى التأكيد على طبيعة الفئات الاجتماعية التي ماكان في الامكان القيام بعمل سياسي كبير، في ظروف العشرينيات ، دون دورها القيادي الذي تأثر مباشرة بطبيعة تكوينها كأي عنصر اجتماعي آخر •

ولم يقتصر التذبذب في الموقف ، والوقوف أحيانـا في الخندق المقابل للثورة على قطاع من رؤساء العشائر والملاكين الذين ظهر من بينهم الكثيرون ممن أخلص لقضية الثورة وضحى في سبيلها حتى يومهـا الاخـير • فالبورجوازيـة التجاريـة الكبيرة الوسيطـة (الكوميرادور) كانت تقف ، بحكم مصالحها وواقع تكونها (٢١)، ضد كل ما من شأنه عرقلة تثبيت النفوذ السياسي والاقتصادي الغربي في البلاد • وليس عبثا ان نشرت جريدة ال « تايمس » في عددها الصادر يوم ٩ تشرين الاول ١٩٢٠ بارتياح واضح نبأ ما اعلنه « عدد من وجهاء البصرة » عن تأيدهم للادارة البريطانية و « واستنكارهم

---

(١٩) عاد السنجاويون الى مواطنهم الاصلية بعد اداء مهمتهم غيـر المشرفة (راجع : W. Ireland, Op. Cit., P. 70)

(٢٠) راجع : م. و. و. ، رقم الملف S/50/D/1

(٢١) كان معظمهم من اليهود .

لكل اضطراب في البلاد » • وقد انعكست مساومات الفئات البورجوازية في المواقف التي تبنتها « جمعية العهد » وقادتها(٢٢) في تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ البلاد • وبين أيدينا دلائل مقنعة كثيرة حول هذا الامر • ففي الايام الاولى للثورة قدم جعفرالعسكري أحد ابرز قادة « العهد » ، طلبا الى المسؤولين الانكليز يعرب فيه عن استعداده لتقديم خدماته للادارة البريطانية في بغداد • والانكى من ذلك ان الوثائق البريطانية السرية تشير الى اقتراح ورد الى وزارة الخارجية من « جمعية العهد » عن طريق ثابت عبدالنور ، يبين رغبة الجمعية في التعاون مع الانكليز لاعادة الاستقرار والامن الى ربوع بلاد الرافدين (٢٣) • من هنا فانه ليس بغريب ان نشر الزعيم الروحي للجمعية الامير فيصل في جريدة الـ « تايمس » (١٤ اب ١٩٢٠ ، اي ذروة أيام الثورة) تصريحا يعرب فيه عن اخلاصه « لفكرة الاتحاد العربي ـ الانكليزي » • واتخذ ابرز تجار بغداد ، ولا سيما البصرة ، موقفا مشابها من الاحداث الجارية (٢٤) ، مما

---

(٢٢) يستثنى من ذلك فرع الموصل •

(٢٣) F. O. 371/5231 (راجع ايضا : الدكتور فاروق صالح العمر ، حول السياسة البريطانية في العراق ، ص ٨٢) •

(٢٤) ذكر مزاحم الباجه‌جي ضمن كلمة القاها في المادبة التي أقامها عبداللطيف باشا المنديل في البصرة بمناسبة توديع وكيل الحاكم السابق ولسن . ذكر من الاقوال ما من شأنها القاء ضوء ساطع على مواقف ابناء هذه الفئات ايام «ثورة العشرين» (للتفصيل راجع : عبدالرزاق الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ص ٢٤٢ـ٢٤٣) •

أثر على التحرك الثوري في العديد من المدن العراقية .

وبالرغم من المواقف الجريئة والمخلصة للعديد من زعماء الثورة ، الا ان قيادتها لم تبلغ من الوعي السياسي ما يجعلها تقدر جميع الامور وتخطط لها بشكل صحيح . فالى جانب موقفها من الاحداث الثورية في المنطقة الكردية ، وقعت في أخطاء أخرى تدل على قصر نظر سياسي واضح . فقد ظلت هذه القيادة تتحرك داخل اطار ضيق لم يتعد ، الا فيما ندر ، حدود البلاد ، بينما كانت القضية العراقية وزخم الثورة يتطلبان الانطلاق على الصعيد الخارجي كذلك ، مثلما فعل مصطفى كمال في تركيا مثلا . وفي الواقع لم يتخذ التوجه الخارجي المحدود سوى شكل باهت من قبيل الامل في ان يقوم « الملك المتوج بجلائل الاعمال... صاحب الجلالة الملك عبدالله الاول » بـ « تحرير عراقه ورفع علمه المنتصر »(٢٥) .

ويبدو من التناقض الحاد في الموقف من الانكليز (٢٦) ، ومن امور اخرى ، ان قيادة الثورة لم تفهم ، كما يجب ، طبيعة الاستعمار

---

(٢٥) اثناء الاحتفالات في جوامع بغداد كانت تباع صورة الامير عبدالله ، وقد كتبت تحتها بالعربية : « صاحب الجلالة الملك عبدالله الاول . ايها الملك المتوج بجلائل الاعمال حرر عراقك وارفع علمك المنتصر » (راجع : «ايام من ثورة العشرين في بغداد» ، ترجمة واعداد الدكتور صالح جواد الكاظم) .

(٢٦) يبدو ذلك جليا من خلال البون الشاسع بين الموقف المعتدل الذي تبنته جريدة «الاستقلال» النجفية من الانكليز والموقف الصلب الذي تبنته جريدة «الفرات» ازاءهم .

ومنفذي سياسته . فان زعماء الثورة نظروا الى رئيس الوزراء البريطاني السابق اسكويث غير نظرتهم الى رئيس الوزراء ايام الثورة لويد جورج ، وقيموا وكيل الحاكم الملكي العام المخلوع أرنولد ولسن تقيما يختلف عن تقييمهم للحاكم الملكي العام الجديد بيرسي كوكس (٢٧) ، مع ان جميع هؤلاء كانوا يلتقون في الهدف كليا ، وان اختلفوا بعض الشيء في اختيار بعض الوسائل لبلوغ ذلك الهدف . بينما نرى ان الثوار كانوا يأملون في ان تؤدي « حنكة كوكس السياسية ودهاؤه » الى ان يتبع « خطة اسكويث » ويحقق « أمانيه بتخلية عاصمة البلاد بغداد والانسحاب نحو البصرة مما يفسح له مجال المداولة مع الوطنيين الناهضين في تشكيل الحكومة الوطنية العراقية المطلوبة »(٢٨) .

---

(٢٧) علما ان ارنولد ولسن كان واحدا من تلامذة بيرسي كوكس الذي اعتمد عليه الى درجة انه خلفه في مكانه عندما اقتضت الظروف انتقاله الى ايران . كما ان وفاء ولسن للاخير بلغ حد انه عمل مخلصا لدفع العراقيين الى اختياره ملكا عليهم .

(٢٨) راجع : «الاستقلال» ، النجف ، العدد الاول ، ١ تشرين الاول ١٩٢٠ . عادت الجريدة الى الموضوع نفسه فتساءلت في عددها الثالث : «من كان يظن ان اسكويث ورفاقه يكونون في المجلس البريطاني حزبا يعضد الشعب العراقي ويرى ضرورة تخلية بغداد والانسحاب منها نحو البصرة » (راجع : «الاستقلال» ، العدد الثالث ، ٥ تشرين الاول ١٩٢٠) . ولم يقتصر هذا الامر على جريدة «الاستقلال» ، فان «الفرات» التي عرفت بمواقفها الحازمة تجاه المستعمرين الانكليز ذكرت في رسالة مفتوحة شديدة اللهجة وجهتها الى ارنولد ولسن ، مثل هذا القول الذي يدل على عدم

=

تفاعلت هذه العوامل فيما بينها ، ومع غيرها ، فهيأت ظروفا انسب للمحتلين ليتمكنوا من قمع « ثورة العشرين » التي تبقى في جميع الاحوال تشكل صفحة خالدة في مجمل حركة التحرر الوطني للشعب العراقي ، واخرى مشرقة في النضال العربي ـ الكردي المشترك •

تفهم كامل لطبيعة الاستعمار : « يا حضرة الحاكم العام لقد حشدت حكومتك الجيش الجرار ، فحارب للحرية ودافع عن المدنية» في الحرب العالمية الاولى ••• (راجع : «الفرات» . العدد الخامس ، ٢ محرم ١٣٣٩ (١٥ أيلول ١٩٢٠) •

مصادر ومراجع الكتاب

ـ الوثـائق ـ

« أيام من ثورة العشرين في بغداد » ، ترجمة واعداد الدكتور صالح جواد الكاظم ، ـ « العراق » ، بغداد ، ٢٩ حزيران ١٩٧٨ (مجموعة وثائق سرية لشرطة العاصمة ايام ثورة العشرين)٠

المركز الوطني للوثائق ، بغداد :

الملف ٨/١٢ (١٩١٨ ـ ١٩١٩) ؛
الملف ١٨/١ (التبوغ في الموصل ، كركوك والسليمانية ، ١٩١٨ ـ ١٩١٩) ؛
الملف ١٥٧ (مراسلات حول الطباعة ، ١٩١٩) ؛
الملف ١٥١/١٥ (الصحافة والمطابع ، ١٩١٩ ـ ١٩٢٠) ؛
الملف ٢ /١٠ (التبوغ ، ١٩٢٠) ؛
الملف س /٢٨/س (جنود خانقين ، ١٩٢١) ؛
الملف ١٤/١٦/س (مالية حلبجة ، ١٩٢٢) ؛
الملف ١/د/٥٠/ (مالية كركوك واربيل ، ١٩٢٣) ؛

File 125/514 (Fish Tax, 1915—1918) ;
File 67/17 (Sulaimaniyah, Scarcity, 1918) ;
First Series, Vol. XIII.
File 51/1386 (Newspapers, 1918) ;
File 51/15—54 (Al—Arab, 1918) ;
File 8/12 (Khanaqin, 1918 — 1919) ;

File 168/57 (Irrigation Schemes for Kurdistan, 1919) ;
File 168/58 (Agriculture in Erbil, 1919) ;
File 51/3, P. II (Plough cattle — Sulaimaniyah, 1919) ;
File 21/D (Agriculture — Arbil Division, 1920) ;
File 25/01 (Sulaimaniyah — Municipality, 1920) ;
File 10/2 (Tobacco, 1920) ;
File 151/15, Vol. III, 1920.

((Civil Commissioner of Mesopitamia. Review of the Civil Administration of Mesopotamia presented to both Houses of Parliament by Command of His Majesty)), London, 1920.

((Documents on British Foreign Policy, 1914—1939)), First Series, Vol. XIII.

((Iraq. Report on Iraq Administration Apri 1922 — March 1923)), London, 1924.

((The Iraqi Directory. A general and commercial Directory of Iraq, 1936)), Baghdad, 1936.

((The Public Record Office)), London, F. 0. 371/4342 ; 371/4601; 371/5069; 371/5231; 371/6349; 371/13428; 371/16849.

((Report by His Majesty's Government on the Administration of Iraq for the period April 1923 — December 1924)), London, 1925.

((Special Report by His Majesty's Government in the United Kingdom of Great Britain and Northern Ireland to the Council of the League of Nations on the progress of Iraq during the period 1920 — 1931)), London, 1931 .

« النشرة الصحفية لمفوضية جمهورية روسيا السوفيتية الاشتراكية في ايران » ، العدد الثالث ، اذار ١٩٢٨ (باللغة الروسية).

« وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي » ، الجزء السادس ، موسكو ، ١٩٦٢ (باللغة الروسيه) ٠

المصــــادر

صحافة الثورة وسلطة الاحتلال ، المذكرات ، مؤلفات المسؤولين الانكليز في العراق ٠

الاستقلال (جريدة) ، بغداد ، ١٩٢٠ ٠
الاستقلال (جريدة) ، النجف ، العدد الاول ، ١ تشريـــن الاول ؛ العدد الثاني ، ٣ تشرين الاول ؛ العدد الثالث ، ٥ تشريـن الاول ١٩٢٠ ٠
بيشكەوتن (التقدم ، جريدة أصدرها الميجر سون باللغة الكردية) ، السليمانية ، ١٩٢٠ ـ ١٩٢٢ ٠
تيگەيشتنی راستی (فهم الحقيقــة ، جريـدة أصدرتهـا سلطـات الاحتلال باللغة الكردية) ، بغداد ، ١٩١٨ ـ ١٩١٩ ٠
« خەباتی گەلی کورد لە یادداشتەکانی (ئەحمەد تەقي)دا٠ لابەرەیەك لە شورشەکانی شیخ مەحمود و سمکو و هەستانەکەی رەواندز » ، ریکخستن و ئامادەکردني بـو چـاپ : جـەلال تەقی ، بەغدا ، ١٩٧٠ (نضال الشعب الكردي في مـذكرات أحمد تقي ، باللغــة الكردية ، بغداد ، ١٩٧٠) ٠
رجاء أحمد بريش ، بحث ميداني عن « ثورة العشرين » ٠
رەفیق حلمي ، یا دداشت ، بەرگی ١ و ٢ و ٣ ، بەغدا ، ١٩٥٦ (رفيق حلمي ، المذكرات ، باللغة الكردية ، الاجزاء ١و٢ و٣ ، بغــداد ، ١٩٥٦) ٠
عبدالعزيز القصاب ، من ذكرياتي ، بيروت ، ١٩٦٢ ٠
« العراق » (جريدة) ، بغداد ، ١٩٢٠ ٠
« العراق في رسائل المس بيل » ، ترجمه وعلق عليه جعفر الخياط ، بغداد ، ١٩٧٧ ٠

«العرب» (جريدة) ، بغداد ، ١٩١٨ ـ ١٩١٩ ٠
علي ال بازركان ، الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية ، بغداد ، ١٩٥٤ ٠
علي جودت الايوبي ، ذكريات ، بيروت ، ١٩٦٧ ٠
«الفرات» (جريدة) ، النجف ، العدد الاول ٢١ ذي القعدة ١٣٣٨ (٧ اب ١٩٢٠) ؛ العدد الثاني ، ٢٨ ذي القعده ١٣٣٨ (١٤ اب ١٩٢٠) ؛ العدد الخامس ، ٢ محرم ١٣٣٩ (١٥ أيلول ١٩٢٠) ٠
فريق المزهر آل فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ، بغداد ، ١٩٥٢ ٠
محمد رضا الشبيبي ، ثورة النجف ضد الاستعمار البريطاني ١٩١٧ ـ ١٩١٨ ، ـ «الثقافة الجديدة» ، بغداد ، العدد ٤ ، تموز ١٩٦٩ ٠
المس بيل ، فصول من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر خياط ، بيروت ، ١٩٤٩ ٠
محمد علي كمال الدين ، معلومات ومشاهدات في الثورة العراقية الكبرى لسنة ١٩٢٠ . بغداد ، ١٩٧١ ٠
محمد مهدي البصير ، تاريخ القضية العراقية ، الجزء الاول ، بغداد، ١٩٢٣ ٠
«نجمة كركوك» (جريدة عربية ـ تركمانية) ، كركوك ، شباط ١٩١٩٠
«یادداشتی ئیسماعیل حەقی شاوەیس» ، دەستنوس ، د٠ کەمال مەزهەر ئابی سالی ١٩٧٠ توماری کردووە٠«مذكرات اسماعيل حقي شاويس » ، سجلها د٠ كمال مظهر احمد باللغة الكردية في آب ١٩٧٠ ٠

Edmonds C. J., Kurds, Turks and Arabs. Politics travel and research in North—Eastern Iraq, London, 1957.
Haldane A. L., The Insurrection Mesopotamia, Edin—burgh, 1922.
Hay W. R., Two Years in Kurdistan. Experiences of Political Officer 1918 — 1920, London, 1921.

Wilson A. T., Loyalities Mesopotamia 1914 — 1917. A personal and historical record, London, 1930.
Wilson A. T., Mesopotamia 1917 — 1920. A clash of loyalities, London, 1931.

المراجـع
باللغـة العربيـة

ابراهيم الوائلي ، ثورة العشرين في الشعر العراقي ، بغداد ، ١٩٦٨.
أسعد داغر ، مذكراتي على هامش القضية العربية .
أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى . تأريخ مفصل جامع للقضيـة العربية في ربع قرن ، المجلد الاول ، القاهرة ، بلا.
أنور المائي ، الاكراد في بهدينان ، الموصل ، ١٩٦٠ .
حسين أحمد الجاف ، دور الشعب الكردي في ثورة العشرين الوطنية التحررية ، ـ «العراق» ، بغداد ، ٢٩ حزيران ١٩٧٨ .
الراصد التقدمي ، ثورة العشرين . البعد القومي والاهداف الوطنية ، ـ «العراق» ، ٢٩ حزيران ١٩٧٨ .
رفيق حلمي ، مقالات ، بغداد ، ١٩٥٦ .
زهير أحمد القيسي ، القضايا العربية في مؤتمر باكو ـ ١٩٢٠ ، ـ «آفاق عربية» ، بغداد ، العدد ١٢ ، اب ١٩٧٦ .
ستار جبر ناصر ، هوامش على كتاب علي الوردي لمحات اجتماعية في تأريخ العراق الحديث الجزء الخامس ، بغداد ، ١٩٧٨ .
سعاد خيري ، من تأريخ الحركة الثورية المعاصرة في العراق ١٩٢٠ ـ ١٩٥٨ ، الجزء الاول ، الطبعة الثانية ، بغداد ، ١٩٧٨ .
سليم علي الوردي ، الدكتور ، علـم الاجتمـاع بيـن الموضوعيـة والوضعية . مناقشة لمنهج الدكتور علي الوردي في دراسـة المجتمع العراقي ، بغـداد ، ١٩٧٨ .
صالح جواد الكاظم ، الدكتور ، عن ثورة العشرين وبعدها القـومي ،ـ

«العراق» ، ٣٠ حزيران ١٩٧٧ ٠
صديق الدملوجي ، امارة بهدينان الكردية او امارة العمادية ، موصل، ١٩٥٢ ٠
عادل غنيمة ، تطور الحركة الوطنية في العراق ، القاهرة ، ١٩٦٠ ٠
عبدالجبار العمر ، مصرع الكولونيل لجمان ، ـ « افاق عربية » ، بغداد ، العدد ١١ ، تموز ١٩٧٧ ٠
عبدالرزاق الحسني ، تاريخ الصحافة العراقية ، الطبعة الثالثة ، صيدا ، ١٩٧١ ٠
عبدالرزاق الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، الطبعة الثالثة الموسعة ، صيدا ، ١٩٧٢ ٠
عبدالرزاق الحسني ، ثورة النجف بعد مقتل حاكمها الكابتن مارشال، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٧٨ ٠
عبدالرزاق الهلالي ، تأريخ التعليم في العراق في العهد العثماني ، ١٦٣٨ ـ ١٩١٧ ، بغداد ، ١٩٥٩ ٠
عبدالشهيد الياسري ، البطولة في ثورة العشرين ، النجف ، ١٩٦٦ ٠
عبدالله الفياض ، الدكتور ، الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠ ، الطبعة الثانية ، بغداد ، ١٩٧٤ ٠
عبدالمنعم الغلامي ، ثورتنا في شمال العراق (١٣٣٧ ـ ١٣٣٨ هـ ، ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ م) ، الجزء الاول ، بغداد ، ١٩٦٦ ٠
عبدالمنعم الغلامي ، الضحايا الثلاث ، الموصل ، ١٩٥٢ ٠
عزيز السيد جاسم ، كيف يفهم الدكتور الوردي ثورة العشرين ؟ ،ـ « الجمهورية » ، بغداد ، ٢٩ و ٣٠ اب ١٩٧٧ ٠
علي سيدو الكوراني ، من عمان الى العمادية او رحلة في كردستان الجنوبية ، عمان ، ١٩٣٩ ٠
علي الوردي ، الدكتور ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، الجزء الخامس ، القسم الاول ، بغداد ، ١٩٧٧ ؛ القسم الثاني، بغداد ، ١٩٧٨ ٠
فائق بطي ، الصحافة العراقية ٠ ميلادها ، تطورها ، بغداد ، ١٩٦١٠
فاروق صالح العمر ، الدكتور ، حول السياسة البريطانية في العراق (١٩١٤ ـ ١٩٢١) ، بغداد ، ١٩٧٨ ٠

فاضل كريم ، خانقين خلال ربع قرن (١٩٠٠ ـ ١٩٢٥) ، ــ « التاخي » ، بغداد ، ١٣ و ١٤ و ١٧ حزيران ١٩٧٣.

قحطان احمد عبوش التلعفري ، ثورة تلعفر ١٩٢٠ والحركات الوطنية الاخرى في منطقة الجزيرة ، بغداد ، ١٩٦٦ .

كاتلوف ل. ن ، الدكتور ، ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق ، ترجمة الدكتور عبدالواحد كرم ، الطبعة الاولى : بغداد ، ١٩٧١ ، الطبعة الثانية : بيروت ، ١٩٧٥ .

كمال مظهر أحمد ، الدكتور ، أضواء على قضايا دولية في الشرق الاوسط ، بغداد ، ١٩٧٨ .

كمال مظهر أحمد ، اكتوبر والمسألة الكردية ، تعريب محمد الملا عبدالكريم المدرس ، ــ «الثقافة الجديدة» ، بغداد ، العدد التاسع والعشرون ، تشرين الاول ١٩٧١ .

كمال مظهر أحمد ، الدكتور ، ثورة العشرين في الاستشراق السوفيتي ، بغداد ، ١٩٧٧ .

كمال مظهر أحمد ، الدكتور ، دراسة سوفيتية عن «ثورة العشرين» ، ــ « التاخي » ، بغداد ، ٣٠ حزيران ١٩٧٠ .

كمال مظهر أحمد ، الدكتور ، دور الاكراد في «ثورة العشرين» ، ــ « التاخي » ، بغداد ، ١ تموز ١٩٧٠ .

كمال مظهر احمد ، الدكتور ، الكرد و «ثورة العشرين» ، ــ « مجلة المجمع العلمي الكردي » ، بغداد ، المجلد السادس ، ١٩٧٨ .

محمد أمين زكي ، تاريخ السليمانية وأنحائها ، ترجمة محمد جميل بندي الروزبياني ، بغداد ، ١٩٥١ .

محمد سلمان حسن ، الدكتور ، طلائع الثورة العراقية . العامل الاقتصادي في الثورة العراقية الاولى ، الطبعة الثانية ، بغداد ، ١٩٥٨ .

محمد طاهر العمري ، تاريخ مقدرات العراق السياسية ، الجزء الثالث ، بغداد ، ١٩٢٥ .

مكرم الطالباني ، ابراهيم خان ثائر من كردستان ، بغداد ، ١٩٧١ .

« ملف ثورة العشرين . الاسباب الموجبة » ، ــ « ألف باء » ، بغداد ، العدد ٥١٠ ، ٢٨ حزيران ١٩٧٨ .

منير بكر التكريتي ، الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية من ١٨٦٩ ـ ١٩٢١ ، بغداد ، ١٩٦٩ ٠
مينتيشاشفيللي ا٠ م٠ ، العراق في سنوات الانتداب البريطاني ، ترجمة الدكتور هاشم صالح التكريتي ، بغداد ، ١٩٧٨ ٠
نجدة فتحي صفوت ، عرش يبحث عن ملك ، ـ « آفاق عربية » ، العدد ١٢ ، آب ١٩٧٨ ٠
يعقوب يوسف كوريا ، صحافة ثورة العشرين ، بغداد ، ١٩٧٠٠

باللغـة الكرديـة

کەمال مەزهەر ئەحمەد ، ئۆکتۆبەر و مەسەلەی کورد ، ـ « برایەتی » ، بەغدا ، ژمارە ٩ ، سالی ١ ، سەرەتای کانونی یەکەمی ١٩٧٠ ٠
کەمال مەزهەر ئەحمەد ، دوکتور ، « تیکەیشتنی راستی » و شوینی لە روژنامەنوسی‌ی کوردیدا ، بەغداد ، ١٩٧٨ ٠

باللغـة الانكليزيـة

Atiyyah Gh. R., Iraq 1908 — 1921. A political study, Beirut, 1973.
Churchill W. S., The Great War, Vol. III, London.
Cruttwell C. F., A history of the Great War 1914—1918, Oxford, 1969.
Empson W., The Cult of the peacock angel. A short account of the Yezidi tribes of Kurdistan, London, 1928.
Foster H. A., The Making of Modern Iraq, Oklahoma, 1935.

Foster W. Z., Outline political history of the Americas, New York, 1951 (the Russian ed., M., 1953).

Gavan S. S., Kurdistan. Divided Nation of the Middle East, London, 1958.

((Iraq. An introduction to the past and present of the Kingdom of Iraq)).

Ireland P. W., Iraq; A study in political development, London, 1937.

Longrigg S. H., Iraq 1900 to 1950. A political, social and economic history, London, 1953.

Ormsby W., The organization of British responsibilities in the Middle East, — ((Journal of the Royal Central Asian Society)), London, Vol. VIII, 1920.

Seton Lloyd, Twin Rivers. A brife history of Iraq from the earliest times to the present day)), third edition, Bombay, 1961.

((Survey of International Affairs)), London, 1935.

باللغـــة الروسيـــة

أوهانيسيان ن٠ و٠ ، الدكتور ، نضال القوى الديمقراطية العراقية من اجل الغاء الانتـــداب الانكليـــزي (١٩٢٠ ـ ١٩٣٢) ، في كتاب « بلدان الشرقين الادنى والاوسط » يريفان ، ١٩٦٧ ٠

« بريطانيا العظمى » ، مجموعة مؤلفين ، ـ « الانسكلوبيديا التاريخية السوفيتية » ، الجزء الثالث ، موسكو ، ١٩٦٣ ٠

« تأريخ الدبلوماسية » ، الجزء الثاني ، موسكـو ـ لينينغـراد ، ١٩٤٥ ٠

دانتسيك ب٠ م٠ . العراق بالامس واليوم ، موسكو ، ١٩٦٠ ٠

« العراق المعاصر » ، مجموعة من المستشرقين ، موسكو ، ١٩٦٦ ٠

فيدجينكه ا٠ف٠، الدكتور، نضال شعوب العراق من اجل الاستقلال

والتقدم الاجتماعي (١٩١٧ ـ ١٩٥٨)، رسالة باللغة الروسية
لنيل شهادة الدكتوراه ، موسكو ، ١٩٦٧ ٠
كاتلوف ل٠ ن٠ ، الدكتور ، انتفاضة ١٩٢٠ الوطنية التحررية في
العراق ، موسكو ، ١٩٥٨ ٠
كاتلوف ل٠ ن٠ ، الدكتور ، النضال التحرري الوطني للشعب العراقي
قبيل انتفاضة ١٩٢٠ ٠
كورفيج ب٠ ف٠ ، انكلترا ، « تأريخ العالم » ، الجزء الثامن ،
موسكو ، ١٩٦١ ٠
كوركو كرياجين ف٠ ا٠ ، حركة التحرر الوطني في المشرق العربي ٠
بلاد ما بين النهرين ، ـ «الشرق الجديد» ، الكتاب الثاني ،
موسكو ، ١٩٢٢ ٠
لازاريف م٠ س٠ ، الدكتور ، كردستان والمشكلة الكردية (من
تسعينيات القرن التاسع عشر حتى العام ١٩١٧) ، موسكو ،
١٩٦٤ ٠
ليفين ي٠ ، العراق ، موسكو ، ١٩٣٧ ٠
مينتيشاشفيللي ا٠ م٠ ، العراق في سنوات الانتداب البريطاني ،
موسكو ، ١٩٦٩ ٠

الجرائد والمجلات

« آفاق عربية » (مجلة) ، بغداد ، العدد ١٢ ، آب ١٩٧٦ ؛ العدد
الثالث ، تشرين الثاني ١٩٧٦ ٠
« الاهالي » (جريدة) ، بغداد ، ٢٧ حزيران ١٩٥٢ ٠
« البلاد » (جريدة) ، بغداد ، تموز ١٩٥٥ ٠
« بين النهرين » (مجلة) ، الموصل ، العدد ٢١ ، ١٩٧٨ ٠
« الثقافة » (مجلة) ، بغداد ، العدد الاول ، ١٩٧٨ ٠
« الجمهورية » (جريدة) ، بغداد ، ٦ تشرين الثاني ١٩٧٦ ٠
« روناهي » (مجلة كردية) ، بغداد ، العدد الاول ، ١٩٦٠ ٠
« صدى الاحرار » (جريدة) ، الموصل ، كانون الثاني و اذار
و نيسان وتشرين الثاني ١٩٥٣ ٠

« صوت الاتحاد » (مجلة) ، بغداد ، لسان حال اتحاد الادباء التركمان (عربية ـ تركمانية) ، العدد ٢٠ ، ١٩٧٨ ·
« طريق الشعب » (جريدة) ، بغداد ، ٢٨ تشرين الثاني ١٩٧٧ ·
« العالم العربي » (جريدة) ، بغداد ، ١ و ٢٠ كانون الثاني ١٩٣١ ·
« همولير » (مجلة كردية) ، اربيل ، العدد الثاني ، ايلول ١٩٧١ ·

((Iraqi Review)), Baghdad, Vol. I, No. 6, July 2, 1959.

((Journal of the Central Asian Society)), London, Vol. IV, Pt. III, 1928.

((The Near East and India)), November 23, 1922; December 7, 1922.

فهرست الاعلام *

(الاشخاص)

(*) نحيط القارىء الكريم علما بأننا لم نورد في هذا الكشف الاعلام الرئيسة في الكتاب من قبيل « ثورة العشرين » و«الكرد» و«الانكليز» ، وذلك لكثرة تكررها في متن الكتاب وهوامشه ٠ ولقد صنفنا الاعلام التي تبدأ بحرف كردي ضمن أقرب حرف هجاء له وذلك بسبب ظروف مطبعية قاهرة ٠ وأخيرا نذكر ان حرف (م) يرمز الى المتن وحرف (هـ) الى الهامش وحرف (ع) الى (العشيرة) ٠

الاماكن

جدول الخطأ والصواب

الخطأ	الصفحة	السطر	الصواب
١٩٢٠	**١٢**	**١٨**	**١٩٧٨**
1943	**٢٣**	**١٨**	**1953**
صعف	**٢٥**	**٩**	**ضعف**
1923	**٤٥**	**٢٠**	**1924**
العدد الثامن	**٤٩**	**١٥**	**العدد الثاني**
امعشرين	**١٠١**	**٥**	**العشرين**
نثمر	**١١٦**	**٧**	**تثمر**
انعكن	**١٤١**	**١١**	**انعكس**
أبناء	**١٤٧**	**٧**	**انباء**

مواضيع الكتاب

الصفحـة

د. کەمال مەزهەر ئەحمەد

دەوری گەلی کـورد لـە «شۆرشی بیستی» عیراقیدا

(بە زمانی عەرەبی)

بەغـدا ، ١٩٧٨



Dr. Kamal M. A.

THE ROLE OF THE KURDISH PEOPLE IN THE IRAQI REVOLUTION OF 1920

BAGHDAD, 1978

السعر ٦٠٠ فلس

توزيع المكتبة الفلسطينية - بغداد



بغداد - ١٩٧٨



انتفاضة عام ١٩٢٥ الكردية في تركيا

(دراسة تحليلية)

د. كمال مظهر أحمد



كاوا للنشر والتوزيع

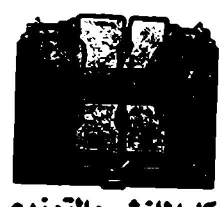
انتفاضة عام 1925 الكردية في تركيا

(دراسة تحليلية)

د . كمال مظهر

انتفاضة عام 1925 الكردية في تركيا

(دراسة تحليلية)



كاوا للنشر والتوزيع

اسم الكتاب : انتفاضة عام 1925 الكردية في تركيا
اسم المؤلف : د. كمال مظهر احمد
إخراج: زوزان بوطاني
الطبعة الأولى: ايلول 2001

الناشر : رابطة كاوا للثقافة الكردية
بيروت – لبنان، ص.ب 5933 /113
كردستان العراق – اربيل – هاتف 2223912 – تلفاكس: 2231886

KAWA - Verband Für Kurdishe Kultur . ev
Adenaver Alle - 54
53113 Bonn
Germany
Tel: 0049 228 2425038
Fax: 0049 228 2425238
E . mail . Komkawa @ T. online . de .

المقدمة

تعود بدايات اهتمامي بدراسة تأريخ الحركة القومية الكردية في كردستان تركيا الى مطلع الستينيات من القرن الماضي، أي الى مرحلة عملي لإعداد اطروحتي لنيل شهادة الدكتوراه، والتي كرس موضوعها لدراسة الحركة القومية الكردية في العراق في ظل الاحتلال والانتداب البريطانيين (1918 - 1932)، فلقد فرض التداخل بين الوقائع الكردية وإفرازاتها المتشابكة، رغم ظروف التجزئة المفروضة، تخطي حدود كردستان الجنوبية، والخوض في دراسة جوانب عدة من تطورات الحركة الكردية على صعيدي كردستان الشمالية وكردستان الشرقية بحكم الترابط الواقعي بين الأحداث في إطار أشمل. من هنا أصبحت لانتفاضتي 1925 بقيادة الشيخ سعيد بيران و1930 بقيادة "خويبون" والجنرال إحسان نوري باشا في كردستان تركيا، وكذلك لانتفاضة كردستان إيران بقيادة سمكو نصيبها الوافر في المادة التي كنت اجمعها، كما في الأطروحة نفسها. وبعد حين كلفني "معهد شعوب الشرقين الأدنى والأوسط" التابع لأكاديمية علوم أذربيجان السوفيتية بإعداد دراسة خاصة عن تطورات الحركة القومية الكردية بين الحربين العالميتين، مما ساعدني اكثر على متابعة الموضوع الذي غدت مصادره تؤلف جانبا مهما من المادة العلمية في مكتبتي الخاصة. ومنذ ذلك الوقت أدركت أن أيا من صفحات تأريخ الكرد المعاصر لم تشوه

بقدر ما شوهت أهم صفحات انتفاضة 1925 التي تحتل، بجدارة، مكانة متميزة في ذلك التأريخ، ويعود أحد الأسباب الرئيسية لذلك الى الجهود الحثيثة التي بذلها الكماليون في هذا المضمار على شتى الصُعد، فضلاً عن قدرتهم الحاذقة على قلب الحقائق رأساً على عقب كونهم يمثلون أسوأ نموذج للبورجوازية الصغيرة الشرقية المتفننة فعلاً في هذا الميدان تحديداً، خصوصاً فيما يتعلق بازدواجيتها الصارخة في تقويم علاقتها هي وعلاقات الآخرين بالأوساط الأجنبية. فما هو مشروع بالنسبة لها محرم على غيرها حسب قرار اعتباطي مجحف مفروض منها، وهذا بالذات يلقي مسؤولية إضافية، معقدة على عاتق المؤرخ الكردي .

في الذكرى السابعة والأربعين لاستشهاد قادة انتفاضة 1925 نشرت سلسلة مقالات على صفحات جريدة "التآخي" الناطقة باسم "الحزب الديمقراطي الكردستاني" حاولت فيها إلقاء الضوء على أهم جوانب الانتفاضة من حيث أسبابها ومقدماتها وأهم تطوراتها ونتائجها في سياق تحليلي قدر الإمكان، وفي ضوء مناقشة آراء عدد من المؤرخين والباحثين والساسة المعروفين، من شتى الاتجاهات، في الانتفاضة[1]. اعتقد ان المادة الواردة في المقالات تلك تنطوي على قدر كاف مما هو مفيد وجديد، فآثرت جمعها ونشرها في كتاب مستقل أراه مطلوباً للباحثين،

---

(1) أنظر : "التآخي" (جريدة)، بغداد، الأعداد 1069 و1071 و1075 و1077 و1288 و1082 و1289 و 1422 في 25 و27 حزيران و2 و4 و10 تموز 1972 و21و25 آذار و29 آب 1973 .

كما لغيرهم من جمهرة المثقفين الكرد وغيرِهم. ومما يسعدني حقاً ان الجانب الأكبر من المادة التي اطلعتُ عليها في غضون الثماني والعشرين سنة الأخيرة، بما في ذلك عدد لا يُستهان به من الوثائق البريطانية ووثائق البلاط الملكي العراقي غير المنشورة وغيرها ، تؤيد أهم المنطلقات الفكرية، والاستنتاجات العلمية الواردة في ثنايا حلقات سلسلة المقالات تلك[2] .

لم أتدخل في مضمون المقالات، ولا حتى في أسلوبها إلا في حدود إعادة ترتيب مادتها لتصبح متوافقة من حيث التنظيم مع طبيعة كتاب مستقل يختلف عن مقال صحفي من هذه الناحية حسب. ومقدماً أود أن أجلب أنظار الجميع الى أن قدر المؤرخ الكردي هو ان يكون محامي دفاعٍ عن حقٍ ضائع، مما يجعله في خندق مظلوم مُعدم بوجه خندق ظالمٍ في متناوله كل أسباب الظلم وأدواته بمفهومه الأوسع الذي يمتد الى تشويه حتى صفحات التأريخ، وربما تكمن في ذلك أهمية هذه الدراسة في معظم منطلقاتها التي قد لا ترضي بعض الأوساط .

كمال مظهر

2000 / 11 / 19

---

(2) كتبت في غضون السنوات القليلة الماضية سلسلة مقالات بهذا الخصوص بالاعتماد أساساً على عدد من الوثائق البريطانية غير المنشورة ، وتم نشرها تباعاً في مجلتي "رۆشنبيري نوێ" و "رەنكين" اللتين تصدران في بغداد باللغة الكردية .

الفصل الأول

العوامل الموضوعية لقيام انتفاضة عام 1925 في ضوء الواقع الاجتماعي والاقتصادي لكردستان تركيا بعد الحرب العالمية الأولى

جرت محاولات عديدة لتشويه الوجه الحقيقي لانتفاضة عام 1925 التي لم تكن سوى حلقة كبيرة في سلسلة حركة التحرر الوطني للشعب الكردي بعد الحرب العالمية الأولى، انفجرت بفعل دوافع معينة وفي ظروف خاصة كان من شأنها أن تدفع الى السطح ما يشبهها أنى كان. فلانتفاضة عام 1925 جذور سياسية واقتصادية – اجتماعية عميقة تبلورت بشكل واضح دوافعها وأهدافها القومية، وتعود نبتات تلك الجذور الى عهود وسنوات سبقت الانتفاضة ذاتها. فما أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها حتى عمت مختلف المناطق الكردية حركة سياسية – ثقافية قومية واسعة، حيث برزت للوجود مرة أخرى جميع الأحزاب والمنظمات التي اختفت عن المسرح السياسي في سنوات الحرب، وظهرت الى جانبها منظمات جديدة وصحف عديدة دأبت على نشر الوعي القومي بين مختلف فئات الشعب الكردي، وحاولت استغلال الظروف الجديدة للعلاقات الدولية، وعلى وجه الخصوص في الشرق الأوسط والتي نجمت عن انتهاء الحرب العالمية الأولى وانهيار الإمبراطورية العثمانية ، وانتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية التي أوجدت تناسباً

جديداً للقوى على الصعيد العالمي. وعندما بـــدت فـــي الأفــق دلالات تشير الى احتمال فقد الأتراك لكردستان التجئـــوا مــرة أخرى الى سلاحهم القديم المثمر مع الكرد، حيــث بــدءوا مــن جديد بإثارة الشعور الديني والتأكيد على الوشائج التـــي تربــط الشعبين ببعضهما. ولكن عندما أيقن المسؤولون الأتراك أن المـد الجديد للحركة الكردية قد تعدى الطور الـــذي كــان بالإمكــان معالجته بأساليب وخطط تكتيكية، اضطروا للجوء الـــى تشـكيل لجنة خاصة ضمت عدداً من الوزراء الترك وبعض الشـخصيات الكردية البارزة، والتي أخذت على عاتقها درس الوضع السياسـي في كردستان ورفع المقترحات اللازمة بشأنه. وقد توصلت اللجنـــة الى حقيقة ثابتة وهي ان تركيا إذا أرادت الاحتفاظ بكردستان عليــها ان تعترف بحقوق الشعب الكردي القومية، وتقر لـــه بحــق إقامــة حكمه الذاتي في إطار الدولة التركية[1].

ولكن لم يمض وقت طويل حتى انفجرت الحركة الكماليـــة ضد المتدخلين الأجانب ونظام السلطان المهترئ، والتي خلقــت ظروفاً سياسية واجتماعية جديدة امتد تأثيرهـــا المباشــر الـــى القضية الكردية أيضاً.

أثارت الحركة الكمالية جانباً كبيراً من الشعب الكردي الـذي وقف، بالرغم من تحذيرات بعض قادة الفكر الكـــرد، بـــإخلاص الى جانبها بقصد تحرير الوطن المشترك من الاحتلال الأجنبـي، مما اثبت تاريخياً ان بإمكان الشعب الكردي ان يتحول الى قـــوة خلاقة في مجرى حركة التحرر - الوطني في تركيا من أجـــل

---

(1) الدكتور بلهج شيركوه، القضية الكردية، ماضي الكرد وحاضرهم، القاهرة، 1930، ص 65 - 67.

بناء وطن حر ديمقراطي مستقل مشترك. فقد استطاع زعيم الحركة مصطفى كمال (اتاتورك) إيجاد مواقع أقدام ثابتة هامة لحركته في أيامها الأولى الحساسة في مناطق مختلفة من كردستان. ففي العام 1919 عقد الكماليون عدداً من أهم اجتماعاتهم السياسية في هذه المناطق. وكما يبدو من مذكرات مصطفى كمال نفسه كان يوجد بين مقربيه وقادة الحركة في بدايتها عدد كبير من الزعماء الكرد. فمثلا ضمت لجنة الإشراف على مؤتمر أرضروم (23 تموز - 6 آب 1919) الذي يعد من أهم بدايات انطلاق الحركة الكمالية، من مجموع ثمانية أعضاء ثلاثة أعضاء من الأكراد، هم الشيخ فوزي رئيس الطائفة النقشبندية في مناطق ارزنجان ودرسيم، والذي أدى دوراً كبيراً في دحر قوى طاشناق التي كانت تأتي على رأس قائمة أعداء الحركة الكمالية، وسعد الله بيك من أهالي سعرد والذي كان عضواً في - مجلس المبعوثان - لغاية العام 1918، وزعيم عشيرة موتكي المعروفة الحاج موسى بيك ميرزا زاده[2]. وبالإضافة الى هؤلاء كان لمصطفى كمال علاقات وثيقة مباشرة مع عدد من الزعماء الكرد المعروفين، وكان يتبادل معهم الرسائل والآراء باستمرار[3]. كما ضم المجلس الوطني الكبير الذي افتتح في نيسان عام 1920 في انقرة 72 ممثلاً كردياً[4] واستقبل أعضاء المجلس قاطبة بحماس وتصفيق

---

(2) " مصطفى كمال . طريق تركيا الجديدة . مجموعة رسائل وخطب مصطفى كمال" ، الترجمة الروسية ، الجزء الاول ،موسكو ، 1929 ، ص 65 .

(3) المصدر نفسه، الجزء الاول، ص 65، 81، 152، 228، 234، 236، 289، 312 وغيرها .

(4) A.R. Ghassemlou , Kurdistan and the Kurds, Prague, 1965, P. 46.

كلمات نائب ارضروم حسين عوني الذي قال إن "حق الكلام من فوق هذه المنصة هو للامتين الكردية والتركية"، وقد تردد العديد من مثل هذه الأقوال على لسان ممثلي الأتراك خلال اجتماعات مؤتمر القسطنطينية الذي عقد للنظر في مشكلة الموصل[5] .

وهكذا لم يستطع الكماليون في بداية حركتهم على الأقل الاستهانة بموقف الكرد، وضرورة مساندتهم لها، ولقد اعترف بذلك وبصراحة عدد كبير من المؤلفين الأجانب[6]. وفي الوقت ذاته لاحظت الأوساط السياسية في الخارج دور الكرد في الحركة الكمالية، ولاحظت بعض الصحف كيف ان الكرد "اقاموا على الود والولاء للحركة الوطنية التركية، وأيدوها منذ ظهورها، واشتركوا فيها اشتراكاً فعلياً بالمال والرجال معتبرين ان القضية قضيتهم، وان البلاد بلادهم"[7] .

إن موقف الاكراد المساند للحركة الكمالية كان نابعاً من تقديرات صائبة للموقف السياسي الذي كان يسود المنطقة، وجاء استجابة منطقية لمحاولات البرجوازية التركية كسب تأييدهم في نضالها العادل ضد المستعمرين، واكتسبت تلك المحاولات اهمية استثنائية في ظروف انفصال كردستان الجنوبية من الدولة العثمانية، ومحاولات البورجوازية التركية الجديدة فرض سيطرتها مجدداً عليها، مما كان يتطلب التقرب اكثر من الشعب

---

(5) Arshak Safrastian, Kurds and Kurdistan, London, 1948, PP.81 – 82 , الدكتور بلهج شيركوه ، المصدر السابق , ص 74 – 75

(6) ينظر على سبيل المثال :
W. Eagleton, The Kurdish Republic of 1946, London, 1963, p.12 .

(7) تنظر على سبيل المثال : "العالم العربي" (جريدة)،بغداد،10 اذار 1925.

الكردي. ولهذا الغرض بالذات قام الكماليون بنشر وعودهم للاكراد على شكل بيانات خاصة كانت أعداد منها تصل حتى الى بعض المناطق الكردية في العراق. وقد ورد في احد هذه البيانات التي وزعت على نطاق واسع في مناطق ضولة ميَرط وآرارات ما يلي: "ايها المواطنون: ان حكومة الجمهورية التركية مصرة كلياً على نشر جميع المستلزمات الحضارية في وطننا العزيز كردستان تركيا. سوف تبلط طرقكم، وقريبا تمدد السكك الحديدية الى مدنكم وقراكم، ولا يبقى أطفالكم بدون مدارس ومعلمين، وسوف تتمتع عوائلكم بالسعادة في حياة مليئة بالرفاه، وان الأمن والاطمئنان يمهدان السبل لرفع خيرات بلادكم.

إن حياة وأملاك وشرف المواطنين مصانة بإخلاص في ظل النظام الجمهوري ... "[8] .

ولكن ما ان وطد الكماليون اقدامهم في السلطة حتى بدا الوجه المظلم لسياستهم القومية يظهر بسرعة، وذلك كفئة بورجوازية لم يطرأ أي تحول بفعل دوافع خارجية وخاصة داخلية على ايديولوجيتها. فمن ناحية السياسة الخارجية لم تمارس الدول الاستعمارية ضد البورجوازية التركية ذلك الضغط الكبير الذي كان من شانه دفع هذه الطبقة الى التقرب من القوى الأخرى، بما فيها قوى الشعب الكردي الوطنية كما فعلت ايام نضالها من اجل السلطة. ومن ناحية أخرى لم تخف البورجوازية التركية خوفها وحذرها من علاقاتها مع الاتحاد

---

(8) مقتبس في : A. M. Hamilton , Road through Kurdistan . The Narrative of an Engineer in Iraq , London , 1937, PP. 295-296 .

السوفيتي الذي ساند نضالها العادل من كل الوجوه، ولذلك كان الكماليون يحاولون دائماً ضرب قوى اليسار في الداخل لاعتقادهم بان ذلك يحول دون إيجاد البلشفية قاعدة قوية لها داخل تركيا، ودخل ذلك أيضاً ضمن الأسباب التي دفعت بالنظام الجديد في تركيا الى محاولة الاحتفاظ بخط الرجعة مع الدول الغربية التي بدورها أخذت ذلك بنظر الاعتبار في رسم مجمل سياستها تجاه الكماليين. أما بالنسبة للداخل فأن الكماليين لم يحسوا بحاجة الى التعاون مع القوى التقدمية وقوى القوميات الأخرى لضرب الرجعية المحلية، وهكذا "انتفت" مقومات التطور الايديولوجي للبرجوازية التركية في تلك المرحلة الحساسة من تاريخ البلاد، وفي هذا تكمن دوافع ظهور الاتجاه اللاديمقراطي لسياسة الكماليين القومية بسرعة .

ومن المهم جداً أن نؤكد على حقيقة أن سياسة الكماليين القومية لم تكن سوى جزء غير قابل للانفصام لسياستهم العامة تجاه الديمقراطية والطبقات المستغلة، هذه الحقيقة المهمة التي غالبا ما يتجاهلها المؤرخون، مما يدفعهم الى تقويمات خاطئة بالنسبة لانتفاضة عام 1925، ففي الوقت الذي بدأ فيه الكماليون بأتباع سياسة مبرمجة للاضطهاد القومي بالنسبة للشعب الكردي، في الوقت ذاته بدءوا بممارسة سياسة قمع شديدة بالنسبة للقوى العمالية والفلاحية في البلاد بغض النظر عن انتماءاتها القومية، وعمليا وجهت البرجوازية التركية ضرباتها القوية للاخيرة حتى قبل التوجه الى قمع الحركة الكردية .

وكانت الخطوة الأولى للكماليين في هذا المجال ان شكلوا حال تسلمهم السلطة من بقايا الاتحاديين وبعض الفئات الرجعية الأخرى حزباً أسموه حتى بالحزب "الشيوعي"، فقد أرادوا عن

طريقه ضمان السيطرة التامة على القوى البروليتارية ومنظماتها التي وقفت منذ اللحظات الأولى وبكل إخلاص الى جانب الحركة الكمالية. ولكن بالرغم من ذلك دبرت السلطات في طرابزون في كانون الثاني عام 1921 مجزرة ذهب ضحيتها ستة عشر قائداً بارزاً من قادة الطبقة العاملة وهم في طريقهم للاجتماع بعدد من زعماء الحركة الكمالية. وهنالك عشرات أخرى من الأمثلة التي تظهر الوجه الآخر للسياسة العامة للبرجوازية التركية إبان انتفاضة عام 1925 الكردية .

إن الدوافع الحقيقة للسياسة الكمالية هذه كانت تكمن، كما قلنا، في خوف البورجوازية التركية غير المبرر من الطبقات الكادحة وحركات الشعوب غير التركية القومية، ومحاولات الدول الغربية للتقرب من النظام الجمهوري الجديد، التي سرعان ما بدأت وبشكل واضح منذ الأيام الأولى لتوطيد هذا النظام، فلم تشعر البورجوازية الديمقراطية في هذه الحالة بالخوف على مصالحها كي تلتجئ الى تعميق محالفتها مع تلك القوى، وهذا بالذات يفسر لنا قصر نظر الكماليين الذين لم يستطيعوا إنجاز إحدى مهام الثورة البرجوازية الديمقراطية وهي القضاء على الاضطهاد القومي، بل العكس التجئوا، ومنذ الأيام الأولى لتوطيد أركان حكمهم، الى سياسة مغايرة لذلك من كل الوجوه.

وفي الواقع ظهرت البوادر الأولى لهذه السياسة أيام عقد معاهدة سيفر التي أدخلت الرعب في قلب البورجوازية التركية لكونها قد أصبحت على وشك ان تفقد آخر ما بقي بيدها من تركة النظام العثماني، وهي كردستان تركيا. وجرى تبلور هذه السياسة بشكل أسرع بكثير من عملية تركز السلطة بيد

الكماليين، إذ حتى في الأيام التي كانوا يحـاولون فيـها كسـب رضى وتأييد القوى الكردية كانوا يخططون أيضـاً لسياسـتهم القومية بالنسبة للمستقبل القريب، ويشيرون في بياناتهم بأصـابع التهديد الى القوى التي لم تكن تثق بوعودهم، وتعارض التعـاون معهم (راجع مثلا خاتمة البيان الذي أشرنا إليه آنفاً فـي كتـاب هاملتن ص 296). وما ان استلم الكماليون السلطة حتى بـدءوا يجاهرون بسياستهم تجاه تلك القوى والتي كانت قد دخلت منـذ تلك الفترة مرحلة التطبيق. ففي العـام 1920 مثـلاً أصـدرت السلطات التركية حكمـها بـالإعدام علـى أحـد البدرخـانيين المعروفين بنشاطهم السياسي، وحاولوا إلقاء القبض على عـدد آخر من أفراد هذه العائلة المعروفة بمركزها البارز في تـاريخ نضال الشعب الكردي، وعلى غيرهم، كما منعوا الوفود الكرديـة من السفر الى مدينة باكو للاشتراك في مؤتمر شـعوب الشـرق الذي عقد في أيلول من عام 1920، بل وحاولوا، كمـا يـروي الأستاذ إسماعيل حقي شاويس في كتاباته، إرسال وفد مصطنـع للمشاركة باسم الاكراد في المؤتمر المذكور .

وفي نفس الفترة تقريباً بدأ المفكر التركي الكردي الأصـل ضياء كوك الب، الذي يعد من أبرز الفلاسفة القوميين في تركيـا الحديثة، بدأ ينشر على صفحات جريدته التي كان يصدرها فـي مدينة ديار بكر الكردية سلسلة مقالات حاول فيها بشكل متقصد، وغير علمي إظهار الشعب الكردي وكأنه من أصـل تركـي[9]،

---

(9) " القومية التركية والحضارة الغربية " مقالات مختارة لضياء كيوك الب، لنـدن، 1959، ص 43-45، 140 – 141 .

مما أثار الاكراد اينما كانوا، وعلى وجه الخصـــوص المثقفيـن منهم.

ومن ناحية أخرى اتخذ الضغط على المنظمات والصحـــف الكردية بسرعة طابعاً قمعياً، مما دفع بقسم كبير منها الى الكـف عن نشاطاتها العلنية، والانتقال الى العمل السري، خاصة بعــد ان حظر نشاطها العلني قانونا. ومنذ العام 1924 بدأ المســؤولون الاتراك في المناطق الكردية بدعوة الناس صراحة الى الاقتصار على التكلم باللغة التركية، كما قاموا في الوقت ذاته بنفي عـــدد من المتنفذين الكرد الى خارج البلاد[10]. اتخذت هذه الاجــراءات طابعا قانونيا ثابتا في الدستور الجديد لتركيا الذي وضـــع فــي نيسان عام 1924، والذي ضم جميع بنـــود الدســاتير العثمانيــة البالية (دستوري عام 1876 وعــام 1909) التــي كــانت تتفــق ومصالح السلطة البورجوازية، وخاصة ما يتعلق منها بحرمـــان الطبقات الكادحة والقوميات غير التركية من حقوقــها السياســية المشروعة، مثل حرمان الاشخاص الذين لا يستطيعون القـــراءة والكتابة باللغة التركية من حق التصويت، واعتبار التركية اللغــة الرسمية الوحيدة في جميع أنحاء البلاد وما شابه. وبطبيعة الحال كانت هذه الاجراءات تستهدف جعل تركيا، علـــى حــد تعبــير المؤلف الانكليزي ف. رايند "دولة ذات قومية واحدة "[11] .

إن هذه الاجراءات، وعشرات غيرها هزت بشــكل عنيــف الشعور القومي لدى جميع الطبقات والفئات الكردية، مما تـــرك أثراً مباشراً وعميقاً على المجرى العام للحيـــاة السياســية فــي

---

(10) L.Rambout , Le's Kurdes etle droit , Paris , 1947 ,P.26 .

(11) " Journal of the Royal Asian Society " , VOI . XXI, July 1934 .

كردستان تركيا بأسرها. واذا اخذنا بنظر الاعتبار حقيقة كـــون هذا الجزء من كردستان مهداً لنشوء الفكـــرة القوميـــة الكرديـــة (ظهرت أولى الانتفاضات القومية وأول صحيفة وجمعية سياسية كردية في هذا الجزء من كردستان) أدركنا مدى قـــوة رد فعـــل سياسة الحكام الاتراك الشوفينية لدى مختلـــف أوســاط الشـــعب الكردي التي كانت لها تقاليدها العريقة، وتجاربها العمليـــة فـــي النضال الشاق من اجل حقوقها المشروعة، وتلكم هـــي حقيقـــة هامة يجهلها ، او يتجاهلها العديد من المؤرخين الاجانب اثنـــاء بحثهم لطبيعة انتفاضة العام 1925 الكردية في تركيا .

ولكن مع ذلك يوجد عدد من المؤرخين الاجانب المعروفيـــن الذين حددوا بدقة الاطار الشوفيني للسياسة القومية للبورجوازيـــة التركية قبيل انفجار انتفاضة عام 1925 التي كان وقوعها أمـــراً حتمياً في تقديراتـــهم. ولـــرأي المـــؤرخ العـــالمي المعـــروف البروفيسور ارنولد توينبي في هذا المجال أهمية استثنائية، فبعـــد زيارته لتركيا في عام 1923 ولقاءاتـــه المتكـــررة مـــع كبـــار المسؤولين في النظام الجديد، ودرسه لمجريات الاحداث في تلـــك البلاد تحدث في احد مقالاته عـــن محـــاولات تـــتريك الكـــرد، وتوصل الى الاستنتاج بان هذه السياسة ستؤدي فـــي يـــوم مـــن الايام الى "إثارة مشاكل وقلاقل من جـــانب الاكـــراد تضـــاهي المشاكل والقلاقل التـــي أثارهـــا الالبـــانيون فـــي حينـــه ضـــد الامبراطورية العثمانية ". وبعد ذلك يقول توبينـــي "وعلـــى مـــا اعتقد فان مصطفى كمال ورفاقه يظهرون حكمة اكثر لو ســـبقوا الاحداث من البداية بان يمنحوا الكرد حق المواطنة المتســـاوية،

الا انهم على العكس من ذلك اختاروا، سواء عن وعي منهم او لا، طريق الصهر القومي لانفسهم"[12] .

بطبيعة الحال لم تكن انتفاضة عام 1925 وليدة الشعور القومي، ونتيجة منطقية لسياسة الكماليين الشوفينية فحسب، بل رافقت ذلك عوامل محركة اخرى هامة متشابكة فيما بينها بشكل موضوعي. فقبل كل شئ يجب إلقاء نظرة عامة على الوضع الاقتصادي الجديد الذي ساد كردستان تركيا بعد انتصار الحركة الكمالية حتى نستطيع تحديد العوامل الاقتصادية الهامة التي اثرت بدورها بشكل مباشر على تهيأة الظروف اللازمة للانفجار السياسي في هذا الجزء من كردستان. أدى انتصار الثورة البورجوازية في تركيا الى تبني سياسة اقتصادية جديدة في البلاد، فقد اتخذ الكماليون بعض الخطوات الهامة بقصد اضعاف المركز الاجتماعي والسياسي للطبقة الاقطاعية، وتغيير اسلوب الانتاج الاقطاعي وتطوير العلاقات الرأسمالية في الزراعة في الريف، وفي الصناعة والتجارة في المدينة. ان هذه الخطوات التي كانت تستهدف، قبل كل شئ، تركيز السلطة في ايدي الطبقة الحاكمة الجديدة، وتقوية مواقعها الاقتصادية، لم تؤد الى تحسين الوضع السئ للطبقات الكادحة بالرغم من ازدياد استغلالها في ظروف علاقات الانتاج الرأسمالي والذي ساعد بدوره على تردي وضع هذه الطبقات. ففي القرية لم يحصل أي تغيير ملموس في وضع الفلاحين، خاصة لان الكماليين لم

---

(12) A.J . Toynbee , Angora and the British Empire in the East , . "The Contemporary Review", London , No .690 , June 1923 , PP. 386-387

يعملوا على اجتثاث جذور العلاقات الاقطاعية القائمة مـن كـل الوجوه، بل حاولوا، كما قلنا، تطوير اسلوب الانتاج السائد فقـط، فمثلاً انهم لم يلغوا حتى سنوات طويلة بعد انتصـار حركتـهم عدداً هاما من الضرائـب الاقطاعيـة، كمـا كـانوا يسـاندون انصارهم من ملاكي المـدن، اذ كـانوا يمدونـهم بـالقروض ويستوردون لهم الآلات الزراعية الحديثة، ويفسحون لهم المجـال لتوسيع اراضيهم الزراعية على حساب الفلاحيـن اليونـانيين، وخاصة الارمن المهاجرين، ومقابل ذلك كان عـدد الفلاحيـن الذين لا يملكون الأرض في ازدياد مستمر، خاصة في المنـاطق الكردية. وقد اضطر رئيس الوزراء عصمت اينونو للاعـتراف في عام 1936 بوجود "أعداد هائلة من الفلاحين الذين لا يملكـون شبرا من الأرض" وبأن "حوالي نصف الفلاحين حتى في اغنـى المناطق لا يملكون الأرض، فيضطـرون للعمـل فـي أقسـى الظروف في اراضي تعود لغيرهم"[13]. وبعد مرور ربـع قـرن على هذا التصريح الرسمي كتبت صحيفة "يني صباح" التركيـة تقول "ان كلام الشيخ هو القانون بالنسبة للفلاح الذي لا يحق لـه بدون رضاه حتى مراجعة الموظفين الحكوميين"[14].

إن هذه الأمثلة، ومئات غيرها، تظـهر الطـابع الحقيقـي للسياسة السطحية للبورجوازية التركية بالنسبة لمسـألة الأرض والفلاح الحساسة والتي ساعدت على تعميق التنـاقض الطبقـي والاجتماعي في الريف. وقد حدد العديد مـن المؤرخيـن هـذه الحقيقة الهامة التي تتحول في أي مجتمع يمر باوضاع مشـابهة

(13) " Vsemirnaya Istoria ", Vol . IX , Moscow, 1962, P. 441 .

(14) مقتبس في : "الطريق" (مجلة)، بيروت، تموز 1961 ، ص 92 .

لاوضاع تركيا الى عامل محرك اساسي للاحداث السياسية التي تأخذ بفعله طابعاً حاداً مميزاً .

إن سياسة الكماليين الزراعية لم تؤد، بطبيعة الحال، الى حل المشاكل الزراعية المعقدة الموروثة من العهد العثماني، ولا الى حدوث تغيير ملموس في الانتاج الزراعي. فمثلا لغاية العام 1929 لم تصل مساحة الاراضي المزروعة الحد الذي كانت عليه في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى، ولم تبلغ انتاجيتها اكثر من 80 بالمائة عما كانت عليه قبل الحرب، كما ان نسبة الثروة الحيوانية في نفس السنة وصلت بالكاد الى 85 بالمائة مما كانت عليه قبل الحرب[15]. وبطبيعة الحال نجم عن ذلك ارتفاع فاحش في اسعار اهم الحاجيات الضرورية، والارقام التالية تعطي فكرة واضحة عن ذلك: اذا كان سعر حقة لحم في العام 1913 يبلغ 5 قروش، وحقة الخبز يبلغ قرشاً واحداً، ودهن الزيت 3 قروش، فان هذه الاسعار بلغت في العام 1928: 150 و18 و70 قرشا بالتوالي، وهذا يعني ان معدل ارتفاع الاسعار بعد استلام الكماليين للسلطة بلغ 18 الى 40 مرة عما كان عليه قبل الحرب[16]، ولم تستطع المصادر الرسمية انكار هذا الواقع، فقد اعترفت احدى الوثائق الرسمية بان الاسعار في العام 1928 قد ارتفعت بمعدل 13 الى 15 مرة عما كانت عليه عام 1914[17]. والفئة الوحيدة التي استفادت من هذه الاوضاع بشكل مباشر هي

---

(15) A.D. Novichev, Turtsia, Moscow, 1965, P . 167 .

(16) 'The Times", London, July 8, 1929 .

(17) Quoted in: R. P . Kornienko, Rabochee Dvijenie V Turtsii (1918-1963), Moscow, 1965, P. 57 .

البورجوازية التجارية التي يعتبرها عدد كبير من المؤرخين رأس رمح الحركة الكمالية، أما بالنسبة لبقية فئات الشعب لم يعن هذا الارتفاع الكبير والمفاجئ في الاسعار سوى تدن سريع في وضعها الاقتصادي السئ، وتعميق التناقضات الاجتماعية الحادة التي كانت تسود الواقع الاجتماعي في تركيا .

وحتى ان التقدم الذي حصل في الانتاج الصناعي اثر مجئ الكماليين الى الحكم لم يستطع التأثير بشكل ملحوظ على الوضع الاقتصادي في البلاد، بل على العكس من ذلك ساعد تمركز السلطة السياسية بيد البورجوازية على ازدياد مدى الاستغلال الطبقي للعمال، فقد كانت أجرة العامل الماهر اليومية في مدينة اسطنبول تتراوح بين 120 و200 قرش، وأجرة العامل غير الماهر كانت تتراوح بين 40 و100 قرش، مع العلم ان ساعات يوم العمل غالبا ما كانت تبلغ ست عشرة ساعة، وباعتراف المصادر الرسمية كانت هذه الأجرة اقل بنسبة 17 بالمائة عن اجرة العمال في العام 1913[18]. ان مثل هذه الأجرة الواطئة لم تكن لتكفي ، بطبيعة الحال ، لسد الرمق ، وكما يروي أحد المصادر الموثوقة لم يكن غذاء عمال مناجم زنكول – داغ يتعدى الخبز والذرة[19] .

لقد أثارت السياسة الاقتصادية للبورجوازية التركية جميع الطبقات والفئات الكادحة بغض النظر عن انتماءاتها القومية، وانعكس ذلك في سلسلة من الانتفاضات الفلاحية والاضرابات

---

(18) Quoted in: A . D . Novichev, Op . Cit, P . 57 .

(19) "Profesionalnoe Dvijenie", Moscow – Leningrad, Vol. 3 , 1926 , P . 338 .

العمالية المتواصلة التي سبقت انتفاضة عام 1925. ففي العام 1923، مثلا، قام فلاحو عدد من المناطق الغربية بتنظيم انتفاضة كبيرة ضد السلطة والاقطاع قتلوا خلالها عدداً كبيراً من المسؤولين والجندرمة، ولكن القوات الحكومية استطاعت قمع الانتفاضة بدون رحمة، وقامت الدولة في تشرين الاول من نفس السنة بسن قانون خاص ضد (أعمال الشقاوة) كان جميع بنودها منصبة ضد الفلاحين وحركتهم[20]. اما الحركة العمالية في نفس الفترة فانها اتخذت طابعاً اعمق ، ففي صيف عام 1923 اعلن اكثر من 12 الفاً من عمال مناجم زنكول – داغ الاضراب ولثلاث مرات متوالية، كما حدثت اضرابات مشابهة في اسطنبول وعدد آخر من المدن الكبيرة ، وقد شارك في هذه الاضرابات عمال جميع القوميات دون استثناء[21].

إن موجة الاستياء هذه التي سادت عموم تركيا اتخذت في كردستان، بفعل عوامل معينة، طابعاً حاداً مميزاً. فقبل كل شئ ارتدت سياسة الكماليين الاقتصادية في كردستان طابعاً شوفينياً واضحاً، ففي الوقت الذي عمل فيه الكماليون في المناطق التركية بالدرجة الرئيسية على تجريد الملاكين من سلطتهم السياسية، نراهم في المناطق الكردية يحاولون ضرب مصالحهم الاقتصادية أيضاً، واتخذت هذه السياسة شكلاً مبرمجاً بالنسبة لبعض الملاكين ورؤساء العشائر الكردية من الذين اندمجوا منذ زمن بعيد مع تيار حركة التحرر – الوطني للشعب الكردي.

---

(20) P.P Maiseev, Agrarnie Otnoshenia v Soremennoi Turtsii, Moscow 1960, PP. 171 – 172 .

(21) R.P. Kornienko, Op. Cit . P. 59 .

ومن المهم جدا ان نؤكد بهذا الصدد ان هـدف الكماليين مـن سياستهم هذه لم يكن استقطاب الفـلاح الكـردي عـن طريـق تحريره من الاستغلال الإقطاعي، وان إجراءاتهم في هذا الحقـل لم تكن سوى ترجمة فعلية لسياستهم الشوفينية. فمثـلا اسـتولت السلطات على أراض خصبة فـي كردسـتان لتوزيعـها علـى العوائل التركية العائدة من الخارج، وخاصة من اليونان[22]. كمـا اتخذت قرارات خاصة لإسكان عشرات الألوف من الأتراك فـي المناطق الكردية بقصد تتريكها، وكان واحدا من هذه القـرارات يقضي بإسكان مائة ألف تركي مهاجر من بلغاريا ويوغوسـلافيا خلال سنة واحدة في المناطق الكردية (بقصد تعزيـز سـكانها الاتراك) على حد تعبير جريدة التايمس اللندنية[23]. ان مثل هـذه السياسة أثارت، بطبيعة الحال، وبنفس المستوى الفلاح والمـلاك الكرديين. وبالإضافة الى ذلك كان يوجد عامل اقتصادي حسـاس آخر أثار في تلك الفترة، وبشكل جدي كرد تركيا، وعلى وجـه الخصوص القبائل نصف المتنقلة، والى حد اقل صغار التجـار. فمنذ القرن التاسع عشر بدأت في كردستان عملية تكوين السـوق الموحدة التي تأثرت بشكل مباشر بعملية ارتبـاط أسـواق كردستان بالعالم الرأسمالي في نفس الفترة، والتي سـاعدت على الخروج من إطار الإنتاج الطبيعـي. ومـن الجديـر بالذكر ان انقسام كردستان الى جزئين (عثماني وايرانـي) لم يكن قد تحول بعد الى عائق أمام السير الطبيعـي لـهذه العملية المهمة. ففي تلك الفترة انتعش التبـادل التجـاري

---

(22) "Agrarnie Problemi", Moscow , No. 1-2 , 1936 P. 127 .

(23) "The Times" , August 27 , 1931 .

والعلاقات الاقتصادية بشكل واضح بين مختلف اجزاء كردستان ، وخاصة بين جزئيها الشمالي والجنوبي ، حيث كانت القوافل المحملة بمختلف البضائع تجتاز الطرق السبعة والوادي الفسيح الواقع عند ملتقى نهر خابور بدجلة ، والذي يبلغ عرضه حوالي 20كم ، فتحول بذلك الى الفتحة الرئيسية التي عوضت عن كل العراقيل التي حالت بسبب السلاسل الجبلية الوعرة دون الارتباط الطبيعي بين هذين الجزئين من كردستان . وحتى ان الاتراك انفسهم حاولو ا الى حد كبير استغلال هذه النقطة اثناء النزاع حول ولاية الموصل في بداية العشرينيات، وذلك بتأكيداتهم المتكررة على وجود علاقات اقتصادية قوية بين شطري كردستان الشمالي والجنوبي، وان هذا بالذات دفع باللجنة الخاصة التي شكلتها عصبة الامم للنظر بهذه المشكلة لان توصي في تقريرها بانه في حالة ضم ولاية الموصل الى العراق يجب منح سكانها حرية التجارة مع كل من تركيا وسوريا، ومنح تجار كوردستان تركيا حق استخدام طرق ولاية الموصل في نشاطهم التجاري[24].

ولكن ظروف ما بعد الحرب العالمية الأولى، وعلى وجه الخصوص احتلال كردستان الجنوبية من قبل الانكليز، وعزلها عن كردستان الشمالية، وتسلم البورجوازية السلطة في كل من تركيا وايران، كان يعني بداية التقسيم العملي لكردستان، والعمل الجدي من اجل عزل أقسامها عن بعضها، مما ترك آثاراً واضحة على الحياة الاقتصادية، وخاصة على عملية تكوين

(24) "League of Nations. Question of the frontier between Turkey and Iraq", Geneva, 1924, P. 29 .

السوق الموحدة فيها. وكانت البورجوازية التركية تريد فرض سيطرتها الكاملة على اسواق الجزء الخاضع لها من كردستان، فالتجأت، خاصة منذ العام 1924، الى حشد قوات كبيرة في جميع المنافذ على حدودها مع سوريا، وبدرجة اكبر مع العراق[25].

وبطبيعة الحال اثر هذا الى حد كبير على عملية التبادل الاقتصادي بين هذين الجزئين من كردستان، وتضرر من جراء ذلك عدد كبير من صغار التجار على جانبي الحدود، مما ظهرت اثاره على حالة السوق في كليهما، بحيث اضطر الاعضاء في لجنة الحدود العراقية-التركية المشتركة الى اثارة هذا الموضوع في اول اجتماع عقدته اللجنة عام 1926 في مدينة زاخو[26].

اثر العزل القسري بين جزئي كردستان أيضاً على حياة عدد كبير من العشائر نصف المتنقلة، اذ منعت السلطات التركية انتقال هذه العشائر بين مراعيها الشتوية والصيفية التي كانت موزعة بين جزئي كردستان، ونجم عن ذلك فقد معظم هذه العشائر لقطعانها وهي عماد حياتها الاقتصادية، فقد تضرر من جراء ذلك في صيف عام 1927 وحده ما لا يقل عن ستة الاف شخص من عشيرتي الارتوشي والسندي اللتين حرمتا من مراعيهما الصيفية[27]. وتضررت قبلهم حوالي 1200 عائلة من

---

(25) Arshak Safrastian, Op . Cit, PP. 87-88 .

(26) "Report by His Britannic Majesty's Government to the Council of the League of Nations on the adminstrations of Iraqs for the year 1926", London, 1927, P. 21 .

(27) "Report by His Britannic Majesty's Government to the Counil of the League of Nations on the administration of Iraq for the Year 1927" , London , 1928 P. 26 .

عشيرة ميران التي اضطرت الى ترك كردستان تركيا نهائياً، والاستيطان في مراعيها الصيفية على شواطئ دجلة[28]. وبطبيعة الحال اثارت هذه الاوضاع استياء عاماً بين افراد العشائر الكردية نصف المتنقلة على جانبي الحدود والتي باتت على استعداد كامل للانخراط في أي عمل موجه ضد النظام الجديد في تركيا.

لقد وقع أشباه المتنقلين هؤلاء، مع غيرهم من القرويين والمزارعين في الريف وعمال وفقراء وحرفيي المدن تحت ضغط صنوف الضرائب الجديدة التي رافقت تسلم الكماليين للسلطة، اذ عمد النظام الجديد لحل مشاكله الاقتصادية الى فرض عدد من الضرائب الجديدة التي كان مقدار ما يجبى منها في تزايد مستمر وملحوظ ، فخلال سنة واحدة فقط (1928 – 1929) ارتفع دخل الدولة من الضرائب بنسبة اكثر من ستة بالمائة[29]. ووصل دخل الميزانية من الضرائب المباشرة في السنة المالية 1938 - 1939 خمسة أضعاف ما كان عليه في العلم 1930 - 1931[30].

ومن الجدير بالذكر ان الريف الكردي تأثر بهذه الضرائب اكثر من المناطق الأخرى وذلك بسبب التشديد والتفنن في جبايتها، فكما ذكرت مجلة "الشرق الادنى والهند" الانكليزية "لم

---

(28) "Report by His Britannic Majesty's Government to the Council of the League of Nations on the administration of Iraq for the year 1926" , P. 16 .

(29) "The Near East and India", London, August 19, 1927, P. 178.

(30) "Vsemirnaya Istoria" , Voi . IX , P. 445 .

تبق وزارة المالية امام سكان تركيا منفذا يستطيعون التخلص من خلاله من دفع ما يترتب عليهم من الضرائب"[31]. بينما كان الفلاح الكردي يتهرب في السابق، وبكل سهولة عن دفع الضرائب كليا او جزئيا، ففي العام 1913 مثلا، كان قد مرت عشرون سنة على احدى العوائل الاقطاعية في منطقة بدليس وهي لم تدفع قرشا واحدا من الضرائب[32]. وقد شلت الضرائب الجديدة ، مع الاسعار الفاحشة للحاجيات الضرورية حتى عملية تراكم رأس المال التي بدأت بشكل اولي لدى بعض التجار والحرفيين الذين عجزوا لذلك عن مسايرة التغييرات الاقتصادية التي نجمت عن تطور العلاقات الرأسمالية في البلاد .

إن وجود قوات كبيرة من الجيش في مناطق كردية مختلفة زاد عمليا من ثقل الضرائب على الفلاح الكردي الذي اصبح ملزما بشكل غير قانوني بتحمل جانب من عبء وجود هذه القوات، فكما يروي عبد العزيز ياملكي "كان الجيش التركي عبئا ثقيلا على عاتق الفلاح الكردي الذي كان مجبراً على ان يقوم بجمع الحاجيات ونقلها على كتفه الى المعسكرات حيث كانوا يدفعون له الثمن الذي يروق لهم، والذي لم يكن ليكفي لسد رمقه في ايام الشتاء "[33].

لقد أثارت سياسة الكماليين الاقتصادية مختلف فئات الشعب الكردي، وبشكل جدي. ومن الجدير بالذكر ان بعض المنظمات السياسية في كردستان ادركت هذا الواقع ولذلك لجأت الى نشر

---

(31) "The Near East and India", November 19 , 1925 , P. 612 .

(32) Arshak Safrastian, Op. Cit , PP. 72-73 .

(33) عبد العزيز يا ملكي، كردستان وكرد إختلالاتي، جلد1، تهران، 1946، ص 78.

بيانات خاصة ايام انتفاضة عام 1925 وعدت فيها بتخفيف عـبء الضرائب عن كاهل الجماهير[34].

هكذا كان الوضع العام للحالة الاقتصادية والاجتماعية فـي كردستان تركيا بعد انتصار الحركة الكمالية في البلاد، وبـدون شك كانت الدوافع والقوة المحركة الأساسـية لمجمـل حركـة التحرر - الوطنية الكردي في تركيا ما بعد الحـرب العالميـة الأولى كامنة في ذلك الخضم من العلاقات الجديدة والتغيـيرات الكبيرة التي تبعت انتصـار الثـورة البورجوازريـة للقوميـة الحاكمة، والتي كان من شأنها دفع حركات مشابهة لانتفاضـة عام 1925 الى السطح في كل زمان. وبطبيعة الحال، وكما يؤكد علم التاريخ الحديث نفسه، لا يمكن لاي عامل خارجي في مثـل تلك الظروف ان يؤدي، مهما كان، لكثر من دور ثانوي بالنسـبة للاحداث السياسية الكبيرة، ولذا لا يصح حمل ذلك العامل، فيمـا لو وجد، اكثر مما يتحمل كما فعل ذلك عدد غـير قليـل مـن المؤرخين في تحليلاتهم غير العلمية لانتفاضة الشعب الكـردي في العام 1925.

---

(34) A . R . Ghassemlou , Op. Cit . , P. 50 .

الفصل الثاني

تناسب القوى الاجتماعية في

الحركة التحررية الكردية في تركيا

إن اللوحة التي رسمناها في الفصل السابق عن الوضع الاقتصادي – الاجتماعي بعد الحرب العالمية الأولى في تركيا بشكل خاص، تعطي إمكانية تحديد تناسب القوى الطبقية في حركة التحرر – الوطني في كردستان تركيا، بما فيها انتفاضة عام 1925.

من المهم جداً أثناء تقويم تناسب القوى الطبقية في حركة التحرر – الوطني للشعب الكردي، خاصة قبل الحرب العالمية الثانية، ان نلاحظ حقيقة ان الاقطاعيين كانوا يحتلون في أجزاء كردستان المختلفة مواقع متباينة في النضال التحرري لشعبهم، وذلك بحكم اختلاف العوامل الداخلية والخارجية المؤثرة في سير الاحداث بالنسبة لمختلف اجزاء كردستان. فمثلا كانت السياسة القومية والاجتماعية للبورجوازية-الحاكمة في تركيا تجاه اقطاعيي كردستان على طرفي نقيض مع السياسة التي تبناها الانكليز واتباعهم في العراق تجاه كبار ملاكي واقطاعيي كردستان الجنوبية. ففي الوقت الذي كانت السلطات الحاكمة في تركيا تضرب مصالح مختلف فئات الشعب الكردي السياسية والاقتصادية، بما فيها مصالح الاقطاعيين الذين ابتعدوا لذلك عن الطبقة الحاكمة، كانت السلطة في العراق تحاول بشتى السبل

جذب رؤساء العشائر وكبار الملاكين الكرد الى جانبها، وفي هذا يكمن سر التحول السريع للاقطاع في كردستان العراق كطبقة الى عامل معرقل امام سير حركة التحرر - الوطني في هذا الجزء من كردستان، بينما في كردستان تركيا اندمج الاقطاعيون ورؤساء العشائر كطبقة في مجرى حركة شعبهم الوطنية. والمؤشر الهام لهذا الواقع هو كثرة رؤساء العشائر والملاكين الليبراليين في كردستان تركيا، وندرتهم في كردستان. وهكذا كانت طبقة الاقطاع في كردستان تركيا في العشرينيات تؤلف قوة ايجابية أدت دوراً بارزاً في النضال التحرري للشعب الكردي.

ومن المهم ان نشير الى ان بعض الممثلين الواعين لهذه الطبقة تحولوا الى حملة ايديولوجية البورجوازية الكردية النامية، والمؤشر السياسي الهام لذلك هو دورهم البارز في تأسيس وتنظيم عدد من المنظمات السياسية، واشتراكهم الفعال في نشاطاتها، وإيمانهم بأسلوب عملها. ومن الجدير بالذكر ان بوادر هذه الظاهرة السياسية المهمة قد ظهرت في كردستان تركيا بالذات قبل الحرب العالمية الأولى بفترة طويلة، فأبناء بدرخان باشا هم الذين اصدروا أول جريدة كردية، والشيخ عبد القادر الشمزيني هو الذي أسس أول جمعية كردية، وهؤلاء جميعاً يأتون على رأس قائمة اقطاعيي كردستان المتنفذين. وربما كان عبد الرزاق بدرخان الانموذج المعبر الحي لهذه الظاهرة، فهو الذي عمل لسنوات طويلة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في سبيل الخروج من طوق النضال العشائري، فأسس الجمعيات، واصدر الصحف، واتصل بالدبلوماسيين

والمستشرقين، وشجع التعليم، وقرب المثقفين القلائل الموجودين بين الاكراد من نفسه، فكانت مخططاته للنضال من اجل حقوق الشعب الكردي انموذجاً حياً لبداية التحول الفكري لدى بعض الشخصيات السياسية في كردستان تركيا[1]. ثم ان الزعيم الروحي لانتفاضة عام 1925 الشيخ سعيد بيران نفسه لم تعهد اليه مهمة قيادة الحركة لمجرد نفوذه الكبير بين العشائر الكردية وحسب، بل كذلك لانه كان يختلف عن معظم أقرانه بثقافته العالية، وحبه للعلم، وسعة اطلاعه، فلقد كان أديباً يجيد الفارسية والتركية والعربية، وتعلم على يديه العشرات من الشباب الكرد، وكان يتابع الاحداث العالمية في الصحف، وتمتع رجال الفكر الكرد بمركز خاص لديه، حيث كان على اتصال مستمر بهم، فتحول مجلسه الكبير الى مركز سياسي ثقافي حي .

إن هذه الحقائق لا تعني، بطبيعة الحال، ان طبقة الاقطاع في كردستان تركيا لم تترك أي اثر سلبي على حركة التحرر – الوطني للشعب الكردي في هذا الجزء من كردستان، لان ذلك يتنافى، على الأقل، مع طبيعتها الاستغلالية التي تركت، في كل الأحوال، آثاراً عميقة على الوضع الاجتماعي السائد. فقد تكاملت أبعاد الاستغلال الاقطاعي وعلاقات الانتاج الاقطاعية في الريف الكردي قبل الحرب العالمية الأولى بفترة طويلة،

---

(1) للتفصيل عن نشاطات عبد الرزاق بدرخان على شق الصعد يمكن الرجوع الى:
M.S.Lazarev, Kurdistan i Kurdskaya Problema (90 – e godi / XIX veka -1917), Moscow, 1964, PP. 69 -70, 116, 155 -160, 237 - 243, 277-282 ... etc .

ولعب هذا الدور الأساس في تحويل الجيش الرئيسي لحركة التحرر – الوطني الكردية – الفلاحين الى عامل سياسي غير واع، وبالتالي غير مؤثر في سير الأحداث. فلم تتبع الأكثرية الساحقة من ذلك الجيش المنظمات السياسية القائدة للانتفاضة، بل اتبعت زعماءها بشكل عفوي لا بدافع قومي متبلور. وقد جاء تأثير هذا العامل عليهم بمستوى أدنى بكثير من تأثير العوامل الاقتصادية الكامنة في الانتفاضة، ولذلك فان أي تراجع او تذبذب من جانب رؤسائهم كان يعني تراجع المئات، وأحيانا اكثر، من الفلاحين وتركهم لسوح النضال في أحرج اللحظات. وفي تاريخ انتفاضة عام 1925 نفسها أمثلة عديدة على ذلك، فما ان أعادت القوات الحكومية احتلال مدينة ديار بكر، الذي أدى الى اختلال ميزان القوى لصالح الجيش، حتى انفصل عدد غير قليل من رؤساء العشائر عن الحركة، بل وانضم قسم منهم الى القوات الحكومية، كما حذا حذوهم معظم رؤساء العشائر الذين اتخذوا حتى تلك اللحظة موقفاً "محايداً" من الأحداث الجارية. بالإضافة الى ذلك كان بعض رؤساء العشائر والمتنفذين الذين خدموا قضية شعبهم القومية، والذين لم يفهموا بعد طبيعة الاستعمار والمستعمرين كانوا يؤمنون بإمكانية حل القضية الكردية بـ "مساعدة" الدول الغربية، وعلى رأسها انكلترا التي كانت، حسب اعتقاد بعضهم، تريد بإخلاص العمل من اجل تاسيس "دولة كردستان الكبرى". ومن الجدير بالذكر ان عدداً من الضباط السياسيين الانكليز المعروفين بنشاطاتهم في كردستان، أمثال الميجر نوئيل، استطاعوا إقامة علاقات وثيقة مع عدد من رؤساء العشائر الكردية المعروفين بنشاطاتهم

السياسية، وحاولوا استخدامهم ضد نضال البورجوازية الوطنية التركية. وبالفعل استطاع نوئيل في العام 1919 إثارة بعض القلاقل في منطقة ملاطية ضد الكماليين، بل وضع خطة مع حكومة السلطان للقبض على مصطفى كمال، خاصة أثناء مؤتمر سيواس الذي عقد في ايلول عام 1919[2]. وكما يعترف مصطفى كمال بنفسه في مذكراته فان هذه الاعمال أثارت قلقاً كبيراً في نفوس الكماليين[3]، وهي بدون شك أدت دورها في تسريع ظهور الجانب الرجعي لسياسة الكماليين القومية الى السطح ، في الوقت الذي كانت توجد في ظروف تركيا في تلك الفترة امكانية العمل من اجل ايجاد لغة نضال مشتركة مع البورجوازية الوطنية التركية ، وفرض نوع من التسوية العملية للقضية القومية الكردية .

أما الطبقة البورجوازية الكردية النامية فانها استطاعت، بمختلف اجنحتها، ان تحتل مكانة بارزة في حركة التحرر - الوطني للشعب الكردي في تركيا. وعندما نقوّم دور هذه الطبقة السياسي علينا ان لا ننسى انها، بالرغم من ضعفها ، وعدم استكمالها لطور الطفولة، الا انها كانت من كل الوجوه - الاقتصادية وخاصة الايديولوجية - اقوى، واكثر تجربة من بورجوازية الاجزاء الأخرى من كردستان، لان بداية تكوين البورجوازية الكردية ونضالها السياسي بشكل عام كانت في

---

(2) Lord Kinross , Ataturk – the Rebirth of Nation, London, 1964, P.19.

(3) " Mustafa Kemal . Put Novoi Turtsii 1919 – 1927" , Vol . I , PP. 116-117 , 132 , 136 , 138 , 244-259 , 281 ... etc .

في كردستان تركيا، وهي تعود الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فمثلاً في الوقت الذي نحس بوجود آثار واضحة لأفكار هذه الطبقة في نضال الشعب الكردي في تركيا قبل الحرب العالمية الأولى بعقود، فاننا لا نحس بمثيلها في نضال الشعب الكردي في الأجزاء الأخرى من بلاده إلا بعد الحرب المذكورة.

لقد حالت ظروف المجتمع الكردي الذاتية، وبعض العوامل الخارجية دون تكون البورجوازية الصناعية في كردستان تركيا، أما البورجوازية التجارية، والفئة المثقفة فكان لهما وزنهما في الكيان الاجتماعي لهذا الجزء من كردستان. وكما لاحظنا في الفصل الأول من هذه الدراسة فان البورجوازية التجارية الكردية تضررت كثيراً من مجيء الكماليين الى السلطة، ولم يكن ذلك ناجماً عن عزل كردستان تركيا عن الأجزاء الأخرى من كردستان وحسب، بل الى جانب ذلك ان البورجوازية التجارية التركية نفسها بمحاولاتها المستمرة من اجل السيطرة الكلية على أسواق المدن الكردية في تركيا كانت تمارس ضغطاً شديداً عليها، وهي كانت تستهدف من ذلك ربط اقتصاد المناطق الكردية بأسواق تركيا فقط، وكان المعنى السياسي لهذه المحاولة شل عملية تكوين السوق الموحدة الكردية نهائياً، وبالتالي إضعاف إمكانية توحيد الاكراد .

إن اهتمام البرجوازية التركية الكبيرة بهذه الناحية، وكذلك قلقها على أسواق كردستان يظهران بشكل واضح في اشتراك ممثليها كـ "متطوعين" اكثر من مرة في صفوف القوات التركية التي كانت ترسل لقمع الحركات الكردية[4].

---

(4) F.B Rostopchin , Zametki o Kurdakh, "Bulletin Pressi reduevo Vostoka", Tashkent, No. 13-14, 1932, P. 92 .

وهكذا فان ظروف البورجوازية التجارية الكردية بعد الحرب العالمية الأولى كانت تحمل في طياتها اكثر من عامل محرك حساس يدفعها الى الصف المعارض للنظام الجديد في تركيا، وكان مجالها الطبيعي للتعبير عن استيائها هو الانضمام الى صفوف حركة التحرر - الوطني لشعبها بعواطفها على اقل تقدير.

ولكن الفئة المثقفة الكردية المعبرة عن ايديولوجية البورجوازية الكردية النامية أدت دوراً اكبر وابرز في مجمل الحياة السياسية لكردستان، ولم يكن دورها يتفق أبداً مع وزنها الكمي في المجتمع، وكان اكبر حتى من دور فئات مشابهة في مجتمعات متأخرة اخرى. ان وزن هذه الفئة الكبير في الحياة السياسية كان ناجماً عن تبلور وعيها، واتصال عدد كبير نسبياً من افرادها بالحضارة الغربية مباشرة، إذ أن قسماً منهم انهوا دراساتهم العليا في اسطنبول ، وقسم آخر منهم في باريس وجنيف وغيرها، وقد ترك ذلك، بدون شك، اثاراً واضحة على تفكيرهم الاجتماعي، واسلوب عملهم السياسي، وكان هؤلاء اكثر تفهماً للابعاد الحقيقية لسياسة الكماليين الشوفينية التي أدت الى حرمان هذه الفئة من جميع حقوقها، حيث اغلقت السلطات التركية صحفها، وحظرت جمعياتها السياسية، بل وحتى مؤسساتها الثقافية، ومنعت طبع الكتب باللغة الكردية، ولم تعر أي اهتمام لفتح المدارس وتأسيس المستشفيات وبناء الطرق وغيرها في المناطق الكردية. إن سياسة التتريك التي تبناها الكماليون بسرعة، وكذلك دوسهم لقيم الشعب الكردي الروحية وتشويههم لتاريخه وأدبه ولغته كان من العوامل الحساسة التي

اثارت نار حقد مقدس في نفوس المثقفين الكــــرد الذيـــن تبنـــت البورجوازية التركية خطة مدروسة للقضاء على قيمهم الروحيـــة وباتباع الاساليب التي لم يعرف التاريخ لـــها مثيـــلا الـــى ايـــام الحرب العالمية الثانية. والكلمات التالية التـــي نشـــرتها جريـــدة "حاكميتي ميللي" في عددها الصادر في العاشر من حزيران عـــام 1930 نموذج حي لذلك الاسلوب الشوفيني، إذ كتبت تقول:

"لا يشك أحدا في اننا نعتبر مثل هذا المطلب – يقصد طلـــب الاكراد للحكم الذاتي – ك . م – مجرد هزل، فالشـــعب الـــذي تتألف لغته من مائتي كلمة فقط، والذي يتبع من يشاء، لا يستحق اكثر من زاوية في أواسط أفريقيا، أو إحدى صحاريها المسكونة بمخلوقات نصف أجسامها يشبه القرد ليقيم فيها الحكم الذاتي، أما آسيا التي هي مهد اقدم الحضارات فانها لا تستطيع سماع مثـــل تلك المطاليب".

ولا شك في انه كان من شأن هذه السياسة تحويل اية فئـــة مثقفة في أي شعب كان الى عـــدوة لـــدودة للسـلطة الحاكمـــة. وبالفعل كان رد فعل هذه السياسة لدى المثقفين الكرد قوياً الـــى درجة خلق عندهم عقدة نفسية تجاه الشعب التركي باســـره، ولا يجوز استغراب ذلك اذا اخذنا بنظر الاعتبـــار فقـــدان طليعـــة واعية، وكذلك اكداس المساوئ التي تركتها اربعة قـــرون مـــن الحكم التركي المباشر في نفوس الكرد ، شأنهم في ذلـــك شـــأن العديد من شعوب الامبراطورية العثمانية الأخرى. وقد ادى هـــذا الواقع دوراً كبيراً في إبعاد القوى القومية الكردية عـــن القـــوى السياسية التقدمية المناهضة للكماليين، وعلى وجـــه الخصـــوص الطبقات التركية الكادحة التي كانت تلاقي بدورها الامرين مـــن

الاستغلال الاقتصادي والحرمان السياسي من جانب بورجوازيتها.

وأكثر من ذلك دفع الواقع المر للشعب الكردي في تركيا بالفئة المثقفة الكردية هنا الى نسيان واقع أخوتهم في الاقطار المجاورة، وحقيقية نضالهم الشاق بدورهم من أجل حقوقهم المشروعة، فلقد أكد البند الخامس من مقررات المؤتمر التأسيسي لجمعية – خويبون – الاستقلال التي شكلها زعماء الحركة الكردية في تركيا على ضرورة العمل من أجل "تأسيس العلاقات الاخوية والصداقة الدائمة مع حكومتي العراق وسورية إكتفاء بالحقوق التي حوتها صكوك الانتداب وغيرها من المعاهدات الدولية لاكراد هذين القطرين، وعدم مطالبة حكومتيها بأي حق سياسي آخر سوى ما تقدم"[5] .

إن مثل هذه الاخطاء التي كان معظمها بالنسبة لظروف كردستان تلك السنوات أمراً متوقعاً، والى حد ما مبرراً، لا تنتقص باي شكل من الاشكال من الدور الكبير، والمهم الذي أدته الفئة المثقفة الكردية في حركة التحرر – الوطني للشعب الكردي في تركيا. فلقد اشتركت هذه الفئة بحماس داخل تركيا، وخارجها في النضال من اجل حقوق الشعب الكردي المشروعة، ولها تاريخ حافل بصفحات خالدة من النضال، وبدروس وعبر تساعد حتى المؤرخين الاجانب على التوصل الى استنتاجات قد تكون جديدة وقيمة بالنسبة لدور هذه الفئة في حركة التحرر – الوطني للشعوب في مراحل وظروف تاريخية معينة .

---

(5) الدكتور بلەج شيركوه، المصدر السابق، ص 90 – 91 .

وهكذا كانت قيادة حركة التحرر - الوطني في كردستان تركيا بعد الحرب العالمية الأولى محصورة بايدي رؤساء العشائر والملاكين الليبراليين، والبورجوازية الكردية النامية التي كان يمثلها الثوريون، وبدرجة اقل بعض صغار التجار، أما الجيش الرئيس للحركة فكان يتألف من عامة الشعب الكردي، وبالدرجة الرئيسة من الفلاحين وأبناء العشائر نصف المتنقلة وبقية القرويين، والذين كانوا يؤلفون ما لا يقل عن 80% من مجموع الشعب الكردي في هذا الجزء من كردستان. ولقد أدت العشائر نصف المتنقلة، التي كانت حياتها الاقتصادية تعتمد على الرعي، دوراً كبيراً نسبياً في النضال المسلح للشعب الكردي، خاصة في انتفاضة عام 1925، وحتى أن جانباً كبيراً من اتباع الشيخ سعيد نفسه كانوا من افراد تلك العشائر.

ومن المهم أن نلاحظ ان الشعور القومي مهما يكن كان اكثر تبلوراً في تلك الفترة لدى فلاحي الكرد في تركيا بالنسبة لاخوانهم في الاجزاء الأخرى من كردستان، وقد جاء ذلك كنتيجة طبيعية لاتخاذ الاضطهاد القومي هنا طابعا اشد، وكذلك لان فلاحي هذا الجزء من كردستان قد تمرسوا في مدرسة النضال القومي منذ القرن التاسع عشر اكثر من اخوتهم في الاجزاء الأخرى من بلادهم، وتعلم هؤلاء الكثير في مجالس البدرخانيين وخانقاهات النقشبندية وغيرها، ثم ان الفئة المثقفة في كردستان تركيا كانت اكثر تغلغلا في الريف من شقيقاتها في كردستان العراق، وخاصة كردستان ايران. ولكن بالرغم من كل ذلك لم تتحول طبقة الفلاحين في كردستان تركيا العشرينات بعد الى قوة اجتماعية مستقلة تستطيع التأثير المباشر على

مجريات الاحداث، وقد ترك ذلك، بدون شك، آثاراً واضحة على طبيعة ومسار مجمل حركة التحرر - الوطني للشعب الكردي في تلك المرحلة الحساسة من تاريخ تطورها .

أما وضع العمال الكرد فانه لم يكن باحسن من وضع اخوانهم الفلاحين، وكان معظم هؤلاء ينحدرون أساساً من عوائل فلاحية، او من الحرفيين السابقين، ولقد اضطر عدد كبير منهم للهجرة الى العاصمة، وبقية المدن التركية الكبيرة بحثا عن العمل، بل وان وضعهم الاقتصادي السئ للغاية قد دفع بأعداد كبيرة نسبيا منهم الى الهجرة الى مدن الولايات المتحدة الصناعية بحثا عن العمل، فقد اشار عدد من المصادر الى وجود عمال كرد في كل من نيويورك وبيبودي وشيكاغو وديترويت وبعض المدن الأخرى[6]، وكما تؤشر وثائق بريطانية خاصة سرعان ما تحول هؤلاء الى سند مادي معتبر للفئة المثقفة الكردية التي اصبح ممثلوها على اتصال مباشر بهم[7] .

أما العمال الكرد داخل كردستان نفسها فكان معظمهم من العمال الوقتيين لدى بعض المؤسسات الحكومية، او عمال خدمات، ولم يفقد القسم الاكبر منهم صلتهم بالريف، ولم يشكل

---

(6) موسى كاظم باشو زاده، الحان عادات اكراد.حياة مملكة وبعض معلومات مستحصلة، اسطنبول، 1921، ص 19 .

(7) Public Record Office , Air 23/415, X/M 04583, Kurdish ationalist Movement 18. 4. 1929 – 13. 12. 1929 , British Consulate – Detroit , No. 21 , Confidential , Michigan , 18 th April , 1929 , To : Sir Austen Chamberlain, His Majesty,s Principal Secretary of State for Foreign Affairs , London , England .

وللتفصل عن الموضوع نفسه يمكن الرجوع الى البحث الذي نشرته في ضوء ست وثائق بريطانية سرية في مجلة "رؤشنبيرى نوێ" الكردية (العدد 138، 1996، ص 2-9).

هؤلاء سوى نواة للطبقة العاملة الكردية التي كانت في العشرينيات لا تزال تمر في ظل هذا الوضع بدور التكوين، فلذا لم تستطع ان تؤدي أي دور واضح في نضال الشعب الكردي التحرري. ولكن من الجدير بالذكر ان العمال الكرد الذين تواجدوا بأعداد كبيرة في مختلف المدن التركية الكبيرة، والذين حرموا، كبقية إخوانهم، من جميع حقوقهم الاقتصادية والسياسية اندمجوا مع الحركة العمالية في تركيا، والتي دخلت مرحلة جديدة من مراحل تطورها في ظروف انتصار الثورة البورجوازية في البلاد، ولقد وردت في بعض الوثائق التاريخية عن الحركة العمالية في تركيا اسماء بعض الشخصيات والعمال النشيطين الذين كانوا، اغلب الظن، من العمال الكرد(8).

أما في كردستان نفسها فلم يتعد دور العمال القلائل الموجودين، والعمال الحرفيين في نضال الشعب الكردي السياسي حد المشاركة في النشاطات المحصورة بسكان المدن الكردية، وتأييد اخوانهم الفلاحين.

هكذا كانت لوحة تناسب القوى في حركة التحرر – الوطني للشعب الكردي في كردستان تركيا بعد الحرب العالمية الأولى، وقد حدد هذا التناسب أبعاد تلك الحركة ومسارها، وظهر ذلك بشكل واضح لاول مرة في انتفاضة عام 1925 الكبرى.

• • • •

---

(8) "Kominter i Vostok", Moscow, 1966, P. 58 .

الفصل الثالث

مقدمات انتفاضة
عام 1925 واهم وقائعها

لم تكن انتفاضة عام 1925، حالها حال معظم الانتفاضات الكردية التي سبقتها، حركة عفوية غير منظمة، بل كانت عبارة عن انطلاقة لظروف معينة استغرقت تهيأتها مدة غير قصيرة من الزمن. فبعد ان اكتشف الوطنيون الكرد في كردستان تركيا ابعاد سياسة الكماليين القومية، وعلى وجه الخصوص موقفهم من القضية الكردية، بدأوا يعيدون تنظيم صفوفهم من جديد، وفي ضوء متطلبات المرحلة الجديدة. وكانت خطوتهم الأولى في هذا المجال ان قاموا في العام 1922 بتوحيد جميع المنظمات والجمعيات السياسية الكردية في منظمة سرية واحدة تحت اسم "جمعية استقلال كردستان" التي قامت بسرعة بتأسيس فروع عديدة لها في مختلف المناطق الكردية، وكان المثقفون يشكلون القوة المحركة الاساسية لهذه الجمعية التي أقامت، من خلال تقويمها الصحيح للاوضاع السائدة، علاقات متينة مع عدد كبير من رؤساء العشائر والملاكين الليبراليين بقصد تهيئة مستلزمات النضال المسلح كمخرج اخير لاجبار البورجوازية التركية على الاعتراف بحقوق الشعب الكردي المشروعة .

كان الكماليون على علم بحقيقة الوضع في كردستان، وبدلا من التراجع عن سياستهم الشوفينية التي كانت تتعارض من كل الوجوه مع مصالح البلاد الوطنية، قاموا بتعميقها بتشديد الضغط

على القوى الوطنية الكردية، وحشد قوات عسكرية كبيرة في اهم المناطق الكردية، ففي ايلول عام 1924 تركزت ست فرق مشاة جديدة في قارص وسعرد وماردين ومديات. وكرد على ذلك حاولت "جمعية استقلال كردستان" توثيق علاقاتها اكثر مع رؤساء العشائر الكردية المتنفذة، واستغلال الاستياء العام الذي كان يسود جميع فئات الشعب الكردي.

ومن جهة أخرى اضطرت القوى الوطنية الكردية الى عقد مؤتمر سياسي سري في كانون الاول عام 1924 خارج حدود تركيا، في مدينة حلب، لدرس الوضع السياسي في كردستان ووضع الخطط الضرورية لتفجير انتفاضة عامة اعتبروها امراً لابد منه لاجبار البورجوازية التركية على التراجع عن سياستها الشوفينيه، وخططها المتشعبة لتتريك المناطق الكردية في البلاد. وتقرر في هذا المؤتمر وضع قوات الثورة المسلحة تحت قيادة الجنرال احسان نوري باشا والعقيد خالد بيك جبران، وعين يوم 21 مارت عام 1925 كساعة صفر لبدء الانتفاضة، ولاختيار هذا اليوم الذي يصادف عيد نوروز دلالته الكبيرة للمحتوى القومي لانتفاضة عام 1925 الكبرى .

ولكن بعض الاحداث، التي كان قسم منها من صنع السلطة نفسها على ما يبدو، عجلت في انفجار الانتفاضة قبل موعدها المحدد بحوالي شهر. فمثلا فسر قادة الحركة برقية النائب الكردي السابق يوسف ضياء بيك التي أرسلها من بدليس حول حدوث بعض القلاقل بين نساطرة تلك المنطقة كإشارة للبدء

بالانتفاضة[1]. ومن ناحية أخرى حدث في أوائل شباط صدام مسلح بين قوة من الجندرمة ورجال زعيم الانتفاضة الروحي الشيخ سعيد في مقره في قرية بيران، نجم عنه مقتل معظم رجال تلك القوة واسر بقية أفرادها، وحدث صدام مشابه في كنج اثر محاولة مفرزة حكومية إلقاء القبض على جماعة من اتباع الشيخ سعيد نجم عنه قتل عدد من الجنود، واسر قائدهم. وما ان علم كرد منطقة خانى المجاورة لبيران بهذه الأحداث حتى قاموا بدورهم بأسر جميع الموظفين والضباط الحكوميين في منطقتهم دون ان ينتظروا الإيعاز بذلك. ووقعت في نفس الفترة – أواسط وأواخر شباط – حركات مشابهة في مناطق كردية أخرى نجمت بالأساس عن استفزازات القوات الحكومية المستمرة، فادى كل ذلك الى انفجار الانتفاضة في أواخر شباط وبداية مارت، والتي جعلت من "استقلال كردستان" شعارها الاساس. ومن الجدير بالذكر ان السلطات الرسمية قد اعترفت بحقيقة ان استفزازاتها هي التي ادت الى انفجار الانتفاضة، فقد ذكر علي فتحي بيك رئيس الوزارة التركية في اول كلمة ألقاها أمام المجلس الوطني الكبير حول الانتفاضة انها بدأت اثر الهجوم على كنج[2].

كانت انتفاضة عام 1925 حركة واسعة شملت مناطق شاسعة من كردستان، وانضوى تحت لوائها آلاف الكرد المسلحين. فقد قدرت جريدة "تايمس" اللندنية عدد المشتركين في

---

(1) Dr. Vet. Nuri Dersimi, Kurdistan Tarihinde Dersim, Halep, 1959 S. 174 .

(2) تنظر : "العالم العربي"، 27 شباط 1925 .

الانتفاضة بعشرين الف مسلح[3]. بينما هنالك عدد كبير من المصادر الأخرى التي تؤكد ان عدد رجال الانتفاضة المسلحين كان لا يقل، على أي حال، عن اربعين الف شخص .

في الرابع عشر من شباط، أي بعد الصدام الذي حدث في بيران مباشرة، احتل الثوار داره خاني وألقوا القبض على قائمقامها وعينوا محله أحد رجال الانتفاضة، واصدر قادة الحركة هناك نظاماً خاصاً جعلوا داره خاني بموجبه "مقراً مؤقتاً للدولة الكردية"، وانتخبوا الشيخ سعيد قائداً عاماً للانتفاضة، والزم بند آخر من هذا النظام جميع الكرد بدفع ما يترتب عليهم من الضرائب والرسوم الى الخزينة المؤقتة التي اسست ايضاً في داره خاني[4] .

وحسب الخطة التي رسمها عدد من الضباط الكرد الملتحقين بالانتفاضة، وبعض المطلعين على وضع كردستان العسكري، قسمت قوات الانتفاضة الى ثلاثة اقسام رئيسة كانت مهمتها الاساسية تحرير مدن كردستان السريع. وبالفعل استطاعت هذه القوات خلال اسبوعين فقط تحرير كل من خربوط ومعمورية العزيز ودرسيم وخنس وفارتو وارغنى وجرمولا القريبة منها وملاطية وعدد آخر من المدن والقرى الكردية الكبيرة . كما اضطرت الحكومة الى اصدار اوامرها لقواتها بالانسحاب من مناطق كثيرة مثل الجزيرة وغيرها . وبعد ان حقق الثوار اولى انتصاراتهم توجه قسم كبير من قواتهم نحو كبرى مدن كردستان تركيا ، ومركزها الفكري ديار بكر ، وعلى ما يبدو وضع قادة

---

(3) ' The Times ' , April 28, 1925 .

(4) Nuri Dersimi ,Kurdistan ... , S. 176 - 177 .

الانتفاضة خطة محكمة لتحرير هذه المدينة بالتعاون مع أهلها في الداخل. وبالفعل اضطرت حامية المدينة للاستسلام اثر حصار محكم أطبقه الثوار طوال أيام عديدة حولها، وبعد معارك دامية شهدتها شوارعها. وخلال تحرير هذه المدن استطاع الثوار اسر واليين، أحدهما كان والي ديار بكر. ونشرت الصحف في الخارج عن وجود تأييد شامل للانتفاضة في ولايتي بدليس ووان[5].

حفز تحرير ديار بكر الثوار على توجيه ضربات أخرى حاسمة ضد القوات الحكومية في عدد من المناطق المجاورة، بحيث تزعزع مركز الحكومة الى حد كبير في جميع أنحاء كردستان، وقد كتب ارمسترونك بهذا الصدد يقول: " انتفضت كردستان بأسرها، فغدت كل المقاطعات الشرقية في خطر، واهتز كيان الدولة التركية الحديثة التي أصبحت تتمايل نحو السقوط. ان الدولة والأمة جابهتا خطراً مصيرياً"[6].

جذبت الانتفاضة الكردية أنظار الرأي العام التركي في الداخل، والمحافل الدولية في الخارج، فبدأت الصحف والإذاعات العالمية تنشر أخبارها، وبدأ المعلقون السياسيون يتحدثون عنها وعن دوافعها، وعن الكرد وتاريخهم وغير ذلك، فمثلاً لم يمر يوم من أيام الانتفاضة دون أن تتحدث جريدة "تايمس" اللندنية عن أحداثها، وهذا ما فعلته كبرى صحف بلدان الشرق الأوسط أيضاً.

---

(5) "العالم العربي" ، 27 و 28 شباط و1 و6 و11 اذار 1925 .

(6) H.C.Armstrong ,Grey Wolf Mustafa Kemal .An intimate Of a dictator , Arthur Barker – (ltd .) , London , 1932 , P.264 .

منذ اليوم الاول لانفجار الانتفاضة في كردستان بدأت السلطات الحاكمة باتخاذ اجراءات سريعة وواسعة بقصد اخمادها في مهدها، وكان يكمن وراء هذا الموقف، بالاضافة الى خوف الاتراك من عواقب الحركة نفسها بالنسبة لمصير كردستان، عوامل اخرى داخلية وخارجية.

فبالنسبة للداخل خشيت السلطات الحاكمة من تسرب نارها الى القوميات الأخرى في البلاد، وعلى وجه الخصوص الى البقية الباقية من الارمن المتذمرين، وكذلك العشائر العربية التي كانت تميل الى الانفصال عن تركيا، خاصة بعد اثارة مشكلة ولاية الموصل. واهم من كل ذلك كان الكماليون يخشون استغلال معارضيهم، وخاصة فلاحي المناطق الأخرى من البلاد، الوضع في كردستان لاثارة القلاقل ضد النظام الجديد .

أما على الصعيد الخارجي فقد كانت الفئات الحاكمة تخشى من استغلال بعض الدول، وعلى رأسها اليونان، لظروف تركيا الداخلية للضغط عليها. وبالفعل اتخذت الحكومة التركية في هذه الفترة بالذات بعض الخطوات التي كان من شأنها تحسين علاقاتها مع اليونان، فالغت مثلا قرارها بشأن طرد الاساقفة اليونانيين من البلاد، وطلبت الى المراجع الرسمية في اليونان انتخاب بطريرك جديد يقيم في اسطنبول بدل بطريركهم القديم.

وهكذا فعند اندلاع الانتفاضة الكردية جمع رئيس الوزراء علي فتحي بيك المجلس الوطني الكبير في 24 شباط، وشرح امامه الوضع في كردستان، والاجراءات التي يجب اتخاذها لقمعها. كما اصدر مصطفى كمال بنفسه منشوراً هدد فيه "جميع الذين يقفون ضد السلطة، او ينتقدونها"، وطلب الى الموظفين في جميع انحاء البلاد الاستمرار في أداء مهامهم الرسمية .

إن هذه التصريحات أعطت، منذ البداية، فكرة واضحة عن الخطط التي تنوي الحكومة اتخاذها ضد الانتفاضة، وكذلك عن الدوافع الكامنة وراءها. ومن المهم هنا ان نشير مرة أخرى الى ان الفئات التركية الحاكمة خشيت كثيراً من آثار الانتفاضة الكردية على الفلاحين الاتراك، فلجأت في الحال الى اصدار قرار الغت بموجبه ضريبة العشر التي كان الفلاحون حتى تلك اللحظة ملزمين بدفعها الى اصحاب الاراضي[7]، وقد استهدف هذا القرار كذلك ايجاد ثغرة بين جيش الانتفاضة - أي الفلاحين - وقيادته ، والحيلولة دون انضمام بقية فلاحي كردستان اليها. اتبع هذا القرار صدور قانون جديد في الرابع من شهر مارت حول "حماية الامن والنظام" اعطى المسؤولين صلاحيات اتخاذ ما يشاؤون من إجراءات ضد الحركة الكردية، وأي تحرك ممكن من جانب الطبقات الكادحة التركية. وبعد ذلك بثلاثة أيام، وتحت ضغط تقدم الثوار، أعلنت الوزارة التركية النفير العام بالنسبة للبالغين من العمر ما بين 23 و28 سنة[8]. كما اعيد تشكيل "محاكم الاستقلال" في الحال في كل من ديار بكر وانقرة، ومنحت سلطات واسعة جداً كي تستطيع اتخاذ اشد الإجراءات التي من شأنها إدخال الرعب في نفوس السكان، والحيلولة دون انضمامهم الى الانتفاضة. ومن الجدير بالذكر ان السلطات التي

(7) A. F. Miller, Kratkaya istoria Turtsii, Moscow, 1948, PP. 192 - 193 .

(8) M. A. Asratian, Politika Turetskik praveashikh krugov pootnoshenia k kurdskomu naselenia (1924 – 1939), (Kratkie soobsheniea instituta Narodov Azii), Moscow, Vol. XXX , 1961, P.123 .

حول الموضوع نفسه يمكن الرجوع أيضاً الى صحيفة "العالم العربي"، 12 و17 آذار 1925.

أعطيت «لمحكمة الاستقلال» في ديار بكر كانت أوسع بكثير من سلطات محكمة الاستقلال في انقرة، وحتى من سلطات جميع محاكم الاستقلال التي شكلت لأول مرة في المرحلة الأولى من الحركة الكمالية، اذ كانت محكمة ديار بكر هي الوحيدة التي منحت سلطات تنفيذية تشمل أحكام الإعدام التي كان من الضروري بالنسبة للمحاكم الأخرى عرضها على المجلس الوطني لإقرارها أولاً، ثم عرضها على رئيس الجمهورية لتصديقها او تخفيفها.

لم يكتف مصطفى كمال بجميع هذه الإجراءات، بل التجأ أيضاً الى إقالة وزارة علي فتحي بيك في اليوم الثاني من مارت، وذلك بقصد تشكيل وزارة جديدة تستطيع، برأي الحزب الحاكم، اتخاذ إجراءات اكثر حزما حتى من التي اتخذتها الوزارة القائمة. وهكذا عهد اتاتورك بتشكيل الوزارة الجديدة في اليوم التالي الى واحد من اكثر مقربيه، وهو عصمت اينونو الذي ما ان سمع بنبأ الانتفاضة حتى رجع من جزر مرمرة الى انقر ة على جناح السرعة. شكل اينونو في نفس اليوم وزارة عسكرية بحتة لم تضم بين أعضائها سوى مدني واحد هو مصطفى عبد الخالق بيك والي ازمير السابق الذي تسلم منصب وزير المالية.

كان من الطبيعي ان تتخذ الوزارة الجديدة إجراءات أقسى واشد من التي اتخذتها الوزارة السابقة. فبعد تشكيل الوزارة مباشرة طلب رجب بيك، وزير الحربية، من المجلس الوطني الكبير "تأييد التدابير الضرورية المنوي اتخاذها"، مؤكدا ان "من الضروري ان تأتي هذه التدابير بالفائدة المتوخاة وذلك لان

المانيا لم تقهر – يقصد في الحرب العالمية الأولى ك . م – الا لكونها لم تكن قاسية بالكفاية"[9].

وبالفعل منحت الوزارة الجديدة سلطات واسعة لضمان استعادة جميع المناطق المحررة من كردستان باسرع ما يمكن، خاصة بعد ان استطاع الثوار خلال أيام قلائل شل جميع القوات الحكومية الموجودة في الولايات الشرقية. ولهذا الغرض قامت وزارة عصمت اينونو بتوجيه قوات جديدة الى المناطق الثائرة قوامها ثماني فرق عسكرية ضمت، حسب بعض التقديرات، 35 الف جندي[10]. وبدات هذه القوات، مع القوات الأخرى الموجودة هناك، وبمساندة الطائرات، بهجوم عام من ثلاث جهات على اهم مراكز الانتفاضة.

ولكن جميع هذه الاجراءات، وغيرها من محاولات السلطة، لم تستطع وقف تقدم الانتفاضة الكردية، او شل نشاطها في أي من مراكزها الرئيسية. حينذاك عمدت الجهات الحاكمة الى وضع خطة واسعة لضرب الحركة من الخلف، وكان ذلك يحتاج الى تعاون سلطات الاحتلال الفرنسي في سوريا بان تسمح بنقل 25 الف جندي تركي عن طريق سوريا الى المناطق الواقعة خلف مراكز الثوار الرئيسية واهم ميادين القتال[11]، ولم يتوان الفرنسيون، الذين كانوا يحاولون منذ سنوات التقرب من النظام الجديد في تركيا، في إيداء أي مساندة يرتأيها الكماليون، وبالفعل

---

(9) مقتبس في "العالم العربي"، 18 آذار 1925.

(10) Lord Kinross, Op. Cit, P. 400; "The Times", April 28, 1925.

(11) M. A. A. sratian, Op. Cit., P. 123; علي سيد الكوراني

من عمان الى العمادية او جولة في كردستان الجنوبية، عمان، 1939، ص 247 .

فتحوا حدود سوريا امام جحافل القوات التركية التي دخلت من الجنوب الغربي، وبشكل غير متوقع بالنسبة للثوار الكرد، الى كردستان وذلك عن طريق الجزء الواقع من سكة حديد بغداد المعروفة داخل سوريا، والذي انتقلت ملكيته بعد الحرب العالمية الأولى من الالمان الى الفرنسيين، واصبح يعرف بسكة حديد سوريا الشمالية.

ساعد هذا الموقف من الفرنسيين بشكل مباشر على تغيير ميزان القوى رأساً لصالح القوات التركية التي كانت حتى تلك اللحظة في تراجع مستمر امام ضربات الثوار، وقد استهدف هجوم القوات التركية الجديد استرداد المدن الكردية المحررة قبل كل شئ. فبعد معارك دامية، اسفرت عن عزل مناطق الانتفاضة عن بعضها ، استطاعت القوات الحكومية احتلال مدن ماردين وديار بكر وخربوط من جديد، واستشهد خلال هذه المعارك عدد كبير من الثوار. ففي التاسع والعاشر من اذار حدثت معارك عنيفة بين الثوار والقوات الحكومية في ديار بكر، استغرقت حرب الشوارع منها حوالي 24 ساعة، اضطر الثوار على اثرها الى الانسحاب تاركين وراءهم خسائر جسيمة[12]. وباعتراف وزير الحربية التركي نفسه استشهد في مدينة خربوط ما لايقل عن مائة ثائر كردي، واسر واحد وخمسين منهم[13].

مهدت هذه الضربات المفاجئة الطريق أمام تقدم القوات الحكومية السريع، خاصة في نهاية مارت وأوائل نيسان، فقد

---

(12) Lord Kinross , Atataurk. A . Biography of Mustafa Kemal, Father of Modern Turkey, New York, PP. 453 – 454;

"العالم العربي"، 12 آذار – 1925.

(13) "The Times" , February 28 , 1925 .

اضطر ثوار منطقة ديـــاربكر للــتراجع نحــو الشــمال، كمــا استطاعت القوات الحكومية التقدم في مناطق الجناح الغربي مــن الانتفاضة بحيث اقتربت من ارغانة، وفي الوقت ذاته اسـتطاعت القوات الحكومية، التي دخلت خنس، التقدم نحو مدينـــة فــارتو واحتلالها بعد معركة كبيرة وقعت في ضواحيها، وأجبرت الكرد على التراجع الى كنج.

مع كل هذا التقدم ظلت السلطات الحاكمة ترسل تعزيـــزات جديدة عن طريق سوريا، وهذا ما أعطـــى القــوات المتقدمــة إمكانية إعادة احتلال مناطق كثيرة بين موش فـــارتو، وتــهديد اتصال الثوار بالمناطق الشرقية المحــررة. وبعــد ان اســتطاع الاتراك تحقيق انتصارات حاسمة فــي المنــاطق القريبــة مــن ارغانة وداره خانى اضطرت معظم القوات الثائرة للتراجع الـــى منطقة جوق سر. ومع ذلك فقد استمرت المعارك فـــي بعــض المناطق الأخرى أيضاً، فبعد دخول القوات الحكومية الى مــوش تقدمت بعض القوات الكردية نحو منطقة ملزكرد، واســـتطاعت هنا صد القوات التركية والتوجه للعمل مــن اجــل إيجــاد رأس جسر للاتصال مع مراكز الانتفاضة في المناطق الشرقية، ولكــن الاتراك اتخذوا بعض الإجراءات السريعة للحيلولة دون ذلـــك، فحشدوا قوات كبيرة جديدة في المنطقة استطاعت احتلال بــالوو بيران وبعض المناطق السوقية الحساسة في المنطقة، ممـــا أدى الى انقطاع مراكز الانتفاضة عن بعضها بشكل نهائي، وقد اجبر هذا الثوار الكرد على التراجع بشكل غير منظم الـــى المنــاطق الجبلية الوعرة حيث بدءوا من هناك يزاولون حرب العصابــات ضد القوات التركية المتقدمة.

أنقذت انتصارات الجيش التركي المتوالية نظام الكماليين من مخاطر كثيرة. فبعد دحر الثوار في ديـــار بكــر وضواحيـــها، وتدمير جميع القرى الواقعة هناك جمع رئيس الوزراء عصمــت اينونو "حزب الشعب" الحاكم وشرح لقادته الموقف في كردســتان مؤكدا انه "لا ينتظر ان يقوم الاكراد الثوار بـــهجوم آخــر فـــي المستقبل" على هذه المنطقة[14].

وفي بداية نيسان ألقى اينونو كلمة مفصلة عـــن الانتفاضــــة الكردية أمام المجلس الوطني الكبير شرح فيها حراجــة موقــف الحكومة طيلة شهر مارت، كما تكلم عن مراحل اعادة احتـــلال المناطق الكردية التي حررها الثـــوار الكـــرد، واعــترف بـــان "المتمردين ثبتوا اقدامهم في المنـــاطق الجبليـــة، ومـــن هنـــاك يزاولون مقاومتهم ، ونقلوا اليها تنظيماتهم"، ثـــم اختتـــم كلامــــه قائلا: "ستتحول تلك الجبال، ان عاجلا او آجـــلا، الـــى لحدهـــم الوحيد"[15].

كانت محاكم الاستقلال تتمم فظائع الجيش التركي باســـلوب اخر. ففي بداية شهر نيسان فقط اصدرت هذه المحـــاكم حكمـــها بشنق ثلاثين من قادة الحركة الكردية، وكان من بينهم كل مـــن النائب السابق يوسف ضياء بيك والعقيد خالد بيك جـــبرانلى[16]. ومن الجدير بالذكر ان احكام الاعدام التي كانت تصدرها هـــذه المحاكم كانت تنفذ، في الاغلب، في اليوم نفسه، مما اثـــر، دون شك، على معنويات الناس، خاصة فـــي المـــدن حيـــث كـــانت

---

(14) "العالم العربي"، 19 آذار 1925 .

(15) "The Times" April 9, 1925 .

(16) "The Times" April 16, 1925 .

السلطات تحاول عن قصد إدخال الرعب في نفـــوس الســـكان، فكانت لذلك تنفذ الاحكام في الغالب في الساحات العامة.

وهكذا استطاعت الحكومة التركية إعادة ســـيطرتها علـــى معظم اجزاء كردستان التي لم يبق منها بيد الثوار ســـوى عـــدد قليل جدا من المناطق والقرى الحصينة، بما فيـــها داره خـــاني. ولكن حتى ذلك لم يدم طويلا اذ سرعان ما قامت قـــوة كبـــيرة بهجوم ساحق على داره خانى، وبعد معركـــة داميـــة اســـتمرت خمس ساعات كاملة قاد الشيخ سعيد بنفسه فيها الثوار، اضطرت القوات الكردية المتمركزة هنا للتراجع والتفرق فـــي المنـــاطق المجاورة[17].

وقد تراجع الشيخ سعيد نفسه مع عدد قليـــل مـــن اتباعـــه المسلحين الى ارشين، والتحقوا بالقوة الصغيرة التي كانت فـــي صحبة الشيخ عبد الله. وبعد ان استطاعت القوات الحكومية فـــي 12 نيسان اعادة احتلال آخر معاقل الحركة الكردية فـــي كنـــج اضطر الشيخ سعيد مع تسعة من رؤســـاء العشـــائر الكرديـــة، وخمسة وعشرين مسلحاً، للانسحاب باتجاه الحـــدود الايرانيـــة، ولكن القوات التي كانت تلاحقهم تمكنت من اسرهم على جســـر مراد جاي قبل ان يستطيعوا العبور الى الجانب الايرانـــي مـــن الحدود، اذ كانت السلطات قد اتخذت جميع الاجراءات اللازمـــة للحيلولة دون ذلك، وقد نقل الشيخ سعيد على جنـــاح الســـرعة، وتحت حراسة مشددة، الى مدينة ظارتو، وحين تفتيشه وجـــدوا معه قصاصات جرائد معروفة كتبت عن الانتفاضة الكردية[18].

---

(17) "The Times", April 13, 1925 .

(18) "The Times", April 1.7, 1925 .

نقل الشيخ سعيد من ظارتو مخفوراً الى ديار بكـــر ومعــه حوالي ثلاثين من رجال الانتفاضة. ويتحدث اللورد كيـــنروس، الذي يأتي على رأس المؤلفين الذين كتبوا العديد من الكتب عــن الحركة الكمالية، والمعجب بشخص مصطفى كمال، يتحدث عــن وصول الشيخ سعيد الى دياربكر بالاسلوب التالي "لقـــد جـذب انظار كل الناس. كان طويلاً نحيفاً لفحت الشمس جلده، وكـــان يسير مرفوع الرأس، بينما كانت الطائرات تحلق فوق الـــرؤوس وتطلق الألعاب النارية في الهواء، وقـــد اســتقبله المســؤولون باحترام، وسألوه عما إذا كانت سفرته متعبة، فرد عليـــهم قـــائلاً بأن كل العمليات كانت متعبة، وعن استفسارهم عن صحته حيث سمعوا بانه كان مريضاً، قال بانه احسن الآن، ولكنه لايســتطيع ان يأكل. وقد وعد بانه يعامل بالحســنى، وســوف يعتنـــي بـــه طبيب، ووسط أصوات آلات التصوير اخذ بعيداً" [19].

اعتبرت الأوساط الرسمية في العاصمة اعتقال الشيخ ســعيد نهاية للانتفاضة الكردية، فأوقفت إصدار "البيانـــات العســكرية" حول الوضع في كردستان، التي كانت تصدر بشكل منظم منـــذ الإعلان الرسمي عن انفجار الانتفاضة. وقد التجـــأت الأكثريـــة الساحقة من الثوار الكرد الذين نجوا من القتل والأسر الى قمـــم وكهوف جبل شرف الدين الذي يقع في الشمال الغربـــي مـــن مدينة موش. ولكن لم يمض وقت كبير حتى حوصروا بدورهـــم من قبل القوات التركية التي قضت على أكثريتهم بأساليب فـــي غاية الوحشية هناك، ومع ذلك فقد استمرت حرب العصابات فـي

(19) Lord Kinorss , Ataturk – the Rebirth of Nation, P. 401 .

بعض المناطق، مما اجبر الكماليين على إصدار قرار خاص في يوم العشرين من نيسان حول تمديد الأحكام العرفية في كردستان والمناطق المجاورة لمدة سبعة اشهر أخرى، كما مددت، في الوقت ذاته، أعمال "محاكم الاستقلال" في كل من ديار بكر وانقرة لمدة ستة اشهر أخرى[20].

وفي الواقع، وبالرغم من جميع الضربات القاسية والاساليب الوحشية التي اتبعت بدون تفريق ضد الثوار والسكان الآمنين، استمرت مقاومة الفصائل الثائرة عملياً الى نهاية العام 1925. ففي اواسط مايس دبر الثوار هجوماً مباغتاً على الحامية العسكرية الموجودة في مدينة دياربكر، قتلوا خلاله عدداً كبيراً من الضباط، من بينهم الامير الاى علي رفعت بيك، وجرحوا عدداً اكبر، بحيث ضاق بهم مستشفى ديار بكر، فاضطرت السلطات العسكرية الى نقل قسم منهم الى مستشفى اظنة[21]. وفي نهاية تشرين الثاني نشرت جريدة "ستاره ايران" نبأ ملاحقة بعض المتمردين الاكراد من قبل القوات التركية الى داخل الحدود الايرانية ولكن في ظروف اعتقال وهرب او مقتل معظم قادة الانتفاضة، والضغط الشديد من كل الجهات، لم تتمكن هذه الحركات، التي اتخذت في الغالب طابعاً عفوياً اضطرارياً، من التلاحم من جديد على شكل انتفاضة منظمة، فكان مصيرها، والحالة هذه، التلاشي السريع.

وهكذا انتهت انتفاضة عام 1925 الكبرى في كردستان تركيا التي هزت كيان النظام، وكشفت الوجه الحقيقي لسياسته تجاه

---

(20) M.A.Asratian, OP . Cit , PP. 123-124 .

(21) "العراق" (جريدة)، بغداد، 30 ايار و1 حزيران 1925 .

قضايا الشعب المصيرية في الداخل. ولم تعط المصادر الرسمية معلومات واضحة عن الخسائر التي لحقت بالخزينة والقوات الحكومية للقضاء على الانتفاضة، والخسائر التي لحقت بالشعب الكردي جراء ذلك، إلا انه توجد بعض الوثائق والدلائل الأخرى التي يمكن عن طريقها تكوين فكرة واضحة عن مدى جسامة تلك الخسائر. لقد تحملت الفرقتان السابعة والثامنة من الجيش التركي، وكذلك كتائب الفرسان اكبر الخسائر التي نجمت عن ضربات الثوار الكرد، وعلى وجه الخصوص في المرحلة الأولى من اندلاع الانتفاضة، ولا يوجد رقم رسمي حول عدد قتلى وجرحى القوات الحكومية، إلا ان المدعي العام التركي اشار اثناء محاكمة الشيخ سعيد ورفاقه الى "مقتل الالاف من الجنود المخلصين"[22].

ولا شك أبداً في ان انتفاضة عام 1925 قد ألحقت أيضاً خسائر مادية جسيمة بخزينة الدولة. ففي شهر مارت، أي في أخطر أيام الانتفاضة، أعلن وزير المالية التركي عن إصابة الخزينة بعجز مالي كبير في حدود 30 مليون ليرة تركية. وفي بداية الحركة وافق المجلس الوطني الكبير على صرف عشرة ملايين ليرة تركية في سبيل قمعها[23].

ولكن كل ذلك لا يعطي، بدون شك، فكرة دقيقة عن المبالغ التي صرفت فعلياً للقضاء على الانتفاضة، وهنالك اختلاف في تقديرات مختلف المصادر المتوفرة حول هذا الموضوع، فقد

---

(22) Quoted in : "The Times" , May 29 , 1925 .

(23) "العالم العربي"، 17 آذار 1925 .

قدرت جريدة "تايمس" اللندنية المبالغ التي انفقتها الدولة للقضاء على الانتفاضة بعشرين مليون ليرة تركية[24]، بينما تقديرات الدكتور بله ج شيركوه بهذا الصدد تبلغ حوالي 60 مليون ليرة[25].

ومهما يكن من أمر فقد خصصت الحكومة في تلك الفترة مبالغ خيالية في الميزانية لوزارة الدفاع، اذ انها كانت تشكل 39 بالمئة من ميزانية الدولة[26].

اتبع الكماليون أثناء، وبعد قمع الانتفاضة، سياسة ارهاب، ليس لها مثيل لحد ايام الحرب العالمية الثانية، وليس في ذلك أدنى مبالغة، او تهويل للامر، فقد بدأت القوات التركية هجوما على مختلف المناطق الكردية بشكل هستيري، ولم تكن تفرق بين النساء والشيوخ والاطفال الذين كان ينتظرهم ابشع انواع الموت، والذي كان يتبعه نهب اموالهم وحرق قراهم. وقد كتب المؤلف الفرنسي جانتيزون معلقا على ذلك ما يلي: "الاف جثث الضحايا كانت تغطي السهول والتلال، اما القرى فانها دمرت نهائياً"[27].

أما ارمسترونك فانه كتب حول نفس الموضوع يقول: " عملت النار والسيف والسهم عملها في تدمير كردستان، فالرجل الذي كان يعتقل ما كان يقتل الا بعد تعذيب شديد، اما القرى فكانت تحرق، والمزارع والبساتين تدمر، والنساء والاطفال كانوا يعلقون على اسنة الحراب بعد الاعتداء على شرفهم. ان

---

(24)" The Times" March 28 , 1925 .

(25) الدكتور بله ج شيركوه، المصدر السابق ص 79 .

(26) A. M. Asratian, OP . Cit . , P. 124 .

(27) Quoted in : Ibid, P. 124 .

اتراك مصطفى كمال اعادوا مع الكرد ما فعله سلاطين آل عثمان مع اليونان والارمن والبلغار"[28]. وكما تشير بعض المصادر فقد تم في كردستان تركيا في الفترة ما بين عامي 1925 و1926 تدمير 206 قرى مع 8758 داراً، وقتل اكثر من 15 الف شيخ وامرأة وطفل برئ من السكان الآمنين فقط[29]. كما لقي الالاف حتفهم خلال عمليات التهجير القسرية التي اولتها الفئة الحاكمة اهتماما خاصا لاعتقادها بانها خير وسيلة لـ "حل" القضية القومية في البلاد .

ومن الجدير بالذكر انه توجد بعض المصادر التركية التي اشارت بدورها الى الفظائع التي ارتكبتها السلطات التركية ضد الشعب الكردي، فمثلاً سجل الشخصية التركية التقدمية س. اوستونكول، الذي شهد جزءاً قليلاً من مأساة الشعب الكردي من خلال قضبان معتقلة، سجل في مذكراته هذه المأساة الانسانية " في كل يوم كان الجنود يأخذون الاكراد المعتقلين على شكل جماعات الى ضفاف دجلة المنحدرة، وهناك كانوا يطلقون عليهم الرصاص ثم يعودون ليبيعوا الاحزمة الحريرية المطرزة للشبان الكرد داخل السجن "[30].

أثارت هذه الأعمال اللاإنسانية جميع الاقليات القومية داخل تركيا، فعبر الاثوريون عن استيائهم الشديد من هذه الفظائع في

---

(28) Quoted in : Ibid, P. 124 .

(29)"Mermorandum sur la situation des Kurdes et leurs revendications", Paris, 1948, P. 15 .

(30)S. Ustiongl, V teorme i na vole. Zapiski Turetskovo Kommunista, Moscow, 1952, P. 19 .

الرسائل التي بعثوها الى عصبة الامم فـي آب عـام 1925[31].
وحتى السلطات التركية نفسها ادركت مدى فظاعة الجرائم التـي ارتكبتها بحق الشعب الكردي، وخشيت حدوث رد فعـل قـوي ضدها لدى الرأي العام العالمي، لذا جعلت من الولايات الشـرقية منطقة محرمة على الاجانب. لم يكتف الكماليون بقتـل الالاف، وتشريد عشرات الالوف بل شددوا أيضاً من سياستهم الشـوفينية الرامية الى القضاء على القيم الروحية للشعب الكردي، فمنعـوا رسمياً استخدام اللغة الكرديـة، وارتـداء الملابـس القوميـة، وهجروا الالاف الى المناطق التركية النائيـة حيـث وزعوهـم بنسب قليلة بين سكانها بقصد صهرهم، وامتلأت سجون تركيـا جميعها بالفلاحين والفقراء الاكراد، اما مصير قـادة الحركـة، وكل من لعب حتى دوراً ثانوياً في قيادتها او تنظيمها، فقد كـانت اعواد المشانق التي شهدت ديار بكر وغيرها من مدن كردسـتان تركيا العشرات منها، والتي روت احداثها في آن واحـد مآسـي انسانية كثيرة، وقصص بطولة خالدة تحتل صفحات بارزة فـي تاريخ النضال العادل للشعب الكردي. ففي يوم السابع والعشـرين من مايس نفذت احكام الاعدام بحق سبعة مـن قـادة "جمعيـة استقلال كردستان"، من بينهم الدكتور فـؤاد والمحـامي كمـال فوزي صاحب جريدة "ژين" الكردية، وعضو مجلـس الاعيـان السابق الشيخ عبد القادر النهري الذي عرف بتاريخـه الحـافل بالنضال وبثقافة عالية، وقد شنق معه اثنان من اولاده. ومن بيـن الذين شنقوا في ديار بكر في اليوم الحادي عشر من ايار كـان

---

(31) A. M. Asratian, Op. Cit, P. 124.

مفتي المدينة الشيخ عبد الحميد افندي وولداه عبد الوهاب ومحمد اللذان اتهما بمساعدة الثوار، وقد شنق عبد الوهاب، الذي هتـف على المشنقة – بحياة الوطن – امام والده واخيه اللذين نفذ فيهما الحكم بعد ذلك مباشرة. وفي الاول من حزيران تم تنفيذ احكـام الاعدام بحق 15 من الثوار في خنس، بينهم الاخـوان يوسـف وضياء بكري[32].

أما بالنسبة للشيخ سعيد ورفاقـه فقـد باشـرت "محكمـة الاستقلال" في ديار بكر محاكمتهم في السابع والعشـرين مـن ايار، أي في نفس اليوم الذي تم فيه تنفيذ حكـم الاعـدام بحـق السيد عبد القادر النهري وصحبه، وقـد اسـتغرقت محاكمتـهم شهراً كاملاً، حيث اصدرت المحكمة حكمها بشنقهم في السـابع والعشرين من حزيران، وتم تنفيذ الحكم بحقهم في اليوم التـالي ليلاً، وفي وسط مدينة ديار بكر في السـاحة المقابلـة للمسـجد الكبير في المدينة.

ومن الجدير بالذكر انه حضر محاكمة الشيخ سعيد عدد مـن اعضاء المجلس الوطني الكبير الذين جلسوا في محـل مجـاور للمدعي العام، زين بعلم احمر تركي كبير كاحتجاج رمزي ضـد العلم الكردي الذي رفعه الثوار. وكما يروي اللـورد كيـنروس كان الشيخ سعيد مسيطراً على أعصابه أثناء محاكمتـه، وحتـى انه كان يمازح الحكام. أما عن شنقه مع رفاقه فقد كتب يقـول: " شنق الشيخ سعيد مع حوالي أربعين شخصاً، تسعة منهم كـانوا من الشيوخ، أمام مسجد ديا ر بكر، انـهم مـاتوا بشـجاعة ..

---

(32) "العراق"، 1 و 2 حزيران 1925 .

وتوجه الشيخ مبتسماً الى رئيس المحكمة قائلاً: أتمنى لكم الخير ولكن سوف نصفي الحساب في يوم القيامة. وبعد ذلك توجه الى القائد العسكري قائلاً له: تقدم أيها الجنرال وقل لعدوك الى اللقاء. ولقد وقف بهدوء عندما وضع الحبل حول عنقه، وشنق دون ان ينطق كلمة أخرى"[33].

وهكذا، وبهذا الأسلوب فقط، استطاع الكماليون غرق انتفاضة عام 1925 الكبرى، وجميع كردستان تركيا في بحر من الدماء. ومن الجدير بالذكر انه لم يقتصر الضغط والإرهاب على الكرد وحدهم، بل حاول الكماليون من خلال فرصة الانتفاضة الكردية ضرب معارضيهم من أقصى اليسار الى أقصى اليمين، فاعتقل الكثيرون، وألغيت حرية الصحافة، وأغلقت وزارة عصمت اينونو جريدة "توحيد أفكار" المستقلة الواسعة الانتشار، كما اضطرت جريدة "طنين" ثاني كبرى جرائد تركيا، للامتناع عن نشر الأخبار السياسية، او التعليق عليها، وزاد الضغط على المعارضة التي اتهم مختلف أجنحتها بالعمل لتحريض الكرد ضد السلطة، وتم في الثالث من حزيران عام 1925 منع نشاط "حزب التقدم – الجمهوري"، كما اتخذت إجراءات كثيرة أخرى ضد مختلف القوى السياسية في البلاد.

• • • •

---

(33) Lord Kinross , Ataturk – the Rebirth of Nation , PP. 401 – 402 , L .Kinross , Ataturk . A Biography … , PP . 453 – 459 .

الفصل الرابع

واقع طبيعة انتفاضة 1925

في الفصول السابقة تكلمنا بشئ من التفصيل عن العوامل والقوى المحركة وتناسب القوى الطبقية في انتفاضة عام 1925 في كردستان تركيا، وأهم أحداثها التي شوه وجهها الحقيقي من قبل عدد كبير من المؤرخين الأجانب الذين قيموها كحركة رجعية، وفتنة من صنع الاستعماريين، أو كحركة دينية متأخرة استهدفت وقف عجلة التطور في تركيا. ولكن دراسة هذه الاتهامات من جميع الأوجه، وتحديد جذورها ومنابعها في ضوء الوثائق والحقائق التاريخية التي تطرقنا أليها في الفصول السابقة، وغيرها من الأدلة التي نعرضها في هذا الفصل وما بعده ستساعدنا على تحديد طبيعة انتفاضة 1925 التحررية، وبذلك يمكن دحض جميع الافتراءات والآراء السطحية التي قيلت بحقها من مصادر مختلفة.

قبل كل شئ يجب أن نأخذ بنظر الاعتبار ان حقيقة مصدر جميع التهم التي ألصقت بانتفاضة عام 1925 منذ الايام الأولى لاندلاعها هو البرجوازية التركية الحاكمة نفسها، التي استهدفت من ذلك أمرين هامين مترابطين فيما بينهما. فالكماليون كانوا يحاولون تشويه الوجه الحقيقي لمجمل حركة التحرر - الوطني للشعب الكردي بتصد عزلها، قبل كل شئ، عن الجماهير التركية، وخاصة الطبقات الكادحة المناهضة لهم. وفي الواقع استطاع الكماليون الضرب على وتر الشعور القومي الحساس

لدى هذه القوى بشكل جعلها لّا تكتفي بعدم الوقوف الى جـــانب قضية الشعب الكردي العادلــة، بـل انــها استسـاغت جميـع الاجراءات الدموية اللاديمقراطية التي اتخذت ضده. وفي نفــس الوقت استهدف الكماليون عزل الحركة الكردية عن الرأي العــام العالمي بطمس جميع الحقائق المتعلق بها. وخلق سلسـلة مــن الافتراءات التي لها وقعها في العالم الغربي. فبالنسـبة للداخـل صورت الحركة وكأنها من صنع الانكلـيز، وشـركات النفـط، وبأنها موجهة ضد مصالح الشعب الـتركي العليـا، وبالنسـبة للخارج صورتها وكأنها حركة دراويش تريد الوقوف أمام زخـم الحضارة الاوربية الحديثة. وبالفعل أعطت هذه الاتهامات فـي الحالتين جميع النتائج التي استهدفتها منها البرجوازية التركيـة. وهكذا بدأت صحف أنقرة منذ الايام الأولى لاندلاع الانتفاضـة تنشر على نطاق واسع فرية مفادها ان السلطات استولت علـى رسائل بعثتها شركات النفط الانكليزية الـى زعمـاء الحركـة الكردية. وأقوال الجريدة التركية الواسعة الانتشـار "حـاكميت مللي" التي كانت تصدر في أنقرة تعطي صورة واضحة بالنسـبة لهذا الموضوع. فقد كتبت هذه الجريدة في عددها الصـادر فـي السابع والعشرين من مارت عام 1925 تقول "لقد كـانت ابعـاد الحركة الكردية ابعد مما كان متوقعا". وهي "ليست ناجمة عـن شعور في الداخل". وتذهب الجريدة في نفس العدد الى أبعد مـن ذلك حين تؤكد ان لدى المسؤولين "وثائق كثيرة"، ولكن ، كمـا أدعت الجريدة، "لم يحن وقت نشرها بعد". ان أسلوب مثل هـذا الادعاء يظهر بجلاء حقيقة دعايات السـلطة والصحافـة ضـد الانتفاضة، والا فأن خير وقت لنشرها تلك الوثائق، لو كان لـها

وجود، كان أيام الانتفاضة بالذات، ولكن لم يحن الى يومنا هـذا الوقت - المناسب - لنشر تلك الوثائق، وعلى مايبدو فأنه لـن يحين أيضاً. كانت الصحف الكمالية تنشر قضايا اكثر مدعاة للسخرية حتى من تلك. صحيح أن تلك الصحف كانت تتهم الانكليز أكثر من أية جهة كمحرضين على الانتفاضة، الا انها لم تتورع، في الوقت ذاته، عن إلصاق نفس التهمة بجهات أخرى من أقصى اليمين الى أقصى اليسار. فقد كتبت جريدة "تايمس" اللندنية في أيام الانتفاضة عن محاولات الصحف التركية اتهام الجميع من "اليونانيين والفرنسيين والروس والطليان والارمن كمحرضين على الحركة"[1]. ان هذا الخبر دليل على ان الكماليين كان يهمهم أمر واحد، وهو تصوير الانتفاضة وكأنها مستوردة من الخارج وليست نابعة من ظروف كردستان نفسها، وإلا فما الذي كان يجمع بين البلاشفة الروس والمستعمرين الفرنسيين والطليان الفاشست (تسلم موسوليني السلطة في نهاية تشرين الأول عام 1922) والأرمن المشردين، على صعيد واحد بالنسبة لقضية حساسة كالقضية الكردية. وفيما بعد، وفي السياق ذاته وصل الأمر بالدعاية التركية حد الادعاء بعقد إجتماعات خاصة بين "لورانس العرب" وعدد من الزعماء الكرد لوضع الخطط اللازمة للانتفاضة[2] في الوقت الذي كان لورانس في تلك الفترة منهمكاً بإنجاز مهام كبيرة ضد الاتحاد السوفيتي وافغانستان، وكان يتنقل لهذا الغرض بين لندن وكراجي وبشاور. ولكن، وبالرغم من كل ذلك ،فقد حققت

(1) "The Times", April 28, 1925.
(2) " The Times ", August 27, 1931.

الدعاية الكمالية جميع أهدافها وبنجاح ملحوظ، فقد استطاعت هذه الدعاية تصوير الحركة الكردية في ثوب هيجان مجموعة كبيرة من رجال الدين والدراويش المتأخرين الذين يحاولون دفع عجلة الحضارة في تركيا الى الوراء بقرع الطبول وضرب السيوف. ومن الجدير بالذكر انه لم تقع الصحافة الغربية وحدها تحت تأثير هذه الدعاية، بل أنها وجدت لها صدى حتى بين جميع الصحف السوفيتية، وبهذا الأسلوب فقط استطاع الكماليون عزل الحركة الكردية عن كل سند خارجي ممكن، بل وحتى من مجرد عطف الرأي العام العالمي. وبنفس الطريقة استطاعت البرجوازية التركية عزل الحركة الكردية عن الطبقات الكادحة التركية التي أصبحت تنظر بشك الى نضال الكرد، وأعار الكماليون هذه الناحية أهمية خاصة، لأنهم كانوا يخشون كثيراً من تأثر الفلاحين الأتراك المتذمرين بالحركة الكردية والانضمام اليها. ومن الأدلة الهامة على هذه الحقيقة أن الكماليين لم يقتصروا في إعلانهم للأحكام العرفية على المناطق الكردية وحدها، بل شملت هذه الأحكام جميع المناطق المجاورة والمحيطة بكردستان من البلاد التركية. ومن المهم أن نشير الى أنه بالرغم من ذلك انضم قسم، ولو قليل، من الضباط والجنود الأتراك الى الثوار[3]، ولا نشك في أن دوافعهم لاتخاذ مثل ذلك الموقف المشرف كانت إنسانية بحتة، وأن هذه الظاهرة كانت تتسع وتعطي ثمارها لولا قمع الانتفاضة السريع من جانب القوات الحكومية، وأن هذه الحقيقة تبين لنا الى حد ما مدى قصر نظر المنظمات الكردية التي لم تحاول لا قبل الانتفاضة،

---

(3) A. M. Asratian, Op. Cit., P. 133; "العالم العربي" 11 آذار 1925

ولا أثناءها الاتصال بشكل منظم بـــالقوى التقدميـــة المعارضـــة للكماليين، وعرض المضمون والاهداف الحقيقية للحركة الكردية عليها. وبالطبع لم تستطع القوى السياسية الكرديـــة بعـــد تقييـــم أهمية هذه المسألة كما يجب، فلذلك اقتصرت محاولاتها القليلـــة بهذا الصدد على ممثلي بعض القوى التي أفـــل نجمـــها علـــى المسرح السياسي للبلاد، أو كان في طريـــق الأفـــول. كمـــا أن القوى السياسية التقدمية التركية لم تبلغ، هـــي الأخـــرى، ذلـــك المستوى من النضـــوج الـــذي يســـمح لـــها فـــهم "المضمـــون الديمقراطي العام" الموجود في حركة كل شعب مضطهد كما أكد ذلك أكثر من مفكر تقدمي، وفي أكثر من مناسبة .

إن نتائج الاتهامات التي ألصقت بانتفاضة عـــام 1925 لـــم تقتصر على أيام الانتفاضة نفسها، بل أنها وجدت لـــها الطريـــق أيضا الى الدراسات العلمية المكرسة لتاريخ تركيـــا المعـــاصر، والتي تتطرق، بشكل أو بآخر، الى موضوع الانتفاضة كحـــدث مهم في السنوات الأولى من عمر النظام الجمهوري في البـــلاد. ولم يقتصر هذا التأثير على المؤرخين البرجوازيين فحسب، بـــل تعداهم الى دراسات عدد غير قليل من المؤرخين التقدميين أيضاً ، الذين اعتبروا الانتفاضة بدورهم "تمرداً" و"فتنـــة" و"عصيانـــاً" رجعياً[4]، هذه الصفات الملازمة لجميع الحركات والانتفاضـــات الكردية بدون استثناء حسب تقويمهم لها. فقبل كل شئ لا يصـــح، من وجهة نظر علمية ، اطلاق نعوت كـــ "الفتنة" والعصيـــان" إلا على الحركة التي تقتصر على (حلقة ضيقة من المتـــآمرين، أو

---

(4) منهم المتخصص المعروف في الدراسات التركية البروفيسور أ. ف. ميللر. ينظر على سبيل المثال : A. F. Miller , krakaya Istoria Turtsii , Mqscow , 1948 , PP. 192-193 .

من المهوسين الحمقى، الحركة التي لا تستثير أي عطف بين الجماهير)(٥)، ولا يخفى على أي مطلع أن هذه الشروط لم تتوفر حتى بابسط اشكالها في انتفاضة عام 1925، التي لم تقتصر على حلقة ضيقة من المتآمرين بل ضمت مختلف فئات الشعب الكردي، بما في ذلك اكثر فئات هذا الشعب وعياً واطلاعاً، كما أنها باعتراف جميع صحف العالم، وحتى باعتراف الأتراك أنفسهم استثارت الجماهير الكردية الواسعة، وشملت منطقة شاسعة امتدت من ملازكرد في الشرق الى ملاطية في الغرب، ومن درسيم في الشمال الى ماردين في الجنوب، واستمرت لعدة أشهر، وأثارت، كما نأتي الى ذكر ذلك، الشعور القومي لا في كردستان تركيا فحسب، بل في جميع أجزاء كردستان، وبشكل نحس بآثاره الى يومنا هذا، ولم يكن كل ذلك سوى مظاهر وتعابير لحقيقية كون انتفاضة عام 1925 أعلى نقطة تطور في مسيرة حركة التحرر- الوطني للشعب الكردي الى ذلك الحين.

وبالرغم من ان الحقائق التي تطرقنا اليها حتى الآن تثبت بشكل لا يدعو الى الشك أن انتفاضة عام 1925 لم تكن "مجرد حركة دينية رجعية استهدفت وقف عجلة التطور في تركيا" كما حاولت الصحف التركية، وعدد من المؤرخين تصويرها، بالرغم من ذلك هنالك بعض الحقائق التاريخية المهمة التي تزيح الستار بشكل أفضل عن مثل هذه التهم. فقبل كل شئ لم تكن سياسة الكماليين بالنسبة لمسألة الدين سوى استمرار لسياسة أسلافهم الاتحاديين، فظلوا يتحركون في نفس الإطار الى ما بعد

---

(5) V. I. Lenin , Polone Sobranie Sochinenia , 5th ed . , Vol . 30 , Moscow , 1965 , P. 53 .

القضاء على الانتفاضة الكردية، والشئ الجديد الوحيد الذي أقدموا عليه كان إلغاء الخلافة الذي برز كمهمة ملحة أمام البرجوازية التركية بعد الحرب العالمية الأولى، بينما لم تتوفر إمكانيات وشروط تحقيقه في عهد الاتحاديين قبلهم، وإلا فأن الكماليين اعترفوا في دستورهم الجديد الذي سنوه قبل اندلاع الانتفاضة الكردية بالإسلام ديناً رسمياً للدولة، ولم يمسوا هذا البند الا في التاسع من نيسان عام 1928، أي بعد القضاء على الانتفاضة بثلاث سنوات. بينما لم يدفع لا هذا، ولا سياسة الاتحاديين من قبلهم الكرد الى حمل السلاح ضد السلطة، على الأقل لأنه حتى إلغاء ذلك البند لم يعن، كما يذكر المؤرخ السوفيتي ا. نوفجيف أن "مسؤولي تركيا كانوا ضد الدين بشكل عام"[6] أكد رئيس الوزراء التركي بنفسه هذه الحقيقة بكل صراحة وذلك في خطابه الذي ألقاه أمام المجلس الوطني الكبير حول الوضع في كردستان، حيث ذكر قائلاً: ".. أنهم يحاربون دائماً هذه الأمة التركية بسلاح واحد هو سلاح الدين .. ان الجمهورية التركية ليست حكومة لا دينية، بل هي تحترم الدين، ولكنها لا تريد أن يكون الدين آلة بيد أعداء الدولة"[7] ولكن بالأضافة الى ذلك، وكما نعلم، يوجد لكل حركة تكتيك عملها الآني واستراتيجيتها، أو هدفها النهائي، والأول لا يتعدى دائماً كونه جزءاً من الثاني، وهو يهيئ في نظر واضعيه أحسن وأقصر الطرق لتحقيق ذلك الهدف، فالتكتيك لذلك أمر قابل دائماً للتغيير والتطوير حسب الظروف. ولا أعتقد أن هنالك من ينكر

---

(6) A.D.Novichev , Op. Cit . , P. 169 .

(7) مقتبس في "العراق"، 18 آذار 1925 .

أن الهدف النهائي لانتفاضة عام 1925 كـــان ضمـــان الحقـــوق القومية المشروعة للشعب الكردي، أما تكتيكها لتحقيق ذلك فقـــد أتخذ، كأية حركة أخرى، أساليب وأشكالاً مختلفة حتمتها ظروف زمانية ومكانية محددة وواضحة نابعة من أرض كردستان ذاتها. ولذلك لا يجوز في ظروف بلد ككردســـتان اعتبـــار محـــاولات استغلال الشعور الديني لدفع الفلاحين، وقطاعات شعبية أخـــرى الى سوح النضال القومي التحرري أمراً مخالفاً لمنطق التـــاريخ. ومن المفيد جداً أن نلاحظ بهذا الصـــدد أن الكمـــاليين أنفســـهم استغلوا في بداية حركتهم الشعور الديني كسلاح مؤثر لتحريـــك الجماهير لا التركية فحسب، بل والكردية أيضاً. ففي أهـــم أيـــام الحركة الكمالية حاول أتاتورك في رسائله إثارة الشعور الدينـــي لدى عدد كبير من رؤساء العشائر الكردية ضـــد المســـتعمرين، وتوجد نماذج كثيرة لتلك الرسائل في الجزء الأول من مذكـــرات مصطفى كمال، فمثلاً إستهل رسالته التي بعثها في 13 آب عـــام 1919 الى عبد الرحمن آغا شرناخ، وعدد آخر مـــن الرؤســـاء الكرد بهذا الأسلوب: "يعلم العالم بأسره مدى إخلاصكم للخلافـــة، وتعلقكم بالتاج، وواضح بنفس المستوى أنكم لا ترضون قطعـــاً أن تداس أرض وطننا المقدس تحت أقدام الأرمـــن .. "[8]. وأن ما أقدم عليه قادة انتفاضة عام 1925 لم يتعد، على حال، ما عمله مصطفى كمال قبلهم بسنوات قلائل، وكان الطرفـــان يســـتهدفان بنفس الدرجة مرامي بعيدة مبطنة وراء ذلك. وبـــالفعل حـــاول زعماء الانتفاضة إثارة العاطفة الدينية على نطاق واســـع، ذلـــك لتحشيد أكبر الطاقات الممكنة في صفوف الانتفاضـــة، آخذيـــن

---

(8) Mustaf Kemal, Op . Cit . , Vol . I , P. 234 .

بنظر الاعتبار الجو الذي خلقته بعض إجراءات الكماليين لدى أوساط واسعة، وفي مختلف مناطق البلاد. ففي نشرات الثوار توجد إشارات صريحة الى "الحكومة التركية الملحدة" وخروجها على الشريعة الإسلامية، وقد جاء في إحداها: "أن أربعة خلفاء ينتظرونكم" وأن "من المستحيل وجود إسلام بلا خلافة، طالبوا بالشريعة، أن الحكومة الحالية تقاوم الدينيين، أن الإلحاد يتسرب الى المدارس"[9]، ولكن هذه النشرات كانت تدعو،في الوقت ذاته، الى إنشاء الدولة الكردية المستقلة.

ومن المهم ان نشير الى ان بعض الجهات، بالرغم من جميع الدعايات التركية، أدركت منذ الايام الأولى للانتفاضة الاهداف الحقيقية لمحاولات الجمع بين إثارة الشعور الديني والعمل من اجل ضمان حقوق الشعب الكردي القومية، ونورد هنا ما ذكرته مجلة "المقطم" المصرية بهذا الصدد، والتي أعطت صورة واضحة ودقيقة للموقف، إذ كتبت في آذار عام 1925 معلقة على منشور الشيخ سعيد تقول: " ان الشيخ سعيد نقر على الوتر الحساس الذي يستهوي معظم الأكراد والترك من سكان الاناضول الشرقية، ويجعلهم ينفرون لمساعدته من كل حدب وصوب، مما يدل على ان هنالك حركة مدبرة أشركت عناصر جمة في تهيئتها وإعدادها. فالنداء بإحياء الخلافة واحترام الشريعة وإسقاط حكومة الملحدين، والقضاء عليها يستهوي، ولا شك، معظم سكان الاناضول الشرقية ان لم نقل الاكثرية المطلقة من سكان تركيا .. وقد أريد بالقسم الثاني من بيان الشيخ، وهو الخاص بإنشاء حكومة كردية في بلاد الكرد والمناداة بأحد

---

(9) مقتبس في: "العالم العربي"، 27 شباط و 1 آذار 1925 .

انجال السلطان عبد الحميد ملكا عليها، اجتذاب الكـــرد أنفســـهم وحملهم على تأييد الثورة والاشتراك فيها". ثم تتوصـــل المجلـــة الى الاستنتاج التالي، حيث تقول "وكيفما كان الحـــال فـــان فـــي دعوة الشيخ الى إنشاء حكومة كردية دليلاً على نمـــو الحركـــة القومية ، وانتشار الروح العنصرية بين هذا الشعب الـــذى ظـــل حتى الايام الأخيرة اخلص العناصر للشعب التركي وحكومتـــه، وعلى انه مل الحياة القديمة واصبح مشتاقا الى تأسيس حكومـــة من ابنائه تسهر على رقيه وتحضيره وتخرجه من البداوة التـــي تتركه عليها الامبراطورية العثمانية التي اهملته إهمـــالاً تامـــا، فظل في مؤخرة العناصر والشعوب التي كانت تتألف منها".

وهكذا فان رفع شعارات مثل إرجاع الخليفة والسلطان مـــن قبل اناس وقف معظمهم ضده قبل سنوات لا يتعدى في الغـــالب كونه خططا تكتيكية حتمتها ظروف التأخر الفظيع فى المجتمـــع الكردي، والواقع المر الذى وصل اليه الفلاح الكردى فى ظـــل النظام الجديد، فاصبح يتمنى، شئنا أم أبينا، عودة أيام "العز" فـــي ظل النظام العثماني حيث كان يتهرب من دفع الضرائب كليـــا او جزئيا، وكانت ثروتة الحيوانية والزراعية، بالرغم من مســـتواها الواطئ، في حال احسن مما أصبحت عليه في السنوات الأولـــى من حكم الكماليين. ومن المفيد هنا ان نذكر ان تـــاريخ تركيـــا الحديث شهد قبل الحركة الكمالية خلع سلطان اخر هو الســـلطان عبد الحميد الذي كان على اوثق الصلات مع عـــدد كبـــير مـــن رؤساء العشائر الكردية، وحتى انه ألف مـــن رجالـــهم تنظيمـــاً عسكرياً خاصاً باسم "الفرسان الحميدية" كانت مهمته الاساســـية الدفاع عن مركزه، ولكن مع كل ذلك لم يتحرك الشعب الكـــردي

من مكانه اثناء، وبعد خلعه وطرده من البلاد[10]. ثم ان السلطات التركية اعطت بنفسها دلائل واضحة تثبت بشكل قطعي ما ذهبنـا اليه حول رفع شعارات كشعار إرجاع الخليفة والسلطان، إذ لـم تنه القوات التركية مهمتها في اخماد انتفاضة عـام 1925 حتـى سنت وزارة عصمت اينونو قانوناً جديداً منع بموجبه "اسـتخدام الدين لاهداف سياسية". واعطى رئيس الوزراء في الايام الأولـى للانتفاضة دليلاً أقوى حتى من ذلك عندما صـرح فـي بدايـة مارت أمام الصحفيين الاتراك والاجانب قـائلاً: "يختفـي وراء شعار الحركة حول إعادة السلطان والخلافة والشريعة، وإعطـاء تاج الخلافة لأحد أبناء عبد الحميد، هدف واحد، ذلكم هو الـروح القومية الكردية (كورديزم) ويستطيع كل شـخص إدراك هـذه الحقيقة"[11]. وقد نشـرت الصحـف المحليـة والاجنبيـة هـذه التصريحات مباشرة. وبعد ذلك بفترة كشف أحد أعضاء "محكمة الاستقلال" في دياربكر للصحفيين عن حقائق مهمة بهذا الصـدد، وذلك حينما ذكر لهم بالنص: "وعندما بدأنا فـي سـبر اغـوار الثورة، وتمحيص اسبابها وغايتها اسـترعت انظارنـا وجـوه متعددة ذات اهمية كبرى، فقد علمنا من التحقيق ان الثورة كـانت تسير لغاية سياسية معينة، وادركنا مـن خـلال الحـوادث ان

---

(10) للتفصيل حول هذا الموضوع يمكن الرجوع الى: الدكتـور كمـال مظـهر احمـد، كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى، ترجمة محمد الملا عبد الكريم، الطبعة الثانيـة، دار آفاق عربية للطباعة والنشـر، بغـداد، 1984، ص 16، 46 – 48، 51، 55، 84 – 94 وغيرها .

(11) Quoted in : "The Times" , March 5 , 1925 .

العصاة يرمون إلـــى تأسـيس (دولـة كرديـة مسـتقلة)، وان التحريكات الدينية من أقوى العناصر التي تسوقها وتؤيدها"[12].

وتشير بعض المصادر الى ان الشيخ سعيد صـرح خـلال محاكمته امام "محكمة الاستقلال" في دياربكر قـائلاً: "اننـا لـم نحاول استغلال الدين، بل كانت لنا اهدافنا القومية .. "، وعندمـا بادره رئيس المحكمة بالسؤال حول السبب الذي دفعه الى تسـمية نفسه بـ "امير المجاهدين" في النشرات والبيانات التـي كـانوا ينشرونها رد قائلاً: "مع مزيد الاسف كنت مخطئـاً فـي ذلـك، وصححـت خطـأي ذاك حيـث بـدأت اوقـع باسـم خـادم المجاهدين"[13].

بالاضافة الى كل هذه الحقائق لا بد من الاشارة الى حقيقـة تاريخية مهمة، وهي انه حتى في حالة وجود الشـعور الدينـي كعامل محرك كامن وراء انتفاضة عام 1925، فأن ذلك لا يمكـن أن يتخذ ذريعة للصق تهمة التأخر والارتجاع بالحركـة، ففـي التاريخ الحديث والمعاصر لشعوب اسيا وافريقيا أمثلة عديدة عن حركات دينية ديمقراطية في مضمونها حركت جماهير واسـعة، استهدفت تغييرات اجتماعية وسياسية لـها اهميتـها التاريخيـة بالنسبة لعملية التحول في الكيان السياسـي والاجتمـاعي لتلـك الشعوب. ويشير ف. ا. لينين في كتاباته الـى (حركـة ثوريـة ديمقراطية) حدثت في جاوه تحت ستار الدين تحديداً[14].

---

(12) مقتبس في: (العراق)، 8 حزيران 1925 .

(13) مقتبس في مجلة "روزى نوي"، السليمانية، العدد الثاني، مايس – ايار 1961، ص 4– 5.

(14) V.I.Lenin , OP . Cit . , Vol. 19 , P. 65 .

ومن التناقضات الكثيرة التي وقع فيها الكماليون في محاولاتهم إلصاق التهم بالحركة الكردية اعترافهم بأن بداية انتفاضة عام 1925 كانت مرتبطة بحركة نظمها النساطرة الذين كانوا، كما لا يخفى على أحد، من ألد أعداء الخلافة العثمانية لكونهم قد لاقوا، وعلى مدى أربعة قرون الأمرين على أيدي جميع خلفاء آل عثمان وبدون استثناء. ولكن مع ذلك فأن وزير الداخلية التركي أعاد في تصريحاته أمام الصحفيين بداية إنتفاضة عام 1925 الى "حادثة مهمة وقعت في منطقة حكارية أثر انضمام عدد من الضباط الأتراك الى صفوف النساطرة ضد الدولة"[15].

وأخيراً، وليس آخراً، لا بد أن نشير أيضا الى الحقيقية التالية ونحن بصدد مناقشة أبعاد تهمة الارتجاع التي ألصقت بأنتفاضة عام 1925. فمن الأدلة المهمة التي تمسك بها الكماليون لأثبات رأيهم بأن الانتفاضة كانت رجعية لأنها كانت تستهدف إعادة الخلافة هو رفع الثوار الكرد علماً أخضر في وسطه شمس مشرقة، حيث اعتبروه دليلاً قاطعاً لذلك، وركزت الدعاية الحكومية جانباً كبيراً من اهتمامها على هذه الناحية. ولكن محاكمات قادة الانتفاضة وضعت فيما بعد النقاط على الأحرف بالنسبة لهذا الموضوع، ونورد هنا بهذه المناسبة أقوال الشيخ عبد القادر النهري الذي بدأ استجوابه أمام "محكمة استقلال" ديار بكر في الرابع عشر من مايس، حيث اهتمت الصحف بنشر جوانب مهمة من محاكمته باعتبار أنه كان من أبرز قادة الحركة

---

(15) Quoted in : (The Times) , August 25 , 1925 .

الكردية منذ نهاية القرن التاسع عشر، ولكونه سليل أول أسرة في تاريخ الشعب الكردي نادت باستقلال كردستان. فمن بين الأسئلة التي وجهها رئيس محكمة الاستقلال في جلسة اليوم السادس عشر من مايس هذا السؤال الذي نشرته بعض الصحف: "ما هو جنس العلم الذي وجد معكم (وأراه العلم وهو قطعة خضراء وفي وسطها شمس باسطة أشعتها) ؟. "فكان جواب الشيخ: أنه العلم الكردي الذي يتوق كل كردي لرفعه في بلاده "[16].

والآن نحاول تحديد الأبعاد الحقيقة لتهمة خطيرة أخرى الصقها الكماليون بانتفاضة عام 1925، وأوردها من بعدهم العديد من المؤرخين الأجانب، وهي تتعلق بما أشاعته الأوساط الحاكمة من ان الانتفاضة كانت من صنع الاستعماريين. وقبل ان نأتي الى ذكر الادلة والوثائق التاريخية القاطعة التي تبين بطلان هذه التهمة من اساسها، لابد من التاكيد على حقيقة انه كان يوجد عدد من كبار رجال الاقطاع ورؤساء العشائر المتنفذين الكرد الذين كانوا على اتصال، بشكل أو بآخر، مع الانكليز، ولا يستبعد ابدا ان يكون قد وجد بين هؤلاء من كان يعمل لحساب الانكليز، فقد مضى في ذلك التاريخ اكثر من قرون على الانكليز وهم يحاولون بشتى السبل ايجاد مواقع اقدام ثابتة لهم في كردستان، واقام بعض رجالهم من الدبلوماسيين اوثق الصلات مع عدد من المتنفذين الكرد. فمثلا قبل الحرب العالمية الأولى بسنوات قليلة قطع السير مارك سايكس 7500 ميلاً داخل

---

(16) مقتبس لي: العراق"، 1 حزيران 1925 .

كردستان، حيث درس عن كثب اوضاع هذه البـــلاد، واتصـــل بعدد من زعماء العشائر الكردية[17]، كما قام فيما بعـــد نوئيـــل وغيره بسفرات اخرى الى كردستان تركيا، وأقـــاموا بدورهـــم صلات وثيقة مع عدد من المتنفذين الكرد الذين لم يفهموا، كمـــا أوضحنا ذلك عند تطرقنا الى تناسب القوى الطبقية في كردستان تركيا ، طبيعة الاستعمار والمستعمرين. وكان ذلك أمراً طبيعيـــاً نابعاً من ظروف موضوعية تتعلـــق بقضايـــا عديـــدة، كعـــدم احتكاكهم المباشر بأسلوب حكم هؤلاء، وتذمرهم الشـــديد مـــن الحكم التركي بحيث اصبح الانعتاق منه بأي اسلوب كان اســـمى هدف سياسي لهم. وتأثر هؤلاء أيضاً بمـــا رأوه مـــن مظـــاهر الحضارة الاوروبية الحديثة، وما سمعوا عنها، والتي من شـــأنها جذب (اكثر الشعوب بربرية) وراءها[18]. وبالاضافة الـــى كـــل ذلك كان المسؤولون الانكليز والفرنسيون يؤكدون منذ ســـنوات، وباستمرار (خاصة في سنوات الحـــرب العالميـــة الأولـــى) ان هدفهم الوحيد بالنسبة لبلدان الشرق الاوسط هو تحرير شـــعوبها من نير الحكم التركي. وهكذا وقع اقطاعيو كردستان، حالهم فـــي ذلك حال غيرهم في بلدان الشرق الاوسط الأخرى، تحت تـــأثير دعايات المستعمرين، فظهر بينهم الكثيرون مـــن الذيـــن كـــانوا يؤمنون بأنه بالامكان (حل) القضية الكرديـــة بمســـاعدة الـــدول

---

(17) M. Sykes, The Kurdish Tribes of the Ottoman Empire, "The Jurnal of the Royal Anthropological Institute of Great Britain" And (Ireland), London, Vol . XXX VIII, 1908, PP. 451 – 486.

(18) Karl Marx and Friedrich Engels, Izbranie Proizvedenia, Vol . I, Moscow , 1949 , P . 12 .

الغربية الكبرى، ولا يستبعد حتى وجود عملاء انكليز في صفوف الحركة الكردية في تلك الفترة الحساسة من تاريخ المنطقة، حيث كانت مشكلة الموصل تمر بأحرج مراحلها، وكان من مصلحة الانكليز اظهار الشعب الكردي في ثوب المتذمر من الحكم التركي. الا ان هذا الواقع الذي لم يكن فريداً من نوعه بالنسبة لشعوب المنطقة الأخرى أيضاً، وبالرغم من انه اثر تأثيراً سلبياً على مسار مجمل حركة التحرر- الوطني للشعب الكردي، لا يمكن جعله أساساً لإلصاق تهمة الارتجاع بهذه الحركة، سيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار جميع ظروفها الموضوعية والذاتية. فانتفاضة عام 1925 كانت تمثل اهم المصالح الحيوية بالنسبة لحياة ومستقبل شعب بأسره، وبمختلف طبقاته وفئات. وبطبيعة الحال كان المستعمرون، ولا يزالون يحاولون بشتى السبل تعميق التناقضات القومية بين شعوب المنطقة، ولاجل ذلك فأنهم يسلكون مختلف الطرق من أجل إيجاد ثغرات ينفذون من خلالها، وغالباً ما يحالفهم النجاح بدرجات متفاوتة، والتاريخ الحديث والمعاصر للمنطقة مليئ بالشواهد على ذلك، الا انه بحد ذاته لا يعني أي شئ كي تحدد على أساسه ابعاد حركات الشعوب .

وبالاضافة الى ذلك هنالك حقيقة تاريخية مهمة تتعلق بسياسة الانكليز تجاه القضية الكردية بعد الحرب العالمية الأولى، والتي غالباً ما يتجاهلها المؤرخون. فبعد انتصار الكماليين في تركيا، وتوقيع معاهدة لوزان، وتثبيت الحكم المركزي في ايران، وضمان مصالح الغرب النفطية في العراق وايران، اقتنع الانكليز بانهم لا يستطيعون، كما انه ليس في

صالحهم، العمل من اجل اقامة "دولة كردستان الكـــبرى" التـــي وجدت لها من قبل بعض الانعكاسات في مخططاتهم السياســـية بالنسبة لمستقبل الشرقين الادنى والاوسط. ولهذا السبب بـــالذات بدأ الانكليز منذ العشرينيات يتبعون سياسة حذرة جـــدا بالنســبة للقضية الكردية، سياسة كانت تأخذ دائمـــا بالحســبان علاقـــات انكلترة الاقتصادية والسياسية مع حكومات المنطقة ومستقبل تلـك العلاقات، اذ كانت انكلترة حريصة كل الحرص على الاحتفـــاظ دوما بأحسن العلاقات معها. ولهذا السبب بالذات كانت الاوســاط الحاكمة في انكلترا تحاول، بشتى السبل، التقـــرب الـــى النظــام الجمهوري الجديد في تركيا منذ اليوم الاول لتأسيسه، وفي اشـــد ايام الخلافات بين الطرفين، تلك الخلافات التـــي كـــانت بنظـــر الانكليز أمراً طارئاً، فلم تكن الانتفاضة الكردية قد خمدت بعـــد عندما صرح مسؤول عسكري بريطـــاني بـــــ : " ان العـــداء التركي – البريطاني .. لا يعتبر ظاهرة أبديـــة فـــي العلاقـــات الدولية "[19]. ومن الجدير بالذكر انه في اشد ايام الصراع حـــول ولاية الموصل كان يوجد تيار سياسي قوي داخل انكلترا يدعـــو بحماس الى اقامة احسن العلاقات مع تركيا، والتضحية بكل مـــا يتطلبه ذلك. وكان أنصار هذا التيار يشكلون مجموعة من كبـــار الرأسماليين المتنفذين في بريطانيا. وهكذا كان قـــرار الحكومـــة البريطانية في هذه الفترة بـــالذات (بدايـــة اذار 1925) علـــى ان يكون ممثلها لدى تركيا بدرجة ســـفير، وتســميتها لاول ســـفير بريطاني بعد الحرب في تركيا كان موافقاً تماماً لطبيعة العلاقات القائمة بين الطرفين، ولحساباتهما بشأن المستقبل .

---

(19) Quoted in: "The Near East and India", August 13 , 1925 .

والى جانب ذلك فأن البورجوازية التركية لم تكن ترغب، بعد تسلمها السلطة، في توتر علاقاتها مع اكبر دولة استعمارية متنفذة في المنطقة، فكانت تحاول ، بدورها، التقرب منها، ولم تخف استعدادها للتساوم من اجل ذلك. ففي اخطر أيام النزاع التركي – البريطاني حول مشكلة الموصل ابدى المسؤولون الاتراك كامل استعدادهم للتنازل عن نفط هذه المنطقة للانكليز مقابل تنازل هؤلاء عن ولاية الموصل لهم[20]. وفي ايام الانتفاضة بالذات عبرت الحكومة التركية عن رغبتها في تمديد امتياز بعض الشركات البريطانية العاملة في تركيا، كما اتخذت الاجراءات اللازمة لتجديد امتياز البنك العثماني المعروف[21]. ومن المفيد بهذا الصدد ان نورد الملاحظة التالية للشخصية السياسية التركية او ستونكول الذي قيم سياسة الكماليين الخارجية بهذا الشكل: (وحتى في تلك السنوات «يقصد أيام الحركة الكمالية – ك . م» كان الكماليون يتقربون من الاستعماريين، وبعد انتصارهم لم يترددوا أبداً في التعاون معهم)[22].

أعار الانكليز، بطبيعة الحال، اهمية استثنائية لهذه القضايا، ولذلك فأنهم لم يكونوا مستعدين أبداً للوقوف الى "جانب" الشعب

---

(20) A. J. Toynbee , Op. Cit . , PP. 386 - 387 .

حول الموضوع نفسه يمكن الرجوع الى: الدكتور فاضل حسين، مشكلة الموصل، دراسة في الديبلوماسية العراقية – الانكليزية وفي الراي العام، بغداد، 1955، ص310–311 (الكتاب في الاصل اطروحة دكتوراه قدمت الى جامعة انديانا الامريكية سنة 1952، وهو ينطوي على معلومات مهمة بهذا الخصوص).

(21) تنظر: "العراق"، 3، اذار 1925 .

(22) S. Ustiongl , OP – Cit . , P. 44 .

الكردي. وعلى هذا الاساس لا يمكن البتـه قبـول رأي بعـض المؤرخين حول كون انتفاضة عام 1925 من صنع بريطانيا التي كانت، في رأيـهم، تسـتهدف منـها "اقامـة دولـة كردسـتان الكبرى"[23]. ان امثال هؤلاء المؤرخين نسوا ان بريطانيا ذاتـها كانت في ايام انتفاضة عام 1925 بالذات تتآمر سراً ضد القضيـة الكردية في كردستان العراق، وتعمل طائراتها جـهاراً لوأدهـا مع العلم ان الهدف النهائي لهذه القضية قد اقتصر فـي العـام 1925 على ضمان الحكم الذاتي للاكراد داخل العراق، وان مثـل هذا الموقف اصبح ينطبق دائما مع ابعاد السياسـة البريطانيـة الجديدة بالنسبة للقضية الكردية، لان الانكليز، كما ذكرنـا، قـد فهموا في ظروف ما بعد الحرب العالمية الأولى مدى صعوبـة إقامة الدولة الكردية الموحدة التي كانت، على أي حال، تؤثـر، في حالة تدخلهم في أمرها، على مواقع اقدامـهم فـي منـاطق حساسة اخرى في الشرق الاوسط، ولذلك فأنهم، على عكس مـا ذهب اليه أمثال هؤلاء المؤرخين، توصلوا الى استنتاج مفـاده ان تثبيت تقسيم كردستان يتفق اكثر، ومن عدة وجوه، مع سياسـتهم ومصالحهم في المنطقة، وتحولت هذه الحقيقة بسرعة الى العامل الاول في تحديد أبعاد السياسة البريطانية تجاه القضية الكرديـة منذ بداية العشرينيات. وقد حددت الشخصية السياسية الانكليزيـة المطلعة على شؤون العراق، والقضية الكردية المسس جـيرترود بيل الإطار العام لهذه السياسة في وقت مبكـر (صيـف عـام

---

(23) A. D. Novichev , OP . Cit . , P . 175 .

1921) وذلك خلال حديثها مع عدد من الرؤساء الكـــرد حـــول مستقبل شعبهم، إذ أكدت بكل صراحة على "ضـــــرورة وجـــود كردستان مقسمة دائما"[24]. وتوجد في الوثـــائق الســرية التـــي نشرت عن سياسة بريطانيا الخارجية خلال الفترة من عام 1939 دلائل كثيرة تؤيد ما ذهبنا اليه بالنسبة لموقـــف الانكلـــيز تجـــاه القضية الكردية بشكل عام. ومـــــن الجديـــر بـــالذكر أن وزارة الخارجية البريطانية كانت تتجاهل كليا التقارير السرية التي كـــان يبعث بها نوئيل لأنها كانت تؤكد على ضـــــرورة إنشـــاء كيـــان سياسي للأكراد في المنطقة، وحتى أن إحدى وثائق هذه الـــوزارة وصفت نوئيل كـــ "متعصب أعمى" و"رسول" للأكـــــراد[25]. وأن نفس الوثائق تشير بصراحة الى أن أقصى اســـتعداد لبريطانيـــا بالنسبة للقضية الكردية في تلك الفترة لم يكن ليتعـــدى موافقتـــها على تأسيس عدد من الدويلات المتفككة داخل كيانـــات سياســـية أخرى تستطيع هي استغلالها متى، وكيفما تشاء[26].

وإضافة الى كل ذلك توجد أحداث ودلائل تاريخية قاطعـــــة تثبت انه لم تكن للانكليز يد في انتفاضة عام 1925. فقبـــل كـــل شئ يجب ان لا ننسى ان أحد أهم أسباب فشل الانتفاضـــة كـــان عدم توفر الاسلحة والذخيرة الكافية لدى الثـــوار الكـــرد، وقـــد

---

(24) "The Letters of Gertrude Bell", Eleventh Printing, London, 1930, P. 501.

(25) (Documents on British Foreign Policy, 1919 –1939), First Series, Vol. IV, London, 1952, PP. 693, 742.

(26) Ibid, P. 813.

اشارت مصادر عديدة الى هذه الحقيقة في ايام الانتفاضة ذاتها[27]. وبدون ادنى شك كان الانكليز المسيطرون كلياً على الحدود الجنوبية لمنطقة الانتفاضة يستطيعون بكل سهولة إغراق كردستان تركيا بالاسلحة والذخيرة اللازمة التي كانت تؤدي حتماً الى استمرار مقاومة الثوار الكرد لفترة اطول بكثير مما حدث بالفعل. ومن الجدير بالذكر ان عدداً قليلاً من المؤرخين ادركوا هذه الحقيقة، فمثلاً اعترف ديرك كينين بان الانتفاضة قد "قمعت لانه لم يساعدها أحد"[28]. واهم من كل ذلك توجد دلائل مهمة تبين ان الانكليز، بالرغم من كونهم ارتاحوا في البداية من انفجار الانتفاضة في كردستان تركيا بسبب النزاع الدائر حول ولاية الموصل، الا انهم تبنوا لأنفسهم خطاً غير ودي، ان لم نقل عدائياً تجاهها. ومن أهم الدوافع لمثل هذا الموقف كان خوف المسؤولين الانكليز في العراق من تأثير نتائج الانتفاضة على المجرى العام للقضية الكردية، خاصة لان بعض المحافل السياسية الكردية بدات تثير من جديد موضوع بنود معاهدة سيفر بالنسبة لهذه القضية. ولقد ظهر موقف الانكليز تجاه الانتفاضة قبل كل شئ خلال قضية سماح الفرنسيين للاتراك بنقل قواتهم عبر سوريا. ففي تلك الفترة لم تكن فرنسا لتقدم على أي عمل مهم، سواء في أوروبا أو في الشرق، من شأنه إغاظة الانكليز، ذلك لان العلاقات القائمة انذاك بين حكومة المحافظين الانكليزية وحكومة (الاشتراكيين) الفرنسية كانت على احسن ما

---

(27) تنظر على سبيل المثال أقوال صحيفة "العراق" البغدادية ، المعروفة بموالاتها للبريطانيين ، بهذا الصدد في عددها الصادر يوم التاسع من آذار سنة 1925 ، أي في عز ايام الانتفاضة .

(28) Derk Kinnane, The Kurds and Kurdistan, London, 1964, P.30 .

يكون، بالاضافة الى ان فرنسا كانت تمر في سنة 1925 بـــالذات بأزمة مالية بسبب وضع الفرنك في الاسواق العالميـــة، فكـــانت بحاجة الى كل مساندة ممكنة من جانب الانكليز. وهكـــذا فـــان الفرنسيين لم يقدموا على السماح للاتراك بنقل قواتهم بدون علـــم وموافقة البريطانيين. وبالفعل جرى في باريس اتصال رســـمي بين الطرفين حول هذا الموضوع، إذ أكد المسؤولون الفرنسـيون للسفير البريطاني انه لا يراد من حشد القوات التركية "الا قمـــع الثورة الكردية"، وبينوا له أن فرنسا ابلغت الحكومة التركية بأنها تسمح لها بنقل "العدد اللازم (من الجنود – ك. م) لقمع الثـــورة الكردية فقط ". وعلى هذا الاساس "لم تبد الحكومة البريطانية أي اعتراض كان على ذلك"[29].

انعكس موقف الانكليز تجاه الانتفاضة بشـــكل علنـــي فـــي تصرف واجراءات السلطات البريطانية المسؤولة فـــي العـــراق تجاه اللاجئين الكرد من الثوار والسكان الآمنين الذين اضطـروا، تحت ضغط ملاحقة القوات التركيـــة، للالتجـــاء الـــى البلـــدان المجاورة. فقد وضعت هذه السلطات شروطاً تعجيزية لقبولـــهم، بحيث اضطر قسم كبير منهم الى رفضها، والالتجاء الى ســـوريا ، كما قامت السلطات البريطانية بتجريد جميع رجـــال العشـــائر الكردية الذين التجئوا الى العراق من أسلحتهم، وأبعدتـــهم عـــن الحدود التركية[30]. وباعتراف الصحف العراقيـــة نفســـها كـــان المسؤولون يرفضون إبداء أي عون الى رجال عشـــيرة كويـــان

---

(29) "العالم العربي"، 5 آذار 1925؛ (العراق)، 5 آذار 1925 .

(30) Report by His Britaennic Majestys Govermnent to the Council of the League of Nations on the administration of Iraq for the year 1926), P.16 .

الذين استنجدوا بهم تحت ضغط الاتراك[31]. ومن الجدير بالملاحظة ان معظم قادة الانتفاضة الذين نجوا من الموت لم يلتجأوا الى الانكليز في العراق، بل التجأوا الى سوريا ولبنان، أو بعض الاقطار الاوروبية، بينما كان المفروض ان يلتجئوا الى "اسيادهم" ان كان لهم أسياد حقاً، وهذا بدوره حقيقة ذات مغزى أغفلها جميع دارسي انتفاضة عام 1925.

ومن المفيد ان نذكر انه في حين كانت بعض الاوساط الرسمية والصحف التركية تتهم انكلترا بـ "إثارة الاضطرابات" في كردستان، كانت الصحف الانكليزية "تنسب تلك الاضطرابات الى الدعوة البلشفية التي يدبرها كولومتزيف" ؟ "المختص بإثارة الحركة في كردستان"[32]. وكتبت مجلة "المقطم" القاهرية في آذار 1925 بهذا الصدد تقول: "ويقولون في بعض المصادر إن للبلاشفة يداً في إضرام هذه الثورة لانهم يريدون إضعاف تركيا وشل قواها لتكف عن مزاحمتهم في القوقاس، وعن إثارة العناصر التركية الإسلامية عليهم، وللقضاء على فكرة الجامعة الطورانية التي يعدها الروس خطرا على جمهوريتهم الواسعة". وقد توصل المؤلف الالماني داجو بيرت الى استنتاج مشابه في تفسيره لانتفاضة عام 1925[33]، أما كاظم حيدر فانه يعتبر جميع الكرد الذين شردوا قسراً من أرضهم في تركيا شيوعيين[34]. ومن المفيد ايضا ان نشير الى ان جريدة

---

(31) أنظر على سبيل المثال: "العراق"، 20 حزيران 1925 .

(32) "العراق"، 9 آذار 1925 .

(33) مقتبس في: "الاكراد والعرب"، كتبه ابراهيم احمد واصدره فريق من شبان الاكراد 1937، الطبعة الثانية، بغداد، 1961 ص 19 — 20 .

(34) كاظم حيدر ، الاكراد. من هم والى اين، بيروت، 1959، ص 38 .

تايمس اللندنية التي كانت تصف الانتفاضة في ايامها الأولى بـ "الثورة" بدأت مع ظهور بوادر انتكاستها تنعتها بدورها بـ "التمرد" و"الفتنة" وما شابه. وقد حددت نفس الصحيفة بشكل دقيق أبعاد مضمون وأهداف التهم المختلفة التي ألصقت جزافاً بانتفاضة عام 1925، وخاصة في ما يتعلق منها بتحريض الانكليز. فقد كتبت "التايمس" بهذا الصدد فيما بعد تقول:

"ان الاتراك كانوا يشكون في الانكليز لان مشكلة الموصل كانت مثارة آنذاك، وحتى انهم اتهموا الحكومة البريطانية بكونها عملت عن طريق العقيد لورانس لتحريض الكرد والأرمن على توحيد جهودهم ضد تركيا، إلا ان الزمن وتحسين العلاقات مع العراق (كان العراق آنذاك يحكم عملياً من قبل الانكليز باسم الانتداب – ك . م) ، ومن ثم زيارة الملك فيصل الى أنقره بينت ان شكوك الاتراك لم تكن ترتكز على أي أساس"(35).

وهكذا يجب ان لا نستغرب أبداً حقيقة ان السلطات البريطانية في العراق بدأت في الواقع بالتعاون مع الأوساط الحاكمة في تركيا ضد حركة التحرر – الوطني للشعب الكردي قبل ان تنتهي جميع أحداث ونتائج انتفاضة عام 1925، وعلى وجه الخصوص بعد ان أقامت انكلترا وتركيا العلاقات الدبلوماسية بينهما على مستوى السفراء، وما تبع ذلك من تطور سريع في علاقاتهما الاقتصادية. ومن أهم الوثائق البريطانية حول هذا الموضوع، والتي يعود تاريخها الى تلك الفترة بالذات، ما ورد في التقرير الرسمي الذي قدمته سلطات الانتداب الى

(35) "The Times" , August 27 , 1931 .

عصبة الأمم حول سير الإدارة في العراق في العام 1926 بشأن السماح للقوات التركية باستخدام بعض الطرق والمسالك المهمة داخل الحدود العراقية كلما اقتضت الحاجة ذلك[36].

وهكذا يمكن الجزم بان علاقة بريطانيا بمجمل الحركة الوطنية الكردية لم تكن سوى صورة أخرى لعلاقاتها مع حركات التحرر – الوطني لجميع شعوب المنطقة تقريباً قبيل وفي سنوات الحرب العالمية الأولى، وحتى الى سنوات قليلة بعد هذه الحرب – أي في فترة ما قبل الاحتكاك المباشر مع الاوساط الاستعمارية، وفهم حقيقتها كما هي – تلك الفترة التي دفع الاضطهاد العثماني خلالها شعوب الشرق الاوسط الى التوسل بجميع السبل من اجل التحرر من نيره. وهناك بعض الوثائق التي تشير بشكل واضح الى هذه الحقيقة المهمة. فأثناء محاكمة قادة الانتفاضة، وفي الجلسة التي عقدت في 13 - 14 مايس رد "المتهم" سعدي بيك الكردي على سؤال رئيس "محكمة الاستقلال" حول "علاقة الثوار ببريطانيا" بقوله "ان الدولة البريطانية هي الدولة الوحيدة التي وعدتنا بالمساعدة لتحرير بلادنا كردستان (يقصد فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى والسنوات الأولى بعد الحرب حتى عقد معاهدة لوزان – ك. م) ومن الطبيعي ان لا نرفض هذه المساعدة التي لم نر لها غاية فيها، ولذا ألفنا الجمعية الكردية لتحرير بلادنا. أما ما جاء في مذكرة مدير الشرطة عن اجتماعاتنا ببعض الموظفين البريطانيين فهذا مبالغ فيه، وما حدث انه قدم الاستانة السر

---

(36) (Report … on the administration of Iraq for the Year 1926), PP. 19 – 20

اميالين (؟) مدير الامور الشرقية في وزارة المستعمرات، وهــو من اصدقاء الكرد، فقابلناه وقدمنا له مذكرة عن وجود اســتقلال البلاد الكردية، فوعدنا بالمساعدة اللازمة، ومنذ ذلك التاريخ لــم نقابل أحداً"[37].

أكد جميع قادة الحركة انهم لم يتسلموا أي مساعدة ماديــة او معنوية من جانب الانكليز الذين كانوا، كما هو واضح من جميـع الدلائل، يحاولون فقط استغلال القضيـــة الكرديـــة وملابســاتها لصالحهم كما فعلوا ذلك بالنسبة للجميع. ومن المفيد ان نورد هنا ما أكده لكاتب هذا البحث الأستاذ اكرم جميل باشا، أحـــد قــادة الحركة الكردية النشطين في كردستان تركيا، حول مرافقته مـــع عدد اخر من المثقفين الكرد للضابط الانكليزي نوئيل في جولتــه قبل الانتفاضة بسنوات في بعـــض المنــاطق الكرديـــة لجمــع المعلومات عن نفوس الكرد من انه هو وأصدقـــاؤه الآخــرون اخذوا على عاتقهم جميع نفقات هذه الجولة، كما أكد بشكل قــاطع حقيقة ان الانكليز لم يقدموا أي مساعدة مادية او معنوية، علنيــة او سرية للحركة الكردية[38].

إن هذه الحقائق دفعت بعدد، ولو قليـــل، مــن المؤرخيــن الاجانب، كالمؤرخ الفرنسي ل . رامبو والمــؤرخ الســوفيتي أ. اسراتيان الى الاستنتاج بانه لم تكن للاجانب يد في انتفاضة عــام 1925، فاستطاعوا بذلك تحديد طابعها القومي بشــكل صحيــح. وحتى ان المستشرق الالماني داجو بيرت الذي كان يدافــع فــي

---

(37) مقتبس في "العراق"، 1حزيران 1925 .

(38) كان ذلك اثناء لقاء خاص للمؤلف بالمرحوم اكرم جميل باشـــا في دمشـــق بحضـــور المرحومة روشن بدر خان في العام 1972 .

كتاباته بحماس عن الكماليين وحركتهم، والذي نظر الى انتفاضة عام 1925 كـ "حركة دينية رجعية" لم يستطع إنكار حقيقة عدم توفر أي دليل مادي يثبت وجود يد للانكليز في الانتفاضة، حيث كتب بهذا الصدد يقول بالنص: "رغم ان حكومة أنقرة مصرة على الادعاء باشتراك الانكليز في الانتفاضة، إلا انه لم يتوفر دليل على ذلك"(39).

ومن المهم جدا ان نلاحظ ان الكماليين أعطوا بأنفسهم أدلة ووثائق مهمة كثيرة تتناقض كليا مع جميع التهم التي حاولوا الصاقها بانتفاضة عام 1925، وتثبت بشكل واضح حقيقية ان الانتفاضة كانت نابعة من ظروف كردستان ذاتها. ففي اليوم الرابع والعشرين من مايس عام 1925 اصدرت "محكمة الاستقلال" في مدينة ديار بكر حكمها بالإعدام على سبعة من قادة الحركة بتهمة تشكيلهم جمعية سياسية باسم "استقلال كردستان" التي استهدفت تحرير الشعب الكردي. كما نشرت جريدة "وقت" التركية في عددها الصادر في التاسع من حزيران عام 1925 جزءا من إفادة البكباشي قاسم بيك، احد شهود الاثبات في قضية الشيخ سعيد، والذي اكد فيها الدور الكبير للمنظمات السياسية الكردية في قيادة الانتفاضة، وأشار بصراحة الى ان جهود هذه المنظمات بعد الحرب العالمية الأولى ادت الى "إثارة روح قوية في جميع الكرد، حتى العوام منهم، مما دفعهم للعمل من اجل استقلال كردستان". كما اعترف قاسم بيك، الذي كان، على ما يبدو، على اتصال بقادة الحركة الكردية،

---

(39) Dagobert von Mikusch , Mustapha Kemal betwnn Europe and Asia ,Translated by J. Linton , London , 1931 , P. 362 .

اعترف بان هذه الجمعيات " قد كسبت ثمانين بالمائة من الـــرأي العام" (في كردستان تركيـــا – ك . م). وقـــد نشـــرت نفـــس الصحيفة قبل ذلك (في الثاني من حزيران) بحثاً صغـــيراً عـــن أسباب الانتفاضة الكردية في ضوء محاكمات قادتها، جاء فيه ان المنظمات السياسية الكردية السرية "اســـتطاعت عـــن طريـــق يوسف ضياء بيك، الذي سبق شنقه، ضم عائلة الشيخ سعيد الـــى صفوفها، وواضح لكل ذي بصيرة ان الجمعيات الكرديـــة هـــي التي دبرت الثورة تحت ستار الدين لتصل الى غايتـــها الوحيـــدة وهي إنشاء كردستان مستقلة في ولاياتنا الشرقية".

ومن الجدير بالذكر ان اتهامات "محكمة الاستقلال" بالنســـبة للشيخ سعيد ورفاقه لم تقتصر على "قتل آلاف الجنود" وما سببوه من "خراب عام"، بل اتهمتهم ايضا بـــ "العمل من اجـــل تقســـيم الوطن"، أي فصل كردستان من تركيا[40]. بالإضافة الـــى ذلـــك جاءت في مطالعة المدعي العام بحق الشيخ سعيد ورفاقه، والتـــي نشرها مراسل جريدة "الوقت" ناشد حقي في العدد الصادر مـــن الجريدة في الثامن عشر من حزيران عام 1925 الفقرات التالية:

"ان دوافع الثورة الاخيرة التي حدثت في الولايات الشـــرقية من وطننا – تركيا الخالدة لا تختلف في شئ عن الدوافع التـــي أدت في الماضي القريب الى قيام البوسنة والهرسك. ان الافكـــار والأهداف التي ولدت الثورة الكردية هي نفس الأفكار والأهـــداف التي أدت الى انفصال سوريا و فلسطين" .

وفي الختام توجه رئيس المحكمة الـــى "المتـــهمين" الذيـــن صدرت عليهم أحكام الموت قائلاً: "استغل بعضكم ســـوء الادارة

---

(40) Quoted in: "The Times", May 29, 1925 .

من جانب الحكومة كذريعة للانتفاض، وآخرون منكم نصبوا لنفسهم مدافعين عن الخلافة، إلا انكم جميعا كنتم متفقين في مسألة واحدة وهي انكم اردتم اقامة كردستان مستقلة. انكم ستدفعون من فوق المشانق المنصوبة لكم ثمن الدماء التي ارقتموها ، والدور التي خربتموها".

لهذه الأقوال، بطبيعة الحال، أهمية استثنائية، فهي تميط اللثام عن كل ما قيل عن انتفاضة عام 1925، لانها جاءت بمثابة عصارة الاستنتاجات التي توصلت اليها جهة رسمية عليا في ضوء إفادات العشرات من قادة الانتفاضة، والمئات من المشتركين فيها، وعدد مماثل، وربما اكثر من الشهود، وبعد درس اكداس كبيرة من الوثائق والدلائل، اذ يكفي القول ان تقرير مدير شرطة اسطنبول عن نشاط الشيخ عبدالقادر النهري، وعدد قليل آخر من رجال الفكر الكرد، والذي قدم الى "محكمة استقلال" ديار بكر ، كان يقع في مائتي صفحة ، كما ان الجلسة الأولى فقط من محاكمة هؤلاء استمرت من الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الرابع عشر من مايس الى الساعة الثالثة من بعد منتصف الليل[41] .

وبهذه المناسبة نورد أيضاً أقوال بعض قادة الانتفاضة، والمشتركين فيها، والتي تساعد بدورها على تحديد أبعاد المضمون الحقيقي لانتفاضة عام 1925 وأهدافها التي تطرقنا إليها ، وكذلك دوافع الاتهامات التي ألصقت بها. فأثناء محاكمة أحد قادة الانتفاضة المعروفين، الدكتور فؤاد، توجه إليه رئيس

(41) عن ذلك تنظر: "العراق"، 1 حزيران 1925 .

المحكمة بالسؤال التالي: "لماذا طالبت باستقلال كردستان في الوقت الذي نلت التعليم في تركيا، وتتكلم باللغة التركية ؟"، فرد عليه قائلاً: " لانني كردي، وأريد ان أرى وطني مستقلا، وما دامت الحراب التركية في كردستان فلا يمكن حل القضية الكردية". هنا اكد رئيس المحكمة للدكتور فؤاد انه "سوف يشنق من اجل ذلك"[42]. وقد أشار أحد أعضاء "محكمة الاستقلال" في ديار بكر فيما بعد الى رسالة للدكتور فؤاد كدليل جرم ضده، وكان الدكتور فؤاد قد بعث هذه الرسالة في بداية الانتفاضة الى رئيس الوزراء الأسبق فريد باشا الداماد، حيث أشار فيها الى دور الجمعيات السياسية الكردية في تفجير الانتفاضة، كما ضمنها تفاصيل شتى عن المواقع التي حررها الثوار، واختتمها بالقول: "وها قد بدأت مسألة استقلال كردستان تشغل بال الحكومة بعد ان كانت تستخف بها وتزدري منها"[43] .

أما سعدي بيك الكردي فقد ذكر أمام "محكمة الاستقلال" في جلستها المنعقدة بتاريخ 14 مايس انه بدأ منذ عام 1911 يعمل "من اجل استقلال البلاد الكردية"، ودخل من اجل ذلك في جميع المنظمات السياسية الكردية، وأشار الى ان "العلم المرسوم على أوراق هوية أعضاء جمعية التعالي الكردية هو رمز العلم الكردي، وهذه الجمعية تسعى بكل قواها لتأمين استقلال البلاد الكردية". ورداً على سؤال رئيس المحكمة عن السبب الذي دفعه

---

(42) Quoted in : A. M. Hsratian , Op. Cit . , P.125 ;

عبد العزيز يا ملكي، المصدر السابق ، ص 82 .

(43) مقتبس في: "العراق"، 8 حزيران 1925 .

الى عدم الانضمام الى صفوف "حزب الشعب" الحاكم ذكر بكل صراحة انه لا يثق به[44].

ونورد فيما يلي جانباً من الحوار الذي دار بين الشيخ عبدالقادر النهري ورئيس "محكمة الاستقلال" في دياربكر في الجلسة الأولى لمحاكمته، حيث يلقي رئيس المحكمة الضوء بدوره على الدوافع الحقيقية الكامنة وراء مواقف قادة الانتفاضة:

"الرئيس: تقول انك لا تتدخل في السياسة مع ان القصائد التي تنظمها تنم عن روح عداء للترك. ألم تقل هذه الأبيات: ان الاتراك لا يستحون.. لاتسكتوا ايها الاسود، هاجموهم، المشركون اصبحوا نوابا. فمن الذي نظمها ؟ الشيخ عبدالقادر: انا! الرئيس: في شعرك تذكر بعض النواب كنائب ارزنجان ثابت بيك، ونائب أورفة الشيخ صفوت أفندي، ونائب موش الياس سامي افندي، ونائب سيورك خليل فخري بيك. فهل هؤلاء النواب اكراد ؟ الشيخ عبدالقادر: نعم، ولكنهم خائنون لوطنهم. الرئيس: هل قدمتم مذكرة الى سفارات الحلفاء للمطالبة باستقلال كردستان ؟ الشيخ عبدالقادر: نعم ! "[45].

إن آخر ما نطق به عدد كبير من قادة الانتفاضة، والمشتركين فيها من مختلف فئات الشعب الكردي من على اعواد المشانق التي نصبت لهم في مدن كردستان، إنما هو صورة أخرى لآيات البطولة والاهداف السامية التي ضحوا في سبيلها بأعز ما يملكون. فقد هتف الدكتور فؤاد باللغة التركية "ياشاسن كردستان"، وقال الشهيد خواجه عسكري: "لو بقي

---

(44) مقتبس في: "العراق"، 1 حزيران 1925 .

(45) مقتبس في المصدر نفسه .

كردي واحد فهو يثابر على هذه الثورة، وليحيا الكرد"، وهتف مفتي ديار بكر وابنه بحياة كردستان والشعب الكردي[46]. وكما يروي يوسف ملك في أحد مؤلفاته فان آخر جملة نطق بها الشيخ سعيد كانت ما يلي: "من يمت في سبيل وطنه يبقى خالداً"[47].

إن هذه الأمثلة، وعشرات كثيرة أخرى، تروي بشكل واضح قصة انتفاضة عام 1925 الحقيقة التي أهملها عدد كبير من المؤرخين الأجانب، في حين لا يجوز على أي حال تجاهل أدلة مادية كهذه، والتي تكتسب دائما اهمية كبرى لتقويم الأحداث الجارية على المسرح السياسي في كل زمان ومكان. هنالك دليل منطقي آخر لابد من الاشارة اليه ونحن بصدد تقويم طبيعة انتفاضة عام 1925، اذ انه يميط اللثام بدوره عن حقيقة الاتهامات التي وجهها الكماليون اليها. فقد أكدت السلطات الرسمية والصحافة الحكومية اكثر من مرة بان الانتفاضة كانت رجعية، وان مهمة القوات الحكومية كانت القضاء على بؤر التأخر والرجعية في "الولايات الشرقية" كي تستطيع بدورها اللحاق بالركب الحضاري، ولكن مؤلف كتاب "الاكراد والعرب" اصاب كبد الحقيقة حينما قال ان القوات التركية "كانت تقضي على كل شئ كردي لا على كل شئ رجعي"[48]. ولو لم يكن الأمر كذلك لكان المنطق يقتضي ان تقوم السلطات الحاكمة بعد

---

(46) مقتبس في : " العراق " ، 17 حزيران 1925 .

(37) يوسف ملك ، قبرص وبربرية الاتراك في القرن العشرين ، بيروت ، 1955، ص 206.

(48) "الاكراد والعرب"، ص 17 .

القضاء على الانتفاضة ببذل جهود كبيرة لتطوير المناطق الكردية لتلحق، على الأقل، بأكثر المناطق التركية تأخراً، إلا ان الواقع يروي شيئاً آخر تماماً. فقد كتب المؤلف الانكليزي ليستر، الذي زار كردستان تركيا بعد مرور اكثر من ربع قرن على قمع انتفاضة عام 1925، كتب عن أهم واكبر مدنها ديار بكر قائلاً: "إن ديار بكر بالرغم من كل الشيوخ الذين شنقوا، لا تزال متأخرة ورجعية، والاكراد لا يزالون يرغبون في حكم اتباعهم الكثيرين بطبيعة الحال"[49]. وهنالك شواهد اخرى كثيرة من هذا القبيل تطرق إليها كل مؤرخ ومؤلف غربي زار مناطق كردستان تركيا.

إن جميع الدلائل التي أشرنا إليها، وعدداً آخر من الدلائل المماثلة تبين، بحكم الواقع والمنطق، مدى زيف الاتهامات التي الصقت بالحركة الكردية في تركيا بشكل عام، والتي كانت انتفاضة عام 1925 الكبرى بداية مرحلة جديدة في مسار تطورها الشائك. وخير دليل منطقي نختتم به بحثنا عن طبيعة انتفاضة عام 1925 هو انه لو كانت هذه الانتفاضة بالشكل الذي صورته الدعاية الكمالية لما تركت، من بعدها، تلك الآثار العميقة على مجمل حركة التحرر - الوطني للشعب الكردي، كما سنأتي على ذكر ذلك، بل كان ينتهي مع قمعها كل مظهر واثر سياسي لها كأي حركة طائشة غير هادفة في التاريخ. وقد أشارت "جمعية خويبون" (الاستقلال) الكردية، التي كانت إحدى ثمار الانتفاضة ذاتها، أشارت في إحدى نشراتها الى هذه الحقيقة الهامة بالشكل الآتي:

---

(49) R.B.Lister , Turkey , London , 1967 , P. 241 .

"إن الحركات الوطنية الكردية التي يصفها الترك تارة بالارتجاع، وتارة بالشقاوة، وأخرى بالعمل لحساب الدول الاجنبية قد تبين هدفها الأسمى، ووضحت غايتها الشريفة لكل ذي عينين في العالمين الشرقي والغربي، لانه لا يتصور قط ان توجد قوة رجعية، او شقاوة جريئة تستمر مدة عشرة أعوام بالرغم من كفاح حكومة طاغية لا تؤمن إلا بالقوة ومن نضالها بكل وسائل القسوة والارهاب"[50].

يمكن تحديد الهوية القومية لانتفاضة عام 1925 أيضاً من خلال صداها العميق الذي شمل مختلف أوساط الشعب الكردي في جميع أقسام كردستان الأخرى، فإلى ذلك التاريخ لم تهز أية حادثة كبرى على مسرح كردستان السياسي المجتمع الكردي بهذا المستوى الشامل والعميق، حيث علقت القوى والاوساط الوطنية الكردية المختلفة آمالاً كبيرة على الانتفاضة منذ الأيام الأولى لانفجارها، وأخذت تتابع أحداثها باهتمام بالغ، فقد تمنت جريدة "زيانه‌وه" التي كانت تصدر باللغة الكردية في السليمانية لثوار كردستان تركيا "تحقيق أملهم المقدس" في "الانعتاق من مظالم الاتراك"[51]. ومن جهة أخرى فان بعض هذه الاوساط أخذت تتحرك لاتخاذ مواقف عملية من اجل تطوير هذه الأحداث، ولكن سرعة قمعها حالت دون تحقيق ذلك. فقد أشارت بعض الصحف الى محاولات جرت من قبل كرد المناطق الأخرى لتقديم المساعدات لاخوانهم في تركيا. كما أثار موقف

---

(50) "الكرد إزاء العفو العام التركي سنة 1933"، النشرة الثامنة لجمعية خويبون الكردية الوطنية، دون مكان وتاريخ النشر، ص 10 .

(51) "زيانه‌وه "، "الانبعاث"، "جريدة "، السليمانية ، 2 مارس 1925 .

المستعمرين الفرنسيين المعادي للانتفاضة حفيظة الكرد أينما كانوا، فقد أشارت بعض الجرائد العربية الى انتشار استياء عام بين كرد سوريا بشكل توقعت المحافل السياسية هناك قيام الاكراد بتنظيم حركة ضد الفرنسيين [52]. وقد أثارت سياسة القمع والتدمير التي تبنتها السلطات التركية للقضاء على الانتفاضة، والتي اتخذت بعد قمعها طابعاً فاشياً استهدف وجود الشعب الكردي ذاته، أثارت مختلف الاوساط والفئات الكردية خارج تركيا بشكل لم يسبقه مثيل.

وقد أدت الصحافة غير التركية، بما فيها الصحافة العربية، الى جانب بعض المؤسسات السياسية والثقافية الكردية خارج تركيا ، دوراً كبيراً في إعطاء صورة واضحة عن مأساة الشعب الكردي الدموية في كردستان تركيا. فحينما نفذ حكم الإعدام بالسيد عبد القادر، بادر المركز العام لجمعية التعالي الكردية الى تعميم الخبر على جميع فروع الجمعية في الداخل والخارج، وطالب المركز بإعلان يوم حداد على روح الشهيد لكي يفهم العالم "ان الاكراد لن ينسوا ذكرى هذه الفاجعة المؤلمة "[53]. وبعثت الجمعية الكردية في القاهرة بمذكرة تحت رقم 791، وبتوقيع سكرتيرها العام جميل سليم، ونائب رئيسها خليل رامي بدرخان، إلى عصبة الأمم مطالبة إياها بالتدخل المباشر لإيجاد حل عادل للقضية الكردية، ووضع حد للسياسة الشوفينية تجاه كرد تركيا، وجاء في ختام المذكرة: "فباسم العدالة، وباسم حقوق الشعوب المغتصبة، وباسم المدنية تطلب الجمعية الكردية

---

(52) "العراق"، 12 حزيران 1925 .

(53) "العراق"، 23 حزيران 1925 .

مساعدة محكمة العدل الكبرى على تحسين حال شعب منسي، ومهجور بحكم القوة، حتى إذا اكتسب حريته تمكن من ان يكون عنصراً يخدم السلم والرقي في الشرق الأدنى بالتفاهم مع مجاوريه من الارمن والكلدانيين والعناصر الأخرى"[54].

اجتاحت كردستان العراق أيضاً موجة استياء وسخط عارمة استمرت آثارها لفترة طويلة من الزمن. وقد علقت جريدة "العراق" في عددها الصادر في 23 حزيران عام 1925 على الاثر العميق الذي تركه شنق السيد عبد القادر ورفاقه على نفوس كرد العراق بالشكل الآتي: " قامت قيامة الاكراد لهذه الأخبار المؤسفة، واخذ الحنق منهم كل مأخذ، فصبوا جامات غضبهم على رجال انقرة وسلطتها الكمالية السفاحة. أما الشخصية الكردية البارزة التي تأثرت جداً لهذا الخبر المؤلم فهو الشيخ برزان (تقصد احمد البارزاني – ك . م) الذي وقعت عليه هذه الأنباء كالصاعقة المحرقة، فاصبح كأنه في مس من الجنون، إذ ظل يندب ساعات طوالاً خله القديم وصديقه الودود الشيخ عبد القادر"[55].

وفي نفس الوقت قامت شخصيات سياسية كردية مختلفة بإرسال العشرات من برقيات الاحتجاج على ما يلاقيه اخوانهم في تركيا، الى عصبة الامم وسفارات الدول الكبرى، مطالبة اياها بالتدخل في الأمر"لا بدافع إنساني فحسب" بل "لأجل حفظ السلم العالمي" ايضا[56]. وعقد كرد بغداد في 26 تموز عام

(54) مقتبس في: "العالم العربي"، 22 آذار 1925 .

(55) " العراق " ، 23 حزيران 1925 .

(56) مقتبس في : " العراق " ، 18 تموز 1925 .

1925 اجتماعاً عاماً في حديقة «مـود» نـددوا فيـه بسياسـة الحكومة التركية إزاء الشعب الكردي، وبعثوا بعدد من برقيـات الاحتجاج الى عصبة الامم وسفارات الدول الكـبرى، مطـالبين اياها بالضغط على الحكومة التركية لوضـع حـد لمجازرهـا الدموية في كردستان(57).

وقد وجدت انتفاضة عام 1925 وما رافقتها من مآس صـدى مشابها في كردستان ايران، فحيت صحافة جمهورية مهاباد فيمـا بعد أمجادها أكثر من مرة، كما ألف بعض الشـباب المتحمـس هناك في حينه نشيدا وطنيا عن بطولات ثوارها ظلوا يرددونـه لسنوات عديدة. وقد كتب عدد من كبار الشعراء الكرد من أمثـال بيرة ميرد وعبد الخالق اسيري كركوكي وغيرهما قصائد رائعـة عـن انتفاضـة 1925 أغنـوا بـها الأدب الكـردي الثـوري المعاصر(58). ومن المهم جداً أن نشير الى أن انتفاضـة عـام

---

(57) (The Near East and India) , August 27 , 1925 .

(58) كتب الشعراء الكرد في العراق عدداً كبيراً من القصائد الطافحة بالمشـاعر القوميـة لمناسبة قيام الانتفاضة، ويوجد بين هؤلاء الشعراء من دبج يراعه اكثر من قصيدة عصمـاء تغنى فيها ببطولات الثوار الكرد في تركيا من منطلقات قومية صرفة، منهم الشاعر الكبير. "بيره ميرد"(أنظر: محمد رسول هاوار، بيره ميردى نه‌مر 1867 – 1950، بغـداد،1970، ل 103 – 106. ولقد اولت صحيفة (زيانه‌وه)، التي كانت تصدر في مدينة السليمانية آنذاك، اهتماماً استثنائياً بأحداث الانتفاضة وتطوراتها على شتى الصعد، وبما كتب عنها من شعر ونثر، كمـا نشرت سلسلة مقابلات مهمة حول الانتفاضة من حيث دوافعها وأهدافها مع أنـاس مـن أمثال الشيخ مهدي بيران، أخ الشيخ سعيد بيران، والسيد عبد الله بن السيد عبد القادر، ممـا يجعل الصحيفة مصدرا أصيلا من شأنه ان يلقي أضواء إضافية على جوانب مختلفة من تـاريخ الانتفاضة (نشرت "زيانه‌وه" مقابلتها مع الشيخ مهدي بيران في عددها الصادر يوم السـابع عشر من كانون الاول 1925، ومع السيد عبد الله في عددها الصادر يوم التاسع والعشـرين من تشرين الاول العام نفسه) .

1925 في كردستان تركيا أثارت أيضاً الحماس في نفوس أبناء الأقليات القومية المضطهدة في تركيا، والذين وقفوا منذ البداية الى جانب اخوانهم الثوار، وكان ذلك يعكس في الواقع استياءهم مما كانوا يلاقونه بدورهم من اضطهاد قومي واجتماعي، دفعهم الى صفوف معارضي السلطة القائمة. فقد وقف العرب والآثوريون والارمن داخل تركيا الى جانب الانتفاضة، وانخرط العديد من أبناء هذه الأقليات في صفوف الثوار. وقد أشارت بعض الصحف في ايام الانتفاضة الى ان عرب تركيا كانوا ينظرون بعطف الى الحركة الكردية، والى ان الحكومة التركية كانت تخشى انضمامهم اليها، فاتخذت اجراءات حازمة للحيلولة دون ذلك[59]. واتخذ الاثوريون والارمن موقفاً مشابهاً لذلك. فقد اشارت وكالات الأنباء الى ان السلطات التركية قبضت على عدد من الارمن والنساطرة الذين كانوا في صفوف الثوار، وعثرت بحوزتهم على وثائق تثبت ان هنالك اتفاقاً بين الكرد والارمن حول انشاء حكومة ارمنية وأخرى كردية في شرق اناضول[60]، وحينما قام أبناء عشيرة هفيركي في منطقة طور عابدين انضم اليهم عدد كبير من الآثوريين وغيرهم من مسيحيي المنطقة، وعلى الاخص فلاحي قرية ازخ، بحيث اضطر حوالي ألف وخمسمائة منهم الى ترك أراضيهم والالتجاء الى العراق[61]. ولهذه الأسباب بالذات شملت آثار سياسة القمع

---

(59) "العالم العربي"، 6 اذار 1925 .

(60) "العراق"، 26 اذار 1925.

(61) " Report ... on the adminitration of Iraq for the year 1926 ", p. 16 .

والارهاب، التي تبنتها السلطات الحاكمة في أيام الانتفاضة وبعدها، الاقليات القومية في البلاد أيضا. فبعد الانتفاضة منعت الحكومة التكلم لا بالكردية فحسب، بل بالعربية أيضا، وشكلت دوريات خاصة لتطبيق ذلك، إلا انها فشلت في أداء مهمتها فألغيت. وامتدت كذلك آثار سياسة التهجير القسري لتشمل العرب والآثوريين أيضا، وحتى ان قسما من أبناء القبائل العربية اضطروا للجوء الى العراق، كما جرى تهجير عدد كبير من آثوريي المناطق القريبة من كويان الى جهات نائية، وبينهم أطفال وشيوخ لقي العديد منهم حتفهم في الطريق، كما جرى شنق عدد كبير من الآثوريين بتهمة اشتراكهم في الانتفاضة الكردية[62].

وفي نفس الوقت وجدت انتفاضة عام 1925 صدى كبيراً لها بين الأوساط السياسية في عدد كبير من البلدان العربية، وحتى ان الصحافة المصرية، التي كانت تعطف منذ البداية على الحركة الكمالية بوصفها حركة تقدمية مناهضة للاستعمار، انتقدت موقف السلطات التركية اللاإنساني تجاه الشعب الكردي، وقد أولت الصحافة المصرية – "الاهرام" و "المقطم" وغيرهما – اهتماماً كبيراً بنشر أنباء الانتفاضة مع دوافعها وأهدافها، وكذلك نتائجها، فنشرت مقالات قيمة حول هذا الموضوع. ومن الجدير بالذكر ان عطف الصحف العربية في مختلف بلدان المشرق العربي على الثوار الكرد دفع بالسلطات التركية الى منع دخول هذه الصحف مهما كان مصدرها الى البلاد، كما منع عدد كبير من العرب في هذه الفترة (خاصة من سوريا) من الدخول الى

---

(62) "العراق"، 9 آذار و 23 حزيران و3 و 19 و21 أيلول 1925 .

تركيا، وقد طالبت جريدة "جمهوريت" التركية في ايام الانتفاضة بصراحة باتخاذ مثل تلك السياسة تجاه العرب .

وفي العراق أولى الرأي العام العربي اهتماماً بالغاً بالانتفاضة التي اندلعت بالقرب من الحدود العراقية في كردستان تركيا، وحتى ان رجال الحكم لم يخفوا ارتياحهم من وقوعها نظراً لان مشكلة الموصل كانت تمر في تلك الايام بأدق مراحلها. إلا ان الأكثرية الساحقة من العراقيين كانوا ينظرون بعين العطف والتأييد الى النضال البطولي لاخوانهم الكرد. وكرست الصحافة العراقية جانباً كبيراً من اهتمامها لتغطية أنباء الانتفاضة، وتحديد أسبابها، وكانت أكثريتها لا تخفي انتصارها لقضية الشعب الكردي العادلة، واستنكارها الشديد لسياسة حكام تركيا الشوفينية تجاه الكرد والأقليات القومية في البلاد. وان صحف "العالم العربي" و"العراق" وغيرهما طافحة بعشرات المقالات حول هذه المواضيع التي نشرتها في ايام الانتفاضة ولعدة اشهر بعد قمعها.

وأعارت الصحافة الغربية بدورها أحداث الانتفاضة الكردية اهتماماً واضحاً، إلا انها كانت واقعة الى حد كبير تحت تأثير الدعاية الرسمية لتركيا التي كانت تستهدف تشويه وجهها الحقيقي، وأدى ذلك، بدون شك، دوراً كبيراً في الموقف السلبي الذي اتخذه الرأي العام الغربي بالنسبة للأحداث الدامية في كردستان تركيا. ولكن على أي حال لم تجد اية حركة كردية من قبل مثل هذا الصدى الكبير الذي وجدته انتفاضة عام 1925 رغم نتائجها، وهي بذلك تحولت الى قوة دفع جديدة للقضية الكردية على الصعيد الدولي .

الفصل الخامس

تقويم المؤرخين لا نتفاضة 1925

تشكل حركة التحرر- الوطني للشعب الكردي الإطار العـام لتاريخ كردستان الحديث والمعاصر، فالشعب الكردي التجأ منـذ اكثر من قرن لكافة أساليب النضال السياسي والمسلح من اجـل حقوقه المشروعة، ومنذ ان وطـأت أقـدام المسـتعمرين هـذه المنطقة ، وبعد ان تسلمت البورجوازيتان التركيـة والفارسـية السلطة في تركيا وايران دخل النضال التحرري للشعب الكـوردي في مختلف أجزاء بلاده مرحلة من أهم مراحل تطوره التـاريخي ، بحيث أصبح يشكل جزءاً بارزاً من مجمل تـأريخ الشـرقين الادنى والاوسط، وقد صور المستشرق السوفيتي فاسيلييف هـذه الحقيقة بالشكل الآتي "لاتمر سنة او شهر وحتى يوم لا يحـدث فيه في زاوية من زوايا كردستان تحرك او اسـتياء"[1]. ولئـن بقيت السمات الاساسية لحركة التحرر - الوطني للشعب الكردي ككل متشابهة الا انها -الحركة - بحكـم ظـروف موضوعيـة معينة تطورت في كل جزء من أجزاء كردستان فـي مجـرى خاص بها، ولهذا أيضاً فان فترات المد والجزر التـي مـرت، وتمر بها تختلف من جزء الى جزء آخر من كردسـتان. فـالمد الواسع لحركات التحرر الوطني الذي شمل بعد الحرب العالميـة الأولى جميع شعوب الشرق الاوسط امتدت آثـاره الـى كافـة

---

(1) K. Vasilev, Prichini i dvijushie sili kurdskikh vosstanii, "Aqrarrie Problemi ", Moscow , kn . 9-10 , 1931, P.98.

أجزاء كردستان أيضا، إلا انها، لأسباب معينة نتطرق إليها فيما بعد، كانت ابلغ وقعا وأكثر أثرا في كردستان تركيا بالذات، التي شهدت في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين سلسلة واسعة من الانتفاضات والحركات المسلحة المنظمة والعفوية التي كانت تستهدف، في كل الأحوال، ضمان الحقوق القومية المشروعة للشعب الكردي. وكانت انتفاضة عام 1925 الكبرى نقطة بداية مهمة وبارزة في تلك السلسلة، والتي تشكل واحدة من ابرز صفحات تأريخ حركة التحرر – الوطني للشعب الكردي بأسره.

ولكن بالرغم من ذلك، وبالرغم من ان انتفاضة عام 1925 كانت، كما سنرى، نتيجة حتمية لظروف اقتصادية – اجتماعية داخلية معينة ولدتها أولا وقبل كل شئ السياسة الشوفينية البورجوازية التركية الحاكمة، وبالرغم من انها كانت تعبر عن آمال ومطامح مشروعة لمختلف فئات الشعب الكردي الاجتماعية التي ساهم ممثلوها بدرجات متفاوتة في صفوفها، بالرغم من كل ذلك، وغير ذلك لم تنج هذه الانتفاضة من كيل الاتهامات لها ووصفها بالنعوت المختلفة ذات المصادر المتباينة فقد اتهمت في الوثائق الرسمية، وعلى صفحات الجرائد، وفي تصريحات الرسميين، ومؤلفات المؤرخين، وحتى تناولتها ريش بعض الفنانين بالتجريح والتشويه[2]. ولم يقتصر ذلك على بلد واحد او على جهة معينة، فكانت صحف اليسار واليمين، ومؤرخو الشرق والغرب يرددون تقريبا نفس الاتهامات

---

(2) نشرت بعض الصحف السوفيتية في أيام الانتفاضة عددا من الصور الكاريكاتورية التي كانت تستهدف تشويه واقع اهدافها .

والنعوت التي كانت تصدر في انقرة، او استانبول، او "محـــاكم الاستقلال" في دياربكر وغيرها. وفي الواقع الصقت بانتفاضـــة عام 1925 تهم الرجعية والعمالة والتعصـــب الدينـــي الأعمـــى والبلشفية وغيرها في ان واحد. ولكن تهمة الرجعية هي الصفـــة الغالبة في مؤلفات المؤرخين الذين تطرقوا الى هذه الانتفاضـــة. فان ارمسترونك، الذي يرى في الكرد "أناساً جبليين متوحشـــين بدائيين ودينيين متعصبين" يستعرض أحداث انتفاضة عـــام 1925 بالشكل الآتي:

"على حين غرة ثارت القبائل الكردية التي تقطـــن الجبـــال الشامخات على الحدود الايرانية، إذ رفع الشيخ سعيد، الزعيـــم التقليدي لدراويش النقشبندية راية الثورة مع شعار ينادي بســقوط جمهورية انقرة الملحدة، وبالحياة للسلطان والخليفـــة.. وتحـــرك الاكراد يقودهم دراويشهم تحت راية النبـــي الخضـــراء لإنقـــاذ الاسلام، والقضاء على الاتراك الملحدين "[3].

إلا ان ارمسترونك في الوقت الذي يصف الحركـــة بـــهذه البساطة، وينسى او يتناسى دور الوطنيين الكـــرد فـــي إزاحـــة الخليفة الذي تحول في نظر الكرد قاطبـــة الـــى رمـــز الظلـــم والاضطهاد، يعترف، مناقضاً نفسه بذلك، بأن الانتفاضة "شـملت كل كردستان" وبان الشيخ سعيد "مات من أجـــل بـــلاده"[4]. ولا يخلو من فائدة ان نشير الى ان ارمسترونك الذي أعطـــى ابلـــغ وصف لما "عملته النار والسيف والسهم" في "تدمير كردســـتان" و"حرق المزارع و البساتين وتعليق النساء والاطفال على اســـنة

---

(3) H. C. Armstrong , Op. Cit. , P. 264 .

(4) Ibid , P. 266 .

الحراب بعد الاعتداء على شرفهم" يصف الكرد، دون غيرهم، بالوحشية بسبب تأخرهم الخارج عن إرادتهم .

وكذلك كانت الانتفاضة في رأي المؤرخ الالماني داكو بيرت حركة دينية رجعية، ومن دون الوقوف على أهدافها الحقيقية، والتعمق في احداثها، يقول عنها:

"دعا الشيخ سعيد الاكراد الى انتفاضة عامة ضد الجمهورية التركية، وخلال لحظات اصبحت كردستان كتلة من نار، وقد علق على جدران دياربكر (عاصمة كردستان) المبنية من الحجر الأسود، بيان تضمن منهاج المتمردين حول إعادة الشريعة وتنصيب سليم افندي ابن عبد الحميد سلطانا وخليفة"[5].

وأعطى ليستر رأيا مطابقا لذلك فيقول: "قام الكرد بثورة في عام 1925، قادها شيخ نقشبندي (يقصد الشيخ سعيد بيران ك . م.) رفع علماً إسلامياً أخضر، معلناً الجهاد المقدس ضد الحكومة الجمهورية الملحدة "[6]. وبنفس المستوى من السطحية يفسر نفس المؤلف سبب فشل الانتفاضة، إذ يرى "ان ما اربك القضية هو ان الكرد جميعهم لم يكونوا من اتباع نفس طريقة الشيخ"، او بكلمة أخرى ان سبب فشل الانتفاضة في رأيه يعود الى ان جميع الكرد لم يكونوا من اتباع النقشبندية كما كان عليه الأمر بالنسبة لقائد الانتفاضة الشيخ سعيد نفسه.

لم تجد انتفاضة عام 1925 صدى احسن من ذلك لها في الاستشراق السوفيتي، إذ وقع معظم المستشرقين السوفيت، على ما يبدو، تحت تأثير "الحقائق" و"الوثائق" التي اختلقها الكماليون.

---

(5) Dagobert von Mikusch , Op . Cit ., P. 361 .

(6) R. B. Lister , Op. Cit., P. 240 .

ففي أحرج أيام الانتفاضة نشر بوكار يلوك في مجلة "المخبر العسكري" مقالا تحت عنوان "حركة معادية للثورة في كردستان" أشار فيه الى "ان إصلاحات مصطفى كمال الراديكالية، كإلغاء الخلافة وطرد السلطان، والاستيلاء على الأراضي، والقضاء على المدارس الدينية وغيرها كانت تشكل العوامل الرئيسة لإثارة التذمر بين المتدينين وشبه الاقطاعيين من ملاكي الولايات الشرقية والسكان المتخلفين فيها"(7). أما ك. فاسيلييف فانه يرى في جميع قادة الانتفاضة وغيرهم "عملاء مأجورين أفسدهم ذهب المستعمرين"(8).

بالمقابل أخذ المستشرق السوفيتي المعروف ف . راستويجين على عاتقه مهمة الرد على هذا الاتجاه الذي كان سائدا في الاستشراق السوفيتي. ففي مقال مفصل له نشره عام 1932 تحت عنوان "ملاحظات حول الاكراد" فضح بالاستناد الى حقائق دامغة السياسة الشوفينية للأوساط التركية والايرانية الحاكمة تجاه الشعب الكردي، وفي ضوئها حدد رد الفعل الطبيعي الذي ساد مختلف أجزاء كردستان في شكل انتفاضات مسلحة، وبعد ذلك يتوصل الى الحصيلة العلمية الآتية: "ان ما يؤسف له هو انه في بعض الأحيان تتسرب بأسلوب تهريبي نظريات استعمارية من نفس طينة نظريات "ايران" و"حاكميت ميللي" و"التايمس"(9) وأخرى كثيرة، حتى الى الاستشراق

---

(7) M. Pogorelov, Kontvrevolitsia v Kudrdisane, " Voestnik ", Mosscow, No . 11, 21 marta, 1925, P. 37 .

(8) K . Vasilev , Op . Cit. , P. 102.

(9) يقصد صحف "ايران" الفارسية و"حاكميت ميللى" التركية و" تايمس" اللندنية) التي كانت تنسب الى الشعب الكردي، وكفاحه التحرري شتى التهم والنعوت والصفات غير

السوفيتي. ان صورة الكردي "المتوحش"[10] الذي يعيش في (ظروف حياة عشائرية جامدة) والذي يثير باستمرار، وبايعاز من الانكليز انتفاضات رجعية، لم تمح نهائياً من صحافتنا بعد"[11].

وبعد هذا النقد يبدي ف. راستوبجين الملاحظة الآتية: "من الواضح جداً ان هذه النظريات التي غالباً ما تغلف بمصطلحات ماركسية تؤدي الى أضرار كبيرة، وتلعب موضوعياً دوراً رجعياً. ومن الواضح جداً اننا لا نستطيع التحرك من نقطة الجمود في دراسة المشاكل القومية – القبلية المحددة في الشرق من دون نضال حاسم ضد أمثال هذه النظريات"[12]. ولكن مع مزيد الأسف ظهرت هذه "النظريات" مرة أخرى الى السطح خاصة مع انتشار الرأي النظري الستاليني الخاطئ الذي كان يعتقد بان "البورجوازية ألقت راية النضال" فلذا لا يمكن لحركات التحرر – الوطني ان تحقق النصر بدون قيادة بروليتارية يمثلها حزب ماركسي. وهكذا فان تقييمات العشرينيات وبداية الثلاثينيات وجدت طريقها ثانية الى مؤلفات عدد آخر من المستشرقين السوفيت رغم محاولة راستوبجين

اللائقة، ولكن ينبغي أن نشير هنا الى ان "تايمس" كانت، للأسف الشديد، اكثر موضوعية وواقعية في تعاملها مع الكرد وحركاتهم، بما فيها انتفاضة 1925، من الصحف الايرانية والتركية والسوفيتية قاطبة.

(10) وصف المستشرق السوفيتي كوركو كرياجين الكرد بكونهم "نصف متوحشين" وذلك في بحث له نشره باللغة الروسية بعنوان "حركة التحرر الوطني في المشرق العربي" بلاد ما بين النهرين". أنظر: "Novi Vostok", Kn. 2, Moscow, 1922, P. 237.

(11) F. B . Rostopchin , Op . Cit. , P . 73.

(12) Ipid , P. 73.

الموضوعية لتقويم أحداث كردستان بشــــكل عــام. ففــي رأي المؤرخ السوفيتي المعروف البروفيسور ا. ف . ميللر تضــافرت عوامل عديدة خارجية وداخلية ذات مصادر واصــــول مختلفــة أدت "في شباط عام 1925 الى قيام انتفاضة القبائل الكردية فـــي المناطق الجنوبية الشرقية من تركيا بقيادة الشيخ سعيد"[13]. واهـم هذه العوامل، في رأيه، هو ان الصراع البريطــــاني – الــتركي حول مصير ولاية الموصل كان قد وصل الى احرج مراحلــــه، فأراد الانكليز إظهار الشعب الكردي أمام الرأي العــام العــالمي في "ثوب المتذمر من حكم انقرة" لــذا "أقــام عمــلاء الانكلــيز اتصالات سرية مع الشيخ سعيد، وزودوه بالسلاح والمال، كمـــا بعثوا من العراق بقوى مسلحة كردية وآثورية الــــى الأراضـــي التركية لمساندة المتمردين"[14].

ومن ناحية أخرى يـــرى البروفيســور ميللــر ان القــوى الرجعية، وعلى رأسها "حزب التقدم" المعارض "استطاعت، بعــد إبعاد عصمت اينونو عن الحكم والمجئ بعلي فتحي بيــك الــى الوزارة" القيام بحملة دعائية واسعة ضد الكماليين، خاصة فـــي استانبول والمقاطعات الشرقية المتأخرة (يقصد كردستان تركيـــا – ك . م) سرعان ما أعطت ثمارها "[15].

ومن الجدير بالذكر ان معظم المؤرخين الســـوفيت الذيــن كتبوا عن تاريخ تركيا المعاصر يرددون، لــدى تطرقــهم الـــى انتفاضة عام 1925، نفس آراء البروفيســور ميللــر، بشــكل او

---

(13) A.F. Miller, Ocherki Noveyshey Istorii Turtsii, Moscow, 1948, P. 150.

(14) Ibid, P. 151.

(15) Ibid, P. 150.

بآخر، حول طبيعة الحركات الكردية ودوافع انفجارها. ففي رأي فاريزوف[16] مثلاً رفعت جميع الانتفاضات الكردية، وعلى رأسها انتفاضة عام 1925 "شعارات رجعية" وكانت تحدث نتيجة "مساندة مباشرة من جانب المستعمرين الانكليز والفرنسيين لها"[17]، مع العلم ان مثل هذا التقويم غير المنصف لفاريزوف ورد تحديداً في اطروحته لنيل شهادة الدكتوراه التي تحمل مثل هذا العنوان المعبر "موقع حركة التحرر الوطني للكرد في نضال شعوب الشرقين الادنى والاوسط ضد الاستعمار" .

من المهم جداً ان نذكر ان أياً من المؤرخين الأجانب لم يجر دراسة مفصلة لانتفاضة عام 1925، والظروف التي أدت الى انفجارها، بينما لا يمكن أبداً إعطاء تقويم سليم لطبيعتها بدون دراسة مستفيضة لظروف كردستان السياسية والاقتصادية – الاجتماعية في تلك الفترة، وبدون تحديد الجذور التاريخية للانتفاضة كحلقة بارزة في سلسلة معقدة تعود بداياتها الى ما قبل ظهور الكماليين على المسرح السياسي بفترة طويلة. فان البروفيسور ميللر، مثلاً، يتطرق بشكل عرضي في كتابه الكبير الى انتفاضة عام 1925، ويصدر حكمه الخطير حول ما يدعي من "اتصال عملاء الانكليز بالشيخ سعيد" وتزويدهم إياه "بالمال

---

(16) الدكتور فاريزوف هو من كرد جورجيا الذين يتركزون أساساً في العاصمة تبليس، وجلهم من اليزيديين، ويعتزون بأرومتهم الكردية كما لاحظت شخصيا ذلك في اكثر من مناسبة .

(17) I. O. Farizov, Mesto natsionalno – osvoboditelnovo dvijenia kurdov v borbe narodov Blijnevo i srednevo Vostoka protiv Impeialisma, kand. Diss. , Moscow , 1953, p. 20.

والسلاح" دون ان يستند الى مصدر موثوق به، او الـــى وثيقـــة دامغة، ثم انه يجعل من قوى اليمين المعارضة للكماليين عـــاملاً محركا أساسياً للانتفاضة دون ان يأخذ بنظر الاعتبار حقيقـــة ان هذه القوى لم تستطع ان تجد لها قـــاعدة تذكـــر بيـــن الشـــعب الكردي، ففي الواقع اقتصرت صلات "حزب التقدم" الذي كـــان يشكل القوة المعارضة الاساسية لحزب الشعب الكمالي الحـــاكم، على بعض السياسيين الكرد في استانبول، والذين كان معظمـــهم على اتصال مباشر بالحركة السياسية التركية، فكانوا بعيدين عـن الكفاح التحرري لشعبهم. وكان من الطبيعي جداً ان لا يســـتطيع "حزب التقدم" ايجاد قاعدة قوية له بين الكرد لان مؤسسي هـــذا الحزب واهم أعضائه البارزين كانوا من أبرز قادة الاتحـــاديين الذين كانوا أول من تبنوا، وطبقوا سياسة التتريك بالنسبة للكـــرد، وذلك قبل ظهور الحركة الكمالية بسنوات، وكانت أحداث تلـــك السياسة وآثارها لا تزال ماثلة أمام أعين القوى القومية المؤثـــرة في المجتمع الكردي. وهكذا وقعت في أيام انتفاضة عـــام 1925 أحداث تثبت تماما عكس ما ذهب إليه البروفيسور ميللر وغـــيره من المؤرخين، فقد شارك أعضاء "حزب التقدم" المعارض فعـــلاً الى جانب القوى الحكومية في القضاء على الانتفاضة في بعـض مناطق كردستان، كما حدث في خربوط مثلا[18].

وبنفس المستوى غض البروفيســـور ميللـــر، ومؤرخـــون كثيرون آخرون، النظر عن حقيقة مهمة أخـــرى تتعلـــق بفشـــل

(18) " Survey of International Affairs 1925" , Vol. 1 , The Islamic World since the Peace Settlement , by Arnold J. Toynbee , Xford Universty Press , London , 1927 , P. 509.

"محاكم الاستقلال" التي حاكمت خلال عام 1925 عدداً كبيراً من قادة المعارضة من أمثال حسين جاهد بيك محرر صحيفة "التنين" المعروفة وغيره، في إثبات وجود علاقة مباشرة او غير مباشرة لهم بالانتفاضة الكردية التي استغل الكماليون، في الواقع، انفجارها فرصة للايقاع بمعارضيهم. ثم ان حسين جاهد بيك نفسه، الذي القي القبض عليه في السابع عشر من نيسان 1925، ونفي بقرار من "محكمة الاستقلال" صدر في السابع من أيار، كان صحفياً معروفاً بأفكاره اللبرالية، وبتوجهاته العلمانية على نطاق واسع معروف حتماً لدى كل متخصص في تاريخ تركيا الحديث والمعاصر.

وفي السياق ذاته ينبغي ان نشير الى نقطة مهمة أخرى تنطوي على مغزى عميق بالنسبة للاتهامات التي وجهها الكماليون الى انتفاضة 1925 الكردية، والتي كان من المفروض ان لا يتجاهلها البرفيسور ميللر وغيره، وهي ان السكان الترك في مدن ارضروم وطرابزون وسامسون وتوابعها المعروفين بتوجهاتهم الفكرية المحافظة، وبتعصبهم الديني لم يكترثوا باحداث كردستان في شباط – اذار 1925، بل قاموا بعد حوالي ثمانية اشهر بحركة معادية للكماليين، ولاصلاحاتهم العلمانية [19]، دون ان تحظى حركتهم بتأييد الكرد المستائين [20].

وهكذا فان معظم المؤرخين الأجانب الذين تطرقوا الى انتفاضة عام 1925 وقعوا، بشكل او آخر، تحت تأثير الحملة

---

(19) "The Times" , November 26 , 1925 .

(20) لم نعثر من بين المصادر الكثيرة التي اطلعنا عليها حتى الان، على ما يؤيد وقوف كرد تركيا الى جانب تلك الحركة .

الواسعة التي نظمتها السلطات التركية الحاكمة ضدها، والتي وجدت لها صدى واسعاً في الصحافة العالمية أيضاً، وفي الواقع لم ينج منها، ومن آثارها سوى عدد قليل جداً من المستشرقين الذين حاولوا إعطاء صورة حقيقية عنها، وعن ظروف الشعب الكردي التي كانت تشكل العامل الحاسم لانفجارها، ويأتي على رأس هؤلاء المؤرخ الفرنسي الأب توما بوا (ل. رامبو)[21]. الذي كتب في مؤلفاته، وعلى وجه الخصوص في كتابه "الكرد والحق" الذي نشره باللغة الفرنسية عام 1947، بشكل موضوعي عن تأريخ الشعب الكردي بشكل عام، وعن تأريخ النضال التحرري في كردستان تركيا بشكل خاص[22].

ونشر المؤرخ البريطاني المعروف ارنولد توينبي معلومات مهمة كثيرة، وموثوقة عن انتفاضة عام 1925 بعد قمعها بفترة قليلة ، وهي تساعد بشكل خاص في كشف الدوافع الحقيقية التي تكمن وراء الحملة الرسمية التي نظمها ضدها المسؤولون، والصحافة التركية من أجل تصوير أحداث كردستان تركيا في إطار "كفاح عام بين التقدم والارتجاع"، وقد ذكر توينبي بهذا الصدد "ان الحكومة التركية لديها دوافع قوية لتقلل من الاتجاه

---

(21) قضى الأب توما بوا مدة طويلة بين الشعب الكردي، فاعجب بطيبة أبنائه وكرمهم، وكما ذكر لصاحب هذه الدراسة أثناء لقائه به في مؤتمر الاستشراق بباريس تموز سنة 1973 ان ما دفعه بصورة خاصة الى الاهتمام بتاريخ الكرد هو انه لم يلق العناية الكافية من لدن المؤرخين، فدبج يراعه الخصب عدداً كبيراً من الكتب الجديرة بالاهتمام حول الكرد وثقافتهم، بما في ذلك بحثه عن الكرد وكردستان الذي نشره في الطبعة الأخيرة من " دائرة المعارف الاسلامية ".

(22) L. Rambout, Les Kurdes et le droit, Paris, 1947. ينظر كذلك

لوسيان رامبو، الكرد والحق، ترجمة عزيز عبدالاحد نباني، اربيل، 1998 ،ص43– 46.

الرجعي فيها"، كما يورد بعض الادلة المهمة التي تثبت ان "الانتفاضة لم تكن تعبيراً عن التصادم بين التقدم والارتجاع، بل كانت تعبيراً عن التصادم بين القومية التركية والكردية" [23].

أما ارشاك سافرستيان فانه يستعرض بإيجاز اوضاع الشعب الكردي في ظل الامبراطورية العثمانية، ويبين كيف "ان العنصر الكردي قدم خدمات جلى لهذه الامبراطورية، فأريقت دماء أبنائه من أجل حمايتها، وقدموا لها رجال دولة وموظفين كباراً لادارتها"[24]. ثم يتطرق الى الظروف التي ادت الى "التباعد بين العنصرين التركي والكردي"، وسياسة الصهر التي تبناها الاتحاديون، والتي ساعدت في تسريع "عملية التباعد" هذه التي حاول الكماليون في بداية حركتهم تحويل مسارها الى الاتجاه المعاكس لضمان النصر على أعدائهم، فبدءوا، كما يذكر سافرستيان، يذكرون في مجالسهم ومطبوعاتهم "ان تركيا أرض أجداد الترك والكرد على السواء، ويحق للشعبين فقط التكلم باسمها"[25]. ولكنهم ما ان انتصروا في فرض معاهدة سلم جديدة على الحلفاء في لوزان حتى "قلبوا ظهرهم للكرد، ونقضوا كل الوعود والتعهدات التي أعلنوا عنها خلال أزمتهم في الفترة من 1918 الى 1922".

وهكذا يحدد سافرستيان بإيجاز الإطار الواقعي لانتفاضة عام 1925 من خلال خلفيتها التاريخية، ويعلن ان الثوار الكرد "كانوا يحاربون بشجاعة اكثر (من الجنود الاتراك – ك. م)

---

(23) "Survey of Jntenational Affairs 1925", Vol. 1, PP. 508- 510.

(24) " Survey of Jntenational Affairs 1925 " Vol. 1, PP. 508- 510.

(25) Ibid, PP. 81 – 82.

لانهم كانوا يعرفون انهم يحاربون من اجل قضيتهم القومية "[26].
ويستعرض المؤرخ – السوفيتي ا. م. اسراتيان بدقة مظاهر السياسة الشوفينية للكماليين تجاه الشعب الكردي، ويعطي شواهد دامغة عن ذلك في مقاله القيم "سياسة الاوساط الحاكمة التركية نحو السكان الكرد خلال 1924 – 1939"[27]. ان الحقائق المهمة الواردة في هذا المقال، والتي ترسم بوضوح الإطار الواقعي الرجعي لسياسة الكماليين القومية من شأنها ان تدفع أي شعب كان الى سوح النضال من اجل الحفاظ على كيانه ووجوده وكرامته، وتلك حقيقة تأريخية صارخة تجاهلها، بكل أسف، معظم الذين كتبوا عن أحداث انتفاضة عام 1925 الدامية.

لم تجد انتفاضة عام 1925 ما تستحق من الاهتمام من لدن المؤرخين الشرقيين بالرغم من أهميتها، وعلاقتها بعدد من الأحداث السياسية المهمة. فمثلا بالرغم من تأكيد السلطات التركية الحاكمة، وعدد غير قليل من المؤرخين الغربيين على العلاقة المباشرة بين قيام انتفاضة عام 1925 ومسألة النزاع البريطاني التركي حول مصير ولاية الموصل، فان الدكتور فاضل حسين لم يتطرق في كتابه المخصص لدراسة هذه المشكلة بالذات الى موضوع الانتفاضة وعلاقتها بها سوى بشكل عرضي، وفي أسطر قليلة هي بالأساس إعادة لأقوال بعض المؤرخين الأجانب، والصحف الغربية [28]. مع العلم ان الكتاب

(26) Ibid , pp . 82 – 83 .

(27) A . M . Asratian , Op . Cit . , PP . 120 –137 .

(28) الدكتور فاضل حسين، المصدر السابق، الطبعة الأولى، بغداد 1955، ص 132–133، الطبعة الثانية، بغداد 1967، نفس الصفحات .

في الأصل هو اطروحة لنيل شهادة الدكتوراه قدمت الى جامعة انديانا الامريكية سنة 1952. ولم يخصص الدكتور شاكر خصباك عدا حيز صغير في كتابه لاحداث كردستان تركيا في العام 1925، وفي رأيه انه "مهما كانت حقيقة العوامل المباشرة للثورة فقد استغلها الوطنيون الاكراد للقيام بثورة عامة لطرد الاتراك من كردستان"[29]. وتطرق عدد آخر من المؤرخين والمؤلفين الشرقيين الى الحركة الكردية في تركيا، إلا ان أيا منهم لم يتعمق في سرد أي من أحداثها، بل على العكس حاول بعضهم أيضا طمس وتشويه حقائقها [30].

وكما هو معلوم لم تتسن للأكراد أنفسهم، وحتى اليوم، الظروف المناسبة لتدوين تأريخهم بأنفسهم، ويكمن في ذلك، حسبما نعتقد، أحد الأسباب المهمة لتشويه جوانب عديدة لذلك التأريخ من قبل المؤرخين الأجانب. فبالرغم من ان أحداث ومآسي انتفاضة عام 1925 هزت ضمير كل وطني كردي من الأعماق، وبالرغم من تغني عدد من كبار شعرائنا بأمجادها وبطولاتها، وبالرغم من تأكيد الاوساط السياسية الكردية في ادبياتها على مكانتها الكبيرة في تاريخ كردستان المعاصر، إلا ان المكتبة الكردية لا تزال تفتقر الى دراسة علمية مفصلة عنها ، شأنها في ذلك شأن معظم أحداث مختلف مراحل التأريخ الكردي[31]، وحتى ان مؤرخنا الكبير الأستاذ محمد أمين زكي قد

---

(29) الدكتور شاكر خصباك، الكرد والمسألة الكردية، بغداد 1959، ص 34.

(30) ينظر على سبيل المثال كتاب كاظم حيدر، الاكراد. من هم والى اين ، بيروت، 1959 .

(31) دفع الاخلاص بالسيد عثمان حوزيري الى تأليف كتاب عن انتفاضة عام 1925 باللغة الكردية بعنوان "ثورة دياربكر"، يقع الكتاب في أربع وسبعين صفحة طافحة بعواطف

تردد في تقويم طبيعتها لانها، حسب رأيه، لم تعرف "حقيقتـــــها، وما هي الأسباب والعوامل الأصلية التي أدت الى حدوثــــها"[32]. ولم يتطرق الأستاذ علاء الدين سجادي فـــي كتابــه "الثـورات الكردية" الى تاريخ تلك الانتفاضة ســوى فــي صفحــات جـد قليلة[33]، مع انه افرد من الكتــاب فصــولا خاصــة لأحــداث، وانتفاضات لم تبلغ مستواها مـــن حيــث الخطــورة والأهميــة والنتائج. ولقد دأب معظم المؤرخين الكرد الآخريــــن، وكذلــك الصحافة الكردية على إعادة بعض الجمل والمقـــاطع العاطفيــة لعدد من المؤرخين الغربيين عن الانتفاضة، وفي الغالب باسلوب "ولا تقربوا الصلاة". ولكن يجب ان نشير الى ان مجلـــة "رۆژي نوێ" الكردية بذلت بعض المحاولات الجيدة لإلقاء الضوء علـــى جوانب مهمة من تأريخ حركة التحرر - الوطني في كردســـتان تركيا، بما في ذلك أحداث انتفاضة عام 1925 [34]، وتحتل مقالات الاستاذ اسماعيل حقي شاويس، الـــذي عـــاصر أحــداث تلــك

حياشة تفتقر الى الأسلوب العلمي في البحث والتقصي (عثمان عوزيرى، شورشي ديلوبكر، سليماني، 1961). ولكن، على مايبدو، صدرت في السنوات الأخيرة سلسلة من الدراســات الرصينة عن تأريخ كردستان تركيا، بما في ذلك عن انتفاضة 1925، من تأليف مثقفــين كرد، لم يتسن للمؤلف الاطلاع عليها حتى الآن .

(32) محمد أمين زكي، خلاصة تأريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التأريخيـــة حـــتى الان، نقله الى العربية وعلق عليه محمد علي عوني، القاهرة 1939، ص 287 .

(33) علاء الدين سجادي، شورشةكان كوردو كومارى عيراق، بەغدا 1959،ل 24، 53-55.

(34) "رۆژى نوێ" (مجلة)، السليمانية، العدد الســـادس، ايلــول 1960، ص 42- 45، العدد السابع، تشرين الاول 1960، ص 35 - 29، 50 - 53، العدد التاسع، كانون الاول 1960، ص 24 - 30، العدد الاول، مارت 1961، ص 1-8 .

الحركة، وساهم فيها بنشاط[35]، مكانة خاصة بين مواد تلك المجلة حول هذا الموضوع .

ومن الضروري هنا ان نشير أيضاً الى بعض المصادر المهمة التي نشرها عدد من الوطنيين الكرد باللغة التركية، ويأتي على رأسها الكراس الذي كتبه الجنرال احسان نوري باشا، وهو واحد من ابرز قادة الكفاح التحرري للشعب الكردي في تركيا، وأحد المشتركين في الانتفاضة نفسها، ولذا يكتسب كراسه، الذي نشره بعد قمع الانتفاضة مباشرة، والذي يحمل عنواناً ذا مغزى بالنسبة لموضوعنا هو "انتفاضة الكرد القومية"[36]، أهمية استثنائية، ويعتبر مصدراً أصيلاً لا يستغنى عنه بالنسبة لكل باحث عن تاريخ كردستان المعاصر، خاصة وان صاحبه حدد بدقة أسباب الانتفاضة في محاولات الكماليين لطمس معالم اللغة الكردية، وسوء الإدارة، والاستبداد العسكري، وسياسة بث التفرقة بين العشائر الكردية، وتزوير الانتخابات في الولايات الشرقية، وسياسة التتريك والتهجير وغيرها من

---

(35) أكد المرحوم ممدوح سليم ، أحد رجال الفكر المعروفين الذين أدوا دوراً متميزاً في الحركة القومية الكردية في تركيا، هذه الحقيقة للمؤلف اكثر من مرة أثناء لقائه به في دمشق سنة 1972 .

(36) بتليسي احسان نوري،كورد قيام مليسي. اسبابي، اهميت عسكريةسي، صورت سوق و إداره سي 1341 – 1925، بغداد استقلال مطبعه سنده طبع اولونمشدر. من المفيد ان نشير الى ان صحيفة "زيانه وه" ترجمت الكراس الى اللغة الكردية مباشرة، ونشرتها في ثلاث حلقات باسم البكباشي والمجاهد في الحركات القومية في كردستان الشمالية احسان نورى، وتحت عنوان "الانتفاضة القومية الكردية وأهميتها العسكرية" (تنظر : "زيانه وه"، الاعداد 39-41، 10و 17 و 24 أيلول 1925)، كما ترجم المؤرخ جميل الروزبياني الكراس مرة ثانية، ونشره مع تعليقاته في العام 1993 .

العوامل المهمة التي لا تمت الى العوامل التي فبركتها الدعاية الكمالية، ورددها عدد كبير من المؤرخين، بأدنى صلة، وهذه حقيقة مهمة يجهلها، مع مزيد الأسف، معظم المؤرخين الأجانب الذين أصدروا أحكاما سطحية بحق انتفاضة عام 1925.

والى جانب هذا الكراس المهم نشر كل من عبد العزيز ياملكي[37] والدكتور نوري درسيمي[38] كتاباً مستقلاً باللغة التركية عن تاريخ كردستان تركيا الحديث يحتويان على وثائق ومعلومات هامة عن انتفاضة عام 1925، وهما يشكلان، بدورهما، مصدرين أصيلين للمعنيين، لان الاول عاصر الأحداث وراقبها عن كثب، والثاني اشترك في الانتفاضة نفسها.

تشكل معظم الأبحاث والكتب التي ورد ذكرها مصادر مهمة للبحث عن انتفاضة عام 1925، إلا انها، مع ذلك، لا تعطي الإمكانية الكافية لإلقاء الضوء على مختلف جوانبها، والقضايا المتعلقة بها. ولكن بالامكان ملء جانب مهم من ذلك الفراغ المحسوس عن طريق مواد الصحف الشرقية والغربية التي تشكل بالنسبة لمثل هذه الأبحاث مادة أصيلة لا غنى للمؤرخ عنها. ومن الجدير بالذكر ان صاحب هذه الدراسة استطاع الحصول على معلومات قيمة عن طريق اتصالاته الشخصية ببعض المشتركين في الانتفاضة، والذين يشكلون، بطبيعة الحال، مصدراً مهماً أصيلاً يساعد الباحث في كشف

---

(37) عبد العزيز ياملكي، كوردستان وكرد احتلال لري، جلد 1، تهران، 1946، ص 70 – 88 .

(38) Dr. Vet. M. Nuri Derismi, Kurdistan Tarihinde Dersim, Halep, 1952, 340 SS .

قضايا حساسة قد تكون بعضها خافية على المعنيين بدراسة تاريخ تطور حركة التحرر- الوطني للشعب الكردي .

يظهر من هذا العرض السريع للمصادر والمؤلفات التي تطرقت، بشكل او آخر، الى انتفاضة عام 1925 ان هذه الحركة لم تجد لها ما تستحق من المكانة في التاريخ المدون، كما ان أقلام معظم المؤرخين تناولت أحداثها بشكل غير موضوعي، ولقد جلبت هذه الحقيقة المرة أنظار صاحب هذا البحث منذ الأيام الأولى لدراسته في الخارج، فبدأ يعيرها اهتماماً خاصاً، ويجمع منذ ذلك الوقت كل مادة ووثيقة تمت بادنى صلة الى حركة التحرر الوطني في كردستان تركيا بشكل عام، والى انتفاضة عام 1925 الكبرى بشكل خاص. ولاول مرة كتب حول هذا الموضوع في اطروحته التي قدمها الى معهد شعوب آسيا التابع لاكاديمية العلوم السوفيتية لنيل الدكتوراه ناقداً بشدة موقف معظم المستشرقين السوفيت من حركة الشعب الكردي التحررية في كردستان تركيا، وحاول تحديد الاطار الواقعي لانتفاضة عام 1925 كحركة ثورية استهدفت ضمان الحقوق القومية المشروعة للشعب الكردي، وكرد فعل طبيعي لسياسة البرجوازية التركية الحاكمة في المسألة القومية. وأعطت محاولته تلك نتائج مشجعة لا يخلو تسجيلها هنا من فائدة، خاصة لانها تتضمن اعترافاً رسمياً من جهة علمية عليا بتلك الحقائق، مع تراجع علمي رفيع عن أخطاء وقع فيها الاستشراق السوفيتي. فجاء في القرار الذي اتخذه معهد شعوب آسيا بمناسبة المناقشة الأولى لأطروحة المؤلف في بداية عام 1963 ان على المختصين السوفيت "إعادة النظر في آرائهم حول انتفاضة عام 1925 في كردستان تركيا

وذلك في ضوء الحقائق الواردة في هذه الاطروحة". واثر هـــذا القرار، وأثناء المناقشة الثانية للأطروحة في الخامس عشر مـــن مايس عام 1963 سجل قسم العلاقات الدولية في نفـــس المعـــهد الراي الآتي في قراره النهائي حولها: "ان الأهمية التي لا شـــك فيها في اطروحة كمال مظهر احمد هي تفنيده المستند بشكل جيد الى الحجج للآراء الجامدة التي كانت شائعة بيننا حـــول طبيعـــة العمالة الشاملة لجميع الحركات الكردية وكأنها كانت تثار مـــن قبل الانكليز لخدمة أهدافهم في الشرق الأدنى، فلقد اثبت صاحب الاطروحة ان انتفاضات كردستان لم تكن ســـوى رد الجمـــاهير على الاستغلال الكولونيالي (في العراق) والسياســـة الشـــوفينية للحكومات البورجوازية -المالكة (في تركيا وايران والعـــراق). ولن مقارنة الراي الذي كان شائعاً بيننا حول طبيعـــة انتفاضـــة الشيخ سعيد في تركيا في عام 1925 كحركة مواليـــة للانكلـــيز بالحقائق الواردة في الاطروحة تفرض على الأقل تصحيحاً جدياً"(39).

وفي نفس الوقت اعترف المستشرق السوفيتي المعـــروف و. فلجيفسكي في رأيه المفصل الذي سجله حول اطروحة المؤلـــف بخطل تقييماته السابقة بخصوص حركـــة التحـــرر - الوطنـــي للشعب الكردي، بما فيها انتفاضة عام 1925.

---

(39) يحتفظ المؤلف بصورة مصدقة لهذين القرارين، ويحمل الأول منهما توقيع كـــلٍ مـــن نائب رئيس معهد شعوب آسيا التابع لأكاديمة العلـــوم الســـوفيتية ر . ت . اخراموفيتـــش البروفيـــسور ب . م . دانتسيغ، أما القرار الثاني فيحمل توقيع الأخير بوصفه رئيســـاً لقســـم العلاقات الدولية في المعهد .

إن هذه الحقائق تبين، بدون شك، مـــدى أهميـــة وضخامـــة المهام التي تنتظر المؤرخ الكردي الذي يقع على عاتقـــه قبـــل، واكثر من غيره، واجب سبر أغوار مختلف مراحل تاريخ شـــعبه الحافل بالأحداث الدامية، والبطولات الفذة، والماسي النادرة.

المحتوى

صدر عن رابطة كاوا للثقافة الكردية

- كفاح واستشهاد البطل السوفياتي الكردي فيودور ليتكين، تاليف: يوري سالنيكوف، ترجمة : بافى نازي .
- كردستان والمسالة الكردية، البرفسور بافيج، ترجمة: برو.
- لمحات من تاريخ الانتفاضات والثورات الكردية إعداد: ابو شوقي.
- الحركة الوطنية الديمقراطية في كردستان - العراق (1961 - 1968)، ش. ج . اشيريان، ترجمة: ولاتو.
- الجبال والسلاح، جيمس اولدريج، ترجمة: جوان .
- الجبال المروية بالدم، بافى نازي - ترجمة: رزو .
- انتفاضة الاكراد 1880 ، جليلي جليل ترجمة: سيامند سيرتي .
- قصائد من الفولكلور الكردي، تحقيق، حاجي جندي، اورديخان جليل، جليلي جليل، إعداد وترجمة: ولاتو .
- نهضة الاكراد الثقافية والقومية (نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين)، جليلي جليل - ترجمة: بافى نازي، ولاتو، كدر .
- القضية الكردية، ماضي الكرد وحاضرهم، جمعية خويبون الكردية الوطنية، النشرة الخامسة، د. بله ج شيركوه .
- كردستان تركيا بين الحربين، البرفيسور م . أ . هسرتيان، ترجمة: د. سعد الدين ملا، بافى نازي.
- في سبيل كردستان (مذكرات)، زنار سلوبي، ترجمة: د. رضوان علي .
- كردستان والاكراد، ملا . ع . كردي .
- الاكراد (ملاحظات وانطباعات)، الاكراد احفاد الميديين، ف . ف . مينورسكي، ترجمة: د . معروف خزندار، د . كمال مظهر احمد .
- الاكراد شعباً وقضية، تاليف: صلاح بدر الدين .
- Rêzmana Kurdî – Reşîd kurd
- بطولة الكرد في ملحمة قلعة دمدم، إعداد: جاسمي جليل، ترجمة: شكور مصطفى
- موضوعات كردية، صلاح بدر الدين .
- القضية الكردية والنظام العالمي الجديد، صلاح بدر الدين .

- (مدينتي الحبيبة هولير، مدينة المتناقضات)، حليمة السنجاري، رواية.
- (سروه)، حليمة السنجاري - رواية .
- البارزاني والحركة التحررية الكردية، مسعود البارزاني، 2/1 .
- دراسات في تاريخ الكورد، د. فرهاد بيربال .
- غرب كردستان-دراسة تاريخية-سياسية-وثائقية-موجزة صلاح بدر الدين.
- زنزانة كه فه ر، سلام عبد الله، ترجمة: احمد شوكت .
- Şevên Deşta Mêrdînê, Xemgînê Remo, Çîrok
- موجز عن مسيرة الصحافة الكوردية في غرب كوردستان - عبد القادر بدر الدين، بالكردية والعربية .
- القضية الكردية أمام التحديات - صلاح بدر الدين .
- المدن الكوردية - آزاد ديركي .
- West Kurdistan – Salah Bedreddin
- صلاح الدين الايوبي، موطنه الحقيقي والدور التاريخي للأيوبيين، عبد الخالق سرسام .
- الكورد في دائرة المعارف الاسلامية - ترجمة: حميد ريبوار
- زرادشت والزرادشتية، رمضان الداودي .
- تنظيم خويبون وثورة آكري، روهات الاكوم، مراجعة: شكور مصطفى .
- Zimanê Kurdî, Rênivîs, Deham Ebdulfettah
- يلماز كوناي ودور السينما الوثائقية في النضال الوطني، د . ابراهيم محمود
- الأدب الشفاهي الكردي، علي الجزيري .
- لقاء العظماء، مذكرات الكاردينال أ . فيليتشكي، ترجمة: عدنان بدر الدين
- وقائع المؤتمر التأسيسي لجمعية الصداقة الكردية - العربية .
- جمعية خويبون والعلاقات الكردية - الارمنية، محمد ملا احمد .
- الاصوليات الإسلامية وحقوق الانسان، د. هيثم المناع .
- دراسة عن محافظة الجزيرة، من النواحي القومية والاجتماعية والسياسية، الملازم اول محمد طلب هلال.
مجزرة حلبجة، (شعر)، حامد بدرخان .

- **HAWAR .**
- **RONAHI.**

- عشائر كردستان ، مجموعة من الباحثين .

انتفاضة عام ١٩٢٥ الكردية في تركيا

إن أياً من صفحات تأريخ الكرد المعاصر لم تُشوه بقدر ما شوهت أهم صفحات انتفاضة ١٩٢٥، التي تحتل، بجدارة، مكانة متميزة في ذلك التأريخ، ويعود أحد الأسباب الرئيسية لذلك إلى الجهود الحثيثة التي بذلها الكماليون في هذا المضمار على شتى الصُعد، فضلاً عن قدرتهم الحاذقة على قلب الحقائق رأساً على عقب كونهم يمثلون أسوأ نموذج للبورجوازية الصغيرة الشرقية فيما يتعلق بازدواجيتها الصارخة في تقويم علاقتها هي وعلاقات الآخرين بالأوساط الأجنبية. فما هو مشروع بالنسبة لها محرم على غيرها حسب قرار اعتباطي مجحف مفروض منها، وهذا بالذات يلقي مسؤولية إضافية، معقدة على عاتق المؤرخ الكردي.



أ. شاميلوف

حول مسألة الاقطاع بين الكرد

ترجمه وقدم له وعلق عليه

الدكتور كمال مظهر أحمد

الطبعة الثانية

(منقحة ومزيدة)

أ. شاميلوف

حول مسألة الاقطاع بين الكرد

ترجمه وقدم له وعلق عليه

الدكتور كمال مظهر أحمد

الطبعة الثانية

(منقحة ومزيدة)



بغداد ـ ١٩٨٤

А Ш ШАМИЛОВ

К ВОПРОСУ

О ФЕОДАЛИЗМЕ У КУРДОВ

صورة طبق الاصل لغلاف الكتاب باللغة الروسية

مقدمة
الطبعة الثانية

بوسع الدارس ، والمتتبع ان يتلمس حتى اليوم بقايا الفكر الاقطاعي ، ومظاهر اجتماعية واقتصادية مختلفة للمؤسسة الاقطاعية داخل المجتمع الكردي . ان هذا وحده يكفي لتحديد أهمية دراسة « الاقطاع الكردي » ، الموضوع الذي اوليته اهتماما خاصا منذ ان باشرت بدراساتي العليا ، فهو يحتل حيزا كبيرا في الرسالتين اللتين اعددتهما في تلك السنوات . ومنذ ذلك الوقت جلب بحث الكاتب الكردي المعروف أ . شاميلوف (عەرەبی شامۆ) « حول مسألة الاقطاع بين الكرد » ، الذي ألفه باللغة الروسية ، انتباهي ، فقدمت في العام ١٩٧٧ ترجمته العربية الى القراء الكرام . ونظراً لاهمية الموضوع ارتأيت ان أنشر طبعة ثانية للكتاب الذي لا يزال يحتفظ بمكانة متميزة في حقل الدراسات الكردية رغم مرور حوالي نصف قرن على نشره للمرة الاولى .

المترجم

مقدمة

الطبعة الاولى

لا يمكن تحديد الاطار الصحيح للاحداث التأريخية لاي مجتمع كان دون فهم خلفيتها بصورة واضحة يمكن معه وضع اليد على الحوافز والمحركات الخفية وراء سيرها وتطورها بأتجاه النصر أو الاخفاق • وأول متطلبات ذلك هو تقصي الواقع الاقتصادي ـ الاجتماعي للشعب المراد دراسة أحداثه في مرحلة تأريخية معينة • وقد غدا هذا الامر بالتدريج حقيقة يؤمن بها معظم المؤرخين الذين ينتمون الى مدارس فكرية مختلفة •

واذا كان تأريخ الشعب الكردي ما يزال يفتقر الى سلسلة طويلة من الدراسات الجدية لسبر أغوار وقائعه في جميع العصور ، فأن الهيكل الاقتصادي ـ الاجتماعي لهذا الشعب لا يزال يؤلف حقلا بكرا ينتظر جهودا مثابرة ضرورية للغاية اذا اردنا فهم « اللغز» الكردي فهما علميا صحيحا • فبالكاد تتجاوز البحوث المكرسة لتحليل هذا الجانب الحساس من حياة الشعب الكردي عدد أصابع اليد الواحدة(١) • حسبنا أن هذه الحقيقة تكفي لوحدها لتحديد

---

(١) تقتصر الدراسات الجدية في هذا المجال على مؤلفات الدكتور شاكر خصباك المعروفة وكتاب الدكتور عبدالرحمن قاسملو « كردستان والاكراد • دراسة سياسية ـ اقتصادية » الذي =

أهمية كتاب أ. شاميلوف « حول مسألة الاقطاع بين الكرد » ، وتكفي ايضا لتحديد حوافز ترجمته(٢) . والواقع اننا اذا اردنا ان نفهم التأريخ الكردي في اطار موضوعي لابد لنا من أن ندرس الاقطاع الكردي في اطار واقعي . فأن هذا النظام الاجتماعي يؤلف ، بجمع أنواع تشكيلاته البسيطة والمعقدة ، الخلفية الاساسية للجانب الاكبر من التاريخ الكردي المعروف . ولا تزال آثار هذا النظام ورونة تحتفظ بمواقع قوية في الفكر الكردى(٣) ، ولا سيما في

= طبع في الاصل باللغة السلافية (براتيسلاف ، ١٩٦٤) ومن ثم ترجم الى عدد من اللغات الاوربية والشرقية ، ورسالة الدكتور علي گلاويژ « العلاقات الزراعية في كردستان ايران المعاصرة » التي دافع عنها في العام ١٩٥٥ في باكو عاصمة آذربيجان السوفيتية مع دراسات عدد محدود من المستشرقين السوفيت ، وتأتي في مقدمتها مؤلفات و. فيلچيفسكي (راجع الهامش رقم ٦) وبحوث قليلة قدمها مؤلفون غربيون مثل كتاب فردريك بارث :-

F. Barth, Principles of Social Organization in Southern Kurdistan, Oslo, 1953.

(٢) شاميلوف ، حول مسألة الاقطاع بين الكرد ، باللغة الروسية ، يريفان ، ١٩٣٦ . نشره كبحث لاول مرة وتحت العنوان نفسه في دورية « مشاكل تاريخ مجتمعات ما قبل الرأسمالية » ، لينينغراد ، العدد ٩ - ١٠ ، ١٩٣٤ ، ص١١١ - ١٣٤ . (الترجمة الحرفية لعنوان الكتاب هي : « حول مسألة الاقطاع لدى (او عند)| الكرد ») .

(٣) الاقطاع ، كما هو معروف ، تكوين اقتصادي ، اجتماعي تمتد آثاره الى جميع نواحي حياة الفرد والمجتمع (بما في ذلك اسلوب التفكير والقيم) في مرحلة تاريخية طويلة الامد . وهذا بحد ذاته يجعل من دراسة الاقطاع في مختلف جوانبه امرا غير هين . ويمكن لمن يتصدى لمعالجة « الاقطاع الكردي» =

صورته المبسطة المتجسدة والسائدة حتى اليوم في ريف كردستان ٠

ان المهمة التي نتحدث عنها ليست بأمر هين ٠ فأن دراسة النظام الاقطاعي وتحديد معالمه ، سواء في اطار عام أو في اطار خاص، هي من القضايا الاجتماعية الحساسة التي يحيط بها قدر كبير من المصاعب والمشاكل الناجمة بالاساس عن تشابه جانب غير قليل من خصائص هذا النظام مع جميع مراحل ما قبل المجتمع الرأسمالي من قبيل سيطرة الاقتصاد الزراعي والانتاج الطبيعي ورتابة وسائل الانتاج وتطورها ، وكذلك الاختلاف البين في طبيعة هذا النظام ومراحله حسب مناطق وجوده ، فهي لذلك لا يمكن حصرها في النظام الاقطاعي ٠ ويمتد هذا الاختلاف الى اشكال الارض واسلوب استغلالها والى طبيعة النظام السياسي الاقطاعي وغير ذلك من الامور التي تعقد الى حد كبير مهمة دراسة المجتمع الاقطاعي الذي تدور حوله وحول مراحله حتى اليوم اختلافات في الرأي ونقاشات لتحديد جوانب مهمة منه(٤) ٠

= الموضوع البكر الى حد كبير ، ان يستفيد كثيرا من تجارب الدراسات العلمية للاقطاع في الاصقاع التي تتشابه معها كردستان من حيث ظروف المكان ٠

(٤) على سبيل المثال نذكر ان الماركسيين الذين درسوا الاقطاع من الناحية النظرية بشكل أشمل من غيرهم لم يتفقوا كليا حول مواضيع معينة لها علاقة مباشرة بهذا النظام الاجتماعي ٠ فلا يزال يدور نقاش علمي واسع بين علماء الاجتماع الماركسيين حول مسألة العلاقات الاقطاعية في بلدان الشرق ٠

واذا كان مثل هذا الحكم حول صعوبة دراسة الاقطاع شاملا ، فانه بالنسبة للشرق يتخذ طابعا اكثر تعقيدا . وهذا ما حدا بالعديد من المؤرخين الى انكار وجود العلاقات الاقطاعية أصلا في الشرق وذلك على أساس الاختلاف الواضح والحتمي بين المجتمعات الاوروبية والشرقية في العصر الوسيط ، مع العلم ان مثل ذلك التباين في التفاصيل لم يقتصر على الاقطاع بل سبقه واتبعه . فالمجتمعات الرأسمالية والاشتراكية تتشابه فيما بينها وتختلف في آن واحد . تتشابه من حيث النواميس الاساسية التي تحدد الاطار العام لنظمها ، وتختلف بحكم ظروف الزمان والمكان . وبالنسبة للاقطاع فبالرغم من جميع الاختلافات التأريخية المحددة والتباين حسب المكان فان توفر شرطين أساسيين يحددان طبيعة علاقات الانتاج أمر ضروري لاعتبار النظام القائم اقطاعيا ، هما أولا احتكار الطبقة المسيطرة لملكية الارض ، وثانيا استغلال هذه الملكية اقتصاديا على شكل قطع زراعية صغيرة ، أي توفر اقتصاد مستقل لدى الفلاح يرتكز على ملكية المالك الكبير (الدولة أو الاسياد) للارض مقابل ريع معين ، وهو ما لم يكن موجودا في المرحلة السابقة .

تتعقد مهمة باحث النظام الاقطاعي في الشرق أكثر عندما تستهدف دراسة مجتمعات شبه مغلقة كالمجتمع الكردي سابقا . ومما يزيد من صعوبة البحث ان العلاقات الاقطاعية في كردستان اتخذت اشكالا متباينة للغاية . فمنذ بدايات العصر الوسيط والى ما قبل عقود قليلة كانت تتعايش داخل المجتمع الكردي وحدات مشاعية ، وأخرى

متنقلة تشهد لتوها ميلاد العلاقات الاقطاعية(٥) ، وثالثة كانت مظاهر الاقطاع فيها اقتربت من الكمال لتدخل منذ القرن الماضي مرحلة الانحلال • وقد نجم كل ذلك عن ظروف موضوعية ارتبطت بواقع المنطقة الكردية وطبيعتها اضافة الى صلاتها وتفاعلها مع المجتمعات الاخرى المحيطة بها والتي قطع جميعها شوطا حضاريا أبعد من المجتمع الكردي نفسه •

من شأن ذلك بدوره تحديد أهمية كتاب «حول مسألة الاقطاع بين الكرد » الذي يدخل في عداد اولى المحاولات العلمية القليلة للخوض في هذا المجال الشائك(٦) • من جانب آخر يعتبر هذا الكتاب مساهمة في سلسلة الدراسات العلمية التي أجراها عدد من العلماء السوفيت بقصد تحليل المجتمعات الرعوية ، ولاسيما في آسيا الوسطى ، وذلك ضمن عمل جاد متعدد الجوانب استهدف تبني

---

(٥) استغرقت عملية ميلاد العلاقات الاقطاعية ونموها في بعض بلدان الشرق ، بما في ذلك بعض المناطق الكردية ، حوالي عشرة قرون ، مما يؤلف فترة زمنية جدا طويلة اذا ما قورنت بما كان عليه الامر في أوروبا الغربية مثلا •

(٦) هنا لابد من الاشارة بصورة خاصة الى سلسلة البحوث المبكرة التي قدمها المؤرخ ــ الاثنوغرافي و• ڤلچيڤسكي في هذا المجال من قبيل : « مواد حول تاريخ التشكيلات الاجتماعية في كردستان » ، ــ « الاثنوغرافيا السوفيتية » ، لينينغراد ، العدد ٥ــ٦ ، ١٩٣٢ ، ص١٢٠ــ١٤٠ ، « اقتصاد المشاعية الزراعية الكردية المتنقلة في ما وراء القفقاس وما والاها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر » ، ــ « الاثنوغرافيا السوفيتية » ، العدد ٤ــ٥ ، ١٩٣٦ ، ص ١٣٥ ــ ١٦١ وغيرها من البحوث • (راجع كذلك الهامش رقم ٢٥ في موضوع « موقع الاوبا داخل العشيرة الكردية » في القسم التالي) •

أنجع وسائل التعامل معها(٧) • وقد حاول صاحب الكتاب في ضوء واقع المجتمع الكردي اثبات الموضوعة العلمية التي أثارها العلماء السوفيت في العقد الرابع حول وجود ما اطلقوا عليه اسم « الاقطاع المتنقل »(٨) •

---

(٧) بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية اصبحت دراسة مجتمعات آسيا الوسطى مهمة سياسية ـ اجتماعية ، اضافة الى كونها مهمة علمية كبيرة • من هنا توجهت أنظار العلماء الى هذه الناحية وتشكلت فرق خاصة لدرس مجتمعات قرغيزيا وغيرها • وامتدت دراسة العلماء السوفيت الى المجتمعات المتنقلة في الخارج ايضا اذ توصلوا الى نتائج متشابهة بالنسبة لقضايا مهمة عديدة في هذا المجال • وقد كرس ف• تاردوف احدى دراساته للبحث في خصائص علاقات الانتاج بين القبائل المتنقلة في ايران تطرق فيها الى مواضيع معينة تخص المجتمع الكردي ، وقد استند أ• شاميلوف الى بعض من آرائه (ف• تاردوف ، الخصائص الرئيسة لعلاقات الانتاج بين عشائر ايران ، ـ « مواد عن المشاكل القومية الكولونيالية » ، موسكو ، العدد ٣ (٩) ، ١٩٣٣) • كما تطرق ي•پ• پيتروشيفسكي في دراسته عن « الزراعة والعلاقات الزراعية في ايران في القرن الثالث عشر ـ القرن الرابع عشر » (موسكو ـ لينينغراد ، ١٩٦٠) الى بعض النواحي المهمة للموضوع نفسه وبحث بدوره عددا من القضايا التي تخص المجتمع الكردي في تلك الحقبة التاريخية •

(٨) وضع هذا المصطلح من قبل ب• ڤلاديميرتسوف بعد دراسته للكيان الاجتماعي للمغول والتي بين فيها كيف ان التطور الاقطاعي كان هو الاساس في تحريك تاريخ منغوليا خلال الفترة الممتدة بين القرنين الحادي عشر والعشرين (للتفصيل راجع بحثنا « حول الاقطاع ودراسته في العراق » المنشور في مجلة « آفاق عربية » ، العدد الرابع ، ١٩٧٥ ، ص ٢٢ ـ ٢٩) •

بالرغم من أهمية الكتاب للاسباب التي تطرقنا اليها ، ولما يحتويه من معلومات قيمة واستنتاجات علمية جديرة بالاهتمام والتمعن ، فانه لا يخلو من عدد غير قليل من النواقص والمآخذ التي نحاول التركيز على أهم جوانبها كما يبدو لنا ، وذلك بقصد تقديم صورة أوضح حول الموضوع ٠

يأتي التعميم بالاستناد الى الخاص على رأس الثغرات التي تجابه من يحاول دراسة الكيان الاجتماعي والعلاقات الاقتصادية في كردستان ٠ فان معظم الذين بحثوا هذا الموضوع الشائك بنوا اراءهم واستنتاجاتهم على أساس واقع سائد في منطقة كردية محددة ثم حاولوا في الغالب تعميمها على رقعة واسعة تضم ، بحكم ظروفها الطبيعية وواقع تاريخها ، شرائح اجتماعية في غاية التباين(٩) ٠ وهذا ما نلاحظه ايضا في كتاب أ٠شاميلوف الذي لا يخلو من خلط واضح بين الخاص والعام ٠ ولكن الامر لم يقتصر بالنسبة للمؤلف على هذه الناحية المبررة الى حد كبير ٠ فهو الى جانب ذلك يختار أحيانا ما هو في صالح الكرد من منطلق نظري صرف ٠ فعلى سبيل المثال انه يحاول دحض ما يذكره س٠أ٠يكيزاروف(١) من ان الكرد كانوا

---

(٩) ينطبق الواقع نفسه على معظم المجتمعات الاقطاعية الجبلية في العالم ، بما في ذلك المجتمعات الاسكندنافية في العصر الوسيط ٠

(١٠) س٠ ا٠ يكيزاروف من ابرز الاثنوغرافيين الارمن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ٠ كان على اتصال وثيق بالاكراد ، يجيد لغتهم فترجم نصوصا منها الى اللغة الروسية ووضع بالاشتراك مع ل٠ ب٠ زاغورسكي « قاموسا روسيا ـ كرمانجيا » وآخر « كرمانجيا ـ روسيا » (١٨٩١) ٠ درس =

في الماضي • يؤلفون جماعات بترياركية (ابوية) ديمقراطية يتمتع فيها الجميع – الاغنياء كالفقراء – بحقوق متساوية »(١١) • في الواقع لا يمكن تعميم قول يكيزاروف على كردستان القرن التاسع عشر كلها(١٢) ، ولكن لا يصح ، في الوقت نفسه ، تعميم عكس ذلك على كل المنطقة الكردية التي لم تخل الى عقود مضت من نماذج قريبة لتلك التي يتكلم عنها يكيزاروف(١٣) •

من المنطلق نفسه يبتعد المؤلف في العديد من تقيماته للهيكل

= المجتمع الكردي ، خصائصه مع ظروفه الاقتصادية والادارية التي س لها العديد من بحوثه ، مثل : « دراسة أثنوغرافية مختصرة لاكراد حاكمية يريڤان » ، – « نشرة القسم الشرقي للجمعية الاركيولوجية الروسية الامبراطورية » ، الكتاب الثالث عشر ، الاصدارة الثانية ، تفليس ، ١٨٩١ • راجع مقالة الدكتور عبدالرحمن معروف عن س• أ• يكيزاروف في مجلة « بەيان » (العدد ٣٤ ، اذار ١٩٧٦ ، ص ١–٤)•

(١١) في ص١٠ من نص الكتاب •

(١٢) كان يوجد في بعض المناطق الكردية في اواخر القرن الماضي عدد من اكبر اقطاعيي الشرق • فأن الثروة الشخصية لرئيس عشيرة حيدرانلي كوير حسين باشا كانت تقدر بما لا يقل عن ١٥٠ الف ليرة تركية ، وهي مبلغ ضخم حسب القوة الشرائية السائدة آنذاك ، وكانت تخضع له حوالي ٣٠٠ قرية • اما رئيس عشيرة جبرانلي فقد كان يعمل بأمرته حوالي ٨٠ ألف شخص • وكانت امكانات ابراهيم باشا الملي تقدر بأكثر من ذلك (عنه راجع الهامش رقم ٦ في موضوع « من خصائص الاقطاع الكردي وبدايات الانفجار » في ، القسم التالي) •

(١٣) مثل بعض « المناطق النقشبندية » المحصورة في بادينان وبعض اقسام درسيم وغيرها •

الاجتماعي في الريف الكردي عن الواقع ، بل وحتى عن الاطار العلم للمفهوم النظري الذي يهتدى به . ففي كلامه عن «الانفصام الطبقي بين الحراس » التابعين لرؤساء العشائر المتنقلة(١٤) تحميل للامر أكثر مما يحتمل . فالظروف الاقتصادية والاجتماعية لكردستان ، وطبيعة التنقل فيها لم تكن لتسمح ، في الواقع ، بحدوث انفصام مبكر من هذا النوع حتى يمكن التوصل في ضوئه الى مثل هذا الاستنتاج بصورة شاملة . فأقصى ما يمكن التحدث عنه في مثل تلك الحالات هو ظهور اختلافات طفيفة في التملك الفردي والموقع المعنوي المتميز الى حد ما لفئة صغيرة يكون افرادها ممن يثق بهم الرئيس ويعتمد عليهم . وفي كل الاحوال لم يتخذ الانفصام الذي يتحدث عنه المؤلف طابع تناقض ملموس او محرك في معظم المناطق الكردية ، ان لم يكن في كلها . فالعلاقات الاقطاعية نفسها لم تجتز آنذاك المرحلة التي يحتدم بعدها التناقض بين قطبي المجتمع الاقطاعي الرئيس - مالك الارض(١٥) ومستغلها .

ومرة اخرى من المنطلق نفسه يبتعد المؤلف احيانا عن الواقع في تصويره لعدد من الالتزامات الاقطاعية . فان جمع «ثلاثة احزمة من الحطب للاقطاعي سنويا » ليس بشيء ذي بال في معظم المناطق الكردية التي تغطيها غابات طبيعية بعضها كثيفة . بينما يؤلف ذلك في رأى أ.شاميلوف «عبئا ثقيلا جدا »(١٦) . وهو يعتبر عدم جلوس

(١٤) راجع ص ١٩ - ٢٠ من نص الكتاب .
(١٥) بمفهومها العام - الارض الزراعية والمراعي وغيرها .
(١٦) راجع ص ٢٨ من نص الكتاب .

الاتباع في حضور الآغا من مظاهر التناقض والاختلاف داخل العشيرة ، بينما يرى في « توديع جميع الاسلحة في بعض الاحيان عند الخان او البيك او الاغا ، مجرد « تعبير عن الطاعة والاخلاص في خدمة رئيس العشيرة »(١٧) . في الواقع يصلح هذا الاخير دليلا اكثر منطقية لتصوير مظاهر الاختلاف والتسلط ، مع ان توديع السلاح بقيمته الاستثنائية بالنسبة للحياة العشيرية أمر حتمته ظروف محددة كالخوف من سرقته» او استخدامه في غير غرضه الذي يريده رئيس العشيرة (كالثأر مثلا) .

في هذا المجال ايضا يذكر أ.شاميلوف ان التجار « عقدوا بدورهم وضع كادحي كردستان اكثر فاكثر » ، ودليله على ذلك انهم « كانوا يجبرون الحرفيين الماهرين للعمل من أجلهم »(١٨) . لا ينكر ان التجار عقدوا وضع الفلاح الكردي عن طريق الربا(١٩) وذلك منذ ان بدأ اقتصاد الاخير يخرج من نطاق الانتاج الطبيعي(٢٠) ، الا انهم لعبوا في الوقت نفسه دورا متقدما عندما

---

(١٧) راجع ص ١٩ — ٢٠ من نص الكتاب .

(١٨) راجع ص ٢٧ من نص الكتاب .

(١٩) راجع الهامش رقم ٢٢ في موضوع « موقع الاوبا داخل العشيرة الكردية » في القسم التالي .

(٢٠) «الانتاج الطبيعي» هو الانتاج الذي يخصص للاستهلاك الذاتي لا للتبادل ، وهو من صفات الحياة الاقتصادية في عهد ما قبل ظهور العلاقات والاساليب الرأسمالية في الانتاج . مع ازدياد التبادل يختفي هذا النوع من الانتاج ليحل محله الانتاج البضاعي . في بعض المناطق المتخلفة من العالم الثالث لا يزال الانتاج الفلاحي يحتل مركزا وسطا بين اسلوبي الانتاج الطبيعي والبضاعي .

تحولوا الى وسيلة تبادل بين الريف والمدينة ، مما أدى الى تنشيط الانتاج الحرفي وازدياد التبادل النقدي • ولو تطور هذا الشيء في مساره الطبيعي لساعد حتما في تسريع عملية انحلال العلاقات الاقطاعية وحدوث تحولات داخلية من شأنها تهيئة الظروف للانتقال، ولو ببطء ، الى مراحل اجتماعية اعلى • الا ان الاندماج بالسوق الرأسمالية العالمية قد حال دون تحقيق ذلك ، ولاسيما لانه تحول الى ضربة مميتة بالنسبة للانتاج الحرفي • ومما يدحض رأي المؤلف ايضا عدم توفر ادلة تشير الى تذمر الحرفيين او اشتراكهم في الانتفاضات والتحركات الفلاحية التي شهدتها كردستان والتي تطرق المؤلف الى بعض منها باختصار •

لكن يجب ان نشير كذلك الى ان المؤلف بالرغم من كل تأكيده على قضايا « الانفصام الطبقي » داخل العشيرة وبالرغم من تشديده على ذكر مظاهر الاستغلال فيها فانه لم يعط الجواب على سؤال اجتماعي ـ سياسي مهم هو : هل ومتى وكيف واين تحول الاستغلال الاقطاعي الى العامل الاساس والحاسم في خلق تناقضات عميقة داخل المجتمع الكردي ، وهل كان بامكان هذه التناقضات في ظروف كردستان الخاصة خلق الاطار العام للتحرك السياسي داخل المجتمع او في جزء واجزاء منه • لا ينكر ان تحديد هذه الامور بشكل موضوعي يحتاج الى دراسات عميقة في اطر محدودة واخرى شاملة ، كما لا يجوز فصلها عن جميع العوامل التي أثرت ، او كان بامكانها ان تؤثر في تحديد آثارها سلبا او ايجابا • ولكن مع ذلك كان على المؤلف الذي عاش في الريف، وعاصر الفلاح في مرحلة تغيير

حساسة وشهد اكثر من ثورة وانتفاضة(٢١) ، اعطاء رأي علمي واضح حول هذه المسألة المهمة ، وان لا يقتصر على تقديم صور فولكلورية من الماضي تحتاج ، بالرغم من اهميتها ، الى تقص علمي دقيق •

من المسائل المهمة الاخرى التي يؤاخذ عليها مؤلف كتاب « حول مسألة الاقطاع بين الكرد » رفضه بشكل مطلق لكل ما هو بورجوازي ، بما في ذلك العلم البورجوازي • فان كتاب پ•ليرخ حسب رأي شاميلوف « يعكس السياسة الكولونيالية للدول الاوروبية التي بدأت منذ القرن الثامن عشر بالتغلغل في كردستان »(٢٢) • وپ•ليرخ هذا ليس سوى واحد من ابرز مستشرقي القرن التاسع عشر الذين اولوا الدراسات الكردية جانبا كبيرا من اهتمامهم • فقد قضى سنوات عديدة من عمره في خدمة مخلصة للدراسات هذه بحيث كان زملاؤه يطلقون عليه اسم « الكردي الصغير » (٢٣) • وخلال عمله المثمر جمع پيوتر ليرخ (١٨٢٨ - ١٨٨٤) اسماء معظم المؤلفات الغربية في مجال الدراسات الكردية وكرس قبل اكثر من قرن ثلاثة اجزاء من مؤلفاته(٢٤)

(٢١) المقصود هو الثورات والانتفاضات التي انفجرت في المنطقة بأسرها والتي كان بامكانها التأثير على المجتمع الكردي •

(٢٢) راجع ص ٥ من نص الكتاب •

(٢٣) راجع : ب• م• دانتسيگ ، الشرق الادنى في العلم والادب الروسي ، باللغة الروسية ، موسكو ، ١٩٧٣ ، ص ٢٢٨ •

(٢٤) پ• ليرخ ، دراسات حول الاكراد الايرانيين واسلافهم الكلدانيين الشماليين ، بطرسبورغ ، الكتاب الاول ، ١٨٥٦، الكتاب الثاني ، ١٨٥٧ ، الكتاب الثالث ، ١٨٥٨ •

للبحث عن الكرد وبلادهم فاستحق عن ذلك تقييما عاليا من جانب المستشرقين السوفيت وغيرهم فيما بعد(٢٥) • ومن نافلة القول ان ليرخ لم يفكر اصلا في أي هدف كولونيالي ، لذا فأن ما يؤاخذ عليه ليس ذلك ، انما اجتهاده في اصل الاكراد الذي استهل به شاميلوف كتابه • فهو يعتبر الكلدانيين في الطبعة الروسية من كتابه اسلافا للشعب الكردى ! (٢٦) •

(٢٥) اشادت مصادر عديدة باعمال ليرخ العلمية في مجال الدراسات الكردية• فبعد وفاته في العام ١٨٨٤ اصدرت أكاديمية العلوم الروسية الامبراطورية كراسا عن تاريخ حياته وجهوده العلمية ، اتبعته دراسات اخرى كثيرة تطرق معظمها الى اهتماماته بتاريخ الشعب الكردي ولغته • وقد بلغ اعجاب المتخصص في الدراسات الكردية الدكتور ك•ك• كوردوييف بليرخ حد انه اعتبره « واحدا من اكبر علماء الروس في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر » (راجع : ك• ك• كورديف ، اعمال پ• ي• ليرخ في الدراسات الكردية • حول مسالة دراسة تاريخ الكرد في روسيا ، في كتاب « دراسات في تاريخ الاستشراق الروسي » ، موسكو ، ١٩٥٩ ص ٣٩) •

(٢٦) هكذا سمى پيوتر ليرخ الاجزاء الثلاثة من كتابه مع انه قلما يتطرق الى العلاقات التاريخية بين أصل الكرد والكلدانيين• وحسبما يبدو فأن ليرخ نفسه احس بسرعة الخطأ الذي وقع فيه ، لذا نراه يصدر الجزئين الاول والثاني من كتابه باللغة الالمانية تحت عنوان يختلف عن عنوانه الروسي ، فقد اطلق عليه بالالمانية اسم « دراسات حول الاكراد والكلدان الشماليين الايرانيين » •
(Forschungen über die Kurden und die iranischen Nordchaldâen).

والفرق بين العنوانين ، من وجهة نظر علمية بحتة ، كبير وواضح ، وان كان العنوان الالماني للكتاب يستحق بدوره النقاش العلمي •

واذا كـان للمؤلف بعض التبرير في موقفـه ذلك(٢٧) وفي محاولاته المتطرفة لتجسيد وتعميم الاستغـلال الاقطاعي والانفصـام الطبقي في الريف الكردي ، فانه لا عذر لديه في عـدم تطرقه الى الجانب الاسوأ لذلك الاستغلال الذي تجسد ، بصورة خاصة ، في وضع قطاع واسـع مـن الفلاحين الارمـن في ظـل سيطرة الاقطاعين الاكراد(٢٨) مما كان يؤلف صورة واضحة لنظام الرق وعلاقاتـه ، ان لم يكن دائما فغالبا . وهنا يجدر بنا ان نشير الى انه كان في متناول يد المؤلف ثروة غنية من المصادر الاصيلة والمتنوعة في هذا المجال ، مما لم يكن في متناول غيره .

ومـا دمنا بصدد الارمن فان رأيا آخر من آراء أ.شاميلوف يستحق النقاش ، وهو يتعلق بما يذكره عن اكراد مقاطعة يريفـان الذين يعتبرهم من سكانها الاصليين ، وحجته في ذلك ان « في الاثر

---

(٢٧) كان الخط الفكري العام السائد في الاتحاد السوفيتي آنذاك يتسم بطابع متطرف مناهض لكل ما هو بورجوازي ، بما في ذلك البورجوازية الوطنية للشعوب المكافحة ، وذلـك حسـب المقولة الستالينية المعروفة : « لقـد القت البورجوازية رايـة النضال » (!) .

(٢٨) تعرض قطاع كبير من الفلاحين الارمن لابشع انواع الاستغلال من جانب الاقطاعيين الاكراد ، وقد بلغ ذروته في عهد السلطان عبدالحميد . تتوفر مصادر اصيلة مختلفة حول هذا الموضوع بشتى اللغات ، خاصة باللغة الارمنية التي يجيـدها المـؤلف (حول الموضوع راجع الفصل الخامس من كتابنا « كردستان في سنوات الحرب العالميـة الاولى » (الطبعة الثانيـة ، بغداد ، ١٩٨٤ ، ص ٢٣٥ ـ ٣٠٢) .

التاريخي «شرفنامه»(٢٩) اشارة واضحة الى ان اجداد صلاح الدين المنتمي الى عشيرة (راوند) كانوا يتنقلون في القرن العاشر في منطقــة دوين القريبة من مقاطعة يريڤان »(٣٠) • لكن عراقة شعوب المنطقة واصالتها التاريخية التي تمتد جذورها الى عهود ابعد بكثير من اواخر الالف الاول للميلاد تدحض مثل هذا الرأي • فان الواقع القومي والحضارى والديني فرض في القديم حاجزا امام تغلغل كردي عميق مبكر يبلغ نقطة بعيدة مثل يريڤان التي هي من ابعد اجزاء ارمينيا عن كردستان • والمعلومات الواردة في «اناباسيس» زينفون(٣١) ، والتي تعود الى القرن الخامس قبل الميلاد ، تظهر بوضوح الفاصل الطبيعي القائم بين منطقتى سكنى الكاردوخيين والارمن ، وبشكل كان يحول دون التداخل بينهما(٣٢) • من هنا فان وجود اقلية كردية فيمقاطعة

---

(٣٠) راجع ص ٦ـ٧ من نص الكتاب •

(٣١) عنهما راجع الهامش رقم ١٨ في موضوع « نبذة تاريخية » في القسم التالي •

(٣٢) ساعدت المعلومات الواردة في « أناباسيس » على تحديد منطقة سكنى الكاردوخيين القدماء بشكل واضح • يشير صاحب الكتاب زينفون الى نهر كينتريتا (وهو نهر بوتان ، من فروع دجلة الشمالية) حدا فاصلا بين الارمن والكاردوخيين في القرن الخامس قبل الميلاد (راجع : زينفون ، أناباسيس ، الترجمة الروسية ، موسكو ـ لينينغراد ، ١٩٥١ ، ص ١٠٠ ـ ١٠٢ ، ٢٦٩) • من الجدير بالملاحظة والتقدير ان الاستاذ صلاح سعدالله يرى ان من المحتمل ان يكون زينفون قد قصد باسم «كينترينا» واحدا من روافد دجلة الثلاثة : جولميرك أو بوتان أو الخابور (راجع : زينفون، مسيرة العشرة الاف عبر كردستان ، ترجمة صلاح سعدالله ، بغداد ، ١٩٧٣ ، ص ٢٦) •

يزيفان هي نتيجة طبيعية لـ « نظرية الهجرة » التي « يبشـــر بهـا المؤرخون البورجوازيون » حسب تعبير شاميلوف ، وهي (اي تلك الهجرة) لا تدخل ضمن التحرك السكاني الطبيعي الـــذي شهدته المنطقة ، بل نجمت عن تغيرات متأخرة نسبيا بحكم عوامل محـددة تأتي عـــلى رأسها سيادة الاســلام في تلك الاصقاع ، والاضطهاد العثماني هناك فيما بعـــد •

لم يعط التركيز في البحث المؤلف مجـــال الكشف بعمق عن قضايا مهمة وردت في الكتاب • ونتيجة للسبب نفسه ينتقل بسرعة ، واحيانا بشكل غير مترابط تماما ، مـن موضوع الى آخر ، الامـر الذي ولد بعض الارتباك في معالجته لعدد من المواضيع الواردة فـي الكتاب • ويتضح ذلك بصورة خاصة في التعاريف المكررة ، والمختلفة احيانا ، التي يقدمها المؤلف اثناء بحثه عن بعض التشكيلات العشيرية الخاصة من قبيل الـ « اوبا ـ هـوبه » والـ «جـول» والـ «پيـگار» وغيرها(٣٣) • كما ان المؤلف لم يعط معلومات وافية بطريقة علمية عن المصادر التي يستند اليها والمستشرقين الذين يستشهد بآرائهم او يناقشهم فيها (٣٤) ، مما يجعل فهم بعض الامور الواردة في الكتاب بشكل دقيق امرا صعبا لا بالنسبة للقـــارىء الاعتيادي فحسب ، بل بالنسبة للمتخصص كذلك • وقد حاولنا ملء هذا الفراغ في حدود المستطاع •

---

(٣٣) ترد تعاريف هذه التشكيلات في متن الكتاب نفسه •
(٣٤) على سبيل المثال يشير المؤلف في ص ٦ الى اسم مؤلف هـــو شوپين بشكل مجرد ، اي دون ان يذكر اسمه كاملا او يشير الى المصدر الذي اقتبس منه رأيا من آرائه حول الاكراد •

توجد في كتاب « حول مسألة الاقطاع بين الكرد » قضايا اخرى تستحق النقاش والتوضيح رأينا من الانسب حصرها في التعليقات التي الحقناها بمتن ترجمته • وهي بمجموعها لا تنتقص من اهمية الكتاب العلمية كمحاولة رائدة لا تخلو من عمق نظري وطافحة باستنتاجات ومعلومات مهمة بامكانها اعطاء صورة جيدة عن المجتمع الاقطاعي الكردي • وقد اسهمت حياة المؤلف كعامل زراعي ، واختلاطه في طفولته وشبابه بالعشائر ، واطلاعه الواسع على الفولكلور الكردي ، في تعرف صاحب الكتاب عن كثب على قضايا كثيرة •

نبـــذة من تاريخ حياة المؤلف

ولد عرب شامويڤيچ شاميلوف (عەرەبی شامو) في ٢٣ كانون الثاني من العام ١٨٩٧ في قرية سوسوز بمنطقة قارص • « كـــان والدي ينتمي الى طائفة الشيوخ اليزيدية ، الا انه لفقره اضطر الى ان يعمل راعيا لدى اثرياء شعبه والارمن واليونان والاتراك » ـ هكذا يصف المؤلف انتمائه العائلي(٣٥) • جابه الفقر شاميلوف منذ نعومة اظفاره ، فاضطر الى ان ينزل الى ميدان العمل لمساعدة والده راعيا ، ثم انتقل الى قرية الـكسندروف حيث عمـل ودرس في مدرستها • واشتغل فيما بعد عاملا في احد معامل المنطقة نفسها •

---

(٣٥) جاء ذلك في رسالة خاصة بعثها أ• شاميلوف للمترجم فيها ملخص تأريخ حياته • استند المترجم في رواية تاريخ حياة شاميلوف الى ما ورد في تلك الرسالة وما رواه له في لقاءاتهما •

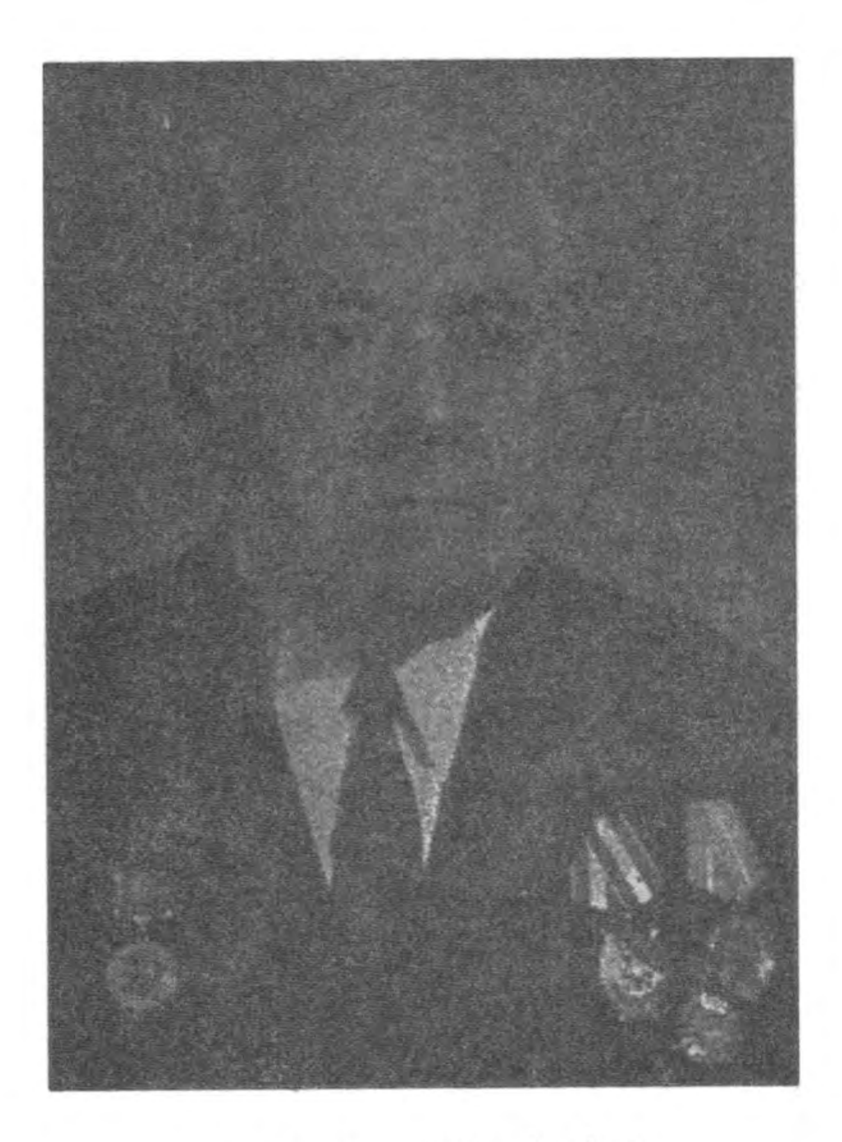
بعــد اندلاع نيران الحــرب العالمية الاولى توغلت القوات الروسية في الاراضي العثمانية والايرانية ، واحتكت بالاكراد مباشرة في العديد من المناطق ، فظهرت امام شامو فرصة العمل مترجما لدى احدى القطعات العاملة في هــذه الجبهة براتب شهري قــدره ٢٥ روبلا • الا انه فصل بعد عامين من عمله هـذا! فانتقل الى بلـدة ساري قاميش ليشتغل عاملا من جديد • وكما يقول بنفسه انه احتك هناك لاول مرة بالمنظمات الثورية السرية العاملة في المنطقة ، ممــا عرضه للاعتقال في اوائل العام ١٩١٧ • يعلق شامو باستهزاء على ما حدث له في الاعتقال فيقول : « عندما علم رجــال الجندرمة بأنني كردي ، والكردي في رأيهم لا يمكن ان يصبح بلشفيا ، افرجـوا عني بعد ان اشبعوني ضربا على طريقة الاوباش المتخلفين » •

استبشر شامو بانهيار النظــام القيصري فانتقل الى مدينــة ستافروبول حيث تطوع في صفوف الجيش الاحمر واشترك لغايــة اواخر العام ١٩٠٠ في العديد من المعارك(٣٦) التي انتهت بالنسبـة له بجرحه ثلاث مرات ، اي بمعدل اصابة واحدة في السنة حسب تعليقــه •

ظهرت امام « الراعي الكردي »(٣٧) فرص جديدة في العهد الجديد • فبعد انتهاء حرب التدخل ارسل الى معهد لازاريف للغات الشرقية بموسكو وتخرج منه بتفوق • بعد ذلك بدأت حياة شــامو

(٣٦) يقصد بها المعــارك التي وقعت في ســنوات حرب التدخــل الاجنبي في روسيا السوفيتية •

(٣٧) عنوان احد مؤلفاته المعروفة وهو يروي فيه قصة حياته •



المؤلف في الثمانين من عمره

الثقافية الحافلة • فقد انتقل الى يريفـــان عاصمة ارمينيا السوفيتية وساهم بنشاط في وضع الفباء كردي بالاستناد الى الابجدية اللاتينية، وفي تأسيس دار المعلمين الابتدائية للشبيبة الكردية التي اصبح مديرا لها ، وفي تأسيس اول جريدة كردية في الاتحاد السوفيتي بأســـم « ريا تازه » (الدرب الجديد) التي اصبح اول رئيس تحرير لهـــا •

اصبح شامو على اتصال مباشر باوساط الاستشراق ومؤسساته • ومـــن بين المستشرقين المهتمين بالدراسات الكردية يذكر بأعتزاز علاقته بالاكاديمي مار (٣٨) والاكاديمي اوربيللي (٣٩) • وعلى ما يبدو كان لتشجيع هؤلاء وعلاقاته بهم اثر كبير في توجهات شـــامو الثقافية المبكرة • فقد ركز في البداية (في العقد الرابع) على المسائل المتعلقة بالدراسات الكردية ، فنشر سلسلة من البحوث والمقالات في هذا المجال(٤٠) كان ابرزها قاطبة كتابه « حول مسألة الاقطـاع بين الـكرد » •

---

(٣٨) عن الاكاديمي مار راجع الهامش رقم ٤ في موضوع « نبـذه تاريخية » في القسم التالي •

(٣٩) يوسف ابگاروفيـــج اوربيللي (١٨٨٧ ـ ١٩٦١) مـــن ابـــرز المؤرخين والمستشرقين الارمن السوفيت ، رئيس فرع معهـــد شعوب آسيا (الاستشراق حاليا) في لينينغراد• اولى الدراسات الكردية عناية خاصة •

(٤٠) من مؤلفاته الاخرى في تلك الفترة : « يايلاقيو اگمگـــان » ، ـ « فجر الشرق » ، تبليس ، ١٦ أيار ١٩٢٦ ، « اكراد ما وراء القفقاس » ، ـ « الثورة والثقافة » ، موسكو ، العدد ١٥ـ١٦ ، ١٩٣٠ ، ص ٨٦ـ٨٩ • كما له عدد من المؤلفات باللغة الكردية تعود الى تلك الفترة من حياته ، مثل « حياة لينين » (١٩٣٠)•



المؤلف بين افراد اسرته

اصبح شامو واحدا من ضحايا ما يطلق عليه اسم « عهد عبادة الفرد » في الاتحاد السوفيتي ، فقضى حوالي العقدين من خيرة سنوات عمره في المنفى • « لقد اشتركت في بناء كل خطوط السكك في سيبيريا » ـ هكذا يعلق على تلك الفترة العصيبة من حياته • الا انها لم تفت من عزيمته • فما ان اعيد له الاعتبار حتى عاد الى ميدان الفكر والعمل المثمر كاتبا قصصيا لم ير الادب الكردي المعاصر له مثيلا ، بل يكاد يكون القاص الكردي الوحيد الذي ارتقى الى مصاف الأدب العالمي • فقد ترجمت قصصه الى عدد من

اللغات السوفيتية والاوروبية ، وطبعت منها مئات الألوف من النسخ(٤١) •

هكذا استحق الاديب الكبير كل تقدير عن جدارة ، فقد منح العديد من الاوسمة والالقاب الرفيعة ، منها لقب « الجدارة في الادب » الذي اعطي له بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاده السبعين في اجتماع كبير اقيم خصيصا في يريفان لهذا الغرض • وفي ٢٣ كانون الثاني من عام ١٩٧٧ جرى احتفاء واسع على اصعدة مختلفة بمناسبة عيد ميلاد أ•شاميلوف الثمانين باعتباره « كاتبا وعالما معروفا ، وواحدا من مؤسسي الادب الكردي السوفيتي ، وشخصية اجتماعية نشطة ، وعضوا في الحزب الشيوعي السوفيتي منذ العام ١٩١٨ »(٤٢) •

يتمتع أ•شاميلوف ، ومؤلفاته الادبية ، بسمعة كبيرة بين الاوساط الثقافية الكردية في العراق • فقد نشر العديد من المثقفين الكرد العراقيين مقالات عن تاريخ حياته ونتاجاته العلمية والادبية ، وقام المجمع العلمي الكردي بطبع روايته الذائعة الصيت

---

(٤١) من قصصه المعروفة والمترجمة الى عدد من اللغات « الراعي الكردي » و « دمدم » و « الطريق الى السعادة » • طبعت من روايته التأريخية « دمدم » في العام ١٩٦٩ ثلاثون الف نسخة باللغة الروسية ، اما « الطريق الى السعادة » فقد طبعت منها في ترجمتها الروسية ٧٠ ألف نسخة في العام ١٩٧١ •

(٤٢) هذا ما ورد نصا في البرقية المطولة الحارة التي بعثتها له سكرتارية اتحاد الكتاب السوفيت ومجلس الادب الارمني والتي نشرتها صحافة موسكو ويريفان (راجع : « ليتراتورنايا غازيتا » (الجريدة الادبية) ، لسان حال اتحاد الكتاب السوفيت ، باللغة الروسية ، موسكو ، ١٩ شباط ١٩٧٧) •

« دمدم »(٤٣) • وتقديرا للمكانة الرفيعة التي يتمتع بها انتخبته المؤسسة نفسها عضوا مؤازرا ، وقد رحبت الاوساط العلمية والثقافية السوفيتية بذلك وقيمته عاليا(٤٤) • واليوم اذ نقدم نتاجا علميا مهما من نتاجات أ•شاميلوف فاننا نرجو ان يساهم ذلك في القاء الضـوء على موضوع حساس وفي التعريف اكثر بالاديب والعالم الـكردي المعروف ، وليكن ذلك ايضا هدية تقدير متواضعة منا لـه وللقراء بمناسبة عيد ميلاده الثمانين(٤٥) •

المترجم

---

(٤٣) نشرها المجمع العلمي الكردي في العـام ١٩٧٥ ، وقد قـام الاستاذ شكور مصطفى بنقلها الى اللهجة الكرمانجية الجنوبية• يجرى حاليا اعداد طبعة ثانية للكتاب •

(٤٤) نشرت الصحافة السوفيتية نبأ اختيار أ• شاميلوف عضـوا مؤازرا في المجمـع العلمي الكـردي (راجـع مثـلا جريـدة « كومونيست » ، يريڤان ، ١٧ كانون الثاني ١٩٧٣) •

(٤٥) كتبت المقدمة قبل وفاة عه‌ره‌بى شامو بعامين •

حول مسألة الاقطاع
بين الكرد

تعتبر دراسة تأريخ تطور الاقطاع بين الكرد من أعقد المواضيع ، وهذا التعقيد ناجم في الاساس عن عدم توفر المصادر المدونة عن تاريخ الكرد(٢) ، وكذلك عن أدبهم الشعبي ولغتهم وكل ما يتعلق بالمعلومات الاركيولوجية . لكن العائق الاهم امام دراسة مسائل الاقطاع يكمن في طبيعة المجتمع الكردي نفسه ، وبالاخص ما يتعلق باحتفاظ كثير من العادات والتقاليد والعلاقات العشيرية ، بطابعها المتنقل وشبه المتنقل ، بقوتها «بين بعض العشائر»(٣) لفترة

---

(١) العناوين الفرعية وضعت من قبلنا ـ المترجم .

(٢) ان المصدر المدون الوحيد الذي وصلنا هو « شرفنامة » ، وقد كتبها شرف الدين في القرن السادس عشر ـ المؤلف . الف الامير الكردي شرفخان البدليسي في العقد الاخير من القرن السادس عشر اثره المعروف الذي جلب انتباه العديد من المستشرقين وجميع دارسي تاريخ الكرد منذ القرن التاسع عشر . ترجمت « شرفنامة » الى العديد من اللغات ، منها ترجمتان عربيتان طبعت احداهما في القاهرة والاخرى في بغداد ـ المترجم .

طويلة من الزمن ، مع العلم ان الحقائق والاستنتاجات التي توصل اليها ن٠مار(٤) تبين بوضوح ان الكرد كانوا منذ عهد بعيد أصحاب حضارة متقدمة ، وانهم قطعوا خلال تطورهم عددا من المراحل التأريخية ٠

في الواقع ان أهمية توضيح المراحل الاساسية لتطور المجتمع الكردي لا تقتصر على الناحية النظرية البحتة ، بل له كذلك أهمية مباشرة بالنسبة لمسألة بناء الاشتراكية بين الكرد(٥) ، خاصة لان عدم وضوح الرؤيا لدى الموظفين المحليين بالنسبة للكيان الاجتماعي الكردي بكل تعقيداته ، والتقصير في تقيم أهمية الاقطاعيين الكرد الذين يستغلون العلاقات العشيرية بين اتباعهم لصالحهم(٦) ، وكذلك

(٣) هكذا ورد في النص ـ المترجم ٠

(٤) ن٠ يا٠ مار ، مرة اخرى حول كلمة « چلبي» ، ـ « نشرة القسم الشرقي للجمعية الاركيولوجية الروسية » ، الجزء ٢٢ ، الاصدارة ٢ـ٣ ، ١٩١١ ٠
الاكاديمي نيكولاي ياكوڤلوڤيچ مار (١٨٦٤ـ١٩٣٤) من ابرز علماء اللغة والاثار الروس ٠ صاحب عدد من النظريات اللغوية التي أثارت جدلا علميا واسعا ٠ له بعض الدراسات عن الكرد ولغتهم ـ المترجم ٠

(٥) يقصد أكراد الاتحاد السوفيتي ـ المترجم ٠

(٦) لا يخلو ذلك من بعض التطرف ٠ فان العلاقات الاقطاعية بين اكراد روسيا كانت ضعيفة بالاساس لان معظمهم كانوا من المتنقلين غير المتمكنين ، ومن اناس متفرقين عبروا الحدود تحت ضغط العثمانيين ٠ كما ان قسما منهم بدأوا يعيشون داخل حدود الدولة الروسية بعد ان انتقلت اليها مراعيهم في قرهباخ وذلك بموجب « معاهدة گلستان » التي عقدت بين ايران وروسيا في تشرين الاول من العام ١٨١٣ ٠ كان الاجدر

التقصير في تقييم القضية الكردية في اطارها العام ، أدى الى ارتكاب اخطاء سياسية في خضم الصراع الدائر(٧) • ولكن فضلا عن الاهمية السياسية المباشرة لدراسة مشاكل الاقطاع الكردي ، فانها مفيدة في الوقت نفسه لحل مشاكل الاقطاع المتنقل بشكل عام(٨) • ومهمة هذا الكتاب لا تتعدى تحديد صيغة أهم مشاكل الاقطاع الكردي •

★ ★ ★

عندما يتطرق علم التاريخ البورجوازي الى القضية الكردية يحاول دائما تحقيق أهدافه الكولونيالية عن طريق ارجاع أصل الأكراد بشكل مصطنع الى « عنصر » أو آخر • وقد ناقش انصار النظرية القائلة بالانتماء الآري للكرد موضوع « الى أي فرع من

= بالمؤلف ، كما نعتقد ، التأكيد على دور وموقع الزعماء الروحانيين اليزيديين ـ المترجم •

(٧) وقعت خلال السنوات الاولى لاقامة السلطة السوفيتية أحداث دموية في بعض المناطق الكردية ـ المترجم •

(٨) راجع : پوگريلسكي وبتراكوف ، اقتصاديات آوول (قرية في جبال القفقاس ـ المترجم) المتنقل ، كوشنير (كنيشيف) ، قرغيزيا الجبلية ، گلوخوف ، من البترياركية الى الاشتراكية• ان اهم تعليل صحيح لاقتصاديات المتنقلين جاء في دراسة س• تولستوف : « حول ميلاد الاقطاع في المجتمعات المتنقلة والرعوية » • ولكن حتى في هذه الدراسة توجد بعض المواضيع القابلة للنقاش ، منها التأكيد على حتمية انحدار النظام الاقطاعي من نظام العبيد ، والتأكيد على ظهور الاقطاع من خلال علاقات « سويين » المرهقة ، اي نتيجة اعطاء الحيوانات للرعي وما شابه • ينوي صاحب هذا الكتاب مناقشة دراسة س• تولستوف بتفصيل اكثر في مقال خاص ـ المؤلف • لم =

الاصل الايراني ينتمي تاريخيا الكاردوخيون بالذات » (٩) • فنظر المؤرخون الارمن ، من أصحاب وجهة نظر معينة ، الى الكرد كأحفاد للميديين القدماء « المعروفين في التاريخ الارمني باسم ـ مارك(١٠) والذين أسكن ملوك الارمن قسما منهم بعد سقوط ميديا في منطقة كورد أو كورديك (كردستان الحالية) ، ومن هنا اكتسب الميديون اسما جديدا هو الكرد »(١١) • وحسب رأي مؤرخين أوروبيين آخرين فان « الكرد هم أحفاد الكلدانيين الايرانيين القدماء الذين اقتحموا في عهد سحيق في القدم حوض نهر دجلة ، واستطاعوا ، بعد اخضاع القبائل السامية الضعيفة ، تأسيس دولة الشرق القوية ـ الآشورية والبابلية »(١٢) •

في الوقت نفسه حاول عدد من العلماء الاوروبيين اعتبار الكرد

= ينشر أ• شاميلوف ، حسب معلوماتنا ، مثل هذا المقال ـ المترجم •

(٩) س• أ• يگيزاروف ، دراسة أثنوغرافية مختصرة لاكراد حاكمية يريڤان ، ـ « نشرة الجمعية الجغرافية الروسية فرع القفقاس » ، الكتاب الثالث عشر ، الاصدارة الثانية ، تفليس ، ١٨٩١ ، ص ٥ •

(١٠) ان اسم الكرد القديم في لغة الارمن هو (مار أو مارك) الذي يقابل ، حسب قواعد اللغة الارمنية ، الاسم القديم للميديين (للتفصيل راجع : ف• مينورسكي ، الاكراد احفاد الميديين ، ترجمة وتعليق الدكتور كمال مظهر احمد ، ـ « مجلة المجمع العلمي الكردي » ، العدد الاول ، ١٩٧٣ ، ص ٥٥٢ـ٥٦٣) ـ المترجم •

(١١) أ• يگيزاروف ، دراسة أثنوغرافية مختصرة لاكراد حاكمية يريڤان ••• ، ص ٥ •

(١٢) المصدر نفسه •

منهم وذلك بالنظر اليهم كهندو ـ أوروبيين • ويعكس كتاب ب• ليرخ السياسة الكولونيالية للدول الاوروبية التي بدأت منذ القرن الثامن عشر بالتغلغل في كردستان ، فقد كتب بصراحة يقول « اذا كان للكرد الآن بحد ذاتهم أهمية غير قليلة ، فمن جانب آخر يجب ان تزداد هذه الاهمية في أيامنا (أي في الخمسينيات من القرن التاسع عشر) » • وان ب•ليرخ عندما ينسب الكرد الى عدد قليل من العشائر ويعطي الاوروبيين بعض الامل في انتعاشهم حيث أظهروا « الاستعداد لتقبل حياة جديدة ومتطورة » ، فانه يصل الى الاستنتاج بان الكرد ، لهذا السبب ، « يجلبون أكثر من الترك انتباه أقربائهم الهندو ـ أوربيين »(١٣) •

اما گارزوني ، عضو « جمعية الدعاية لروما في الشرق » والذي عاش ١٨ عاما (١٧٦٤ ـ ١٧٨٢) مبشرا بين الاكراد ، فانه يرى ان « الكرد هم من الرومان القدامى الذين انتقلوا الى جبال العمادية »(١٤) • ويعبر س•أ•يگزاروف عن الامل في ان المقارنة

---

(١٣) ب• ليرخ ، دراسات حول الاكراد الايرانيين واسلافهم الكلدانيين الشماليين ، الكتاب الاول ، ١٨٥٦ ، ص ٢ (الاقوال مقتبسة من ص ٢و٣ من كتاب ليرخ المطبوع في بطرسبورغ ، المترجم) •

(١٤) گارزوني ، الاكراد ، ص ٣ـ٥ ، المقدمة • (يقصد المؤلف الايطالي M. Garzoni ، واسم كتابه الكامل هو " Grammatice e vocabolario della lingua Kurda " .

وقد طبع لاول مرة في روما في العام ١٧٨٧ واعيد طبعه للمرة الثانية في العام ١٨٣٦ • تقع الطبعة الثانية من الكتاب في ٤٩١ صفحة ـ المترجم) •

اللغوية الهندو ـ أوروبية تساعد كثيرا في حل مسألة تحديد أصل الكرد • وان س•أ•يگيزاروف عندما يصل الى استنتاجه « الصحيح »(١٥) حول كون « اللهجة الكرمانجية التي تستخدم من قبل الأكثرية الساحقة من الشعب الكردي لغة مستقلة لها صلة قربى وثيقة مع اللغة الفارسية »(١٦) معززا ذلك بمعلومات أنثروبولوجية(١٧) ، انما يحاول بهذا الاسلوب ربط الكرد بالهندو ـ أوروبيين أكثر من الشعوب الاخرى •

والواقع أن انعدام الاثار الوثائقية المدونة لدى الاكراد لايعطي المجال للبحث عن تاريخ الكرد بشكل محدد تماما ، ولكن مما لاشك فيه ان الكرد يؤلفون واحدا من شعوب آسيا العريقة • وقد كتب المؤلف اليوناني زينفون ـ وهو أول من دون عن ظروف الكرد الحياتية ـ انه اثناء انسحابه مع العشرة آلاف يوناني(١٨) عبر

---

(١٥) هكذا ورد في النص ويقصد به المؤلف عدم اتفاقه مع استنتاجات س• أ• يگيزاروف حول الموضوع ـ المترجم •

(١٦) س• أ• يگيزاروف ، المصدر السابق ، ص ٦ •

(١٧) انثروبولوجيا ـ علم السلالات البشرية ـ المترجم •

(١٨) اشترك الكاتب والفيلسوف اليوناني القديم زينفون (كسينفون) (حوالي ٤٣٠ـ٣٥٥ او ٣٥٤ قبل الميلاد) في الحملة اليونانية المعروفة على ايران في العام ٤٠١ ق• م• وذلك أثناء النزاع على عرشها • بعد مقتل قائد الحملة كورش أخذ زينفون على عاتقه قيادة اليونانيين في عملية انسحابهم عبر مناطق شاسعة من الشرق الاوسط • وقد كتب زينفون فيما بعد كتاب « اناباسيس » (حرفيا : عروج ، صعود • مجازا : التحرك او التستر في اعماق البلاد) ضمنه ملاحظاته الشخصية عن مسيرة العشرة الاف يوناني في تقدمها

كردستان الحالية في ٤٠١ ق٠م ٠ قد اصطدم مع الاكراد « الكاردوخيين » ٠ ولدينا ايضا عدد من الاشارات للكرد أبداها مؤرخون قدماء من يونانيين وجورجيين وأرمن وعرب وغيرهم ٠ كما ان الكرد كانوا معروفين بشكل جيد لدى الجغرافيين اليونان في اوائل عصور ما بعد الميلاد ، فقد ذكر الجغرافيان سترابون وبطليموس وغيرهما منطقة كاردويين التي كانت احدى مدنها تسمى بـ (پانيكا) وكانت تقع على نهر دجلة (يلفظ الكرد حرف ـ پ في هذا الاسم بصوت حلقي مرخم)(١٩) ٠

ولا يصح عدم التطرق هنا الى (نظرية الهجرة) التي يبشر بها المؤرخون البورجوازيون ٠ فقد اعتبر شوپين الكرد دخلاء(٢٠) ، فكرد مقاطعة يريفان (٢١) في رأيه قد أتوا من منطقة أخرى ما ٠ وهذا رأي خاطىء قطعا ، فاننا نجد في الاثر التاريخي «شرفنامة»(٢٢)

= وانسحابها ، وعن المناطق التي مرت بها تلك القوات ٠ في هذا الكتاب معلومات تأريخية مهمة للغاية عن الكاردوخيين ومنطقة سكناهم التي كان يصعب تحديدها على المؤرخين من دونها بمثل تلك الدقة التي اصبح بالامكان استنباطها من خلال المعلومات الواردة في « اناباسيس » ـ المترجم ٠

(١٩) توجد اسطورة كردية غير مدونة عن مدينة پانيكا ـ المؤلف ٠

(٢٠) يقصد اكراد أرمينيا ٠ اما شوپين فاغلب الظن هو ي٠ شوپين الذي نشر في أواسط القرن الماضي بحوثا عديدة عن أرمينيا باللغة الروسية تطرق في قسم منها الى اكراد المنطقة ـ المترجم ٠

(٢١) روسيا القيصرية كانت مقسمة الى عدد كبير من المقاطعات أو الولايات ، يريفان كانت واحدة منها ـ المترجم ٠

(٢٢) «شرفنامة » ، الجزء الاول ، القسم الثاني ، ص ٧٦ ٠ (يبدو ان المؤلف اعتمد على الترجمة الفرنسية لـ «شرفنامة» =

اشارة واضحة الى ان أجداد صلاح الدين المنتمين الى عشيرة (راوند) كانوا يتنقلون في القرن العاشر في منطقة دوين القريبة من مقاطعة يريفان . وقد حكم الكرد الشداريون(٢٣) في جنوبي ما وراء القفقاس خلال القرنين العاشر والحادي عشر(٢٤) وقد بنوا مسجدين في آني(٢٥) .

نتوقف عند هذا الحد عن البحث في اصل الشعب الكردي ذلك لان دراسة الكيان الاجتماعي ـ الاقتصادي للمجتمع الكردي هي أهم ما يهمنا في هذا الكتاب .

= التي انجزها البروفيسور ف. ب. شارموا خلال الفترة ١٨٦٨ـ١٨٧٥ ، وهي الوحيدة التي تقع في اربعة اقسام . وقد طبع القسم الثاني من الجزء الاول في العام ١٨٧٠ ـ المترجم) .

(٢٣) الصحيح الشداديون ـ المترجم .

(٢٤) ظهرت الامارة الشدادية في شمال ايران واستمر وجودها خلال الفترة من العام ٩٥١ م حتى العام ١١٧٤ م . ومنذ البداية امتد نفوذ الاسرة الشدادية الكردية الى ارمينيا . ففي اواسط القرن العاشر تمكن محمد بن شداد من تثبيت سيطرته في دوين الواقعة على بعد ٣٥ كيلو متر جنوبي يريفان ـ المترجم .

(٢٥) ن. مار ، المصدر السابق ، ص ١٢٣ .

موقع الرعي
في المجتمع الكردي

يزاول قسم من الشعب الكردي حياة التنقل ، وقسم آخر منه نصف متنقلين ، اما اكثريته الساحقة فتزاول حياة الاستقرار ، وهم زراع يفلحون ارضا محدودة ، امـــا مهنتهم الرئيســـة فهي رعي الحيوانات ، لكنه منظم بدوره على أساس الاستقرار(١) • وتربيـة الاغنام هي النموذج في الحياة الاقتصادية للاكراد المتنقلين ، فـكان الغنم دليل الثروة ، كان يعطي الاعتبار والاحترام ، يعطي القـــوة وامكانية اخضاع القسم الاخر من المواطنين الاكراد • واصبح الغنم بمثابة أول عملة بدأ التبادل بواسطته ، وهو لا يزال يلعب الى حـد ما الدور نفسه(٢) • والغنم بتحوله الى وحدة عملة التبادل قـد لعب بين العشائر المتنقلة دورا مهما في عملية أول انقســـام للمجتمع الى طبقات ، وهو بذلك أعطى زخما كبيرا لمسار تطور المجتمع الكردى • فكما يشير ف•أنجلس كان انفصام القبـــائل الرعوية عن بقيـــة المجموعات المتوحشة(٣) أول أكبر تقسيم عمل اجتماعي •

---

(١) يوجد في الوقت الحاضر بينهم « توز » (اي التعـاون فـي فلاحـة الارض) وجماعـــات تعاونيـة تتألف مـــن الفقراء ومتوسطي الحال ـ المؤلف • في مناطـق ســـوران يطلق على مثل هذا التعاون اسم « هەرەوەز » ـ المترجم •

(٢) يقصد بالنسبة للعقد الرابع من القرن العشرين ـ المترجم •

(٣) في النص : البرابرة ـ المترجم •

ان الكثيرين من الكرد ، او بالاحـــرى أكثريتهم ، يعرفون تاريخهم عن طريق الاساطير المتداولة • لكن هذا التاريخ الشفاهي معرض الى حد كبير للتشويه والتكييف حسب مصلحة راويه ، أو للضياع بشكل عام • الا ان بالامكان عن طريق درس هـذا التراث غير المدون كشف العلاقات الاجتماعية ـالاقتصادية المتبادلـــة التي كانت سائدة في وقت ما • وقد بدأ الكرد بالتدريج ، شأنهم في ذلك شأن القبائل الرعوية الاخرى ، بأنتـاج بضائـع استهلاكيـة بكميات أصبحت قابلة للتبادل • فهذه اسطورة حامي أو اله الغنم التي تحمل عند الكرد اسم « پيري مام شوان » (العم الراعي) والتي تقول ما نصه : « ان الغنم هو ذلك الحيوان الذي اعطانا الحيوية (النشاط) لاول مرة • انه مصدر غذائنا ، وقد بدأنا نبـادله بالسـلاح الـذي استقينا منه القوة لمقارعة أعدائنا » ، أي مقارعة الذين كانوا يستولون على ارض الترحال والمراعي ، ويغتصبون قطعان الكرد •

وأرى من المناسب ان اورد هنا من الاسطورة نفسها « پيـري مام شوان » قصة تدجين أول حيوان • فهذه القصة تعطي مفتـــاح التحليل التالي لاقتصاديات الرعاة بصورة عامة ، والاكراد بصـورة خاصة • تقول الاسطورة بهذا الصدد « ان اول تدجين للحيوان قد تم من جانب الرجل • ولا يمكن ان يصبح فضل(٤) (تدجين ـ المترجم) الماشية من نصيب المرأة • ولا داعي لان يفكر احـــد في ذلك أصلا » • وفي الواقع من الضروري ربط عدد من التقاليـــد الشائعة بين بعض العشائر الكردية بهذا الامر • فمثـلا ان رعايـة

(٤) في النص : بطولة ـ المترجم •

الضأن خلال الايام الاولى من بعد ولادته مباشرة تقع على عاتق الرجل ، ولا يجوز للمرأة ان تقترب من الضأن الوليد أو البقرة الوليدة الا بعد مرور أيام عدة على الوضع . وتقول الاسطورة نفسها ان المرأة التي لا تراعي هذه القاعدة وتذهب قبل الرجل الى الحيوان الوليد تسبب في ان يصيب (سواء أكان ضانا أم بقرة) بـ « گوانكي بقه » أي انه لا يقدم الحليب ، ولا ينجب ، ولا يعطي النسل . والبنت التي تتزوج تزور والدها بعد مرور سنة كضيفة ، فيقدم لها بقرة أو ضأنا قائلا لها : « خذيها ، فعلى أي حال انك لا تستطيعين الحصول عليها » . والبقرة التي تهدى للبنت المتزوجة أثناء زيارتها تصبح ملكا خاصا بها لا يحق لاحد التطاول عليها .

لكن الرعي ، بالرغم من أهميته الكبيرة ، لا يؤلف لدى الكرد المهنة الرئيسة الوحيدة . وفي الواقع من الصعب ان تجد أي مجتمع يزاول الرعي وحده دون ان يمتهن الزراعة ايضا . وقد كتب عن الكرد پ. ليرخ نفسه يقول « انهم (أي الاكـراد ـ المؤلف) يزاولون زراعة الحبوب بقدر مـا يحتاجون للاستهلاك الشخصي ولتغـذية حيواناتهم البيتية ، وهم يفلحون في الغالب الذرة والقمح والشعير والرز ، وينتجون التبغ أيضا. الا ان الثروة الرئيسة للكرد تتألف مـن قطعـان الضأن والجاموس والبقر والماعز والخيـل والجمـل »(٥) .

هكذا فبالرغم من طغيان الوصف الكيفي للكرد في الادبيـات

---

(٥) پ. ليرخ ، المصدر السابق ، ص ٢٣ ـ ٢٤ .

البورجوازية ك « رعاة أبدين » ، الا ان هذه الادبيات لم تستطع عدم اقرار حقيقة ان الكرد قد زاولوا الزراعة بنفس مستوى مزاولتهم للرعي . وهنا يجب الا نغض الطرف عن النظرة غير الصائبة السائدة بين بعض دارسي المجتمعات الرعوية الذين يقولون، بالاستناد الى دراساتهم للاقتصاد الرعوي في كازاخستان وقرغيزيا وكالميكيا(٦) ، ان بامكان الاقطاع ان يتطور في المجتمعات الزراعية الصرفة ، ويولون من خلال ذلك اهتماما خاصا بمسألة الري الاصطناعي، واضعين بذلك الرعي في طرف مقابل (مناقض ـ المترجم) للاقطاع . ومما يدحض مثل هذا الرأي أكثر اننا نجد بين الكرد حالات تكون الارض فيها ملكا للدولة التركية ، بينما اسلوب الاستغلال فيها ، وكذلك شكل استلام فائض المنتوج منها ، أو شكل ارتباط الفلاح ـ الراعي بها ، اقطاعي .

---

(٦) تقع جميعها في آسيا الوسطى وشمال القفقاس ـ المترجم .

تكوين القبيلة الكردية
وبداية الاستقطاب فيها

لم يربط لينين ، كما يعتقد عدد من المؤرخين ، العلاقـــات الاقطاعية بالملكية الفردية للارض بشكل مطلق • فيجوز الا يقتصر وجود الاقطـــاع فقط عـــلى المناطق التي تكون فيها ملكية الارض فردية ، بل يوجد ايضا حيث تكون ملكية الارض تابعة للدولة التي تعبر عن مصالح الاقطاعيين ، لان علاقة الانتاج بوسائله ، وكـذلك اسلوب الحصول على فائض المنتوج يكونان في الحالتين متشابهين(١)• وفي الواقع يمكن الحصول عـــلى فائض العمل عن طريق الالزام اللااقتصادى(٢) ، ومن فائض منتوج الفلاح بالذات بأساليب مختلفة جدا ، أي يمكن الحصول عليه بشكل عيني أو نقدي أو بالسخرة ، واخيرا على صورة أتاوة يدفعها حرس البيك الكردي عن الفلاحين المقهورين من جانبهم •

وفي الوقت نفسه لم يضع لينين مفهوم الاقطاع في طرف مقابل

---

(١) يعتبر جنوب العراق ، وبصورة خاصة حـوض دجلـــة ، في العهد الملكي وقبيل الحرب العالمية الاولى نموذجـــا واضحـــا لمثل هذا النوع من علاقات التملك والاقطاع ـ المترجم •

(٢) يقصد بالالـــزام اللااقتصـــادي جميـــع انـــواع الالتزامـات الاقطاعية التي لا تدخل ضمن العملية الانتاجية الصرفة مثـــل ضريبة الزواج وضريبة الموتى وما شابه ـ المترجم •

لمفهوم نظام الرق الاقطاعي(٣) • فالعلاقات الاقطاعية عند لينين ، كما عند ماركس ، هي أشكال الاستغلال التي تعتمد على الانتاج الفلاحي الصغير •

عندما نقرأ الادبيات القليلة الموجودة عن الكرد نجد أصحابها يصورونهم دائما ، ولسبب ما ، وكأنهم يعيشون في ظروف « العلاقات البترياركية (الابوية) والقبلية » • فحسبما يذكر بختادزي ان الكرد يدارون من قبل مجالس للشيوخ يختار من بين أعضائها رئيس العشيرة(٤) • أما في رأي س•أ•يگيزاروف فان « الكرد يؤلفون جماعات بترياركية (أبوية) ديمقراطية يتمتع فيها الجميع - الاغنياء كالفقراء - بحقوق متساوية »(٥) • من هنا نرى ان

(٣) مظاهر هذا النظام واضحة بشكل خاص في المجتمعات الاوروبية الاقطاعية السابقة ٠ كان الاقطاعي ، بموجبه ، يملك الفلاح وقوة عمله وما لديه من حاجيات ، يحق له بيعه مع الارض ، لكن لم يحق له قتله كما كان عليه الامر في مرحلة ما قبل الاقطاع ، وهذا هو الذي يميز وضع الاقنان الاجتماعي عن وضع العبيد - المترجم ٠

(٤) بختادزي ، متنقلو منطقة ما وراء القفقاس ، - « مجموعة المواد لدراسة الحياة الاقتصادية للفلاحين الحكوميين في ما وراء القفقاس » ٠ (يقصد بحث ي٠ ل٠ بختادزي المنشور في الجزء الثالث من المجموعة المذكورة الصادرة في تفليس في العام ١٨٨٨ ٠ تطرق بختادزي في بحثه الى قضايا مختلفة من حياة وعادات العشائر الكردية المتنقلة في ما وراء القفقاس - المترجم) ٠

(٥) س٠ أ٠ يگيزاروف ، المصدر السابق ، ص ١٧ ٠ (يشير المؤلف هنا الى انه وضع خطا خاصا لابراز بعض أقوال يگيزاروف ، لكن في النص المطبوع لا توجد اي اشارة تمييز - المترجم) ٠

المؤرخين البورجوازيين يحاولون تصوير الأمر وكأن التملك الفردي كان موجودا لدى الكرد منذ البداية(٦) • لكن ، بالرغم من ذلك ، كان مجتمعهم (في رأيهم ـ المترجم) خاليا من التناقضات •

والواقع ان النظر الى مراحل تطور المجتمع الكردي سيلقي حتما الضوء على هذه المسألة بالذات • فالاكراد يقولون عن انفسهم في تاريخهم الشفاهي «شرفنامه»(٧) : « ئەمە بەرەیەك بووین » ـ بالنص : « نحن كنا اسرة واحدة »(٨) • وهذا يعود الى الزمن

---

(٦) يشير المؤلف بذلك الى أقوال س• أ• يكيزاروف حول « الاغنياء والفقراء » في المجتمع الكردي ـ المترجم •

(٧) التاريخ الشفاهي الكردي « شرفنامة » غير المطبوع ـ المؤلف • يبدو من أقوال المؤلف ان الاثر التاريخي « شرفنامة » كان متداولا بين عامة الناس في كردستان • لكن لم يتطرق الى هذا الموضوع دارسو « شرفنامة » • على اي حال لا يستبعد ان الناس في بعض المناطق كانوا يروون اقساما واحداثا معينة من « شرفنامة » ـ خاصة ما كان يتصل بمآثر الامراء ـ قبل تأليفها من قبل شرفخان البدليسي على شكل أدب شعبي الف معينا مهما لصاحب « شرفنامة »• ان تحديد هذا الموضوع ، وجمع ذلك «التأريخ الشفاهي» ، مع مقارنته بمتن الكتاب يعتبر مهمة علمية جليلة يساعد انجازها على فهم اعمق لجوانب خافية من تاريخ الكرد في العصر الوسيط ـ المترجم •

(٨) « بەره » تعني جيل ، ابناء واحفاد • يقال « بەره باب » أي اولاد واحفاد يرجعون الى أب واحد • تطلق « بەره » في بعض المناطق على وحدات أصغر من القبيل وضمنها • وهي تعني الجبهة كمصطلح سياسي حديث • لكن قصد المؤلف هنا ان الجميع كانوا يؤلفون في تلك الفترة اسرة واحدة تساوى فيها الكل من حيث التملك والحقوق ـ المترجم •

الذي كانوا يزاولون فيه حياة مشاعية ، عندما كانت عشيرة كاملة تمتلك قطعانها وأرضها المشاعة • وبعد ذلك ، وفي الرواية نفسها ورد ما يلي : « لم يتميز أباؤنا واخواننا بعضهم عن الاخر » • وهذا يعني ان الرواية تتحدث عن تلك الفترة من تأريخ الكرد عندما لم يكن يوجد لديهم التملك الفردي سواء بالنسبة للقطعان أو بالنسبة للارض • وفي تلك المرحلة من التطور لم يكن (المجتمع الكردي ـ المترجم) منقسما بعد الى طبقات •

وكما كتب انجلس « ان عظمة النظام العشيري ، ومحدوديته في الوقت نفسه ، انما تكمنان في حقيقة عدم وجود مكان للتسلط والاستعباد فيه • ففي داخل النظام العشيري لا يوجد بعد أي اختلاف بين الحقوق والواجبات ••• وبالمستوى نفسه فأن احتمال وجود مجال لانفصام العشائر والقبائل الى طبقات مختلفة لقليل ، وهذا ما يسوقنا الى التمعن في القاعدة الاقتصادية للنظام العشيري »(٩) •

ولكن هل بالامكان القول انه لم يوجد لدى الكرد قبل الثورة(١٠) بل وحتى قبل ٢٠٠ ـ ٣٠٠ سنة مضت التملك الفردي بالنسبة لوسائل الانتاج ؟• بالطبع كلا ! ، فقد شهد المجتمع الكردي

---

(٩) انجلس ، أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة ، باللغة الروسية ، دار الحزب للنشر ، ١٩٣٢ ، ص ١٥٩ • (يتحدث انجلس في هذا القسم من مؤلفه عن النظام العشيري بين الهنود الحمر الامريكان ، وكيفية انقسامهم الى قبائل تجمع بينها قرابة الدم ، ويشترك جميع افرادها في الشؤون العامة للقبيلة دون ان يفكر في كون ذلك حقا أو واجبا ـ المترجم) •

(١٠) يقصد ثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيا ـ المترجم •

في القرنين العاشر والحادي عشر عملية التحول الاقطاعي ، وظهور عدد من الامارات الكردية مع كل ما يتميز به الاقطاع من أشكال التبعية الفلاحية • وقد وصفت (شرفنامه) عددا من الامارات التي كانت لديها قصورها وقلاعها ، وتتحدث عن بعض المراكز التجارية التي ظهرت ، وعن فئة تجارية خاصة • وكما يذكر شرف الدين(١١) فان بعضا من هذه الامارات سكت نقودها وفرضت ضرائب حكومية (رسمية ـ المترجم) وكانت تتمتع بحق تملك الارض(١٢) • وهذا يدحض تماما رأي المؤرخين البورجوازيين

---

(١١) شرفخان البدليسي ـ المترجم •

(١٢) يورد شرفخان البدليسي معلومات مهمة اخرى بهذا الصدد ، ولا سيما ما يتعلق منها بالامراء الذين اولوا الزراعة وجمع الثروة اهتماما خاصا • فالامير محمد بن بدر بيك ، وهو من امراء الجزيرة « كان يعني على عهد والده بتنظيم الاملاك ، وكان حريصا على جمع الاموال وخزن الثروة • وقد روى انه كان من الغنى بحيث يملك أثنى عشر الف نعجة ونود ، يستفيد من محصولها السنوي الشيء الكثير ، كما كان قد أودع لدى أناس مزارعين من الشعب مئة الف سرب من الطيور الدواجن ••• » • ولما قتل هذا الامير « كانت خزينته تحوي زهاء مئتي الف دينار ذهبي » • ويورد المؤلف نفسه معلومات قيمة عن القلاع الاقطاعية في المناطق الكردية • فبالنسبة لمنطقة الجزيرة وحدها يورد أسماء أربع عشرة قلعة فقط « لئلا يسبب الاسهاب ملل أرباب الفضائل واولي الالباب » (« الشرفنامة في تأريخ الدول والامارات الكردية » الفه باللغة الفارسية الامير شرف خان البدليسي • نقله الى اللغة العربية وعلق عليه ملا جميل بندي روژبياني ، بغداد ، ١٩٥٣ ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩ ، ١٥٧ ـ ١٥٨ وغيرها) ـ المترجم •

الذين يعتقدون ان الاكراد يعيشون في ظروف « مجتمع عشيري بترياركي (أبوي) ديمقراطي خال من الفروق »، هذا الرأي النابع من الفكر البورجوازي الجاهز •

في الواقع يوجد داخل المجتمع الكردي العديد من بقايا النظام القبلي ، ولكن يكون من الخطأ الكبير ان يعول على هذا الاساس بالذات لاثبات ان العلاقات القبلية هي السائدة بين الأكراد(١٣) • فلو أخذ هذا الجانب وحده في المجتمع بنظر الاعتبار فاننا نرى في حياة الفلاحين الروس والأرمن وغيرهم قبل ثورة اكتوبر بقايا بترياركية غير قليلة ، ومع ذلك فلا يستطيع أحد التأكيد على وجود علاقات بترياركية ـ قبلية في القرى الروسية قبل ثورة اكتوبر • ومعلوم في الوقت نفسه ان الاقطاع الذي يساعد على انحلال القاعدة الاقتصادية للمجتمع القبلي ، يحافظ من جانب آخر ، والى حد واضح ، على القيم القبلية (العقائد والعادات والافكار وغيرها) مكيفا أياها بصورة تتفق مع مصالحه الطبقية • وهذا بالذات ، اي احتفاظ الاقطاع ببقايا علاقات قبلية وعشيرية قوية وتكريسها لخدمة الاقطاعي ، هو ما نجده عند الكرد • فكما سبق القول تؤلف العشيرة الكردية هيكلا جدا معقدا للمجتمع القبلي القديم بكل مؤسساته الخاصة مع العلاقات الجديدة • وبالامكان كشف هذا الواقع عن طريق تحليل العلاقات الاجتماعية ـ الاقتصادية للقبيلة الكردية

---

(١٣) يقصد العلاقات القبلية المبكرة حيث تتمتع روابط الدم والقرابة والعلاقات الابوية بقوة فائقة داخل العشيرة الواحدة ـ المترجم •

والتي نجعل من عشيرة «الحسني»(١٤) القاطنة عند سفوح جبال آرارات في مقاطعة يريڤان سابقا نموذجا لها ٠

ان اول نواة للـ « بەر » عند الكرد يسمى «ڤيل» ، وهو يتألف من العائلة التي تربط علاقات الدم بين أفرادها ، ويؤلف عدد من الـ «ڤيل» «بەر» ، فعندما يقال : « تو كيژان بەرەيی ؟ » يقصد به « الى أي جهة أو قبيلة تنتمي ؟ » ٠ من هنا يتضح ان الـ « بەر » هو القبيلة أو العشيرة بعينها ، وفيها يوجد مجلس للشيوخ ينتخب من بين الاغنياء (المتمكنين) ، ويطلق عليه بالكردية « جماعتا روسپيا» أي مجلس الكبار(١٥) ٠ وتتألف مثل هذه القبيلة ، عادة ، من بضع عشرات من قرى المتنقلين أو المشاتي التي يوجد في كل منها مجلس خاص للشيوخ ، كما يمثل كل قرية شخصان او ثلاثة أشخاص في مجلس القبيلة ٠ ويوجد في كل قرية «كيخدا» يرأس مجلس الشيوخ فيها ، وكان ينتخب في البداية ، وأصبح فيما بعد

---

(١٤) سميت عشائر كردية عديدة باسم رئيس بارز من رؤسائها مثل حسني ، حسنانلي ، عمرانلي ، حيدرانلي وغيرها ٠ توجد عشيرة بأسم الـ « حسينية » تسكن شمالي جزيرة ابن عمر ، وتوجد اخرى بنفس الاسم في غربي زاخو ٠ كما توجد عشيرة بأسم « حسنانلي » تسكن حاليا مناطق خنس وملازكرد وما والاهما ٠ كانت « حسنانلي » في السابق عشيرة متنقلة كبيرة ، اسكنت في عهد السلطان سليم الاول (١٥١٢ـ١٥٢٠) في منطقة الحدود العثمانية المجاورة لروسيا وايران لحمايتها ٠ لذا لا يستبعد ان تكون عشيرة الـ « حسني » فرعا منها بقيت هناك ـ المترجم ٠

(١٥) الكبار عمرا ـ المترجم ٠

يعين من قبل رئيس القبيلة • وبالتدريج أصبح ينتخب من بين أعضاء مجلس الشيوخ المنتخب من جانب جميع «قبيل» القرية كيخدا لها • ومصطلح «كيخدا» مقتبس من فعل «كـهتن» (في السورانية : «كهوتن» ـ المترجم) أي (السقوط) و «خدا» أي (الاله) فيعني بذلك (الاله النازل) • وربما «كهت» مقتبسة من «كند» التي تعني القرية بالتركية ، واذا صح ذلك فسيكون معنى المصطلح ـ الـه القريـة (٦) •

يوجد على رأس كل قبيلة رئيس هو الـ «آغا» ، الذي كان يأتي في البداية عن طريق الانتخاب ، بينما غدا المنصب فيما بعد وراثيا ، اذ تنتقل الرئاسة من بعد وفاته الى ابنه أو شقيقه أو أحد اقربائه المقربين • وتؤلف الثروة أهم أساس يجب توفره لدى من ينتخب لاشغال منصب الـ «آغا» ، أي يجب ان يملك المنتخب قطعانا كبيرة من الغنم والبقر •

يكون عدد من الـ « بـر » العشيرة التي تعرف ايضا بال «عيل»، ويوجد على رأس كل عشيرة (بيك) أو (أمير) • وغالبا ما يحدث

---

(١٦) «كيخدا» تعود في الاصل الى كلمة «كدخدا» ، وهي تعني كبير القرية أو المحلة أو صاحب القرية أو صاحب الدار وكبيرها • تستعمل ايضا بمعنى الزوج والرجل المتزوج ، وهي ترد احيانا بصيغة «كتخدا» • يستبعد احتمال اقتباس كلمة «كهتن ـ كهوتن» الكردية الاصل والجذر ، والشائعة في كل لهجاتها من التركية ، خاصة وان ظهور مثل هذه الكلمات الشائعة يرتبط في جميع اللغات تقريبا ببدايات تكونها ـ المترجم •

ان يكون على رأس العشيرة وجه ديني كبير يجمع في يديه السلطتين الدينية والدنيوية • وبسبب الظروف الخاصة للمناطق الجبلية كان يوجد لدى كل من الـ «قبيل» والـ «بهر» والـ «عيل» وجيه يقوم بحمايته ، ويطلق عليه اسم الـ «ميرخاس» • وفي العادة كان الـ «ميرخاس» شخصا قويا من الناحية الاقتصادية ، له علاقات قرابة واسعة • وكان الـ «ميرخاس» ، أو البطل كما يسميه الكرد ، يؤلف القوة الرئيسة لدى ال « قبيل » أو ال « بهر » أو العشيرة ، يحافظ على قطعانها ومراعيها من تطاول القبائل والعشائر الاخرى ، وقد توسعت سلطاته في ظروف التنقل وتربية الحيوانات •

تؤلف مسألة الماء في ظروف التنقل واحدة من أهم المشاكل ، اذ تعتمد عليه حياة الراعي وقطيعه ، بل وجود العشيرة بأسرها • وقد عبرت عن ذلك بوضوح احدى الاغنيات الشعبية المعروفة بأسم «هوزان» • كانت أرض الرعي (حيث تدور كلمات الاغنية حولها ـ المترجم) تتبع لعشيرة ملي(١٧) ، وقد حدث بسببها نزاع كبير بين عدد من القبائل ، فقد كان الماء متوفرا في منطقة واحدة منها فقط :

« أيتها الارض (١٨) كم انت طيبة •• طيبة ،
لكن ليخربك الاله ، ايتها الارض
امعن النظر في فصائل الفرسان
فلا اجد بينهم الوسيم فقي علي(١٩)

---

(١٧) من اكبر العشائر الكردية المعروفة ذات التاريخ الحافل في العهد العثماني • تقطن الولايات الشرقية من تركيا ، ولاسيما في منطقة سيفرك • كانت تخضع لرئيس هذه العشيرة في القرن الماضي حوالي اربعين الف اسرة كردية ـ المترجم •

(١٨) المقصود أرض أو منطقة الرعي ـ المترجم •

والارض تمتد في منعطف الجبل
وفصائل الاعداء تتدفق لتطغي على فصائل الفرسان
ولا يوجد في تلك الارض ذلكم الماء الرقراق
فقد أصيب المقهورون في قلوبهم »

هكذا كان يجري نزاع مستديم بين القبائل من اجل السيطرة على احسن الاراضي ومصادر المياه . وقد برز في خضم ذلك المتمكنون الذين كانت بحوزتهم قطعان كبيرة ، فكان بمستطاعهم الاحتفاظ على حسابهم بعدد معين من «السيار » ، اي الفرسان المحاربين . وكان يشترك في الحروب الى جانب هؤلاء كذلك افراد العشيرة الذين كانوا يعملون في الانتاج . ومن الجدير بالذكر انه لم تقتصر مهمة هؤلاء «السيارين» على محافظة العشيرة من الهجمات المتوقعة ، بل كانوا يغيرون بدورهم على العشائر المجاورة .

وفي تلك الفترة كانت توجد في المشاعية الكردية مراع واسعة كانت ملكيتها عامة ايضا . وكانت اراضي الـ «گوند» في القرى تدخل لوحدها ضمن الممتلكات الفردية (٢٠) . اما الحيوانات فكانت تعتبر من الملكية الخاصة للافراد ، بينما كانت مصادر الماء والمراعي والمروج مشاعة بين الجميع . لكن رئيس العشيرة بدأ بصورة تدريجية ، وعن طريق السيطرة الاقتصادية على المشاعية ، يجمع كل شيء بين يديه ، وذلك بعد ان اصبح يأخذ الحصة الاكبر من غنائم

---

(١٩) فقي علي هو اسم رئيس العشيرة الذي قتل اثناء المعركة ، وتيمنا بذكرى المعركة وضعت هذه الاغنية الشعبية ـ المؤلف .
(٢٠) وهذا يعني ان جميع انواع الارض الاخرى كانت مشاعية ـ المترجم .

المراعي والحيوانات التي كانوا يستولون عليها من العشائر الاخرى ، بينما كان يعطي لـ «السيارين» حصة اقل • وفيما بعد بدأ بارسال «السيارين» للاستيلاء على المراعي واخضاع القبائل والعشائر الضعيفة والاستحواذ على ممتلكاتهم •

قيم ف•انجلس عملية تكون السلطة هذه ، عملية تحول النظام العشيري الى نقيضه بالشكل التالي :

« تؤدي حرب الاغتصاب (النهب ـ المترجم) الى تعزيز سلطة القائد الحربي الاعلى ، وكذلك سلطة القادة الذين يأتون في المرتبة الثانية • وان الانتخاب الاعتيادي لخلفائه (خلفاء القائد او الرئيس ـ المترجم) من العائلة نفسها يغدو بالتدريج ، وعلى الاخص بعد تثبيت الحق الابوي ، سلطة وراثية كانت في البداية عبئا ثم اصبحت مطلبا واخيرا غصبا(٢١) ، ومن هنا تظهر اسس الملكية الوراثية والاشراف الوراثي • وهكذا بالتدريج تنفصم اسس(٢٢) النظام العشيري من جذورها بين الشعب والقبيلة والجماعة والعشيرة

---

(٢١) يقصد انجلس ان الرئاسة كاي ظاهرة اجتماعية قد مرت بمراحل ، فعند أول ظهورها مع انحلال المشاعية كانت بمثابة عبء على الشخص الذي يعين رئيسا لما كان يفرض عليه من التزامات أمام افراد عشيرته ، ولكن مع ازدياد الفوارق ، وتثبيت جذور التملك الفردي ودور السلطة الكبير وامكانات تسخيرها لتوسيع الملكية الفردية ، اصبحت الرئاسة مطلبا يهتم بها المعنيون ، ثم اصبحت مصدر نزاع وخلاف واغتصاب ـ المترجم •

(٢٢) في النص : اعضاء او مؤسسات ـ المترجم •

ويتحول كل الكيان الاجتماعي العشيري الى نقيضه : يتحول من تنظيم عشيري للاشراف على الشؤون الخاصة الى مؤسسة لنهب الجيران واضطهادهم ، ووفقا لذلك تتحول تنظيماته من أدوات للتعبير الشعبي الى تنظيمات حكومية وارهابية مستقلة مناهضة للشعب »(٢٣) .

ان كلمات انجلس هذه تحتفظ بكامل قوتها بالنسبة للكرد ايضا . ففي المجتمع الكردي كانت توجد اشكال تقليدية لمعونة اعضاء المشاعية ، وهي تعرف في الكردية بـ « رزو » و « بار—به»(٢٤). ففي حالة موت حيوانات عضو المشاعية ، او في حالة استيلاء العشائر الاخرى على حيواناته ، او في حالة اصابته باي كارثة طبيعية حينذاك كانت المشاعية تقوم بالـ «رزو» ، اي انها كانت تجمع من جميع اعضائها الحيوانات والحبوب وغيرها لتقدمها للشخص المتضرر . ويسمى النوع الاخر من المعونة بـ «بار – بەر» ، و «بار» يعني (الحمل) و «بەر» يعني (اخذ ، حمل)(٢٥) اي اخذ (نقل) الحمل. وكانت المشاعية تمنح مثل هذه المعونة لاعضائها الذين كانوا لا يمتلكون حيوانات النقل الضرورية لظروف التنقل (خاصة اذا كانت

(٢٣) ف.انجلس ، اصل العائلة ... ، ص ١٦٥ . (يتحدث انجلس في هذا القسم من كتابه عن الظروف الموضوعية التي تؤدي الى الجمع بين عدد من القبائل ، ومن ثم ظهور السلطة داخلها كضرورة اجتماعية حتمية ، ولاسيما بعد ظهور حروب النهب التي تغدو بالتدريج حرفة دائمية تؤلف مصدرا اقتصاديا ، واساسا لتعزيز سلطة الرئيس الاعلى – المترجم).

(٢٤) في بعض المناطق : باربو – المترجم .

(٢٥) «بەر» تعني حرفيا الاخذ – المترجم .

الرحلة تمتد لمسافة مئات الكيلومترات) حتى تقوم بنقل ممتلكاتهم واطفالهم أثناء التنقل . فقد كانت المشاعية في مثل هذه الحالة تقدم لأعضائها المعدمين اثناء الترحال من منطقة الى اخرى ثورا او حمارا او جملا . وبهذا الشكل كان اعضاء المشاعية المعدمين يقومون بنقل حوائجهم اثناء رحلة الصيف والشتاء مع الآخرين . وفي حالة حاجة شخص ما (في المشاعية – المترجم) الى المواد الغذائية كانت المشاعية تقوم ايضا بابداء المساعدات اللازمة له(٢٦) . ولكن هذا الشكل من المعونة انتقل بالتدريج الى المتمكنين (من اعضاء المشاعية – المترجم) الذين بدأوا بتقديم المساعدات للفقراء بغرض اخضاعهم .

وكان يوجد نوع اخر من المعونة في المشاعية كانت تمنح للاقرباء فقط . فقد كان المتمكنون يعطون لاقربائهم «كاور» اي الخروف العقيم . وكان في العادة يقدم هذا الخروف البالغ من العمر عاما واحدا في الخريف عندما كان يظهر ان احتياطي القريب من الغذاء لا يكفيه حتى حلول الربيع ، حينذاك كان يقوم اقرب اقربائه بتقديم خروف او خروفين اليه . لكن هذا النوع من المعونة ايضا انتقل تدريجيا الى ايدي الاقرباء الاكثر ثروة ، او الى رئيس العشيرة ،

---

(٢٦) توجد حتى الان في العديد من المناطق الريفية الكردية انواع من المعونة التي تعود الى عهود سحيقة في القدم ، منها الحرث والحصاد والدوس الجماعي ونقل الحطب المشترك الى دور الفلاحين واعداد البرغل والشلغم والخبز في البيوت ، وكذلك جعل المرجل الذي يغلي فيه البرغل ، او الكوز الكبير الذي يعد فيه الشلغم ، او الهاون والمجرشة وغيرها مشتركا – المترجم

وتحول الـ «كاور» الى «كاوری نەمری» ، اي الخروف الحي .
وهذا يعني ان القريب اصبح ملزما بان يعيد الخروف الى رئيس العشيرة بعد سنة ونيف وخلال الربيع ، اي في فصل توفر الاعشاب لتربيته . وهكذا كان الرئيس المتمكن يعطي الخروف البالغ من العمر عاما ، او بالاحرى ٦ـ٨ اشهر ، وكان يسترجع فيما بعد ضأنا يبلغ العامين . ان هذا الشكل من «المعونة» (٢٧) قد ارهق ايضا ، وبما فيه الكفاية ، كاهل اكثرية الجماهير الفلاحية الكردية . فقد كان الرئيس يحفظ بواسطته خرفانه من الكوارث ، ويستلم فيما بعد اغناما مكانها . اما «بار ـ بەر» الذي تطرقنا اليه سابقا فبالرغم من انه لم يكن يؤلف عبئا ثقيلا الى حد كبير ، الا انه قد تحول الى وسيلة ارهاق مستمر بالنسبة للمعدمين . فالشخص الذي كان يحتاج الى المساعدة لنقل عائلته اثناء الترحال كان يصبح ملزما بان يعمل لعدة اشهر لدى المتمكن .

اخيرا كان يوجد في المجتمع (الكردي ـ المترجم) نوع اخر من المعونة يسمى بالـ «زباله»(٢٨) التي هي عبارة عن معونة تقدمها النساء بعضهن لبعض خلال العمل . فقد كان كل نسوة المشاعية تقريبا يجتمعن معا ويساعد بعضهن البعض في غسل الصوف وندفه . فكن يجتمعن عند واحدة منهن ، ويغسلن الصوف خلال يومين او

(٢٧) وضع القوسان من قبلنا ـ المترجم .
(٢٨) والصحيح «زبارة» وقد وردت هكذا ايضا في القاموس الكردي ـ الروسي للدكتور ك. كوردوييف (ص ٨١٠) . والمؤلف نفسه ذكرها بشكل صحيح (أي زبارة) في مؤلفه المعروف «دمدم» ـ المترجم .

ثلاثة ، وبعد مرور بعض الوقت على تجفيفه كن يأي بجهد الجميع يقمن حسب تقاليد «زباله» (زباره ـ المترجم) بندفه ، وما كان على صاحبة البيت لقاء ذلك سوى اطعامهن • وكان هذا ايضا في صالح المتمكنين (في المشاعية ـ المترجم) لانهم بعكس ذلك كانوا يضطرون الى تشغيل النساء لقاء اجر معين بحكم امتلاكهم لعدد كبير من الحيوانات • هكذا استطاع الرئيس استغلال هذا النوع من التعاون المتبادل لصالحه ، فقد اصبحت المرأة ملزمة بالعمل لديه دون مقابل •

وانتقلت السلطة في المجتمع الكردي بالتدريج الى الرؤساء الاعلين في العشائر «الذين كانوا بمثابة امراء اصليين»(٢٩) • وقد تكونت هذه السلطة عبر قرون ومن عناصر المجتمع الكردي المتنقل• يحتاج توضيح هذه المسألة الى النظر في طبيعة التنقل ، وبصورة خاصة لدى الكرد انفسهم •

---

(٢٩) ف• تاردوف ، الخصائص الرئيسة لعلاقات الانتاج بين عشائر ايران ، ـ «مواد عن المشاكل القومية ـ الكولونيالية»، موسكو ، العدد ٣ـ٩ ، ١٩٣٣ ، ص١٣٩ •

تبلور الاستقطاب
والالتزامات الاقطاعية

يتصور العديد من المؤرخين الذين كتبوا عن نمط حياة التنقل ان الرحل لا يملكون مناطق سكنى دائمية ، وان اقتصادهم كله يعتمد على تربية الحيوانات ، بينما اساس الاقطاع هو مقدار ما لدى مربي المواشي من الحيوانات . الا ان هذا امر غير صحيح . وفي الامكان دحض الرأي الخاطيء حول ما يسمى بالاساس الرعوي الخاص للاقطاع الكردي ولو عن طريق تحليل المعلومات المتوفرة عن عشيرة ديخلر(١) القاطنة عند اقدام جبل ارارات . فلدى هذه العشيرة توجد اربعة انواع مختلفة من الاراضي تقع في اربع مناطق متباينة الارتفاع :

١ ـ «گوند» ـ وهي ارض القرية مع ما يحيط بها من حقول ومروج صغيرة .

٢ ـ «زوزان» او «يايلاق»(٢) ـ وهي المراعي الصيفية في منحدرات الجبال العالية .

---

(١) ربما داغلر ـ المترجم .

(٢) «زوزان» بالكرمانجية و «كويستان» بالسورانية . «يايلاق» أو «يايلق ، يايلغ» كلمة تركية مركبة تعني مكان الاصطياف (ياي = الصيف ولاق ، لق ، لغ = مكان) ـ المترجم .

٣ ــ «قشلة» او «قشلاقي»(٣) ــ وهي مراع تقع في وادي ارارات ، دافئة جدا ، الا انها عديمة الماء ، او ما يسمى بـ «قرِي» ٠

٤ ــ «دۆلگه»(٤) ــ وهي المراعي التي تقع في اعماق الوديان وتستخدم بشكل خاص في اوائل الربيع أثناء تناسل الاغنام ٠

كان المتنقل الكردي يمتلك ارض الـ «گوند» او القرية مع مساحات زراعية صغيرة ، اما بقية الاراضي مع مصادر المياه فيها فقد انتقلت الى ايدي البكوات والاغوات الذين كانوا في الواقع يحافظون عليها من المغيرين ٠ ان هذا الواقع للمجتمع المتنقل والذي تتجمع في اساسه ، سواء بالنسبة للمجتمع الكردي او اى اقتصاد متنقل اخر ، اراضي الرعي ومصادر الماء والمواشي هو مفتاح فهم المجتمع المتنقل الاقطاعي وتطوره التاريخي ٠ وقد اصاب ف٠تاردوف ، وهو يتطرق، من خلال تقييمه لاهم خصائص علاقات الانتاج لدى عشائر ايران ، الى حراس البيك حين قال عنهم :

« في چاگاخور (؟) (٥) حيث يتجمع البختياريون قبل الانتقال الى گەرمەسیر(٦) ، تتبع في خيم الحراس القريبين من الايلخاني(٧)

(٣) «قشلاق» أو « قشلق ، قشلغ » كلمة تركية مركبة تعني المشتى ــ المترجم ٠

(٤) «دۆلگه» كلمة كردية تعني المرتع او المراتع الممتدة ، ويستخدمها الاتراك لنفس المعنى ــ المترجم ٠

(٥) علامة الاستفهام موضوعة من قبلنا ــ المترجم ٠

(٦) كلمة كردية مركبة تعني المشتى ــ المترجم ٠

(٧) كلمة مركبة من (أيل) وتعني العشيرة و (خان) وتعني الرئيس ، اي رئيس العشيرة ــ المترجم ٠

حياة تشبه المشاعية القبلية ـ العسكرية حيث المطبخ والمأكل العموميان ، اما الاسلحة والذخيرة فانها تحفظ في خيم رؤساء العشائر وفي دار الايلخاني ••• وتلاحظ تقريبا الظاهرة نفسها وحتى الفترة الاخيرة في كردستان»(٨) •

وبالفعل يوجد تعبير واضح للانفصام (الانقسام) الطبقي بين الحراس ، اذ ان العديد منهم يخدمون في صفوف الحرس وهم لا يمتلكون شيئا • فالخيل الذي يستخدمونه للتنقل ، وكذلك البندقية تقدم لهم من قبل رئيس الحراس او الاقطاعي ، ويأكلون على حساب الاخير ، اما زوجاتهم فانهن يعملن في (بيت ـ المترجم) الاقطاعي ويقمن بانجاز اعمال مختلفة في خدمة حيواناته • واكثر من ذلك فانهم (اي الحراس ـ المترجم) يكونون دائما رهن اشارة الاقطاعي للاغارة على العشائر المجاورة بقصد سلب مواشيها واغنامها • وكثير من هؤلاء يفقدون رؤوسهم في معمعان هذه الهجمات والمعارك • وفي مثل هذه الحالة تستمر عوائلهم في خدمة رئيس العشيرة • والى جانب كل ذلك يقوم الحراس بجمع الضرائب للبيك في المناطق البعيدة من ممتلكات الاقطاعي ، يرافقهم في ذلك وكيل البيك • وفي الوقت نفسه فانهم لا يملكون حتى حق الجلوس في حضور البيك او الاغا ، بل انهم لا يحق لهم الاكل في مجلس البيك ، والشيء الوحيد الذي يسمح لهم به في مجلسه (وذلك في حالات محدودة) هو التدخين • من هنا لا يصح ، اذن ، الكلام باي حال من

---

(٨) ف• تاردوف ، المصدر السابق ، ص ١٣٩ •

الاحوال عن المشاعية العشيرية • صحيح انه قد يحدث ان يوجد بين الحراس بعض اقرباء البيك الذين كانوا يقفون ، بحكم ذلك ، على رأس جماعات مختلفة وكان هؤلاء يحضرون احيانا لتناول الطعام مع البيك ، الا ان ذلك لا يدل على اي نوع من مظاهر المشاعية •

هكذا فان الواقع الطبقي بين الحراس أمر واضح • صحيح ان جميع الاسلحة تودع في بعض الاحيان عند الخان أو البيك أو الآغا • لكن هذا لا يتعدى كونه تعبيرا عن الطاعة والاخلاص في خدمة رئيس العشيرة • ويقوم الحراس مرتين في السنة – في الربيع وفي الخريف – بوضع اسلحتهم لمدة يومين أو ثلاثة أيام في الـ « كيلەره » التابعة للرئيس (وهي خيمة خاصة لحفظ الاشياء) ، ويقوم الحراس باستعادة اسلحتهم بعد وليمة تقام لهم • ولكن يحدث ان لا يعاد قسم من الاسلحة (الى حامليها – المترجم) الذين يعهد اليهم ، في مثل هذه الحالة ، بمهمة تربية المواشي ، أو أي عمل آخر • وهذا ما يحدث عادة بالنسبة لأناس لم يبرروا ثقة الرئيس بهم • ومن الجدير بالذكر ان التقسيم الطبقي يلاحظ في الوليمة المقامة بشكل دقيق ، حيث يأكل الأمير(٩) بصورة منفصلة ويأكل الذين ينتمون بصلة القربى الى عائلة الرئيس بصورة منفصلة أيضا ، وبمعزل عنهم يأكل الحراس الاعتياديون •

كان عدد حراس كل رئيس عشيرة يتراوح بين ١٠٠ الى

---

(٩) يقصد الرئيس ، الاغا أو البيك – المترجم •

٥٠٠ شخص كانوا يتجولون في جميع المناطق الخاضعة (للرئيس ـ المترجم) داخل القبيلة أو العشيرة أو الـ «اوبه»(١٠) لجمع ضرائب البيك • وكان هؤلاء يؤلفون ، في الوقت نفسه ، قوة خاصة للاقطاعي يستخدمها لاخضاع القبائل والعشائر الاخرى ، وكان يطلق عليها أسم « عهمهله ـ عمله »(١١) • وكان بعض الاقطاعيين يقدمون قوات «عمله» خاصة لاداء الخدمة عند الشاه الايراني أو السلطان التركي• ولـكلمة «عمله» نفسها معنى طريف للغاية يكشف عن المضمون الاجتماعي لهذا التنظيم •

تعني كلمة «بێ عهمهله» بدون عمل ، أو من لا يملك شيئا ، أما كلمة « عهمهله » فانها تعني الضروري والمهم واللازم(١٢) •

---

(١٠) «اوبه» عبارة عن تجمع عدد من العوائل الفلاحية التي كانت تستلم الارض من الاقطاعي الكردي لفصل الصيف ـ المؤلف• ان الذين يكونون الـ «أوبه» أو الـ «هوبه» هم في العادة اناس من ذوي الامكانات المحدودة الذين يجتمعون حول شخص اكثر امكانية لغرض استئجار المرعى وتنظيم شؤون الرعي معا • ومع ظهور بوادر العلاقات الجديدة ، والاسلوب الجديد في التعامل ، ومع ازدياد ارتباط الفلاح بالارض ، وتحول الزراعة الى مهنته الرئيسة ، تغير هيكل الـ «اوبا» بدوره • ففي السابق كان اصحاب الحيوانات يجتمعون بأنفسهم ويؤلفون الـ «اوبا» ، وينظمون جميع اعمالها • بينما غدا ذلك متعذرا منذ زمن ليس بقصير ، فغالبا ما يلتجيء أصحاب الحيوانات الى تأجير الرعاة بشكل جماعي ، اذ يبعثون معهم بحيواناتهم الى المراعي الصيفية التي يؤجرونها ـ المترجم •

(١١) في مناطق سوران «تفهنگچي» اى حامل البندقية ـ المترجم •

(١٢) «عهمهل» أو «عهمهله» مقتبسة من (العمل) و (العامل) ، الا انها تستخدم بين اكراد الاتحاد السوفيتي لمعاني أوسع واكثر

ـ

وبالفعل كان ال « عهمه‌له » ضروريين للاقطاعي حتى يتمكن بواسطتهم ، وفي أي لحظة كان ، من دحر أي هجوم تقوم به العشائر المتنقلة الاخرى ، أو ليقوموا هم بالاغارة على العشائر المجاورة .
وبعض هؤلاء ال « عه‌له‌مه » كان عددهم كبيرا . فمثلا « كان أمير (اقطاعي) عشيرة الجاف يقدم للباب العالي قوة احتياط « عهمه‌له » مؤلفة من الفي خيال وأربعة آلاف من المشاة(١٣) . أما امير عشيرة بادينان في الجزيرة(١٤) فقد كان لديه سبعة الاف خيال مع اثني عشر ألفا من المشاة . وقد حاول بعض المؤلفين تصوير الـ «عهمه‌له» وكأنهم يختلفون عن الحراس . لكن هذا غير صحيح لأن الحراس هم الـ «عهمه‌له» بعينهم . فقبل كل شيء ان الاعضاء الاعتياديين ، كما سبق الذكر ، هم من المعوزين الذين لا يملكون اقتصادا خاصا بهم يستطيعون استغلال قوة عملهم في مجاله . الى جانب ذلك يدخل في ضمن الـ «عهمه‌له» أقرباء الاقطاعي نفسه ، والذين يشغلون بينهم (أي بين الـ «عهمه‌له») الوظائف القيادية ، فينضم اليهم أبناء رئيس القبيلة ، وأبناء اشقائه وشقيقاته ، وعلى العموم أقرباؤه ، وال «بهر» والـ «عيل» والعشيرة . ويكون مثل هذه الوجوه التي تحيط

= (راجع « القاموس الكردي ـ الروسي» للدكتور كوردوييف ، ص ٢٤٨) ـ المترجم .

(١٣) ب.ا. ستيبانوف ، الشرق ، بطرسبورغ ، ١٨٩٢ ، ص ٢٨٣ .

(١٤) يصح الكلام عن عشائر بادينان لا «عشيرة بادينان» ، فان بادينان (بهدينان) تؤلف منطقة جغرافية واسعة تسكنها عشائر عديدة ـ المترجم .

بالاقطاعي في وضع مميز خاص • فهم يكونون القوة الرئيسة له ، يلبسون ملابس جيدة ، وكلهم يحملون السلاح • وهم في الغالب يغيرون على العشائر الاضعف بقصد نهبها أو اخضاعها لرئيسهم الاقطاعي • وكانت هذه المنظمة (اي عهمهله ـ المترجم) لدى عشيرة كهشكى في سليمان «؟»(١٥) تؤلف تشكيلة لصوصية صرفة • وفي بداية القرن التاسع عشر كونت العشائر التي كانت تقطن سفوح جبال ارارات تشكيلة « عهمهله » قوية بقيادة قلي جعفر آغا الكبير أغارت مرات عديدة على مناطق وادي يريفان • وكانت تحتل سردار آباد(١٦) ، وتهدد خانية(١٧) يريفان • وكان المهاجمون يقطعون الطرق التجارية لسردار آباد مع ايران وتركيا (بايزيد) •

ان هذا التنظيم الخاص للمسلحين ، مع تقسيماتهم القبلية والعشيرية المتحكمة في المناطق الجبلية الحصينة اعطتهم (اي الرؤساء الاقطاعيين ـ المترجم) امكانات كبيرة للسيطرة على الناس • فكانوا يفرضون عليهم ، مستغلين ذلك ، واجبات مختلفة عن طريق الضغط الاقتصادي • وفي الواقع كان الاقطاعيون مع حراسهم يكونون دويلات صغيرة مستقلة •

وقد تطرق ف•انجلس الى مثل هؤلاء الحراس الذين يحيطون

(١٥) علامة الاستفهام موضوعة من قبلنا ـ المترجم •
(١٦) تقع بالقرب من مدينة يريفان ـ المترجم •
(١٧) «خانية» او «خانوية» ـ نسبة الى «خان» ، وهي شائعة الاستخدام بمثابة (امارة) في الاستشراق السوفيتي ، ولاسيما في البحوث المتعلقة بمناطق اسيا الوسطى في عهد ما قبل ثورة اكتوبر ـ المترجم •

بالاقطاعي ، فكتب عنهم يقول : « كان الزعيم العسكري الذي يحرز شهرة يجمع حوله مجموعة من الشبان التواقين الى الغنائم ، وكان هؤلاء يلتزمون تجاهه بالوفاء الشخصي »(١٨) .

هكذا كان لدى الاقطاعيين الاكراد قواتهم الخاصة التي كانت تخدمهم ، وكان العديد من محاربي هذه القوات معفويين عن اداء اي نوع من الضرائب او الخدمات . وبحكم الموقع الجغرافي والظروف الطبيعية تكونت في كردستان عدة دويلات اقطاعية مستقلة كانت لها مساحات واسعة نسبيا .

كان الاقطاعيون الكبار يقومون بأخضاع الاقطاعيين الصغار . لكن هذا كان نادر الحدوث . وان مثل هذا التوحيد كان يجري عادة عن طريق القوة ، أي بواسطة الحروب. ففي قوان قره الواقعة بين ديار بكر وبدليس نجد وحدة اختيارية بين الاقطاعيين الصغار وتنظيما كان يجمع بين جميع الحراس المسلحين ضد الاقطاعي الكبير في بدليس ، والذي كان مثل هذا التوحيد ضروريا ضده لأنه قام باخضاع العشائر الصغيرة المجاورة لنفسه ، وبدأ بجمع ما عليها من ضرائب لصالحه . ومن جهة اخرى فأن مثل هذه الاتحادات كانت ضرورية أيضا من أجل تنظيم الادارة الداخلية

(١٨) ف.انجلس ، أصل العائلة ... ، ص ١١٥ . (يبحث انجلس في هذا القسم من كتابه عن ظهور المتطوعين الاوائل الذين يجتمعون حول زعيم العشيرة او قائدها ، الامر الذي يؤلف ، حسبما يؤكد ، البذرة الاولى للقضاء على « الحرية الشعبية القديمة » التي تميزت بها حياة العشائر قبل انفصامها الداخلي ـ المترجم) .

بالنسبة للعشائر والفخوذ التي كانت ترفض أحيانا دفع ضريبة أو اخرى • لكن ، على أي حال ، فأن شكل الاتحاد الاختيارى كان يتحول أحيانا الى شكل قسري • واننا نجد مثل هذه الظاهرة لدى عشيرة الحسني التي سبق التطرق اليها • فقد اتحدت هذه العشيرة مع عشيرة أورتلي في سبيل النضال ضد عشيرة محاربة اخرى أقوى هي الي(١٩) • لكن الاتحاد الاختياري هذا قد تحول في نهاية المطاف الى شكل الاخضاع الكلي لعشيرة اورتلي ، خاصة لان جميع القوات المسلحة كانت تحت سيطرة عشيرة الحسني ، وبسبب من ذلك انتقلت بعض المهمات الادارية داخل عشيرة اورتلي الى رئيس عشيرة الحسني قلندر آغا • وبالاضافة الى ذلك عهد اليه مهمة الحفاظ على المواشي والمراعي ومصادر المياه وما شابه • وبهذا فقد زعيم عشيرة اورتلي علي آغا استقلاله الاقتصادي ، وأصبح بمثابة موظف لدى الاقطاعي قلندر آغا ، مهمته جمع الضرائب له •

في بعض الاحيان كان الاقطاعي الصغير يذهب بنفسه الى أقطاعي اكبر يطلب منه حمايته ، وهذا ما يسمى بـ «دەستدا» أي « مد اليد او الخضوع » • وفي مثل هذه الحالات كان اليك أو الأمير أو الآغا يذهب ومعه حراسه المسلحون الى الاقطاعي الكبير الذي كان يقبله • وكان على الاقطاعي الجديد الذي يعرض خضوعه اختيارا تقديم ضريبة سنوية • واكثر من ذلك يصبح لزاما عليه ان يستعد عند الحاجة مع حراسه للاشتراك في الحملات الحربية •

---

(١٩) ربما محرفة من (عني) أو (عالي) ـ المترجم •

من خصائص
الاقطاع الكردي وبدايات الانفجار

كما يبدو من وصف المؤرخ الكردي شرف الدين (شرفخان البدليسي ـ المترجم) انقسم المجتمع الكردي قبل القرن الرابع عشر الى طبقتين ـ «البسود» و «البيض» ، وان الاقطاعيين أنفسهم عندما يتوجهون الى الكردي يقولون «أز ماقولم»(١) «ئەتو كرمانجي رەشي» (انا السيد ، أما أنت فمن سواد الكرد) • وقد تطرقنا سابقا بصورة عامة الى الانواع المتباينة من الاقطاعيين الكرد ، الا ان ذلك التقييم الشامل بحاجة الى التعمق والتحديد •

توجد في المجتمع الكردي ثلاثة أنواع من الاقطاعيين :

١ـ الاقطاعيون الامراء (مير) • و (مير) كلمة فارسية(٢) تعني (الرأس أو الرئيس) • وهؤلاء ، الذين كانوا يعتبرون انفسهم قياصرة صغارا ، كانوا يحتفظون بقوات مسلحة كبيرة ، وبعدد من العشائر الخاضعة لهم مع رؤسائها• وعادة يعتبر هؤلاء الامراء انفسهم من سلالة الخلفاء المسلمين(٣) • من هنا فقد تركزت في أيديهم ،

(١) «ماقول» من (المعقول) ـ المترجم •

(٢) «مير» كلمة عربية وهي مخففة الامير • يستخدم الكرد ايضا « پس مير » بمعنى (الامير الصغير او مساعد الامير او شبيهه) ـ المترجم •

(٣) في الغالب كان أمثال هؤلاء من الكرد ، وغير الكرد ، يدعون =

بالاضافة الى السلطة الاقطاعية ، السلطة الدينية كذلك ، أي انهم كانوا يمثلون السلطتين الدينية والدنيوية • وكان هؤلاء يأخذون ، الى جانب الضرائب الاقطاعية الاعتيادية ، انواعا مختلفة من الهدايا(٤) ، مما كان يزيد من دخلهم •

٢ ـ البيگوات ـ يرأسون عشيرة كاملة يدخل ضمنها عـدد من الفخوذ ، ولم يـكن لديهم مركز ديني ، بل كـــانوا ينتمون فقط الى الفخوذ المعروفة، وكان البيك يأخذ فقط الضرائب الاقطاعية مستغلا في ذلك الفلاحين الكادحين بكل السبل الممكنة •

٣ ـ الآغا وكان رئيسا للفخذ •

في عشيرة الحسني التي رأسها تامر (تەمەر ـ المترجم) آغـــا (يعيش احفاده الآن في جبال الهگەز) كان يوجد لدى رئيس العشيرة اقطاعيون غير مستقلين • فمثلا ان سليمان آغا من قرية زوره كان هو وعشيرته تابعين اقطاعيين لتامر (تەمەر ـ المترجم) آغا • ومن الجدير بالذكر ان العلاقات الاقطاعية موجودة بين عشيرة الحسني منـذ أكثر من ثلاثمائة عام مضت • وقد كتب س•أ•يگيزاروف عنها ما يلي :

« حسب اقوال حسن آغا فان اجداده كانوا رؤساء عشيرته فـــي ميسوبوتاميا عندما كانت لا تزال تقطن هناك ، وانه لا يتذكر أســـماء

= الانتماء الى السلالة النبوية او الى الخلفاء والصحابة لان ذلك كان يمنحهم الاعتبـار والمنزلة الرفيعة في نظر الاخـــرين ، ولاسيما اتباعهم ـ المترجم •

(٤) في النص «ذبيحة» أو «ذبائح» ، ويقصد بها ما يقدم من الهدايا والنحائر بمناسبة الطقوس الدينية ـ المترجم •

مؤسسي اسرته ، ويعرف فقط سبعة أجيال متصاعدة من اسماء رؤساء العشائر ، فتكون سلسلة نسب حسن آغا بشكل عمودي كما يلي : ١ ـ محمد آغا ، ٢ ـ باقر آغا ، ٣ ـ داود آغا ، ٤ ـ قلندر آغا ، ٥ ـ عثمان آغا ، ٦ ـ حسن آغا ، ٧ ـ تامر (تەمەر ـ المترجم) آغا ، ٨ ـ حسن آغا نفسه • ويرى حسن آغا ان اسرته تحكم عشيرته منذ ما لا يقل عن ثلاثمائة سنة »(٥) • وقبل ثورة اكتوبر كان اوسو بيك ، وهو ابن حسن آغا ، يقف على رأس هذه العشيرة ، فيكون بذلك الحلقة التاسعة في شجرة هذه الاسرة • وكان اوسو بيك يتسلم راتبا تقاعديا من حاكم القفقاس لقاء ضبطه للاكراد «المتحركين» في المناطق الخاضعة لروسيا القيصرية •

هكذا نرى ان كبار الاقطاعيين الأكراد كانوا يمثلون في آن واحد السلطتين الدينية والدنيوية ، وقد تحول هذا الواقع الى احدى الوسائل المهمة لاخضاع الكادحين • فعلى سبيل المثال كان أمير عشيرة «ملي» يجمع سنويا ، وكأقطاعي ، الجزية والضرائب وأتاوات شتى لصالحه(٦) • وكان يأخذ ايضا «الزكاة» ، أي ان كل فلاح كان

---

(٥) س•أ•يكيزاروف ، المصدر السابق ، ص٢٠٢ •

(٦) كان ابراهيم باشا المعروف رئيسا لعشيرة الملي في اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين • وهو يعتبر من اشهر رؤساء العشائر الكردية ، ان لم يكن اشهرهم قاطبة ، فكان على اتصال وثيق بشخص السلطان عبدالحميد • كانت ثروات ابراهيم باشا تقدر بمئات الالوف من الاغنام وعشرات الالوف من الخيول وخمسة الاف بندقية • وكان نفوذه مطلقا في ما لا يقل عن ٤٠٠ قرية مركزها ويران شهر • ويقدر عدد العوائل القبلية التي كانت تخضع له مباشرة بحوالي عشرة الاف اسرة ـ المترجم •

ملزما ان يدفع له سنويا عشر ما يملك(٧) ، بالاضافة الى تقديم ذبيحة له كانت تسمى بـ «خێر»(٨) • وفي الواقع كانت هـــذه الالتزامات مفروضة على جميع أفراد العشيرة الخاضعين له ، والذين كـــانوا يعتبرونه خلفا للخليفة فيقدمون له جميع الاتاوات المحددة • وبقصـد تخدير الفلاحين قام الاقطاعيون بمساعدة بعض رجال الدين (الملالي والشيوخ) بنشر خرافة مفادها : «بێ زەکات ، بێ خیر ، تۆ جـــارێ نابی یه میر» أي (بدون الزكاة وبدون الـ «خير» لا تصبح رجلا ابدا)• وبهذا الاسلوب حاولت الطبقة المتحكمة بـكل قواها ، وبجميـع السبل تثبيت البناء الفوقي الايديولوجي القديم من أجل المحافظة على سلطتها وتقويتهـا •

من خصائص الاقطاع الـــكردي المرتبط بحيـــاة التنقل للناس الاحتفاظ بالعلاقات العشيرية بشـكل متشابك لا تجـــد له مثيلا بين الشعوب الشرقية الاخرى • فمثلا احتفظ العديد من العشائر الـكردية بالنظام الطائفي ••• فلدى بعضها تنقسم طائفتا الشيوخ والـ « پير » الى طوائف أصغر ، وهي جميعها منغلقـــة على نفسها ، اذ لا يسمح بالانتقال من طائفة الى اخرى • ولكن في الحقيقة ان قسما من طائفتي الشيوخ والـ « پير » قد تحول واقعيـــا الى مستوى أدنى(٩) ، وان الاقسام الفقيرة من الطوائف ، حالها حـــال بقية الفلاحين ، لا تملك

(٧) الاصح عشر مدخولاته ــ المترجم •
(٨) «خێر» ــ صدقة ــ المترجم •
(٩) في النص : « قد تحولوا الى البروليتاريا» ، اي الى صعاليك لا يمتلكون شيئا ، في الواقع يقصد المؤلف انهم قد تحولوا الى دون مستوى ابناء طائفتهم من حيث امكاناتهم المادية ــ المترجم•

شيئا ، وتعمل كعمال زراعيين أو تشتغل في الرعي ، وحتى ان قسما منهم يتحولون أحيانا الى ما يشبه العبيد . هكذا فاننا نجد داخل كل طائفة بعض الاغنياء والمتمكنين ، بينما تعيش الاكثرية التي تعمل لديهم في ظروف مزرية . فالجميع ملزمون باداء الفروض والضرائب الاقطاعية لرئيس(١٠) الطائفة . ومن الجدير بالذكر ان اسماء الطائفة او العناوين الدينية لدى الأكراد (من قبيل الشيخ والبير والقوال) تنتقل بشكل وراثي ، أي انها تنحدر بالاصل داخل اسرة معينة. ومن المهم ان نشير هنا الى ان الكثيرين يحملون مثل هذه الالقاب ، لكن دون ان يكون لهم مقام ديني أو تقديس شخصي . انهم يعملون في الواقع مثل بقية الفلاحين . وان هؤلاء يمثلون الاشخاص الذين يخرجون عن المقام الديني ويمتهنون الزراعة ، أو انهم قبل ذلك اصبحوا فقراء فتحولوا الى أجيرين أو عمال زراعيين ، حالهم في ذلك حال بقية الفقراء . ولدينا أمثلة من قرى جميع سكانها من هذا النوع . ففي قرية أستافلو التابعة لقضاء سورمالينسك في مقاطعة يريفان السابقة كان جميع أهل القرية ، المتكونة من ٣٩ عائلة ، من الشيوخ الذين كان معظمهم يعيش حياة مزرية ، فقد كانوا يعملون كأجراء . ونجد أمثلة لهذه القرية في منطقة قارص ايضا ، ولاسيما في قرى سيچالو وكوسا ـ سوگوتلو وغيرها .

لكن يوجد بين رجال الدين الاكراد ايضا ملاكون كبار . فعلى سبيل المثال كان الشيخ عبدالقادر من گيلان يملك ٧٨ قرية مع اقنانها ، فكان سكان جميع هذه القرى خاضعين له . وقد لقيت مئات العوائل

(١٠) في النص «لاقطاعي الطائفة» ـ المترجم .

التابعة له حتفها بسبب الجوع ، وعلى الاخص في بداية القرن التاسع عشر عندما انتشر الطاعون بين مواشي هذه المنطقة . وكان الفلاحون الـذين يعملون في ارض هـذا الاقطـاعي يقومون بزرع التبغ والرز والعنب مع حقول واسعة للزيتون . وان جميع اراضي هذا الاقطاعي كانت اروائية تخترقها قنوات خاصة ، وقد كان الفلاحون ملزمين ببناء السدود (الترابية ـ المترجم) والجسور والطرق وما شابه . وكـان الفلاح يستخدم ثيرانه ومحاريثه ويأكل على حسابه الخاص ويتسلم مقابل كل ذلك « پاره پينجه » اي الخمس . لكن ما ان يتسلم الفلاح نصيبه ـ الخمس حتى كان وكلاء الاقطاعي يبدأون بأخذ الضريبـة الاقطاعية والزكاة منه .

وكان يتبع كبار الملاكين (مـــن رجـــال الدين ـ المترجم) الدراويش ، وتوجد لديهم التكايا(١١) . وقد اصاب تاردوف في رأيه

(١١) في العام ١٩٣٠ وصفت التكايا بالشكل التالي : « في احـدى البقاع المحاطة بالشجيرات والغابات لاحظنا بناية عالية جميلة محاطة بينابيع كبريتية غنية ، وينابيـــع للنرزان المـتـاز (نرزان ـ نوع من المياه المعدنية تشتهر به مناطق القفقاس ـ المترجم) . وكان يقطن هذه «التكية» ٨٠ درويشا بأمرة رئيس كان اسمه سعيد عمر . وقد استغل هؤلاء الدراويش بذكـاء جهل وسذاجة السكان المجاورين الذين كانوا ، الى جانب ذلك، يستغلون استغلالا مباشرا كعمال يخدمون في ارض الاقطاعي» (مجلة « أتيبيست » ، العـدد ٥٣ ، ١٩٣٠) المؤلف . يقصد شاميلوف البحث الذي نشره في العدد ٥٩ (لا ٥٣ كما يذكر) من المجلة المذكورة تحت عنوان «الدراويش الكرد» والـــذي يحتوي على معلومات عن مناطق سكن الكرد ونفوسهم ، ووصفا ميدانيا للتكايا والتشكيلات الاجتماعية للطـــرق الدينيـــة السائدة بين الكرد وغيرها من المواضيع (راجع : «اتيبيست»، موسكو ، العدد ٥٩ ، ١٩٣٠ ، ص ٤١ ـ ٤٦) ـ المترجم .

بخصوص رجال الدين الملاكين حينما كتب يقول :

« الى جانب الرؤساء الكبار ، اي كبار الخانات (وهم رؤساء لاقسام العشيرة والاعضاء الصغار في الاسرة الكبيرة) والوكلاء (١٢) والكيخدا ، يجب ان نضيف للقمة الاقطاعية ايضا رجال الدين والسادة، وعلى وجه الخصوص مختلف شيوخ الطوائف لدى المتنقلين • فالكثير من هؤلاء الشيوخ هم اصحاب مواش وملاكون كبار ، وحتى مرابون »(١٣) •

توجد لدى الاكراد (المتنقلين منهم والمستقرين) بالاضافة الى العقائد الدينية العامة طقوس قبلية ، ورجال دين قبليون ، واعياد قبلية خاصة • فان عشيرة زيلي تتفرع الى عدد من الفخوذ يعرف الواحدة منها بال (سيكي) الذي ينتمي قسم منه الى اليزيدية ، لهم عيد موحد ، ويوم صوم موحد ، وعبادة موحدة • اما القسم المنتمي من هذا الفخذ الى الشافعية فلديه طقوسه ومعابده وعقائده العامة بالنسبة له والتي تختلف عما يسود بين السيكين اليزيديين • ولابد من القول انه بالاضافة الى الاستغلال الاقطاعي والكوارث الطبيعية فان الطقوس الشائعة تؤلف (مع ما ينجم عنها من التزامات ـالمترجم) عاملا مهما في الاختلال بموازين حياة الفلاحين الاكراد •

في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر بدأ الرأسمال التجاري ـ الربوي يظهر في كل مكان من كردستان •

(١٢) في النص : «الكلانتارية» ـ رئيس الحراس او المسؤول عن الجهاز القمعي ـ المترجم •
(١٣) ف• تاردوف ، المصدر السابق ، ص١٣٩ •

فقد توجه التجار الى شراء المواشي والاغنام والصوف ، وباشروا بنقل البضائع الى اسواق دمشق وحلب وبيروت ، وكانوا يبعثون بها حتى الى العاصمة استانبول • فقد كانت « دمشق وحلب وبيروت تزود بالاغنام من كردستان ، وكانت استانبول وحدها تبتلع (١٤) ٥ر١ مليون رأس سنويا »(١٥) • ومن جانب اخر بدأت حقول كبيرة للزيتون تظهر في كردستان • ويعتبر التبغ الكردي من اجود انواع التبوغ(١٦) • كما يوجد (في كردستان – المترجم) العفص، وانواع مختلفة من المواد الاولية • وبدأ تصدير الصوف والجلود والامعاء (من المناطق الكردية – المترجم) الى الاسواق الاوروبية ، ولاسيما الى انكلترا وفرنسا • ومنذ بداية القرن الثامن عشر وجد التجار الاوروبيون طريقهم الى كردستان حيث كانوا يجلبون معهم انواعا مختلفة من الحلى ، ويأخذون معهم بضائع كردستان الثمينة • وقد بدأ في الوقت نفسه تطور المدن حول المراكز الاقتصادية(١٧) ،

---

(١٤) هكذا ورد في النص – المترجم •

(١٥) پ•ليرخ ، المصدر السابق ، ص٢٣–٢٤ • يضيف ليرخ فيقول ان كل جيش ابراهيم باشا اثناء حملة محمد علي الكبير على سوريا «كان يتزود بأغنام كردستان» (المصدر نفسه ، الكتاب الاول ، ص٢٤) – المترجم •

(١٦) يعتبر كل ذلك من المنتوجات التي تعتمد في الغالب على التبادل النقدي ، مما يؤلف عنصرا مهما في تسريع حركة النقود ، وعملية تراكمها مهما كانت بطيئة – المترجم •

(١٧) يعود نشوء المدن الكردية وتطورها الى عهد أقدم بكثير من القرن الثامن عشر ، وقد سبق للمؤلف ان اشار بنفسه الى هذه الحقيقة • وهو هنا يقصد التطور اللاحق للمدن الكردية الذي نجم عن الاندماج التدريجي بالسوق الرأسمالية العالمية – المترجم •

مثل مدن سيفرك (٧٠٠٠ نسمة) ، وجزيرة ابن عمر عـلى نهر دجلة حيث توجد اثار قديمة ، وماردين ونصيبين وغيرها . وقـد بدأ بعض الاقطاعيين منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشـر باستخراج النحاس والرصاص والفضة ، وكان العديد من الاشخاص المغلوبين على امرهم يعملون في مناجم هذه المعادن(١٨) .

ادى استيلاء الاقطاعيين على اراضي الفلاحين ومراعيهم ، مع تطور التبادل البضاعي ـ النقدي ، الى انفجار انتفاضات فلاحيـة . فكما سبق ان قلنا كان الاقطاعيون الاكراد يفرضون اعمالا شاقة على الفلاحين لحفر القنوات وتشييد السدود والجسور . وكـان عـلى كل فلاح ، بالاضافة الى ما ذكر من فروض والتزامات اقطاعيـة ، ان يقدم للاقطاعي ثلاث احزمة من الحطب سنويا . ومن الجديـر بالذكر ان جمع ثلاث احزمة من الحطب كان يؤلف ، في ظـروف المنطقة الجبلية ، حيث تكون الغابات صغيرة والنقـل صعبا ، عبئا ثقيلا(١٩) . وقد عقد التجار بدورهم وضع كادحي كردستان اكثر فاكثر ، اذ كانوا يجبرون الحرفيين الماهرين في المدن الصغيرة عـلى العمل من اجلهم . وهكذا فقد تعمق الاستياء اكثر فأكثر بين صفوف الكادحين الاكراد . وقد ترك الـكثيرون منهم بيوتهم هربا مـن الاستغلال الاقطاعي ، وانتقلوا الى جبال كوليك«؟»(٢٠) المنيعة حيث

(١٨) من شأن كل ذلك زحزحة اسس الاقتصاد الاقطاعي التقليدي وتأشير بداية انحلاله ـ المترجم .
(١٩) راجع المقدمة ـ المترجم .
(٢٠) وضعت علامة الاستفهام من قبلنا ـ المترجم .

تجمع كل المتذمرين الذين أفلسوا تحت ضغط الاقطاعيين ، وكان يوجد بينهم المتنقلون ، وكذلك المستقرون • وبعد سنوات عدة ظهرت منطقة اخرى للـ «روى» اي الهاربين (الفارين) في جبال منطقة جزيرة ابن عمر على نهر دجلة •

هكذا كان يوجد في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر مركزان لالتجاء الجماهير الفلاحية المضطهدة الكادحة ـ جبال كوليك والاماكن الحصينة في جزيرة ابن عمر(٢١) • وكان المركز الاول في جبال كوليك يقع تحت سيطرة أحد الفقراء باسم تالور • وقد جمع هذا الزعيم حوله ، بالاضافة الى الكرد ، عددا كبيرا من الاثوريين والارمن المشردين • وقد وجه تالور اولى حملاته الى المنطقة(٢٢) الاثورية حيث كان يمر بها العديد من التجار الاوربيين والمبشرين ، وقد قام الثوار بقطع الطريق بين آشور(٢٣) وديار بكر • بعد ذلك توجه تالور الى الاقطاعيين (الكرد ـ المترجم) في ماردين • وفي الطريق قامت قواته بنهب وقتل جميع من صادفت من الاقطاعيين ، وحرق قراهم ، ولم تستطع التقاليد التي تأصلت عبر القرون الصمود أمام تذمر الفلاحين

---

(٢١) عبر التذمر الفلاحي في كردستان عن نفسه بأشكال مختلفة، ولم يقتصر الامر على هاتين المنطقتين • وقد تجسد التذمر يومذاك في النضال العام ضد السيطرتين العثمانية والصفوية ومن ثم القاجارية ، وذلك ضمن قاعدة شاملة امتدت آثارها الى جميع شعوب المنطقة ، بما فيها الشعوب العربية والآذرية والارمنية وغيرها ـ المترجم •

(٢٢) في النص : «الطرق الآثورية» ـ المترجم •

(٢٣) ربما آشوت ـ المترجم •

وانتفاضاتهم • وحتى اليـــوم يتغنى الرعـاة والزراع والفلاحون والكادحون الاكراد بالمآثر البطولية لفلاحي تلك الايام • وقـــد سميت هذه المعركة في تلك الملاحم بمعركة التالورين ـ « شـەرى تالوريكا »(٢٤) •

« شەڕی تالۆریکا ، شەڕەکی زاڤ گرانە
ئەڤا شەڕا بوونا بەگلو ئاغالەرانە
مە کرە شەڕ هەتا مە بی تاری
هەڤارا مە هات کەسیب و کەسەبە ڤێ دیاری »

(معركة تالوريكا ، معركة صعبة للغاية
اندلعت المعركة هذه بسبب البيكوات و «الاغالر»
وقد حاربنا حتى اسدل علينا الظلام
وهب لنجدتنا كسبة المنطقة وسوادها)

من هـــذا المقطع الصغير يمكننا معرفة الوضـــع الاجتماعي للثوار ـ انهم كانوا من الفقراء • اما المضمون السياسي لانتفاضتهم فقد كان يستهدف تصفية البيكوات والآغوات • وقـد امتـد لهيب الانتفاضة الى العشائر المجاورة ، كما لم يقتصر الاشتراك فيها عـلى الفارين (الهاربين) فقط ، بل انضم اليها كذلك اناس لم يفارقوا مناطقهم على مر القرون • وفي خضم الاحداث الجارية استطاع ثوار عشيرة زريقي القبض على رئيسهم الذي أحرقوه في خيمته • وكما تشير القصص والاغاني الشعبية لم يقتصر الاشتراك في الانتفاضـة على الرجال وحدهم ، بل اسهمت فيها النساء الكرديات أيضا ، وحتى

(٢٤) حرب (معركة ـ المترجم) تالوريكا • في المتن قمنا بترجمـة حرفية لتلك الاقسام من الاغنية التي لها أهميـة مباشـرة بالنسبة للموضوع الذى نعالجه ـ المؤلف •

ان احدى القطعات الثائرة كانت تعمل بامرة سيدة اسمها خزال التي احرزت قواتها انتصارات كبيرة على القوات الاقطاعية المسلحة بصورة جيدة اكثر من مرة • وبشكل عام دفعت انتصارات هذه الانتفاضة الفلاحية بالاقطاعيين الاخرين ليهبوا لمساعدة زملائهم • فمثلا قام تيمور باشا ، رئيس عشيرة كيكي القوية ، بدفع قواته الى مؤخرة الثوار ، واستطاع بذلك تكبيدهم خسائر جسيمة •

أما السبب الرئيس في تقويض قوات الثوار واندحارها فقد كان يكمن في خيانة قسم منهم ، اذ استطاع الاقطاعيون شراء ذممهم(٢٥) • وقد أدت هذه الخيانة من جانب ، وتحالف عدد من الاقطاعيين من جانب آخر ، الى قمع الانتفاضة في نهاية المطاف • وحسبما شاع بين الناس فان القنصل البريطاني المقيم في ديار بكر هو الذي لعب الدور الاكبر في توحيد الاقطاعيين • وقد تم اسر تالور من قبل الذين تم شراؤهم من المشتركين في الانتفاضة ، فقاموا بتسليمه الى احد الاقطاعيين الذي قام بحرقه علنا في قصبته • وبالرغم من حرق زعيم الانتفاضة ، وبالرغم من خيانة بعض

---

(٢٥) ان السبب الرئيس لاخفاق هذه الانتفاضة ، وغيرها من الانتفاضات والحركات التي وقعت في تلك المرحلة التاريخية يكمن في واقع الظروف الاجتماعية السائدة آنذاك ، والتي كانت تربط بين الرؤساء والمرؤوسين برباط وثيق ، فلم يكن الخروج عليها أمرا هينا • لذا بقيت الانتفاضات الفلاحية الصرفة التي شهدتها كردستان ما قبل الحرب العالمية الاولى محصورة في اطر ضيقة كانت وليدة شرعية لواقع الوعي الفلاحي ــ المترجم •

المشتركين فيها ، فان الكثيرين من الثوار ، ومعهم الاثوريون والارمن ، ظلوا يقاتلون الاقطاعيين وقواتهم لعدة سنوات اخرى في الجبال والوديان المنيعة . الا ان مسلحي الاقطاعيين استطاعوا قنص هؤلاء أيضا ، فتعرضوا بدورهم للشنق والتعذيب العنيف .

موقع ال « أوبا »
داخل العشيرة الكردية

لكي نستطيع كشف خواص « التنقـل الاقطاعي» الكردي(١) يجب علينا البحث عن أبسط عنصر يكمن فيه كل واقع هذا الاسلوب من الانتاج ، شـأنه في ذلك شـأن «الخلية» الاساسية للعلاقـات الاجتماعية . وبالنسبة للمجتمع الكردي المتنقل تؤلف الـ « اوبا » (أو الهوبة ـ المترجم) ذلك العنصر البسيط (لتنظيم ـ المترجم) العلاقات الاقطاعية . فان المتنقلين الاكراد كـانوا يرحلون بامرة اصحاب المواشي الاغنياء . وان هؤلاء الاغنياء ، أو كما كانوا يسمون بـ (اوبا باشي) أو «پيگار»(٢) ، كانوا في الواقع هم الذين يأخذون

---

(١) يقصد المجتمع المتنقل الاقطاعي الكردي ـ المترجم .

(٢) «پيگار» يعني جمع الفئات العليـا (الـكولاك) في المجتمـع الكردي ، وجمع اعضاء المجتمع نفسه كذلك ـ المؤلف . (لم نفهم قصد المؤلف من الفقرة الاخيرة : « وجمع اعضاء المجتمع نفسه كذلك » . اغلب الظن ان خطأ مطبعيا وقـع في النص الروسي لهذا الهامش . ثم هل يجوز الكلام عن «الكولاك» في المجتمع الكردي آنذاك وبمثل هذا الاطلاق . فـ «الكولاك» هم بورجوازية الريف التي تتكون بالاساس من الفلاحين الاغنياء الذين تأتي مداخيلهم من استغلال العمل الاجير ، وممارسـة التجارة والربا ، ومن تأجير الارض وحيوانات العمـل ومـا شابه ـ المترجم) .

الارض من الاقطاعي ويجمعون حولهم عـــددا من الـ «جول»(٣) ويستغلونهم • وفي الوقت نفسه كان الـ «پيگار» او الـ «اوبا باشي» (أي رئيس الاوبا) وكيلا للاقطاعي يجمع لــه كـــل الضرائب والالتزامات الاقطاعية ومختلف انواع الاتاوات التي يرتكز عليهـــا النظام الاساس للعلاقات الاقطاعية ، وكان يبعث ما يجمع الى البيك ـ الاقطـــاعي •

حدد س•أ• يگيزاروف طبيعة الـ «اوبا» على النحو التالي : « يؤلف ملاكو المراعي جماعة تسمى الـ «أوبا» و «زوما» ، وكـل واحد من هؤلاء يملك يورتاه(٤) (أي مـكانه) الخاص »(٥) • ولكن هذا ليس بصحيح أبدا • والواقع هو ان الارض التي تتبـع رؤساء الاسر الاقطاعية كانت تعطى كمرتع للماشية ، ومن اجـــل الحصول على مثل هذه الارض كان لزاما على عدد من العوائل تكوين «أوبا» ثم التوجه الى البيك • وان الفقراء الذين كانوا بحاجـة الى الـ «أوبا» كـــان عليهم تقديم قسم مـــن اغنامهم أو منتوجهم الى

---

(٣) «جول» مظهر اقتصادي ، كان الفقراء يعطون وفق تقاليـــده حيواناتهم للبيك أو الآغا ، وكانوا هم انفسهم يعملون لديهم على شكل «گاوان» اي رعاة • ويطلق اسم الـ «جول» نفسه على المشتركين في مثل هذه العملية الاقتصادية ـ المؤلف •

(٤) «يورتا» يعني مكان او مسكن لرحل اسيا الوسطى • أصـل الكلمة تركية ـ «يوردا» وتعني الموطن أو المكان ، وقـد دخلت قاموس اللغة الروسية كذلك ـ المترجم •

(٥) س•أ•يگيزاروف ، المصدر السابق ، ص١٨ • (وضع المؤلف خطـا تحت كلمتي (يملك) و (الخاص) بقصـــد التأكيـــد عليهما ـ المترجم) •

الاقطـاعي • والفلاحون كانوا يحتاجون الـ «أوبا» لان الاقطاعيين ـ كما سبق ان قلنا ـ استولوا على جميع انواع الاراضي ، ولم يبق للفلاحين سوى الـ «گوند» ، أي قطعة ارض صغيرة في القرية(٦) •

في رأي س•أ• يگيزاروف ان الـ « أوبا » ضـرورية لان « الاحتفاظ بالمواشي والرعاة مع الاخرين يكون ارخص بكثير مما لو قام صاحب كل بيت برعي حيواناته على انفراد »(٧) • وهكذا فهو يرى ان كل ما ترمي اليه الـ «أوبا» هو مصلحة الجميـع ، بينما لا يرى خلف الـ «أوبا» تلك الزمرة الاقطاعيـة التي كـانت تملك الارض • الواقع ان الـ «أوبا» تظهر منذ بداية تكوينها لا من أجـل الحصول عـلى الرعـاة بشـكل أرخص ، بل في سبيل ان تكلف الالتزامات الاقطاعية الفلاح أقل ، تلك الالتزامات التي عليه الايفاء بها للبيك مقابل استخدام أرضه • والى جانب هذا النوع كان يوجد نوع آخر من الاستغلال الاقطاعي الذي يسود الشرق كله • مـن الواضح ان التنقل يستوجب وجود حد ادنى من الماشية ، لذا كـان القسم المعدم من الفلاحين يعطون حيواناتهم للبيك أو الآغا ، أي الى مالك القسم الاكبر من قطعان الاغنام والماشية ، أما هم انفسهم فكانوا يصبحون «گاوان» ، أي رعاة لديهم • وكان يطلق على هذه العملية «جول» • لكنهم ما كانوا يتخلصون مقابل ذلك مـن دفـع ضريبة الأرض للبيك ، بل كانوا يدفعون له في الوقت نفسه جميـع انواع الضرائب الاخرى بشكل كامل • وكان أفراد عوائلهم جميعا ملزمين

---

(٦) تأتي الـ «گوند» بمعنى القرية في الاصل ـ المترجم •
(٧) س•أ•يگيزاروف ، المصدر السابق ، ص١٨ •

بالعمل لدى الاقطاعي مقابل محصولات قليلة تكاد لا تكفي لسد الرمق • أما المرأة الكردية فانها كانت تقوم ، فيظروف حياة التنقل وعلى شاكلة نساء المجتمعات الرحالة الاخرى ، بانجاز أعمال كثيرة في دار الاقطاعي (مثل حلب الاغنام وعمل الجبن وتحضير الدهن وما شابه من اعمال) •

هكذا فان «أوبه» و «جول» هما في الواقع تعبير واحد لنظام الاستغلال الاقطاعي ، وحسب هذه القاعدة بالذات ، أي امتلاك الاقطاعيين للارض والمراعي ، يظهر الاقطاع المتنقل(٨) • وفي الاقطاع الكردي المتنقل يطلق على عدد من الـ «به‌ر» غير المستقرين اسم «عيل» الذي ينقسم الى عدد من الـ «أوبا» والـ «جول» حسب تسمية الكرد لهما • ويعتبر الشخص الأكثر امكانية في الـ «اوبا» صاحبا للـ «وار» ـ أي منطقة الرعي والترحال • ومن الملاحظ أن العشيرة الكردية المتنقلة لا تستطيع الترحال بأسرها في المنطقة نفسها ، لذا فانها تنقسم على عدد من الـ «عيلات» يكون على رأس كل واحد منها وكيل يقوم بالاشراف على قطع الارض الواقعة في منطقة عيلاته • الا ان المؤرخين البورجوازيين يحاولون تجاهل هذا الشكل من الاستغلال الاقطاعي ايضا ، مع انه يعتبر ، في واقعه ، أهم اشكال ذلك الاستغلال • وان س•أ• يكيزاروف نفسه الذي يؤكد في الصفحة ١٨ من كتابه على ان «اوبا» يؤسس فقط من أجل المصلحة العامة للفلاحين ، يضطر ان يعترف في الصفحة ٨٤ بأن على رأس

(٨) اي المجتمع الاقطاعي المتنقل ـ المترجم •

«أوبا» يقف شخص أو شخصان يختلفان عن البقية بغناهما ، واحيانا حتى بانحدارهما العائلي(٩) • اما حول «انتماء» هـذين الغنيين المعروفين فهو يقول انهما «من الناس الطيبين»(١٠) • الا ان من المعلوم انه في المجتمعات الاقطاعية للشعوب المتنقلة تكون محاولات التقرب من الاقطاعي من جانب رؤساء هذه الفئة او تلك شائعة ، وان هؤلاء المقربين يتمتعون في الواقع بحقوق صغار الاقطاعيين في مناطقهم ، وهم (في الغالب ـ المترجم) ينتمون الى نفس اسرة الاقطاعي ، ويكونون من أقربائه المقربين ، وبالطبع لا يملكون الارض ، الا انهم يستغلون الفقراء بمستوى استغلال البيكوات اياهم •

هؤلاء هم اولئك المعروفون الذين يجتمعون في الـ «بيكار» ويأخذون المرعى لانفسهم ، وهم كذلك أهم ممثلي (وكلاء ـ المترجم) الاقطاعي نفسه • ويقع على عاتق الـ «بيكار» جمع حراس البيك ، وكذلك جميع ما يدفع لقاء المرعى ليقدمه للاقطاعي • وقد كان الجانب الاكبر مما يدفع (لقاء المرعى ـ المترجم) عبارة عن منتوجات عينية ، اي انهم كانوا يدفعون الخرفان والاغنام والجبن وال «توراغ»(١١) ، أو أي شيء آخر من منتوجات المجتمعات المتنقلة• وكان هؤلاء الـ «بيكار» يسمون «مەزنێ زوم» او «اوبا باشي» ، وكانوا ملزمين بالمحافظة على حياة الامير ، وعلى الاستقرار داخل

---

(٩) س٠أ٠يگيزاروف ، المصدر السابق ، ص٨٤ •

(١٠) المصدر نفسه ، ص٨٨ •

(١١) الـ «توراغ» هو اللبن الخاثر الموضوع في كيس بحيث يتقطر منه الماء ويبقى اللبن المكثف ـ المترجم •

أوبته ، أو في الاوبات المجاورة • وكان على الـ «اوباباشي» ايضا ان يقوم بتقديم المنتوجات الضرورية لاتباع الاقطاعي الذين كانوا يجوبون (المنطقة ـ المترجم) بأمر من سيدهم •

هكذا كان الشكل الاولي (أو البدائي ـ المترجم) للعلاقات الاقطاعية بين الكرد الذين يزاول مجتمعهم تربية المواشي ، أي انه مجتمع متنقل • وقد ظل داخل ال «اوبا» نفسها بعض الاسر التي كان يقف على رأسها بعض الشيوخ الذين حازوا ثقة الاقطاعي • وينقسم كل «بهر» الى «اوبات» أو «زومات» منفصلة تدخل ضمن فلك الخضوع الاقطاعي • لكن رئيس الـ «اوبا» لا يتعرض بالطبع للاستغلال نفسه الذي تتعرض له جماهير المتنقلين •

وهنا بالذات يكمن ذلك التشابك الخاص الذي لم يفهمه المؤرخون البورجوازيون ، أو لم يريدوا فهمه ، وهو بقاء العلاقات القبلية الاولية ـ التنظيم القبلي الاولي «قبيل» الذي يخرج ابتداء من عائلة واحدة قائمة على علاقات الدم وعلى قاعدة التملك الخاص • وقد انقسم الـ «قبيل» في الـ «عيل» المتنقل الواحد الى عدد من الـ «اوبات» والـ «زومات» والـ «جولات» والـ «بگارات» • الا ان هذه التنظيمات (أو الوحدات ـ المترجم) العشيرية لم تحتفظ بطابعها الاولي كما كان الامر عليه سابقا ، بل أصبحت تستند الى قاعدة الاستغلال الاقطاعي •

لكن مع كل ذلك فان س•أ• يگيزاروف يحاول باصرار ان يظهر الامر وكأن المجتمع الكردي ككل لا يؤلف «مشاعية ـ

ديمقراطية ـ ابوية » فحسب ، بل ان الـ «اوبا» بالـذات تشكل مثل تلك المشاعية الديمقراطية ـ الابوية • فهو يقول « ان جميع اعضائها ، الفقراء منهم والاغنياء ، يتمتعون بحقوق متساوية »(١٢)• حتى ان «رئيس الاوبا ليس الا الاول بين المتساوين» فـي نظر س•أ• يگيزاروف(١٣) • ولكن الطريف هو انه في أي شيء يرى المساواة في الحقوق ، بينما جميع اعضـاء الـ «اوبا» والـ «جول» يعيشون في الواقع ظروف التبعية القاسية ؟• هنا لا يوجد ، في الواقع، ظل للمساواة • فان وجدت في كل «اوبا» قطعة مرعى جيدة فانهـا تكون حتما من نصيب الاقطاعي أو من نصيب رئيس الـ «اوبا» • وأكثر من ذلك فان هذا الاخير ما كان ليسمح لأي حيوان عـائد لاعضاء الـ «اوبا» بالاقتراب من «يورتاه»(١٤) ، فقد كان يعتبر هذه الاراضي ملكا له • وكان على جميع الجيران الخاضعين للاقطـاعي القيام بتنظيف أماكن قطعانه ونقل الاخشاب له وتشييد الـ «هوز» ، أي الحظائر الدافئة لخرفانه ، كما انهم كانوا ملزمين بالعمل لديه في الـ « گوند » والقيام بحصاد محصولاته وما شابه •

ان المؤرخين البورجوازيين اذ يقومون بدراسـة المجتمعات المتنقلة يجدون لديهم اقتصادا «متجولا»(١٥) غير موجود في الاصل•

---

(١٢) س•أ• يگيزاروف ، المصدر السابق ، ص١٩ •
(١٣) المصدر نفسه •
(١٤) راجع الهامش رقم ٤ في موضوع موقع الـ «أوبا» داخـل العشيرة الكردية ـ المترجم •
(١٥) من وضع المؤلف ـ المترجم •

وهذا غير صحيح بالطبع ، اذ توجد لدى المتنقلين حدود جد محددة لحلهم وترحالهم ، وهم يمتلكون في الـ «گوند» قطعا صغيرة من الارض . أما المراعي الصيفية والشتوية ، حيث يتنقلون بينها ، فانها تكون تابعة للبيك الاقطاعي . ولممتلكات كل اقطاعي حدود دقيقة تقوم عشيرته بالتنقل ضمنها . وعادة يعرف الرعاة المسنون كل تفاصيل حدود تنقل العشيرة - حدود الاراضى التابعة لرئيسها الاقطاعي . والراعي الذى كان يستخدم المرعى (ضمن هذه الاراضي - المترجم) كان عليه دفع «چوپ - باشي»(١٦) أي حق كل رأس من الماشية . ومن الجدير بالذكر ان الحدود لم تكن واضحة بين ممتلكات الاقطاعيين فحسب ، بل انها كانت واضحة ضمن ممتلكات كل اقطاعي بين مختلف وحدات الـ «بهر» والـ «عيلات» كذلك . وكان على رئيس كل من هذه العشائر القيام بجمع الضرائب للبيك مقابل استخدام المراعي . ولم يكن المتنقلون يملكون حق الخروج عن حدود المراعي ومصادر المياه المحددة . وبالطبع فان هذه الحدود لم تكن مخططة ، بل انها كانت حدودا طبيعية محددة من قبل البيك - الاقطاعي ، وكانت معترفا بها الى حد انها لم تكن معرضة للخرق .

فيما مضى كانت قوة الاقطاعي الكردي تقاس بما لديه من

---

(١٦) لا يستبعد ان يكون مصطلح « چوپ - باشی » مستقاة من « چوپان باشی » ، فان كلمة «چوپان» تعني الراعي في الفارسية والكردية ، وكلمة «باشى» تعنى الاول ، او الرئيس في التركية - المترجم .

الفلاحين ، لا بما كان يملك من الارض • وعلى ذلك تعتمد قدرته الاقتصادية بالدرجة الاولى ، فكلما زاد عــدد الفلاحين في عشيرته زادت وارداته • وكان عدد هؤلاء الفلاحين يحــــدد ، في الوقت نفسه ، قوته العسكرية • وقد كتب كارل ماركس بهـــذا الصدد يقول : « ان قدرة السيادة الاقطاعية ، مثل اي سيادة بوجـه عام ، كانت لا تحدد بمقدار ريعهم ، بل بعدد اتباعهم • وهذا الاخير مرتبط بعدد الفلاحين الذين كان لهم اقتصاد مستقل »(١٧) •

هنا نعود ونؤكد الاهمية الكبيرة لتوضيح الواقـع التاريخـي والاقتصادي لـ «اوبا» وموقعها في الاقتصاد الكردي المتنقل • قبــل كل شيء نحن لا نجد لدى الكرد قبل التحول الاقطاعي للمجتمـع الكردي مصطلح «أوبا» أو «زوما»(١٨) ، بل نجد لديهم دائمـــا ، وفي حالة المفرد كلمة «كون» أي الخيمة(١٩) • وفي العادة يوجـه مثل هذا السؤال : «من أي خيمـــة أنت ؟ » أو « الى أي عشيرة (بەر أو قبيل) تنتمي ؟ » • اما كلمة «أوبا» فانها ظهرت فقط عندما فقدت المشاعية أهميتها كظاهرة (اجتماعية ــ المترجم) •

هكذا لم تكن الـ «اوبا» موجودة عندما كانت المشاعية المتنقلة الحرة السابقة تمتلك ارضا حرة ، وتنتقل الى حيثما تريد بحرية •

---

(١٧) كارل ماركس ، رأس المال ، الجزء الاول ، ١٩٣١ ، ص٥٧٥ •

(١٨) تطلق بعض العشائر الكردية على «أوبا» اسم «زوما» ، أما اللر فيسمونها «قيتول» • الا ان العشائر الفارسية والكردية والاثورية المتنقلة فانها تستخدم «أوبا» بشكل عام ــ المؤلف •

(١٩) كلمة «كون» تأتي بمعنى القديم كذلك • وللخيمة تستخـدم أيضا «خێوەت» ــ المترجم •

لكن مع ظهور الـ «اوبا» يفقد الفرد المتنقل حريته الشخصية ، اذ لا يتمكن (في المرحلة الجديدة ـ المترجم) من الانتقال من مكان الى اخر بحرية بسبب انتزاع الاقطاعي للملكية الارض ، مما ادى الى ان تكون للـ «اوبا» اماكن محددة للتنقل سواء لمناطق الرعي الصيفي «زوزان» ، او الرعي الشتوي «قشله» ، والرعي في الربيع حيث المناطق الدافئة ـ « دولگه » • و « دولگه » هي التنقل اثناء تكاثر حيواناتهم في الوديان والمراتع الصغيرة هناك • ويحدث في بعض الاحيان ان يتغير تركيب الـ «اوبا» بان يكون هناك في سنة ما بعض الوجوه ، وبعض العوائل ، بينما تتغير في سنة اخرى ، لكن دون ان يؤثر ذلك على واقع الامر في شيء ، ذلك لان المهم هنا هو وجود الجزية (الضريبة الاقطاعية ـ المترجم) ونظام العمل (او التعامل ـ المترجم) • فان اهم الوجوه في الـ «اوبا» هم الـ «بيگار» ، اي الذين يؤلفون المستأجرين الرئيسيين للارض • وهم في الوقت نفسه يجمعون حولهم العوائل الفقيرة الصغيرة التي يطلق على افرادها واقتصادياتها بالكردية اسم الـ «جول» • وهؤلاء هم الذين يقومون برعي حيواناتهم ، وحيوانات الاقطاعي • ومن هنا اذا قسمنا اوقات العمل في الرعي نرى ان القسم الاقل منها يصيب حيواناتهم الخاصة لانهم يملكون القليل منها ، بينما يخصص القسم الاكبر من ايام عملهم لخدمة حيوانات الـ «بيگار» ، او الاقطاعي الذي يكون لديه دائما عدد كبير منها ، فيقوم بجز صوفها وعلاجها وغسلها وخزن العلف لها لفصل الشتاء وما شاكل •

مما سبق يتبين انه يوجد في المجتمـــع الـكردي الاختلافات الطبقية التالية :

الاقطاعي (الامير ، البيك ، الاغا) ـ وهم اصحاب الارض • ويأتي بعدهم كيخدا وهو صاحب الـ «بيگار» الثري ، وتقع في حوزته منطقة الرعي وال « جول » • وان عدد هذه ال « جولات » ليس ثابتاء بل ان الواحد منها يتألف من عشرين مزرعة (جماعـــة زراعية ـ المترجم) فما فوق • ومن الصعب ، بدون شك ، حصـــر جميـع الاعمال والالتزامات التي على اعضاء الـ «جول» القيام بها وانجازها للاقطاعي جبرا • ففي ال « اوبا » يقومون باهم الاعمال من قبيل جمع الحشيش لحيوانات الاقطاعي ، وبذر الحبوب والدراســة ، وجـز وغسل حيواناته(٢٠) ، وبناء الحظـائر الصيفية والشتوية ، وكذلك الـ «هوز» (اي الحظائر الدافئة للخرفان وصغار الماعز والعجول) ، وجمع الاخشاب وما شابه • ويـكمن مضمون الاستغلال فـــي ان الاقطاعي يستلم الريع لقاء المرعى « يايلغ » او « زوزان » ، وكذلك لقاء «قشلاق» والـ «دولگه» • وهنالك ايضا شكل اخر (للاستغلال ـ المترجم) وهو المساعدات الالزامية التي انحدرت بالاساس مـــن المشاعيات العشيرية ، وبدأ الاقطاعي يستغلها لنفسه ، وقد اشرنا الى جميع اشكال هـــذه المساعدات •

ان سعة مناطق الرعي التابعة للاقطاعي الكردي تحول دون ان يستطيع بنفسه الاشراف المباشـــر عـلى المراعي الصيفية والشتوية

(٢٠) يحتاج غسل ٣٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ رأس غنم مع خرفانها الى جهد كبير ـ المؤلف •

المتباعدة احيانا عن بعضها لمسافات تبلغ اكثر من مئات الكيلو مترات في الجبال ، لذلك يعطي هذه المناطق لاقطاعيين صغار (او لاقربائه) الذين يقعون ، مع قبائلهم ، تحت سيطرة الاقطاعي الكبير • ويتخذ هذا التدرج الشكل التالي : «القبيل» ينقسم الى «اوبا» التي يقف على رأسها مجلس للشيوخ ، وعلى رأس المجلس يقف الـ «كيخدا» • ويدخل جميع ال « القبيل » (القبائل ـ المترجم) في ال « بەر » الذي يقف على رأسه اقطاعي صغير هو الـ «آغا» • ويدخل عدد من الـ «بەر» مع رؤسائه في عشيرة او «عيل» واحد • وان هؤلاء الـ «آغالر» اي رؤساء ال «بەر» يشكلون مجلس الاقطاعي الذي يجمعهم فقط في حالات مهمة جدا كحالات الحرب مع العشائر المجاورة ، او عندما يقف ضد هذه الدولة او تلك التي يخضع لها •

ويجب الا ننسى ايضا ان الدراويش الاكراد كانوا ، مثل رجال الدين الاوروبيين ، اقطاعيين كبارا (٢١) يمتلكون مساحات شاسعة لم تكن صالحة للرعي فحسب ، بل كانت في الغالب اراضي اروائية صالحة لزرع جميع انواع الغلال • وكان العديد من الدراويش يزاولون الربا في الوقت نفسه(٢٢) •

(٢١) اغلب الظن ان المؤلف يقصد هنا شيوخ الطرق ، لان كلمة «دەرويش» في الكردية تطلق عادة على الانسان المائل الى الزهد وهو في الاغلب فقير معدم لا يملك شيئا ، او يملك شيئا لا يذكر • اما شيوخ الطرق فرغم كونهم يسمون انفسهم دراويش ايضا من باب ادعاء الزهد الا أنهم يتمتعون بنفوذ مادي ومعنوي كبير في العديد من المناطق الكردية ـ المترجم •

(٢٢) في معظم المناطق الكردية يمارس المتدينون الربا عن طريق ما يطلق عليه اسم الـ «سەلەم» ، أي البيع على الاخضر • وهو =

تلعب المراعي ومصادر الماء مع الحيوانات الدور الاساس في اقتصاديات المجتمعات المتنقلة ، وقد سبقت الاشارة الى ذلك • وعادة يسيطر رؤساء العشائر في مثل هذه المناطق على جميع مصادر المياه من جداول وينابيع كانت في السابق تستخدم من قبل جميع الرعاة ، بينما يأخذ الرؤساء الان مقابل الاستفادة منها ما يسمى بـ « حەقی دەلاو » الذي يدفع عادة عن كل مائة رأس غنم(٢٣) • من هنا فان مقدار ما كان يدفعه كل عضو في الـ «اوبا» يعتمد على ما يمتلك من حيوانات • وكان كل فلاح ملزما بان يقدم للاقطاعي صوف غنم واحد من كل عشرة يجز صوفها مع زوج من الجواريب (الصوفية ــ المترجم) وقطعتين من الجلد لصنع الحذاء ، وكان ذلك من اجل الانفاق على رجال البيك •

والشكل الاخر للاستغلال الاقطاعي هو ما يسمى بالـ «خوش نشين»(٢٤) ، والذي جاء تفسيره من جانب ف•ب•راستوبچين(٢٥) بشكل غير صحيح تماما حينما يدعي انه يعني «اسكان الفلاح حيثما

= الربا بعينه مع التفاف واضح على الشريعة ، بل احيانا يكون ثقله اكبر من اعمال الربا الشائعة ، ذلك لان صاحب المال يستغل حاجة الفلاح الملحة للنقود فيفرض عليه شروطا قاسية للغاية تؤدي في احيان غير قليلة الى افلاسه ــ المترجم •

(٢٣) يقصد ان هذا الـ «حق» كان يدفع للاقطاعي من جانب الرعاة لقاء استخدام مصادر المياه التابعة للاول ، وكان الحساب يجري على اساس كل مئة رأس من الحيوانات التي كانت تستفيد من تلك المصادر ــ المترجم •

(٢٤) تعني «خوش‌نشين» حرفيا الجلوس المريح ــ المترجم •

(٢٥) نشر المستشرق السوفيتي ف•ب• راستوبچين في العقد الرابع عددا من البحوث القيمة حول الاكراد • وهو صاحب اول بحث =

يرغب» (٢٦)٠ في الواقع ان الفلاحين ما كانوا يسكنون حسب رغبتهم بموجب (نظام ــ المترجم) « خوش نشين » ٠ كان هؤلاء ينتمــون عادة الى الفخوذ الصغيرة جدا والذين تعرضوا الى خراب كبير على ايدي الاقطاعيين ورجالهم ، فانتقلت اراضيهم الى الاولين الــذين كانوا يقومون باستغلالها ، بينما اصبحوا هم مجردين من ملكيتها ٠ كما انهم اصبحوا في الوقت نفسه محرومين من امكانية التنقل ايضا لانه لم يبق لديهم الحد الادنى من الحيوانات الضرورية لــذلك ٠ وهذا يعني ان وجودهم اصبح يعتمد على الاقطاعي وغيره من صغار رؤساء العشائر ٠ وقد منح قسم منهم قطعا صغيرة من الارض عنــد سفوح الجبال ، اي ضمن ذلك النطاق المناخي الذي يقع في الاصقاع

= بيبلوغرافي عنهم (راجع مجلة « الشرق الثوري» ، موسكو ـ لينينغراد ، العدد ٣ـ٤ ، ١٩٣٣ ، ص ٢٩٢ـ٣٢٦ ، العدد ٥ ، ١٩٣٣ ، ص ١٥٩ـ١٧٣) ٠ في بحثه القيم « ملاحظات حــول الكرد » (مجلة «النشرة الصحفية للشرق الاوسط» ، طشقند، العــدد ١٣ـ١٤ ، ١٩٣٣ ، ص٧٢ـ٩٣) يتطــرق ف٠ب٠ راستوپچين بأسلوب علمي الى عدد من المسائل المهمــة التي تتعلق بالعلاقات الزراعية في كردستان من قبيــل النظــام العشيري ، وعملية تحويل المتنقلين الى مستقرين ، والعلاقات بين الرحل وغيرهم ، ومواضيع اخرى مهمة في هذا المجال ٠ وفي البحث نفسه ينتقد المؤلف موضوعيا المستشرقين الــذين قيموا بصورة غير صحيحة صفحات مهمة مــن تاريخ الشعب الكردي ، منهم مستشرقون سوفيت يقول عنهم راستوپچين انهم ابتعدوا عن الواقع«تحت ستار ماركسي خفيف»ـالمترجم٠

(٢٦) راستوپچين ، النشرة الصحفية للشرق الاوسط ، ١٩٣٢ ، ص٨٢ ٠ (يقصد بحث ف٠ب٠ راستوپچين « ملاحظات حول الكرد » المنوه عنه في الهامش السابق ــ المترجم) ٠

الجبلية عادة في منتصف الطريق بين منـاطق سكنى (المتنقلين ـ المترجم) الصيفيـة والشتوية في الـ «گوند» حيث يبـدأ هؤلاء الفلاحون بمزاولة الزراعة • اما مصطلح «خوش ـ نى شين » او « خوش ـ نى ـ ژين » فانه مركب من «خوش» اي جيد و « نى » الذي يعني لا (أي تعبير عن الرفض) و«ژين» هي الحياة ، فيـكون معناه (الحياة غير الجيدة) (٢٧) • وقد بقي هؤلاء نتيجـة اضطهاد الاقطاعيين واستغلالهم مجردين الا من قطعة ارض صغيرة ، وكانوا يدفعون نوعا من الضريبة الاقطاعية باسم «مالىدو» اي ضريبة الدخان•

اما ف•ب• راستوپچين فانه كتب يقول « عادة كان الـ ـ خوش نشين ـ يستقرون على طريق تنقل العشيرة ، او في مقرها الشتوي حيث كانوا يبقون ويحضرون للعشيرة المؤن الشتوية مـع العلف لحيواناتهم »(٢٨) • ان ف•ب• راستوپچين لم يفهم حقيقة ان هؤلاء ال « خوش نشين » لم يستقروا بمحض ارادتهم ، بل انهـم بعـد

---

(٢٧) تفسير المؤلف مصطلح « خوش نشين » ب « خوش ـ نى ـ شين » او « خوش ـ نى ـ ژين » غير صحيح كليا • فالمصطلح بحد ذاته ، وفي هـذا المجـال ، يعني الحياة المريحة • والواقع ان مصطلح (خوش نشين) في الحياة الفلاحية الكردية يطلق عـلى اولئك الذين يربون الاغنام ، ويستقرون في اي مـكان يجدونه مناسبا لرعي اغنامهم • ومن هنا يتبين انه لم يـكن هنـاك مبرر للمؤلف لتخطئة تفسير راستوپچين للمصطلح • فهؤلاء ال (خوش نشينية) كانوا مضطرين بحكـم بحثهـم دائما عن المكان الانسب لرعي حيواناتهم لدفع اي اتاوات او ضرائب يفرضها عليهم اصحاب الارض ـ المترجم •

(٢٨) ف•ب• راستوپچين ، ملاحظات حول الكرد ، ص٨٢ •

تجريدهم من الارض من قبل الاقطاعي كانوا يبقون في نفس المكان الذي كانوا يعيشون فيه . وانهم وان امتلكوا قطعة ارض صغيرة فانها كانت تكفي بصعوبة لضمان الحد الادنى من حياتهم وهم ، مع ذلك ، كانوا ملزمين بالعمل لاوقات طويلة خلال السنة للاقطاعي ، وكان عليهم دفع الضريبة او الريع الذي كان يحدده الاقطاعي . وكان هؤلاء الـ «خوش – ني – زين »(اصحاب الحياة التعسة) «؟»(٢٩) بالذات يؤلفون الفلاحين الاقنان الاوائل لدى الاقطاعيين المتنقلين ، فكانوا يؤدون له التزامات مختلفة ، ويحضرون العلف لحيواناته . وهذا الاخير هو الركن الاساس الاول في حياة المتنقلين والاقطاعي نفسه . من هنا لا يبقى مجال لوجود مثل هؤلاء الـ «خوش نشين»ية الذين يختارون ، كما يرغبون ، مكان سكناهم . ولكن يحدث ان تهرب عوائل فلاحية كاملة عن اقطاعي ضعيف الى اخر اقوى بامل تحسين وضعها . الا انه ، في الواقع ، لا يطرأ اي تحسن على اوضاع هؤلاء الذين تبقى ظروفهم كما كانت في السابق ، بل وحتى تسوء في بعض الاحوال .

والاغرب هو ان ف.ب. راستوبچين في كلامه عن الـ «خوش نشين » يعرضه كمظهر رأسمالي لم يكن موجودا لدى الاكراد ابداء فهو كتب بهذا الصدد يقول : « الخوش نشين ـ هو الكردي المعدم او الفلاح الدخيل (؟)(٣٠) الذي استقر على الارض العائدة لزعيم العشيرة ، او لمشاعية العشيرة ، ويقوم بزراعتها مستلما (من الزعيم

(٢٩) وضعت علامة الاستفهام من قبلنا ـ المترجم .
(٣٠) وضعت علامة الاستفهام من قبل المؤلف ـ المترجم .

او العشيرة ـ المترجم) كل ما هو ضروري من ثيران وادوات زراعية وبذور وما شابه » • وحسب هذا القول يقوم الكردي المعدم ببيع قوة عمله ، اما جميع وسائل الانتاج الضرورية الاخرى من ارض والات زراعية وثيران للحرث فانه يستلمها من صاحب الارض •

ان خطل مثل هذا الرأي باد للعيان • فلدى الـ «خوش نشين» حيواناتهم الضرورية لفلاحة الارض ، وهم يملكون في ال « گوند »، اي في منطقة القرية ، قطعة ارض ، كما سبق الذكر • الا انهم يعملون مع ثيرانهم ، وبالاتهم الزراعية لدى الاقطاعي ، اي في ارضه، ولا يتسلمون مقابل ذلك اي شيء • فهم ملزمون بالعمل للاقطاعي في ارضه ، وبجمع العلف لحيواناته • اما الشكل الذي يتحدث عنه ف• ب• راستوپچين فانه كان موجودا في الاونة الاخيرة، اي في بداية القرن العشرين ، لكن لا عند الاقطاعيين ، بل لدى مؤجري الارض، او الذين قاموا بشرائها • فقد قام هؤلاء بجمع انواع الادوات اللازمة للانتاج الزراعي ، ومقابل ذلك كانوا يأخذون لانفسهم ٨٠٪ من الانتاج ويبقون لهم ٢٠٪ منه فقط • وفي الخريف كانوا يقدمون القروض للفلاحين المعوزين • وبهذا الشكل كان جميع الفلاحين واقعين تحت رحمتهم • وكانت عوائل كاملة تقوم بتنظيف الارض من الاحجار « چه‌گيل كردن وباستئصال النباتات الضارة ، وما شابه •

تثبيت الالتزامات الاقطاعية

ذكرنا من قبل انه لا يوجد متنقلون لا يحتفظون بنوع او اخر من الصلة بالزراعة • فالاكثرية الساحقة من المجتمعات المتنقلة تزاول الزراعة ولو في نطاق ضيق • لكننا نجد بين الكرد فضلا عن العشائر المتنقلة عشائر اخرى تزاول برمتها الزراعة بشكل مطلق • ومثل هذه العشائر تقوم عادة بزراعة القمح والشعير والتبغ ، كما تهتم بالبستنة • وان الاستقرار بين الكرد جاء بالاساس نتيجة استيطان الناس المعدمين الذين فقدوا امكانات التنقل(١) • وكمثل لهذا النوع من الاستقرار نورد الـ «خوش نشين» الذين تطرقنا اليهم • فهؤلاء بعد ان تحولوا تحت ضغط الاقطاعيين الى اناس معدمين يفقدون امكانية التنقل فيستقرون على ارض الـ «گوند» ما دامت المراعي قد اصبحت في حوزة الاقطاعي •

لكن حتى هنا نلاحظ العلاقات العشيرية نفسها • فالعشيرة التي تعيش في قطعة كانت متنقلة في البداية ثم استقرت • هنا يلعب ارواء الارض دورا اساسيا • فالانهار التي تجري من الجبال العالية تؤلف احتياطيا كبيرا لسقي الارض وتوسيع الانتاج • فالكرد يقولون : « ئەرزی بی ئاڤ نە ئەرزە » اي « ان الارض التي لا ماء فيها ليست

(١) اي الذين فقدوا وسائط النقل وارض الرعي ـ المترجم •

بارض » • وقد احتفظ الاقطاع بالعلاقات العشيرية هنا ايضا • فقد قام الاقطاعيون في مناطق الاستقرار بتسخير عشائر برمتها لفتح القنوات وبناء السدود والسواقي الصغيرة • فكل فلاح ، او كل فخذ ، كان ملزما بان يقوم خلال السنة ، ولمرات عديدة ، بحفر القنوات ، وتنظيف الجداول ، وترميم السدود • وكانت امواج المياه الربيعية الناجمة عن ذوبان الثلوج في الجبال تجلب معها ، الى جانب الفوائد ، الكثير من الاضرار • فهي تجرف امامها السدود ، وتخرب القنوات ، فكان يصبح لزاما على الناس العمل من جديد من اجل الاقطاعيين • وما كان يحق لاي فلاح كان فتح قناة لنقل المياه من الجداول والنهيرات الى ارضه بدون موافقة مسبقة من جانب الاقطاعي • وفي حالة السماح له بذلك كان يقع تحت رحمة الاقطاعي ، ويصبح ملزما بالعمل له خلال ايام محددة • هكذا كان على الفلاح ان يناضل ضد الجوع ، ومن اجل الماء ، وفي سبيل الارض •

وقد كان الاقطاعيون يتمكنون عن طريق مناورات مصطنعة من جعل الفلاح تحت رحمتهم بشكل او باخر • ففي منطقة شمدينان على الحدود الايرانية في تركيا كان يوجد فلاحون يتمتعون بحق الاستفادة من المياه ، الا انهم لم يملكوا الارض • فكانوا يضطرون ، نتيجة ذلك ، للالتجاء الى البيك من اجل الحصول على قطعة ارض • ويحدث العكس ايضا عندما يملك الفلاح الارض ، ولا يتمتع بحق الاستفادة من مصادر المياه • وعادة كانت الحقوق المكتسبة ، والتقاليد تعطي البگوات امكانية الاستيلاء على مصادر الماء ،

وعلى الارض ايضا • وفي كـــل الاحوال كانوا يحققون ذلك بقوة السلاح والاخضاع التدريجي •

ومن الجدير بالذكر ان حفر قنوات الري ، واقامـــة السدود لمقاومة الفيضانات ، وبنـــاء الجسور عـــلى الانهار الجبلية المتدفقة ، وتشييد القلاع في الجبال الحصينة لردع المعتدين ، كان يتطلب تنظيم قوة العمل على أساس تعاوني بدائي • وان مثل هذا التعاون الذي كان لابد منه في سبيل انجاز هذه الاعمال الكبيرة للاقطاعي ، كـان يعتمد لدى الملاكين (المستقرين)(٢) الكرد على حقيقة ان بعض الافراد «لم يقطعوا بعد الحبل السري الذي كـان لا يزال يربطهم بالعشيرة ، أو المشاعية » (ماركس) • لكن هذا التعاون كان يعتمد في كردستان لا على التملك الجماعي لشروط (وسائل ـ المترجم) الانتاج ، بل على علاقات السيطرة والاخضاع المباشرين ـ وهما من ميزات الاقطاع • فنحن نجد هنا اعمال السخرة ، اذ كان على الفلاح ان يعمل لمدة يومين لنفسه ، ويعمل لمـــدة ثلاثة أيام في أرض الاقطاعي يستخدم خلالها ثيرانه و «جوته» (أي كان يعمل بوسائل انتاجه) • وان شكلا آخر من تبعية الفلاح نراه في حالة الشخص الذي لم يكن يملك الارض ، فكان عليه استئجارها من الاقطاعي ، ويقدم لـــه مقـــابل ذلك ثلث الانتاج ويحتفظ لنفسه بالثلثين المتبقيين ، مع العلم انه كـان يستخدم ثيرانه وبذوره ووسائل انتاجه • ويعرف هذا بالـ «نيوه كارى»(٢)، وهو شائع الى حد كبير بين جميع الاكراد ، وان كانت نسبة تقسيم

---

(٢) من وضع المؤلف ـ المترجم •
(٣) اي العمل بالمناصفة ـ المترجم •

الحاصل فيه تكون قابلة للتغيير . ففي كردستان تركيا ، مثلا ، يحصل صاحب الارض على خمس أو ربع المنتوج فقط .

فضلا عن ذلك كان على كل كردي(٤) ان يقدم ريعا عينيا للاقطاعي من كل شيء ينتجه . فمن كل عشرة رأس غنم (مولود ـ المترجم) يقدم واحدا للاقطاعي . ويقدم له النسبة نفسها من الصوف والسمن والجبن وما شابه . وكان على الفلاح الكردي ان يدفع للاقطاعي أيضا نسبة عينية معينة من انتاجه البيتي : «تير» واحد (أي خرج للدابة) ، و «قاريس» واحد (وهو حبل مصنوع من الصوف لشد حمل الدابة) ، «جوت گورى» (زوج من الجواريب) وما شابه . وبعد ظهور علاقات التبادل البضاعي ـ النقدي تحول هذا الالتزام العيني الى ضريبة نقدية .

بالاضافة الى ما ذكرنا كان يوجد بين الاكراد المستقرين جميع أشكال الالتزامات الموجودة بين المتنقلين والتي سبقت الاشارة اليها ، مثل «رزو» و «زباله» وما شابه . وهي كانت بمثابة قروض مختلفة .

الى جانب كل هذه الضرائب كان للاقطاعيين الكرد موارد اخرى مصدرها العادات والتقاليد السائدة . وهي كانت موجودة بين الكرد المستقرين والمتنقلين على السواء ، فيما يلي نماذج منها :

١ ـ في حالة موت فلاح تابع لا وريث له تنتقل جميع ممتلكاته الى الاقطاعي .

---

(٤) الاصح : كل فلاح كردي ـ المترجم .

٢ ـ اذا توفى صاحب البيت وكان له ورثة فان ممتلكاته كـانت توزع على ابنائه وعليه ، وحصة صاحب البيت المتوفي كانت تنتقل الى الاقطـاعي(٥) ٠

٣ ـ ما كان يحق للفلاح التابع ان يقوم بزيارة الاقطاعي فـي أيام الاعياد بدون هدية مناسبة لمقامه ٠ وفي الواقع كان كـل كردي ملزما بتقديم مثل هذه الهدية خلال المايدة ٠ وهي كـانت تقـدم كذلك خلال الاحتفالات الخاصة بالاقطاعي (في ميلاد ابنه ، أو زواجه او زواج شقيقه أو ما شابه)(٦) ٠

٤ ـ في حالة الفواجع العائلية (من قبيل موت والد الاقطاعي أو والدته او ابنه أو زوجته أو شقيقه او اي من أقربائه المقربين) كان على الفلاح تقديم بعض الحاجيات اثناء مؤاساته التي تعرف بالـ «سەر خوشي» (حرفيا : سلامة الرأس) أي «لتسلم انت» ٠

٥ ـ اذا تزوج ابن التابع ، أو تزوجت ابنته ، فـكان عليـه ان

---

(٥) بعد ضم مناطق ما وراء القفقاس (الى روسـيا ـ المترجـم) جردت الحكومة القيصرية البيكوات من هذا الدخل ٠ لكن خلال حكم الطاشناق لارمينيا في عامي ١٩١٨ و ١٩١٩ اعيـد من جديد الى الاقطاعيين الاكراد اوسو بيك تيموروف وعقيـد بيك تيموروف وجيهانكير بيك تيموروف ـ المؤلف ٠ بعـد انتصار ثورة اكتـوبر الاشتراكيـة بفتـرة وجيـزة شـكل الطاشناقيون في جزء من ارمينيا الشرقية حكومة قوميـة ـ بورجوازية استمر وجودها لاكثر من عامين (من مايس ١٩١٨ حتى تشرين الثاني ١٩٢٠) ـ المترجم ٠

(٦) س٠ أ٠ يكيزاروف ، ، المصدر السابق ، ص ٢٠٥ ٠

يقدم للاقطاعي خروفا أو ثورا • ويعرف هذا بالـ «تەكليف كرن» أي (القيام بالوليمة) •

٦ ـ أثناء توسط الاقطاعي لحل الخلافات بين الفخوذ المختلفة كان على الطرفين المتنازعين تقديم «خەلات» (حرفيا : هدية ـ المترجم) له • وهو كان بمثابة جزاء عن تعكير الامن •

٧ ـ كانت احدى أهم وسائل ضمان الدخل بالنسبة للاقطاعي، تعرف بالـ «جرم» (اي الجزاء عن تعكير النظام او الخروج على أي من القوانين والتقاليد التي وضعها الاقطاعي) •

٨ ـ كان الفلاحون الفقراء جدا ، الذين يعجزون عن تقديم «الهدايا» الثمينة للاقطاعي ، يشتركون مع بعضهم البعض للايفاء بما كان عليهم •

٩ ـ في بعض الاحيان كان رئيس العشيرة (الاقطاعي) يقوم بمصادرة ممتلكات الآخرين ، وهو ما يعرف بالـ «تالان» أي سلب من كان يطرد من المجتمع • وهذا يشبه ما كان سائدا من حق المعاقبة بين الروس القدماء(٧) •

كان على كل (فلاح ـ المترجم) كردي أداء جميع ما ذكرنا من الضرائب والالتزامات للاقطاعي •

مع ظهور علاقات المقايضة ـ التجارية في الزراعة وتطورها، نلاحظ

(٧) يورد المؤلف هنا الاسم الروسي لهذا التقليد الذي تكون ترجمته الحرفية كما يلي : « الى السيل والسلب » ، وله معنى مجازي هو الافقار التام أو الكلي ـ المترجم •

ايضا تطور علاقــات الاستئجار في اقتصاديات المستقرين والمتنقلين كذلك • لكن يجب معالجة هذا الموضوع بكل حذر ، خاصة لاننــا نجد هنا (في كردستان ـ المترجم) انواعا من العمال الزراعيين للذين لا نجد لهم مثيلا بين أي من الشعوب المجاورة للكرد • ولدى الكرد توجد اربعة انواع رئيسة من العمال الزراعيين هي :

النوع الاول : موجود لــدى المتنقلين وهو الـ «شوان» ، أي راعي الغنم الذى يستأجر عادة لفصلي الصيف والشتاء • ومثــل هؤلاء الرعاة لا يملكون اقتصادهم الخاص ، ولا الارض ، وان كان توجد في حوزة بعضهم ثلاثة أو اربعة خرفان هي في الواقع بمثــابة لاشيء في المجتمعات المتنقلة ، اذ ليس بامكانها ضمان مجرد الخبز له • هؤلاء الرعاة يأخذون لقاء رعي كل ٢٠ خروف خروفــا واحــدا لانفسهم • ولا يجوز ان يزداد عدد ما يقومون برعيه من الخرفــان عن ٢٠٠ ـ ٢٦٠ خروفا • لكن أصحاب الحيوانات يقومون ، عادة ، بدفع ١٠ـ١٤ خروفا لهم مقابل رعي ٥٠٠ ـ ٦٠٠ مــن حيواناتهم • وكان الرعاة يستأجرون بدورهم مساعدين لهم «دواژو» مقابل ٥ـ٦ خرفان • أما بقية ما يحصل عليه من الخرفان فانها كانت تذهب الى الاقطاعي الذي كان يحتفظ ، بالاضافة الى ذلك ، بخروف واحــد ، أو خروفين آخرين كضريبة اقطاعية •

والنوع الثاني من العمال الزراعيين هو الـ «گاوان» ، وهم رعاة الابقار والخيول أو الجمال • وهؤلاء عمال موسميون يستأجرون من الربيع حتى الخريف •

أما النوع الثالث فهو مـــا يعرف بالـ «خولام»(٨) • وهؤلاء يستأجرون من جانب المستقرين لسنة كاملة • وهم يؤدون جميــع الاعمال من رعاية الحيوانات ، وتنظيف الاصطبل ، ونقل الروث على ظهورهم ، ويقومون بالحرث والبذار وما شابه •

ويوجد ايضا نوع آخر انتقالي يمكن اعتباره النوع الرابع ، وهو ما يعرف بـ «روز حەق» أي (عامل يومي ـ المياومة) • وينطبق الاسم على واقع الأمر تماما • اذ يؤجر هؤلاء للعمل خلال الصيف ، وعلى أساس اجر يومي أو شهري فقط •

والنوع الخامس هو العناصر نصف البروليتارية ، والـــذي يعرف عند الاكراد بالـ «بەدەرڤانی» (٩) • انهم يؤجرون فقط أثناء جمع الحشيش والحصاد والجرش • ان اقتصاد هؤلاء غير متكامل ، لذا يضطرون للعمل مقابل اجرة في أعمال سقي موسمية • مـن هنا فانهم لا يعتبرون عمالا زراعيين بكل ما في هذا المصطلح من معنى •

يعود ظهور جميع هذه الانواع من العمــال الزراعيين ، بدون شك ، الى فترة متأخرة عندما دخلت عناصر التجارة الرأسمالية في الريف الكردي أيضا ، حيث غـدا الكردي المتنقـل ، والـكردي المستقر يعانيان من وضع صعب للغاية • وتعود بداية هذه التغيرات (أي تغلغل عناصر التجارة الرأسمالية في الريف ، وتردي وضــع

---

(٨) محرفة من كلمة غلام ـ المترجم •

(٩) مصدر المصطلح : « بی دەرەڤان ـ بی دەرەوان، بەیدەرەوان» • في القاموس الكردي ـ الروسي للدكتور كوردوييف (ص ٩٤) الشخص الذي يعمل في البيدر أو الدارس ـ المترجم •

الفلاح الكردي - المترجم) الى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر(١٠) •

لكن هل كان يوجد الرق بين الاكراد ؟

ان العلماء البورجوازيين لا يذكرون ، عادة شيئا عن الرق بين الاكراد ، لأن التطرق الى مثل هذا الموضوع ليس في صالحهم • فقد اعلن س•أ• يگيزاروف المعروف بتخصصه في درس تقاليد الكردوعاداتهم ، اعلن صراحةان «لا ذكر للرق بين الاكراد»(١١) • في الواقع يحاول المؤرخون البورجوازيون ، ولاسيما المعاصرون منهم ، انكار الحقائق المتعلقة بوجود الرق عند الكرد بجميع السبل • الا اننا نعرف من الأدب الشعبي الكردي اغنية « قولي خانم » التي فيها وصف لحقائق تدل على وجود الرق • فقد جاء في هذه الاغنية :

انا عبد ، عبد والدك
اعمل مع طلوع الشمس حتى غروبها في الغابة
احمل الحطب والماء في قرب كبيرة
اطلبي من والدك ان يحررني (١٢)

---

(١٠) تعوّد بدايات اندماج كردستان بالسوق الرأسمالية العالمية الى القرن التاسع عشر ، مما ترك آثارا عميقة على الكيان الاجتماعي - الاقتصادي للشعب الكردي ، ولا سيما لان عملية الاندماج اسرعت - بالرغم من بطئها النسبي - عملية انحلال العلاقات الاقطاعية في المجتمع المذكور - المترجم •

(١١) س•أ• يگيزاروف ، المصدر السابق ، ص ١٨ •

(١٢) هذه الكلمات لا تدل بحد ذاتها على وجود نظام الرق الذي له شروطه وقوانينه كمرحلة تاريخية محددة • ثم اننا غالبا ما نلتقي تلك الكلمات في قصائد لشعراء شرقيين معاصرين - المترجم •

ظهر الرق بين الكرد عن طريقين • يرتبط الاول منهما بالمعارك التي كانت تقع بين القبائل وتؤدي الى أسر واخضاع بعض الناس • ونورد ها هنا كلمات الاغنية التي لا تزال تقدم حتى الان أثناء العرس • انها تقول :

اعلن حسن آغا باعلى صوته

سوف اقوم باسر رضا خالد

واجبره على جلب الحطب الى داري

وعندما سمعت شقيقة رضا خالد ردت عليه

اذا كنت رجلا فاذهب لمحاربته

وان استطعت فاسره واجبره على رعي خيولك •

أما الطريق الثاني فهو ما يعرف بعبيد الدار • فقد دفع تراكم الـ «رزو» و «كاور نهمرى» ، والالتزامات الاخرى الصعبة بالفلاح الى عبودية الزعيم المستغل • وقد وجدنا مثل هذا الواقع قبل زمن غير بعيد بين عشيرة (كيوان قره) بالقرب من بدليس في كردستان تركيا • وان مثل هؤلاء العبيد يعملون بكامل طاقاتهم في خدمة أصحابهم ، ويتلقون لقاء ذلك الحد الادنى من الحاجيات التي تضمن لهم عيشهم • لكن هذا النوع من الرق لم يكن شائعا بين الكرد ، ولم يلعب دورا بارزا في المجتمع الكردي •

من هنا يمكننا القول ان الرق كان موجودا بين الأكراد ، الا انه لم يتطور بالطبع الى ذلك الحد الذي نلاحظه في مجتمعات العبيد •

خاتمـة

في ختام دراستنا للمجتمع الـكردي نستطيع التوصـل الى الاستنتاجات التالية :

١ ـ يظهر الاقطاع المتنقل الكردي من خلال الاستيلاء عـلى ارض الرعي ومصـادر المـاء وقطعان كبيرة من الحيوانات • أمـا الاقطاع في المجتمع الكردي المستقر فانه يعتمد على التملك الاقطاعي الخاص للارض ، ولنظام الري •

٢ ـ يحافظ الاقطاع الكردي على العلاقات العشيرية مستخدما اياها كوسيلة اخضاع لاكثر الفلاحين الكرد فقرا •

٣ ـ من ميزات المجتمع الكردي طابعه الخاص في الجمع بين العلاقات الاقطاعية ، مع التنظيم الطائفي للمجتمع الذي يعـود الى النظام العشيري ، والذي نفذ الى كل نظام العلاقـات الاجتماعيـة القائمـة •

٤ ـ لم يشغل الرق حيزا ملموسا في المجتمع الكردي ، ولم يتحول الى الشكل الرئيس للاستغلال • وهـذا يعود الى وجـود مجتمعات حول المجتمع الكردي عاشت مرحلة العبيـد في أعـلى

اشكالها ، ودخلت في مرحلة الاقطاع(١) . لذا لم يتحول الرق الى أساس الانتاج (في المجتمع الكردي ـ المترجم) ، بل ساعد فقط في ظهور الاستغلال الاقطاعي .

(١) يقصد المؤلف ان مرحلة العبيد قد أصبحت غريبة بالنسبة للمنطقة بعد ان مرت بها شعوب مجاورة للكرد (مثل الارمن) ودخلت مرحلة أعلى من التطور الاجتماعي ، ونقصد بها مرحلة الاقطاع ـ المترجم .

فهرست الاعلام

(*) (ع) = عشيرة ٠

المحتـــويات

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
١٩٧ لسنة ١٩٨٤

أ. شـاميلۆف

دەربارەی مەسەلەی دەرەبەگی لە نـاو کـوردا

وەرگێڕان و پێشەکی و لێکۆڵینەوەی

د. کەمال مەزهەر ئەحمەد

A. SHAMILOV

A QUESTION ABOUT FEUDALISM AMONG THE KURDS

Translated from Russian Language,

Introduced and Commented by

Dr. KAMAL M. A.

Second Edition

Baghdad — 1984

الثمن (٦٠٠) فلس

مطبعة الحوادث – بغداد

الموسوعة الصغيرة

١٤٢

ميكافيلي والميكافيلية

تأليف

د. كمال مظهر أحمد

مكيافيلي والميكافيلية

تأليف

د. كمال مظهر أحمد

المؤلف في سطور

الدكتور كمال مظهر أحمد

- من مواليد السليمانية عام ١٩٣٧
- حصل على شهادة البكلوريوس في التاريخ بكلية التربية - جامعة بغداد بمرتبة الشرف
- حاز على شهادة الدكتوراه ١٩٦٣. ودكتوراه علوم (ناوك) من معهد الإستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية .
- نشر ١٢ كتابا وعددا كبيرا من البحوث باللغات العربية والكردية والروسية.
- حاليا يعمل أستاذا بقسم التاريخ في كلية الآداب - جامعة بغداد

مقدمة

لا شك في ضرورة دراسة مختلف حلقات التاريخ الإنساني، ولا سيما كل ما يتعلق بالجانب الفكري لذلك التاريخ فإن من شأن دراسة كهذه تجسيد دروس وعبر بإمكانها، فيما لو أخذت بنظر الإعتبار، المساعدة على تخطي الكثير من مساوئ الماضي وتجنيب خلق الله من صوره القاتمة.

وإذا نظرنا الى أفكار مكيافيللي بصورة موضوعية وشاملة فإننا نجد شيئا غير قليل من ذلك، فهو يدخل ضمن المفكرين الأفذاذ الأوائل الذين وضعوا اليد بذكاء على المحركات غير المرئية للأحداث التاريخية، وما يتعلق منها بالسياسة بشكل خاص. إنه صور لنا رجل الدولة الناجح ونقيضه دون مواربة، وحدد بصراحة غير معهودة ألاعيب السياسة وشروط نجاحها أو إخفاقها.

ومن جانب آخر فإن التاريخ قلما عرف مفكرا أثارت آراؤه ردود فعل متناقضة وبإستمرار على مدى قرون طوال وفي كل زاوية من زوايا عالمنا الشاسع مثل مكيافيللي الذي يتعلق إسمه بذهن كل من يطرق باب السياسة طرقته الأولى. لذا ليس بغريب أن يحظى هذا الرجل وما أنتج يراعه بإهتمام الباحثين من مختلف الإتجاهات حتى يومنا هذا. وإذا كانت صورة مكيافيللي المشوهة بدأت تختفي عن أذهان الغربيين لتحل محلها صورته الواقعية منذ زمن بعيد، فإن تلك الصورة لا تزال متجسدة في أذهان الشرقيين بصورة لا تختلف عما كان عليه الأمر في أوروبا القرون الماضية.

ويستهدف هذا البحث تقديم صورة مكيافيللي الحقيقية بالإستناد الى مؤلفاته الأصيلة مع آخر ما توصل إليه الباحثون بصدد أفكاره. كما أن فيه محاولة للتوصل الى بعض الإستنتاجات الجديدة قابلة للنقاش والتطوير.

الموضوع الأول
نبذة عن حياة مكيافيللي

ولد نيكولو دي بيرناردو مكيافيللي في ٣ أيار ١٤٦٩ بمدينة فلورنسة الواقعة في وسط إيطاليا. وهو ينتمي الى أسرة توسكانية نبيلة عريقة شغل أفرادها على مدى عقود طوال مراكز حساسة فأصبحوا بحكم ذلك في معمعان الحياة السياسية الفلورنسية النشطة حتى أن عائلة جده الأكبر قد تعرضت للنفي من المدينة من جراء ذلك في العام ١٢٦٠ وقضى أحد أسلافه نحبه في السجن. وقد تدهور الوضع المالي لأسرة مكيافيللي قبل مجيئه الى الحياة مما ترك بعض الأثر على تصرفاته كما نلاحظ ذلك فيما بعد.

لقد ترعرع مكيافيللي في كنف السياسة والثقافة. فإن والده كان محاميا معروفا، وكانت أمه تقرض الشعر. ومع أن المعلومات فيما يتعلق بالفترة المبكرة لحياة مكيافيللي غير متوفرة بشكل يمكن من خلالها إلقاء أضواء كافية على مصادر ثقافته الأولية، إلا أن مما لا شك فيه أنه تلقى تعليما جيدا بالنسبة لعصره إذ درس القانون والتاريخ[1]، وفي السابعة من عمره بدأ بتعلم اللاتينية[2]- لغة العلم والثقافة آنذاك - وفي بداية شبابه أظهر مكيافيللي الميل نحو الثقافتين القديمة والحديثة، فقرأ خطب الكاتب والخطيب الروماني المعروف شيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق. م.) ودرس مؤلفات ارسطو وتابع بإهتمام مؤلفات رائدي ((النهضة)) دانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١) وبترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤). إلا أن مدرسة مكيافيللي الأساسية كانت شوارع مدينة فلورنسة التي منحت العالم أبرز عباقرة النهضة من أمثال دانتي وليوناردو دافينشي وميخائيل أنجيلو وغيرهم. فإن هذه المدينة تميزت عن غيرها من المدن الإيطالية بنشاطها السياسي الواسع الذي لم يقتصر على النخبة، كما كان عليه الأمر في مدينة البندقية المهمة مثلا، بل زاوله كل فلورنسي ففي هذه المدينة ((كان الجميع ساسة)) حسب وصف

---

[1]. كان مكيافيللي يبلغ من العمر ١٢ عاما عندما قرأ أول كتاب في التاريخ. وفي وقت مبكر قرأ خطب شيشرون ومؤلفات أرسطو وأفلاطون وغيرهم من الأقدمين.

[2] .R. Ridolfi, The Life of Niccolo Machiavelli, translated from the Italian by G. Grayson, Chicago, 1963, P. 3.

أحد المؤرخين[1]. وفعلا شهدت شوارع فلورنسة أحداثا سياسية متلاحقة مليئة بالدروس والعبر تركزت في ذاكرة الناس فكانوا يرددونها ويقرنون بها أحداثهم الحياتية الخاصة.

عينان براقتان تنمان عن نظرة ثاقبة معبرة، طول متوسط وشفتان دقيقتان تفصح إبتسامتهما عما كان يجول في أعماق نفسه - هكذا تصف المصادر المظهر الخارجي لمكياڤيللي مستندة في ذلك الى ما كتبه عنه معاصروه والى لوحات بعض رسامي عصر النهضة. وكان يختفي وراء هذا المظهر عالم زاخر ملئ بالقيم. فقد عرف مكياڤيللي بسرعة البديهة بشكل نادر وبتأثيره على مستمعيه وبإجادته للحديث الجاد والمرح مع مختلف المستويات بدءا بحطابي قريته ومرورا بأمراء إيطاليا وإنتهاء بملوك أوروبا، محاولا، في كل الأحوال، أن يكون مرغوبا قريبا الى قلوب الآخرين. كان ودودا في غاية الإخلاص لأصدقائه، يأتي كل ما في وسعه عملا وقولا، من أجل خيرهم ورفعتهم. وكان بعيدا عن القسوة في حياته ويعطف على كل ضحية بريئة مما يبدو جليا من رسائله الكثيرة لأصدقائه. أما في صراحته فلم يضاهه أحد من أعلام عصره[2]. وهو، الى جانب كل ذلك، كان شكوكيا وسواسا. ومع أنه قال عن نفسه ذات مرة ((ولدت فقيرا فتعلمت الحاجة قبل المتعة))[3] إلا أنه عرف الأخيرة في الحياة وفهمها فهما إيطاليا أصيلا. كان يحب الحياة، سخيا لا يعرف للبخل معنى، فيصرف على نفسه وأصدقائه دون تردد[4]. ومع أنه كان زير نساء وعاشقا للجمال إلا أنه لم يفقد القيم أبدا ولم يفسح المجال لأمر أن يفسد عليه حياته العائلية فأسبغ على أولاده الستة حنان الأب الرؤوف ومنح زوجته كل رعاية وحب. وجاءت طموحاته الواسعة متوافقة تماما مع عبقريته الفذة وحبه الجم للعمل وإسداء الخدمات على أحسن وجه.

---

١. أ. ك. جيڤيليكوف، نيكولو مكياڤيللي (١٤٦٩ – ١٥٢٧)، موسكو – لينينغراد، باللغة الروسية، ص٢٤.

٢. R. Ridolfi, Op. Cit., pp. 9-12; F. Chabod, Machiavelli and the Renaissance, translated from the Italian by D. Moore, Cambridge, 1960, pp. 7-9 ; ڤ. روتينبورغ، عمالقة النهضة، باللغة الروسية، لينينغراد، ١٩٧٦، ص ١٢٠ – ١٢١

5. F. Chabod, Op. Cit., pp. 4, 126, 134 – 135.

6. R. Ridolfi, Op. Cit., pp. 145 – 156.

جعل كل ذلك من نيكولو يبدو غريبا في مجتمع كانت بقايا الفكر الإقطاعي، لا سيما فرديته ونفاقه، تطغي على عقول الجانب الأكبر من أصحاب الكلمة والفكر فيه. فقد كان ضعاف النفوس من أقرانه يحسدونه ويحاولون النيل منه عن طريق خلق المشاكل له وإشاعة الرذائل عنه والطعن في إخلاصه، فلم يجد من الأصدقاء المخلصين - لا سيما بعد نفيه - سوى الذين كانوا على مستوى تفكيره أو من كانوا في أخلاقهم أرفع من أن يسمحوا لأنفسهم بالتحلل والإنحطاط، ويأتي على رأسهم المؤرخ المعروف گويچارديني والدبلوماسي الفلورنسي فرانسيسكو ڤيتوري. وكما يقول عنه المؤرخ أ. ك. جيڤيليكوڤ أنه ((كان وحيدا)) ولكنه ((كان أرفع من الآخرين))[1].

كان حساد مكياڤيللي يأخذون عليه صراحته المطلقة. والواقع أنه لم يستطع أن يخفي حبه وإمتعاضه عن الآخرين، فكانت ملامح وجهه وإبتسامته الساخرة أو العطوفة تعبر عنهما حتى وإن حاول هو إخفاءهما عبثا. لذا فإنه بدا شاذا في وسط كان أغلب مثقفيه يتلونون كالحرباء ويتزلفون لكل قوي، مركزا وجاها وإن كان الأضعف قيما. وعندما إضطر أن يجاري المنافقين علق بنفسه ساخرا فكتب يقول: ((منذ زمن بعيد لا أقول ما أفكر فيه ولا أفكر مطلقا فيما أقول وإذا حدث لي مرة أن أقول الحق فإنني أغلفه بغطاء من الأكاذيب بحيث يصعب بلوغ كنهه))[2].

وقد إتهموه بالسخرية التي لم تكن، حسب وصف أحد المؤرخين الطليان، سوى تعبير الأمين عن ((إيمان شخص كان يثق مخلصا بمنطقه الخاص))، فهو ((لم يكن يخفي ما كان يخفيه غيره)) وإن أخفى فإنه إنما ((كان يخفي من صفاته الجليلة)) ما جعلت ((طيبته تبدو للعيان دون حقيقتها))[3].

غالبا ما لجأ حساد مكياڤيللي الى أساليب وضيعة للنيل منه ولتشويه سمعته. فإنهم، إتهموه بالجشع الذي دفعه - حسب إدعائهم - الى الزواج من ماريا كورسيني طمعا في ثروتها في الوقت الذي بلغت قدسية الرابطة بين الزوجين الحد الذي ظلت

---

[1]. أ. ك. جيڤيليكوڤ، المصدر السابق، ص ٣٤. نفس المصدر، ص ٣٢.

[2]. ڤ. روتينبورغ، المصدر السابق، ص ١٢٠.

[3]. نفس المصدر .

فيه وفية له كل الوفاء حتى الرمق الأخير، بحيث أوصى لها في أول وصية له بالصداق الكامل على أن تنتفع هي وأولادهما فقط بما يترك بعد الموت. وعلى مدى ثلاثة وعشرين عاما ظلت علاقات نيكولو وماريا على أفضل ما يكون. وكما تبين رسائله فإنه كان في كل سفرة له يتحرق للعودة سريعا الى أسرته التي كانت تنتظره أيضا بتلهف كبير، ولا سيما زوجته التي كان يسميها مداعبا إياها ب ((قائدنة)) La brigata. وبالرغم من نجاحاته المشهودة في حياته العملية فإن البعض حاولوا إلقاء ظلال من الشك عليها، ولاسيما نجاحاته في أعـماله الدبلوماسية[1]، غير أنها كانت ظلالا باهتة.

ولد هذا الموقف غير النبيل من لدن أقرانه ومعارفه، مع مشاكله الخاصة، بعض التشاؤم في نفس مكيافيللي فقد غدا يعتقد أن الحسد ((غريزة متأصلة في طبيعة الإنسان)) وبأن شيمة الجنس البشري عامة الميل الى التقليل من أعمال بعضهم البعض أكثر من الميل الى ((إطرائها المطارحات)) [٢] لكن مكيافيللي نفسه لم يكن من الطراز الأخير من الناس لأنه كان ((مدفوعا دائما بالرغبة الطبيعية في العمل دون إكتراث بأي شئ آخر، لما فيه خير المجموع))(المطارحات). لذا كان من المنطق أن يعطي التاريخ حكمه العادل: أفلت أسماء حساد مكيافيللي وكأنها لم تكن ليبقى نجمه صاعدا في سماء إيطاليا الصافية وإسمه حيا في كل محفل فكري وسياسي. فهو حتى اليوم يتحكم بشكل أو بآخر في السياسات من أعماق قبره، وتفرض آراؤه نفسها على كل مفكر سياسي.

بالرغم من إمكاناته وفكره الثاقب فإن مكيافيللي لم يحتل في وقت مبكر المكان المرموق اللائق به في جهاز الحكم والوسط السياسي الفلورنسي. والسبب في ذلك يعود بالأساس الى إفتقاره للوسيلة، أو للوسيط الذي كان بإمكانه إيصاله الى مسرح الأحداث. وعندما بلغ أعتاب الأخير كان يبلغ من العمر ٢٩ عاما وقد سبقه الآخرون الى المراكز الحساسة فيه. مع ذلك من الطبيعي أن يثبت نيكولو وجوده ويفرض نفسه بسرعة. فإن الرجل، كما ذكر عن نفسه، قد شاء له طالعه أن لا يستطيع

---

[1] راجع: .H. Butterfield, the Statecraft of Machiavelli, London, 1960, p. 125

[٢]. نعود الى تفاصيل مؤلف مكيافيللي الضخم ((المطارحات)) أو ((المساجلات)) في مكان آخر من هذا البحث.

((الحديث عن فن صناعة الحرير، ولا عن فن نسج الصوف[1]، ولا عن الربح والخسارة، بل عن موضوع واحد هو قضايا الدولة..))[2]. لذا فعندما عهد إليه بمنصب سكرتير مجلس العشرة في تموز ١٤٩٨، إثر إعلان النظام الجمهوري في فلورنسة أثبت جدارة فائقة في كل ما قام به بحيث طغى على الآخرين مباشرة. إنه لم يحرر قبل ذلك التاريخ أي تقرير رسمي ولم يخطب في أي مكان، ولكن مع ذلك فإن الصياغة الرصينة لأولى كتبه الرسمية تبين وكأن له تجارب السنين المتراكمة في هذا الميدان[3]. ولم تكن مهمته قليلة الشأن، فإن مجلس العشرة كان يشرف على الشؤون العسكرية والعلاقات الخارجية للجمهورية التي عاشت أحداثا حاسمة، لا سيما بسبب تشابك علاقات فلورنسة مع حكومات المدن الإيطالية وجراء الأطماع الأجنبية في كل البلاد التي تمخضت عنها سلسلة حروب مستمرة إصطدمت فيها مصالح الدولتين الأوروبيتين القويتين إسبانيا وفرنسا. وقد تعزز موقف مكيافيللي أكثر عندما أختير صديقه بييرو سوديريني Soderini رئيسا للمجالس فأضحى ضمن واضعي سياسة الجمهورية ومخططيها.

ظل مكياڤيللي في وظيفته حوالي خمسة عشر عاما قام خلالها بأربع وعشرين بعثة دبلوماسية هيأت له ظروف الإتصال المباشر بأهم الشخصيات الإيطالية والأوروبية يومذاك منهم البابا وملك فرنسا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وقد إكتسب مكياڤيللي خلال سفراته هذه خبرات واسعة بأن وقف عن كثب على خفايا العلاقات الدولية وأساليب الحكم الأوروبي. فإنه زار البلاط الفرنسي وحده أربع مرات إستغرقت أشهرا عدة عرف خلالها عادات الفرنسيين ودسائس البلاط وغيرها من مقومات حكمهم مما إنعكس، مع تجاربه الأخرى، في مؤلفاته بشكل واضح. فخلال سفراته الدبلوماسية أدرك ماكياڤيللي أن في هذا العالم شيئا يستحق التأمل والتقصي عنه[4].

---

[1]. كانت صناعة الأقمشة تعتبر يومذاك من أربح المهن لا في إيطاليا فحسب، بل على صعيد كل القارة الأوروبية.

[2]. ورد ذلك في رسالة له بعثها الى صديقه ڤيتوري (راجع: F. Chabod, Op. Cit., pp. 131 - 132.)

[3]. أ. ك. جيڤيليكوف، المصدر السابق، ص ١٩.

[4]. R. Ridolfi., Op. Cit., p. 4.

سقط النظام الجمهوري في فلورنسة عام ١٥١٢ وعادت أسرة ميديتشي الى الحكم بفضل القوات الإسبانية الغازية، فإلتجأ سوديريني الى الممتلكات العثمانية وهرب آخرون من رجال الحكم، أما مكيافيللي الذي بذل كل ما في وسعه للحيلولة دون سقوط الجمهورية فقد أبعد عن وظيفته. وفي بداية عام ١٥١٣ أتهم بالإشتراك في مؤامرة إستهدفت نظام ميديتشي الإرهابي فأعتقل وتعرض للتعذيب ست مرات خلال وجوده في السجن، وأخيرا تقرر نفيه الى مسقط رأسه قرية سانتا كروس المجاورة لمدينة فلورنسة.

أصيب مكيافيللي بخيبة أمل كبيرة إثر الأحداث التي أطاحت بالجمهورية وأدت الى تعذيبه ونفيه بحيث قرر أن ((لا يفكر بالسياسة أو مناقشتها أبدا)). لكن لم يكن بإمكان قراره هذا أن يدوم طويلا فإذا به يعود ((بعد ألف عام)) الى ((حبه القديم)) حسب تعبيره هو[1]، لأنه - كما جاء في إحدى رسائله - لم يستطع الحديث إلا ((في موضوع واحد هو قضايا الدولة، ولذا فإما أتكلم عن هذا الموضوع أو أضطر الى الصمت المطبق تماما))[2]. إنه لم يسكت ولم يؤلف في السياسة فحسب بل ظل في منفاه يسدي لنصائح مفيدة لأصدقائه الدبلوماسيين الذين كان عليهم الخوض في ألاعيب السياسة الأوروبية[3].

في رسالة بعث بها مكيافيللي الى صديقه الحميم فيتوري في العاشر من كانون الأول ١٥١٣، أي بعد إبعاده بفترة وجيزة، يصف حياته بعد النفي بهذا الأسلوب المعبر: ((ما زلت أعيش في الريف منذ خروجي الى المنفى. أستيقظ مبكرا عند الفجر وأمضي الى الغابة الصغيرة لأرى ما قام به الحطابون من عمل في غابتي)). وبعد أن يتبادل الحديث مع الحطابين يمضي الى أحد التلال ليقضي ساعات في مطالعة الكتب وحيدا. وبعد تناول غداء بسيط يذهب الى الحانة حيث يتحدث الى الطحان والقصاب والعمال. ((وعندما يحل المساء أعود الى البيت، وأدخل المكتبة بعد أن أنزع ملابسي الريفية التي غطتها الوحول، ثم أرتدي ملابس البلاط والتشريفات كي

---

[1]. F. Chabod, Op. Cit., p. 126.

وضع مكيافيللي الرقم في صيغة المبالغة، فهو يقصد أن السنوات القليلة التي إبتعد فيها عن السياسة كانت تعادل ألف عام لديه.

[2]. F. Chabod, Op. Cit., p. 132.

[3]. Ibid, P. 129.

أبدو في صورة أنيقة، وأدخل المكتبة لأذهب الى قصور الرجال الأقدمين الذين يقابلونني بالترحاب وأتغذى على ذلك الغذاء الوحيد الذي يناسبني والذي خلقت من أجله. وهناك لا أتردد في التحدث إليهم وأستفسر عن كنه أعمالهم وهم يتلطفون علي بالإجابة بما جبلوا عليه من روح إنسانية. وعلى مدى ساعات أربع لا أحس بأدنى ملل فأنسى كل المنغصات ولا أعود أخشى العوز أو الموت بل أكون مع هؤلاء بكل جوارحي))[1].

بهذه الروحية كرس مكياڤيللي نفسه للبحث والتأليف فأنجز خلال السنوات المتبقية من عمره مجموعة مؤلفات مهمة ظلت، ولا تزال، متداولة على مدى قرون طوال. ومن أهم مؤلفاته السياسية والتاريخية كتاب ((الأمير))(١٥١٣) و ((المطارحات عن الكتب العشرة لتيتوس ليڤي))[2] (١٥١٣ - ١٥١٦) و ((فن الحرب)) (١٥١٩ - ١٥٢٠) وكتابه الضخم ((تاريخ فلورنسا)) الذي يقع في ثمانية مجلدات وقد قضى منذ العام ١٥٢٠ سنوات عديدة في تأليفه. كان مكياڤيللي يحاول، كما ذكر بنفسه، أن يضمن مؤلفاته كل ما كان يعرف وما تعلم من تجارب طويلة ومن قراراته الخاصة بصدد القضايا السياسية [3]. وغزارة معارفه وعمق تجاربه وبعد قراراته كان يكفي ليضفي على مؤلفاته طابع الإصالة والجد. وبالرغم من قوة أسلوبه الرائع الذي لعب دورا مهما في بلورة اللغة الأدبية الإيطالية الموحدة والذي لم ينج، مع ذلك من سهام حساده السامة، فإن ((نيكولو لم يبحث ليخلق عملا فنيا))، حسب تعبيره هو، بل إنه غاص في الأعماق بحثا عن منطق السياسات وقواها المحركة فتجنب التعقيد في التعبير الذي جاء سلسا، ممفهوما ومترابطا. فبالنسبة له كان الأهم هو ((بلوغ الحكمة

---

[1]. نيكولا ألكسيف، نيكولو مكياڤيللي، باللغة البلغارية، صوفيا، ١٩٠٨، ص ٢٧ - ٢٨؛ ف. روتينبورغ، المصدر السابق، ص ١٢٢ - ١٢٣؛ ل. م. باتكين، الإنسانيون الطليان: أسلوب الحياة، أسلوب التفكير، باللغة الروسية، موسكو، ١٩٧٨، ص ٥٨ - ٥٩؛

"The Prince", London, 1968, pp.18-19- (the Intoduction by G Bull).

[2]. تيتوس ليڤي (Titus Livius) (٥٩ قبل الميلاد - ١٧ بعد الميلاد) مؤرخ روماني معروف قضى ٤٥ عاما في تأليف مؤلفه الضخم ((تاريخ روما منذ تأسيس المدينة)) الذي كان يقع في ١٤٢ مجلدا بقيت منها ٣٥ فقط. والكتب العشرة الأولى من هذا المؤلف والتي إعتمدها مكياڤيللي مصدرا أصليا لكتابه ((المطارحات)) تحتوي على ذكر الأحداث التي وقعت حتى العام ٢٩٣ ق. م.

[3]. ذكر مكياڤيللي ذلك في كلمة الإهداء التي إستصدر بها كتابه ((المطارحات)).

السياسية لا التعبير الجمالي، الإقناع لا الثناء، هز مشاعر الناس لا التخفيف عنهم بروعة أسلوبه))[1]. وفعلا بلغ مكيافيللي الحكمة السياسية وأقنع وهز مشاعر الناس إلا أنه، بالإضافة الى ذلك، خفف عنهم بخلقه الفني وروعة أسلوبه. ففي رأي البعض أن مكيافيللي لو أولى الأدب جل إهتمامه لكان نجاحه أكثر بكثير مما كان يتوقعه بنفسه[2]. فقد طرق باب الأخير بنجاح قلما فاقه فيه إيطالي عبقري آخر، مع أنه لم يوله من الإهتمام والوقت سوى القليل منها[3]. فإن مسرحياته كانت تعرض في أمهات المدن الإيطالية وتجتذب الناس من مختلف المستويات، بما فيهم شخص البابا.

لم تكن ظروف مكيافيللي في منفاه طبيعية، خاصة لما كان يعانيه من وضع نفسي سئ بسبب إبعاده عن الخدمة والحياة العملية التي كان يعتقد أنه خلق لها أكثر من أي شئ آخر، بما ذلك التأليف في السياسة. وقد أخطأ مكيافيللي في ذلك كثيرا بحيث غدا الرأي السائد ((أن إبعاده كان خسارة له وكسبا لنا))[4] حقيقة مسلمة. على أي حال كان لمكيافيللي رأي يختلف عن ذلك فظل يحاول العودة الى المسرح، وفعلا ظهرت أمامه بعض الإمكانات لتحقيق رغبته في السنوات الأخيرة من حياته فعهد إليه ببعض المهام. ولكن الأهم من ذلك هو أنه تمكن من جذب الشباب الفلورنسي إليه بعد أن سمح له بالإشتراك في الحلقات السياسية العامة التي كانت تعقد في مدينة فلورنسة.

توقف القلب الكبير عن الخفقان في ٢١ حزيران ١٥٢٧ ليدفن في اليوم التالي في قريته سانتا كروس. كان نيكولو في إحتضاره كما كان في حياته. فقبل أن يسلم الروح بلحظات فضل أن يكون في الجحيم مع المفكرين ليناقشهم في السياسة على أن يكون في الفردوس مع الجهلاء[5]. ولكن لم يعلم مكيافيللي وما كان أن يتوقع أن يظل في هذه الحياة يناقش السياسة ويرسم خطوطها من خلال الآراء الواقعية الصريحة التي صاغها بإخلاص.

---

1. F. Chabod, Op. Cit., p. 24.

2. F. Gilbert, Machiavelli and Guiccardini. Politics and History in Sixteenth Century Florence, Princeton, 1965, p. 199.

3. R. Ridolfi, Op. Cit., pp. 165 – 175.

4. "The Prince", p. 15 (the Introduction)

5. . R. Ridolfi, Op. Cit., pp. 249 – 250

الموضوع الثاني

آراء مكيافيللي السياسية

يمكن الوقوف على آراء مكيافيللي السياسية من خلال دراسة ثلاثة من أهم مؤلفاته الأربعين - ((الأمير)) و ((المطارحات)) و ((فن الحرب)) مع مجموعة رسائله التي بعثها الى أقرب أصدقائه في ظروف متباينة. يعتبر ((الأمير)) من أصغر مؤلفات مكيافيللي حجما وأكثرها شهرة[1]. ومع أن مؤلفاته الأخرى لا تقل خطورة عن ((الأمير)) إلا أن المرء عندما يقرأه يشعر حقا أن السنين الخمس عشرة التي كرسها مكيافيللي ((لإدارة قضايا الحكم لم تذهب سدى)) كما يقول ذلك بنفسه[2].

بدأ تداول هذا الكتاب بشكل مخطوط في حياته على نطاق واسع، وقد طبع لأول مرة في العام ١٥٣٢، أي بعد وفاة صاحبه بخمس سنوات. وسرعان ما ترجم الى جميع اللغات الأوروبية ومن ثم الأخرى وأعيد طبعه عشرات المرات، بل وأكثر. وحظي بدراسة المئات من المفكرين والساسة والمؤلفين، وهو اليوم يدخل ضمن مواد التدريس في العديد من المؤسسات الأكاديمية المعروفة، منها جامعة أكسفورد والجامعة الأمريكية ببيروت وغيرهما. وقد دفع كل ذلك بالمختصين الى إعتبار ((الأمير)) ((نتاجا خالدا عن حق)) من بين نتاجات النهضة الإيطالية المعطاة.

إعتبر مكيافيللي في البداية، الجمهورية نظاما أمثل للحكم. لكن بعد تحليله للأوضاع القائمة في إيطاليا التي كانت في عهده مقسمة على خمس دول هي مملكة نابولي في الجنوب ودوقية ميلان في الشمال الغربي وجمهورية البندقية الأرستقراطية في الشمال الشرقي وجمهورية فلورنسة والدولة البابوية في الوسط والتي كانت علاقاتها تتسم بإستفحال الحروب والخلافات فيما بينها ما جعل كل الوطن هدفا سهلا للغزو الأجنبي المستمر، توصل مكيافيللي في ((الأمير)) الى الإستنتاج بأن خير نظام يمكنه تحقيق وحدة إيطاليا والذود عنها هو ذلك النظام الذي يستند الى سلطة مركزية

---

[1]. إعتمدنا على التراجم العربية والروسية والإنكليزية لكتاب الأمير.

[2]. راجع: ألين فيدرين، مكيافيللي، ترجمة أميرة الزين، بيروت، بلا، ص ٣٢ - ٣٣

[3]. R. Palmer and J. Colton, A History of the Modern World, third edition, New York, 1965, P. 55.

دكتاتورية مطلقة قوية لا تقف في سبيلها الإعتبارات الدينية والأخلاقية. فإن مصالح الدولة العليا، وبوجه خاص وحدة البلاد، تبرر، رأيه لجوء الأمير الى جميع السبل كإستخدام القوة التي تشكل - كما كان يؤكد - أساس الحق، والقسوة والإغتيال وخيانة العهد والقسم والتوسل بالتضليل والرشوة والركون الى الخديعة والكذب والنفاق، أي أن الغايات السامية تبرر الوسائل أيا كانت. وهو كان ينصح الأمير بألا يخجل في إختيار أي أسلوب مهما تدنى لتحقيق أهدافه وطموحاته السياسية. فالحاكم الناجح هو الذي يلجأ الى الأساليب الإنسانية والحيوانية حسب الظروف والحاجة ويعرف كيف يجمع بين خدع الثعالب وفورات الأسود لأن المحك والأساس لتقييم السياسة هو النجاح. وبالإستناد الى ذلك بشكل مجرد وبفضل إنتقاء الحكام من أفكار مكيافيللي ما كان يناسبهم حسب طريقة ((ولا تقربوا الصلاة)) ظهر فيما بعد مصطلحا ((المكيافيللية)) و ((المكيافيللي))، وتطلق الأولى عادة على السياسة التي لا تعير القيم الأخلاقية أي إعتبار ويطلق الثاني على الشخص الذي يتبنى مثل تلك السياسة.

ولكن ذلك لا يعدو كونه ذروة المكيافيلية بصورتها المشوهة. فإن الرجل لم يطلق آراءه الخطيرة تلك دون ضوابط أخلاقية رفيعة أو تفسيرات منطقية تبين الأمور على حقيقتها وتضع السياسة في إطارها الواقعي زمانا ومكانا. فالخير، كل الخير للأمير في أن يتظاهر ((بالرحمة وحفظ الوعد والشعور الإنساني النبيل والإخلاص والتدين)) وأن يكون ((فعلا متصفا بها)) ولكن عليه أن يعد نفسه ((عندما تقضي الضرورة)) ليكون ((متصنعا بعكسها))، لذا فإن من واجب الأمير ((أن يجعل عقله مستعدا للتكيف مع الرياح، ووفقا لما تمليه إختلافات الجدود والحظوظ وأن لا يتنكر لما هو خير، كما قلت، إذا أمكنه ذلك، شريطة أن ينزل الإساءة والشر، إذا ما إضطر الى ذلك وضويق)) (الأمير – الباب الثامن عشر). والواقع أن التاريخ لم يعطنا مثلا واحدا لم ينزل فيه الأمير، وحتى غير الأمير، ((الإساءة والشر، إذا ما أضطر الى ذلك وضويق))، فهذه حقيقة تكاد تكون سمة ملازمة لطبائع الناس شئنا أم أبينا، إعترفنا أم بررنا. فلا تكمن الخطورة إذن، في هذا الجانب من آراء مكيافيللي الذي رأى مثل غيره ولكنه لم يسكت، على العكس من غيره. إنما تكمن المأساة في أن القيم والضوابط التي أراد مكيافيللي أن يتصف بها الأمير في الظروف الإعتيادية – ((الرحمة وحفظ الوعد

والشعور الإنساني النبيل والإخلاص والتدين)) - أندر في بطون التاريخ من الماء في الصحراء. فلو عمل كل أمير بآراء مكياڤيللي لتقلصت الصفحات السود في سجل التاريخ الى حد كبير.

والآن لنمض مع مكياڤيللي في كتابه ((الأمير)) ولنر ما يضع لأميره الجديد من خطوط ودروس. فعلى الأمير ((أن يكون حريصا، على أن لا يفضح نفسه بأقواله)) وعليه أن يجعل الناس ((يرون فيه، ويسمعون منه الرحمة مجسدة، والوفاء للعهود والنبل والإنسانية والتدين)) (الأمير – الباب الثامن عشر). وعليه أن يتجنب ((كل ما يؤدي الى تعرضه للإحتقار والكراهية))، وهو يتعرض للكراهية ((إذا أصبح سلابا نهابا، يغتصب ممتلكات رعاياه ونساءهم، وهو ما عليه تجنبه)). وقد يعتبر الأمير ((دنيئا حقيرا إذا رأى الناس فيه تقلبه، وتفاهته، وتخنثه، وجبنه، وإستخذاءه، وهي أمور يجب أن يقي الأمير نفسه منها، على إعتبار أنها الصخرة التي تمثل الخطر، وأن يدبر أمره، بحيث تبدو من أعماله مخائل العظمة والحيوية، والرصانة والجدل)). أما بالنسبة الى حكم رعاياه فعلى الأمير ((أن تكون أحكامه مبرمة لا تقبل النقض، وأن يتمسك بقراراته، فلا يسمح لإنسان بخديعته أو الإحتيال عليه)) (الأمير –الباب التاسع عشر).

وقد إستهدف مكياڤيللي من هذه الشروط أن يكون الشعب راضيا عن الأمير، ورأى في هذا شرطا أساسا من شروط الحكم الراسخ الناجح. فإن رضا الشعب ((من أهم المواضيع الذي يتحتم على الأمير العناية به))، ذلك لأن على الأمير ((أن لا يخشى كثيرا من المؤامرات إذا كان الشعب راضيا عنه، أما إذا كان مكروها، ويحس بعداء الشعب له، فإن عليه أن يخشى من كل إنسان ومن كل شئ))، فالقلاع ((مهما حصنت)) لا تحمي الأمير فيما لو غض الطرف عن ((كراهية شعبه[1] أو حبه)) (الأمير – الباب التاسع عشر والباب العشرون). وأفضل للأمير أن يصل دست الحكم بمساندة الشعب من مساعدة النبلاء (الأمير - الباب التاسع). والأمير الذي لا يستطيع كسب شعبه الى جانبه ((بواسطة المشاريع النافعة له)) فإنه ((يضطر الى الوقوف دائما

---

[1]. ذكر مكياڤيللي قوله الشهير هذا تعليقا على هجوم الفرنسيين على إيطاليا وتقدمهم السريع فيها في العام ١٤٩٩ (راجع: تاريخ إيطاليا، باللغة الروسية، الجزء الأول، تحت إشراف الأكاديمي س. د. سكازكينه، موسكو ١٩٧٠، ص ٤٥٥).

وسيفه في يده)) (الأمير - الباب الثامن). ومن الضروري جدا أن يكون الأمير مثقفا، فعليه ((أن يقرأ التاريخ وأن يدرس أعمال الرجال البارزين، فيرى أسلوبهم في الحروب، ويتفحص أسباب إنتصاراتهم التي أدت الى الهزائم)) (الأمير - الباب الرابع عشر).

أراد مكيافيللي من الأمير الجديد أن يقيم جهازا متكاملا للإدارة، يعهد بشؤونه الى أناس قديرين لا شائبة فيهم، فيضع الرجل المناسب في المكان المناسب. وعليه أن ((يظهر نفسه دائما ميالا الى ذوي الكفاءة والجدارة وأن يفضل المقتدرين، ويكرم النابغين في كل فن)) (الأمير - الباب الواحد والعشرون). وهذه المسألة خطيرة في بابها لأن ((الإنطباع الأول الذي يتولد لدى الإنسان عن الأمير وعن تفكيره، يكون في رؤية أولئك الذين يحيطون به. فعندما يكونون من الأكفاء والمخلصين، يتأكد الإنسان من حكمة الأمير، لأنه إستطاع تمييز هذه الكفاءة والإحتفاظ بهذا الإخلاص)). ويجب ألا يكون هؤلاء من المتزلفين والمتملقين والمنافقين المداهنين ((الذين تغص بهم بلاطات الملوك والأمراء))(الأمير - البابان الثاني والعشرون والثالث والعشرون). ولكن على هؤلاء أن يعلموا جيدا ويدركون بأن وزنهم إنما يعتمد على الموقف الذي يتبناه الأمير في ضوء إخلاصهم وتفانيهم له ولنظامه. وعلى الأمير ((لكي يحتفظ بولاء وزيره وإخلاصه، أن يفكر به، وأن يغدق عليه المال ومظاهر التكريم، مبديا له العطف، مانحا

إياه الشرف، وعاهدا إليه بالمناصب ذات المسؤولية، بحيث تكون هذه الأموال ومظاهر التكريم، المغدقة عليه كافية، تحول دون أن يطمع بثروات أو ألقاب جديدة، وبحيث تكون المناصب التي يشغلها مهمة الى الحد الذي يخشى عنده على ضياعها))(الأمير - الباب الثاني والعشرون).

ومن المنطلق نفسه يجب على الأمير أن ((يختار لمجلسه حكماء الرجال، ويسمح لهؤلاء وحدهم بالحرية بالحديث إليه ومجابهته بالحقائق، على أن تقتصر هذه الحرية على المواضيع التي يسألهم عنها، ولا تتعداها. ولكن عليه أن يسألهم عن كل شئ وأن يستمع الى آرائهم في كل شئ، وأن يفكر في الموضوع بعد ذلك بطريقته الخاصة. وعليه أن يتصرف في هذه المجالس، ومع كل من مستشاريه، بشكل

يجعل كل واحد منهم واثقا من أنه كلما تكلم بصراحة وإخلاص، كان الأمير راضيا عنه. وعليه بعد ذلك أن لا يستمع الى أي إنسان، بل يدرس الموضوع بنفسه في ضوء آراء مستشاريه، ويتخذ قراراته التي لا يتراجع عنها)). ولا بد للأمير الحديث ((أن يقبل النصيحة دائما. ولكن عندما يريد هو، لا عندما يريد الآخرون، بل عليه أن لا يشجع مطلقا المحاولات لإسداء النصيحة إليه، إلا إذا طلبها. ولكن عليه أن يكثر من سؤالها وأن يحسن الإصغاء الى الحقائق التي تسرد عليه عندما يسأل عنها)) (الأمير - الباب الثالث والعشرون). ومع ذلك ((عليه أن يكون حذرا في تصديق ما يقال له، وفي العمل أيضا، دون أن يخشى ظله)).

وعلى الأمير أن يضع لكل شئ ضوابط ثابتة مع مراعاة الحاجات والظروف دائما. فللسخاء والبخل حدودهما، وللطيبة مداها الذي يجب أن ينتهي قطعا عند الإصطدام بمصالح الدولة. فمن الضروري ((لكل أمير يرغب في الحفاظ على نفسه أن يتعلم كيف يبتعد عن الطيبة والخير، وأن يستخدم هذه المعرفة أو لا يستخدمها، وفقا لضرورات الحالات التي يواجهها)) (الأمير - الباب الخامس عشر). ولكن عليه أن يحاول حصر هذا الإبتعاد الإضطراري الى أقصى حد وينتهي مع ((ضمان الإستقرار والأمن))، بل يستبدل في الحال ((بتدابير نافعة للرعايا الى أقصى حد ممكن))(الأمير - الباب الثامن).

كرر مكياڤيللي الأفكار نفسها بعمق أكبر في كتابه الآخر ((المطارحات)) الذي قضى حوالي خمسة أعوام في تأليفه جامعا فيه آراءه في السياسة وأصول الحكم والأخلاق والعلاقات الدولية وغيرها مستندا في تقييماته الى تجارب روما القديمة. وأهم مايستخلصه قارئ ((المطارحات))[1] هو أن الفضيلة المثلى لكل مواطن تقاس بمدى تكريس ذاته لخدمة الصالح العام. ويحس المرء في ((المطارحات))، كما في ((الأمير))، بجدية مكياڤيللي في البحث عن النظام الأمثل الذي كان يحلم بإقامته في إيطاليا. فلا ريب في ((أنها حكومة سعيدة تلك الحكومة الشعبية التي تخرج رجلا

---

[1]. إعتمدت بالأساس على الترجمة العربية لهذا الكتاب (راجع: ((مطارحات مكياڤيللي)) تعريب خيري حماد، بيروت، ١٩٦٢).

حكيما يستطيع الناس الحياة بأمن ودعة في ظل القوانين التي يضعها لها والتي لا يضطرون الى تقويمها))(المطارحات، الكتاب الأول- ٢) ومرة أخرى نرى الأمير الأنموذج في ((المطارحات)) هو ذلك الذي ((يجعل من الشعب كله صديقا له)) (المطارحات، الكتاب الأول- ٤٠). بل إن مكياڤيللي يذهب هنا الى مدى أبعد مما جاء في ((الأمير)) بصدد موقع الشعب من السلطة. ((فإن الرجل العاقل لا يتجاهل الرأي العام بالنسبة الى المسائل المعينة والجزئية، كمسألة توزيع المناصب والأفضليات والترقيات، إذ أن الشعب هنا، عندما يترك الى نفسه، لا يخطئ أبدا، وإذا ما أخطأ أحيانا، تكون أخطاؤه نادرة إذا ما قورنت بالأخطاء التي ستقع حتما لو أن القلة هي التي قامت بمثل هذا التوزيع)) (المطارحات، الكتاب الأول- ٤٧).

وفي ((المطارحات)) يشدد مكياڤيللي من جديد على ضرورة وضع الرجل المناسب في المكان المناسب والإستفادة الى أقصى حد من الكفاءات والعبقريات الشابة ((فعندما يتميز شاب بالفضيلة التي رافقت عملا عظيما من أعماله، يغدو موضع حديث الجميع، فإن من العار كل العار أن لا تنتفع الدولة من خدماته، وأن يضطر هذا الشاب الى الإنتظار حتى يكبر سنه، في غضون ذلك قد فقد ما يميزه من نشاط عقلي ومن سرعة في العمل، كان في وسع بلاده أن تستغلهما في الوقت المناسب إستغلالا نافعا)) (المطارحات، الكتاب الأول – ٦٠).

من المواضيع المهمة الأخرى التي أولاها مكياڤيللي جانبا كبيرا من إهتمامه وعالجها بأسلوب جديد سواء في ((الأمير)) أو ((المطارحات)) وأفرد لها أحد مؤلفاته ((فن الحرب))[1]- مسألة الجيش الوطني الذي رأى فيه من أهم وسائل تحقيق الوحدة الإيطالية. وقد وضع مكياڤيللي في وقت مبكر اليد على نواقص الجيوش الأوروبية، ولا سيما إعتمادها على القوات المرتزقة التي ((لا تعرف النظام، ولا تحفظ العهود والمواثيق، تتظاهر بالشجاعة أمام الأصدقاء وتتصف بالجبن أمام الأعداء، لا تخاف الله، ولا تراعى الذمم مع الناس. والأمير الذي يعتمد على مثل هذه القوات، قد يؤجل دماره المحتوم)). هنا كان جرح مكياڤيللي عميقا، فلم يحتج الى سرد الأمثال

[1]. هو العمل الوحيد الذي نشر في حياته في العام ١٥٢١.

((إذ أن ما لحق بإيطاليا من دمار.. نجم عن شئ واحد هو إعتمادها لسنوات طوال على جيوش المرتزقة)) (الأمير - الباب الثاني عشر).

وعندما كان الناس يعرضون أنفسهم في سوق الإرتزاق، وعندما كانت الحروب الأوروبية الكبرى تعتمد بالأساس على الجنود المرتزقة، بما فيها حرب الثلاثين عاما التي إندلعت بعد موت مكيافيللي بحوالي قرن من الزمان، إرتفع صوت مخلص من فلورنسة ليؤكد((أن كل مواطن يزاول مهنة الحرب لهدف خارجي، لا يكون مواطنا صالحا، إذ إن عليه أن يخدم بلاده لأنها في حاجة إليه وأن يحارب في سبيل المجد)).

يجب تقييم هذه الكلمات المخلصة في إطار زمانها ومكانها، وهي لم تكن وليدة فكر عبقري فحسب، بل جاءت كذلك حصيلة تجارب عملية ومراقبة دقيقة للأحداث سواء في إيطاليا أو أوروبا أو في المناطق الأخرى. فإنه درس الجيوش الأوروبية والجيش العثماني ووضع اليد على مكامن الضعف في الأولى وعوامل القوة في الثاني. وإستطاع مكيافيللي إقناع مجلس العشرة أيام الجمهورية بأن أية دولة لا يمكن أن تكون أمينة على نفسها وحدودها إلا إذا كانت لها قواتها الخاصة بها. وعلى هذا الأساس وافق المجلس على تجنيد جميع المواطنين القادرين على حمل السلاح في فلورنسة، مما كان يشكل خطوة رائدة على الصعيد الإيطالي بشكل خاص.

كان إهتمام مكيافيللي النظري والعملي الواسع بقضايا الجيش والحرب نابعا من حلمه الرفيع في أن يرى الطليان ((يحاربون في صفوف جيوش المدن بدافع الأهداف الوطنية ويرفعون كرامتهم عاليا أمام أوروبا))[1]، ويعيدون أمجاد روما القديمة بجدارة.

إستنبط مكيافيللي في معالجته لهذه القضايا، ولغيرها - نعود إليها فيما بعد -، الكثير من دروس التاريخ وإستخلص الكثير من عبرها وحكمها، ودمج كل ذلك بما راقب في الحياة وما مارس فيها من مهام بعقل عبقري وفكر ثاقب. فهو لا يعطي رأيا دون أن يسنده بشاهد تاريخي أو أكثر، وهو قلما يعمم التجارب والإستنتاجات أو يعطي الإرشاد دون إستشهاد بالأحداث التي تؤيد صحته، ومن هنا جاءت مؤلفاته طافحة بالأمثلة التاريخية المختلفة الى درجة يصعب أن نجد لها مثيلا بين مؤلفات المفكرين الآخرين. وقد أثار في معالجاته أسئلة مهمة أهملت منذ عهد أرسطو يمكن

---

[1] . R. Palmer and J. Colton, Op. Cit., p. 55.

تلخيصها في البحث عن العوامل التي تهئ للدول ظروف الإستمرار وللحكومات قوة البقاء والنماء في ظل نظام مستقر آمن. وهو بذلك قد خرج على الفكر السياسي التقليدي الأوروبي، فتكلم عن المجتمع والدولة بأسلوب يختلف الى حد كبير وبشكل جذري عن كبار كتاب العصر الوسيط، بل وحتى عن كبار كتاب القرنين السادس عشر والسابع عشر من قبيل هوبس وهوكر ولوك وغيرهم الذين لم يتجردوا كليا من التفسير اللاهوتي لمظاهر الدولة والسياسة[١]. كان مكياڤيللي يستهدف من كل ما كتب وقال بلوغ أنبل هدف هو إنقاذ الوطن من مشاكله العويصة وتحقيق وحدته التي لم يدرك أحد كنهها ونتائجها الكبيرة مثله يومذاك. فمما لا شك فيه أن أحدا لم يعرف إيطاليا ويفهمها كما عرفها وفهمها نيكولو[٢]. إنه كتب لإيطاليا ممزقة، لإيطاليا تحولت الى حقل تجربة للغزاة الأجانب، لإيطاليا بدأت تعيش التدهور والإنحلال بعد أن كانت أنموذج الإزدهار والتقدم في كل القارة الأوروبية[٣]. وقد ذهب نيكولو الى هدف أبعد حتى من ذلك. فإنه لم يفكر ويكتب من أجل إنقاذ إيطاليا من الفوضى وآثارها وفي سبيل وضع حد لتمزقها وتحقيق وحدتها فحسب، بل إنه فكر بإيطاليا كقوة عظيمة مؤثرة على صعيد كل القارة. وإن مثل هذا التوجه الذي كان يعني القليل بالنسبة لأوروبا العصر الوسيط قد غدا يسيطر بالتدريج على عقول الناس. ويكفي مكياڤيللي فخرا أنه كان المعبر العظيم الأول عن مثل تلك الطموحات المشروعة.

لا شك في أن أي هدف سياسي آخر لا يبلغ في سموه مقام ما وضعه مكياڤيللي نصب عينيه من هدف في ظروف إيطاليا التاريخية آنذاك، ولكن مع ذلك فإن سمعته قد شوهت أكثر من أي شخص آخر عبر التاريخ بحيث غدا إسمه يحتل أبرز مكان بين الشياطين والمجرمين العتاة. وهذا موضوع يستحق وقفة تأمل خاصة.

---

1. . J. Plamenatz, Mon and Society. A critical examination of some important Social and Political Theories, From Machiavelli to Marx, vol. 1, tenth impression, London, 1977, pp. 1, 7.

2. G. H. Sabire, A history of Political Theory.New York, 1960, p. 335.

٣. تطور الإقتصاد الإيطالي في أواخر العصر الوسيط بوتائر أسرع من الأقطار الأوروبية الأخرى وذلك بفضل تجارتها المزدهرة مع الشرق وتقدم إنتاجها الحرفي، بحيث شهدت إيطاليا ميلاد البوادر الأولى للعلاقات والإنتاج الرأسمالي والفئات والطبقات الإجتماعية الجديدة في كل العالم.

الموضوع الثالث

لماذا وكيف شوهت سمعة مكياڤيللي؟

نجم تشويه سمعة مكياڤيللي عن عوامل ومنطلقات متباينة نحاول حصرها ملخصة في النقاط الرئيسة التالية:

١. الحسد

كان لنيكولو، كمفكر عظيم، العديد من الحساد الذين حاولوا النيل منه بأحط الأساليب وأشدها مكرا تطرقنا الى جوانب منها في مستهل بحثنا. كان هؤلاء يختلقون الثغرات للنفوذ من خلالها الى هدفهم غير النبيل. وهو، مع ذلك، لم يساوم ضعاف النفوس، بل ظل ينظر إليهم من فوق برج أفكاره وثقته الكبيرة بنفسه فيراهم أقزاما تحت قدميه لا يستحقون سوى الإشفاق لما في نفوسهم من مرض متأصل. وظل، مع كل سوءات هؤلاء، يحفظ في قلبه الكبير ما كان يعرفه من أدق أسرارهم ونقاط ضعفهم، بل كان يحاول أن يسدي لهم الخدمات كلما وجد الى ذلك سبيلا.

والغريب أن نيكولو لم ينج حتى من بعض الطعنات الخفيفة من أقرب أصدقائه الحميمين. فإن گويجارديني الذي كان - حسب وصف أحد المؤرخين - ((مكياڤيلليا في حياته أكثر من مكياڤيللي))[1] ينتقد ما سماه بقسوة مكياڤيللي في بعض آرائه مع أن هناك تطابقا كبيرا بين أفكار مؤرخي عصر النهضة مكياڤيللي وگويجارديني، وفي كل إختلاف بينهما يميل الميزان الى جانب الأول بشكل ملموس. ففي رأي گويجارديني أن مكياڤيللي أخطأ عندما إعتقد بأن جميع مآسي إيطاليا السياسية وليدة إنقسامها لأن ذلك الإنقسام، كما يرى هو، أدى الى أن تظهر في إيطاليا ((كل هذه المدن المزدهرة التي ما كان في الإمكان أن يوجد مثلها في دولة موحدة))، لذا فإن وجود ((نظام ملكي موحد كان يتحول الى سبب لبؤس إيطاليا أكثر من رخائها))[٢].

---

[1]. H. Butterfield, Op. Cit., pp. 114-115.

[٢]. للتفصيل راجع: و. ل. فاينشتين، علم التاريخ الأوروبي الغربي في العصر الوسيط، باللغة الروسية، موسكو – لينينغراد، ١٩٦٤، ص ٢٨٦.

أما صديقه الآخر فرانسيسكو ڤيتوري فإنه كان في وسعه أن يسدي لنيكولو خدمات أكثر مما فعل، وذلك لما كان يتمتع به من موقع دبلوماسي مرموق في روما حيث النشاط السياسي والديني الواسع كمركز للبابوية والكنيسة الكاثوليكية، بينما أن الخدمات التي قدمها ڤيتوري الى صاحبه مكياڤيللي كانت محدودة لا تتناسب مع نفوذه الكبير.

٢. الكنيسة:

كان لموقف الكنيسة التأثير الأكبر في تشويه سمعة مكياڤيللي. ولكي نفهم أبعاد هذا الموقف بشكل أوضح يجدر بنا أن نتطرق أولا الى موقف مكياڤيللي من الكنيسة وكل النظام الإقطاعي السائد بشكل عام. ومع أنه ركز على الكنيسة أكثر، إلا أنه تناول في الوقت نفسه جوانب معينة من المجتمع الإقطاعي الذي هبط في عهده الى أحط درك له فتحول الى عائق رئيس أمام التطور الطبيعي للمجتمعات الأوروبية. وقد حلل مكياڤيللي هذا الواقع بأسلوب عبقري متوافق كليا مع طبيعة المرحلة التاريخية التي كانت تتطلب من الناحية السياسية إقامة أنظمة حكم مطلق من شأنها وضع نهاية للتسيب الإقطاعي السائد. وهنا نكتفي بإيراد مثل معبر واحد من ((المطارحات)). فقد ذكر في القسم الخامس والخمسين من الكتاب الأول ما نصه:

((إنني أسمي نبيلا كل الذين يعيشون في البطالة، ومما تعطيهم أراضيهم دون أن يأتوا الزراعة أو أي عمل آخر. ومثل هؤلاء الناس وباء في كل مدينة، ولعل الأسوأ منهم هم أولئك الذين يملكون بالإضافة الى إقطاعياتهم قلاعا تحت تصرفهم، وأتباعا يخضعون لهم. وهناك الكثيرون من أفراد هاتين الفئتين من الناس في مملكة نابولي، وفي الممتلكات البابوية وفي رومانا ولومبارديا - ولا ريب في أن هذا هو السبب الذي حال دون ظهور أية جمهورية أو حياة سياسية في هذه المناطق، فإن الذين يولدون في مثل هذه الأوضاع يكونون شديدي العداء لأي شكل من أشكال الحكم المدني الحر. ولا يمكن لأية محاولة لإقامة جمهورية أن تكلل بالنجاح في مقاطعات منظمة على هذا النحو. وإذا ما رغب إنسان في إعادة تنظيمها، فإن السبيل الوحيد أمامه هو أن يقيم فيها نظاما ملكيا. والسبب في ذلك هو أنه عندما يكون الجوهر على هذا النحو

من الفساد فإن القوانين لا تكفي للحفاظ عليه وإستبقائه، ومن الضروري أن تكون هناك بالإضافة الى القوانين قوة عليا، كتلك التي تكون للملك عادة، تملك من السلطان المطلق والطاغي ما يمكنها من وقف أي تطرف أو مغالاة ينبعان من الطموح، ومن الإجراءات الفاسدة لذوي الحول والطول)).

وقف مكيافيللي بشدة ضد تعاليم الكنيسة الكاثوليكية التي إعتبرها عبئا يحول دون الإبداع النشط للإنسان. ولم يكن ذلك سوى تعبير أمين عن روح العصر ومهماته التقى في خطوطه الأساسية مع آراء أبرز مفكري أوروبا يومذاك، بما فيهم أشد الناس حرصا على المسيحية ووحدة الكنيسة من قبيل إرازمس الروتردامي وتوماس مور[1]، بل مع آراء زعماء حركة الإصلاح الديني التي إنفجرت بقوة في ألمانيا المجاورة قبل موت مكيافيللي بحوالي عقد واحد من الزمان فقط. ولكن جاء تعبير مكيافيللي في هذا الصدد أقوى من غيره وأمر. فهل من قول أبلغ، وهل من خيبة أعمق من هذا الذي قاله نيكولو بتهكم لا يخلو من ألم عميق؟!

((إن أول ما ندين به نحن الإيطاليين للكنيسة ورجالها، هو أننا صرنا ملحدين ومنحرفين)) (المطارحات، الكتاب الأول - ١٢)، وهو نفس ما كان يؤكد عليه زعيم حركة الإصلاح الديني مارتن لوثر. إن مكيافيللي الذي وضع وحدة إيطاليا فوق أي إعتبار ما كان يستطيع أن لا يعطي رأيه صريحا في موقف الكنيسة السلبي بهذا الشأن. فلنستمع الى ما يقوله حول هذا الموضوع الحساس بإنتباه: ((إننا ندين للكنيسة ورجالها بشئ أعظم، ولعله هو السبب الثاني فيما ألحق بنا من خراب فالكنيسة هي التي جزأت إيطاليا ومازالت تحافظ على تجزئتها. ومن الحق أن يقال، أن أي بلاد لا تشعر بنعمة الوحدة وبالسعادة، إلا إذا كانت كلها تحت سيطرة حكم جمهوري واحد أو أمير، كما هي الحالة في فرنسا وإسبانيا. ولا ريب في أن السبب في عدم وجود مثل هذا الوضع، أي الجمهورية الواحدة أو الإمارة الواحدة في إيطاليا كلها، يعود حتما وإطلاقا للكنيسة. إذ على الرغم من وجود مقر للكنيسة في إيطاليا، ومن وجود سلطانها

---

[1]. لم يقتصر التشابه بين مكيافيللي وهؤلاء، وغيرهم من أعلام النهضة، على الموقف تجاه الكنيسة. فإن صياغة مكيافيللي لطبيعة الدولة لا تختلف إلا جزئيا عن صياغات إرازمس ومور وكلود دي سيسيل وغيرهم (للتفصيل راجع: "Action and Conviction in Medern", pp. 26 - 30)

الدنيوي فيها، فإن سلطانها هذا أو فضيلتها لم يكونا في يوم ما من القوة بحيث يمكنانها من إخضاع الطغاة الإيطاليين لحكمها، ومن إعلان نفسها أميرة عليهم جميعا، كما أنها لم تكن من الناحية الأخرى في يوم من الأيام على ذلك النحو من الضعف الذي لا يمكنها عندما تخشى ضياع سيطرتها على الأمور الدنيوية، من دعوة إحدى الدول الأجنبية للدفاع عنها ضد تلك الدولة الإيطالية التي غدت قوية أكثر مما تريد هي لها .. وهكذا فإن الكنيسة كانت السبب في الحيلولة دون وجود إيطاليا تحت حكم رأس واحد، وجعلها موزعة بين عدد من الأمراء والسادة الذين جاؤا لها بالفرقة والضعف حتى إنها غدت فريسة لا للأقوياء من البرابرة[1] فحسب بل لكل من يهاجمها. وعلّينا نحن الإيطاليين أن نشكر الكنيسة، دون غيرها، على هذا الوضع السئ)) (المطارحات، الكتاب الأول- ١٢).

إذن إن السبب الأساس لمعاداة مكيافيللي للكنيسة الكاثوليكية يكمن في تحول هذه الأخيرة الى حجر عثرة أمام تحقيق حلمه الأكبر في أن يرى الوطن موحدا، معززا، مكرما. فإن البابوات، حسب تحليله الصحيح، كانوا أضعف من أن يحققوا الوحدة الإيطالية من جانب، وكانوا لا يرغبون في أن يقوم أحد غيرهم بذلك من جانب آخر. ولكي نفهم مدى عمق هذا التحليل المكيافيللي علينا أن نتذكر موقف الكنيسة إزاء قضية الوحدة الإيطالية على مدى أربعة قرون أتبعت القنبلة التي فجرها مكيافيللي بكل جرأة وصراحة دون أن يلجأ الى الخيال والعالم الثاني كما فعل دانتي[2] أو يعرض أفكاره على لسان الأقدمين كما فعل بترارك[3]. فإن البابوية ظلت تعارض الوحدة الإيطالية بكل ما توفر لديها من أسباب. وعندما تحقق حلم الطليان الأكبر في العام ١٨٧٠ رفض البابا الإعتراف بحكومة إيطاليا الموحدة وعارض بشدة إنضمام روما إليها وإعتبر نفسه ((سجين الفاتيكان)) وظل هكذا لغاية العام ١٩٢٩ عندما تم الإتفاق بين موسوليني والبابا بموجب معاهدة خاصة أقر الأول فيها إستقلال الفاتيكان وإعترف الثاني بإيطاليا موحدة.

---

[1]. كان الإيطاليون يطلقون على غيرهم من الشعوب الأوروبية إسم البربر كناية عن تخلفهم بالقياس معهم.

[2]. في ((الكوميديا الإلهية)).

[3]. في كتاباته كان بترارك يستعين في أحيان كثيرة بأقوال الأقدمين من أمثال شيشرون وغيره.

وما يجدر بالذكر هنا أن مكياڤيللي وقف بفكره الثاقب عن كثب على مساوئ الكنيسة وما كان يتخبط فيه رجالها. فقد أوفد أيام الجمهورية ببعثتين الى روما إطلع خلالهما على أسلوب حياة الأكليروس والرشوة السائدة بينهم فإقتنع أكثر بفساد الجهاز الكنسي وإبتعاده الكلي عن الروح الأصيلة للديانة المسيحية.

جاء رد الفعل البابوي على موقف مكياڤيللي قويا وقاسيا في آن واحد. ففي العام ١٥٥٧ قام الجزويت[1]، المتعصبون للكنيسة الكاثوليكية، بحرق جميع مؤلفات مكياڤيللي. وفي الحال قررت محاكم التفتيش حرمان تداول تلك المؤلفات التي أدخل جميعها في قائمة الكتب الممنوعة وأقر مجلس ترانت الكنسي ذلك. وفي العام ١٥٥٩ أصدرت الكنيسة قرارا يقضي بحرق نموذج ((effigie)) مكياڤيللي علنا، بينما طبعت روما مؤلفاته وعرضت مسرحياته الكوميدية بحضور البابا نفسه قبل ذلك بحوالي ربع قرن فقط[2]. كما أن كتابه الشامل ((تاريخ فلورنسة)) الذي يقع في ثمانية مجلدات وكرس في الواقع لمجمل تاريخ إيطاليا السياسي ويعتبر بحكم تعمقه في تقييم الأحداث التاريخية ومن حيث أسلوبه الدرامي وقوة لغته ((واحدا من أعظم مكاسب الدراسات التاريخية الحديثة))[3]، والذي لم يفقد أهميته حتى يومنا هذا، كان مكياڤيللي قد ألفه بناء على طلب شخصي من البابا كليمنت السابع وقدمه إليه بنفسه. بعد ذلك بدأت حملة إعلامية منظمة ضد مكياڤيللي تصدرها المؤلفون والمؤرخون الجزويت المتعصبون. وقد وضع هؤلاء جانبا المئات من نقاط القوة في مؤلّفات وآراء ومواقف مكياڤيللي وبدأوا يتمسكون بالبعض من أفكاره وأعماله بشكل مجرد فيرسمون صورة مزيفة لا تنطبق على واقع الرجل مهما حاولوا وتفننوا. فإنهم أخذوا عليه، مثلا، إهدءه لكتابه ((الأمير)) الى جوليانو (فيما بعد لورينزو) ميديتشي، وإعتبروا ذلك بمثابة محاولة لتضليل أسرة ميديتشي إثر عودتها للحكم[4].

---

[1]. الآباء اليسوعيون.

[2]. W. Lewis, the Lion and the Fox, the Role of the Hero in the Plays of Shakespeare, London, 1966, p. 69; و. ل. فاينشتين، المصدر السابق، ص ٢٧٩.

[3]. و. ل. فاينشتين، المصدر السابق، ص ٢٧٩.

[4]. H. Butterfield, Op. Cit., p. 97.

ويوجد مؤلفون معاصرون يقيمون موضوع الإهداء من نفس الزاوية الجزويتية[1]. في الواقع لا ينكر أن مكيافيللي كان يرغب في العودة الى المسرح ويبحث عن عمل من شأنه أن يخفف من ضائقته المالية، وليس في ذلك أدنى ما يؤخذ عليه. ومن الإجحاف أصلا تجريد نيكولو من دوافعه كإنسان في مجتمع كان لذئاب البشر وثعالبه دورهم الكبير فيه، وكان للموقع والجاه سحرهما في نظر الجميع من خواص وعوام. ولكن المسألة تتحدى هذه الناحية الإنسانية المجردة. فإن لورينزو ميديتشي كان يحمل فعلا من الصفات والإمكانات ما كان بإمكانها أن تجعل منه شخصية بارزة، فهو كان من النوع الذي يستطيع إتخاذ القرارات وحسمها وتبني ما ورد في ((الأمير)) من سياسات كان من شأنها إنقاذ إيطاليا وتحقيق وحدتها[2]، وكان يكفي ذلك بالنسبة لمكيافيللي لكي يرى فيه أميرا أنموذجا.

مع ذلك تبقى نقطتان مهمتان من شأنهما إلقاء ضوء أسطع على هذا الموضوع. فإن نفس مكيافيللي الذي أتهم بالتزلف بسبب إهدائه كتابه ((الأمير)) رفض رفضا قاطعا أن يخدم ((البرابرة الأجانب)) في وقت كان الآخرون يتمسحون بأعتابهم. ولندع الرجل يحدثنا شخصيا عن هذا الأمر الذي أثيرت حوله عاصفة مصطنعة هوجاء إنه وبكل بساطة يقول:((إنني لا أرفض عملا ولا أرد أبدا أيا من أوامر الجمهورية حيثما أستطيع أن أكون مفيدا، وهذا هو ما أفعله إن لم يكن بعلمي فبخطبي، وإن لم يكن بخطبي فبمشاريعي...))[3]. إذن كان نيكولو مستعدا لخدمة بلاده بإخلاص. ولكن ظل مرفوع الرأس حتى في أحرج اللحظات، ولم يرغب أن يعمل إلا ((حيثما يكون مفيدا)). فبعد عشر سنوات من النفي رفض هذا ((المتزلف)) قبول منصب سكرتارية مربح لأحد الكرادلة في روما، بسبب عدم تحمله لمواقف البابوية.

هنا يفرض سؤال منطقي نفسه على المؤرخ بإلحاح: ألم يكن من الأفضل بالنسبة لمكيافيللي المتمكن، لو كان يرغب التودد فعلا، أن يحاول التقرب من الذين

---

[1]. راجع على سبيل المثال: ألين ڤيدين، المصدر السابق، ص٣٢.

[2]. J. Plamenatz, Op. Cit., p. 13; "The Prince"', p. 20 (the Introduction).

[3]. مقتبس من: ف. روتينبورغ، المصدر السابق، ص ١٢٢.

كان مصير كل إيطاليا، لا إيطالي واحد مثله، بين أيديهم، وأقصد بهم الغزاة الأجانب وأصحاب الكلمة في روما الذين صب هو جام غضبه عليهم دون مواربة أو مساومة. ومن المهم أن نلاحظ أن إتخاذ مثل هذا الموقف من جانب المفكرين الطليان لم يكن نادرا في ظروفهم الصعبة للغاية. فإن معاصر مكياڤيللي، مفخرة إيطاليا والإنسانية ليوناردو دافينشي (١٤٥٢ – ١٥١٩) إضطر الى أن يلجأ في أواخر حياته الى الملك الفرنسي فرانسوا الأول وأن يقضي السنوات الخمس الأخيرة من عمره في صحبته وفي قصر مجاور لقصره دون أن يتحول ذلك الى لطخة ولو صغيرة بالنسبة لحياة ذلك العبقري وتأريخه. كما أن المفكر الإشتراكي المثالي الإيطالي كامبانيللا (١٥٦٨ – ١٦٣٩) الذي تحمل تعذيب محاكم التفتيش والسجن على مدى ٣٣ عاما دون أن يساوم، لجأ أخيرا الى ريشيليو الفرنسي وتمتع برعايته. ودون شك كان في وسع مكياڤيللي، لو أراد، أن يفعل مثلما فعلوا وأن ينال أكثر مما نالوا، إلا أنه لم يفعل. فقد رفض هذا ((المتزلف)) بكل إباء العمل في البلاط الفرنسي، ولنستمع مرة أخرى الى ما يقوله بنفسه وبأسلوبه الساحر حول هذا الموضوع: ((أفضل الموت جوعا في فلورنسا على تخمة المعدة في فونتينبلو[1]))[2].

إنتقد المؤلفون الأوائل، ومنهم الجزويت بشكل خاص، مكياڤيللي لإختياره سيزار بورجيا مثلا يحتذى به وذلك في كتابه ((الأمير)). وهنا أيضا لم يأت إختيار مكياڤيللي إعطباتا. فإن سيزار بورجيا إبن للبابا الكسندر السادس المنتمي الى أسرة بورجيا المعروفة[3] وقد زاره مكياڤيللي ثلاث مرات بمهمات ديبلوماسية، فعرفه عن كثب وإنتقد في تقاريره تصرفاته بشدة وإعتبره عدوا لدودا لفلورنسة[4]. إلا أنه من خلال مراقبته الدقيقة لسياسته على مدى أشهر طوال إقتنع بأن بوسع أساليب هذا إنقاذ

---

[1]. مدينة فرنسية تقع الى الجنوب الشرقي من باريس وهي كانت مقرا للبلاط الملكي.

[2]. مقتبس من: ف. روتينبورغ، المصدر السابق، ص ١٢٢.

[3]. بورجيه أسرة نبيلة معروفة تنتمي الى أصل أرغوني إسباني إنتقلت الى إيطاليا في القرن الخامس عشر. برزت هذه الأسرة بفضل الفونسو بورجيه الذي أصبح بابا في العام ١٤٥٥. وقد أصبح ألكسندر السادس، وهو من أقربائه، بابا خلال الفترة ١٤٩٢ – ١٥٠٣.

[4]. H. Butterfield, Op. Cit., pp. 131 – 132; "The Prince", pp. 22-23(the Introduction).

إيطاليا من محنها، فأثر فيه أكثر من أي سياسي آخر إلتقى به أو قرأ عنه[1]. وكان المهم بالنسبة لمكياڤيللي أن سيزار بورجيا حاول بشتى الأساليب وبإصرار إقامة حكومة مركزية موحدة قوية تحكم مناطق واسعة في وسط إيطاليا، كخطوة على طريق توحيد كل البلاد. وقد أعجب مكياڤيللي كثيرا بموقف سيزار من جيش المرتزقة ومحاولته الإعتماد على تجنيد أبناء إيطاليا أنفسهم وتنازله عن لقب الكاردينال الديني الرفيع من أجل تحقيق أهدافه السياسية. ومن الجدير بالذكر أن ليوناردو دافينشي كان من بين الذين تعاونوا بإخلاص مع سيزار بورجيا الذي تردد ماكياڤيللي في البداية كثيرا في الإتصال به. وبغض النظر عن مدى نجاح مكياڤيللي في إنتخابه للبطل فإن حقيقة واحدة يجب أن تسجل في هذا المجال هي أن إسم سيزار دخل ((الأمير)) بعد أن إنقضى زهاء ستة أعوام على موته وزوال دور أسرته عن المسرح السياسي الإيطالي مما يضفي على إختياره طابعا موضوعيا واضحا.

والغريب جدا أن يتمسك ناقدو مكياڤيللي بمثالب سيزار بورجيا ويتجاهلوا كليا حلمه (حلم مكياڤيللي) الرفيع في أن يظهر عبقري إيطالي ينتشل بلاده من التمزق والإحتلال فيقيم ((نظاما جديدا يضفي عليه الفخار وعلى جماهير الشعب الخير والسعادة)). فإن إيطاليا التي ((غدت بلا حياة)) تتطلع، كما يرى نيكولو بإخلاص، الى ((ذلك الإنسان الذي يمكن له أن يداوي جراحها ويضع نهاية لدمار لومبارديا ونهبها وللجشع والإغتصاب البارزين في مملكة نابولي وتوسكانيا، وأن يشفي بثورها المتقيحة منذ أمد طويل. وهاهي إيطاليا تبتهل الى الله في كل يوم أن يبعث إليها من ينقذها من هذه الفظاظة البربرية والحمق الأعمى. إنها على إستعداد للحاق بكل راية تواقة لذلك، شريطة أن يكون هناك من يحملها ويرفعها)). وإذا قدر لإيطاليا أن تعثر على مثل هذا ((الأمير المحرر المنقذ)) فإنه ليصعب وصف ما سيلقاه ((من حب في جميع المقاطعات التي عانت الويلات تحت نير الغزوات الأجنبية، ولا ما سيجده من تعطش للثأر، وإيمان ثابت، وولاء أكيد، ودموع الشكر والعرفان. إن الأبواب ستفتح

---

[1]. ((تاريخ إيطاليا)) (المصدر المذكور سابقا)، ص ٣٣٥ – ٣٣٦؛ R. Rodilfo, Op. Cit., pp. 53 – 64; J. Plamenatz, Op. Cit., p. 14

جميعها على مصاريعها أمامه، وإن الشعب بأسره سيقابله بالطاعة والولاء، ولن يجد من يحسده، ولن يتأخر إيطالي واحد عن الأنضواء تحت لوائه. فهذه السيطرة البربرية تزكم أنف كل إنسان))(الأمير، الباب السادس والعشرون).

لم يكتف نقاد مكياڤيللي بكل ما سبق، بل أنهم حاولوا كذلك تشويه موقفه من الدين، وتمكنوا من خلال ذلك الضرب على وتر عاطفي حساس لدى بسطاء الناس بشكل خاص وذلك بتصويرهم إياه مارقا ملحدا بينما لم تتعد ((جريرة)) نيكولو في هذا المجال حقيقة أنه أراد أن تكون القضايا الروحية ذات مضمون سياسي تكرس ((لبناء حياة الأمة)) ولخدمة الدولة[١]. ثم أنه كان يرى أن إصلاح الدولة لا ينشأ عن تغيير في النفوس، وإنما عن تغيير في المؤسسات. لذا نراه يعالج لا الدين وحده، بل كل العلاقات التي تنشأ بين الناس كالحب والحقد والفن وكل مظاهر الحياة نفسها، من حيث الدور الذي تلعبه في المجتمع.

صحيح أن نيكولو لم يكن متدينا، إلا أنه لم يكن ملحدا كذلك، بل كان - كما تؤكد بعض المصادر- يحيا ((حسب التقاليد الدينية الإمتثالية))[٢]. وقد كان يكن إحتراما عميقا لمؤسسي الأديان الذين يستقون، في نظره، الإعجاب أكثر من مؤسسي الدول[٣].

شوه الجزويتيون، وغيرهم، موقف مكياڤيللي من الفضيلة والقسوة بأسلوب بعيد عن كل القيم الموضوعية. فإنهم، تجاهلوا، كما ذكرنا، الضوابط الكثيرة التي شدد عليها مكياڤيللي في جميع مؤلفاته تقريبا، وغضوا الطرف عن تأكيده الصريح في ((المطارحات)) إن إنتصار الرومان وإزدهارهم إنما نجم الى حد كبير عن تمسكهم بالفضائل[٤]. ثم إن هؤلاء في تقييمهم لهذا الجانب من أفكار مكياڤيللي يتناسون عن قصد ملموس أنه لم يدرس أعمال الناس الإعتياديين، بل مهمات الحكام ممن تقع

---

[1]. F. Chabod, Op. Cit., pp. 94 – 95; R. Ridolfi, Op. Cit., p. 9.

[٢]. ألين ڤيدرين، المصدر السابق، ص ٦٢.

[3]. J. Plamenatz, Op. Cit., p. 33.

[٤]. لهذا الرأي أهميته الكبيرة، لأن مكياڤيللي كان يعتبر الرومان النموذج الأمثل الذين يجب على الطليان أن يحذوا حذوهم.

على عاتقهم مسؤوليات كبيرة ومعقدة تتطلب أول ما تتطلب فهم الأشياء على حقيقتها ووضع العواطف جانبا في سبيل إنجازها الأمثل. وقد فسر نيكولو هذا الواقع بشكل معبر وواضح: أما الذين لا يستطيعون عند الضرورة وفي سبيل المصلحة العامة الخروج على القيم فإن ((عليهم أن يزاولوا أي شئ سوى السياسة)) التي إعتبرها ((شكلا من أشكال النشاط الإنساني الذي لا يخضع لأية شروط أو دوافع روحية أو ذات طابع أدبي))، وهي بذلك تختلف عن جميع النشاطات الإنسانية الأخرى[1]. وعلى هذا الأساس يكون مكيافيللي أول من وضع الصياغة الحديثة لمفهوم الدولة.

وإلى جانب الضوابط التي تطرقنا إليها مرارا فإن مكيافيللي تمسك كليا بأرفع الفضائل في العلائق الطبيعية بين الناس. فمما ورد على لسانه في ((الأمير)) أنه ((لا يمكن لنا أن نطلق صفة الفضيلة على من يقتل مواطنيه، ويخون أصدقاءه، ويتنكر لعهوده، ويتخلى عن الرحمة والدين. وقد يستطيع المرء بواسطة مثل هذه الوسائل أن يصل الى السلطان، لكنه لن يبلغ المجد عن طريقها)) (الأمير، الباب الثامن). وإن ((الصداقة التي تقوم على أساس الشراء، لا على أساس نبل الروح وعظمتها، هي صداقة زائفة تشرى بالمال ولا تكون أمينة موثوقة، وهي عرضة لأن تفقدها في أول مناسبة))(الأمير، الباب السابع عشر).

أما الأمير فإن عليه ((أن يكون من الفطنة بحيث يلجأ الى السبل الشريرة، عندما ترغمه الضرورة على ذلك)) ولكن شريطة ألا ((ينحرف عن طريق الخير ما دام في إستطاعته المضي فيه)). وفي كل الأحوال يبقى منطلق مكيافيللي في تقييماته هذه سياسيا صرفا. فقد لا يكون ((ما يبدو فضيلة)) من الفضائل دائما لأنها ((قد تجلب الدمار))، وإن ما يبدو رذيلة في المنظور السياسي خاصة إذا أدى الى ((ضمان الأمن والإستقرار والنجاح)). ((وعلى الأمير الذي يجد نفسه مرغما على تعلم طريقة عمل الحيوان، أن يقلد الثعلب والأسد معا، إذ أن الأسد لا يستطيع حماية نفسه من الشراك، والثعلب نفسه أمام الذئاب. ولذا يتعين عليه أن يكون ثعلبا ليميز الفخاخ وأسدا ليرهب الذئاب))(الأمير، الباب الثامن عشر).

---

1. F. Chabod, Op. Cit., pp. 140, 142; F. Gilbert, Op. Cit., pp. 176 – 177.

من كل ما سبق يبدو رأي مكيافيللي جليا، واضحا: في وسع المرء أن يبقى بعيدا عن عالم السياسة فيتصرف، بل يجب أن يتصرف آنذاك حسب المقاييس الأخلاقية الرفيعة دون أن يحيد عنها. أما إذا دخل حومة السياسة فما عليه إلا أن يتصرف على ضوء قوانينها. ولكن حتى هنا لم يطالب مكيافيللي أميره الحديث بأن يأتي بشئ لم يكن قد حدث مثيله مرارا. إنه لم ((يفسد حكام أوروبا)) كما يدعون، بل ((فسر أعمالهم على الطبيعة بكل بساطة))[1]، أو بتعبير أدق إنه لم ينظر الى الإنسان، حاكما أو محكوما، كما يجب أن يكون بل نظر إليه كما هو عليه. ففي ((الأمير))، الذي يدان أكثر من مؤلفاته الأخرى نفس الصورة القاتمة للواقع الإجتماعي الذي أشار إليه المئات من الفلاسفة والمفكرين الآخرين قبل مكيافيللي وبعده. ثم أن العصر الذي عاش فيه نيكولو كان عصر المناورات والإرهاب الذي إمتد في كل ركن من أركان أوروبا الدينية والدنيوية والى شرقنا كذلك. فقبل أن يظهر مكيافيللي بقرون عدة إتبع الملك الألماني أوتو الأول (٩١٢ - ٩٧٣) جميع تعاليم مكيافيللي في تعامله مع النبلاء والعشائر والدين داخل مملكته وفي المناطق التي كان يفتحها. وإذا كان بطل مكيافيللي سيزار بورجيا قد زوج شقيقته ثلاث مرات لأهداف سياسية صرفة فإن أوتو تزوج قبل ذلك بأكثر من خمسمائة سنة من أرملة الملك الإيطالي لمجرد نيل لقب ملك إيطاليا. وإنه نظم - بحجة إرجاع البابا الى كرسيه بعد طرده من قبل سكان روما- حملة على هذه المدينة وأعاد البابا المطرود ليتحول منذ تلك اللحظة الى بيدق في يده يحركه لأغراضه السياسية كيفما يشاء. فقام في العام ٩٦٢ بمنح أوتو تاج الإمبراطورية مما شكل بداية لظهور الإمبراطورية الرومانية المقدسة. ولم تختلف سياسة الملك الألماني الآخر وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة فردريك بارباروسا (١١٢٥ - ١١٩٠) عن سياسة سلفه إلا في بعض التفاصيل. وقد حول الملك الفرنسي شارل الكبير (شارلمان ٧٤٢ - ٨١٤) المسيحية الى وسيلة لترسيخ مملكته الواسعة بالأسلوب الذي إعتبره مكيافيللي أنموذجا رائعا بعد مرور ما لا يقل عن سبعمائة عام.

---

[1]. J. Plamenatz, Op. Cit., p. 42.

أما في عصر مكيافيللي حيث ((تحولت القوة والدهاء الى مفاتيح النجاح)) فأطلق عليه إسم ((عصر الغش والمغامرات)) [1] فإن إقطاعيي ألمانيا لم يطلعوا على ((الأمير)) عندما أغرقوا بإسم الدين الحركة الفلاحية الكبرى (١٥٢٤ - ١٥٢٥) في بحر من الدم فقتلوا ما لا يقل عن مائة ألف نفس كانت جريرتها الكبرى أنها تجرأت فطالبت بالتخفيف عن وضعها البائس. والعديد من البابوات في عهده أو قبله وبعده لم يعرفوا غير المناوارت والقسوة أسلوبا في التعامل. وفي الإمكان إيراد عشرات الأمثلة المكيافيلية الأخرى من التاريخ الأوروبي السابق لمكيافيللي. وإن مؤسسة الجزويت[2] المتعصبة للكثلكة والتي تتحمل الجانب الأكبر من وزر تشويه سمعة مكيافيللي متهمة بالمكيافيلية أكثر من غيرها، فإنها تبنت منذ تأسيسها في العام ١٥٣٤ شعار ((الغاية تبرر الوسيلة مهما تكن)).

وفي الشرق إتبع معظم سلاطين آل عثمان تعاليم مكيافيللي بشكل مشوه دون أن يسمعوا بإسمه أو إسم أميره. فإن سليم الأول، مثلا، خلع والده بايزيد الثاني عن العرش بمساعدة الإنكشاريين في العام ١٥١٢ ولبى كإبن ((بار)) طلب والده بالسماح له بالإنتقال الى مسقط رأسه، بل بلغ به ((الوفاء)) له أن ودعه حتى أسوار عاصمة ملكه ليوافيه الأجل بعد يوم أو يومين فقط!. ولم يكتف سليم بذلك بل إنه قضى على جميع إخوته الكبار وأولادهم عن بكرة أبيهم بحجة ضمان أمن ملكه. وبضربة واحدة أتى على حياة أربعين ألف إنسان برئ في الأناضول بعد أن أصدر فتوى من شيخ الإسلام يجيز فعلته النكراء. فإستحق سليم عن حق لقب ياوز، أي المرعب أو الرهيب. وقد دبرت دسائس الحريم أن يصبح سليم الثاني، السكير العربيد وأقل أبناء سليمان القانوني كفاءة، وريثا لعرش والده الذي لقب عن جدارة بالقانوني في الشرق والعظيم في الغرب. أما مراد الثالث فقد دشن عهده بقتل إخوته الخمسة في العام ١٥٧٤. وأثبت إبنه محمد الثالث ((جدارة)) أكبر عندما أمر في يوم وفاة والده عام ١٥٩٥ بخنق إخوته الذكور التسعة عشر الذين دفنوا في وقت واحد مع والدهم في جامع آيا

---

[1]. S. H. Sabine, A history of Political Theory, New York, 1950, pp. 337, 338.

[2]. ((الأخوية اليسوعية)) أو ((الآباء اليسوعيون)).

صوفيا مقيما الفاتحة على أرواحهم معا دون أن تفارق علائم الألم والحزن وجهه لما أقدم عليه من ((تضحية)) كبرى في سبيل ((رفعة)) الإمبراطورية العتيدة!!.

والسؤال: هل يوجد في كل مؤلفات مكياڤيللي ما يبرر مثل هذه الأعمال التي حاول آخرون إيجاد تبريرات لأكثرها إن لم يكن لها كلها؟.

وقبل أن نأتي على نهاية الموضوع من الضروري أن نشير الى حقيقة مهمة أخرى لها علاقة به. ففي عصر مكياڤيللي كانت البلدان الأوروبية تتوحد وتنهي مشاكلها على طريق الوحدة، بينما كانت مشاكل إيطاليا تتعقد وتتأصل إنقساماتها مما جعل من أمر الوحدة القومية شبحا لا يبدو حتى في الأفق البعيد. فحدة المشاكل نفسها فرضت على شخص مثل مكياڤيللي حدة في المعالجة والتعبير. ولم يكن هو المفكر الإيطالي الوحيد الذي إختلف في طابع معالجاته للأمور عن نظائره الأوروبيين فإن منطلقات كامبانيللا الإشتراكية المثالية كانت، مثلا، أكثر راديكالية من منطلقات رائد الفكر الإشتراكي المثالي توماس مور الإنكليزي. وقد تميز موقف العالم والفيلسوف الإيطالي جوردانو برونو أمام محاكم التفتيش بصلابة نادرة لم يضاهه فيها أحد من العلماء الأوروبيين في عصر النهضة مثل كوبرنيكوس وغيره. فإنه بعد ثماني سنوات من التعذيب الوحشي المتواصل جابه الحكام الذين أصدروا بحقه الموت بمثل هذه العبارة الخالدة: ((أغلب الظن أنكم تصدرون قراركم بخوف أكبر مما أتلقاه أنا!)).

من كل ما سبق يبدو واضحا أن الكنيسة تجنت بقسوة على مكياڤيللي وأفكاره. فإن الضربات المتلاحقة التي تلقتها الكنيسة في ذلك العصر أضفت على آراء مكياڤيللي الواقعية والصريحة طابعا أخطر من غيرها في نظر القوى المحافظة التي بذلت جهودا كبيرة لتشويهها. فإلى جانب تحريم مؤلفاته وحرق نموذجه ألف عدد من رجال الدين كتبا في مهاجمة مكياڤيللي إنصبت على تشويه سمعته وتحريف أفكاره.

ومن الغريب أن نذكر أن البروتستانت لم يكونوا أقل حماسة من الكاثوليك في معاداة نيكولو الذي إعتبروه ((جزويتيا متنكرا))[1]. وذلك بغض النظر عن التطابق

---

[1]. R. Weiss, The Spread of Italian Humanism, London, 1964, P. 84.

الكبير بين إنتقادات البروتستانت ومكياڤيللي الموجهة للبابوية. وقد إتخذ البروتستانت مثل هذا الموقف بتأثير إجراءات معينة إتخذها حكام مكياڤيليون ضدهم كما نبين ذلك فيما بعد. ويأتي كتاب ((ضد مكياڤيللي)) الضخم [١] الذي ألفه الكالڤني المتحمس جينتيه (Gentillete) بالفرنسية في العام ١٥٧٦ على رأس قائمة المؤلفات المبكرة التي أثرت على سمعة مكياڤيللي في الأقطار الأوروبية الى حد كبير[٢]. ومنذ ذلك الوقت تقريبا ظهر مصطلح المكياڤيللية لأول مرة وبدأ تداوله على نطاق واسع بسرعة وفي مجالات فكرية وسياسية شتى، بما في ذلك الأعمال المسرحية الأوروبية.

٣. المسرح الإنكليزي:

لعب المسرح الإنكليزي في العهد الإلزابيثي دورا كبيرا في تشويه سمعة مكياڤيللي. فقد كون المجتمع الإنكليزي أول فكرة له عن مكياڤيللي وكتبه من خلال المؤلفات المعادية له والتي ركزت بشكل خاص على آرائه الواردة في ((الأمير)). فإن كتاب جينتيه المذكور قد ترجم الى الإنكليزية في العام ١٥٧٧، بينما ترجمت ((المطارحات)) إليها في العام ١٦٣٦ و ((الأمير)) في العام ١٦٤٠[٣]. فكان من الطبيعي أن يسود الوسط الثقافي رأي غير واقعي عن نيكولو وأفكاره السياسية، مما وجد له إنعكاسات واضحة في المسرح الإنكليزي الذي بلغ الذروة في عهد الملكة إلزابث الأولى. فهناك ٣٩٥ إشارة سلبية الى إسم مكياڤيللي وأفكاره في الأدب الإنكليزي الذي يعود الى تلك المرحلة [٤] والذي لا زال يتمتع بتداول واسع في شتى اللغات. فإن الشاعر والمسرحي المعروف كريستوفر مارلو (١٥٦٤ - ١٥٩٣) الذي كان يجمعه بمكياڤيللي نظرته الى الكنيسة وتقييمه للحياة ومعاناته من الرقابة، قدم في مسرحيته ((يهودي مالطة)) صورة مشوهة عن نيكولو دون أن يطلع على أفكاره مباشرة، فقد

---

١. العنوان الكامل للكتاب هو:
"Discours Sur Les Moyens de Bien Gouverner et Maintenir en Bonne Paix un Royaume ou Autre Principaute – Contre Nicholas Machiavel", Florentin, 1576.

٢. راجع: W. Lewis, Op. Cit., pp. 64, 71 – 72.

3. Ibid, p. 71.

4. Ibid, P. 66.

ترجم ((الأمير)) الى الإنكليزية بعد وفاته بحوالي نصف قرن. وهذا ما فعله أيضا المسرحي الكبير شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦) المكياڤيلية في مسرحيته ((نساء وندسور))، مع العلم أن هناك تطابقا كبيرا بين أفكار شكسبير ومكياڤيللي، ولا سيما فيما يتعلق بتقييمهما للحكم المطلق، بل وفي نظرتهما الى الإنسان.

ومما لا شك فيه أن آراء الإنكليز السلبية عن مكياڤيللي تركت بصمات واضحة على الفكر السائد عنه، وبشكل خاص في أقطار الشرق التي إحتكت مباشرة بالثقافة الإنكليزية وعرفت النهضة عن طريقها الى حد كبير، كما إطلعت عن طريق الإنكليزية على تاريخ الحكام المكياڤيلليين الأوروبيين أكثر من غيرها.

٤. المكياڤيلليون:

لعب الحكام المكياڤيلليون دورا لا يقل خطورة عن دور الجزويت في تشويه سمعة نيكولو، فإن هؤلاء كانوا يختارون ما يناسبهم من آراء مكياڤيللي متجاهلين في الغالب ما وضع من ضوابط لتصرفات الحكام. فقد كانت الملكة الفرنسية الإيطالية الأصل كاترين ميديتشي تعتبر ((الأمير)) كتابها المقدس[١] دون أن تتمسك بالأفكار الواردة فيه مما يبدو واضحا من تصرفاتها الشخصية وسياستها العامة. إلا أن إعجابها بمكياڤيللي وتشجيعها لنشر ((الأمير)) كان كافيا لإعتبار مكياڤيللي مسؤولا عن فعلتها النكراء عندما دبرت بأسلوب وضيع مذبحة عامة للبروتستانت الفرنسيين في ليلة إحتفائهم بإحدى المناسبات الدينية (سان برثلوميو) عام ١٥٧٢، مما أدى الى أن يصب البروتستانت جام غضبهم على مكياڤيللي. فبعد ذلك بخمس سنوات فقط أصدر غانتييه كتابه ((ضد مكياڤيللي)) الذي حمله فيه لا مسؤولية المذبحة المذكورة حسب، بل إعتبره كذلك المسؤول الأول عن كل مساوئ ملوك فرنسا هنري الثاني وشارل التاسع وهنري الثالث[٢]. وربما كان مكياڤيللي الضحية الوحيدة للكاثوليكية الذي لم يدافع عنه البروتستانت، بل إتهموه بكل بساطة بكونه ((معلما للملوك الكاثوليك))[٣].

---

[1]. Ibid, p. 69.

[2]. Ibid, p. 72.

[3]. "The Prince", p. 9 (The Introduction).

كان الملك البروسي فردريك الكبير أشهر مكياڤيللي حارب مكياڤيللي بحماسة مصطنعة. فقبل مجيئه الى الحكم تهجم على مكياڤيللي في رسائله التي كان يبعثها الى المفكر الفرنسي ڤولتير وذلك جريا على عادة ملوك وأمراء أوروبا الذين كانوا يحاولون إظهار أنفسهم في ثوب يتفق مع قيم عصر التنوير. وفي السنة التي تسنم فيها العرش ألف فردريك كتابا سماه ((ضد مكياڤيللي))[١] والذي وصف فيه نيكولو ک ((مدافع عن الجريمة)) وكإحدى ((خوارق الشيطان)) Cetavocatcrime Cetoraclede [٢] وقد ذكر فريدريك في الكتاب نفسه أن مكياڤيللي يستهدف من آرائه إقامة ((حكومة مستبدة، غادرة، جشعة)) وإثارة ((حروب غير عادلة)). وإذا كان مكياڤيللي لم يدع في أي من مؤلفاته الى مثل هذه الأمور، فإن فردريك طبق أكثر منها خلال سنوات حكمه الست والأربعين. وكما جاء في تعليق أحد المؤرخين فإن هذه الأمور بالذات هي التي جعلت من ((فردريك الكبير مشهورا فيما بعد))[٣]. ومن الجدير بالذكر أن فردريك كان يشبه من أوجه كثيرة سيزار بورجيا، ولا سيما والده البابا ألكسندر السادس. وقد بلغ إستبداده في الحكم حد أنه رفض أن يكون له وزراء كي لا تتحول رواتبهم، حسب إدعائه، الى عبئ على كاهل الخزينة بينما لم يتوان هو عن الصرف من أجل تشييد أفخم قصر له ولحاشيته. وفي الوقت الذي لا يمكن فيه العثور على ثناء واحد على حكم الفرد بين دفتي ((الأمير)) أو أي من مؤلفات نيكولو الأخرى، فإن فردية فردريك في الحكم بلغت حدا كان فيه يشرف بنفسه على جميع قضايا الدولة يساعده في ذلك سايس خيله الذي كان يقرأ رسائله ومكاتباته خلال ساعات الفجر القليلة ويأتي له في السابعة برزمة كبيرة تضم القضايا التي لا بد من إطلاع الملك علّيها حسب رأيه. وإذا دعا مكياڤيللي الى الإهتمام بالجيش الوطني فإنه لم يوص أبدا بأن يخصص أميره الأنموذج حوالي ٨٠٪ من ميزانية الدولة لقضايا الحرب والدفاع كما فعل ذلك فردريك الكبير. وفي الواقع لا يوجد أبلغ من تعليق

---

1. "Anti - Machiavel

٢. مقتبس من: و. ل. فاينشتين، المصدر السابق، ص ٢٦٨.

3. W. Lewis, Op. Cit., p. 102.

ڤولتير على كتاب فردريك: ((لو كان لدى مكياڤيللي أمير حواري[1] فإنه كان ينصحه بأن يكون أول عمل يأتي به تأليف كتاب ضد مكياڤيللي))[2]. وفعلا إن فردريك دشن شهرته بكتابه هذا، وقد يكون بذلك آخر من ((يسمح له التاريخ بأن يشوه صورة صادقة)) بهذا الشكل الفظ[3]. ولكن لا ينفي ذلك حقيقة أن فردريك كان واحدا من الذين إشتركوا في بلورة تقليد غير واقعي عن مؤرخ النهضة الكبير.

٥. التقليد:

أدت الحملة الواسعة ضد مكياڤيللي في القرن السادس عشر الى تكوين فكر سلبي عنه توارثته الأجيال بشكل موضوعي. فإن معظم الذين يستخدمون مصطلح المكياڤيللية لم يقرأوا مؤلّفات نيكولو، أو في أحسن الأحوال إقتصروا على قراءة سطحية للأمير الذي لا يعتبر من أصغر مؤلّفاته فحسب، بل إنه يشكل نسبة ضئيلة جدا مما كتبه. ثم إن ((الأمير)) بحاجة الى دراسة جدية معمقة ((كعلم لا كدعاية)) [4]، بل أن هنالك من المؤرخين من يؤكد على ضرورة قراءة ((الأمير)) أكثر من مرة، ((الأولى سطحية، تدعو الى "كره" الكاتب والثانية أدق تكشف نواياه الحقيقية)) [5].

لقد حال التقليد الأعمى والتجاهل المطلق لمؤلفات مكياڤيللي دون وقوف الناس بأنفسهم على ما كان يدعو إليه نيكولو بإخلاص. فإذا أقبل المرء على قراءة ((الأمير))، ولاسيما ((المطارحات))، دون أن تكون لديه فكرة مسبقة جاهزة فإنه يدرك بدون عناء أن مكياڤيللي كان جمهوريا أكثر من أن يكون نصيرا لحكم الفرد الإستبدادي. فمنذ نعومة أظافره ترعرع في جو تسوده الأفكار الجمهورية سواء في شوارع مدينته فلورنسة أو في رحاب داره حيث كان والده وجده من غلاة الداعين الى

---

[1]. يقصد أنه لو وجد أمير يعتبر نفسه تلميذا لمكياڤيللي لكان يأمره أن يقلد فردريك الكبير في تأليف كتاب ضد مكياڤيللي.

[2]. W. Lewis, Op. Cit., pp. 102 – 103.

[3]. Ibid, P. 105.

[4]. "Renaissance and Reformation 1300 – 1648", Edited by G. R. Elton, Second edition, New York, P. 109.

[5]. راجع: ألين ڤيدرين، المصدر السابق، ص ٩٢.

الجمهورية. ثم إنه خدم النظام الجمهوري الفلورنسي بإخلاص لامتناه وعن إيمان مدرك مقيما إياه ك ((حكومة الشعب))[1]. وعلمته تجارب التاريخ القديم أن قوة روما وعظمتها إنما جاءتا من نظامها الجمهوري أكثر من أي شئ آخر لأن الكفاءة، لا الوراثة، كانت تقرر في ظله من يستحق تبوء السلطة. لذا فإن مكيافيللي كان يتوق الى إحياء ذلك النظام، مما إنعكس بشكل واضح في ((الأمير))، ولا سيما في ((المطارحات))، حتى أن روسو يصف ((الأمير)) ككتاب الجمهوريين[2]. ولكن ربط مكيافيللي نجاح النظام الجمهوري بمستوى وعي الناس ومدى تمسكهم بتلابيب الأخلاق الفاضلة. أما من حيث الفساد والتسيب، كما كان عليه الأمر في معظم الأقطار الأوروبية وعلى رأسها إيطاليا، فإن مكيافيللي كان يرى من الضروري إقامة حكم مطلق يستطيع وضع نهاية حاسمة لكل أشكال الفوضى التي تجلب الدمار على الشعب والوطن. وهو في رأيه ذلك لم يختلف عن معظم أعلام النهضة الآخرين ولم يخرج على منطق التاريخ الذي حتم في مرحلته ظهور أنظمة حكم مطلقة توقف عليها التطور اللاحق للمجتمعات الأوروبية. وإن عدم ظهور مثل ذلك النظام في إيطاليا يعد من أهم أسباب تخلفها وتمزقها وضعفها أمام الدول الأوروبية التي أقيمت فيها أنظمة مطلقة بنجاح.

وكان الفاشيون والنازيون آخر من حاولوا تجاهل أفكار مكيافيللي الجمهورية وتجنبها.

٦. الفاشية والنازية:

إهتم فاشيو إيطاليا ونازيو ألمانيا بمكيافيللي من منطلقاتهم الضيقة وحاولوا على ضوئها قولبة أفكاره من جديد ضمن إطار ضيق ومجرد بعد أن إحتاج كسر الطوق السابق المفروض على نيكولو الى جهد كبير وزمن طويل. فقد قام عدد كبير من المؤلفين الألمان والطليان بتأليف كتب جديدة عن مكيافيللي أكدوا فيها بشكل مشوه

---

[1]. A. Ridolfi, Op. Cit., p. 9.

[2]. راجع: ألين فيدرين، المصدر السابق، ص ١٢ - ١٣.

على آرائه في الحكم المطلق وتجاهلوا كل ما يتعلق بظروف الزمان والمكان. فإن موسوليني إعتبر مذهب مكيافيللي بصدد الحكم الإستبدادي ((حيا اليوم بعد أربعة قرون)) [١]. وبلغ تمجيد النازيين والفاشيين لمكيافيللي حد أن هتلر كان يضع كتابه ((الأمير)) الى جانبه في مكتبه، وحسب ما يقال فإنه كان يعيد قراءة قسم منه قبل النوم كل ليلة. أما موسوليني فقد كتب رسالة عن ((الأمير)) نال بها درجة الدكتوراه. وهو كان يعتبر ((الأمير))((ملازم رجل الحكم)).

وقد أدرك العديد من المؤلفين الألمان والطليان المخلصين لقضية شعبهم أن من شأن التمسك غير الموضوعي بأفكار مكيافيللي من قبل النازيين والفاشيين التأثير على سمعته سلبا، لذا تصدوا لهذا الموقف وبينوا في الثلاثينات الجوانب المشرقة في آراء مكيافيللي التي لم يجمعها جامع بمواقف هتلر أو موسوليني.

النواقص:

لا شك في أن العوامل التي عرضناها كانت كافية لتشويه سمعة أي مفكر في العالم ولتحريف آرائه. ومن الجدير بالذكر أن الذين حاولوا النيل من مكيافيللي لم يضعوا اليد على النواقص الحقيقية والجوانب الضعيفة في أفكاره. فإن الرجل، كأي عالم آخر من أعلام النهضة وكإبن عصره، لم يكن مصيبا في كل ما عالج، ولا سيما أنه كان رائدا في طرقه لعدد من أشد المواضيع تعقدا. فقد توسل بما إعتبره شخصيا ((أسلوبا جديدا للإجابة عن أسئلة لم تثر عمليا من قبل)) [٢].

كان مكيافيللي يمثل في آرائه الفكر البورجوازي النامي الطموح وقد مجد في كتاباته التجار والحرفيين المتمكنين من سكان المدن الإيطالية الذين يصفهم بالشعب (Popolo) ودعا الأمير الى الإهتمام بهم وتهيئة الأجواء التي من شأنها تطوير مصالحهم والترفيه عنهم. إلا أن البورجوازية الإيطالية قد توقفت عن النمو بسرعة بعيد ميلادها المبكر وبدأت تعيش أزمة جدية قبل عهد مكيافيللي وخلاله لذا ظلت ضعيفة ولم

---

[١]. مكيافيللي، الأمير، ص ٦ ((المقدمة)).

[2]. "Renaissance and Reformation 1300 – 1648", P. 108.

تستطع أن تتحول الى القوة الجديرة بالإضطلاع بالمهام الجسيمة التي كانت تنتظرها في ظروف إيطاليا الصعبة. وكان من الطبيعي أن ينعكس ذلك في بعض من آراء مكيافيللي المتحمسة للنظام الملكي المطلق مما كان يعني في الواقع نوعا من التساوم مع الفكر الإقطاعي، لأن ذلك النظام ظل يشكل، بالرغم من وقوفه ضد التسيب الإقطاعي، شكلا أعلى من النظام السياسي الإقطاعي. إلا أن ذلك النوع من الحكم لم يكن قد فقد في عهد مكيافيللي جوانبه الإيجابية بعد. ولا يمكن تفسير إزدواجية مكيافيللي، وتنقله بين النظامين الجمهوري والمطلق إلا في ضوء ما تقدم. وهو يفسر لنا كذلك معاداته للديمقراطية وتخوفه من الجماهير التي ((تنجرف بسهولة مع المغامرات)) حسب رأيه وكان يصفها ب ((السواد)) أو ((العوام)) (Plebs). وقد عبر عن موقف عدائي صريح نحوها من خلال تقييمه لبعض الإنتفاضات الجماهيرية التي وقعت في إيطاليا. وبحكم ذلك فإن مكيافيللي يتوجه في جميع مؤلفاته الى الأمراء وأهل السلطة وأصدقائه من المفكرين، ويكتب لهم لا للجمهور[1].

وهنا لابد من الإشارة الى حقيقتين. الأولى أن ((الشعب)) الذي دافع عنه مكيافيللي بحماسة كان يشكل يومذاك حوالي ثلاثة آلاف ومائتي شخص من مجموع سكان فلورنسة البالغ عددهم تسعين ألف نسمة[2]. والثانية أن مكيافيللي نفسه لم ينتم إجتماعيا الى هؤلاء، إلا أنه قدر دورهم الكبير في تطوير المجتمع، كما أثرت في موقفه منهم علاقته بسوديريني الذي كان ينتمي الى البورجوازية الفلورنسية النامية.

كان مكيافيللي في رأيه عن سوء طوية البشر متشائما بشكل متطرف. فأنانية الفرد تتحكم في تصرفاته سلبا أو إيجابا، أينما كان ومتى ما كان. وهو وإن كان قد أقر بأن من شأن تغيير النظام التأثير على نفسية الفرد، إلا أن ذلك في رأيه ينجم عن القوانين الجديدة التي تستهدف عادة الحد من طموحات الناس.

---

[1]. "The Civilization of the Renaissance in Italy ", an Essay by J. Burckhardt, New York and Toronto, p. 93.

[2]. أ. ك. جيفيليكوف، المصدر السابق، ص ٦٧.

خطا مكياڤيللي خطوات مهمة في مجال البحث التاريخي، إلا أنه يفتقر مع ذلك، الى أفق تاريخي شامل. فقد عجز، مثلا، عن فهم التحول التاريخي من مرحلة الى أخرى. فإن الماضي الذي كان يستنبط حقائقه من بطون كتب التاريخ كان يبدو له مشابها الى حد كبير للحاضر الذي كان يعيشه هو ويعرفه. من هنا كان رأي مكياڤيللي في التاريخ أنه نوع من التجارب المتصلة التي من شأنها دفع الإنسان الحكيم الى فهم الطبيعة البشرية بشكل أفضل مما لو إعتمد على تجاربه الشخصية وذكرياته فقط.

لا تنتقص هذه الجوانب السلبية الواردة في أفكار مكياڤيللي من أهميته كمفكر كبير، خاصة إذا قيمت بشكل صحيح في إطار زمانها ومكانها ودوافعها الأصلية لا الشكلية. فبالرغم من أن موقفه المتشائم من نفسية الفرد أمر غير قابل للتبرير، إلا أنه مع ذلك لا يمكنه نسخ حقيقة أن مكياڤيللي كان يستهدف خلق الفرد الإيطالي الجديد الأقرب الى التكامل. كما أنه بالرغم من موقفه السلبي من الجماهير، ولاسيما في ((الأمير))، فقد قدم عنها أفكارا مهمة وجديدة بالنسبة لعصرها في ((المطارحات)). ففي رأيه أن ((العامة والأمراء متشابهون تمام الشبه، وإذا كان من واجبنا أن نؤثر أحدهما على الآخر، فلا ريب في أن الإيثار يتجه الى العامة وهذا يتوقف على ما يبدونه من درجة إحترام كثرت أو قلت، للقوانين التي يعيش الفريقان في ظلها)). ومن أقواله أيضا: ((ولا ريب في أن هناك مبررا قويا حمل الناس على تشبيه صوت الشعب بصوت الله، وذلك لأن الرأي العام يكون دقيقا الى حد كبير في دلالاته وإشاراته، مما يرمز الى أن قوة خفية توحي الى الشعب مقدما بما سيصيبه من شر أو خير)). ومن أقواله كذلك: ((ودللت الوقائع أيضا على أن العامة أحسن قدرة على التميز من الأمير في موضوع إختيار الحكام إذ لا يمكن إقناع الشعب مطلقا، بأن من الخير أن يختار لأحد هذه المناصب رجلا عرفت عنه الخلاعة والعادات الفاسدة، بينما يقتنع الأمير، وغالبا ما يقتنع بإجراء مثل هذا التعيين)) (المطارحات، الكتاب الأول – ٥٨).

وفي كل الأحوال من الضروري أن نشير هنا الى أنه عند إصدار الحكم على نواقص مكياڤيللي فإنه لا يصح، كما لا حظ روتينبورغ عن حق، النظر الى أفكاره

السياسية والإجتماعية ((من علياء القرن العشرين، بل من خلال أسوار قلاع القرن السادس عشر الإقطاعية القائمة بعد من وجهة نظر إجتماعية))[1]. فإن مكيافيللي ((كله مجبول من طينة عصره، وعلمه السياسي يمثل فلسفة زمانه الذي يسعى الى تنظيم الملكيات الوطنية المطلقة))[2].

وأخيرا فإن نواقص مكيافيللي المذكورة، وغيرها، تبقى في الواقع غير ملموسة، أو بالأحرى طبيعية الى جانب النواحي الإيجابية الكثيرة في منطلقاته الفكرية العميقة.

منطلقات فكرية أخرى:

تطرقنا حتى الآن الى نواح كثيرة في آراء مكيافيللي السياسية والإجتماعية، ولكن تبقى، مع ذلك، قضايا مهمة أخرى تستحق عرضا سريعا حتى تتكامل صورة نيكولو كمفكر فذ في ذهن القارئ والمتتبع. وهنا يجدر بنا التأكيد بشكل خاص على دوره في تطوير علم التاريخ.

يأتي التاريخ على رأس قائمة العلوم الإنسانية التي تأثرت بأفكار النهضة. فإن الإهتمام بإحياء التراث القديم كان يعني بحد ذاته إلقاء أضواء كاشفة على صفحات مجهولة من تأريخ أوروبا السياسي والثقافي والإجتماعي وحتى الإقتصادي في عهدي الرومان والأغريق. كما بدأ الإهتمام بآثار الشرق، فيرتبط ظهور ال ((Epigraphy)) (دراسة النقوش والمنحوتات القديمة) كعنصر مهم من عناصر التاريخ القديم بعصر النهضة مباشرة. ولكن لم يقتصر الأمر على هذه النواحي المهمة، بل طرأ كذلك تغيير ملموس في أسلوب البحث التاريخي وفي نظرة المؤرخين الى الأحداث وموقع الفرد فيها. فقد ظهرت النظرة الإنتقادية بالنسبة للمصادر والبحوث التاريخية المدونة، مما أسهم بشكل جدي في الكشف عن جوانب الضعف الكبيرة التي تميزت بها الدراسات والتفسيرات التاريخية في العهود السابقة وفي إثبات حقائق تاريخية مهمة أدى بدوره الى تعرية الفكر الإقطاعي - الكنسي. وفي عصر النهضة جرى لأول مرة

---

[1]. ف. روتينبورغ، المصدر السابق، ص ١١٣ – ١٢٢.

[2]. أنطونيو غرامشي، الأمير الحديث، قضايا علم السياسة في الماركسية، ترجمة زاهي شرقان وقيس الشامي، بيروت، ١٩٧٠، ص ٣٥.

تقسيم التاريخ الى القديم والوسيط والحديث. كما ظهرت في ذلك العصر كذلك دراسات تاريخية من نوع جديد تهتم بأحداث الوطن بشكل متكامل موحد وبمفاخر الماضي بأسلوب متوافق مع الشعور القومي والوطني الذي طفا الى السطح. فإن گويجارديني (١٤٨٣ - ١٥٤٠) مثلا هو أول مؤرخ درس تاريخ إيطاليا في إطار موحد على عكس المؤرخين السابقين الذين تعودوا على دراسة حكوماتها ومناطقها المختلفة كوحدات منعزلة. وبدافع من الشعور القومي أيضا بدأ المؤرخون الجدد يبحثون عن حلول عملية لمشاكل مجتمعاتهم السياسية ويحاولون معرفة الأسباب الطبيعية للأحداث التاريخية، ومن هنا فإنهم رفضوا تأثير((القوى الغيبية)) في خلق وتقرير مصير الأحداث وبدأوا يبحثون في دور المدرك (القادة والشخصيات التاريخية البارزة) في سير الأحداث. لكن لم يتجاوز سوى عدد قليل جدا من مؤرخي عصر النهضة هذا الحد من التفسير البراغماتي للتأريخ، فإن غاية ما عـملوه أنهم بحثوا في العوامل المنطقية وغيرها التي كانت تحرك القادة السياسيين.

وفي هذا المجال أيضا أثبت مكياڤيللي عـمقا أكبر من غيره. فقد لعبت آراؤه دورا مهما في تطوير الدراسات التاريخية ونظرياتها، إذ تخطى في بحوثه حدود التفسير البراغماتي للأحداث في وقت مبكر، وبدأ ينظر الى الدولة وقوانينها نظرة واقعية نابعة من التجربة والتحليل لا من اللاهوت ونظرية الحق الإلهي في الحكم، وآمن بحتمية الأحداث التاريخية وبالترابط فيما بينها بغض النظر عن إرادة المشتركين فيها. ففي كتابه الضخم ((تاريخ فلورنسة)) يتتبع النضال بين الجماهير والأرستقراطية على طول مسيرة تاريخ إيطاليا. ومن هنا، أي من خلال بحثه عن العوامل المحركة للإحداث التاريخية بغض النظر عن إرادة الأفراد الصرفة، تخطى مكياڤيللي مؤرخي عصر النهضة وتقدم عليهم. ويكتسب هذا الأمر أهمية أكبر إذا علمنا أن مكياڤيللي كتب التاريخ كسياسي قبل أن يكون مؤرخا، فإنه يبتغي من التاريخ خدمة السياسة كعلم، لذا لم يهتم بسرد الأحداث إلا ليستنبط منها الدروس والعبر[1].

---

[1]. R. Ridolfi, Op. Cit., pp. 196 – 197.

لمكيافيللي آراء سياسية وإجتماعية قيمة أخرى عن القوانين والديمقراطية وعن السياسي في إنتصاره وهزيمته ودور الحظ في تقرير مصير الأحداث والأشخاص وما إلى ذلك. وهو في كل معالجاته يحاول الغوص فيما وراء الأسرار وغير المرئيات وغالبا ما يمس القاع فيأتي منه بالجديد والجيد. فهل من تعبير أعمق وأدق وأكثر واقعية عندما يتحدث في ((فن الحرب)) عن الإنتصار والهزيمة فيقول ((يمحو النصر آثار أكثر الأعمال فشلا، فيما تجهض الهزيمة أكثر الخطط تنظيما))؟.

هكذا تميز نيكولو عن غيره في الكثير. وهكذا كانت مأثرته الأخيرة في الحياة التي هي أبلغ تجربة خاضها مكيافيللي بنجاح مما جعلها ورقة كاشفة أصيلة لتقييمه لم تجد، بكل أسف، ما يستحق من إهتمام المؤرخين[1].

---

[1]. من بين المصادر العديدة التي رجعت إليها لإعداد هذا البحث فإن جيفيليكوف وحده الذي أولى هذا الموضوع المهم مايستحق من عناية.

الموضوع الرابع
التجربة

تخطى مكيافيللي الخامسة والخمسين من عمره عندما تعرضت بلاده الى غزوة أجنبية جديدة. ففي العشرينات من القرن السادس عشر دخلت الحروب (١٤٩٤ – ١٥٥٩) التي جرت بين إسبانيا وفرنسا من أجل السيطرة على إيطاليا، دخلت مرحلة خطيرة بظهور الملك الإسباني الطموح شارل الأول الذي كان يرنو الى إقامة إمبراطورية مسيحية موحدة. وإضطر البابا والفلورنسيون للتحالف مع الفرنسيين لدرء الخطر الداهم. ولكن الفرنسيين إندحروا أمام الجيش الإسباني في المعركة الحاسمة التي جرت بين الطرفين في شباط ١٥٢٥ ووقع الملك الفرنسي فرانسوا الأول في أسر القوات الإسبانية التي أصبحت الأرض الإيطالية مفتوحة أمامها. وفي مثل هدا الوضع الحرج إختار القليل من أخلص الوطنيين الطليان سبيل المقاومة للحفاظ على كرامة وطنهم المهدد، وقد كان مكيافيللي واحدا من أبرز هؤلاء الأبطال.

تشهد مواقف مكيافيللي المتشعبة في تلك الأيام الصعبة على وطنية صادقة وشجاعة نادرة. فعندما بدأ التردد يجدد طريقه الى نفوس الأكثرية، بما في ذلك شخص البابا، كان مكيافيللي يتوقد حماسة ويصرعلى المقاومة ويحرض البابا كليمنت السابع للإضطلاع بالمهمة المشرفة، وبدأ يتنقل من مكان الى اخر ويكتب الرسائل تلو الرسائل، ويتصل بأهل السلطة ويحاول إقناعهم دون أن يمل أو تقعده آثار مرضه، فقد نسي كل شئ وظل يفكر، كما ذكر بنفسه، في أمر واحد فقط - إنقاذ البلاد وضمان حريتها[1]. وآنذاك قدم مشروعين الى البابا أحدهما يخص تحصين فلورنسة والثاني يستهدف تأسيس جيش شعبي في توسكانيا والمناطق البابوية.

كلما دنا الخطر أكثر، إزداد نيكولو نشاطا وقلقا، فبدأ يتصل بأصدقائه، ويستأنس بآراء المفكرين، كما إشترك بحماسة بالغة في تقوية إستحكامات فلورنسة دون أن يفت بسبب الموقف المتخاذل للدعاة السابقين. ويومذاك وعندما كانت الأكثرية تربط الأمور، تهربا، بالموقف الفرنسي، عبر مكيافيللي عن رأيه صراحة عندما قال

---

[1]. أ. جيفيليكوف، المصدر السابق، ص ١٠٣.

((أعتقد أن من واجبنا التسلح دون أدنى تأخير وعدم إنتظار ما تتخذه فرنسا من قرار))[1].

لم يكتف نيكولو بكل ذلك، بل وضع خطة عمل تتفق مع ما يتطلبه الزمن من ((إتخاذ قرارات شجاعة، غير إعتيادية وغريبة))[2]. وهنا بحث بإخلاص ودون أدنى تملق عن ((الأمير الجديد)) الجدير بأن يأخذ على عاتقه المهمة الجليلة والصعبة التي من شأنها أن تبين ((للأصدقاء والأعداء معا)) أن إيطاليا على أهبة الإستعداد للدفاع عن كرامتها. وقد إعترف البابا شخصيا بشجاعة خطة مكيافيللي، إلا أن تردده وأسبابا أخرى غير ذلك حالت دون الإقدام على إتخاذ القرار الحاسم.

لكن كل ذلك لم يفت من عضد إبن إيطاليا البار، فإن الوطن في خطر و ((عليه أن يقدم له ذاته كاملا)). إلا أن غباء الحكام وترددهم وقصر نظرهم قد حال دون الإقدام، والعدو الإسباني يستغل الفرصة فيتقدم في الأرض الإيطالية وتقترب طلائعه من فلورنسة ولكن دون أن يدخل ذلك الرعب في نفس نيكولو المقدام الذي لم يتراجع، بل بدأ بوضع خطة جريئة جديدة تتلخص في الهجوم السريع على نابولي وأسر نائب الملك الإسباني هناك وتجريد أتباعه وأنصاره من السلاح والضغط من هناك على الإسبان. إلا أن البابا رفض هذا المشروع كذلك ليدفع الثمن فيما بعد غاليا. فقد دخل غريمه بومبيو كالونا، روما بمساعدة الجنود الإسبان الذين نهبوا الفاتيكان فلم يتمكن كليمنت السابع من إنقاذ جلده إلا بشق الأنفس. فجاء ذلك بمثابة الخطوة الأخيرة التي مهدت الطريق للهزيمة الساحقة في العام التالي.

مرة أخرى لم يتراجع مكيافيللي، فقد نسي الماضي الأليم والشيخوخة والمرض والأسرة وبدأ يتردد بحماسة الشباب بين فلورنسة والجبهة عندما كان الآخرون يتراجعون ويعرضون أنفسهم في سوق النخاسة رخيصة. إنه يتصل ويحث ويحرر الرسائل الى أصدقائه وأهل الرأي، وهو في كل ذلك لم يغير كلمته: الوطن في خطر وعليه أن يقدم ذاته كاملا له، النضال حتى النهاية وعدم الرضوخ!!((إن العاصفة تهب

---

[1]. مقتبس من نفس المصدر، ص١٠٦.

[2]. نفس المصدر، ص ١٠٧.

هوجاء، ولكن على السفينة أن تمخر عباب اليم)) - بهذا الأسلوب الرائع عبر نيكولو عن الواقع وعن موقفه عندما كانت جيوش العدو تقترب وتقترب[1]. وإذا لم يبق من مخرج أمام الطليان، فعليهم - كما كان يؤكد - بالسلم مرفوعي الرأس لا بالإستسلام متخاذلين - وهنا أيضا لا بد من الأمير الجديد الذي يعرف كيف يختار بين الحرب والسلم. من هذا يبدو واضحا أن مكيافيللي جمع، كأي مفكر أصيل، بين النظرية والتطبيق. فإن جميع أعماله في أيام التجربة القاسية تنطبق مع أهم ما ورد في القسم الأخير من ((الأمير)) حيث التحريض الحار((لتحرير إيطاليا من البرابرة)) والأمل المخلص في أن ((يختار الله شخصا لإنقاذها))(الأمير، الباب السادس والعشرون).

هكذا كان مكيافيللي، وهكذا بقي مكيافيللي. فعندما كان أقرانه يقضون لياليهم حول موائد الخمر الدافئة و ((يبنون)) و ((يهدمون)) في الهواء ويتشككون في مواقف أخلص الناس وأشرفهم، كان مكيافيللي يجابه الموت ويحرق الفكر ويجهد النفس في سبيل إيطاليا لأنه كان صادقا في حبه لها مخلصا. فآنذاك تفتقت قريحته العبقرية عن قولته المشهورة: ((حبي لروحي دون حبي لوطني!)) [2].

ذهبت نشاطات ((الرسول الأعزل))[3]، والذين كانوا في مستوى أخلاصه، هباء. إستسلمت روما ولم يبق أمام نيكولو بعد أن أدى الواجب مخلصا، سوى العودة الى قريته ليقضي الأيام الأخيرة من عمره[4]، ولكن ليثبت بموقفه الثابت والصريح والبعيد عن المساومة والتزلف والإدعاء وبنشاطاته الخارقة في أصعب الظروف وأشقها، ليثبت مرة أخرى من هو نيكولو دي بيرناردو مكيافيللي!.

---

[1]. القول مقتبس من نفس المصدر، ص١١١.

[2]. أشار معظم المؤرخين الى هذه المقولة بشكل مجرد، أي دون أن يشيروا الى الظروف التي قيلت فيها والتي تعطيّها أهمية إستثنائية (راجع على سبيل المثال: Ridolfi, Op. Cit., p241; F. Chabod, Op. Cit., p. 142)

[3]. إستخدم مكيافيللي مصطلح ((الرسول الأعزل)) عند حديثه عن الراهب الفلورنسي الثائر المعاصر سافونارولا. وأكد بهذا الصدد أن الإنتصار لم يكن، ولن يكون، إلا من نصيب الرسل المسلحين (الأمير، الباب السادس)

[4]. توفي بسبب مرض في معدته قد يكون للقلق تأثيره الكبير عليه.

وماذا عن موقف التوافه من حساد مكيافيللي الذين كانوا يراقبون الوضع من فوق التل لينضموا الى المنتصر في الوقت المناسب؟. إنهم، وما كان بمستطاعهم أن يفعلوا غير ذلك، أثاروا شكوكا مصطنعة حول مواقف هذا الوطني الأصيل وجهدوا بروح إنتهازية وضيعة لإبعاده عن المنصب الذي رشح له قبل الأحداث الأخيرة.

يبقى سؤال آخر يفرض نفسه بإلحاح: إذا كان هذا ديدن مكيافيللي وعبقريته، فكيف يجوز أن نقتنع بأن الموضوعيين من خلق الله لم يفهموه ولم يقيموه كما يجب؟ ولكن هل كان الأمر هكذا؟

التقييم الأرفع:

من أروع قوانين الحياة أن الحقيقة لا يمكن أن تحجب حتى النهاية. وهكذا كان الأمر مع مكيافيللي. فإن جميع الجهود والتحريفات ظلت عاجزة منذ البداية عن حجب حقيقة هذا المفكر عن أعين الفلاسفة والعلماء والموضوعيين من الناس الذين قرأوا له. وفي الواقع قلما تناول مفكر عظيم إسم مكيافيللي وأفكاره إلا بالثناء والمديح. فإن الفيلسوف والعالم ورجل الدولة الإنكليزي البارز فرانسيس بيكون (١٥٦١ – ١٦٢٦) درس مؤلفات مكيافيللي بإمعان وتأثر في طريقته الإستقرائية بما ورد فيها من آراء جديدة كليا في بابها[١]. وكان بيكون أول من أدرك أن مكيافيللي تناول الأشخاص كما هم في الواقع لا كما يجب أن يكونوا في الخيال، فكتب بهذا الصدد: ((يجب علينا أن نكون شاكرين لمكيافيللي ومن هم على شاكلته من الكتاب الذين رسموا بصراحة دون تصنع ما يفعله الناس عادة وليس ما عليهم أن يفعلوه))[٢].

وفي عنفوان الحملة المضادة لمكيافيللي[٣] تطرق عدد من المؤلفين الى أفكاره وقيموها عاليا. فقد عرض ليبسموس في مؤلفه((الكتب السياسية)) الذي نشره عام ١٥٩٠، عرض أفكار مكيافيللي حول موقع الدين في السياسة والدولة. وفي العام

---

[١]. يعتبر العديد من المؤرخين مكيافيللي، لا فرنسيس بيكون، مبتكرا للطريقة الإستقرائية.

[٢]. مقتبس من: ف. ي. روتينبورغ، المصدر السابق، ص ١١١.

[٣]. بالرغم من تلك الحملة فقد ظل السياسيون يتداولون ((الأمير)) على نطاق واسع(راجع: C. Hayes, Modern Europe to 1870, New York, 1959, p. 26.

١٦١٣ كتب ك. شوبييه عن آراء مكياڤيللي حول ضرورة الفصل بين قضايا السياسة والفضيلة. وبعده بعقدين تطرق جبرائيل نودييه الى الأسلوب السياسي لدى مكياڤيللي وبين أنه لم يبحث عن أمير إرهابي، بل عن حاكم ناجح من نوع جديد يحتاجه الوطن[1].

ويأتي الفيلسوف والرياضي الفرنسي المعروف ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) من بين المفكرين الأوائل الذين تأثروا بمكياڤيللي. فإنه صاغ رأيه حول الأساليب العادلة للحاكم في النظام المطلق المتنور بتأثير من أفكار مكياڤيللي. وقد توصل الأخير قبل الفيلسوف الإنكليزي توماس هوبس (١٥٨٨ - ١٦٧٩) بفترة طويلة الى تحديد دور أنانية الفرد وطموحاته ورغبته في الحفاظ على ذاته، في إقامة الحكومات[2] مما ترك أثره على فكر الفيلسوف الإنكليزي. وجون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) فيلسوف إنكليزي آخر تأثر بدوره ببعض من أفكار مكياڤيللي. وإذا تذكرنا موقف الأدب الإنكليزي من نيكولو وتشويهه سمعته على نطاق واسع في إنكلترا، فهمنا الأهمية الكبيرة لتقييم هؤلاء الفلاسفة الذين وضعوا اليد بثاقب نظرهم على روح مؤلفات مكياڤيللي وأهدافه البعيدة من كل ما ورد فيها.

أشاد بمكياڤيللي أبرز فلاسفة ومفكري عصر التنوير والتحرك القومي الأوروبي، منهم الكاتب والمؤرخ والفيلسوف الفرنسي ڤولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) والإنسكلوبيدي المعروف ديدرو(١٧١٣ - ١٧٨٤) والفيلسوف والكاتب والموسيقي الفرنسي جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) والشاعر والمفكر والرائد القومي الألماني غوته(١٧٤٩ - ١٨٢٠) كما شهد له هيغل بالعبقرية. وإن الأول، الذي كان يعرف كيف يرضي الملوك[3]، حرض فردريك الكبير على تأليف كتابه عن مكياڤيللي بعد أن أشاد به في رسائله الخاصة له، وذلك لأنه أدرك ما يمكن لمثل ذلك الكتاب أن يجلب من شهرة لصديقه الملك الألماني. أما روسو فقد أعطى تقييما عميقا لمكياڤيللي عندما ذكر

---

[1]. ف. ي. روتينبورغ، المصدر السابق، ص ١١٤.

[2]. راجع: ((الإنسكلوبيديا الفلسفية))، باللغة الروسية، الجزء الثالث، موسكو، ١٩٦٤، ص ٢٨٠.

[3]. كان ڤولتير على إتصال وثيق بعدد من ملوك أوروبا الذين أظهروا أنفسهم مؤازرين لحركة التنوير، منهم فردريك الكبير والقيصرة الروسية كاترين الثانية.

عنه في أشهر مؤلفاته ((العقد الإجتماعي))(الجزء الثالث، الفصل السادس) ما نصه: ((كان مكيافيللي يتظاهر بإعطاء دروس للملوك بينما كان يعطي دروسا عظيمة للشعوب. إن ((الأمير)) كتاب الجمهوريين وما إختاره بطله المكروه يدل بوضوح على نية الكاتب الخفية، ثم إن منع بلاط روما لنشر كتابه له دلالته، فإن المؤلف يصف هذا البلاط دون لبس)).

قيم مؤسسا الإشتراكية العلمية كارل ماركس وفردريك انجلس أفكار مكيافيللي عاليا أكثر من مرة. فإن ماركس قرأ مؤلفاته بإمعان، ولاسيما ((المطارحات)) التي إقتبس منها معلومات كثيرة فيما يتعلق بوضع النبلاء في فلورنسة والبندقية [1]. وفي رسالة له الى انجلس سمى ((الأمير)) ب ((المؤلف الرفيع)) ذلك لأن صاحبه واحد من الذين ((بدأوا ينظرون الى الدولة بعين إنسان ويستخلصون قوانينها من العقل والتجربة، لا من اللاهوت))[2].

أما إنجلس فقد أطلق على أربعة من أبرز أعلام النهضة ((الرسام الإيطالي الخالد ليوناردو دافينشي والمصلح الديني الكبير مارتن لوثر وأبرز رسامي ألمانيا في ذلك العصر ألبريخت دورير (Durer) مع مكيافيللي لقب ((عمالقة النهضة))[3] التي ((إحتاجت للعمالقة وخلقت العمالقة)). كما أعجب كثيرا بكتابه ((فن الحرب)) الذي سماه ب ((مارسليز القرن السادس عشر)) فقد كان مكيافيللي في نظره ((أول كاتب حربي في العصر الحديث جدير بالذكر))[4].

وفي عصرنا[5] أشاد العشرات، بل المئات من المفكرين والمؤرخين الغربيين بأفكار مكيافيللي وكرسوا لدراستها العديد من البحوث والرسائل العلمية نعود الى تفاصيل بعضها بعد عرض موجز للساسة الذين تأثروا بمؤلفات مكيافيللي مع بعض المواضيع الأخرى.

---

[1]. راجع: أ. ك. جيفليكوف، المصدر السابق، ص ٧٠.

[2]. ك. ماركس و ف. انجلس، المؤلفات، باللغة الروسية، الطبعة الثانية، الجزء الأول، ص ١١١.

[3]. إختار ف. ي. روتينبورغ قول انجلس عنوانا لكتابه عن النهضة(راجع الهامش رقم ٤).

[4]. ك. ماركس و ف. انجلس، المؤلفات، الجزء ٢٠، ص ٣٤٦.

[5]. عند البحث في الطبعة الأخيرة من المجلدات الخمسة والخمسين من مؤلفات لينين لم نجد أي إشارة الى مكيافيللي.

الحكام ومكيافيللي:

تأثر كثير من حكام أوروبا وغيرها بآراء مكيافيللي، ولا سيما تلك التي وردت في ((الأمير)). وجاء تأثر هؤلاء في ظروف مختلفة ومن منطلقات متباينة. وفي كل الأحوال إختار معظم الحكام من آراء مكيافيللي ما كان يناسبهم، وهم في العادة كانوا يتجاهلون الشروط والضوابط الكثيرة التي كان نيكولو يشدد عليها بحماسة وعن إيمان مطلق، وهذا هو المكيافيلية بعينها.

من أوائل الحكام الأوروبيين الذين تأثروا بمكيافيللي الملك الإسباني شارل الأول (١٥٠٨ - ١٥٥٨) الذي كان أول حاكم أوروبي قيل عنه أن ((الشمس لا تغيب عن ممتلكاته)). بالرغم من تعصبه للكنيسة الكاثوليكية وحمايته لها فقد شجع هو ووزراؤه توزيع ((الأمير)) في إسبانيا. وتحمس توماس كرومويل (١٤٨٥ - ١٥٤٠)، السياسي الإنكليزي البارز في عهد هنري الثامن، للأفكار الواردة في ((الأمير))، فقد حصل على نسخة مخطوطة منه ومكن ملكه من إقامة حكم مطلق أصبح هو واحدا من ضحاياه فيما بعد. وقد عثر على الكتاب في جيب كل من هنري الثالث وهنري الرابع ملكي فرنسا عند قتلهما. كما تأثرت به ألزابث الأولى (١٥٨٨ - ١٦٠٣) التي كانت أعظم حكام إنكلترا في عهد آل تيودور وحققت نجاحات مشهودة على الصعيدين الداخلي والخارجي، والتي كانت تحاول الحفاظ على التوازن في علاقاتها دائما. أما الوزير الأول الفرنسي ريشيليو الذي يعتبر من أنجح ساسة أوروبا في النصف الأول من القرن السابع عشر فقد أعجب بمكيافيللي إعجابا شديدا وإعترف في وصيته السياسية بأنه إعتمد على آراء مكيافيللي الذي دافع عنه وأكد بأنه لم يتجاوز في أعماله حد تسجيل أسلافنا بشكل صادق وأمين. وعرف نابليون بونابارت كتابي ((الأمير)) و ((المطارحات)) وجعلها في مقدمة أجود ألف كتاب إنتقاها لتؤلف له مكتبة متنقلة، وله تعليقات عن ((الأمير)) الذي يعتقد كذلك بأنه قام بترجمته. ولم يقل إعجاب نابليون الثالث بأفكار مكيافيللي عن إعجاب سلفه وقد تطرقنا فيما سبق من مواضيع الى عدد آخر من الحكام الذين تأثروا بمكيافيللي وحاولوا تطبيق تعليماته في تربة غير تربة إيطاليا القرن السادس عشر، منهم هتلر الذي إعترف بذلك

في كتابه المعروف ((كفاحي))[1]. وهناك، بالطبع، بعض الساسة الكبار الذين جاءوا بعد مكيافيللي ولم يطلعوا على آرائه، إلا أن كل واحد منهم يصلح أن يكون مثالا مشوها في الغالب للأمير الذي أراده مكيافيللي!.

ومع أن هناك من الكتاب من يعتبر الرئيس الفرنسي السابق شارل ديغول الأنموذج الأمثل للأمير الحديث[2]، إلا أنه من الصعب في الواقع أن يستطيع حاكم معاصر، مهما كانت الظروف، تقمص الشخصية التي أرادها مكيافيللي بحذافيرها. وهنا يجدر بنا أن نجلب النظر الى فكرة مهمة طرحها الثوري الإيطالي غرامشي بهذا الصدد. ففي رأيه أن الفرد في عالمنا المعاصر عاجز أن يتحول الى (أمير) مكيافيللي، لذا فإن الذي يستطيع، بل يجب أن يغدو الأمير الحديث هو الحزب السياسي الثوري[3]. وليست الأساليب التي يدعو إلى إتباعها سانتياغو كاريللو السكرتير العام للحزب الشيوعي الإسباني في كتابه((الأوروشيوعية)) سوى تعبير من نوع جديد لما ذهب إليه غرامشي. فهو يقول بصدد الإتجاه الجديد((... قد نجد رفاقا يفكرون أن إتجاها كهذا نوع من المكيافيللية يسمح لنا في لحظة ما أن نحصل على كل شئ، وإنهم يجدون ذلك الموقف طبيعيا تماما))[4].

كل ما سبق يبين، بشكل لا لبس فيه، الموقع البارز الذي كان، ولا يزال، يحتله مكيافيللي في الفكر السياسي العالمي وتطوره. فكان من الطبيعي أن يحتل نيكولو، مهما طال الزمن، المكانة المرموقة الجديرة به في قلوب الناس، ولا سيما الطليان.

---

[1]. راجع: ((المطارحات))، المقدمة ، ص ١٥ – ١٧؛ ف. ي. روتينبورغ، المصدر السابق، ص ١١٤؛ ر. موسجروف سكوب، تراث النهضة، ((تاريخ العالم))، الترجمة العربية، المجلد السادس، ص ٦٥؛
H. Butterfield, Op. Cit., pp. 81 – 83; J. Plamenatz, Op. Cit., p. 42; J. R. Strayer and Others, The Mainstream of Civilization, New York, 1974, p. 408.

[2]. ومن المؤلفين من يعتبر نابليون بونابرت "التعبير الصادق" للمكيافيللية (راجع مثلا:- H. Butterfield, Op. Cit., p. 102. "The Prince", p. 21 (The Introduction);

[3]. راجع: أنطونيو غرامشي، المصدر السابق، ص ٤٣ وغيرها.

[4]. سانتياغو كاريللو، الأوروشيوعية والدولة، ترجمة د. سعاد محمد خضر، بغداد ١٩٧٨، ص١٤.

التراجع:

بينا في أكثر من مكان كيف أن القوى المحافظة عجزت عن حجب حقيقة مكيافيللي عن أنظار الخواص أولا والعوام فيما بعد. فقد بدأ الأوروبيون يفهمون الأهداف النبيلة التي توخاها مكيافيللي في كل ما عرض من أفكار وقيم فتغيرت، بالتالي، نظرتهم اليه، فالبرغم من التشويهات المستمرة لم يكن من الصعب جدا إدراك أن مكيافيللي يأتي في مقدمة رسل الوحدة القومية وروادها لا في إيطاليا فحسب، بل وعلى صعيد كل القارة الأوروبية كذلك. فإن شخص كافور، زعيم الوحدة الإيطالية، كان متأثرا بأفكار نيكولو. وسوف يبقى الإيطاليون يتذكرون هذه الحقيقة التي جاء تعبيرها على لسان أحد شعرائهم هكذا:

((إني
إيطاليا عظيمة وموحدة
وقد علمني
نيكولو مكيافيللي))[1].

وليس عبثا أن داره الواقعة في قريته القريبة من فلورنسة قد حولت الى متحف وطني، وإن الإيطاليين إحتفوا بمرور أربعمائة عام على مولده كعيد قومي حيث أقيم في ذلك اليوم ضريح فخم في المكان الذي دفن فيه نيكولو وقد حفرت عليه وتحت إسمه مباشرة أبلغ عبارة تعوض عن كل ما لاقاه في الحياة وبعد الممات:

((أنى للمديح أن يفي هذا الإسم حقه!))

وكان لا بد للكنيسة أن ترضخ للواقع أخيرا، فقد رفعت في العام ١٨٩٠ أسماء مؤلفات مكيافيللي من قائمة الكتب الممنوعة. ولم يكن ذلك سوى تراجع منطقي أمام واقع ثابت.

ولكن بالرغم من كل ذلك لا تزال تسود الأذهان في شرقنا صورة مشوهة لمكيافيللي وخلط كلاسيكي بينه وبين المكيافيلية التي إبتلى الشرقيون بأساليبها أكثر من غيرهم وقبل أن يرى نيكولو النور بقرون طوال. على أية حال أن مكيافيللي والشرق من المواضيع التي لم تعالج بعد، مع أنه يستحق الدرس والإهتمام لأكثر من سبب.

---

[1]. مقتبس من أ. ك. جيفيليكوف، المصدر السابق، ص ١٠١.

الموضوع الخامس
مكيافيللي والشرق

لم يتطرق مكيافيللي في مؤلفاته الى الشرق والشرقيين إلا فيما ندر، وذلك في حدود ذكر بعض المعلومات القليلة عن الحكومات الشرقية القديمة التي إستقاها، في أغلب الظن، من مصادر كالأناباسيس الذي وقع تحت تأثير صاحبه زينفون. كما تطرق الى الجيش العثماني وأشاد به، ولا سيما أن ذلك الجيش كان يتمتع يومذاك بسمعة عالية في الأوساط الأوروبية لما تميز به من روح الطاعة والإقدام وجراء ما حقق من نجاحات سريعة في مناطق البلقان الأوروبية وغيرها.

ولكن يجب النظر الى مكيافيللي وعلاقته بالشرق من زاوية أخرى. فإن التأثيرات الشرقية على النهضة (Renaissance) كنقطة إلتقاء حضارية مهمة من الأمور المسلم بها علميا. ولا شك في أن مكيافيللي قد تأثر كإبن عصره وكأحد أعلام النهضة في ذروتها بالأفكار الشرقية سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. وقد سبقه في ذلك أبرز إثنين من رواد النهضة وهما دانتي وبترارك، فقد تأثر الأول في قصته الشعرية المعروفة ((الكوميديا الإلهية)) برسالة الغفران لأبي العلاء المعري وتأثر الثاني في قصته ((ديكاميرون)) بألف ليلة وليلة. وهنا أود أن أعرض رأيا عن إحتمال تأثر مكيافيللي بقصص ((كليلة ودمنة))، أو على الأقل إطلاعه عليها، وهو رأي يستحق البحث والتأمل لوجود بعض القرائن التي تدفع المتتبع الى مثل هذا الإعتقاد.

فقبل كل شئ إن ((كليلة ودمنة)) قد ترجمت من السريانية الى اليونانية في العام ١٠٨١، ومن العربية الى الإسبانية في القرن الثالث عشر والى اللاتينية في القرن الرابع عشر وإنتشرت بعد ذلك في جميع الأقطار الأوروبية تقريبا وتركت بعض الأثر في الإبداع الأدبي لشعوب كثيرة. ويستبعد جدا أن مثقفا مثل مكيافيللي كان يتلقف الكتب وكان لديه متسع من الوقت، يستبعد أنه لم يطلع على ((كليلة ودمنة))، خاصة وإن صديقه الحميم مارسيليو فيرجيليو كان من الكتاب المعروفين وغدا أستاذا للأدب قبل أن يطرق مكيافيللي باب التأليف السياسي والأدبي. ثم أن مكيافيللي كان يميل

الى الإبتعاد عن روح الإستبداد الشرقي[1]، وهو نفس الشئ الذي إستهدفته حكم ((كليلة ودمنة)).

وإذا أجرينا بعض المقارنات بين آراء مكيافيللي ومضامين وقصص ((كليلة ودمنة)) فإننا نجد أكثر من نقطة إلتقاء بينهما قد تكون نتيجة تأثر أو مجرد أمر عفوي يجلب النظر في كل الأحوال. فإن إثنين من أغراض ((كليلة ودمنة))[2] الأربعة، حسب تحديد إبن المقفع، يستهدفان الملوك حتى((يكون حرصهم أشد للنزهة في تلك الصور)) (ص٩٥). ومن أقوال إبن المقفع قبل دخوله في صلب القصص إن ((من كانت فيه لم يستقم أمره له: منها التواني في العمل، ومنها التضييع للفرص، ومنها التصديق لكل مخبر)). وينبغي للعاقل ((ألا يقبل من أحد، وإن كان صدوقا، إلا صدقا. وينبغي له، إذا إلتبس عليه أمر، ألا يلج في شئ منه، ولا يقدم قبل أن يستيقن بالصواب منه.. وعلى العاقل ألا يأخذ إلا بالحزم ويعلم أن الجزاء كائن))(ص ٩٢). وإن أحد ملوك الشرق حاول إقتناء كتاب حكماء الهند ((وضمه الى نفسه، والإستعانة به على سياسته، والعمل بحسن تدبيره)) وذلك لما فيه((مما يحتاج إليه الملوك في سياسة رعيتها وإقامة أودها وإنصافها)) (ص٩٨). ويعرف من يقرأ هذا الكتاب((فضل الملوك وطاعتهم، ويؤثرها على سائر الأعمال، وليعلم أن الشريف من شرفته الملوك، ورفعته في دولتها))(ص١٥٧). وكما تقول دمنة للأسد أن ((رعية الملك ومن بحضرته منهم يجب أن يعرفوه ما عندهم من المروءة والعلم، ويبذلوا له نصيحتهم. فإن الملك لا يعرفهم ولا يضعهم في منازلهم التي هم أهلها ومستحقون لها إلا بذلك))(ص ١٣٦). ويقول له كذلك: ((وكثرة الأعوان، إذا لم يكونوا نصحاء مجربين، مضرة على العمل، فإن العمل ليس بذلك رجاؤه بل بصالح الأعوان وذوي الفضل))(ص١٣٧). ومن أقوال دمنة للملك الأسد كذلك ((والجرذ في البيت جار مجاور فلما صار مؤذيا عودي ونفي. والبازي وحشي غريب، فلما صار نافعا أقتني وأتخذ وأكرم))(ص ١٣٧).

قد تطرقت قصص ((كليلة ودمنة)) الى طباع الناس دور القدر مرات كثيرة في صورة مستعارة. فإن الملك الأسد يقتنع بأقوال دمنة ويستنتج أن الناس صنفان

---

[1]. "The Prince", p. 22(The Introduction).

[2]. إعتمدنا على النسخة التي حققها وعلق عليها ونسقها الشيخ ألياس خليل زخريا، بيروت ١٩٦٣.

((أحدهما طباعه الشراسة، فهو كالحية التي إن وطئها الواطئ فلم تلدغه لم يكن جديرا أن يضره ذلك فيعود لوطئها ثانية. أو آخر طباعه السهولة اللين، فهو كالسندل البارد الذي إذا أفرط في حكه صار حارا مؤذيا))(ص ١٣٨). ومن أقوال دمنة للأسد أن ((صاحب الشر لا يسلم منه، وإن ضعف إحتال بغيره))(ص ١٥٦). وإن ((الملوك حزمة لا يعلنون العقوبة إلا لمن ظهر ذنبه))(ص ١٥٦ - ١٥٧) وإن ((أهل الشر أكثر من أهل الخير بكل مكان، فإذا عادوه وكثروا عليه أو شكوا أن يهلكوه. فإن لم يكن هذا فهو إذن القدر الذي لا يدفع))(ص١٦١). وجاء على لسان الثور أن ((خير السلطان من أشبه النسور حولها الجيف، لا من أشبه الجيف حولها النسور))(ص١٦٦).

في بعض الأحيان يلاحظ المرء التطابق الكلي في الرأي، بل وحتى التقارب في التعبير بين ((الأمير)) و ((كليلة ودمنة)). فقد ورد على لسان كليلة ، مثلا، ((أن الرجل الضعيف، بالرفق والحيل يظفر بهم، وبالحيل يركب الفيل، ويأخذ الحية ويلعب بها، ويصير الأسد في التابوت، ويجري الماء على موضع ما يريد، ويمنع مضرة النار والريح والشمس، ويستخدم القوى)) (ص١٧٢). وإن((السلطان إذا كان صالحا، ووزراؤه غير صالحين، قل خيره على الناس وإمتنع منهم فلم يجتر عليه أحد، ولم يدن منه .. وإنما حيلة الملوك وزينتهم قرابينهم أن يكثروا ويصلحوا))(ص ١٧٣ - ١٧٤). ومن أقوال دمنة للأسد: ((... أيها الملك لا ترحم من تخافه، فإن الملك الحازم ربما أبغض الرجل وأقصاه، ثم تكاره عليه، فقربه وولاه لما يعرف من عنائه وفضله، فعل المتكاره على الدواء البشع رجاء منفعته ومغبته. وربما أحب الرجل وأدناه، ثم أهلكه وإستأصله، مخافة ضره، كالذي تلدغ الحية أصبعه فيقطعها مخافة أن ينتشر السم في جسده كله فيقتله))(ص ١٨٠). و ((إنما السبب في الوجه الذي يستقيم العمل أن يكون عالما بمودة من يريد الإستعانة به، وما عند كل رجل منهم من الرأي والغناء، وما فيه من العيوب .. ثم على الملك بعد ذلك تعاهد عماله والتفقد لأمورهم حتى لا يخفي عليه إحسان محسن ولا إساءة مسئ. ثم عليهم ألا يتركوا محسنا بغير جزاء ولا يقروا مسيئا ولا عاجزا عن العجز والإساءة. فإنهم إن ضيعوا ذلك وتهاونوا به تهاون المحسن وإجترا المسئ، ففسد الأمر وضاع العمل))(ص ٣٤٨).

ومن أقوال الفيلسوف للملك ((أيها الملك إني وجدت الأمور التي يختص بها الإنسان من بين سائر الحيوان أربعة وفيها جماع كل ما في العالم وهي الحكمة والعفة والعقل والعدل. فالعلم والروية داخلة في باب الحكمة. والحلم والصبر والرفق والوقار داخلة في باب الحكمة والصيانة والأنفة داخلة في باب العفة. والصدق والمراقبة والإحسان وحسن الخلق داخلة في باب العدل. وهذه هي المحاسن وأضدادها هي المساوئ فهي إن كملت في واحد لم تخرجه الزيادة في نعمته الى سوء حظ في دنياه أو الى نقص من عقباه ولم يتأسف على ما لم يعن التوفيق ببقائه ولم يحزنه ما تجري به المقادير في ملكه ولم يندهش عند مكروه يقدمه. والحكمة كنز لا يفنى مع الإنفاق وذخيرة لا يضرب لها بالاملاق وحلة لا تخلق جدتها ولذة لا تنصرم مدتها))(ص٧٦).

وعندما تقرأ الأسطر التالية تحس وكأن الفيلسوف بيدبا يخاطب ميديتشي على لسان مكياڤيللي في إهدائه ((الأمير)): ((فأقول أيها الملك إنك في منازل آبائك من الملوك وأجدادك من الجبابرة الذين أنشأوا المدن قبلك ودانت لهم الأرض وبنوا القلاع وقادوا الجيوش وإستحضروا العدة وطالت لهم المدة وإستكثروا من السلاح والكراع وعاشوا الدهور في الغبطة والسرور فلم يمنعهم ذلك من إكتساب الجميل ولا قطعهم عن إغتنام الشكر))(ص ٧٧ - ٧٨).

ومن الجدير بالذكر أن التشابه بين أمور معينة وردت في قصص ((كليلة ودمنة)) ومؤلفات مكياڤيللي لا ينفي، من جانب آخر، وجود إختلاف بينهما. فإن مكياڤيللي، مثلا، لم يعط القدر والحظ إلا ٥٠٪ في تقرير الأمور، بينما جاء على لسان الفيلسوف متوجها الى الملك في ((كليلة ودمنة)): ((ليعرف أهل النظر في الأمور والعمل بها إن الأشياء كلها بقضاء وقدر))(ص ٣٥٠) وإن ((الإجتهاد والجمال والعقل وما أصاب المرء من خير وشر فبقضاء وقدر))(ص ٣٤٨). وهنا يجب أن نأخذ بنظر الإعتبار أن مكياڤيللي قد تأثر كذلك بأرسطو، إلا أنه إختلف عنه أيضا في نقاط محددة، أو على الأقل في أسلوب عرضه لما كان يعالج، ولا سيما في إعتماده المستمر على الشواهد التاريخية.

على أية حال إننا عندما نقول بإحتمال تأثر مكياڤيللي بحكم ((كليلة ودمنة)) أو إطلاعه علّيها، فإننا لا نستبعد أيضا أن يكون إلتقاء بعض ما ورد في الأخيرة مع أفكار مكياڤيللي نابعا من مجرد الصدفة أو رد الفعل المشابه على ظروف متشابهة. وفي الواقع أن هناك بعض التشابه بين تقييمات مكياڤيللي وإبن خلدون كذلك، لكن دون أن تتوفر أدلة ثابتة تبين إطلاع الأول على مقدمة الثاني[١]. فقد إسترسل إبن خلدون بدوره في وصف ما ينبغي أن يكون عليه الحاكم المثالي، دون أن يصر على مهماته الروحية وإقتصر على وصفه ((بالملك المستنير، العطوف القوي، ولكنه يرفض إجراءات ((القمع)) اللاشرعية، ويهتم برفاهية شعبه وبأمنه))[٢]. وهو بذلك إستهدف بدوره قيام الدولة المستقرة، القوية المنظمة، دولة يستطيع فيها الملك أن يمسك بزمام الأمور ضد كل أنواع الطامعين. ثم انه في بحثه عن الحقيقة إكتفى بعرض الوقائع المادية وشرحها وبالبحث عن القوانين التي تقود تطورها. وفي رأي هلمون ريتر أن ما يسميه إبن خلدون بالعصبية، هو ما أطلق عليه مكياڤيللي إسم الفضيلة[٣].

ومن المفيد أن نذكر إبن خلدون الذي لم يظهر في آرائه متعارضا مع العقيدة، أتهم أيضا بالزندقة. كما أن العديد من المؤرخين نظروا الى أفكاره من علياء القرنين التاسع عشر والعشرين وأهملوا بشكل خاص ((البحث في أسباب ظهور هذا الأثر التاريخي الخارق (المقدمة – ك. م.) في القرن الرابع عشر))[٤]. وهو نفس ما حدث مع مكياڤيللي كما بينا ذلك في حينه.

إهتم الحكام الشرقيون بأفكار مكياڤيللي في وقت مبكر نسبيا. فيعتقد أن كتاب ((الأمير)) قد ترجم خصيصا للسلطان العثماني مراد الرابع الذي إتبع أساليب مكياڤيللية في التخلص من الخصوم وفرض هيبة الحكم على الناس، ولكن بشكل بعيد جدا عن القيم التي توخاها مؤرخ النهضة الكبير. فيقدر عدد الذين قتلوا بأمر مباشر منه بحوالي ١٠٠ ألف شخص، يدخل ضمنهم ثلاثة من إخوته وأحد أعمامه.

---

[١]. ينوي الزميل الدكتور ناجي حسن معالجة هذا الموضوع في بحث مستقل.

[٢]. راجع: إيف لاكوست، العلامة إبن خلدون، ترجمة الدكتور ميشال سليمان، بيروت، بلا، ص ١٥٦.

[٣]. نفس المصدر، ص ١٢٩.

[٤]. نفس المصدر، ص ١٦٩.

وفي العام ١٦٣٧ عندما كان الطاعون يقضي يوميا على حياة حوالي ٥٠٠ نفس من سكان العاصمة إستانبول، كان هو يقضي ليالي حمراء مع محضياته ويقول متهكما ((أن الله يعاقب هذا الصيف الأشرار، وربما في الشتاء يأتي على الأشراف))[1].

ولم يقل إهتمام محمد على الكبير ب ((الأمير)) عن إهتمام أي من حكام أوروبا السابقين أو المعاصرين له. وليس ذلك بأمر غريب على حاكم ناجح مثل محمد علي الذي قال ماركس عن مصر في عهده ((الجزء الوحيد القادر على الحياة في كل الإمبراطورية العثمانية)). فإنه بالرغم من عدم تعلمه القراءة والكتابة إلا في سن متأخرة من عمره، كان يهتم بكل ما يتعلق بنظم الحكم، مما شكل احدا من أسرار نجاحه الكبير.

بعد أن عرف محمد علي أهمية ((الأمير)) عن طريق الدبلوماسيين الأجانب كلف الأب روفائيل أنطوان زاخور[2] بترجمته الى العربية في حوالي العام ١٨٢٤-١٨٢٥[3] لأنه، كما ذكر بنفسه، ((جد مشوق لمعرفة ما يتضمنه هذا الكتاب)). والطريف أن محمد علي بعد إطلاعه على ((الأمير)) قيمه في لقاء له مع دبلوماسي إيطالي بهذا الشكل: ((إنكم تثيرون في إيطاليا ضجة كبيرة حول كاتبكم المعروف مكياڤيللي، وقد أمرت بترجمة كتابه .. لكي أعرف ما فيه ولكنني أعترف بأنني وجدته أقل بكثير مما كنت أتوقع، ومن الشهرة التي له. وإنني أعلن إليك أيضا أن هناك مؤلفا آخر عربيا أثار دهشتي ونال إعجابي .. هو مقدمة إبن خلدون. إن هذا الكاتب أكثر حرية في تفكيره من مكياڤيللي، بل إنني أعتقد أن كتابه أكثر وأشد نفعا، وإذا كان كتاب مكياڤيللي ممنوحا تداوله في بعض البلاد الأوروبية، أفما كان من الأجدر أن يكون المنع أتم وأعم بالنسبة لمقدمة إبن خلدون؟)).

---

[1]. Creasy, History of the Ottoman Turks, Beirut, 1961, pp. 252 – 253.

[2]. أحد المترجمين السوريين الذي عمل لدى الفرنسيين أيام حملتهم على مصر ومع محمد علي الكبير في عهده.

[3]. للتفصيل راجع: الدكتور جمال الدين الشيال، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، القاهرة، ١٩٥١، ص ٧٨ – ٨٢، ١٦٦ – ١٦٧، ٢١٦.

ولا شك في أن الذي أثر على رأي محمد علي ضعف ترجمة ((الأمير)) وركاكة أسلوبها التي جعلتها صعبة الفهم، غير قابلة للنشر[1]. مع ذلك فإن لتلك الترجمة أهميتها التاريخية لكونها أول تعريب لكتاب ((الأمير)) الذي ترجمه مرة أخرى المحامي المصري محمد لطفي جمعة من الإيطالية في العام ١٩١١ ونشره في العام ١٩١٢ تحت عنوان ((كتاب الأمير. وهو تاريخ الإمارات الغربية في القرون الوسطى))[2].

إستهل المترجم الكتاب بمقدمة وافية تقع في ٥٠ صفحة [3] يستعرض فيها نواحي مختلفة من حياة مكياڤيللي ومؤلفاته بأسلوب سلس، موضوعي. وقد بلغ إعجاب المترجم بمكياڤيللي حد أنه سافر خصيصا الى إيطاليا وزار قريته وداره، وإتصل في باريس بأحد أحفاده. وهو يعبر عن ذلك في مقدمته بأسلوب أدبي، فمما جاء فيها:

((لما قرأت كتاب (الأمير) شغفت به وكنت أحمله بجانب رباعيات الخيام. أقرأ الخيام لدى حزن النفس وإنقباض الصدرلا ثمل بخمره المقدسة المطهرة وأقرأ ((الأمير)) لأفيق من خمرة الخيال ولأعود الى ميدان الحقائق المؤلمة التي تصطدم فيه جيوش القوى والرغائب وتشتبك به سيوف الحوادث ورماح الكوارث))[4].

وإدا أخذنا بنظر الإعتبار أن قراءة المترجم الأولى ل ((الأمير)) جعلته ((في حيرة لصعوبة إدراك معاني الكتاب ومغزاه))، وإضطراره ((لإعادة الكرة بعد المرة)) الى أن إكتفى ((في نهاية الأمر بإستيعابه وإدراك فحواه))[5]، لفهمنا مصدر بعض الثغرات الواردة في ترجمته التي تتميز، مع ذلك، بسلاسة الأسلوب ووضوح المعنى

---

[1]. عن ركاكة الترجمة راجع المقارنة التي أجراها الدكتور جمال الدين الشيال في ص ٢١٦ من كتابه. ومن الجدير بالذكر أن مخطوطة هذه الترجمة ما تزال محفوظة في دار الكتب المصرية.

[2]. ((كتاب الأمير. وهو تاريخ الإمارات الغربية في القرون الوسطى))، تأليف نيقولا مكياڤيللي، تعريب محمد لطفي جمعة المحامي، القاهرة، ١٩١٢.

[3]. نص ((الأمير)) في ترجمته العربية الثانية تقع في ١٤٨ صفحة.

[4]. نفس المصدر، ص ٣٥.

[5]. نفس المصدر، ص ٣٣.

مما يعطي إمكانية فهم المضمون الأساسي للأمير بشكل لا لبس فيه. ولكن حسبما يبدو، أن هذه الترجمة[١] ومقدمة صاحبها لم تلعبا دورا ملموسا في تكوين فكر سليم عن مكيافيللي وأفكاره لدى القارئ العربي والشرقي على العموم، علما بأن جميع الدلائل تشير الى تبلور مثل ذلك الفكر إنما يعود الى بداية القرن العشرين([٢])، أي الى عهد لم يعد فيه مفكر أو مؤرخ غربي لم يقيم، مهما تحيز، مؤلفات مكيافيللي إيجابا، منهم المؤرخ الجزويتي (ليسلي وكر) عـيد كلية كامبيون في جامعة أكسفورد سابقا. وفي الواقع قلما يوجد مؤرخ معروف معاصر لم يقيم مكيافيللي عاليا.

ومن المفيد أن نشير في نهاية هذا الموضوع الى أن شرقنا شهد قبل القرن الخامس عشر أناسا كتبوا بأسلوب مكيافيللي. فإذا كان الشيطان لدى مكيافيللي سيستسلم أمام حيل فلاح بسيط فيفضل العودة الى الجحيم[*] فإن المؤلف العربي المجهول صاحب كتاب ((رقائق الحيل في دقائق الحيل)) جعل من موسى علّيه السلام يستسلم لحيل الشيطان قبل مكيافيللي بقرن واحد من الزمان[**].

---

١. صدرت في العام ١٩٦٠ ترجمة عربية جديدة للأمير أنجزها خيري حماد، وقد نشرت حتى الآن طبعات عدة لهذه الترجمة التي تضم الى جانب نص ((الأمير)) تعليق موسوليني عليه مع مقدمة ضافية لكريستيان غاوس وتعقيبا لفاروق سعد وردا كملحق في نهاية الكتاب.

٢. إن المحامي محمد لطفي جمعة الذي، كما يبدو من مقدمته للأمير وأسلوب ترجمته له، كان ذا ثقافة رفيعة، ولكنه، مع ذلك لم يسمع بمكيافيللي إلا عن طريق أحد الأوروبيين الذي جلب ثناؤه الكبير وإستشهاداته المستمرة بمكيافيللي نظر المحامي المصري فعزم على البحث عن ((الأمير)) وترجمته.

الخاتمة

إن أفضل ما نختتم به هذا البحث هو إستعراض آراء معاصرة مهمة توضح بصورة جلية ما ذهبنا إليه ضمن المواضيع السابقة.

تطرقنا فيما سبق الى آراء عدد كبير من الفلاسفة والمفكرين الذين فهموا واقع أفكار مكياڤيللي فقيموها عاليا. وكان من الطبيعي ألا يقتصر الأمر على هؤلاء. ففي عصرنا عالج عدد كبير من المفكرين والكتاب المنتمين الى مدارس فكرية متباينة الموضوع نفسه فأبرزوا مكياڤيللي مؤرخا وعالما سياسيا كلما تناولوا عصر النهضة أو تطور علم السياسة أو تقدم الدراسات التاريخية. وبين هؤلاء عدد غير قليل من المؤرخين الغربيين المعروفين الذين يتمتعون بسمعة رفيعة في الشرق حيث ترجمت مؤلفاتهم الى لغاته، ولكن دون أن يؤثر ذلك على الرأي الشائع عن مكياڤيللي بين أبنائه. وهنا نقتصر على ذكر نماذج قليلة من آراء المؤلفين الأجانب لنختتم بها بحثا عن مؤرخ النهضة الكبير.

جاء في (الإنسكلوبيديا البريطانية) قولها عن مكياڤيللي:

((كان الكاتب ورجل الدولة الإيطالي نيكولو مكياڤيللي مفكرا وطنيا عبقريا، ولد فهمه الحاذق للسياسات المعاصرة له وإدراكه العميق لطبيعة الإنسان أفضل النتاجات التي غالبا ما أعتبرت خطأ أعمالا فاسدة أو ساخرة.. إنه كان رجلا مستقيما ومواطنا جيدا وأبا رائعا.. كان كاتبا عظيما لأنه كان مفكرا عظيما))[1].

أما ((الإنسكلوبيديا الأمريكية)) فإنها تعتبر مكياڤيللي رمزا للإنتقال من العصر الوسيط الى العصر الحديث، وتربط ((واقعية فكره السياسي)) بخدماته التي قدمها للنظام الجمهوري الفلورنسي، وتقيم صراحته عاليا، كما تؤكد بأن ((مكياڤيللي لم يذكر بأن لا قيم في السياسة، بل بأن للأخيرة قيمها الخاصة بها وإن مثل هذا المبدأ يبدو عادلا، بل حتى يعتبر تنبؤا بالنسبة لعصر أعتبر فيه تحقيق الوحدة القومية وإقامة الدولة الهدف الأسمى الذي يبدو كل شئ آخر في ظله ثانويا))[2].

(*). في مسرحيته الشهيرة((كبير الشياطين بلفيوفور)).

(**). راجع ((الثقافة))، بغداد، آب – أيلول ١٩٨١، ص ١٧٧ – ١٧٩.

1. "Encyclopedia Britannica", Vol. XI, Chicago – London, 1974, pp. 227-230.

2. "Encyclopedia Americana", Vol. 18, New York, 1976, pp. 52 – 53.

وفي نظر ((الإنسكلوبيديا الفلسفية)) السوفيتية فإن مكيافيللي كان واحدا من أبرز المفكرين الطليان الذي حاول ((الكشف عن قوانين تطور المجتمع بمعزل عن اللاهوت))، ونظر الى الدولة والحكام نظرة واقعية وكتب من أجل الوحدة الإيطالية عن إيمان مخلص[١]. وقد ورد نفس الشئ تقريبا في ((الإنسكلوبيديا التاريخية السوفيتية)) [٢] والطبعتين الثانية والثالثة من((الإنسكلوبيديا السوفيتية الكبرى))[٣]. وقد جاء في الجزء الرابع من تاريخ العالم((أن الآثار المميتة لإنقسام إيطاليا كانت واضحة الى درجة أن بعض ممثلي البورجوازية الأكثر تقدمية طالبوا في القرن السادس عشر بالوحدة الإيطالية. والأول من بين هؤلاء هو المفكر السياسي والمؤرخ المعروف نيكولو مكيافيللي)) [٤]. وقد أعطى المؤرخ الأمريكي كارلتون هيس تقييما مشابها لمكيافيللي[٥].

يعترف اليوم أكثر الناس تعصبا للجزويت وأقلهم عطفا على مكيافيللي[٦] أنه ((إكتشف طريقة جديدة في البحث و... إبتكر أسلوبا جديدا في معالجة السياسة بالإضافة الى نظرياته السياسية الجديدة)) وإستشف ((الحوافز والدوافع التي تقوم وراء الحركات السياسية بمنتهى الدقة والحدة))، لذا فإنه ((يعتبر من أكثر الكتاب البارزين وأوسعهم تأثيرا على الشؤون السياسية في العالم)) مما يجعل ((أراءه في المشاكل السياسية جديرة بالدرس والتقصي العميقين))[٧]. وهناك من يعتبره، ومن المنطلق

نفسه، ((أبا للعلوم السياسية))[٨]، أو ((رسولا للدولة القومية الحديثة))[٩].

---

١. "الإنسكلوبيديا الفلسفية"، باللغة الروسية، الجزء الثالث، موسكو، ١٩٦٤، ص ٢٨٠ – ٢٨١.

٢. "الإنسكلوبيديا التاريخية السوفيتية"، باللغة الروسية، الجزء الثامن، موسكو، ١٩٦٥، ص ٩٣٣ – ٩٣٤.

٣. "الإنسكلوبيديا السوفيتية الكبرى"، باللغة الروسية، الطبعة الثانية، الجزء ٢٥، موسكو، ١٩٥٤، ص ١٠٦ – ١٠٧؛ الطبعة الثالثة، الجزء ١٥، موسكو ١٩٧٤، ص ٢٤ (٧٠٩ – ٧١١).

٤. "تاريخ العالم"، باللغة الروسية، الجزء الرابع، موسكو، ١٩٥٨، ص ١١٥.

5. C. J. Hayes, Op. Cit., pp. 18, 115.

٦. نقصد به الجزويتي ليسلي وكر العميد السابق لكلية كابيون.

٧. راجع ص ١٩ و ٢٢ من م مقدمة ليسلي وكر في "المطارحات".

8. "Action and Conviction in Early Modern Europe, Editors J. K. Rabb and J. E. Seigel, Princeton, New Jersey, 1969, p. 26. غدت صفة مؤسس علم السياسة ملازمة لمكيافيللي منذ ما لا يقل عن نصف قرن.

9. F. Gilbert, Op. Cit., pp. 183, 199.

أكد المؤرخ الأمريكي روبرت بالمر في إثنين من مؤلفاته على أن مكيافيللي يعد ((الأبرز بين كتاب عصر النهضة الإيطالية)) وبأن ((الأمير)) ((أعظم أثر خالد)) يعود الى ذلك العصر، وبأن مكيافيللي كان ((يحلم باليوم الذي يسلك فيه سكان فلورنسة، أو بالأحرى جميع الإيطاليين، مسلك الرومان القدماء بإظهار الرجولة في مجالاتهم السياسية ويحاربون في صفوف جيش المدن بدافع الأهداف الوطنية فيرفعون كرامتهم عاليا أمام أوروبا))[١].

وهناك من المؤرخين الإيطاليين المعاصرين من يعتبر مكيافيللي ثائرا[٢] و((رسولا أعزل))[٣]. وقلما يوجد بين المؤرخين اليوم من لا يقر بأن مكيافيللي ((كان مواطنا جيدا وصديقا حميما وأبا حريصا، وطنيا، بل وحتى مثاليا))[٤].

في الإمكان إيراد عشرات الأمثلة الأخرى من هذا القبيل، ولكن نكتفي بذكر الصورة المعبرة التي قدمها أ. ف. جيفيليكوف في بحثه عن مكيافيللي: ((لم تستطع إيطاليا أن تتوحد. لماذا؟ هذا هو السؤال الذي وجهه نيكولو الى نفسه. نحن نعلم جوابه (جواب مكيافيللي –ك. م.): أولا لإنعدام الوحدة السياسية في إيطاليا وثانيا لأنه لا يوجد في إيطاليا جيش وطني سواء من أبنائه أو من المرتزقة. إذن ما العمل؟ ومرة أخرى كان الجواب واضحا للغاية: إقامة الوحدة وتأسيس الجيش. ولتحقيق ذلك كان لا بد من توضيح الأساليب العملية. وفي تفكيره بصدد ذلك وضع مكيافيللي أسس علم السياسة، بالضغط مثلما فعل كولومبس عندما بحث عن طريق الى الهند فوجد أمريكا)) [٥].

إن كل ما سبق يعطي مكيافيلي الحق، كل الحق، ليطالب الشرقيين بأن يروه كما هو ويقيموا أفكاره هي، ف: ((أنى للمديح أن يفي هذا الإسم حقه!)).

---

1. R. Palmer and J. Colton, Op. Cit., pp. 43, 55.

روبرت بالمر، تاريخ العالم الحديث، الجزء الأول "أوروبا من القرون الأولى حتى ١٧٤٠ ميلادية"، ترجمة الدكتور محمود حسين الأمين ، الموصل، ١٩٦٤، ص ٣٠٤، ١٠٦ – ١٠٧.

٢. راجع: ف. ي. روتينبورغ، المصدر السابق، ص ١٠٧ – ١٠٨.

3. R. Ridolfi, Op. Cit., pp. 251 – 254.

4. R. Weiss, The Spread of Italian Humanism, London, 1964, p. 83.

٥. أ.، ف. جيفيليكوف، المصدر السابق، ص ٩١.

محاضرات في تاريخ الدول الكبرى

بين الحربين العالميتين

محاضرات ألقيت على طلبة المرحلة الرابعة

قسم التاريخ / كلية الاداب / جامعة بغداد

السنة الدراسية 1983 - 1984



الأستاذ الدكتور

كمال مظهر أحمد

محاضرات في تاريخ الدول الكبرى

بين الحربين العالميتين

الأستاذ الدكتور

كمال مظهر أحمد

مفهوم مصطلح "الدول الكبرى" واهمية الموضوع

ظهر مصطلح " الدول الكبرى " في السياسة وبالتالي في التأريخ منذ عهد ليس بقريب. ففي العصور السابقة كانت كل دولة لها شأنها تعتبر نفسها قوة كبرى تدعي الالوية في كل شيء تقريباً. وقد أدى ذلك في بعض الاحيان الى خلق مشاكل ومنازعات حول اسبقية عوامل الدول الكبرى وممثليهم الدبلوماسيين.

وفي مؤتمر فينا عام ١٨١٤ –١٨١٥ تم لاول مرة تحديد الدول الكبرى بصورة رسمية عندما منح ممثلوا عدد كبير من الدول والامارات المشتركة في المؤتمر المذكور لقب الدول الكبرى الى كل من النمسا وانكلترا وروسيا وفرنسا، وفي السبعينات من القرن التاسع عشر حلت المانيا محل بروسيا كدولة كبرى وصعدت ايطاليا بعد تحقيق وحدتها الى مصاف الدول الكبرى. وفي اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بدأ المحفل الدولي يعترف بكل من الولايات المتحدة الامريكية واليابان كدولتين كبريين جديدتين.

وكان من الطبيعي ان تؤثر نتائج الحرب العالمية الاولى في تناسب القوى على الصعيد الدولي بصورة ملموسة، وبالتالي فقد تغيرت خارطة الدول الكبرى الى حد كبير بأن اختفت منها النمسا نهائيا والمانيا وقتياً. ولئن استمادت المانيا في الثلاثينات موقعها السابق على الصعيد الدولي الا انها سرعان ما فقدته مع خسارتها للحرب العالمية الثانية وهي جرّت معها حليفتيها في الحرب ايطاليا واليابان الى المصير نفسه، بينما صعدت الصين بالمقابل الى مصاف الدول الكبرى . فبموجب ميثاق الامم المتحدة الذي وضع مع انتهاء الحرب العالمية الثانية اصبح مصطلح "الدول الكبرى" يطلق على الاعضاء الدائميين الخمسة في مجلس الامن التابع لهيئة الامم المتحدة، اي الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي وبريطانيا العظمى وفرنسا والصين.

ومع ان ميثاق الامم المتحدة يقر مبدأ المساواة بين جميع الدول بغض النظر عن مساحتها ووزنها السياسي ومستوى تطور اقتصادياتها وامكاناتها البشرية وقدراتها العسكرية، الا انه في الوقت نفسه يضع مسؤولية حفظ السلام العالمي على عاتق الدول الكبرى المذكورة.

مما سبق يبدو واضحاً ان "الدول الكبرى" مصطلح مجازي غير ثابـــت، وأن سعة المساحة وكثرة النفوس لا تحددان بالضرورة طبيعة دولة ما كواحـــدة مـــن الدول الكبرى. فأن مساحة البرازيل، مثلا اكثر من خمسة ملايـــين كيلـــو متـــر ويتجاوز عدد سكانها ١١٠ ملايين نسمة بينما لا تدخل في عداد الـــدول الكبـــرى، وبالمقابل فان مساحة بريطانيا العظمى لاتصل الى ربع مليون كـــم٢ (وبالتحديـــد ٢٤٤,١ الف كم ٢ فقط) وبالكاد يصل عدد سكانها الى نصف عدد سكان البرازيل بينما تعتبر بريطانيا العظمى واحدة من اهم الدول الكبرى التي أدت الـــدور الاول في السياسة الدولية لحقبة طويلة من الزمن وهي لاتزال تؤدي دورا كبيرا علـــى الصعيد الدولي.

وفي كل الاحوال فان دراسة تأريخ الدول الكبرى تعتبر مهمة علمية ملحـــة للغاية لكون ذلك التاريخ حافلا بالاحداث المصيرية بالنسبة لكل العالم تقريبا ولان منطقتنا عانت ، ولم تزل تعاني الكثير من سياسات الدول الكبرى ومـــن نفوذهـــا المباشر وغير المباشر ومن الاعيبها المفضوحة والخفية، كما ان التأريخ الخـــاص لكل دولة من هذه الدول ملئ بالدروس والعبر المفيدة والنماذج التي تجعلنا أقـــدر على فهم حركة تطور التاريخ واستيعابها. واخيرا فان الدول الكبرى لاتزال تتمتع بوزن سياسي دولي حاسم الامر الذي يفرض علينا فهم تاريخها على أفضل صورة ممكنة.

الحرب العالمية الاولى

(١٩١٤ - ١٩١٨)

مقدمة عامة :-

الحرب العالمية الاولى واحدة من الاحداث الكبرى الحافلة بالمآسي في تاريخ الانسانية. فقد عم لهيب نارها، كما شملت عواقبها كل العالم تقريباً .

لقد اشتركت في هذه الحرب ٣٨ دولة[1] وخمسة وسبعون مليون جندي وضابط استخدموا احدث اسلحة الدمار من النوع الذي لم تعرفه البشرية من قبل. انها كانت حربا استعمارية طاحنة بين جبهتين رأسماليتين بلغت التناقضات الحادة بينهما حدا، أن "حلها" بواسطة الطرق الدبوماسية التقليدية والمساومات السياسية المعروفة غدا من الامور المستحيلة. ولكي نفهم الابعاد الحقيقية لتلك المأساة البشرية الكبرى لابد أن نلقي الضوء قبل كل شيء على العوامل الكامنة وراءها.

أسباب الحرب:

بلغت الرأسمالية مرحلة الامبريالية منذ اواخر القرن التاسع عشر، وقد شهد العالم انذاك اختلالا واضحا في ميزان التطور الاقتصادي. فأن البلدان التي بدأت تسلك طريق التطور الرأسمالي في وقت متأخر نسبيا مثل الولايات المتحدة الامريكية والمانيا واليابان الى حد ما بدأت تقطع الشوط بسرعة كبيرة فاخذت تنافس انكلترا وفرنسا في اسواق العالم التي كان معظمها في قبضة الاخيرتين كمستعمرات تابعة لهما كما هو مبين في الجدول التالي:

---

[1] كانت أربع دول منها فقط تقف في جبهة الدول المركزية وهي المانيا والنمسا المجر وتركيا (الدولة العثمانية) وبلغاريا.

خارطة توزيع المستعمرات عشية الحرب العالمية الاولى عام (١٩١٤)

البلاد	مساحة المستعمرات (مليون كم٢)
انكلترا	اكثر من ٣٣ [٢]
فرنسا	اكثر من ١٠
المانيا	اقل من ٣
الولايات المتحدة	٠,٣ [٣]

وعند تحليل هذه الارقام نرى ان مساحة مستعمرات المانيا التي كانت تحتل انذاك المرتبة الاولى بين الدول الصناعية الاوربية اقل بحوالي ثلاث مرات ونصف المرة من مساحة المستعمرات الفرنسية وبحوالي احدى عشرة مرة ونصف من مساحة المستعمرات الانكليزية وقد اثار هذا الواقع المانيا الى حد كبير، ذلك لان انتاجها الصناعي كان اكثر بكثير من حاجة سوقها الداخلية واسواق بعض البلدان المجاورة لها[٤]. ولذلك فقد اخذ الالمان يبحثون بحماس عن منافذ جديدة لمصالحهم منذ اواخر القرن التاسع عشر، وقد وجهوا انظارهم بصورة خاصة الى افريقيا والشرقين الادنى والاقصى – المناطق التي كان للانكليز فيها مصالح حيوية استماتوا من اجل الحفاظ عليها، مما ادى الى خلق تناقضات عميقة للغاية بين العملاقين الاوربيين – المانيا وانكلترا.وقد اثار مشروع سكة حديد بغداد

---

[٢] بلغت مساحة المستعمرات البريطانية ٣٣,٥ مليون كم٢ (مساحة انكلترا نفسها تبلغ ٢٤٤,١ كم٢) كان يقطنها حوالي ٣٩٤ مليون نسمة (بلغ عدد سكان انكلترا عام ١٩١٤ حوالي ٤٦ مليون نسمة فقط).

[٣] اي أقل من نصف مليون كم٢.

[٤] كان الوضع اهون آنذاك بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية وذلك بحكم مجموعة من العوامل تأتي في مقدمتها الامكانات الكبيرة لسوقها الداخلية مع سعة اسواق بلدان نصف الكرة الغربية التي كانت ابوابها مفتوحة امام البضاعة الامريكية.

مخاوف المستعمرين الانكليز لانه كان من شأن المشروع فتح طريق مباشر امام الالمان نحو الخليج العربي وبشكل يضمن لهم ظروفا انسب للتغلغل في شبه جزيرة البلقان وآسيا الصغرى ومناطق اخرى حساسة في الشرق الادنى الامر الذي كان يتضمن في الوقت نفسه تهديدا مباشرا للمواصلات المائية والبرية الانكليزية مع الهند.

تركت التناقضات الالمانية – الفرنسية بدورها اثرا كبيرا على العلاقات الدولية منذ العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر، لاسيما وان مشكلة الالزاس واللورين كانت تسعر نارها بشكل مستمر. فان المانيا كانت عازمة على الاحتفاظ بهاتين المقاطعتين اللتين استولت عليهما ايام الحرب الفرنسية – الالمانية عام ١٨٧٠-١٨٧١، بينما كان الفرنسيون يصرون على استعادتهما. وقد عقدت مسألة المستعمرات العلاقات الالمانية الفرنسية اكثر فان الالمان عارضوا بقوة محاولات الفرنسيين للاستيلاء على مراكش التي كانوا بدورهم يخططون من اجل فرض سيطرتهم عليها.

اما التناقضات الروسية الالمانية فانها اتخذت منذ اواخر القرن التاسع عشر طابعا جديا بسبب التغلغل الالماني المتزايد في اقطار الشرق الادنى. فان تثبيت الالمان لمواقع اقدامهم في تركيا كان من شأنه التاثير سلبا على المصالح الروسية الاقتصادية والسياسية في المنطقة وعلى اطماع روسيا في البسفور والدردنيل .

كما تحولت السياسة الكمركية للاوساط الالمانية الحاكمة الى عامل اخر ساعد على تردي العلاقات بين الدولتين. فان الالمان فرضوا رسوما عالية على القمح الروسي، بينما خفضوا الضرائب على منتوجاتهم الصناعية بشكل يسهل أمر غزوها للاسواق الروسية التي كانت البضائع الالمانية تؤلف حوالي ٤٦% من

مجمل مستورداتها الخارجية قبل الحرب. ولم تكن الاوساط الحاكمة في روسيا مرتاحة من موقف المانيا المشجع لطموحات الحكومة النمساوية المجرية في البوسنة والهرسك والصرب، بل في كل البلقان التني كانت روسيا القيصيرية تعتبرها منطقة نفوذ طبيعية بالنسبة لها. ولقد تفاقمت هذه التناقضات بعد ضم الامبراطورية النمساوية المجرية في ١٩٠٨ لاقليمي البوسنة والهرسك. وفي الوقت نفسه اثار مشروع سكة حديد بغداد مخاوف غير قليلة بين الاوساط الحاكمة الروسية التي تابعت تنفيذها خطوة فخطوة.

ومن الجدير بالذكر ان التناقضات بين المانيا من جهة وانكلترا وفرنسا وروسيا من جهة اخرى كانت من القوة بحيث انها جعلت من التناقضات والخلافات الدولية الاخرى تحتل المرتبة الثانية بالقياس معها، والا فان مشاكل غير قليلة كانت قائمة يومذاك بين انكلترا وفرنسا (حول مصر) وبين انكلترا وروسيا (حول ايران وافغانستان والتبت وتركيا) وبين النمسا – المجر وايطاليا (حول البانيا) وغيرها من المشاكل والخلافات المشابهة.

بدأت الدول الاوربية الكبرى تعاني عشية الحرب من مشاكل وتناقضات اجتماعية داخلية حادة. ففي روسيا انفجرت ثورة عارمة ضد القيصرية في ١٩٠٥– ١٩٠٧، كما اشتد ساعد الحركة العمالية في كل من المانيا وفرنسا وانكلترا وروسيا . وطرأ مد كبير على حركات التحرر الوطني في الالزاس وايرلندا وبين الشعوب الخاضعة للامبراطورية النمساوية – المجرية وقد رأت الاوساط الاستعمارية في الحرب وسيلة من وسائل التخفيف من اثار مشاكلها الداخلية المستعصية.

استغرق التحضير للحرب العالمية الاولى سنوات طويلة. ويمكن اعتبار سياسة اقامة الاحلاف الدولية نقطة بداية اساسية في هذا المجال. ففي العام ١٨٧٩ وقعت المانيا والنمسا معاهدة ثنائية اتفقتا بموجب بنودها على التعاون المشترك في حالة وقوع حرب بين اي منهما مع روسيا . وبعد مرور حوالي ثلاثة اعوام على ابرام المعاهدة انضمت ايطاليا اليها مدفوعة بالرغبة لايجاد حلفاء لها في صراعها مع فرنسا من اجل التغلغل الى تونس. وهكذا ظهر عام ١٨٨٢ الحلف الثلاثي في وسط اوربا والذي كان موجها في البداية ضد روسيا وفرنسا ومن ثم انكلترا فيما بعد.

وبالمقابل بدأ يظهر تحالف دولي جديد على صعيد القارة الاوربية. ففي ١٨٩١-١٨٩٣ عقدت فرنسا وروسيا تحالفا ثنائيا يقضي بالتعاون بينهما في حالة وقوع اعتداء الماني او ايطالي او نمساوي – مجري مساند من قبل المانيا على اي منهما، ومن جانب اخر دفع نمو الخطر الالماني بانكلترا الى الابتعاد عن سياستهما المعروفة بـ " العزلة الجليلة"[٥]، والتقرب من فرنسا وروسيا فوقعت في العام ١٩٠٤ اتفاقية مع فرنسا ساعدت بنودها على حل الخلافات القائمة بين الدولتين حول المستعمرات في تلك المرحلة التاريخية.

---

[٥] " العزلة الجليلة " أو " العزلة الرائعة " أو " العزلة المجيدة" مصطلح اطلق على الاتجاه العام للسياسة الانكليزية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وكان هذا الاتجاه يقضي بالابتعاد عن عقد محالفات دولية طويلة الامد . فان الوضع الجغرافي لانكلترا والتفوق المطلق لاسطولها البحري وسيطرتها على أوسع المستعمرات واغناها والاهم من كل ذلك تفوقها الصناعي والمالي ، اعطاها مجال التصرف الحر على المسرح الدولي. الا ان تغيير ميزان القوى الدولية على الصعيدين الاقتصادي والعسكري أجبر انكلترا على البحث عن حلفاء لمجابهة الاخطار المحدقة بها والتي عجزت عن مجابهتها بوحدها . وهكذت وضع تحالفاتها مع فرنسا عام ١٩٠٤ نهاية لسياستها المعروفة بالعزلة الجليلة او العزلة الرائعة او العزلة المجيدة.

وبعد ثلاثة اعوام فقط (في ١٩٠٧) عقدت انكلترا اتفاقية مشابهة مع روسيا ادت بدورها الى حل الخلافات القائمة بين الطرفين المتعاقدين حول التبت وافغانستان وايران. وهكذا تم وضع اساس قيام تحالف أوربي مناهض للحلف الثلاثي دخل التاريخ باسم "الوفاق" الودي"[٦] الذي ضم في البداية انكلترا وفرنسا وروسيا. وقد تعزز آلتحالف آلجديد بفضل عقد سلسلة من الاتفاقيات البحرية بين اطرافه خلال السنتين اللتين سبقتا اعلان الحرب.

عمقت اقامة الاحلاف العسكرية والسياسية في اوربا، مع السباق المحموم في مجال التسلح التناقضات الدولية اكثر، مما انعكس في ازمات جدية (ازمتي مراكش ١٩٠٥- ١٩٠٦ و ١٩١١ وازمة البوسنة في ١٩٠٨-١٩٠٩) وفي حروب فعلية (الحرب التركية-الايطالية ١٩١١-١٩١٢ والحروب البلقانية في ١٩١٢ -١٩١٣) كما أدى أرسال المانيا لبعثتها العسكرية برئاسة الجنرال ليمان فون ساندرس في كانون الاول ١٩١٣ الى تركيا بقصد اعادة تنظيم جيشها، أدى الى تعقيد الوضع اكثر خاصة لان الاجراء المذكور كان ينم عن تهديد متوقع لمصالح انكلترا المتنامية في الشرق الادنى ولنفوذ روسيا في القفقاس وآسيا الوسطى.

دفعت الاستعدادات للحرب الدول الكبرى الى الاهتمام اكثر من أي وقت مضى بصناعة الاسلحة وتطويرها وذلك بالاعتماد على المصانع الحكومية والاهلية على حد سواء. ولم يكن مجرد صدفة ان قطعت صناعة الاسلحة كما ونوعا اشواطاً كبيرة الى الامام خلال سنوات قليلة سبقت اعلان الحرب. فالى تلك الفترة يعود، مثلاً ، ظهور السلاح الجوي وبعض انواع الاسلحة الجديدة. وقد أثر تطور طرق المواصلات(السكك وطرق السيارات بشكل خاص) وظهور وسائل جديدة للاتصال(التلغراف والتلفون والراديو) على طبيعة الاستعدادات الحربية

---

[٦] يطلق على اطراف "الوفاق الودي" " عادة اسم الحلفاء".

بشكل ملموس. كما اولى الالمان تطوير اسطولهم البحري جانبا كبيراً من اهتمامهم بحيث لم يحل عام ١٩١٤ حتى اصبح الاسطول الالماني يحتل بجــدارة الموقــع الثاني على الصعيد العالمي(ظل الاسطول الانكليزي يحتل الموقــع الاول). وقــد رافق كل ذلك سباق محموم في مجال رفع القدرة البشرية لجيوش دول الجبهتــين. وفيما يلي بعض الجداول، الاحصائية التي مــن شــأنها تجسـيد ابعــاد صــورة الاستعدادات العسكرية للحرب العالمية الاولى وتحديد واقع ميــزان القــوى فــي سنواتها بشكل أفضل.

الجدول الاول

نسبة زيادة المصاريف العسكرية في الدول المختلفة

(١٩٠٨-١٩١٣)

بلاد	مساحة المستعمرات
انكلترا	١٣١,١%
فرنسا	١٣٧,٩%
المانيا	١٦٤,٠%
النمسا-المجر	١٧٣,٢%
روسيا	١٤٨,٦%
الولايات المتحدة الامريكية	١١٤,٩%
ايطاليا	(حتى ١٩١٤)١٨٨,٧%
اليابان	(من ١٩٠٧) ١٩٣,٣%

الجدول الثاني

عدد القوات البرية للدول المتحاربة الرئيسية

	مجموع السكان عام ١٩١٤ بالملايين	عدد القوات في وقت السلم بالملايين	عدد القوات في بداية الحرب وبعد التعبئة بالملايين	عدد القوات في نهاية الحرب بالملايين	مجموع الذين جندوا في سنوات الحرب بالملايين	النسبة الى مجموع السكان
روسيا	١٨٠,٦	١,٤٢٣	٥,٣٣٨	– ٧، [٧]	١٥,٨	٨,٧
انكلترا	– ، ٤٦	١,٤١١	– ، ١	٣,٩	٤,٩	١٠,٧
فرنسا	٣٩,٧	٠,٨٨٤	٣,٧٨١	٤,٤٣	٦,٨	–، ١٧
المجموع	٢٦٦,٣	٢,٧١٨	١٠,١١٩	١٥,٣٣	٢٧,٥	١٠,٣
المانيا	٦٧,٥	٠,٧٦٨	٣,٨٢٢	٧,٦	– ، ١٤	٢٠,٧
النمسا	٥٢,٧	٠,٤٧٨	٢,٣٠٠	٤,٤٣	– ،٩	١٧,١
المجر						
المجموع	١٢٠،٢	١,٢٤٦	٦,١٢٢	١٢،٠٣	–، ٢٣	١٩,١

الجدول الثالث

عدد المدافع لدى الدول المتحاربة الرئيسية

	المدافع الخفيفة		المدافع الثقيلة	
الدول	بداية الحرب	نهاية الحرب	بداية الحرب	نهاية الحرب
روسيا	٦٨٤٨	١٠٨٦٩	٢٤٠	١٤٣٠
انكلترا	١٥٠٠	٧٠٠٠	٥٠٠	٤٠٠٠
فرنسا	٣٩٦٠	٦٤٨٠	٦٨٨	٥٧٤٠
المجموع	١٢٣٠٨	٤٢٣٤٩	١٤٢٨	١١١٧٠
المانيا	٦٣٢٩	١١٢٠٠	٢٠٧٦	٦٨١٩
النمسا	٣١٠٤	–	٥٠٦	–
المجر				
المجموع	٩٤٣٣	–	٢٥٨٢	–

---

[٧] لغاية ايلول ١٩١٧

الجدول الرابع

عدد الطائرات والدبابات لدى الدول المتحاربة الرئيسية

الدول	عدد الطائرات		عدد الدبابات
	بداية الحرب	نهاية الجرب	نهاية الحرب[٨]
روسيا	٢٦٣	٧٠٠٠[٩]	–
انكلترا	٣٠	١٧٥٨	٣٠٠٠
فرنسا	١٥٦	٣٣٢١	٤٠٠٠
المجموع	٤٤٩	٥٧٧٩	٧٠٠٠
المانيا	٢٣٢	٢٧٣٠	٧٠
النمسا–المجر	٦٥	٦٢٢	–
المجموع	٢٩٧	٣٣٥٢	٧٠

كانت المانيا، كما ذكرنا، اكثر الدول الاوربية تعطشا للدخول في حرب عالمية توقعت منها نجاحا باهرا بالنسبة لمصالحها الحيوية. وقد أدت السياسة البريطانية قبل الحرب دوراً ملموسا في دفع الالمان الى التعجيل في الامر. ففي العام ١٩١٢ لوحظ انعطاف ظاهر في سياسة انكلترا الخارجية التي بدأت تستهدف تخفيف التناقضات الانكليزية– الالمانية لانها ارادت بذلك ان تؤمن لانكلترا دور الحكم بين المعسكرين المتجابهين في القارة. وهكذا ارسلت الحكومة البريطانية في بداية عام ١٩١٢ وزير حربيتها اللورد هولدين الى برلين للاتفاق على تحديد التسلح البحري وذلك رغم انه فشل في تحقيق المهمة نفسها اثناء سفرة سابقة له

---

[٨] الانكليز هم اول من توصلوا الى صنع الدبابات في مطلع خريف ١٩١٦. وقد ظهرت الدبابات في ساحات الحرب لاول مرة يوم ١٥ ايلول من العام نفسه وذلك عندما استخدمت القوات البريطانية ٣٣ دبابة في موقعة نهر السوم.

[٩] لغاية تشرين الاول ١٩١٧.

الى العاصمة الالمانية. وعلى الرغم من أن رحلة هولدين الثانية لم تؤد بـدورها الى نتيجة، الا انها ولدت لدى المانيا انطباعا مفاده ان انكلترا تسعى بكل السبل الى تجنب كل ما من شأنه ان يؤدي الى تردي العلاقات بين البلدين. وقد تقـوى هـذا الانطباع عندما دخلت انكلترا في مفاوضات مباشرة مع المانيا حول مشروع سكة حديد بغداد وتخلت عن موقفها المتعنت السابق بأن وافقت على ان يتم بنـاء هـذه السكة شرط ان يكون القسم الجنوبي منها والممتد من بغداد الى الخلـيج العربـي تحت سيطرة انكلترا. واتخذت الاخيرة موقفا مشابها بالنسـبة لموضـوع اقتسـام المستعمرات البرتغالية بين الدولتين.

وهكذا تصورت الحكومة الالمانية ان انكلترا ستقف على الحياد في حالة قيام الحرب بين دول الوسط من جهة وروسيا وفرنسا من جهة اخرى، او على الاقـل سوف لن تدخل في هذه الحرب فورا ، الامر الذي سيفسح المجال لالمانيا لتقضي على خصومها في القارة بسهولة نسبياً، غير أن الامل بحياد انكلترا لم يكن له مـا يبرره اطلاقا، فالاستعمار الانكليزي كان الد اعداء الاستعمار الالماني، لذا فأن كل ما فعلته اشارات الانكليز السلمية انها شجعت المانيا بالتعجيل بالحرب لانها جعلتها تعتقد خطأ بأن اعداءها سيكونون روسيا وفرنسا فقط.

وبهذا الاسلوب تفاعلت مجموعة من العوامل فيما بينها لتجعل مـن وقـوع حرب مباشرة بين الدول الكبرى امراً حتمياً، فتحولت حادثة سرايبفو(سـيراجيفو) المشهورة الى السبب المباشر لاندلاع الشرارة الاولى لنيـران الحـرب العالميـة الاولى.

اعلان الحرب

في ٢٨ حزيران عام ١٩١٤ قتل ولي عهد النمسا فرانسوا فرديناند[١٠] المعروف بمعاداته للشعوب السلافية على يد احد الوطنيين الصربيين في سيراجيفو عاصمة البوسنة، فأرادت الاوساط النمساوية الحاكمة استغلال الحادثة للقضاء على صربيا وذلك بعد التأكد من التأييد الالماني المطلق لموقفها، مما ادى الى أن يتوتر الوضع على صعيد القارة بشكل يهدد بالانفجار في اية لحظة. فبدأت التهديدات والانذارات تتوالى ترافقها استعدادات عسكرية واسعة في مختلف الجبهات. ولكن عندما تأكدت المانيا من أن انكلترا لن تقف على الحياد حسبما توقعت حاول مستشارها الخروج من الازمة عن طريق مساومات سياسية، الا أن العسكريين الالمان احبطوا ذلك واصروا على التعجيل بالعمليات الحربية لان تأجيلها والقيام بمفاوضات سلمية كان في رأيهم امر غير ذي فائدة لانه يجرد المانيا من الافضليات التي كانت تتمتع بها في الاسابيع الاولى من الحرب والناجمة بشكل خاص عن طول الوقت الذي تستغرقه التعبئة الروسية. وقد شجع ذلك الحكومة النمساوية المجرية للمضي على خططها، فهاجمت قواتها صربيا في ٢٨ تموز عام ١٩١٤، وهو اليوم الذي يعتبره البعض بداية الحرب العالمية الاولى[١١]. فقد استمرت استعدادات روسيا لمساندة صربيا، خصوصاً وان الحكومة الفرنسية اكدت لها مساندتها الفعالة. وعندما لم تؤد تهديدات المانيا لروسيا الى نتيجة، ولاسيما انذارها النهائي في ٣١ تموز الذي طالبت فيه من روسيا ايقاف استعداداتها العسكرية على الفور، اعلنت المانيا الحرب عليها في ١ آب وعلى فرنسا في ٣

---

[١٠] كان الحادث من تدبير احدى المنظمات السرية التي كانت تعمل في سبيل الوحدة الصربية، وقد قتلت فيها كذلك زوجة ولي العهد النمساوي.

[١١] يتفق معظم المؤرخين على اعتبار يوم الاول من آب عام ١٩١٤ بداية الحرب العالمية الاولى.

آب . وفي ٤ آب وجهت انكلترا الى برلين انذاراً طالبت فيه الالتزام القطعي باحترام حياد بلجيكا، وعندما ما لم تستلم جوابا على انذارها دخلت الحرب ضد المانيا في اليوم نفسه.

وبهذا الشكل قامت الحرب بين التكتلين الاوربيين الاستعماريين- الوفاق الودي والحلف الثلاثي. انها كانت حربا استعمارية توسعية بالنسبة لكل من المجموعتين، وقد توسعت لتشمل عدداً اكبر من البلدان الاوربية وغيرها بنفس الدوفع تقريبا. فان اليابان، مثلا، دخلت الحرب الى جانب دول الوفاق قبل ان ينتهي الشهر الاول من الحرب(في ٢٣ آب ١٩١٤) بدافع رغبتها القوية لاستغلال الموقف بشكل يساعدها على تثبيت مواقع اقدامها في الشرق الاقصى. وفعلا انها تمكنت من تحقيق ذلك فقد استولت بفضل مجهود حربي ضئيل على عدد من الجزر التابعة لالمانيا في المحيط الهادي واحتلت اقليم شاندون الصيني الغني وسيطرت على حكومة الصين الرجعية واصبحت السيد المطلق طيلة فترة الحرب على الجزء الغربي من المحيط الهادئ، وفضلا عن كل ذلك حققت اليابان ارباحا طائلة من تجارتها مع الصين ومن بيع الاسلحة للحلفاء طيلة سنوات الحرب، مما تحول الى عامل مهم لتسريع عملية تراكم الرأسمال في تلك البلاد وفي ازدهارها الاقتصادي اللاحق جراء ذلك.

وعلى الغرار نفسه اعتبرت ايطاليا الحرب الدائرة سوقاً يمكن الدخول اليها من اوسع ابواب التعامل التجاري الحربي، ولتحديد الموقف على ضوء الربح النهائي المتوقع فأنها قامت، لهذا الغرض دون غيره، بالاتصال في وقت واحد بالجبهتين المتحاربتين وتفاوضت على مدى اشهر طويلة معهما لتحديد مسألة مكتسباتها من اشتراكها الى جانب اي منهما وكما يعترف لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني كان لدى الحلفاء امكانات عرض شروط افضل فقررت

الحكومة الايطالية ربط مصيرها بهم فدخلت الحرب الى جانب دول الوفاق الودي في ٢٢ آيار ١٩١٥.

ولم يختلف الوضع عن ذلك بالنسبة لمعظم الدول الاخرى التي انضمت الـى الحرب العالمية الاولى في اوقات مختلفة، وخصوصا بالنسبة للولايـات المتحـدة الامريكية كما سنبين ذلك فيما بعد.

المرحلة الاولى من الحرب:

لم تكن الامكانيات المادية والبشرية متساوية لدى الجبهتين المتحاربتين(راجع الجداول الاحصائية المذكورة انفا). ولقد كان الاستعداد العسكري لدى المانيا اعلى مما هو عند دول الوفاق الثلاثي، اذ كان تجهيز جيشها بالمدافع افضـل وكانـت تمتلك عددا اكبر من الكوادر القيادية المدربة. ومع ذلك فقد حوصرت كـل مـن المانيا والنمسا- المجر منذ الاسابيع الاولى من الحرب فلم تستطيعا ان تتصرفا الا بمواردهما الاقتصادية الخاصة التي اضيفت اليها فـي بدايـة الحـرب المـوارد الصناعية والزراعية في المناطق التي احتلتها القوات الالمانيـة علـى الجبهتـين الغربية والشرقية. كما ان وسائل المواصلات ظلت قائمة بين المانيـا-والنمسـا- المجر وبين البلدان- المحايدة المجاورة لهما وكذلك بينهما وبين رومانيا وبلغاريـا والدولة العثمانية.

ولكن دول الوفاق الودي كانت تمتلك بالمقابـل احتياطـات بشـرية ومـواد وخامات حربية كثيرة. فانكلترا وفرنسا كان بامكانهما ان تتصرفا بالمواد الغذائيـة والخامات الموجودة في مستعمراتهما الواسعة والبلدان الكثيرة التابعة لهما. وفضلا عن ذلك فانهما استفادتا من صناعة الولايات المتحدة وامريكا اللاتينية واليابان الى جانب زراعتها وخاماتها، اما روسيا فقد اصبحت منذ بداية الحرب فـي وضـع

اقتصادي صعب، فقد اغلقت المانيا منافذ بحر البلطيق في حين اغلقت الدولة العثمانية منافذ البحر الاسود امامها فانقطعت عن حلفائها انقطاعا كليا تقريبا، الامر الذي ترك آثاراً عميقة على الوضع العسكري للحلفاء في الجبهة الشرقية. فأن الجيش الروسي كان يعاني اصلا من نقص كبير في التجهيز والتدريب والتعبئة، وكان الانقطاع عن أوربا الغربية يعني حدوث خلل اضافي في قدرة روسيا العسكرية، وخاصة فيما يتعلق بالاسلحة وعتادها. فعلى سبيل المثال فقط نشير الى ان القوات الروسية في ميادين القتال كانت تحتاج، على اقل تقدير، الى حوالي مليون ونصف مليون قذيفة مدفع في السنة بينما لم لكن بوسع الصناعة الروسية ان تقدم للجبهة اكثر من ٣٦٠ الف قذيفة في افضل الاحوال، اي اقل من ربع الحاجة الفعلية لهذه الذخيرة الحيوية بالنسبة للحروب الحديثة.

ان التفاوت في الامكانيات العسكرية لدى كل من المجموعتين المتحاربتين ولدى كل دولة على انفراد هو الذي حدد ولفترة طويلة قبل قيام الحرب فعلا الخطط العسكرية الستراتيجية لهذه الدول. فخطة المانيا الرئيسية التي وضعها رئيس اركان الجيش الالماني الجنرال فيلد مارشال شليفن في حدود العام ١٩٠٥ والتي حددت مسار الحرب العالمية الاولى في بدايتها كانت تستند على حقيقة ان الحرب التي ستدخلها المانيا تكون على جبهتين في آن واحد، ولذلك قضت هذه الخطة على أن تتوجه قوات المانيا الرئيسية في بداية الحرب الى فرنسا وان لا يخصص للحرب ضد روسيا الا ثمن القوات الالمانية(تسع فرق) لتشترك مع جيش النمسا- المجر في صد الضغط الروسي المتوقع الى أن تتمكن القوات الالمانية في الجبهة الغربية من تحطيم الجيش الفرنسي بهجوم خاطف تتحول بعده الى الشرق للقيام بهجوم خاطف مماثل لتحطيم الجيش الروسي. وكانت القيادة الالمانية تعتقد انها تستطيع ان تحقق كل هذه الاهداف في غضون ثلاثة اشهر فقط.

وهكذا كانت المانيا تنوي تحشيد ٧٠ فرقة مشاة في الجناح الايمن لتقوم باحتلال بلجيكا ومن ثم التوغل في فرنسا على طول الساحل للقيام بحركة التفاف حول الجناح الايسر للجيش الفرنسي وحول باريس من الشمال والغرب ثم ابعاد القوات الفرنسية الرئيسية الى الشرق وتحطيمها هناك. لقد كانت المانيا ترمي الى السيطرة على الساحلين البلجيكي والفرنسي المشرفين على بحري الشمال والمانش لكي تقطع بذلك خط الاتصال بين انكلترا وفرنسا وتعيق الاولى عن انزال قواتها الى البر الاوربي لمساعدة فرنسا.

تلك كانت النقاط الرئيسة في خطة شليفن التي ظلت اساسا لخطط المانيا الشرقية رغم وفاة صاحبها عام ١٩١٣ وتعيين مولتكة-الصغير رئيسا لاركان حرب الجيش الالماني لان الاخير اقر بدوره خطة سلفه دون ان يجري عليها سوى تعديلات طفيفة. وعلى هذا الاساس جرى توزيع قوات المانيا والنمسا-المجر على جبهتي الحرب الرئيسيتين داخل القارة الاوربية. فقد ركز الالمان على الجبهة الغربية قوات قوامها حوالي مليون و ٦٢٠ الف شخص موزعين غلى ٨٦ فرقة وعشر فرق خيالة مزودين بأكثر من خمسة الاف مدفع على جبهة طولها اكثر من ٤٥٠ كيلو مترا. بينما الحلفاء في الجبهة نفسها ٨٥ فرقة مشاة و ١٢.٥ فرقة خيالة بلغ تعداد رجالها مليون و ٥٩٤ ألف شخص مزودين بـ ٤٦٤٠ مدفعا وموزعين على جبهة طولها ٣٧٠ كيلو مترا. وكان الجانب الاكبر من هذه القوات فرنسية، فأن القوات الانكليزية هناك كانت تتألف من ٤ فرق مشاة وفرقة ونصف فرقة خيالة بلغ مجموع رجالها ٨٠ ألف شخص. وكانت القوات البلجيكية تتألف من أربع فرق مشاة وفرقة خيالة واحدة.

اما في الجبهة الشرقية فقد جرى توزيع قوى الطرفين في بداية الحرب على الصورة التالية: ركز الالمان في بروسيا الشرقية ١٤.٥ فرقة مشاة وفرقة خيالة

واحدة قوامها مجتمعة اكثر من ربع مليون عسكري مزودين بـــ ٩٣٨ مـــدفعاً. وكان لدى الالمان في سيليزيا فرقتان مزودتان بـــ ٧٢ مـــدفعاً. امـــا الجـــيش النمساوي- المجرى في هذه الجبهة فقد كان يتألف من حوالي ٣٦ فرقة مشـــاة و ١١ فرقة خيالة بلغ تعداد رجالها ٨٥٠ ألف كان بحوزتهم ١٨٤٨ مدفعاً.

الفت القوات الالمانية والنمساوية- المجرية في الجبهة الشرقية امامها حوالي ٥٤ فرقة مشاة و ٢١ فرقة خيالة روسية تجاوز عدد رجالها مليون شخص كـــانوا مزودين بـــ ٣٢٠٠ مدفع.

بدأت العمليات الحربية الفعلية على نطاق واسع في الجبهة الغربية، فقد خرق الجيش الالماني في ٤ آب حياد بلجيكا من ستة محاور في آن واحد وتمكـــن مـــن احتلال جزء كبير من بلجيكا بسهولة رغم المقاومة البطولية التي ابـــداها جيشـــها الصغير. بعد ذلك واصل الجيش الالماني تقدمه السريع فقامت قطعاتـــه بحركـــة التفاف حول الجناح الفرنسي الايسر الامر الذي اجبر الفرنسيين على اعادة تجميع قواتهم فوجهوا جناحهم الايسر الى الشمال تلافيا لحركة التطويق الالمانية. وكان هناك في اقصى الجناح الفرنسي الايسر الفرق الانكليزية التي جـــاءت لمســـاعدة الفرنسيين. وقد تقابلت القوات الالمانية مع القوات الفرنســـية والانكليزيـــة علـــى الحدود الفرنسية البلجيكية في معركة استمرت من ٢١ الى ٢٥ آب عرفت بأســـم "معركة الحدود" التي انتهت بتقهقر الانكليز والفرنسيين.

وحدثت في الوقت نفسه معارك ضارية في الجبهة الشرقية، حيث بدأ جيشان روسيان هجومهما على بروسيا الشرقية حتى قبل ان ينتهي حشد وتوزيع قواتهمـــا وذلك تخفيفاً للضغط الواقع على فرنسا. وقد تمكنت القوات الروسية من اختـــراق الحدود الشرقية الالمانية والتوغل في بروسيا الشرقية وتحطيم ثلاثة فيـــالق مـــن

الجيش الالماني الثامن في ٢٠ آب. وبصعوبة كبيرة تمكن القادة الالمان في هـــذه الجبهة من تجميع قواتهم واعادة تنظيمها وامدادها بقوات جديدة بحيث تمكنوا بعـــد معارك ضارية من توجيه ضربات قوية الى القوات الروســية واجبارهـــا علــى التراجع بعد ان تكبدت خسائر فادحة.

اعتقدت القيادة الالمانية خطأ بأن الفرنسيين انتهوا بعد "معركة الحــدود" وان نتيجة الحرب قد تأكدت لصالح المانيا، حتى ان مولتكة اقدم على سحب اربع فرق من هذه الجبهة ارسلها الى بروسيا الشرقية. غير ان الواقع كان غير ما ذهب اليه الالمان تماما. فقد استطاع الجيش الفرنسي ان يعيد تجميع قواتـــه للقيـــام بهجـــوم مضـاد.

جددت القوات الالمانية هجومها في ٢٧ آب، فقد انيطـــت بجيـــوش الجنـــاح الايمن مهمة التوغل في عمق الجناح الايسر للجيوش الفرنسية وتحطيمها. غير أن هذه المهمة لم تنفذ لان الجيوش الالمانية لم تكن في حالة تؤهلها لتـــذليل مقاومـــة الاعداء والقيام بحركة التفاف ناجحة حول الجناح الفرنسي الايسر بسبب الخسائر الكبيرة التي تكبدتها وجراء نقل اربع فرق منها الـــى الجبهـــة الشـــرقية. وهكـــذا اضطرت القوات الالمانية الى ان تقلص هجومها وتركزه على المنطقة الواقعة الى الشرق من باريس الامر الذي جعل جناحها الايمن مكشوفا للضربات الفرنسية من ناحية باريس.

وصلت القوات الالمانية حتى مساء ٤ أيلول الى نهر المارن الـــى الجنـــوب الشرقي من باريس وبدأت بعبوره. لكن الفرنسيين والانكليز انتقلوا في الخامس من ايلول الى الهجوم المضاد الذي كان هذه المرة حاسما بحيـــث اضـــطرت جميـــع

جيوش الجناح الالماني الايمن الخمسة في صباح ٩ أيلول الـــى التراجـــع باتجـــاه الشمال الشرقي الى نهر الآيين.

وهكذا سجل ظفر المارن اخفاق خطة الحرب الالمانية، مما فرض الانتقـــال الى الحرب الطويلة الامد التي لم تكن في صالح المانيا ابدا. لقد فشلت خطة شيلفن لانها كانت قائمة على المغامرة الناجمة عن المبالغـــة فـــي تقـــدير قـــوة المانيـــا والاستهانة بقوة العدو الامر الذي جعل الهدف الذي تسعى الخطة لتحقيقـــه يفـــوق امكانيات المانيا الحقيقية. وكان هناك سبب اخر لفشل الخطة لايقل اهميـــة عـــن السبب السابق هو التعاون الفعال الذي كان قائماً في الاسابيع الاولى من الحـــرب بين الجبهتين الشرقية والغربية.

اصبح الفريقان المتحاربان على الجبهة الغربية بعد معركة المارن بدرجة من الارهاق جعلتهما يلجئان الى حرب الخنادق ذات الطابع الـــدفاعي. ورغـــم ذلـــك تجددت المعارك بينهما في النصف الثاني من ايلول اذ كان كـــل منهمـــا يحـــاول تطويق الاخر واستطاعت الجيوش الالمانية في هذه المعارك التـــي عرفـــت بـــــ "السباق الى البحر" والتي اعتمدت كثيرا على الفرق الخيالة واستخدمت فيها وسائط النقل الحديثة على نطاق واسع، استطاعت استكمال احتلال بلجيكا وتوسيع مناطق احتلالها في شمال فرنسا، لكنها اخفقت في تحقيق هدفها الرئيس وهو الوصول الى بحر المانش وقطع الاتصال بين انكلترا وفرنسا وحتى كانون الاول نشأت علـــى الجبهة الغربية حالة من الركود لم يطرأ عليها تغيير كبير لغاية ١٩١٧.

انتقال مركز الثقل في العمليات الحربية الى الجبهة الشرقية:

في نفس الوقت الذي شنت فيه القوات الروسية هجومها الذي ذكرنـــاه ســـابقا على بروسيا الشرقية جرت معارك ضارية بين القوات الروسية وقوات النمســـا–

المجر في غاليسيا وبولندا حيث حقق الروس نجاحات حاسمة على النمساويين فاحتلوا لفوف في ٣ أيلول ومن ثم واصلوا زحفهم واحتلوا مناطق مهمة اخرى بحيث اصبح الطريق الى المجر مفتوحا امام الجيش الروسي الذي بدأ خطره يهدد سيليزيا ايضا، الامر الذي دفع القيادة الالمانية الى تعزيز الجبهة الشرقية بقوات جديدة نقلتها من الجبهة الغربية ومن المانيا نفسها ومع ذلك فقد انتصرت القوات الروسية على القوات الالمانية والنمساوية مجتمعة في معركة وارشو ايفانكورد التي تعتبر واحدة من المعارك الكبيرة في الحرب العالمية الاولى، ولاسيما لانها ادت الى افشال خطط المانيا بالنسبة للجبهة الشرقية واجبرتها على نقل قوات جديدة من الجبهة الغربية لتعزيز الدفاع عن سيليزيا.

وفي ١١ تشرين الثاني بدأ الالمان المعركة التي عرفت بأسم "عملية لودزين" التي كان من نتيجتها ان تمكن الجيش الالماني من منع الجيش الروسي من التوغل الى اعماق غاليسيا ومن رفع معنويات النمساويين بعض الشيء، ولكن الروس لم يضطروا الى التراجع كثيراً الامر الذي جعل نتيجة هذه المعركة غير حاسمة.

اثرت عمليات الجيش الروسي في غاليسيا على سير العمليات الحربية على جبهة البلقان، فقد استطاع الصربيون في بداية آب صد هجوم كبير قامت به القوات النمساوية. ومع ان الجيش النمساوي تمكن من دخول اراضي صربيا خلال عام ١٩١٤ الا انه كان يضطر الى التراجع في كل مرة تحت ضغط الجيش الصربي.

ان سير الاحداث على ساحات الحرب بمثل هذا الاتجاه دفع حكام المانيا الى تغيير موقفهم من حياد تركيا الذي استمر لمدة حوالي ثلاثة اشهر، لاسيما وان معاهدة سرية كانت قد وقعت بين البلدين في ٢ آب ١٩١٤، اي بعد ٢٤ ساعة فقط

من اعلان تركيا الحياد لتمويه الحلفاء ولارضاء الرأي العام الداخلي[١٢]. فقد توقع الالمان في البداية انهم في غنى عن اشتراك تركيا في الحرب، خصوصا وانهم كانوا على علم بوضع الجيش التركي المتهرئ الذي كان يعاني من نقص خطير في كل شيء حتى في الملابس والاحذية، مما جعلهم يخشون ان يتحول الى عبء على بلادهم. الا ان نتائج موقعة مارن واحتدام الصراع على الجبهة الشرقية اجبرت المانيا على جر تركيا الى اتون الحرب وذلك بهدف التخفيف عن ضغط الحلفاء في ساحات القتال على صعيد القارة الاوربية عن طريق اشغال الروس في القفقاس والانكليز في مصر والقناة. كما ان دخول تركيا في الحرب الى جانب دول الوسط كان من شأنه اغلاق الدردنيل والبسفور كليا امام كل ملاحة متجهة الى روسيا واعاقة انكلترا وفرنسا من امداد روسيا بالاسلحة وعتادها الضروري. وفضلا عن ذلك توقعت المانيا ان يؤدي اشتراك الدولة العثمانية في الحرب بجانبها الى اثارة عواطف الناس ضد الفرنسيين، ولاسيما ضد الانكليز والروس في العالم الاسلامي.

وهكذا دخلت تركيا الحرب عمليا في ٢٩ تشرين الاول عام ١٩١٤ مما ادى الى ظهور جبهات جديدة في الشرق مثل جبهة القفقاس وجبهة ما بين النهرين وجبهة فلسطين حيث حشدت تركيا ضد الحلفاء ما يقرب من نصف مليون جندي مما اجبرهم على ان ينقلوا من جبهات الحرب الرئيسية في اوربا ما بين ٥٠٠ الى ٨٠٠ ألف جندي الى ساحات الشرق الادنى والقفقاس.

---

[١٢] فيما عدا الثالوث الاتحادي الحاكم انور وجمال وطلعت فأن معظم حكام تركيا بما في ذلك شخص السلطان، كانوا يميلون الى ان تبقى بلادهم على الحياد ولم يطلع معظمهم على المعاهدة الالمانية – التركية السرية المذكورة.

ولكن مع ذلك فأن دخول تركيا لم يؤثر كثيرا على ميزان القوى بين الاطراف المتحاربة سوى ان الامر جلب ويلات كبيرة للامبراطورية العثمانية وفتح ابواب مناطقها الحساسة امام التوغل العسكري المباشر للقوات الانكليزية والروسية.

العمليات الحربية عام ١٩١٥:

اضطرت القيادة الالمانية الى وضع خطة جديدة حاولت تطبيقها عام ١٩١٥. فكما لاحظنا ارادت ان تقتصر في الجبهة الغربية على الدفاع ونقلت جانبا كبيرا من قواتها الى الجبهة الشرقية لمحاربة روسيا التي احرزت جيوشها في كانون الثاني- آذار- نجاحات ملحوظة دفعت القيادة النمساوية الى بناء التحصينات الدفاعية حول العاصمة فيما وبدأت تفكر حتى في عقد صلح منفرد مع روسيا.

ولكن التعزيزات الالمانية غيرت ميزان القوى على الجبهة الشرقية الى حد كبير. فقد استطاعت القوات الالمانية- النمساوية المشتركة ان تجبر القوات الروسية على التقهقر منذ آيار وعلى مدى عدة شهور. ففي آب ١٩١٥ اضطر الجيش الروسي الى الانسحاب من وارشو مع قلاع اخرى والقسم الاعظم من ليتوانيا. وقد فقد الروس خلال خمسة اشهر من المعارك الضارية حوالي ٨٥٤ ألف قتيل وجريح ووقع منهم في الاسر ما لايقل عن ٨٩٥ ألف شخص. ولكن رغم ذلك فشلت محاولة الالمان والنمساويين لتطويق الجيش الروسي والقضاء عليه بحيث خيمت على الجبهة الشرقية منذ نهاية ايلول حالة من الركود والتوقف. ومن المفيد ان نشير هنا الى ان الاستخبارات الالمانية لم تلعب دورا قليلا في ضمان الانتصارات الساحقة لقوات دول الوسط في الجبهة الشرقية، اذ كانت القيادة الالمانية على علم بفحوى العديد من البرقيات السرية المهمة الخاصة

بتحركات قطعات الجيش الروسي، فقد ازداد دور الجاسوسية عشية الحرب العالمية الاولى وفي سنواتها بصورة لم يسبق لها مثيل في التاريخ.

اما بالنسبة للجبهة الغربية فأن ابرز العمليات الحربية التي شهدتها عام ١٩١٥ كان هجوم الالمان في ٢٢ نيسان على قناة ايبر وقد استخدموا فيه لاول مرة الغازات السامة، غير ان اثر ذلك كان ضئيلاً من الناحية التكتيكية. واراد الحلفاء في الوقت نفسه مساعدة الجيش الروسي بعد أن اضطر لى الانسحاب من وارشو فشن الفرنسيون هجوما كبيرا على شامبيين واشتركوا في الهجوم على ارتوا، الا ان هذه العمليات لم تفد الروس كثيرا لانها جاءت متأخرة، كما انها لم تحقق للحلفاء شيئا يذكر، فبالقرب من شامبيين، مثلا، فقد الفرنسيون حوالي ٥٠ الف فيما لم يسترجعوا من المساحة الشاسعة من اراضيهم المحتلة من قبل الالمان سوى ٥٠٠ ياردة فقط.

وبدأ الحلفاء في ربيع ١٩١٥ عملياتهم الحربية في منطقة المضايق حيث استطاع الانكليز والفرنسيون بعد محاولة فاشلة جرت في شباط لاجتياز الدردنيل بحرا، انزال قوات قوامها ٨٠ الف شخص في الطرف الجنوبي لشبه جزيرة فاليبولي وعلى شاطئ آسيا الصغرى المقابل. وعلى الرغم من أن هذه القوات تمكنت بعد معارك طاحنة من التمركز في جنوب شبه جزيرة غاليبولي الا أنها فشلت في التقدم الى ابعد من ذلك.

وكان الفشل ايضا نصيب محاولة اخرى للتقدم جرت في اخريات تلك السنة، الامر الذي دفع الانكليز والفرنسيين الى سحب قواتهم من هناك واستخدامها لفتح جبهة جديدة في البلقان في منطقة سلانيك.

اما عن الوضع في الجبهة الايطالية فأنه لم يكن في صالح الوفاق الودي ذلك أن تضاريس منطقة الحدود بين النمسا وايطاليا جعلت من النمساويين في موقف افضل بحكم سيطرتهم على جميع السلاسل الجبلية وعلى قممها وممراتها، مما جعلهم يتسلطون على الجيش الايطالي الذي كانت كل حركاته تخضع لسيطرتهم الدقيقة.

ومن الاحداث المهمة التي شهدتها السنة الثانية من الحرب دخول بلغاريا فيها(ايلول ١٩١٥) الى جانب دول الوسط ذلك لان المانيا كانت في وضع يسمح لها ان تطمن مطاليب بلغاريا الاقليمية بصورة افضل من كتلة الوفاق الودي، خاصة وان الاخيرة ضمت صربيا التي كانت لبلغاريا اطماع اقليمية في اراضيها. ولم تلعب انتصارات الروس الكبيرة في ١٩١٥ الدور الاخير لدفع بلغاريا الى الجبهة المعادية للحلفاء. وقد اثر دخول بلغاريا في الحرب ضد الحلفاء على الوضع في جبهة صربيا لانها حشدت ما يقرب من ٣٠٠ ألف جندي على حدودها فتقهقر الجيش الصربي الى ساحل بحر الادرياتيك بعد ان تكبد خسائر فادحة، واستطاع حوالي ١٢٠ ألف جندي صربي مع اعضاء الحكومة وعدد كبير من الموظفين واللاجئين الصربين من الوصول الى احدى الجزر اليونانية على متن سفن بريطانية وفرنسية. وفي الوقت نفسه واصلت القوات النمساوية- المجرية هجومها في شتاء ١٩١٥ على الجبل الاسود والبانيا واحتلتهما.

العمليات الحربية عام ١٩١٦:

اعتبر الحلفاء بتجارب عام ١٩١٥ اذ كان السبب الرئيس لفشلهم يكمن في عدم التوافق والتنسيق بين عمليات قواتهم على مختلف الجبهات، لذلت وضعوا

خطة عسكرية جديدة في ١٩١٦ تقضي بتنسيق جهدهم الحربي بشكل يؤدي الـــى وقوع عمليات قواتهم على جبهات القتال الرئيسة في وقت واحد قدر الامكان.

اما الخطة الحربية الالمانية لسنة ١٩١٦ فكانت تقوم على تقدير متفائل لـــيس له ما يبرره، اذ اعتبرت القيادة الالمانية ان فرنسا قد ضعفت الى درجة كبيرة وان روسيا انهارت قواتها نهائيا او تقلصت الى درجة بحيث لم تعد تؤلف خطرا مـــا على الاقل، وعلى هذا الاساس اعتقدت القيادة الالمانية ان بالامكان شـــل القـــوات الفرنسية نهائيا بتوجيه ضربة سريعة قاصمة اليها من منطقة فيـــردان الحساســـة الواقعة الى الشمال الشرقي من باريس بالقرب من الحدود الالمانية، فحشد للعملية افضل قطعاتها(٥٠ فرقة مزودة باعداد كبيرة من المدافع الثقيلة) متوقعة ان تكون نسبة الخسائر البشرية فيها ٢ الى ٥ لصالح قواتها التي باشرت الهجوم فـــي ٢١ شباط. الا ان القوات الالمانية جوبهت بمقاومة ضارية من جانب القوات الفرنسية بحيث انها لم تستطع خلال ٧٠ يوما من المعارك الدموية التقدم لمسافة اكثر من ٧ كيلو مترات. وقد استمر الهجوم الالماني عبثا لغاية اليوم الثاني من ايلـــول عـــام ١٩١٦. وفي الثالث من ايلول بدأت حوالي ٧٠ فرقة فرنسية الهجـــوم المعـــاكس الذي استمر حتى ١٨ كانون الاول لتنتهي معركة فيردان الشهيرة في ذلك اليـــوم لصالح الحلفاء، اذ فقد الالمان فيها ما يقرب من ٦٠٠ ألف مـــن رجـــالهم مقابـــل حوالي ٣٥٨ ألف رجل فقدهم الجانب الفرنسي. وفي الواقع ان معركة فيـــردان لا تقل اهمية من حيث نتائجها وآثارها على مصير الحرب عن معركة المارن التـــي جرت عام ١٩١٤.

ومن ناحية اخرى قامت المانيا في ١٩١٦ بمحاولة يائسة لاحراز النصر في البحر فحاولت في ٣١ آيار فك الحصار البحري الذي كانت تفرضه دول الوفـــاق الودي على السواحل الالمانية مما ادى الى صدام الاسطولين الالماني والانكليزي

عند سواحل جولتند فوقعت بينهما معركة تُعد أكبر موقعة بحرية في الحرب العالمية الاولى انتهت باندحار الاسطول الالماني بعد أن حقق في البداية بعض الانتصارات. وهكذا ترسخت سيادة انكلترا في البحر حتى ان الاسطول الالماني لم يجرؤ بعد الخروج من مخابئه في موانئ ساحل المانيا الشمالي.

وعلى الجبهة الايطالية شنت قوات النمسا- المجر في ١٥ أيار ١٩١٦ هجوما كبيرا على الجيش الايطالي في تيرول واصبحت في وضع يهدد سهل البندقية، الامر الذي دفع القيادة الروسية الى القيام بهجومها الكبير في الجبهة الجنوبية الغربية ضد القوات النمساوية- المجرية وذلك في ٤ حزيران تخفيفاً للضغط النمساوي على ايطاليا.

وقد حققت القوات الروسية بعض الانتصارات التي اجبرت القيادة الالمانية على ايقاف الهجوم على فردان وسحب بعض القطعات من الجبهتين الغربية والشرقية وتوجيهها لمساعدة النمسا ضد الروس. ولكن الجيش الروسي تمكن من صد الهجوم الالماني النمساوي المشترك في ١٦ حزيران. وفي الواقع كانت ضربة الحلفاء في هذه الجبهة قوية. فقد كانت حصيلة المعارك التي جرت في الفترة الواقعة بين ٤ حزيران و ١٨ ايلول ان فقدت الجيوش الالمانية النمساوية اكثر من مليون شخص بين قتيل وجريح كما وقع اكثر من ٤٠٠ ألف من افرادها في أسر القوات الروسية التي غنمت كذلك كميات كبيرة من الاسلحة والعتاد. لقد ساعد ذلك على تسريع عملية انهيار الامبراطورية النمساوية – المجرية وعجل في الهجوم الايطالي المضاد في ١٦ حزيران ودفع برومانيا الى الدخول في الحرب الى جانب الحلفاء[١٣] وخلق ظروفا افضل للهجوم الانكليزي- الفرنسي في

---

[١٣] اعلنت رومانيا الحرب لاول مرة ضد النمسا – المجر في ٢٧ آب ثم ضد المانيا في اليوم التالي واخير ضد تركيا في ٣٠ من الشهر نفسه.

السوم. ففي الاول من تموز عام ١٩١٦ بدأ الفرنسيون والانكليز هجوما واسعا على جانبي نهر السوم وحدثت واحدة من اعنف معارك الحرب العالمية الاولى استمرت حتى اواسط تشرين الثاني. ومن الجدير بالذكر ان الانكليز استخدموا لاول مرة ٣٣ دبابة في هذه المعركة كان لها تاثير مذهل على الجنود الالمان . وعلى الرغم من النجاحات التي حققها الحلفاء في البداية الا انهم اخفقوا في اختراق الجبهة الالمانية وهكذا لم تجلب معركة السوم سوى انهاك متزايد للطرفين المتحاربين، مما دفعهما اكثر للتفكير في ايجاد مخرج للمأزق الذي تورطا فيه.

محاولات عقد الصلح :

لم يكن الوضع العسكري والاقتصادي والسياسي في السنة الثالثة من الحرب يشير لاي من الجانبين المتحاربين باحتمال النصر الحاسم على الجانب الاخر ذلك ان جميع الدول المتحاربة ، وخصوصا دول الوسط بدأت تعاني من استنفاد مصادرها البشرية والاقتصادية. ففي نهاية ١٩١٦ بلغ اعداد افراد جيوش الوفاق الودي الى مختلف الجبهات وفي المؤخرة حوالي ٢٥ مليون مقاتل في حين بلغ عدد المقاتلين في الطرف المقابل ما يقرب من ١٥ مليون . وكانت الدول المتحاربة قد فقدت حتى ذلك الوقت ما يقرب من ٦ ملايين قتيل واكثر من ١٠ ملايين بين جريح ومشوه.

ومن الناحية الاخرى هبط الانتاج الزراعي بشكل لم يسبق له مثيل، كما ان ازمة الوقود اقترنت بشتاء ١٩١٦ الذي جاء باردا اكثر من المعتاد فأثر ذلك بشكل ملحوظ على الصناعة والنقل واسعار المواد الاستهلاكية التي ارتفعت بمقدار ١٠٠% في حين لم ترتفع الاجور الا بمقدار ٢٥-٤٠ % . وهكذا بدأت جماهير الشغلية وكذلك القوميات المضطهدة تعي بشكل متزايد بان الحرب هي ضد

مصالحها. وكان من الطبيعي ان يؤدي كل ذلك الى خلق رد فعل قوي بين اوساط الرأي العام في دول الجبهتين المتحاربتين دون استثناء مما انعكس في احداث وظواهر مختلفة . فقد اصبحت الوزارة الفرنسية، مثلا، تعاني من ازمة جدية في اواخر عام ١٩١٦. وفي كانون الاول من العام نفسه سقطت وزارة اسكويث في انكلترا لتحل محلها وزارة لويد جورج الائتلافية. وقبل ذلك باقل من شهرين قتل رئيس الوزراء النمساوي . كما اجريت تغيرات عديدة في القيادة العسكرية الالمانية . وفي روسيا بدت تباشير الحركة الثورية منذ اواخر سنة ١٩١٦.

وبدافع من هذه العوامل، وغيرها، بدا قسم من الاوساط الحاكمة في الدول المتحاربة بالتفكير في انهاء الحرب باسرع وقت عن طريق التوصل الى معاهدة توفق بين مطاليب الجانبين المتحاربين دون نصر حاسم لاي منهما. غير ان ذلك اصطدم بالقسم الاخر من الاوساط الحاكمة والذي كان اكثر نفوذا وتاثيرا ويرى ضرورة مواصلة الحرب حتى نهايتها الظافرة . وقد انتهى الصراع بين هذين الاتجاهين بانتصار الاتجاه الثاني منهما، اي الاتجاه الذي يدعو الى مواصلة الحرب.

ومع ذلك فان الاوساط الحاكمة في الدول الاستعمارية لم تتخل عن التظاهر بالسعي للسلام وذلك رغبة منها في شق الحركة المعادية للحرب واضعافها. وهكذا بادرت المانيا بعد ان فشلت محاولتها لعقد صلح منفرد مع روسيا عام ١٩١٥ فتوجهت في ١٢ كانون الاول ١٩١٦ باسم جميع حلفائها الى حكومات الوفاق الودي مقترحة أن يبدأ الجانبان مفاوضات لعقد الصلح بينهما. ومن ناحية اخرى شهدت اواخر عام ١٩١٦ اقتراحا اخر للبدء بمحادثات السلام قدمته الدول المحايدة (الولايات المتحدة الامريكية وسويسرا والنرويج والدنمارك والسويد).

وفي ٢٠ كانون الثاني ١٩١٧ اجابت حكومات الوفاق الودي على اقتراح السلام الالماني بالرفض وقدمت هي الاخرى برنامجها السلمي الخاص. وقد اكدت هذه الدول بانه من غير الممكن عقد الصلح الى ان يتم الانتقام الكامل من المانيا عن الجرائم التي اقترفتها وحتى يكون هناك ضمان بأن العدوان الالماني لن يتكرر مرة اخرى.

وهكذا استمرت الحرب، وكانت المانيا تمارس منذ اعلانها اعمالا قاسية ، غير انسانية تجاه السكان المسالمين حيثما تحل قواتها وذلك بهدف ادخال الرعب في نفوس المدنيين وفرض الطاعة عليهم واشاعة اليأس في نفوسهم. ولكن هذه الاساليب القاسية ادت – حسب منطق التاريخ وقوانين الحياة- الى نتائج عكسية تماما، اذ تحولت الى عامل محرك قوي لاثارة المشاعر الوطنية بين سكان مناطق الاحتلال الالماني.

وكانت اعمال الغواصات الالمانية ضد السفن التجارية العائدة للمعسكر المعادي وللبلدان المحايدة من جملة الاساليب اللاانسانية التي لجأت اليها المانيا . وكان ذلك من بين العوامل الاساسية التي دفعت المانيا الى الاهتمام بصنع الغواصات اكثر من غيرها (صنعت المانيا لغاية تشرين الثاني عام ١٩١٨ ٣٣٤ غواصة كما كان العمل مستمرا في صنع ٢٢٦ غواصة اخرى) . وقد بدأت الغواصات الالمانية منذ بداية الحرب تغرق السفن التجارية المسالمة العائدة لدول الوفاق الودي دون تحذير فتؤدي الى اغراق ملاحيها والمسافرين المدنيين عليها . وفي شباط ١٩١٥ اغرقت غواصة المانية احدى السفن التجارية الانكليزية مما ادى الى موت اكثر من الف شخص كانوا على ظهرها من بينهم ١٥٠ امريكيا ، الامر الذي ادى الى نشوب ازمة حادة بين الولايات المتحدة والمانيا ، مما اجبر الالمان مؤقتا على التزام جانب الحذر في استخدام الغواصات.

وبعد ان رفضت دول الوفاق الودي اقتراح السلام الالماني طالب انصار استخدام الغواصات على نطاق واسع بشن حرب غير محدودة تحت الماء معتقدين بان الدعاية الالمانية تستطيع الان ان تلقى مسؤولية الامر على الحلفاء وذلك بان تصور اعمال المانيا اللاانسانية كأجراءات دفاعية اضطرارية. ولم يهتم العسكريون الالمان بحقيقة ان ذلك يمكن ان يؤدي الى دخول الولايات المتحدة الامريكية ضد المانيا معتقدين بان امريكا ليس لديها جيش مؤهل للحرب وبان الغواصات الالمانية تحول دون وصول امريكي واحد الى البر الاوربي . وهكذا اتخذ مجلس التاج الامبراطوري في ٩ كانون الثاني عام ١٩١٧ قرارا يقضي باستخدام الغواصات على نطاق واسع، وقد وضع القرار موضع التنفيذ اعتبارا من ١ شباط مما تحول الى عامل مهم دفع بالولايات المتحدة الى الاشتراك فعلا في الحرب.

دخول الولايات المتحدة الحرب:

كان من الطبيعي جدا الا تبقى الولايات المتحدة الامريكية بعيدة عن مسرح احداث الحرب العالمية الاولى، فاتخذت حيالها سياسة في غاية الذكاء بحيث اصبحت في نهاية الامر هي الوحيدة التي حققت اكبر المكاسب باقل الخسائر . ففي بداية الحرب اتخذت موقف الحياد لاسباب متشابكة منها عدم استعدادها التام عسكريا للخوض في غمار حرب واسعة لم يشهد لها التاريخ مثيلا . ثم أن الاوساط الحاكمة فيها اعتقدت – وقد اصابت في ذلك– امكانية تطوير صناعة البلاد وتجارتها على حساب الاطراف المتحاربة بوتائر تمهد لها السبيل للسيطرة على اقتصاديات العالم. كما انها كانت ترى من مصلحتها – واصابت في ذلك ايضا– أن يدب الوهن عسكريا واقتصاديا في كيانات الانظمة الاوربية التي كان بامكانها الوقوف امام التوسع الامريكي السياسي والاقتصادي.

وانطلاقا من الدوافع نفسها كانت الحكومة الامريكية ضد الانتصار الكامل لاي من الجانبين المتحاربين، وظلت تعمل في هذا الاتجاه حتى اشهر قليلة قبل دخولها الحرب. ولم يكن مجرد صدفة ان اختار الرئيس الامريكي ولسن الشعار المعبر "سلم بدون انتصار" عندما حاول ان يقوم بدور الوسيط لاقرار السلم بين الطرفين، فيما كانت الترجمة الواقعية لهذا الشعار هي خروج اقوى دول اوربا من الحرب منهوكة، ضعيفة مستسلمة عمليا للدولة الرأسمالية الاقوى – الولايات المتحدة الامريكية.

وبفضل هذه السياسة حققت الاحتكارات الامريكية مكاسب كبيرة للغاية . فانها استغلت بنجاح ظروف الحرب، وخصوصا حاجة الدول المتحاربة الملحة الى السلاح والسلع الى الحد الاقصى الممكن، فلم تمانع الاتجار على نطاق واسع باحدث الاسلحة الفتاكة مع الخندقين المتقابلين . واذا جاءت لوحة تجارتها الخارجية في صالح الحلفاء اكثر من دول الوسط فان ذلك يعود بالاساس الى سيطرة الاسطول البريطاني المحكمة على البحار والمحيطات التي كانت تؤلف حلقة وصل التبادل الوحيد مع امريكا انذاك. وهكذا فتحت اسواق دول اوربا الغربية بالدرجة الاولى والاسواق العالمية بالدرجة الثانية واسواق دول الوسط الى حد ما ابوابها امام المنتوجات الامريكية المتباينة على مصراعيها بعد ان حولت جميع الدول الرأسمالية الاخرى تقريبا مصانعها الى الانتاج الحربي مما ادى الى تضاعف الانتاج الصناعي في الولايات المتحدة بوتائر مذهلة، فبدأت المصانع الامريكية تنتج بطاقتها القصوى بعد ان كانت تنتج حتى بداية الحرب في حدود نصف طاقتها الاجمالية تقريبا. وتحولت الولايات المتحدة في الوقت نفسه الى المصدر الرئيس لتمويل عدد كبير من الدول المتحاربة بالقروض بعد ان كانت هي

نفسها تلتجئ قبل الحرب الى الديون الاجنبية. وكان من الطبيعي جـدا ان تحقـق الاحتكارات الامريكية في ظل هذه الظروف ارباحا وصلت حد الخيال.

الا ان الحكومة الامريكية غيرت بالرغم من كل ذلك، وبشكل مفاجئ، موقفها من الحرب واصبحت طرفا مباشرا فيها اثر اعلانها الحرب ضد المانيـا فـي ٦ نيسان ١٩١٧ ثم ضد النمسا – المجر في كانون الاول من العام نفسه. وبـالطبع تظافرت مجموعة عوامل حاسمة وراء مثل هذا التغيير الخطير في الموقف. فقبل كل شيء ربط الاتجار الواسع خلال حوالي ثلاث سنوات من "الحياد" مع القروض الضخمة للغاية مصالح الاحتكارات الامريكية اكثر فأكثر بجبهة الحلفاء الى درجة اصبح انهيارها يهدد مجمل الحياة الاقتصادية للولايات المتحدة في الصـميم. لـذا اصبح لزاما عليها التمسك بالاتجاه الذي يحول دون انتصار دول الوسط، وبالفعل ظهرت في الافق بعض المؤشرات لمثل ذلك الانتصار بعد بعض النجاحات التـي حققتها القوات الالمانية في جبهات القتال الغربية قبل وحتى بعد دخول الولايـات المتحدة الحرب، الامر الذي ادخل المخاوف في نفوس الحلفـاء الـى درجـة ان القوات الانكليزية بدأت تفكر بالانسحاب من تلك الجبهـة، وباشـر المسـؤولون الفرنسيون باتخاذ اجراءات لنقل العاصمة من باريس.

وقد ادت الانتصارات نفسها الى تزايد غرور المانيا الى درجة انها ارتكبـت اخطاء سياسية كبيرة تجاه الولايات المتحدة التي اصبحت تتوقع في وقت ما اعلان المانيا الحرب عليها ايضا. وفعلا دفع بها ذلك الغرور مع استيائها الشـديد مـن التعاون الاقتصادي بين الحلفاء والولايات المتحدة الى اعلان حـرب الغواصـات المدمرة امتدت اثارها الى المصالح الامريكية بصورة مباشرة، ففي ٢٤ آذار عام ١٩١٦ اغرقت الغواصات الالمانية سفينة ركاب امريكية في عرض المحيط ممـا

دفع بالرئيس الامريكي الى ارسال مذكرة احتجاج الى المانيا هددها فيهـا بقطـع العلاقات الدبلوماسية في حالة استمرار حرب الغواصات الالمانية.

اثارت مواقف المانيا الرأي العام الامريكي ضــدها ودفعـت بالاحتكـارات الامريكية الى الاصرار على اتخاذ اجراءات رادعة بحقها لانها احست بأن الخطر المباشر بدأ يهدد مليارات الدولارات التي اقرضتها لدول الحلفاء، اذ لـم تقتصـر الديون الامريكية لها على الدولة بل انها شملت ايضا البيوت الماليـة الضـخمة. فاستغلت الصحافة. ولاسيما بتحريض منها حرب الغواصات الالمانية لشن حملـة دعاية واسعة النطاق ضد دول الوسط. وقد جاءت ثورة شباط في روسيا لتعجـل بدخول الولايات المتحدة الحرب، ذلك أن الحركة الثوريـة التـي لفـت العمـال والفلاحين والجند الروس اظهرت لاستعماريي دول الوفـاق الـودي والولايـات المتحدة روسيا ستخرج من عداد الدول المتحاربة الامر الذي دفع الامريكان اكثر للدخول في الحرب خشية ان يختل الميزان كليا لصالح المانيا وحلفائها. واخيـرا فأن الولايات المتحدة تأكدت اكثر من تعارض اطماعها مع اطماع المانيا، ولاسيما في مناطق الشرق الاقصى، وذلك من خلال الوقوف بصورة مباشرة على مطاليب الالمان حينما توسطت في اواخر العام ١٩١٦ لعقد صلح بين الطرفين المتحاربين كما اشرنا الى ذلك انفا.

وهكذا استغلت الحكومة التقاطها برقية موجهة الى السـفير الالمـاني فـي المكسيك تطلب منه الاقتراح على الحكومة المكسيكية بـالهجوم علـى الولايـات المتحدة الامريكية كحجة لاعلان الحرب على المانيا في ٦ نيسان ١٩١٧ كما مـر بنا وعلى النمسا- المجر في كانون الاول من العام نفسه ولكن دونمـا ان تعلـن الحرب على الدولة العثمانية حتى النهاية.

كان من الطبيعي ان يؤثر دخول الولايات المتحدة في الحرب ضد الدول الوسط على ميزان القوى لصالح الحلفاء بصورة ملموسة. وللاستدلال يكفي القول ان معدل عدد الجنود الامريكان الذين كانوا يصلون البر الاوربي بعد دخول الولايات المتحدة الحرب بلغ سبعة الاف جندي في اليوم الواحد، وان مجموع القوات الامريكية التي وصلت الاراضي الفرنسية خلال عامي ١٩١٧ و ١٩١٨ قد تجاوز مليوني رجل. هذا فضلاعن الامكانات المادية الهائلة للولايات المتحدة التي القت ثقلها الى جانب الحلفاء بصورة مباشرة. وهنا يكفي القول ايضا ان الولايات المتحدة الامريكية انتجت لوحدها في العام ١٩١٧ كميات من الفحم والحديد والصلب ما يعادل حوالي أربع مرات ما انتجته المانيا من المواد المذكورة في تلك السنة، وحوالي ضعف ما انتجته الدول الرئيسة في جبهتي الحرب معا.

<u>الوضع على الجبهتين الشرقية والغربية عام ١٩١٧:</u>

لم يحدث عام ١٩١٧ الهجوم الموحد الذي كانت دول الوفاق الودي قد خططت للقيام به، فقد اعاقته هذه المرة اسباب سياسية مهمة لم تكن بالحسبان. فالجيش الروسي لم يستطع الهجوم بسبب قلة المدفعية الثقيلة والذخيرة في البداية وبعد ذلك بسبب عملية التحلل التي اخذت تدب في صفوف الجيش القيصري بعد ثورة شباط ١٩١٧، حتى ان ظاهرة التآخي بين الجنود الروس والالمان والنمساويين والمجريين اخذت تنتشر في كل الجبهة الشرقية.

ومع ذلك لم تأخذ القيادة الانكليزية الفرنسية حوادث روسيا بنظر الاعتبار وقرر القائد العام الفرنسي القيام بهجوم لتطهير الاراضي الفرنسية من الاعداء، غير ان القيادة الالمانية كانت على علم بخطط الحلفاء الامر الذي ادى الى فشل الهجوم الذي شنه الفرنسيون في ١٦ نيسان وتكبدوا فيه ما يقرب من ١٠٠ الف

شخص بين قتيل وجريح وتمخض عن ذلك انتشار حوادث العصيان في صفوف الجيش الفرنسي والى حدوث ازمة في القيادة.

ومن الناحية الاخرى بدأت الحكومة المؤقتة الروسية في ١ تموز ١٩١٧ هجوماً كبيراً في الجبهة الشرقية باتجاه المناطق الجنوبية الغربية وذلك بطلب من حلفائها، وحقق الهجوم النجاح في البداية واستولت فرق الجيش الروسي على الكثير من الغنائم ووقع في اسره عدد كبير من الجنود والضباط بعد أن اخترق الجبهة النمساوية الشديدة التحصين الا ان القيادة الالمانية اسرعت لنجدة النمسا- المجر فتمكنت الفرق الالمانية التي نقلت من الجبهة الغربية على عجل ايقاف الجيش الروسي واجباره على التراجع الى ما وراء نقطة الانطلاق حتى ان القوات الروسية فقدت مناطق جديدة مما ساعد على تسريع عملية التحلل في الجيش الروسي ونمو النزعة الثورية بين صفوفه.

واستغلت القيادة الالمانية الوضع السيء في الجيش الروسي وسلبية الانكليز والفرنسيين فنقلت جيشا كاملا الى الجبهة الايطالية اشترك مع القوات النمساوية في شن هجوم كبير على الجيش الايطالي في ٢٤ تشرين الاول كان من نتيجته ان اندحر الاخير اندحارا فظيعاً ولم يوقف زحف القوات الالمانية والنمساوية الا التعزيزات الانكلو- فرنسية التي نقلت الى تلك الجبهة بسرعة.

ومن الناحية الاخرى تمكن الانكليز في ١٩١٧ من تحسين وضعهم في ما بين النهرين، فاستولت قواتهم على بغداد في آذار وبدأت زحفها باتجاه ولاية الموصل كما ان الانكليز احرزوا في هذه السنة نجاحات ملحوظة على الجيش التركي الذي كان يقوده ضباط المان في الجبهة الفلسطينية، ففي تشرين الاول استولوا على غزة ثم يافا، وفي ٩ كانون الاول سقطت القدس بأيديهم.

وكانت الخسائر التي يتكبدها الحلفاء بسبب حرب الغواصات الالمانية تقل من شهر الى اخر، وفشلت خطط قادة الجيش والاسطول الالماني الذين كانوا يهددون بأنهم سيجعلون الانكليز " يموتون جوعا" ذلك ان الجوع بدأ يضغط وبشكل متزايد على الشعب الالماني نفسه.

ثورة اكتوبر في روسيا واثرها على سير الحرب:

انتصرت في روسيا يوم ٧ تشرين الثاني ١٩١٧ الثورة المسلحة التي قام بها العمال والجنود بقيادة البلاشفة. وبعد يوم واحد فقط صادقت الحكومة الجديدة على مرسوم السلام الذي طالب بأن يعقد فورا صلح ديمقراطي عادل دون الاستيلاء على اراضي الغير ودون السيطرة على الشعوب الاخرى بالقوة ودون تعويضات، صلح يؤمن لجميع الشعوب المضطهدة الحق في تقرير المصير. كما نشرت الحكومة الثورية الجديدة جميع المعاهدات السرية[١٤] التي عقدتها الحكومتان القيصرية والمؤقتة مع انكلترا وفرنسا وايطاليا وغيرها من الدول واعلنت انها تعتبر هذه المعاهدات ملغية من جانبها.

تحول نشر المعاهدات السرية مع ما تحويه من اتفاقات حول تقسيم المستعمرات و" مناطق النفوذ" الى ضربة قوية وجهت للدبلوماسية الاستعمارية ولدعايات الدول الكبرى، انه نبه شعوب الغرب والشرق الى الخداع الذي كان يمارسه استعماريوا انكلترا وفرنسا الذين كانو يصورون انفسهم وكأنهم يشنون حرباً عادلة لا يهدفون من ورائها الى الحصول على اي مغنم.

---

[١٤] كانت معاهدة "سايكس بيكو" واحدة من اخطر تلك المعاهدات التي اعقدت اثناء الحرب من اجل تقسيم اهم المناطق الحساسة في الشرق الادنى بما في ذلك الجانب الاكبر من المشرق العربي.

وبعد ان رفضت حكومات الوفاق الودي الاقتراح السوفياتي بعقد الصلح اضطرت روسيا الى عقد هدنة منفردة مع المانيا في ١٥ كانون الاول ١٩١٧. وبعد اسبوع واحد فقط بدأت في بريست – ليتوفسك مفاوضات السلام بين حكومات روسيا السوفيتية من جهة والمانيا والنمسا–المجر وتركيا وبلغاريا من جهة اخرى. وبعد محادثات طويلة رجعت فيها الحكومة الجديدة، في روسيا الى دول الوفاق الودي، غير ان هذه الدول لم تغير موقفها، فاضطرت الحكومة السوفيتية في روسيا الى عقد الصلح في ٣ آذار ١٩١٨ وذلك كوسيلة للحفاظ على الثورة في تقديرات قادتها[١٥].

ومهما يكن من امر فأن انسحاب روسيا من الحرب ترك اثارا غير قليلة على وضع الحلفاء، مما انعكس قبل كل شيء في استسلام رومانيا بموجب معاهدة صلح بخارست التي وقعت في ٧ آيار ١٩١٨. وقد منحت بنودها المانيا امتيازات واسعة في تلك البلاد، بما في ذلك السيطرة الكاملة على ثروتها النفطية التي كانت تعتبر الاولى في اوربا يومذاك.

العمليات الحربية على الجبهة الغربية عام ١٩١٨:

كانت القيادة الالمانية تريد ان تتعجل بتحطيم القوات الانكليزية والفرنسية قبل ان يصل الى الجبهة الغربية جيش امريكي كبير ، فشنت في الفترة من اذار الى تموز ١٩١٨ اربع هجمات تمكنت خلالها من اختراق جبهة الحفاء حتى ان بعض القطعات الالمانية وصلت الى نهر المارن لتصبح على بعد ٧٠ كيلو مترا فقط من باريس التي غدت ضواحيها معرضة لقصف مدافعها بعيدة المدى . غير ان هذه النجاحات كانت مؤقتة ، فانها لم تؤد الى تحطيم جيش الوفاق الودي بينما أدت الى

---

[١٥] أثار هذا الامر نقاشا حادا بين قادة الثورة، الامر الذي نعود الى تفاصيله في الفصل الخاص بتاريخ روسيا.

استنفاد الاحتياطي الالماني فبرز التفوق المادي والتكتيكي لجيوش الحلفاء وانهارت معنويات الجنود الالمان . ومن جهة اخرى فان النجاحات الالمانية المؤقتة التي ذكرناها ساعدت كثيرا على تذليل الخلافات بين الحلفاء حول تكوين قيادة عامة موحدة عُين على رأسها الجنرال الفرنسي فوش.

وهكذا لم يعد الجيش الالماني في تموز ١٩١٨ قادرا على الدفاع الطويل الامد بل الهجوم ، الامر الذي استغله الفرنسيون بنجاح فشنوا في تموز هجوما مضادا استرجعوا بنتيجته الجانب الاكبر من المناطق التي كان الالمان قد استولوا عليها في آيار – حزيران ١٩١٨. وتوالت الضربات على الجيش الالماني، الا ان القيادة الالمانية ظلت تخفي الوضع عن الحكومة والاحزاب السياسية ولم تعترف بان الجيش الالماني لم يعد يستطيع المقاومة الا في نهاية ايلول. وفي ٣٠ ايلول ١٩١٨ شكلت في المانيا حكومة جديدة وجهت في ٤ تشرين الاول مذكرة الى الرئيس الامريكي ولسن تطلب فيها عقد الهدنة معلنة موافقة المانيا على ابرام الصلح مع الحلفاء على اساس "بنود ولسن الاربعة عشرة" . واستمر تبادل المذكرات بين المانيا والولايات المتحدة شهرا كاملا اقتنع خلاله الحلفاء بأن الجيش الالماني قد تحطم وان الثورة على وشك الحدوث في المانيا، مما دفعهم الى التخلي عن العمليات الهجومية التي كانوا قد خططوا لها لانهم كانوا يريدون الحفاظ على الحكومة الالمانية وعلى جيشها كأداة فعالة لقمع الثورة في المانيا وللنضال ضد السلطة الجديدة في روسيا.

<u>انتهاء الحرب:</u>

في الوقت الذي كانت المانيا تجري مفاوضاتها حول الهدنة كان حلفاؤها يخرجون من الحرب الواحد بعد الاخر. فان بلغاريا التي بدأت تعاني من ازمة

اقتصادية خانقة وعجزت عن صد هجوم الحلفاء الذين انـــدفعت قـــواتهم باتجـــاه العاصمة صوفيا وسط موجة ثورة عاصفة اضطرت في ٢٩ ايلول الـــى التوقيـــع على الهدنة التي املئ الحلفاء شروطها. وبعد بلغاريا جاء دور تركيا التي تحطـــم جيشها في فلسطين وسوريا وانسحب من معظم الاراضي العراقية وجـــرّ اذيـــال الخيبة في ايران والقفقاس ، فوقعت في ٢٩ تشرين الاول في مودرس الهدنة التي املئ شروطها الانكليز.

اما الامبراطورية النمساوية – المجرية فقد بدأت تترنح تحت ضربات الحركة الثورية التي اخذت تتسع بين سكانها الالمان وضربات حركة التحـــرر الـــوطني للشعوب المضطهدة الخاضعة لهذه الامبراطورية . فان كثيرا من البلـــدان التـــي كانت خاضعة لها انفصلت وكونت سلطاتها الخاصة، فانهارت بذلك الامبراطورية النمساوية – المجرية العتيدة وقامت على انقاضها دول قومية مستقلة. وفي مثـــل هذه الظروف شنت ايطاليا في ٢٤ تشرين الاول هجومها الاخيـــر ضـــد الجـــيش النمساوي الذي كان يعيش حالة انهيار تام، فلم تمض سوى اربعة ايام عندما طلبت القيادة النمساوية ايقاف الحرب ثم وقعت في ٣ تشرين الثاني عام ١٩١٨ الهدنة.

ولكن القيادة الالمانية لم تتخل عن سياسة المغامرة. ففي ٣٠ تشـــرين الاول وجهت عمارة بحرية خاصة للهجوم على الاسطول الانكليزي. وجوابا على ذلـــك قام البحارة بانتفاضة شملت كل الاسطول وتحول الى اشارة لاندلاع الثـــورة فـــي المانيا. وفعلا لم تمض سوى ايام قلائل عندما عمت الثورة جميع انحـــاء المانيـــا، حتى ان قوات الجيش في المؤخرة انتقلت الى جانب الثـــوار وفشـــلت محـــاولات السلطة لتحويل قوات الجبهة الى ادارة لقمع الثورة لانها رفضت تنفيذ الاوامر التي صدرت لها بهذا الصدد. وهكذا هرب وليم الثاني الـــى هولنـــدا وعمـــت الثـــورة

العاصمة برلين في ٩ تشرين الثاني وكان من نتيجتها ان انتقلت السلطة الى الاشتراكيين الديمقراطيين اليمينيين والمستقلين.

وجهت الحكومة الالمانية في ٦ تشرين الثاني ١٩١٨، والثورة في اوجها ، وفدا لمفاوضة الحلفاء حول الهدنة . وفي ١١تشرين الثاني املئ الحلفاء شروط الهدنة على الوفد الالماني . وقد التزمت المانيا بموجب هذه الشروط ان تسحب قواتها خلال ١٥ يوما من جميع الاقاليم التي تحتلها في فرنسا وبلجيكا ولوكسمبرج ومن المناطق الالمانية على الضفة اليسرى لنهر الراين. كذلك التزمت المانيا بسحب جميع قواتها من تركيا ورومانيا والنمسا – المجر ومن مستعمراتها في افريقيا ، اما فيما يتعلق بالمناطق الروسية التي كان الالمان يحتلونها فقد الزم الحلفاء المانيا بمواصلة احتلالها الى ان يعتبر الحلفاء بانه من الممكن سحب القوات الالمانية منها بعد ان يأخذوا بنظر الاعتبار الوضع الداخلي في هذه المناطق. واصبحت المانيا ملزمة بتسليم الحلفاء جزء من اسلحتها مع ٥ الاف قاطرة و١٥ الف عربة ٥ الاف سيارة شحن.

اسباب اندحار المانيا:

يمكن تلخيص الاسباب التي ادت الى اندحار المانيا في :

١.كانت الدول التي تحارب في معسكر الوفاق الودي تمتلك مصادر اقتصادية واحتياطات بشرية اكبر مما تمتلكه المانيا والامبراطورية النمساوية المجرية وبلغاريا وتركيا ولهذا فان الحرب الطويلة الامد ادت الى ان تستنفد دول الوسط احتياطاتها في الجبهة والمؤخرة بدرجة اكبر وفي وقت اسرع من دول الوفاق الودي. ففي العام ١٩١٧، مثلا، انتجت انكلترا وفرنسا وروسيا مجتمعة ٢٦٧ مليون طن من الفحم وحوالي ١٤,٥ مليون طن من الحديد وما يقرب من

١٧ مليون طن من الفولاذ. وفي تلك السنة بالذات اضيفت امكانات الولايـــات المتحدة الهائلة الى طاقة الحلفاء الانتاجية بصورة مباشرة والتي بلغت في العام نفسه ٥٩١ طن من الفحم وحوالي ٤٠ مليون طن من الحديد واكثر مـــن ٤٥ مليون طن من الفولاذ. بينما لم تنتج المانيا في العام ١٩١٧ سوى ١٦٧ مليون طن من الفحم واقل من ١٢ مليون طن من الحديد وحوالي ١٤ مليون طن من الفولاذ. فمال توازن القوى في نهاية المطاف لصالح دول الوفاق الودي.

٢. كان النظام السياسي الالماني الملكي شبه المستبد والمغرق في الرجعية غيـــر مؤهل لخوض تجربة حرب قاسية استمرت اربع سنوات وذلك بسبب الازمـــة السياسية التي بدأ يعاني منها عشية الحرب. ان محاولـــة الاوســـاط الحاكمـــة الالمانية القاء ثقل الحرب ومآسيها على عاتق الشعب ادى الى ان تعبر الازمة الثورية التي ولدتها الحرب عن نفسها بشكل اكثر حدة ووضوحا فـــي المانيـــا منها في البلدان الاخرى(عدا روسيا)، فقد كان في المانيا طبقة عاملة كبيرة لها تقاليد ثورية، ولهذا تأثرت المانيا بشكل واضح بالحوادث الثورية التي وقعـــت في روسيا مما عجل في انهيار الاوساط الحاكمة الالمانية.

٣. كانت النظرية العسكرية والخطط الستراتيجية والتكتيكيـــة الالمانيـــة خاطئـــة، خصوصا وانها بالغت في تقدير قوى المانيا وامكانياتها المادية، مما جر البلاد الى حرب كانت فوق طاقاتها الواقعية.

٤. تحول حلفاء المانيا الى عبء ثقيل على عاتقها، حتى قيل بهذا الصدد انها ظلت طيلة سنوات الحرب تحمل على كتفها جثتين: النمسا-المجر في اوربا وتركيـــا في الشرق الاوسط، لذا، وكما لاحظنا، غالبا كانت القيادة الالمانية تضطر الى نقل قواتها الى جبهات القتال الاخرى لانقاذ حلفائها من الانهيار، الامر الـــذي

اثر كثيرا على العمليات العسكرية الالمانية في الجبهة الغربية التي كانت تؤلف الميدان الرئيس للحرب.

نتائج الحرب العالمية الاولى:

ادت الحرب العالمية الاولى التي استمرت اربعة اعوام وثلاثة اشهر وعشرة ايام الى نتائج لم تر البشرية لها مثيلا من قبل. فلقد شاركت في هذه الحرب بصورة مباشرة ٣٨ دولة بلغ مجموع سكانها اكثر من مليار ونصف مليار نسمة. الا ان آثار الحرب امتدت لتشمل كل بقعة من العالم بشكل او بآخر. وقد كلفت الحرب مصاريف باهظة للغاية، خاصة وان الجانب الاكبر من الانتاج الصناعي للدول الرأسمالية الكبرى قد كرس كليا لخدمة اغراض الحرب كما مبين في الجدول التالي:

وسائل التدمير التي تم انتاجها في سنوات الحرب

الاسلحة	المانيا	النمسا-المجر	فرنسا	انكلترا	روسيا	ايطاليا	الولايات المتحدة	المجموع
البنادق-(بالالاف)	٨٥٤٧	٣٥٠٠	٣٥٠٠	٣٨٥٤	٣٣٠٠	٢٤٠٠	٣٥٠٠	٢٧٦٠١
الرشاشات(بالالاف)	٢٨٠	٤٠,٥	٣١٢,٢	٢٣٩,٠	٢٨	١٠١	٧٥	١٠٧٥,٥
المدافع (بالالاف)	٦٤	١٥,٩	٢٣,٢	٢٦,٤	١١,٧	٦,٥	٤	١٥١,٧
مدافع الهاون(بالالاف)	١٢	-	٣ ، -	٢,٥	-	-	٠,٦	١٨,١
الدبابات(بالالاف)	٠,١	-	٥,٣	٢,٨	-	-	١	٩,٢
الطائرات(بالالاف)	٤٧,٣	٥,٤	٥٢,١	٤٧,٨	٣,٥	١٢	١٣,٨	١٨١,٩
قنابل المدافع(بالالاف)	٣٠٦	٨٠	٢٩٠	٢١٨	٦٧	٧٠	٢٠	١٠٥١
الطلقات(بالمليار)	٨,٢	٤	٦,٣	٨,٦	١٣,٥	٣,٦	٣,٥	٤٧,٧
السيارات(بالالاف)	٦٥	-	١١٠	٨٧	٢٠	٢٨	٣٠	٣٤٠

وفي حالة اجراء مقارنة بسيطة بين هذه الارقام والارقام التي ورد ذكرها في الجداول الاحصائية السابقة يمكن معرفة الكميات الهائلة من الاسلحة التي تم تدميرها في سنوات الحرب. وقد تحول ملايين الجنود في ساحات القتال الى قوى

غير منتجة، الامر الذي اصبح يؤلف بحد ذاته ضربة قوية وجهت الى اقتصاديات الدول المتحاربة. والى جانب ذلك فأن اعالة هذه الكتل البشرية الهائلة احتاجت الى مصاريف باهظة للغاية. فأن القوات الروسية لوحدها استهلكت اواخر عام ١٩١٧ ما يقرب من ١٠ ملايين طن من الطحين وحوالي ٩ ملايين طن من اللحم فقط.

وهكذا فأن مصاريف الحرب العالمية الاولى(حوالي ٣٦٠ مليار دولار ذهب) تفوق عدة مرات مصاريف جميع الحروب التي شهدتها التاريخ قبل ذلك. وقد ادت وقائع الحرب الى تدمير الاف المعامل والمصانع والقرى الى جانب مساحات شاسعة من الاراضي تقدر قيمتها بعشرات المليارات من الدولارات. ففي فرنسا وحدها سويت حوالي اربعة الاف قرية وما لا يقل عن ٢٠ الف معمل ومصنع مع الارض. وفي سنوات الحرب تم اغراق حوالي ٦ الاف سفينة تجارية مع حمولاتها في عرض البحار والمحيطات.

اما الخسائر البشرية فأنها كانت جسيمة بدورها. فقد بلغ عدد الذين قتلوا في ساحات الحرب وحدها ما لا يقل عن ٩ ملايين ونصف مليون شخص. اما عدد الجرحى فقد بلغ حوالي ٢٠ مليون ظل ثلاثة ملايين ونصف مليون منهم يعانون حتى الموت من عاهات مختلفة. وكانت الخسائر البشرية في المانيا وروسيا وفرنسا والنمسا- المجر اكثر من غيرها (اكثر من ٦٦% من مجموع تلك الخسائر). فأن الفرنسيين وحدهم فقدوا في حدود ١,٥ مليون قتيل وقرابة ٤ ملايين جريح، فلم يرجع حوالي ٥٠% من الشباب الفرنسي من ساحات القتال.

والى جانب هذه الارقام المخيفة فأن ملايين الناس من المدنيين لاقوا حتفهم اما بسبب العمليات الحربية او بسبب الجوع والمرض. كما ارتفعت نسبة الوفيات

وانخفضت نسبة المواليد بشكل خطير. وقد بلغ مجموع خسارة الدول الاثنتي عشرة الرئيسية في الحرب جراء هذه العوامل حوالي ٢٠ مليون شخص آخر.

ولم يربح من احداث الحرب ومآسيها غير الرأسماليين وحدهم فقد بلغت ارباح احتكارات المانيا المهزومة لغاية اوائل عام ١٩١٨ ما لايقل عن عشرة مليارات مارك ذهب. فأن الارباح الصافية لمجموعة كروب الالمانية المعروفة[١٦]، مثلا قد تضاعفت في سنوات الحرب بمقدار ٦ مرات. وبالاسلوب نفسه حققت الاحتكارات الانكليزية والفرنسية واليابانية والامريكية خصوصاً ارباحاً خيالية على حساب دماء الجماهير ودموعها. فقد بلغت ارباح الاحتكاريين الامريكان وحدهم خلال الفترة الممتدة بين عامي ١٩١٤-١٩١٨ حوالي ثلاثة مليارات دولار. وهكذا ظلت الولايات المتحدة الامريكية تحتل المكانة الاولى من حيث الانتاج والامكانات المادية في كل العالم الرأسمالي، ولكن من موقع اقوى بكثير عما كان عليه الامر قبل الحرب العالمية الاولى. فكما تشير الاحصاءات الامريكية نفسها ازدادت الثروة القومية في الولايات المتحدة من ٩٢ مليار دولار في العالم ١٩١٤ الى ٤٨٩ مليارات في العالم ١٩٢٠، اي بمقدار مرتين ونصف المرة. وتضاعف الرأسمال الامريكي المستغل في الخارج خلال نفس الفترة تقريبا بأن ارتفع من ٣,٥ مليار دولار عام ١٩١٤ الى ٧ مليارات عام ١٩١٩. ومن الجدير بالذكر ان الدول الاوربية استقرضت من الولايات المتحدة خلال سنوات الحرب مبلغا يربو على ١٤ مليار دولار بلغت فوائدها السنوية فقط حوالي ٥٠٠ مليون دولار. وتظهر المعاني الكبيرة للرقم الاخير بوضوح اذا علمنا ان الولايات المتحدة كانت هي التي تدفع قبل الحرب ٢٠٠ مليون دولار سنويا كفوائد عن

---

[١٦] كانت متحمسة جدا للحرب وقد انتجت جانبا كبيرا من الاسلحة الالمانية عشية الحرب وفي سنواتها.

المبالغ التي استقرضتها من الدول الاوربية. والابلغ من كل ذلــك ان اكثــر مـــن ٤٠% من احتياطي الذهب العالمي قد تجمعت في الولايات المتحدة. وهكذا زادت الهوة بين الرأسمالية الامريكية ونظيراتها الاوربية واقتربت سيادة الاولى من حـــد الاطلاق. وكان من الطبيعي ان يؤثر ذلك على تناسب القوى على الصعيد الدولي وبالتالي على السياسة الدولية منذ ان وضعت الحرب العالمية اوزارهـــا. وكـــان مؤتمر الصلح في باريس المكان الاول الذي ظهرت فيه انعكاسات هـــذا الواقـــع الجديد بشكل واضح وملموس.

" مؤتمر الصلح في باريس"

الصراع بين الدول المنتصرة :

انتهت الحرب العالمية الاولى فقامت امام دول الوفـــاق الـــودي والولايـــات المتحدة مسألة وضع شروط الصلح مع الدول المندحرة. ولتحقيق ذلـــك تقـــرر أن يعقد في باريس مؤتمر للدول المنتصرة. وقد افتتح المؤتمر المذكور رسميا في ١٨ كانون الثاني ١٩١٩ في قاعة المرايا في قصر فرساي وحضره اكثر مـــن ٥٠٠ صحفي والف مندوب يمثلون سبعا وعشرين دولة ولكن الشخصيات الفعالـــة فـــي المؤتمر كانت ممثلو الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وايطاليا وكون المـــؤتمر مجلسين سمي احدهما مجلس الاربعة الكبار(The Big Four) الذي ضم رئـــيس وزراء فرنسا كلمنصو (رئيس المؤتمر) ورئيس وزراء بريطانيـــا لويـــد جـــورج ورئيس جمهورية الولايات المتحدة ولســـن ورئـــيس وزراء ايطاليـــا اورلانـــدو، ومجلس العشرة الذي كان يتألف من اعضاء مجلس الاربعة اضـــافة الـــى وزراء خارجية الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وايطاليا وممثلين اثنين عن اليابان.

لقد ظهرت الخلافات الحادة بين المشاركين في المؤتمر منذ ان كانت الجهود موجهة للتحضير لعقده وكان موضوع الخلاف هو الشروط التي على معاهــدات الصلح أن تتضمنها، واشتد الصراع اكثر عندما جرى البحث بشكل مباشر حــول تقسيم المناطق التي استولى عليها نتيجة الحرب، فكل دولة من الدول المشاركة في المؤتمر كانت تسعى الى ان لا تسمح بتقوية الدول الاخرى والى ان تأخذ لنفســها حصة الاسد. وعلى هذا الاساس قامت الخلافات بين الولايات المتحــدة وانكلتــرا وبين انكلترا وفرنسا وبين فرنسا والولايات المتحــدة وبــين الولايــات المتحــدة واليابان.

فالولايات المتحدة كانت تطمع أن تلعب دورا بارزا في اقامة نظام مــا بعــد الحرب. لقد عرض ولسن في بداية ١٩١٨ برنامج السلام الامريكي فــي بنــوده الاربعة عشر التي تضمنت حرية البحار وحرية التجارة والتسوية "الحرة" لقضايا المستعمرات وغير ذلك من المسائل واقترح ولسن ايضا تكــوين منظمــة دوليــة (عصبة الامم) كان ينظر اليها كمنظمة تجمع الدول الرأســمالية تحــت رعايــة الولايات المتحدة وباعتبارها اداة لفرض نفوذ الولايات المتحــدة علــى المســرح الدولي. ولكن انكلترا وفرنسا ما كانتا تريدان ان تتنازلا للولايات المتحــدة عــن الدور الرئيس في المجال الدولي ولذلك بدأتا تعــرقلان وضــع نظــام العصــبة وتعارضان ادخاله في بنود معاهدات الصلح. لقد اعترضت الولايات المتحدة على انتقال المناطق التي استولي عليها من المانيا والدولة العثمانية الى انكلترا وفرنســا وعارضت مطالب الدولتين في هذا الشأن بشعار " الباب المفتــوح" وفكــرة ادارة المستعمرات على اساس نظام الانتداب. كذلك وقفت الولايات المتحدة ضد السيادة الانكليزية في البحر وضد مطاليب انكلترا في المجالات الاقليميــة والاقتصــادية والعسكرية كما انها كانت تعمل على عدم السماح بتقويــة اليابــان فــي الشــرق

الاقصى فرفضت المطامع اليابانية في شبه جزيرة شاندرون وفـــي المســـتعمرات الالمانية في المحيط الهادي. كانت الولايات المتحدة في مــؤتمر الصــلح تســعى جاهدة لان تمنع الدول الاخرى من اضعاف المانيا الى درجة كبيرة لانهــا كانــت تريدها ان يكون نداً لانكلترا وفرنسا واداة للنضال ضد الدولة الســوفيتية وضــد الحركة الثورية في اوربا.

ولهذا كان ممثلو الولايات المتحدة في المؤتمر يسعون لان يؤمنوا للعسكريين الالمان مواقع استراتيجية ملائمة في شرق اوربا، فــأقترحوا ان تحفــظ المانيــا بسيليزيا العليا وان تعطي اضافة الى ذلك قسما من اراضي جيكوسلوفاكيا واصروا على ان يكون لدى المانيا جيش قوي واحتجوا ضد القضــاء علــى الاســطولين الالمانيين الجوي والبحري وضد السيطرة على صناعة المانيا الحربية.

اما فرنسا فكانت تسعى لان تبسط سيادتها على قارة اوربا وتعمل من اجــل توسيع المستعمرات الفرنسية في افريقيا والشرق الادنى على حساب مســتعمرات المانيا وتركيا والبلدان التابعة لهما. لذلك فقد تضمن البرنامج الفرنسي تقسيم المانيا الى عدد من الدول الصغيرة بهدف اضعافها الى الدرجة القصوى فــي المجــالين الاقتصادي والعسكري. لقد كانت فرنسا عازمة على ان تستولي على جميع حوض المسار وأن تدفع الحدود الفرنسية الى الراين وتقتطع من المانيا الاراضي الواقعة على الضفة اليمنى لهذا النهر وتكون منها جمهورية الراين التابعة لفرنســا. لقــد تضمن البرنامج الفرنسي ايضا اقامة كتلة من الدول الحــاجزة الخاضــعة للنفــوذ الفرنسي على حدود المانيا الشرقية لكي تكون هذه الدول اداة للنضال ضد المانيــا وضد روسيا السوفيتية على السواء. ولتحقيق هذا الهدف ايضا كان ممثلو فرنســا في المؤتمر يسعون لتكوين بولندا وعلى رأسها حكومة رجعية يعطوها بوزنان في سيلزيا العليا. وكانت فرنسا تعمل على تقويض القوة الاقتصادية الالمانية وذلك بأن

تفرض عليها تعويضات حربية ضخمة على امل ان تستلم من ٥٦ الى ٥٨% من قيمتها، غير ان ذلك كان يجابه معارضة من الولايات المتحدة وانكلترا.

اما انكلترا فانها تمكنت من تحقيق الاهداف التي دخلت الحرب من اجلها قبل ان يبدأ المؤتمر ذلك ان المانيا منافستها في المجال الاستعماري لـم تعـد تشـكل خطرا عليها. فالاسطول الالماني محتجز في احد الموانئ الانكليزية والمستعمرات الالمانية في افريقيا ذهب قسم كبير منها الى انكلترا التي استولت من تركيا ايضـا على ما بين النهرين وشبه جزيرة العرب وفلسطين وثبتت اقدامها في مصر كليا. ولهذا فأن انكلترا كانت تعمل على المحافظة على ما استولت عليه. وهكـذا كـان لويد جورج وكذلك ممثلو الدومنيونات يصرون على ضم المناطق الجديـدة التـي استولت عليها انكلترا الى الامبراطورية البريطانية غير ان ولسن وقف ضد ذلـك بصلابة ذلك ان خطط انكلترا في السيادة البحرية وفي المجال الاستعماري كانـت تصطدم بخطط مشابهة كانت الولايات المتحدة تعمل على تحقيقها. وكانت انكلترا في صراعها مع الولايات المتحدة تحاول ان تستند على اليابان وفرنسا وقد نجحت في ذلك الى حد ما. ولكن انكلترا من الجهة الاخرى كانت تساند الولايات المتحدة في عملها على الاحتفاظ بالمانيا كدولة قوية في وسط اوربا وهـدفها مـن ذلـك اضعاف فرنسا والقضاء على الدولة السوفيتية الجديدة وقمع الحركة الثورية.

وكانت ايطاليا بدورها تسعى لتحقيق برنامج استعماري واسع في البلقان تنوي تحقيقه بالدرجة الاولى على حساب اراضي السلاف الجنوبية التي كانت ممتلكات امبراطورية النمسا والمجر . لقد كانت ايطاليا تسعى بشكل خاص الى الاسـتيلاء على ميناء فيومي.

اما فيما يتعلق باليابان فأنها كانت تطالب بأن يعترف لها بالاستيلاء على شاندون وعلى المستعمرات الالمانية في المحيط الهادي. وكانت انكلترا تساند مطاليب اليابان في الصين لانها كانت تسعى لان تجعل من اليابان ندا للولايات المتحدة في الشرق الاقصى.

لقد لعبت " المسألة الروسية" أي مسألة التدخل ضد السلطة السوفيتية دورا بارزا في محادثات الاربعة الكبار. ولم يسمح لممثلي روسيا السوفياتية بالمشاركة في المؤتمر وقبل عن روسيا فيه وفد برئاسة وزير الخارجية الروسي الاسبق سازانوف ممثلا عن الحكومات التي اقامها الحرس الابيض وكانت الدول الغربية تتفاوض معهم.

اما المانيا فانها باعتبارها دولة مندحرة لم تساهم بوضع بنود الصلح وانما استدعي ممثلوها في ٧ ايار ١٩١٩ لتسلم نص معاهدة الصلح جاهزا. وعلى الغرار نفسه لم يدع ممثلو الدول المنحدرة الا لتسلم نصوص المعاهدات وللتوقيع عليها.

معاهدات الصلح:

وقعت في ٢٨ حزيران ١٩١٩ المصادف لاول ذكرى لحادثة سيراييفو بعد الحرب معاهدة الصلح مع المانيا في فرساي. وقد اعادت هذه المعاهدة الالزاس واللورين الى فرنسا. لقد رفض مؤتمر باريس مطامع فرنسا في منطقة المسار ومساعيها لتكوين جمهورية الراين ولذلك فأن معاهدة فرساي نصت فقط على ان تكون لفرنسا مناجم المسار اما المنطقة نفسها فقد وضعت تحت ادارة لجنة من عصبة الامم لمدة خمسة عشر عاما يجري بعدها استفتاء لتقرير مصيرها.

لقد نصت المعاهدة ايضا على ان تحتل القوات الحليفة الضفة اليسرى للراين لمدة خمس عشرة سنة على ان تقام فيها ثلاث مناطق تخلى واحدة منها كل خمس سنوات. والتزمت المانيا بازالة كافة التحصينات باستثناء التحصـينات الموجـودة على الحدود الشرقية وان تنزع السلاح تماما من منطقة تمتد الى عمق ٥٠ كم الى الشرق من الراين. وذهبت منطقة ايبن ومالميدي الـى بلجيكـا وشـلزويك الـى الدنمارك بعد ان اجرى استفتاء فيها. واعطت المانيا بوزنان ومنـاطق بوميرانيـا وبرمسيا الغربية والشرقية الى بولندا ولكنها احتفظت باغلبية الاراضي البولنديـة الغربية. اما سيليزيا العليا فقد علق مصيرها باجراء استفتاء فيها وقد ادى ذلك الى تقسيمها بين بولندا والمانيا حيث ذهب قسمها الاكبر الى المانيـا. امـا جدانسـك (دانزك) التي كانت بولندا تطالب بها وكانت فرنسا تساند هذا الطلب فقد اعتبـرت مدينة حرة تحت ادارة عصبة الامم.

واما عن المستعمرات الالمانية في افريقيا والمحيط الهادي فقد سيطرت عليها على اساس نظام الانتداب انكلترا وفرنسا واليابان حيث ذهب القسم الاغلب منهـا الى انكلترا فتوغو والكاميرون اقتسمت بين انكلترا وفرنسا وذهبت تنجانيقـا الـى انكلترا وافريقيا الجنوبية الغربية الالمانية الى اتحاد جنوب افريقيا وراونـدا الـى بلجيكا وكيونكا الى البرتغال. كما اخذت اليابان جزر مارشال وجزر كارولينا في المحيط الهادي وكذلك منطقة تسياجو التي استولت عليهـا المانيـا مـن الصـين وحصلت على امتياز في شاندون واخذت استراليا جزء من فينيا الجديدة كما اخذت نيوزلندا جزيرة ساموا.

القت معاهدة فرساي مسؤولية الحرب على عاتق المانيا وحليفاتها ففرضـت عليها دفع تعويضات حربية. غير ان الحلفاء لم يتفقوا على مقدار هذه التعوضات ولذلك فقد تقرر تأليف لجنة خاصة كان عليها ان تعين حتى ١ ايار ١٩٢١ المبلـغ

الذي كان على المانيا ان تدفعه خلال ثلاثين سنة. وحتى ا ايار ١٩٢١ قرر الحلفاء ان يستلموا من المانيا مبلغ ٢٠ مليار مارك على شكل ذهب وسندات وبضائع وسفن[١٧].

اما عن البنود العسكرية لمعاهدة فرساي فانها الغت الخدمة العسكرية الالزامية في المانيا فكان على الجيش الالماني ان يتألف من المتطوعين فقط على ان لايزيد عدد افراده عن ١٠٠ الف بما في ذلك الضباط وغير المحاربين، كذلك حدد الاسطول الالماني بما لايزيد عن ٦ مدرعات و٦ طرادات خفيفة و١٢ زورق مضاد للمدمرات و١٢مدمرة، وحرمت المانيا من امتلاك غواصات وطيران عسكري.

وفي١٠ ايلول ١٩١٩وقعت في سان جيرمن بالقرب من باريس معاهدة الصلح مع النمسا. لقد تخلت النمسا بموجب هذه المعاهدة عن قسم من التيرول الجنوبي لايطاليا، وعن بوهيميا ومرافيا لجيكوسلوفاكيا التي انشأت على انقاض امبراطورية النمسا المجر وعن بوكوفينا لرومانيا وحدد افراد الجيش النمساوي بـ٣٠ الف شخص وسلم اسطول النمسا والمجر الحربي واسطولها التجاري في الدانوب للحلفاء. لقد منعت معاهدة سان جيرمن كما فعلت معاهدة فرساي من قبل اتحاد النمسا مع المانيا.

وفي ٢٧ تشرين ثان ١٩١٩ وقعت في نيي وهي احدى ضواحي باريس ايضا، معاهدة الصلح مع بلغاريا وبموجبها تنازلت بلغاريا عن قسم من اراضيها ليوغسلافيا وعن القسم الاخر لرومانيا وحدد عدد افراد الجيش البغاري بـ٢٠ الف

---

[١٧] قرر مؤتمر فرساي ٥ – ١٦ تموز ١٩٢٠ ان تكون حصة فرنسا ٥٢% وحصة انكلترا ٢٢% وحصة ايطاليا ١٠% من المبلغ الاجمالي للتعويضات الذي قرر مؤتمر لندن ٢٩ نيسان – ٥ ايار ١٩٢١ أن يكون ١٣٣ مليار مارك ذهب.

وفرض على بلغاريا ان تسلم كل اسطولها باستثناء اربع مدمرات و٦ قوارب ذات محركات الى الحلفاء وان تدفع لهم تعويضا ماليا قدره ٢٢٥٠مليون فرنك ذهب.

اما معاهدة الصلح مع المجر فقد وقعت في ٤حزيران ١٩٢٠ في قصر تريانون ونصت على ان تذهب كرواتيا وبلجيكا والقسم الغربي من بانات يوغسلافيا وترنسلفانيا والقسم الشرقي من بانات الى رومانيا وسلوفاكيا ومناطق اوكرانيا الواقعة وراء الكربات الى جيكوسلوفاكيا. ونصت معاهدة تريانون ايضا على ان لايزيد عدد افراد الجيش المجرى عن ٣٥ الف وعلى ان تدفع المجر كبقية الدول المندحرة تعويضات حربية.

وفي آب عام ١٩٢٠ وقعت في سيفر قرب باريس معاهدة بين الحلفاء وحكومة السلطان العثماني جاءت بنودها على طرفي نقيض مع المصالح الوطنية العليا لتركيا، الامر الذي تحول الى احد العوامل الاساسية لدفع الحركة الكمالية باتجاه معاد للدول الغربية والى عدم اقرارها لمعاهدة سيفر بعد انتقال السلطة الى قادتها فابدلت المعاهدة باخرى جرى التوقيع عليها في لوزان عام ١٩٢٣.

لقد اصبحت معاهدات الصلح هذه اساسا ارتكز عليه نظام العلاقات الدولية بعد الحرب فقد كرست هذه المعاهدات تقسيم العالم الذي كانت الدول الاستعمارية تسعى له وغيرت توازن القوى على المسرح الدولي لصالح انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة ونصت على تكوين عصبة الامم التي اصبحت اداة بيد الدول الاستعمارية لفرض سيطرتها وتوسيع نفوذها الاستعماري.

المنظمات الدولية

عصبة الامم:

ظهرت فكرة انشاء عصبة الامم في بلدان مختلفة في نهاية الحرب العالمية الاولى ذلك ان الكوارث التي سببتها هذه الحرب دفعت الشعوب المختلفة الى العمل على ايجاد منظمات يمكنها ان تحل المنازعات الدولية سلميا. وقد تلقى رئيس جمهورية الولايات المتحدة الامريكية هذه الفكرة وجعلها واحدة من بنوده "الاربعة عشر" التي نشرت لاول مرة في ١٩١٨/١/٨. وفي ١٩١٩/١/٢٥ شكل مؤتمر الصلح في باريس لجنة خاصة برئاسة ولسن لوضع ميثاق العصبة وقد قامت اللجنة بوضع الميثاق وعرضته على المؤتمر فاقره وادخل الميثاق بعد ذلك كجزء اساس لجميع معاهدات الصلح التي عقدت مع الدول المندحرة، فقد كرس الباب الاول المتألف من ٢٦ مادة في كل معاهدة عقدت اثناء مؤتمر الصلح لموضوع العصبة.

واعضاء عصبة الامم فئتان الاولى هم الاعضاء المؤسسون او الاصليون والثانية هم الاعضاء المنتخبون. الاعضاء المؤسسون هم الدول المتحالفة التي وقعت على الميثاق وقت ابرامه وكذلك الدول المحايدة المذكورة في ملحق الميثاق والتي وقعت خلال شهرين من ابرامه بلا قيد ولا شرط اما الاعضاء المنتخبون فهم الدول التي دخلت العصبة بعد انشائها(مثل المانيا التي دخلتها سنة ١٩٢٦ والعراق سنة ١٩٣٢ والاتحاد السوفيتي سنة ١٩٣٤ ومصر سنة ١٩٣٧). ومقر العصبة جنيف واللغات الرسمية فيها هي الانجليزية والفرنسية.

وتتألف العصبة من هيئات رئيسية هي الجمعية والمجلس والسكرتارية ومن هيئات مستقلة مثل منظمة العمل الدولية ومحكمة العدل الدولية الدائمية ومن عدد

من اللجان المؤقتة والدائمية. وتتكون الجمعية من ممثلين عن جميع الدول الاعضاء في العصبة على ان لايزيد ممثلو الدولة الواحدة عن ثلاثة ولكل دولة صوت واحد ويدخل ضمن اختصاص الجمعية جميع المسائل التي تدخل ضمن دائرة نشاط العصبة وكذلك الموافقة على قرارات المجلس المتعلقة بزيادة المقاعد الدائمة فيه والخاصة بتعيين السكرتير العام للعصبة وما أشبه. وتعقد الجمعية اجتماعا عاديا واحدا كل سنة في ايلول ويمكن ان تستدعي لاجتماع استثنائي في اي وقت واي مكان بمبادرة احد او مجموعة من الاعضاء على ان تساند هذه المبادرة اغلبية اعضاء العصبة وتتخذ الجمعية جميع قراراتها المتعلقة بالقضايا الاجرائية التي تتخذ بالاغلبية.

اما المجلس فهو اوسع اختصاصا ونشاطا من الجمعية. كان في البداية يتألف من تسعة اعضاء خمسة منهم دائميين وهم الولايات المتحدة(لم يصادق مجلس الشيوخ الامريكي على ميثاق العصبة فلم تدخل الولايات المتحدة اليها) وبريطانيا وفرنسا وايطاليا واليابان. اما الاعضاء الاربعة الاخرين في المجلس فهم اعضاء غير دائميين وقد عدل تشكيل المجلس عدة مرات وكان قبل الحرب العالمية الثانية يتألف من ستة اعضاء دائميين وهم بريطانيا وفرنسا وايطاليا والاتحاد السوفيتي والمانيا واليابان وتسعة غير دائميين. ويجتمع المجلس مرة على الاقل في السنة وكذلك كلما اقتضت الحاجة وقرارات المجلس تصدر بالاجماع ايضا عدا ما يتعلق منها بالقضايا الاجرائية والمجلس كما اشرنا اوسع هيئات العصبة اختصاصا وينظر في كل ما يدخل ضمن نشاطها من قضايا.

والسكرتارية هي الهيئة الدائمية في العصبة وعلى رأسها سكرتير عام يعينه المجلس بأجماع الاراء وتوافق على تعيينه الجمعية باغلبية الاصوات. ويساعد السكرتير مساعدان ووكيلان وعدد من الموظفين.

جاء في ميثاق العصبة بأنه يحتم تحديد التسلح " الى الحد الادنى الذي يتطلبه الامن القومي ويحتمه تنفيذ الالتزامات الدولية"، وذلك كما هــو واضـــح تحديــد مطاطي يعطي امكانيات غير محدودة لسباق التسلح. وتضمن الميثاق ايضا بنـــدا خاصا بضمان الكمال الاقليمي للدول الاعضاء في العصبة، وآخــر يشــير الـــى ضرورة اتخاذ العصبة للاجراءات " الكفيلة بأن تحمي سلام الامم بشكل فعال ضد اي حرب او تهديد بالحرب". وقد حدد الميثاق ايضا اسلوب حل المنازعات وذلك بعرضها على التحكيم او عن طريق بحثها في مجلس العصبة. وفي حالة ما اذا لم يتوصل المجلس الى اتفاق في القضية المطروحة فأن الاعضاء يحتفظون لانفسهم "بالحق في أن يتصرفوا بالشكل الذي يرونه ملائما". وأشار الميثاق ايضـــا الـــى العقوبات التي يجب ان تفرض على الدولة التي ترتكب العــدوان فـــالزم جميـــع اعضاء عصبة الامم بأن يقطعوا العلاقات المالية والتجارية مع تلك الدولة، كما ان مجلس العصبة كان عليه ان يحدد مقدار القوات البرية والبحرية والجوية التي كان على كل عضوان يقدمها " للمساعدة" على احتـــرام التزامـــات العصـــبة " ولكـــن المجلس اتخذ في ١٩٢١ قراراً جاء فيه بأن السلاح الاساس الواجب استخدامه ضد المعتدين هو العقوبات الاقتصادية. وقد تضمن الميثاق ايضا بندا ينص على تدخل العصبة في النزاعات التي تنشب بين الدول غير الاعضاء في العصبة فاشار الى انه اذا ما رفضت الدولة غير العضو والتي هـــي طـــرف فـــي النـــزاع اقـــرار الاجراءات التي يقترحها مجلس العصبة لحل النزاع ولجأت الى الحرب ضد احد اعضاء العصبة فأن على العصبة ان تتخذ بحق هذه الدولة العقوبات الاقتصـــادية والعسكرية المنصوص عليها في الميثاق. واشتمل الميثاق ايضا على مادة تتعلـــق باسلوب ادارة المستعمرات الالمانية السابقة وأما المناطق التي كانت تابعة للدولـــة العثمانية فقد وضعت تحت(نظام الانتداب).

كان نشاط عصبة الامم قبل ان يدخل الاتحاد السوفيتي عضــوا فيهــا فـــي ١٩٣٤/٩/١٨ مطبوعا بالعداء الظاهر للاتحاد السوفيتي حتى ان العصبة اصبحت واحدة من المراكز التي تناقش فيها مسائل التدخل ضد الدولة الســوفياتية بحيــث نراها تنشط في هذه القضية نشاطا ملحوظا وتبدى حزما لا يتــوفر عنــد نظــر المسائل الاخرى وخصوصا مسألة المحافظة على السلام والامن.

وقد عرضت على العصبة في هذه الفترة عشرات القضايا كان اهمها النزاع بين "السويد وفنلندا حول جزائر الاند والاستفتاء في سيليزيا العليا وتعيين حـــدود البانيا ويوغسلافيا واليونان والنزاع بين ايطاليا واليونان حـــول جزيـــرة كورفـــو والنزاع بين لاتفيا وبولندا بشأن استيلاء البولنديين على فيلنوس والنزاع بين تركيا والعراق حول الموصل والنزاع بين بوليفيا وبارغواي بسبب منطقة تشاكو والنزاع بين اليابان والصين وغير ذلك. كذلك انهمكت عصبة الامم في هذه الفتـــرة فـــي بحث مسألة نزع السلاح دون أن يؤدي نشاطها في هذا السبيل الى اية نتيجة.

لقد كانت عصبة الامم مسرحا للصراع بين انجلترا وفرنسا من اجل الســيادة على اوربا ذلك ان كلا من الدولتين حاولت في السنوات الاولى لوجــود العصـــبة استغلال هذه المنظمة الدولية واستخدامها كأداة لاسناد تسوية فرساي. وفيما بعـــد وبالاخص بعد دخول المانيا الى عصبة الامم في ١٩٢٦/٩/١ وبعـــد ان اصـــبح انهيار تسوية فرساي امرا واضحا حاولت هاتان الدولتان اســتغلال المانيـــا كـــل لمصالحها.

وبسبب من الصراع العميق بين الدول الاستعمارية داخل العصبة لم تســتطع هذه المنظمة ان تحل القسم الاغلب من القضايا التي ناقشتها وقـــد بـــدا عجزهـــا واضحا على الاخص في مسألة النزاع بين الصين واليابان فقد كان عملها في هذا

المجال بطيئاً وغير فعال الى درجة بحيث ان اليابان استطاعت ان تحتل كل الجزء الشمالي الشرقي من الصين دون عائق.

وقد تغير الوضع في اوربا في ١٩٣٢-١٩٣٣ ذلك ان الاستعماريين الالمان الذين كان الساسة الانجليز والفرنسيين يريدون استخدامهم لتحقيق اهدافهم الخاصة المعادية للدولة السوفيتية بداوا هم انفسهم يستخدمون عصبة الامم ويستغلون المنافسة الحادة بين الدول الاعضاء فيها لتحقيق اهدافهم الخاصة. وهكذا بدأت المانيا تحت ستار كثيف من العبارات المنمقة التي كان دبلوماسيوها ينثرونها هنا وهناك حول رغبة المانيا المزعومة بالسلام تسير خطوة فخطوة في طريق تقويض اسس معاهدة فرساي وبدأت المانيا في الوقت ذاته ببناء قوتها العسكرية.

وفي ١٩٣٣/٣/٢٧ انسحبت اليابان من عصبة الامم وفي ١٩٣٣/١٠/١٤ اعلنت المانيا هي الاخرى عن انسحابها من العصبة لانها لم تستطيع ان تحصل على موافقة الدول الاعضاء على الغاء البنود العسكرية لمعاهدة فرساي.

في مثل هذا الوضع المتأزم توجهت عصبة الامم الى الاتحاد السوفياتي تدعوه الى الدخول في العصبة. وفي ١٩٣٤/٩/١٨ قررت الجمعية قبول الاتحاد السوفياتي عضوا في عصبة الامم على ان يحتل مقعدا دائما في المجلس.

ونظرت عصبة الامم في الفترة من ١٩٣٥-١٩٤٠ بالقضايا التالية:

١- الهجوم الايطالي على الحبشة: لقد اثار هذا العمل العدواني من جانب ايطاليا الرأي العام العالمي وطالب عدد من اعضاء العصبة بتطبيق العقوبات المنصوص عليها في ميثاق العصبة على ايطاليا وقد اتخذت الجمعية في ١٩٣٥/١٠/٩ بالفعل قراراً بفرض العقوبات الاقتصادية على ايطاليا غير ان المواد الضرورية لمواصلة الحرب كالنفط مثلا لم تدرج في قائمة المواد

الممنوع نقلها الى ايطاليا فكانت النتيجة ان تمكنت ايطاليا في ١٩٣٦ من الاستيلاء على الحبشة، والغت عصبة الامم العقوبات المفروضة عليها وذلك بطلب من انجلترا وفرنسا.

٢- دخول القوات الالمانية الى منطقة الراين المنزوعة السلاح في ١٩٣٦/٣/٧ اقتحمت القوات الالمانية منطقة الراين المنزوعة السلام فخرقت بذلك معاهدة فرساي وميثاق لوكارنو ولم تجابه هذه الخطوة اي معارضة فعالة من جانب انجلترا وفرنسا وكل ما فعلته انجلترا ان دخلت في ٣/١٢ في مفاوضات مع المانيا لم تؤد الى نتيجة، حتى ان ممثلي انجلترا وفرنسا وبلجيكا رفضوا اعتبار هذا الاجراء الالماني مهددا للسلام واكتفوا باعتباره خرقا لمعاهدتي فرساي ولوكارنو. ولم تجد احتجاجات مندوب الاتحاد السوفيتي واقترحاته الموجهة لايقاف اعمال العدوان اذنا صافية من جانب الانجليز والفرنسيين.

٣- مساندة المانيا وايطاليا للعصيان الفاشي في اسبانيا في تموز ١٩٣٦: بدأت المانيا وايطاليا تساهمان بنشاط ملحوظ في تنظيم العصيان الفاشي في اسبانيا واخذتا تتدخلان بشكل مكشوف في الشؤون الداخلية لهذا البلد. وعندما عرضت الحكومة الجمهورية في اسبانيا هذه القضية على عصبة الامم في تشرين الثاني ١٩٣٦ عملت الدول المتنفذة داخل العصبة على ابعاد هذه القضية عن العصبة بان شكلت لجنة خاصة لعدم التدخل في القضايا الاسبانية. ولم تكن هذه اللجنة في الواقع الا ستارا واصلت المانيا وايطاليا من ورائه تدخلهما ضد الديمقراطية في اسبانيا. وعندما دعا الاتحاد السوفياتي لاتخاذ اجراءات فعالة ضد تدخل الدول الفاشية في اسبانيا لم يلق تاييدا من انجلترا وفرنسا اللتين واصلتا سياستهما في "عدم التدخل" في القضايا الاسبانية، وهكذا كانت سياسة

الاعضاء التي مارستها في هذه المسألة كل من انجلترا وفرنسا قد مكنت المعتدين الفاشيين من تقويض الجمهورية الديمقراطية الاسبانية.

لقد كانت السياسة التي انتهجتها انجلترا وفرنسا عاملا اساسيا في شل نشاط العصبة في حقل المحافظة على السلام فتهاون هاتين الدولتين هو الذي جعل العصبة غير فعالة بل غير مكترثة لاعمال العدوان التي كانت ترتكب الواحد بعد الاخر من قبل ايطاليا واليابان والمانيا، حتى ان استيلاء المانيا على النمسا لم تعتبر مسالة تستحق المناقشة في العصبة.

ان هذا التهاون هو الذي شجع المانيا على مواصلة العدوان فتوجهت هذه المرة الى جيكوسلوفاكيا . وعلى الرغم من تحشيد المانيا لقواتها على الحدود الجيكوسلوفاكية في هذه القضية لم تدرج في جدول اعمال جمعية العصبة في دورتها المنعقدة في ايلول ١٩٣٨. ان انجلترا وفرنسا كانتا تخططان لحل المسألة بشكل اخر فبعد بضعة ايام وقعت اتفاقية ميونيخ السيئة الصيت التي سلمت جيكوسلوفاكيا لالمانيا تشجيعا لها على الهجوم على الاتحاد السوفيتي، غير ان هذا الهجوم لم يحدث لان الحكومة السوفيتية انتبهت لذلك وعقدت في ١٩٣٩/٨/٢٣ ميثاق عدم اعتداء من المانيا، الامر الذي دفع السياسيين الانجليز والفرنسيين الذين انهارت حساباتهم بهذا الشكل الى استغلال النزاع السوفياتي- الفلندي ١٩٣٩-١٩٤٠ لاقصاء الاتحاد السوفيتي من عصبة الامم في ١٤/٧/ ١٩٣٩ . لقد كان ذلك آخر أعمال عصبة الامم ، فمنذ ذلك الوقت توقف نشاط العصبة وان كانت لم تحل رسميا الا في نيسان ١٩٤٦ وذلك بقرار من الجمعية التي استدعيت خصيصا لهذا الغرض .

منظمة العمل الدولية:

تكونت منظمة العمل الدولية في ١٩١٩ باعتبارها هيئة مستقلة فـــي اطـــار عصبة الامم.

لقد نص ميثاق منظمة العمل الدولية على انها تعمل علـــى رفـــع مســـتوى معسشة الشغيلة وتحسين ظروف عملهم وذلك عن طريق تنظـــيم وقـــت العمـــل ومكافحة البطالة وضمان اجر كاف للعمال وحمايتهم من الامراض وحوادث العمل وحماية عمل الاطفال والنساء والاقرار بمبدأ حرية النقابات وما شابه ذلك.

ومما يميز منظمة العمل الدولية انها تمثل الحكومات والشـــغيلة واصـــحاب العمل في البلدان الاعضاء فيها. واهم مؤسساتها هي :

١. المؤتمر العام ويسمى ايضا مؤتمر العمل الدولي وهـــو اعلـــى مؤسســـة فـــي المنظمة تشترك فيه كل دولة عضوة في المنظمة بممثلين احدهما عن الشـــغيلة والاخرى اصحاب العمل .
٢. المجلس الاداري: ويقوم بمهام الاشراف على سكرتارية المنظمة فيضع جدول اعمال المؤتمرات والمقترحات التي تقدم لها ويتكون من اربعين عضوا عشرون منهم يمثلون الحكومة وعشرة يمثلون الشغيلة امـــا العشـــرة البـــاقين فيمثلـــون اصحاب العمل.
٣. المكتب الدولي للعمل وهو السكرتارية الدائمة للمنظمة ويترأسه مـــدير عـــام، واضافة الى هذه المؤسسات الرئيسية هناك العديد من اللجان الفرعية الي كانت تعمل من اجل تحسين ظروف العمل في مختلف فروع الاقتصـــاد ، كمـــا ان منظمة العمل الدولية تعقد بين فترة واخرى مؤتمرات اقليمية لدراسة مشـــاكل العمل بالنسبة لمختلف انحاء العالم.

كان مقر منظمة العمل الدولية في مدينة جنيف في سويسـرا، واهـم اوجـه نشاطاتها وضع ما يسمى بالاعراف الدولية للعمل التي تتجسد على شكل مواثيـق تقرها المنظمة او توصيات تتخذها. تصبح هذه المواثيق والتوصيات نافذة المفعول بالنسبة لكل دولة بعد ان تصادق عليها تلك الدول. وعلى الدول ان تقدم للمنظمـة تقارير دورية فيما يتعلق بتنفيذ المواثيق التي صادقت عليها.

محكمة العدل الدولية:

نص ميثاق عصبة الامم على ان يضع مجلس العصبة مشروعا لمحكمة عدل دولية دائمة وقد وضع هذا المشروع واقرته جمعية العصبة في اواخر سنة ١٩٢٠ وقدعملت المحكمة فعليا من كانون الثاني ١٩٢٧ حتى ١٩٤٠ عندما توقفت عـن العمل وان كانت لم تلغ رسميا الا في كانون الثاني ١٩٤٦.

كانت محكمة العدل الدولية تتألف في بداية الامر مـن احـد عشـر قاضـيا اصبحوا فيما بعد خمسة عشر ينتخبون بمعرفة مجلس عصبة الامم وجمعيتها لمدة تسع سنوات. ومقر المحكمة في لاهاي ووظيفتها النظر في النزاعات الدولية التـي تعرض على المجلس والتي توافق اطراف النزاع على عرضها على المحكمـة اي ان اللجوء الى المحكمة كان اختياريا بالنسبة للدول.

وكان للمحكمة الى جانب ذلـك وظيفـة استشـارية اذ لهـا ان تبـدي اراء ومقترحات استشارية للمجلس والجمعية، والمحكمة على العموم لـم تلعـب دورا اساسيا في حل المنازعات الدولية ولم يعرض عليها اي نزاع مهـم وممـا يميـز اعمالها انها كانت تدافع عن مصالح الدول ذات النفوذ في عصبة الامم.

الازمة الاقتصادية العالمية

١٩٢٩-١٩٣٣

عانت المجتمعات الرأسمالية منذ العام ١٨٢٥ من ازمات اقتصادية دورية تحولت الى احدى خصائصها الملازمة لها والناجمة عن عوامل وقوانين محددة ذات مردودات متشابهة في اطارها العام. ومنذ العام ١٨٥٧ اتخذت هذه الازمات طابعا عالميا وذلك بحكم التطور الكبير الذي طرأ على العلاقات الاقتصادية المتبادلة بين البلدان والاصقاع المختلفة حتى اضحى بالامكان التحدث عن سوق عالمية تختلف في طبيعتها ومداها عن العلاقات الاقتصادية الداخلية والخارجية التي كانت تسود اجزاء العالم في السابق.

ان اخطر ازمة اقتصادية من هذا النوع هزت العالم هي تلك التي ظهرت بوادرها فجأة في خريف عام ١٩٢٩ في الولايات المتحدة الامريكية التي كانت تمثل اكبر دولة رأسمالية منذ اكثر من نصف قرن قبل ذلك التاريخ. وبالرغم من ان هذه الازمة لم تختلف عن الازمات السابقة في دوافعها ونتائجها، اي في اطارها العام، الا انها اختلفت في نقاط معينة يمكن تلخيصها فيما يلي:-

١. كانت اوربا هي التي تؤلف البؤرة الاساسة لمعظم الازمات الاقتصادية السابقة، بينما تحولت الولايات المتحدة الامريكية الى مركز انفجار ازمة١٩٢٩ – ١٩٣٣، وقد انتقلت اثارها منها الى اوربا اولا ومن ثم الى انحاء العالم الاخرى فيما بعد.

٢. كانت الازمات الاقتصادية السابقة تبدأ وتنتهي في وقت واحد تقريبا، بينما اختلفت بدايات ونهايات الازمة الجديدة حسب البلدان وذلك بحكم عوامل محددة. فعلى صعيد القارة الاوربية انها بدأت في المانيا قبل انكلترا وفرنسا وهي بلغت الذروة في الاولى قبل الدولتين الاخيرتين ، بينما لم تبلغ ذروتها

في فرنسا مثلا الا في العام ١٩٣٥، اي في وقت اختفى فيه الجانب الاكبر من مظاهرها بالنسبة لجميع الاقطار الرأسمالية الاخرى.

٣. كانت ازمة ١٩٢٩ -١٩٣٣ اخطر، واعمق ازمة اقصادية مر بها العالم كما يبدو واضحا من خلال الارقام والحقائق التي سنتطرق اليها فيما بعد، ولكن يكفي القول هنا ان الخسائر المادية التي جلبتها الازمة معها كانت تعادل الخسائر الجسيمة التي سببتها الحرب العالمية الاولى.

٤. لم تكن ازمة ١٩٢٩ -١٩٣٣ اخطر واعمق ازمة من حيث المضمون والنتائج حسب، بل انها كانت ايضا اطول ازمة عرفها التاريخ من حيث اطارها الزمني. فأن الازمات السابقة ما كانت تستمر لاكثر من اشهر في العادة، بينما أدت الازمة الجديدة في خريف عام ١٩٢٩ وانتهت في افضل الاحوال في صيف عام ١٩٣٣، ولكن حتى انتهاء الازمة كان لابد من مرور ما لايقل عن عامين او ثلاثة اعوام على البلاد او المنطقة الواقعة تحت تاثيرها لكي يعود وضعها الاقتصادي الى مستوى ما قبل الازمة.

٥. نتيجة لاستكمال السوق الرأسمالية العالمية كان من الطبيعي ان تمتد آثار الازمة الجديدة الى الاقطار المختلفة بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ ، الامر الذي سنلاحظه من خلال استعراضنا لبعض الحقائق المتعلقة بهذا الموضوع فيما بعد.

٦. تشابكت اثار ازمة ١٩٢٩-١٩٣٣ بشكل لم تعرفه الازمات الاقتصادية السابقة، فلئن كانت الاوضاع الصناعية هي التي تدهورت اكثر من غيرها، الا ان اثار الازمة على الاصعدة الاخرى(الزراعية، التجارية والمالية) لم تكن قليلة الشأن.

ان هذه الخصائص التي ذكرناها تتجلى اكثر من خلال استعراض عام لبعض الحقائق المرتبطة بالازمة ونتائجها. فأن مجمل الانتاج العالمي قد تقلص في سنوات الازمة بمقدار يزيد عن الثلث. فبالنسبة للفحم، مثلا انخفض الانتاج العام بمقدار يزيد عن ٣٠% وبالنسبة للحديد والصلب بلغ معدل الانخفاض اكثر من ٦٠% وبالنسبة للقطن حوالي ٢٧% بينما تتراوح اقصى ما بلغه معدل تدهور الانتاج في الازمات السابقة ما بين ١٠ و١٥ بالمئة. وبالامكان تصور الموضوع بصورة افضل من خلال تحديد الاطار النسبي لهبوط الانتاج في سنوات الازمة. فقد رجع مستوى الانتاج العالمي في تلك السنوات الى ما كان عليه في العام ١٩٠٨-١٩٠٩، بمعنى ان عجلة الاقتصاد الرأسمالي العالمي قد تراجعت بمعدل عقدين كاملين الى الخلف، مما له مغزاه الكبير جدا حسب قياسات الزمن في العصر الحديث.

واذا انتقلنا من التعميم الى التخصيص فأننا نرى ان معدل الانتاج في الولايات المتحدة الامريكية عاد الى ما كان عليه في العام ١٩٠٥-١٩٠٦، وبالنسبة لانكلترا والمانيا الى العام ١٨٩٦-١٨٩٧. وقد تدهور الانتاج بالنسبة لبعض الحقول الانتاجية المهمة الى مستوى ادنى حتى من ذلك. ففي انكلترا، مثلا، انخفض انتاج الفحم الى مستوى العام ١٨٦١ وبناء السفن الى مستوى العام ١٨٤٣.

وكما ذكرنا ان الازمة هزت دعائم الاقتصاد الامريكي بصورة اعنف من غيرها، الامر الذي يجعل استعراض جانب من اثارها المباشرة على الحياة الاقتصادية لتلك البلاد امرا ضروريا. فقد انخفض معدل الانتاج الصناعي الامريكي عام ١٩٣٢ ٤٦% بالقياس الى معدل الانتاج هناك عام ١٩٢٩. وبلغ تدهور الانتاج في بعض الحقول حدا خطيرا للغاية. فبالنسبة للحديد والصلب-

عماد الصناعة الثقيلة- انخفض الانتاج الامريكي في سنوات الازمة بمقدار ٧٥%، وبالنسبة للسيارات بمقدار ٨٠%. فلا غروا ان اغلقت حوالي ١٣٥ الف معمل ومصنع وشركة امريكية ابوابها، وان ظهرت في ضواحي العديد من المدن الامريكية الكبيرة ما يمكن وصفها بمقابر كبيرة للالات والمعدات. أما عدد المصارف الامريكية التي اشهرت الافلاس في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٣ فقد بلغ مالا يقل عن عشرة الاف مصرف من اصل ٢٥ ألف مصرف كانت تعمل بنشاط منقطع النظير عشية الازمة. ولهذا الرقم مدلوله العميق، ذلك لان البنوك والاعمال الصيرفية تعتبر من ابرز اعمدة الحياة الاقتصادية في المجتمعات الرأسمالية.

وفي المجال الزراعي يكفي ان نشير الى ان انتاج الحبوب في الولايات المتحدة قد تدهور في سنوات الازمة الى درجة ان المزارعين اضطروا الى ترك استخدام الالة في حقولهم ورجعوا الى العمل اليدوي في هذا المجال الاقتصادي الحيوي، ذلك لان سعر المنتوجات الزراعية، كالقمح مثلا قد هبط الى اخفض مستوى سجل منذ اربعة قرون قبل ذلك التاريخ.

وجراء كل ما تقدم كان من الطبيعي ان ينخفض الدخل القومي في الولايات المتحدة الامريكية من حوالي ٨٨ مليار دولار عام ١٩٢٩ الى ٤٠ مليار دولار فقط عام ١٩٣٣.

تركت ازمة ١٩٢٩-١٩٣٣ اثاراً عميقة جدا، لم يسبق لها مثيل في التاريخ على الحياة الاقتصادية في البلدان المختلفة التي بدأت تدور بدرجات متفاوتة في فلك العالم الرأسمالي. فقد وجدت هذه البلدان صعوبات كبيرة في تصريف منتوجاتها بسبب تقلص اعتماد البلدان الصناعية عليها، مما ادى الى حدوث

انخفاض كبيرة جدا في اسعار تلك المنتوجات فقياسا الى معدل الاســعار العاليــة السائدة في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٢٥-١٩٢٩ انخفض سعر الجــوت فــي ذروة ايام الازمة بمقدار ٦٢% والسكر بمقدار ٧٤% والحريــر بمقــدار ٧٥% والمطاط بمقدار ٩٣%. وبشكل عام فأن معدل الاسعار بالنسبة لمنتوجــات هــذه الاقطار انخفض الى حوالي نصف ما كان عليه قبل الازمة مما ادى الــى تــدني القوة الشرائية لدى ابناء الشعوب المتخلفة بشكل ملمــوس فــتقلص اســتهلاكها وبالتالي استيرادها للمنتوجات الصناعية التي بدأت تغزو اسواق العــالم الثالــث بصورة متزايدة منذ عقود طويلة سبقت الازمة الاقتصادية العالمية وقد ترك كــل ذلك اثارا مباشرة على التجارة العالمية التي بدأت بدورها تعاني من مشاكل معقدة ادت الى ان ينخفض مستواها الى حوالي ثلث ما كان عليه قبل انفجــار الازمــة ونجمت عن ذلك حرب تجارية فعلية بين مختلف اقطار العــالم التــي تســابقت اوساطها الحاكمة الى فرض رسوم وتعاريف كمركية جديدة كوسيلة للتخفيف عن اثار الازمة على بلدانها. فخلال فترة قصيرة (من حزيــران عــام ١٨٣١ حتــى نيسان عام ١٩٣٢) رفعت ٧٦ بلدا رسومها الكمركية المفروضة على البضــائع المستوردة من الخارج، وبدأت تخصص في ميزانياتها مقادير اقل من العمــلات الصعبة للتجارة الخارجية، بل وحتى منعت استيراد انواع معينة من البضائع.

وكان من الطبيعي ان يؤثر الواقع المزري للتجارة العالمية في سنوات الازمة على حركة النقود ودورتها وخاصة على نظام العمــلات فــي معظــم الاقطــار الرأسمالية. ففي العام ١٩٣١ اضطرت انكلترا الى سحب الغطاء الــذهبي عــن الجنيه الاسترليني مما ادى الى ان تفقد عملتها وعملة البلدان المرتبطة بها قوتها. وقد امتدت اثار هذا الاجراء حتى الى عدد من الاقطار الاوربية المتطــورة مــن قبيل الدول الاسكندنافية بل والى اقطار بعيدة في امريكا اللاتينيــة مثــل بوليفيــا

وكولومبيا. وقد تعمقت اثار هذه المشكلة الى حد ابعد حينما لجأت الولايات المتحدة الامريكية بعد عامين فقط الى اجراء مشابه بالنسبة للدولار. وبشكل عام فقدت عملات ٥٦ دولة قوتها خلال الفترة الممتدة بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٣.

لاينكر ان جميع الطبقات والفئات الاجتماعية في الاقطار الرأسمالية والبلدان المرتبطة بها قد عانت كثيرا من اثار ازمة ١٩٢٩-١٩٣٣، ولكن بحكم عوامل موضوعية محددة اختلفت نسبة تأثر هذه الفئات باثار الازمة. فأن ما يمكن وصفه بالمناعة الاقتصادية خففت الى حد ما من عبء الازمة على كبار الرأسماليين الذين بذلت الدولة بدورها كل ما في وسعها من اجل مد يد العون اليهم ومساعدتهم لحل مشاكلهم ليتمكنوا من تفادي اثار الازمة باسرع ما يمكن، فقدمت لهم القروض وفرضت ضرائب كمركية تحمي مصالحهم ورفعت مشترياتها من المعدات الحربية. لذا فأن ثقل اثار الازمة جاء اكبر بالنسبة للفئات الكادحة والمتوسطة من عمال وفلاحين ومنتجين صغار وموظفين ومثقفين ومن كان على شاكلتهم. وفيما يلي نحاول اعطاء صورة مركزة عن هذه الحقيقة.

حسب المعطيات الرسمية التي تعود الى تلك الفترة بلغ عدد العمال العاطلين كليا عن العمل عام ١٩٣٢ في الـ ٣٢ دولة رأسمالية وقعت فيها الازمة حوالي ٢٦,٥ مليون شخص. هذا الى جانب البطالة المقنعة، فان عشرة ملايين اخرين من العمال كانوا نصف عاطلين لانهم في الغالب كانوا يعملون لمدة يوم واحد او يومين في الاسبوع. ويرتفع عدد جيش العاطلين اكثر اذ اخذنا بنظر الاعتبار الكساد الكبير الذي اصاب سوق العمل في البلدان المتخلفة التي لا تتوفر احصاءات دقيقة عن البطالة فيها خلال سنوات الازمة.

ولكن مما لاشك فيه ان عدد العاطلين في تلك البلدان كان كبيرا بدوره. ففي العراق، مثلا، تحولت البطالة الى ظاهرة عامة خطيرة جلبت انظار الصحافة لاول مرة اذ بدأت بنشر قوائم دورية في عدد العاطلين في بغداد. ولم يكن مجرد صدفة ان تبلورت الحركة العمالية العراقية في سنوات الازمة بالذات.

واذا انتقلنا مرة اخرى من التعميم الى التخصيص فأننا نرى مثل هذه الصورة المذهلة: في اذار عام ١٩٣٣ بلغ عدد العمال العاطلين في الولايات المتحدة حوالي ١٧ مليون شخص. وفي حوالي الفترة نفسها ارتفع عدد العمال العاطلين في المانيا الى اكثر من ٦ ملايين شخص، فقد بلغت نسبة البطالة بين البروليتاريا الالمانية ما لايقل عن ٤٥% ورافق ذلك انخفاض ملحوظ في اجور العمال. ففي انكلترا انخفضت اجورهم بنسبة حوالي ٢٠% وفي الولايات المتحدة الامريكية بنسبة ٤٤%. ومن اجل تخفيف الضغط الكبير الواقع على الميزانية لجأت اكثرية الدول الرأسمالية الى تخفيض رواتب الموظفين، وسدت ابواب العمل امام المثقفين. كما عانى الفلاحون من مشاكل مشابه دفعت باعداد كبيرة منهم الى ترك حقولهم، بل والى قطع اشجار بساتينهم للتخفيف عن نقص الوقود الذي اصبح ظاهرة عامة في المدن والارياف على حد سواء. ومما له مغزاه في مجال بحثنا ان مثل هذه الظاهرة قد لوحظت حتى في الاقطار المتخلفة ولو على نطاق اضيق من الولايات المتحدة الامريكية والاقطار الاوروبية. فأن يد الفلاحين في سوريا، مثلا، قد امتدت في سنوات الازمة الى اشجار الزيتون ذات الريع العالي، فلم يتورعوا عن قطعها لاستخدامها لاغراض التدفئة وغيرها.

كان من الطبيعي جدا ان تترك الازمة الاقتصادية اثارا عميقة على الحياة السياسية الداخلية والخارجية للدول الرأسمالية والبلدان المرتبطة بها. فقبل كل شيء تعمقت التناقضات الاجتماعية داخل المجتمعات الرأسمالية، ولاسيما لان

الاستياء بين الشغيلة بلغ أوجه، ففي سنوات الازمة انفجرت ثورة في اسبانيا، وتعقدت الاوضاع السياسية بشكل خطير في كل من المانيا وايطاليا واليابان وبولونيا وغيرها. ولم يكن مجرد صدقة ان اقيمت الدكتاتورية النازية في المانيا عام ١٩٣٣ وان جرت محاولة عصيان فاشي في فرنسا عام ١٩٣٤. ومن جانب آخر عاشت حركات التحرر الوطني لشعوب البلدان المستعمرة فترة مد واضحة المعالم، حتى ان اثار الازمة هيأت ظروفا انسب لانتقال تلك الحركات في بعض المناطق الى طور أعلى، خاصة لان الدول الاستعمارية حاولت عن طريق الضغط على ابناء شعوب تلك المناطق التخفيف من اثار الازمة على مصالحها.

اثرت الازمة الاقتصادية كذلك على العلاقات القائمة بين الدول الكبرى، فقد ساعدت على تعميق مشاكلها وتوتير العلاقات بينها وذلك بحكم تصادم مصالحها جراء التناقض بين خططها الرامية الى التخفيف من وطأة الازمة عليها. فعلى سبيل المثال لم يكن بوسع الدول الكبرى، وفي مقدمتها الولايات المتحدة الامريكية، ان تنظر بعين الارتياح الى الخطوة التي اقدمت عليها اليابان في العام ١٩٣١ حينما قامت قواتها باحتلال منشوريا في الصين.

وقد تحول كل ذلك، وغير ذلك، الى تراكمات كمية هيأت الطريق اكثر لاندلاع نيران حرب عالمية جديدة بدأت اوساط استعمارية معينة تعتبرها من جديد وسيلة ضرورية لحل المشاكل المستعصية المخيمة على مصالحها.

وفي الختام من الضروري ان نلاحظ كذلك ان الازمة الاقتصادية العالمية في ١٩٢٩-١٩٣٣ نبهت اذهان الرأسماليين في الدول الكبرى الى جانب من الثغرات الموجودة في انظمتهم، وقللت من تفاؤلهم والذي بلغ الذروة، خاصة بين الاحتكاريين الامريكان، عشية الازمة بالذات. فأنهم اصبحوا على اعتقاد راسخ

بأنهم " قد حلوا كل المشاكل التي يدرج تحت ثقلها العالم القديم وانهم في مأمن من كل ازمة مالية واقتصادية(*)". لذا ليس غريبا ان ذكر الرئيس الامريكي كوليج في رسالته التوديعية الى الكونغرس بتاريخ ٤ كانون الاول عام ١٩٢٨، اي قبل انفجار بوادر الازمة في بلاده بأقل من سنة واحدة، ذكر بالنص:

"المناطق الى طور أعلى، خاصة لان الدول الاستعمارية حاولت عن طريق الضغط على ابناء شعوب تلك المناطق التخفيف من اثار الازمة على مصالحها".

اثرت الازمة الاقتصادية كذلك على العلاقات القائمة بين الدول الكبرى، فقد ساعدت على تعميق مشاكلها وتوتير العلاقات بينها وذلك بحكم تصادم مصالحها جراء التناقض بين خططها الرامية الى التخفيف من وطأة الازمة عليها. فعلى سبيل المثال لم يكن بوسع الدول الكبرى، وفي مقدمتها الولايات المتحدة الامريكية، ان تنظر بعين الارتياح الى الخطوة التي اقدمت عليها اليابان في العام ١٩٣١ حينما قامت قواتها باحتلال منشوريا في الصين.

وقد تحول كل ذلك، وغير ذلك، الى تراكمات كمية هيأت الطريق اكثر لاندلاع نيران حرب عالمية جديدة بدأت اوساط استعمارية معينة تعتبرها من جديد وسيلة ضرورية لحل المشاكل المستعصية المخيمة على مصالحها.

وفي الختام من الضروري ان نلاحظ كذلك ان الازمة الاقتصادية العالمية في ١٩٢٩-١٩٣٣ نبهت اذهان الرأسماليين في الدول الكبرى الى جانب من الثغرات الموجودة في انظمتهم، وقللت من تفاؤلهم والذي بلغ الذروة، خاصة بين الاحتكاريين الامريكان، عشية الازمة بالذات. فأنهم اصبحوا على اعتقاد راسخ بأنهم " قد حلوا كل المشاكل التي يدرج تحت ثقلها العالم القديم وأنهم في مأمن من

(*) " العراق " جريدة ، بغداد، ١٢ كانون الثاني ١٩٣١.

كل ازمة مالية واقتصادية(*) لذا ليس غريبا ان ذكر الرئيس الامريكي كوليج في رسالته التوديعية الى الكونغرس بتاريخ ٤ كانون الاول عام ١٩٢٨، اي قبل انفجار بوادر الازمة في بلاده بأقل من سنة واحدة، ذكر بالنص:

" بوسع البلاد ان تنظر بارتياح الى الحاضر ويتفاؤل الى المستقبل " وقد وردت تصريحات مشابهة على السن الاحتكاريين الامريكان انفسهم فأن احدهم صرح قائلاً: " لقد وضع في بلادنا اساس من الرخاء من شأنه ان يطغي على كل شيء " رأيناه حتى الان". اما رئيس الكونسيرن المعروف" جنرال موتورز" فقد ذكر عشية الازمة بالحرف الواحد: " انني لا أرى من العوامل ما يعرقل استمرارية رفاهنا وما يحول دون وجود حالة اقتصادية متفوقة لدينا وما يمنع نمو ازدهارنا".

الا ان هذه النظرة قد تغيرت بصورة ملموسة في اواسط الثلاثينات، اي بعد انتهاء الازمة مباشرة. فحسبما يعترف المؤرخون الغربيون فأن الازمة كانت دليلا على " ان النظام الرأسمالي كان ينقصه التنظيم الكافي" وهذا ما دفع" بجميع بلاد اوربا" الى مناقشة فكرة الاقتصاد الموجه في العام ١٩٣٤.

واثناء الحديث عن التاريخ السياسي للدول الكبرى بصورة مستقلة سوف نلقي اضواء اخرى على جوانب من الازمة الاقتصادية العالمية التي عانت الدول الرأسمالية منها بدرجات متفاوفته، بما في ذلك انكلترا.

(*) " العراق " (جريدة) ، بغداد، ١٢ كانون الثاني ١٩٣١.

انكلترا

مقدمة عامة:

في الواقع ان اسم انكلترا يطلق بصورة غير صحيحة على بريطانيا العظمى كدولة، فأن انكلترا ليست سوى احدى المقاطعات الرئيسية للدولة المـذكورة، وأن بريطانيا من الاسماء اللاتينية القديمة التي اطلقت على انكلترا التي تشغل المناطق الجنوبية والوسطى من جزيرة بريطانيا. اما الاسم الرسمي لهذه البلاد فهو المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وايرلندا الشمالية.

تقع جزيرة بريطانيا الى الغرب من القارة الاوربية. تبلغ مسـاحة بريطانيـا العظمى ٢٤٤ الف كم٢ ويربو عدد سكانها الان على حوالي ٥٧ مليون شخص.

ان تاريخ انكلترا الحديث والمعاصر حافل بالاحداث المهمة التي امتدت اثـار معظمها الى القارة الاوربية المجاورة والى ما وراء البحار من اصقاع بعيدة. فأن اشعاعات ثورة عام ١٦٤٠ امتدت بعيدا الـى خـارج الجزيـرة، وان الثـورة الصناعية التي تفتقت وتطورت في انكلترا بالذات كانـت ذات مـردود عـالمي واسع، فيكون الانكليز بذلك من اهم رواد تطوير الحضارة الحديثة. ومنذ زمـن بعيد قيل عن الامبراطورية البريطانية المترامية الاطراف انها لا تغيـب عنهـا الشمس، فأن مساحتها عشية الحرب العالمية الاولى بلغت اكثر مـن ٣٢ مليـون كم٢ كانت تمتد الى القارات الخمس وقد بلغ عدد نفوسها يومـذاك حـوالي ٤٤٠ مليون شخص. وهكذا فأن بريطانيا العظمى ظلت على مدى قرون طوال تلعـب الدور الاهم واحيانا الدور الحاسم والنهائي في تقرير مصـير معظـم القضـايا الدولية، وهي كانت طرفا اساسيا في قسم كبير من الحروب الاوربيـة المهمـة وكذلك في الحربين العالميتين الاولى والثانية، وان الجانب الاكبـر مـن نضـال

الشعوب في سبيل التحرر والاستقلال كان موجها ضدها بالذات، بما في ذلك نضال الشعب العراقي الذي عانى الامرين من الاستعمار البريطاني قبل الاحتلال وبعده. واخيرا فأن بريطانيا العظمى لاتزال تتمتع بوزن سياسي واقتصادي كبير في عالمنا المعاصر. وبحكم كل ما تقدم وتغدو دراسة التاريخ الحديث لانكلترا كدولة كبرى مهمة علمية وعملية في آن واحد.

لمحة من تاريخ انكلترا قبل الحرب العالمية الاولى:

نتيجة انتشار اثار الثورة الصناعية في معظم الاقطار الاوربية والولايات المتحدة الامريكية بدأت انكلترا تفقد بعض مواقعها الاقتصادية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الا انها ظلت تحتفظ بمواقع ممتازة في المستعمرات والتجارة والملاحة الدولتين. فبالنسبة للمستعمرات نلاحظ ان انكلترا تمكنت من توسيع مساحة ما كانت تستحوذ عليها بسرعة. ففي العام ١٨٦٠ بلغت مساحة مستعمراتها ٦,٥ مليون كم٢ يقطن فيها ١٤٥ مليون شخص ، وبعد عقدين فقط ، اي في العام ١٨٨٠ ارتفع الرقم الاول الى ٢٠ مليون كم٢ والرقم الثاني الى ٢٦٨ مليون شخص. وبعد عقدين اخرين، وبالتحديد في العام ١٨٩٩ ارتفعت مساحة المستعمرات البريطانية الى٣٠ مليون كم٢ وعدد سكانها الى٣٤٠ مليون شخص، ثم ارتفع الرقمان عشية الحرب العالمية الاولى الى ٣٢,٥ كم٢ و٤٤٠ مليون شخص على التوالي.

وهكذا فأن محاولات الاوساط الحاكمة الانكليزية لتوسيع مساحة المستعمرات التابعة لانكلترا والعمل من اجل تثبيت اقدامها فيها وعوامل اخرى مرتبطة بهما تحولت الى العامل الاساس لتحديد الاطار العام لسياسة انكلترا الخارجية. وثم ان

الاستحواذ على مثل هذه المساحات الشاسعة لعب دوراً كبيراً في تطوير الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لانكلترا.

ومن اجل فهم اعمق للحياة السياسية في انكلترا قبل الحرب العالمية الاولى كما في سنواتها وما بعدها من الضروري ان نلقي بعض الضوء على اهم الاحزاب السياسية في انكلترا، خاصة وان الحياة الحزبية فيها قديمة تعود بداياتها الى القرن السابع عشر.

اما في تاريخ انكلترا الحديث والمعاصر فقد لعبت ثلاثة احزاب هي احزاب المحافظين والاحرار والعمال الدور الرئيس في تحريك احداث البلاد وتحديد مسار متغيراتها.

يعتبر حزب المحافظين استمرارا للحزب التوري المعروف، وقد ظهر بأسمه الجديد في حدود عام ١٨٤٢. ويمثل المحافظون اساسا البرجوازية الاحتكارية والارستقراطية الزراعية البريطانية، وكانت "صيانة الامبراطورية"، تعتبر من الاهداف المركزية لحزب المحافظين الذي عرف منذ البداية باتجاهاته المحافظة وتأييده للمؤسسات التقليدية. ولايزال يحتفظ حزب المحافظين حتى اليوم بتأثيره الحاسم في حياة البلاد السياسية وهو لايفقد جانبا كبيراً من ذلك التأثير حتى حينما ينتقل الى صفوف المعارضة ذلك لان قسما كبيرا من كبار موظفي الدولة العسكريين والمدنيين، بمن فيهم اعضاء السلك الدبلوماسي هم اعضاء في حزب المحافظين الذي يربو عدد المنتمين اليه بصورة مباشرة على حوالي ثلاثة ملايين شخص في الوقت الحاضر" وكان بلدوين وتشمبرلن وبلفور وتشرشل من ابرز زعماء حزب المحافظين في فترة بحثنا.

اما حزب الاحرار فهو عملياً استمرار لحزب الويك وقد ظهر باسمه الجديد في اواسط القرن التاسع عشر. وهو حزب برجوازي يؤكد على التبادل التجاري الحر وبعض الحريات الديمقراطية، وقد ظل حزب الاحرار يحتفظ بموقع قوى في حياة البلاد السياسية لغاية الثلاثينيات حينما بداً يفقد وزنه الى حد كبير، ولاسيما بعد ظهور ونمو حزب العمال الذي تجاوز في مبادئه اراء حزب الاحرار. وكان بانرمان واسكويث ولويد جورج من ابرز زعماء الاحرار في اواخر القرن التاسع عشر والعقود الاولى من القرن العشرين.

وقد تأسس حزب العمال في العام ١٩٠٠. وفي البداية ظهر في صفوف الحزب الجديد اتجاهان اشتراكيان أحدهما راديكالي يؤمن بالتغيير الثوري والاخر اصلاحي يؤمن بالعمل البرلماني ويحدد الاشتراكية بالعمل من اجل " تحسين حالة العمال والقضاء على عدم المساواة في الثروة". ومن هذا المنطلق اكد زعماء الاتجاه الاخير على ضرورة التعاون من اي جماعة اخرى تقبل بالعمل من اجل سن قوانين لصالح العمال. وقد انتصر التيار الاصلاحي داخل حزب العمال الذي انسحب منه انصار التيار الراديكالي فتمكنت الفئة العمالية المتبرجزة من احكام سيطرتها على حزب العمال بسرعة وتحول الحزب منذ العشرينات الى احدى القوتين الاساسيتين المؤثريتين في حياة انكلترا السياسية. وبما ان الانتماء الى صفوف حزب العمال يجري بصفة فردية او جماعية فأن عدد اعضائه يفوق كثيرا عدد اعضاء الاحزاب السياسية الاخرى، فهو يصل في الوقت الحاضر الى ما لايقل عن ٦,٥ مليون عضو. وقد لعب مكدونالد وهندرسن دوراً مهما في تأسيس حزب العمال وفي نشاطه لغاية سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية.

كما ذكرنا ان فقد انكلترا لبعض مواقعها الاقتصادية. خاصة بسبب زوال احتكارها للصناعة الحديثة، دفع بها الى العمل المستمر من اجل توسيع

مستعمراتها وتشديد استغلال ما لديها منها للتعويض عن خسائرها. وقد دفع ذلك بحكومة المحافظين الى اعلان الحرب ضد جمهورية البوير في جنوبي افريقيا عام ١٨٩٩ والتي استمرت لغاية عام ١٩٠٢. وكان الانكليز يستهدفون من حربهم هذه الاستيلاء على مناجم الذهب والماس الغنية في المنطقة وتحقيق خطتهم التي كانت ترمي الى اقامة امبراطورية افريقية تابعة لهم تبدأ من القاهرة شمالاً وتنتهي في كيبتاون جنوبا. ومن جانب اخر ظهر اتجاه جديد في صفوف المحافظين بزعامة وزير المستعمرات جوزيف تشمبرلن يدعو الى الغاء حرية التجارة واتباع سياسة الحماية الكمركية. ولكن خشي قطاع واسع من الرأسماليين ان يؤدي ذلك الى حرمانهم من عنصر المنافسة في الاسواق الخارجية، الامر الذي ادى الى حدوث انشقاق في صفوف المحافظين ، فقد استقال تشمبرلن وعدد اخر من الوزراء المؤيدين له من الحكومة المحافظة.

حاول حزب الاحرار استغلال الموضوع لصالحه، فزاول نشاطا سياسيا واسعا ركز فيه على ضرورة الابقاء على حرية التجارة لانها، كما ادعى، تضمن " خبز رخيصا" للعمال. وتحت هذا الشعار تمكن الحزب من الحاق هزيمة كبيرة بحزب المحافظين الحاكم في الانتخابات الجديدة التي جرت في مطلع عام ١٩٠٦ وذلك حينما حصل على ٤٠١ مقعدا مقابل ١٥٧ مقعدا فقط للمحافظين الذين استقالت حكومتهم برئاسة بلفور[١٨] لتحل محلها وزارة جديدة الفها حزب الاحرار

---

[١٨] ارتور جيمس بلفور(١٨٤٨-١٩٣٠) كان من زعماء حزب المحافظين البارزين دخل للبرلمان ممثلا عنه لاول مرة في العام ١٨٧٤. اصبح سكرتيرا للشؤون الايرلندية في الفترة ١٨٨٧-١٨٩١، وقد زاول ابشع الاساليب ضد الشعب الايرلندي. دخل الوزراء لاول مرة في العام ١٨٩١، واصبح رئيسا للوزراء عام ١٩٠٢، وبعد ذلك اشغل مناصب وزارية مختلفة مرات عديدة. في ١٩١٦-١٩١٧ كان وزيرا للخارجية وقد اصدر يومذاك(في تشرين الثاني ١٩١٧) وعده المعروف بـ " وعد بلفور" حول اقامة ما سمي في الوعد بكيان قومي لليهود.

الذي ظل يحكم البلاد لوحده لغاية العام ١٩١٥، في البداية برئاسة كامبيل بانيرمان (حتى وفاته عام ١٩٠٨) ثم برئاسة هربرت هنري اسكويث(من ١٩٠٨ حتى ١٩١٥)، وبعد ذلك التاريخ استمر حزب الاحرار في الحكم بالتعاون مع الحزبين الاخرين كما سنلاحظ ذلك فيما بعد.

اضطرت حكومة الاحرار القيام ببعض الاصلاحات الضرورية. ففي العام ١٩٠٦ تقرر رفع التعويضات التي تمنح للعمال الذين يصابون بعاهة اثناء العمل. وبعد تأمين اصدرت الحكومة قرارا يقضي بتقليص ساعات العمل في المناجم الى ثمان فقط وتقرر ايضا منح راتب تقاعدي للعمال الذين يبلغون السبعين من العمر فما فوق. وفي العام ١٩١١ سنت الحكومة قانون الضمان للعمال المرضى والعاطلين عن العمل.اما على الصعيد الخارجي فقد منحت حكومة الاحرار مقاطعتي الترانسفال واورانج في جنوبي افريقيا الحكم الذاتي.

وفي الواقع كانت هذه الاصلاحات دون مستوى الحاجات الحقيقية للجماهير الانكليزية ولشعوب المستعمرات. ولم يكن مجرد صدفة ان سمي العمال قانون التقاعد للعام ١٩٠٨ تهكما بـ "قانون تقاعد الموتى" ، كما لم يكن مجرد صدفة ايضا ان اطلق الناس على زعماء الحكومة الجديدة اسم الليبراليين الاستعماريين. وحقا ان زعماء الاحرار كامبيل بانيرمان وهيربرت اسكويث ولويد جورج اتبعوا سياسة ديماغوجية، فانهم في الغالب كانوا يفعلون مالا يقولون ويقولون ما لا يفعلون. فبالرغم من جميع شعاراتهم وادعاءاتهم انهم كانوا خداما مخلصين للرأسمالية البريطانية وحراسا امناء على مصالحها. ومن هذا المنطلق انهم وقفوا بحماس الى جانب الرأسماليين لحل منازعاتهم فيما بينهم ووقفوا بحماس اكبر ضد الحركة العمالية في الداخل ومع الاستغلال "الامثل" للشعوب المستعمرة في الخارج. ومن المهم ان نشير ايضا الى ان حكومة الاحرار رفعت مقدار

الضرائب غير المباشرة التي يقع عبئها عادة على كاهل الفئات الاجتماعية الفقيرة.

وفي الوقت نفسه ادت محاولة حكومة الاحرار لفرض ضرائب جديدة على الاراضي الزراعية الى حدوث ازمة سياسية في البلاد، خاصة وان المحافظين الذين كان مثل هذا الاجراء يمس مصالحهم ايضا حاولوا استغلال الموضوع للايقاع بالحزب الحاكم. فوقف مجلس اللوردات الذي كان يتألف اساسا من الارستقراطيين الزراعيين ضد القرار الجديد للحكومة وبالمقابل حاول الاحرار من جانبهم اثارة الراي العام ضد مجلس اللوردات فشاع بين الناس الشعار القائل. ان الله وهب الارض للشعب". وهكذا تعمقت الازمة السياسية في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٠٩ و ١٩١١، وقد اضطرت الحكومة الى اجراء الانتخابات مرتين دونما ان تؤثر نتائجهما كثيراً على الاكثرية التي كان يتمتع بها حزب الاحرار داخل مجلس العموم. وعندما تأكدت حكومة الاحرار من مركزها الثابت وجهت ضربة قوية الى مجلس اللوردات ومن خلاله الى حزب المحافظين. ففي العام ١٩١١ اصدرت الحكومة قانونا يقضي بتقليص صلاحيات مجلس اللوردات الذي جرد من حق اقرار المسائل المالية، اما بالنسبة للقوانين الاخرى، فقد تقرر اعادتها الى مجلس العموم في حالة رفضها من قبل مجلس اللوردات واذا أقر الاول (اي مجلس العموم) القانون المعني في ثلاث دورات متتالية يصبح مشرعا بغض النظر عن رفض مجلس اللوردات له.

كانت ظروف العالم ، ولاسيما ظروف اوربا تنبئ في هذه الفترة باحتمال وقوع حرب دولية طاحنة. وفي الواقع لم تقتصر حكومة الاحرار في التهيئة للحرب المتوقعة سواء على الصعيد الداخلي او على الصعيد الخارجي، وقد سبق ان تطرقنا الى الجوانب الاساسية لسياسة انكلترا الخارجية في تلك السنوات عند

البحث عن الحرب العالمية الاولى. اما على الصعيد الداخلي فان استعدادات الحكومة انعكست بصورة واضحة في الميزانيات الجديدة للدولة التي اولت قضايا التسليح اهتماما اكبر من السابق.

انكلترا والحرب العالمية الاولى:

سبق ان لاحظنا الدور الكبير الذي لعبته انكلترا في الاعداد للحرب وفي العمليات العسكرية التي وقعت في الجبهة الغربية وفي الشرق الادنى وفي عرض البحار. وكان من الطبيعي ان تتأثر الحياة السياسية داخل انكلترا بأحداث الحرب وتطوراتها الكبيرة بصورة مباشرة فبعد اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى بفترة اعاد زعيم حزب الاحرار اسكويث تنظيم وزارته على اساس الائتلاف مع الحزبين الاخرين-حزب المحافظين وحزب العمال وقد استمر اسكويث على رأس الوزارة الائتلافية لغاية كانون الاول عام ١٩١٦ عندما اضطر الى تقديم استقالته بسبب اندحار القوات البريطانية في العديد من المعارك المهمة وجراء استفحال التناقضات والازمة الداخلية الى جانب المناورات الخفية التي قام بها الزعيم الاخر لحزب الاحرار السياسي الماكز لويد جورج الذي عهد اليه تأليف وزارة ائتلافية جديدة بقيت في دست الحكم لغاية تشرين الاول عام ١٩٢٢.

وفي كل الاحوال ظلت الحكومة البريطانية تتبع سياسة ثابتة في سنوات الحرب استهدفت منها ضمان النصر على عدوة انكلترا اللدودة المانيا. وقد اتخذت الحكومة من ذلك ذريعة لالغاء العديد من مظاهر الديمقراطية الليبرالية في البلاد واصدرت قوانين محددة بهذا الصدد منها " قانون حماية المملكة". وفي بداية الحرب استطاعت البرجوازية تجريد العمال من حق الاضراب بحجة ضرورة الحفاظ على "الامن الاجتماعي" حتى تم ابرام ما عرف بـ "الهدنة في المجال

الصناعي" بين النقابات العمالية واصحاب المعامل في آب عام ١٩١٤، أي بعد دخول انكلترا الحرب مباشرة. ولكن ظروف العمال الصعبة ومحاولات الرأسماليين استغلال الحرب للضغط على العمال اكثر ادت الى انفجار الحركة الاضرابية في البلاد من جديد قبل ان تمر سنة واحدة على بداية الحرب.

شددت انكلترا من استغلالها لشعوب المستعمرات في سنوات الحرب، وهي لم تكتف بتكريس الامكانات الاقتصادية الكبيرة لمستعمراتها لخدمة اغراضها العسكرية، بل حاولت الى جانب ذلك الاستفادة الى اقصى حد ممكن من الطاقات البشرية الكبيرة في تلك المستعمرات، فجندت مئات الالوف من ابنائها الذين نقلوا الى مختلف جبهات القتال حيث لقي قسم كبير منهم حتفهم ورجع قسم اخر منهم الى اوطانهم بعد الحرب حاملين معهم عاهات مستديمة حولت حياتهم الى جحيم لايطاق. وقد ولد كل ذلك مدا جديدا في حركة التحرر الوطني لشعوب المستعمرات، الامر الذي انعكس بسرعة في الانتفاضة المسلحة العامة التي انفجرت في ايرلندا في نيسان عام ١٩١٦ من اجل استقلال الجزيرة والتي تمكنت القوات البريطانية من قمعها بقسوة.

حاولت انكلترا كعادتها ان تلقي عبء الحرب على حليفتها فرنسا وروسيا الا انها فشلت هذه المرة في تحقيق هدفها هذا ذلك لان المانيا بأمكاناتها العسكرية الهائلة تمكنت من فرض الحرب عليها مباشرة سواء في عرض البحار والمحيطات او فوق اراضي مستعمراتها ومناطق نفوذها. وبفضل استخدام الطائرات والغواصات الحربية اصبح الاسطول البريطاني عاجزا هذه المرة عن الحيلولة دون وصول قنبلة او طلقة واحدة الى سواحلها كما كان عليه الامر في معظم حروب انكلترا السابقة.

وهكذا فأن الحرب العالمية الاولى جلبت لانكلترا من المآسي والويلات ما لم يكن في حسبان حكامها قبل اندلاع نيرانها. فقد تقلص الانتاج الصناعي في البلاد بمقدار ٢٠%، كما تقلصت الرساميل الانكليزية المستغلة في الخارج بمقدار حوالي ٢٥%، وبالاجمال فأن انكلترا فقدت بسبب الحرب حوالي الثلث من ثروتها القومية. ومما له مغزاه العميق بهذا الصدد ان مجموع الديون الامريكية المتراكمة على انكلترا بلغت حوالي اربعة مليار دولار في العام ١٩١٩ بينما كانت الولايات المتحدة هي التي تستدين الاموال من انكلترا قبل الحرب العالمية الاولى.

وكانت الخسائر البشرية لانكلترا جراء الحرب كبيرة بدورها فقد فقدت القوات البريطانية حوالي ٧٥٠ الف قتيل وما يربو على مليون و ٧٠٠ الف جريح.

وكالعادة وقع الجانب الاكبر عن عبء الحرب وتبعاتها على عاتق الفئات الدنيا والمتوسطة. فالبرغم من الغلاء الفاحش ظلت الاجور في مستواها المتدني، كما ان بعض مشاكل هذه الفئات فيما يخص مسائل حياتية اساسية من قبيل السكن والخدمات الاجتماعية فقد تعمقت اكثر بسبب الحرب، الامر الذي اثر على نشاطها العام. فكما لاحظنا ما عاود العمال اضراباتهم، وازداد الميل بين العمال للانتماء الى النقابات التي ارتفع عدد اعضائها خلال سنوات الحرب بمقدار المرة ونصف المرة.

ومن المهم ان نلاحظ بأن انكلترا بالرغم من جميع خسائرها الا انها تأتي في المرتبة الثالثة بعد الولايات المتحدة واليابان من حيث الفوائد التي جنتها من انتصار الحلفاء في الحرب. فقبل كل شيء ان المانيا منافستها الرئيسة في الاسواق والمستعمرات والبحار قد اختفت من المسرح وقتيا، كما انها تمكنت من

توسيع مستعمراتها على حساب المستعمرات والبحار قد اختفت من المسرح وقتيا، كما انها تمكنت من توسيع مساحة مستعمراتها على حساب المستعمرات الالمانية في افريقيا والممتلكات العثمانية في الشرق الادنى بمقدار مليـــونين و٦٠٠ الــف كم٢ بلغ عدد سكانها اكثر من ٩ملايين شخص. والف نصيب انكلترا جزءا مـــن التعويضات الحربية التي الزمت المانيا بدفعها حسب بنود معاهدة فرساي. ثم ان انكلترا احتلت مع فرنسا موقع القيادة في عصبة الامم التي اسست ايـــام مـــؤتمر الصلح بباريس. واخيرا فأن الاسطول الانكليزي ظل يشغل، بعـــد زوال الخطـــر الالماني، المكانة الاولى في المياه الاقليمية وغير الاقليمية الموضوع الذي اشغل بال حكام انكلترا بصورة جدية.

تركت نتائج الحرب آثارا مباشـــرة علـــى الحيـــاة السياســـية والاقتصـــادية والاجتماعية لانكلترا، مما انعكس مباشرة في الاحداث التي شهدتها الـــبلاد بعـــد انتهاء الحرب العالمية الاولى.

انكلترا في السنوات الاولى بعد الحرب:

عندما وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها كانت وزارة لويد جورج الائتلافية التي ضمت الاحزاب الثلاثة المحافظين والاحرار والعمال تحكم البلاد. ومن اجل التخفيف من حده المعارضة الشعبية انجزت الحكومة بعض الاصلاحات، ومنها ما كان يتعلق بنظام الانتخابات، فبموجب تشريع خاص منحت الحكومة جميع الذكور البالغين ٢١ عاما فما فوق حق الانتخاب، واعطت المرأة البريطانية لاول مره في التاريخ حق الترشيح والتصويت في الانتخابات شريطة ان تبلغ من العمر ٣٠ عاما فما فوق. وقد ادى ذلك الى ان يرتفع عدد الناخبين من ٨ ملايين الى ٢١ مليون شخص. ومن الاجراءات المهمة الاخرى للحكومة الائتلافية انها قررت صرف منح مالية للجنود المسرحين لحين ايجادهم للعمل.

ولكن مع ذلك بقيت المشاكل الاساسية للفئات الاجتماعية المتوسطة ولاسيما الدنيا على وضعها السابق تقريبا، الامر الذي وجد له انعكاسات واضحة على الحياة الحزبية والحركة الاضرابية في انكلترا ما بعد الحرب مباشرة. فقبل كل شيء اضطرت قيادة حزب العمال تحت ضغط قاعدة الحزب الى الابتعاد عن التعاون المباشر مع الاحزاب البورجوازية فأستقال ممثلو حزب العمال من حكومة لويد جورج الائتلافية. وفي الحملة الانتخابية الجديدة وعد الحزب بأنه في حالة فوزه سوف يقوم بتأميم الارض الزراعية واهم المؤسسات الصناعية مع السكك الحديدية ويقوم بسحب القوات البريطانية من روسيا السوفياتية وبمنح الهند وايرلندا الاستقلال. وفي الفترة ذاتها بدأ حزب الاحرار يعيش ازمة جدية، الامر الذي توضح كليا ايام الانتخابات الجديدة.

جرت الانتخابات الجديدة في ٥ كانون الاول عام ١٩١٨ قبـل الغـاء حالـة الحرب في البلاد فسميت بأنتخابات الخاكي[١٩] التـي دخلهـا حزبـا المحـافظين والاحرار في جبهة موحدة فحصلا على اغلبية المقاعد(٤٨٤ مقعد مـن مجمـوع ٧٠٧)، وقد حصل المحافظون على الاكثرية الساحقة اذ بلغ نصيبهم ٣٣٨ مقعـداً. اما حزب العمال فلم ينل سوى مليوني صوت و ٦٠ مقعدا، وبالمقابـل بـدأ نجـم الاحرار بالافول بعد حكم دام حوالي قرن واحد من الزمان، اذ لم تحصل مجموعة رئيسه لويد جورج الا على ١٣٦ مقعدا، وقد بدأ عدد كبير من اعضـاء الحـزب ينضمون الى حزبي المحافظين والعمال كل حسب اجتهاده واتجاهه.

اما بالنسبة للحركة الاضرابية فأنها دخلت بعد الحرب مباشرة مرحلة لم يشهد لها تاريخ انكلترا مثيلا، ففي العام ١٩١٩، مـثلا، بلـغ عـدد المشـتركين فـي الاضرابات العمالية اكثر من مليونين ونصف مليون شخص. وكان العمال يطالبون برفع اجورهم وتقليص ساعات عملهم اليومية وتحسين ظروف عملهم ومنحهم دون استثناء حق اقامة نقابات خاصة بهم وذلك بألغاء جميع القيود التي تحول دون ذلك. الا ان حكومة لويد جورج الجديدة لم تلب هذه المطاليب، بل على العكس من ذلـك لجأت الى فرض ضرائب جديدة وتقليص المبالغ المخصصة في الميزانية للخدمات الاجتماعية، وفي تشرين الاول عام ١٩٢٠ اصدرت قانونا منحت بنوده الحكومـة صلاحيات واسعة لوضع حد للحركة الاضرابية، وهو ما كان يصر عليـه بشـكل خاص الوزراء المحافظون الذين ظلوا منذ العام ١٩١٦ يحتفظون بـأهم الحقائـب الوزراية. ومن جانب أخر تحول هذا الموقف الى عامل مهم لتنشيط حزب العمال وتحريكه.

---

[١٩] لان العديد من الناخبين لم يسرحوا من الجيش بعد،فكانوا يحضرون الى صناديق الاقتراع بملابسهم العسكرية.

تأليف اول حكومة عمالية:

ولدت اجراءات حكومة لويد جورج الائتلافية استياء كبيرا بين قطاع واسع من الجماهير الانكليزية، الامر الذي انعكس خاصة في موقفها من رئيس الوزراء وحزبه حزب الاحرار. وفي الوقت نفسه لم يكن المحافظون مرتاحين من لويد جورج لانهم كانوا يريدون منه اجراءات اكثر حزما تجاه الحركة العمالية في الداخل وحركة التحرر الوطني للشعوب المستعمرة في الخارج، ولاسيما بعد ان دخلت الحركة الاخيرة مرحلة خطيرة بعد الحرب العالمية الاولى بحيث انها فرضت بعض التراجعات على حكام بريطانيا خاصة بالنسبة للهند وايرلندا ومصر والعراق. وهكذا اضطر لويد جورج الى تقديم استقالته في تشرين الاول عام ١٩٢٢ ليصبح بذلك اخر رئيس وزراء من حزب الاحرار في تاريخ انكلترا. ولكن لم تدم حكومة المحافظين التي حلت محل حكومة لويد جورج الائتلافية طويلا، خاصة وانها سلكت نهجا اكثر يمينة من سابقتها الامر الذي مهد الطريق لتأليف اول حكومة عمالية في تاريخ انكلترا. فبعد ان فشل المحافظون في نيل الاكثرية المطلوبة في الانتخابات الجديدة التي جرت في كانون الاول عام ١٩٢٣ الف رامسي مكدونالد رئيس حزب العمال الوزارة الجديدة في كانون الثاني من العام التالي.

ومع ان وزارة مكدونالد كانت تمثل الجناح اليميني داخل حزب العمال، الا انها انجزت بعض المكاسب الملحة للشغيلة الانكليزية. فأنها رفعت، مثلا، مخصصات الدولة لبناء الشقق السكنية وزادت مقدار المنح المالية للعمال العاطلين عن العمل وكذلك الرواتب التقاعدية الممنوحة لعوائل العمال الذين قتلوا في الحرب او للعمال الذين شوهوا فيها. وفي الوقت نفسه خفضت الحكومة العمالية

للضرائب المفروضة على بعض الحاجيات الضرورية من قبيل السكر والشاي وغيرهما.

ولكن بالمقابل لم تنفذ حكومة مكدونالد ما وعد به حزبه اثناء الحملة الانتخابية بصدد رفع مقدار الضرائب المفروضة على الرساميل ليتسنى دفع ديون الدولة دون الضغط على الفئات غير المتمكنة، وكذلك ما يتعلق بالقضاء على البطالة وتأميم مناجم الفحم ومؤسسات الكهرباء والسكك. ومن اجل تقوية مواقع الامبريالية البريطانية لم يحد مكدونالد عن سياسة اسلافه فيما يخص تقوية السلاح البحري- القوة التقليدية الضاربة لانكلترا، بل انه فضلا عن ذلك حمل البرلمان على تخصيص مبالغ اضافية لتطوير السلاح الجوي الذي بدأ يلعب دورا متزايدا في قمع حركات التحرر الوطني للشعوب الخاضعة للحكم البريطاني. والاغرب من كل ذلك ان اول حكومة عمالية لم تتردد في بذل الجهود من اجل انهاء كل اضراب عمالي وقع في عهدها، مما كان يعني الوقوف عمليا الى جانب الرأسماليين. وقد دشن هذا الواقع بداية زوال- العديد من الفروق الجوهرية بين حزبي العمال والمحافظين، خاصة بعد ان ثبت الجناح اليميني مواقعه في الاول منهما، فزال بذلك ايضا جانب كبير من تحفظات الرأسماليين الانكليز تجاه حزب العمال. وهكذا بدأ الحزبان يتناوبان في حكم البلاد ليبقى الاطار العام للنظام القائم ثابتا.

انكلترا في اواخر العشرينات:

يبدو واضحاً مما سبق ان الحكومة العمالية الاولى فشلت في حل المشاكل الاساسية للمجتمع الانكليزي، مما ولد خيبة امل مشروعة في نفوس قطاع واسع من الناخبين ففشل حزب العمال في الانتخابات الجديدة التي جرت في تشرين

الاول عام ١٩٢٤ والتي حصل المحافظون فيها على اغلبية مقاعد مجلس العموم فعادوا الى الحكم بزعامة بلدوين الذي كان ينتمي الى اسـرة رأسـمالية كبيـرة معروفة[٢٠]. وقد ظل بلدين في الحكم لغاية حزيران ١٩٢٩.

وكان من الطبيعي ان يباشر المحافظون فور عودتهم العمل من اجل حمايـة مصالح الرأسماليين على افضل وجه ممكن، الامر الذي انعكس جليا في مساندتهم الثابتة لاصحاب مناجم الفحم الذين قرروا رفع ساعات العمل وتخفـيض اجـور العمال مما ادى الى انفجار حركة اضرابية واسعة في ايـار عـام ١٩٢٦، فقـد تضامن عمال المؤسسات الاخرى مع زملائهم واعلنوا الاضراب العام، وبالرغم من اعلان الحكومة حالة الطوارئ عشية الاضراب الا ان عدد المشتركين فيه بلغ ملايين الاشخاص، فقد قدر عدد العمال المضربين مع افراد اسرهم بحـوالي ١٨ مليون شخص، اي ما يعادل اكثر من ٤٠% من مجموع سكان الـبلاد يومـذاك. وقد تميزت الحركة الاضرابية بتنظيم كبير وتضامن واسع رافقهما حمـاس لـم يسبق له مثيل. ولكن سرعان ما دب الخوف في نفوس القيادة العمالية التي خشيت ان تفلت زمام الامور من بين يديها، ومما زاد من مخاوفها اكثـر ان الحكومـة كانت تنوي وضع تشريع جديد تمنح بموجبه الاضراب العام. وهكذا قررت القيادة انهاء الاضراب العام فبقي عمال مناجم الفحم وحيـدين فـي الميـدان فقـد دام اضرابهم لغاية كانون الاول عام ١٩٢٦ عندما اضطروا تحت ضـغط السـلطة واصحاب المناجم ومساومات قيادتهم، وبعد ان اخذ منهم الجوع والفاقه مأخـذهما اضطروا الى العودة الى اعمالهم. وبذلك حقق اصحاب المناجم جانبا كبيرا ممـا ارادوا، خاصة بعد ان رفعوا ساعات العمل اليومية في مؤسساتهم من سبع الـى ثمان وخفضوا اجور العمال. وقد اتبعت ذلك تراجعات فكرية جديدة في صـفوف

---

[٢٠] كان بلدوين نفسه يمتلك واحدة من اكبر مؤسسات التعدين البريطانية.

حزب العمال الذي اعلن في العام ١٩٢٨ عن برنامج جديد تنازل فيه عمليا عن التأميم كهدف من اهداف الحزب، وقد تحول ذلك الى عامل مساعد لانتقال السلطة ثانية الى حزب العمال برئاسة مكدونالد في العام ١٩٣١.

في ظل مثل هذه الظروف وبمثل هذه الاساليب كان من الطبيعي ان تعجز الاوساط الحاكمة عن ايجاد حلول جذرية لمشاكل البلاد الاقتصادية. ففي افضل ايام العشرينات لم يقل عدد العاطلين في انكلترا عن مليون شخص. ولم يكن مجرد صدفه ان ظل الانتاج الصناعي البريطاني لغاية العام ١٩٢٩ دون مستوى العام ١٩١٣ وان لم يسترجع التصدير مستوى ما قبل الحرب حتى بعد ذلك التأريخ. وفي هذه الفترة جاءت الازمة الاقتصادية لتعمق من مشاكل البلاد اكثر من السابق.

انكلترا في سنوات الازمة الاقتصادية:

لم يكن بوسع انكلترا كواحدة من الدول الرأسمالية الكبرى ان تبقى بعيدة عن آثار الازمة الاقتصادية التي هبت على العالم خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٣. ولئن جاءت آثار الازمة هنا اقل عمقا قياسا ما كان عليه الامر في المانيا ولاسيما في الولايات المتحدة الامريكية فأن سبب ذلك يعود الى ان الانتعاش والنمو الاقتصاديين اللذين اصابا العالم الرأسمالي بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى بسنوات قليلة قد جريا في انكلترا بصورة ابطأ من المانيا والولايات المتحدة.

انفجرت الازمة الاقتصادية في انكلترا في النصف الاول من العام ١٩٣٠ وبلغت الذروة فيها في ربيع عام ١٩٣٢. وقد تأثرت بها بصورة خاصة الحقول الانتاجية التقليدية ذات الجذور العميقة والقديمة في حياة انكلترا الاقتصادية مثل

انتاج الفحم والحديد والصلب وصناعة السفن. فعلى سبيل المثال ان الطاقة الاجمالية لصناعة السفن البريطانية العريقة قد تقلصت في سنوات الازمة بمقدار ١١ مرة وهي عادت بذلك الى المستوى الذي كانت عليه في العام ١٨٤٣ كما المحنا الى ذلك في حينه. وعانت الزراعة كذلك من مشاكل كثيرة، انعكست قبل كل شيء في صعوبة تصريف منتوجاتها.

وعلى غرار الاقطار الرأسمالية الاخرى وقع جانب كبير من عبء الازمة في انكلترا على عاتق الفئات الاجتماعية الفقيرة. ففي العام ١٩٣٢ فقد كل واحد من اربعة عمال بريطانيين عمله، اي ما يعادل ٢٥% من مجموع العمال وهو رقم كبير وخطير. ومن الجدير بالذكر ان حزب العمال هو الذي كان يحكم انكلترا يومذاك، وكان الحزب ولاسيما زعيمه رئيس الوزراء مكدونالد، على اتم استعداد لتقديم تنازلات كبيرة في سبيل التخفيف عن الرأسماليين وارضائهم. ومن اجل ذلك لم تنفذ حكومة مكدونالد الثانية جانبا من الوعود التي التزم بها حزل العمال في حملته الانتخابية الاخيرة. فبدلا عن اتخاذ الاجراءات اللازمة لضمان استقرار الاجور والرواتب التزم مكدونالد جانب الصمت ازاء محاولات اصحاب المعامل والمصانع لتخفيض اجور العمال كلما وجدوا الى ذلك سبيلا. كما ان الحكومة قلصت الى حد كبير مقدار المنح المقررة للعمال العاطلين عن العمل ولم تعمل شيئا من اجل تقليص ساعات العمل في المناجم الى سبع ساعات كما كان عليه الامر قبل اضراب عام ١٩٢٦ ولم تلغ التشريعات المعادية للحركة النقابية التي اصدرتها حكومة المحافظين في العام ١٩٢٧. وقد ولد كل ذلك استياءا كبيرا في نفوس الشغيلة مما ادى الى وقوع موجه جديدة من الاضرابات والمظاهرات الى جانب مسيرات كان ينظمها العاطلون عن العمل وقد اطلقوا عليها معبرا "مسيرات الجياع".

لم ترض كل تنازلات الحكومة العمالية كبار الرأسماليين الذين طلبوا ايضـــا تقليص مخصصات الخدمات الاجتماعية في ميزانيـــة الدولـــة كوســـيلة اضـــافية للتخفيف من آثار الازمة على الميزانية وبالتالي عليهم. وفي الواقع كـــان قيـــاديو حزب العمال، وبشكل خاص مكدونالد مستعدين لتقـــديم تنـــازلات جديـــدة امـــام الرأسماليين، ولكن قسما منهم ادركوا ان ذلك سيؤدي حتما الى ان يفقـــد الحـــزب شعبيته، فوقع انشقاق داخل الحكومة العمالية التي اضطرت الى تقديم استقالتها، الا ان رئيسها رامسي مكدونالد اقدم على تأليف وزارة ائتلافية في آب ١٩٣١ اشترك فيها الى جانب خمسة من الوزراء العمـــال ممثلـــون عـــن حزبـــي المحـــافظين والاحرار. وازاء موقفه هذا اتخذ الحزب قراراً يقضي بطرد مكدونالـــد واعوانـــه الذين قاموا بتأليف حزب جديد اطلقوا عليه اسم " حزب العمال الوطني" اما حزب العمال نفسه انتقل الى صف المعارضة في حين استمرت وزارة مكدونالـــد فـــي الحكم وقد اطلق عليها رئيسها اسم " الحكومة الوطنية".

سياسة الحكومة الوطنية:

حل مكدونالد البرلمان واجرى انتخابات جديدة في خريف عام ١٩٣١ دخلها مع المحافظين والاحرار في تحالف اطلقوا عليه اسم " الائتلاف الـــوطني" الـــذي حصل على ٤٩٧ مقعد كانت اكثريتها من نصيب المحافظين، اما حـــزب العمـــال الوطني فقد حصل على ١٣ مقعدا فقط. واصيب حزب العمال بنكسة كبيرة، فقـــد تقلص عدد نوابه في مجلس العموم بمقدار ست مرات. ومن المهم ان نشير الى ان الناخبين رفضوا حتى الزعماء الذين عارضوا مكدونالد، بمن فيهم رئيسه الجديـــد هندرسن لانه كان احد وزراء الحكومة العمالية الثانية.

استمر مكدونالد على سياسته السابقة، وازداد من ضغطه على العمال وغيرهم حتى انه قلص رواتب البحاره بمقدار ٢٥% وقد جاء رد فعل الجميع قويا انصب في موجه جديدة من حركات احتجاج العاطلين عن العمل واضرابات العمال. كما ان قطاعا واسعا من البحارة امتنعوا في ايلول ١٩٣١ عن تنفيذ اوامـــر الحكومـــة بالخروج الى البحر فاضطرت الوزارة التراجع امامهم، خاصة وان حركتهم غير المعهودة اثارت مخاوف جدية في نفوس المسؤولين.

عقدت اجراءات مكدونالد مع استفحال الازمة مشاكل البلاد اكثر من الســـابق بحيث ان احتياطي الذهب في انكلترا بدأ يعاني من نقص خطيـــر، ولـــم تســـتطع القروض- الامريكية وضع حد لهذه المشكلة او لغيرها. حينذاك حاولت" الحكومة الوطنية" ايجاد حل لمشاكلها على حساب الشعوب الاخرى، فبعد ان الغت الغطـــاء الذهبي للباون في العام ١٩٣١ اوجدت ما عرف بالكتلة الاسترلينية التـــي تحـــول الباون او الجنيه الاسترليني بموجبها الى غطاء واساس لتبـــادل عمـــلات الـــدول التابعة لانكلترا او المرتبطة بها، بما في ذلك جميع مستعمراتها، وقد نقلـــت هـــذه الدول كل احتياطها من الذهب وما لديها من العملة الصعبة الى بنك انكلترا، ممـــا تحول الى سند مالي كبير للاقتصاد البريطاني. ومن الجدير بالذكر ان العراق كان واحدا من اعضاء الكتلة الاسترلينية منذ تأسيسها ولغاية انتصـــار ثـــورة تمـــوز ١٩٥٨، الامر الذي كلف اقتصاديات البلاد اعباء كانت في غنى عنها.

وفي نفس الفترة خطت انكلترا خطوة اخرى كانت تجاوبا اضـــطراريا مـــع روح العصر من ناحية وكانت تستهدف خدمة المصالح البريطانيـــة فـــي حـــدود الامكان من ناحية اخرى. فأن حكام انكلترا ادركوا جيدا ان الشمس بدأت تميل الى الغياب عن امبراطوريتهم الشاسعة فحاولوا ربط اجزائها بأكبر قدر ممكـــن مـــن الخيوط بـــ"الوطن الام". فمنذ مطلع القرن العشرين بدأ مصـــطلح الامبراطوريـــة

البريطانية يختفي تدريجيا ليحل محله مصطلح اخف هو رابطة الشعوب البريطانية. وفي كانون الاول عام ١٩٣١، اي في عز ايام الازمة الاقتصادية العالمية، صاغ البرلمان البريطاني هذا الواقع في اطار تشريعي خاص بأصداره قانون ويستمنستر الذي منح الدومنيونات قانونا[٢١] الاستقلال السياسي التام على الصعيدين الداخلي والخارجي مقابل تعاون اقتصادي وثيق بين الطرفين. ففي مؤتمر اوتاوا الذي انعقد في العام التالي بحضور اعضاء جميع رابطة الشعوب البريطانية وقعت انكلترا معاهدات تجارية ثنائية مع كل دولة عضوة في الرابطة ضمنت بنودها حماية كافية لبضائعها من المنافسة الاجنبية، ولاسيما من منافسة البضاعة الامريكية. ومن الجدير بالذكر ان تكوين رابطة الشعوب البريطانية كان بداية مهمة على طريق تأسيس الكومنولث بعد الحرب العالمية الثانية.

استطاعت حكومة مكدونالد بأجراءاتها هذه، وبفضل تطويرها لصناعة الاسلحة، تهيئة ظروف انسب لانتعاش صناعة انكلترا وتجارتها الخارجية. ولكن بالمقابل ازداد تفرد رئيس الوزراء بالحكم، حتى ان حكومته بدأت تعير البرلمان اهتماما اقل بكثير من السابق وبصورة عامة فأن القائد العمالي السابق مكدونالد قد تحول الى محافظ اكثر تحمسا من المحافظين انفسهم، الا ان هؤلاء بعد ان استنفدوا منه كل ما ارادوا لم يعودوا بحاجة اليه فأبعدوه عن الحكم في حزيران ١٩٣٥ ليصبح في نظر المواطن الانكليزي العادي المسؤول عن جميع احداث السنوات الحرجة التي حكم فيها بأتجاه يخدم الرأسماليين قبل غيرهم.

الف زعيم المحافظين بلدوين الوزارة مرة اخرى. واثناء الحملة الانتخابية التي جرت في تشرين الثاني من العام نفسه رفع المحافظون شعار الامن الجماعي

---

[٢١] لان في الواقع نالت اجزاء مهمة من الامبراطورية البريطانية(كندا ونيوزلندا واستراليا وغيرها) الاستقلال قبل ذلك التاريخ بفترة طويلة.

الذي تمتع يومذاك بشعبية واسعة في صفوف الجماهير الانكليزية، مما تحول الى عامل مساعد جديد ضمن لهم الاكثرية في الدوره البرلمانية الجديدة، مع العلـــم ان المحافظين لم يتمسكوا في واقع عملهم اليومي بروح الشعار المذكور كمـــا يجــب فدخلوا في مناورات اسهمت في تقريب اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية ولكن بأتجاه معاكس لما كانوا يريدون.

سياسة انكلترا عشية الحرب العالمية الثانية:

كان بلدوين **واعوانـــه** يعتقدون ان بأمكانهم الاتفاق مع هتلر وتوجيه انظـــاره نحو الشرق لا الغرب. وقد تقوى هذا الاتجاه حينما جاء السياسي المعروف بأرائه اليمينية المتطرفة الوزير المزمن في حكومات المحافظين السابقة والزعيم الجديــد لحزب المحافظين تشمبرلن الى كرسي الرئاسة للوزراء البريطانيـــة فـــي ايـــار ١٩٣٧، فأنه وافق عمليا علـــى احـــتلال القـــوات النازيـــة لكـــل مـــن النمســـا وجيكوسلوفاكيا الامر الذي جعل العالم على شفى حرب جديدة كما سنبين ذلك عند البحث عن تاريخ المانيا. ومن الجدير بالذكر ان حكام انكلترا كانوا مطمئنين مـــن نتائج سياستهم الى درجة انهم لم يولوا التسليح في مثل تلك الفتـــرة الحرجـــة مـــا يستحق من اهتمام ولم تهتم حكومة تشمبرلن بهذا الموضوع الحساس الا بعـــد ان اثار التسلح الالماني السريع على جميع الاصعدة، بما فيها الاســـطول البحـــري، مخاوف الانكليز بصورة جديه ولكن حتى انذاك فـــأن تشـــمبرلن قـــيم موضـــوع الاهتمام بالتسليح من جانب حكومته كوسيلة مشجعة اضافية للتقريب بين انكلتـــرا والمانيا مع ضمان افضل لمصالح بلاده حسب اعتقاده.

وتبدو الابعاد الحقيقية للسياسة البريطانية هذه من خلال اللعبة الاخيرة التـــي لجأت اليها حكومة تشمبرلن عشية الحرب. ففي اواسط العام ١٩٣٩ اجرت هـــذه

الحكومة مفاوضات سياسية على جبهتين متعارضتين في آن واحد، الاولى كانت علنية مع فرنسا والاتحاد السوفيتي في موسكو ولكن دونما ان توافق على اقتراح عقد حلف للتعاون المشترك في حالة وقوع اعتداء على اي طرف من اطرافه، والثانية كانت سرية تجريها الخارجية البريطانية مع الهتلريين لدفعهم للتوجه نحو الشرق ولايجاد صيغة للتفاهم المشترك بين الطرفين. ولكن التناقضات الالمانية الانكليزية كانت عميقة الى درجة بحيث لم يكن بوسع هذه المناورات ابعاد شبح الحرب عن انكلترا التي لعبت مرة اخرى دورا اساسيا في الحرب العالمية الثانية.

نبذة عن الخلفية التأريخية للمشكلة الايرلندية:

تقع جزيرة ايرلندا الى الغرب من انكلترا، تبلغ مساحتها الكلية اي بقسميها الشمالي والجنوبي، ٨٤ الف كم٢ وعدد سكانها الكلي يصل الى ٤,٥ مليون شخص. تتمتع جزيرة ايرلندا بموقع مهم، فأن سواحلها تشرف على المحيط الاطلسي من ثلاث جهات (من الشمال والجنوب والغرب)، ومن الشرق يفصل البحر الايرلندي بين الجزيرة وانكلترا. وهكذا فأن ايرلندا تقع على الطريق البحري والجوي الذي يربط بين اوربا وامريكا الشمالية.

تعود بدايات اطماع انكلترا في جزيرة ايرلندا الى القرن الثاني عشر ولغاية القرن السادس عشر تمكنت من فرض سيطرتها الكاملة عليها. وسرعان ما بدأت عملية انتقال الانكليز الى الجزيرة المجاورة حيث استولوا على افضل اراضيها الزراعية. فخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر انتقلت حوالي ٩٠% من اراضي ايرلندا الزراعية الى ايدي الانكليز. وكان من الطبيعي ان يتحول هذا الامر الى عامل محرك اساس لمجمل تاريخ الشعب الايرلندي الذي اصبحت مصالحه على طرفي نقيض مع مصالح حكام انكلترا واوساطها المتنفذة. وان ابلغ

مثل معبر نسوقه في هذا المجال هو ما يتعلق بموقف الايرلنديين من حركة الاصلاح الديني التي هزت كل اوربا في حينها، فأن مجرد انفصال انكلترا عن الكنيسة الكاثوليكية وتبينها للمذهب الانكليكاني البروتستانتي كان كافيا لجعل الايرلنديين كاثوليك متعصبين، فبالرغم من جميع محاولات الترهيب والترغيب لم ينتشر المذهب البروتستانتي الا في شريط شيق يقع في الشمال الشرقي من الجزيرة والذي انتقلت اليه اصلا اعداد كبيرة من الانكليز والاسكتلنديين بسبب جودة اراضيه وكثرة امكاناتهم. وهكذا عانى الايرلنديون الامرين من المستعمرين الانكليز وعلى مدى قرون طوال، فأضطر الملايين منهم الى ترك بلادهم تحت ضغط صنوف الارهاب والتمييز والجوع. فخلال قرن واحد فقط(من اواسط القرن التاسع عشر حتى اواسط القرن العشرين) تقلص عدد سكان ايرلندا من ستة ملايين ونصف مليون شخص الى اقل من ثلاثة ملايين، وليس مجرد صدفة ان عدد الايرلندين في الولايات المتحدة الامريكية وحدها يبلغ الان حوالي ١٣ مليون نسمة والى جانب ذلك انعكس الاستياء الايرلندي المشروع في سلسلة متواصلة من الحركات الثورية ضد الاحتلال البريطانية انصبت بعد الحرب العالمية الاولى في ثورة عامة بدأت عام ١٩١٩ بهجمات منظمة وشجاعة للجيش الايرلندي على قوات الاحتلال. واضطرت انكلترا في الاخير الى التراجع امام اصرار الثوار فأعترفت في كانون الاول عام ١٩٢١ بالحكومة الايرلندية الحرة. ولكن بعد ان فصلت منها المقاطعات الست الاغنى الواقعة في الشمال الشرقي من الجزيرة وقد بقيت ضمن بريطانيا العظمى بأسم ايرلندا الشمالية التي تبلغ مساحتها ١٤ الف كم٢ وعدد سكانها مليون ونصف مليون شخص يعتنق حوالي الثلثين منهم المذهب البروتستانتي وهم احفاد الانكليز والاسكتلنديين المهاجرين الى المنطقة، اما بقية

الايرلنديين الشماليين فهم السكان الاصليون من الكاثوليك الايرلنديين اصحاب البلاد الشرعيين الذين يناضلون في صفوف الجيش الجمهوري الايرلندي.

فرنسا

مقدمة عامة:

تحتل فرنسا موقعا حساسا في غربي اوربا، فهي تشرف على بحرى الشمال والابيض المتوسط وترتبط بالمحيط الاطلسي من خلال خليج بسكاى، ومن ناحية البر لها حدود مشتركة مع كل من بلجيكا ولوكسمبرغ والمانيا وسويسرا وايطاليا وموناكو واسبانيا. تبلغ مساحتها ٥٥١ الف كم٢ ويربو عدد سكانها على ٥٤ مليون نسمة.

لعبت فرنسا دورا كبيرا في التاريخ السياسي والفكري للعالم، الامر الذي انعكس في شواهد تاريخية معبرة كثيرة. فأن صدى الثورة الفرنسية الكبرى عام ١٧٨٩ لا يزال يتردد حتى يومنا الحاضر. كما ان ثورة عام ١٨٤٨ هزت اوربا بأسرها مدشنة بداية مد ثوري عارم انتقلت اثاره الى العديد من الاقطاع المجاورة لفرنسا. وكانت كومونه باريس عام ١٨٧١ فريدة في بابها، فهي الاولى في التاريخ نقلت الشغيلة الى سده الحكم. وتحولت فرنسا في الحربين العالميتين الى أحد أهم ميادين القتال الضاري.

وفضلا عن كل ما تقدم ان فرنسا واحده من الدول الكبرى التي استعمرت مناطق شاسعة من العالم تجاوزت مساحتها عشية الحرب العالمية الاولى ١٠ ملايين كم٢. وكما هو معلوم ابتلى كل الجناح الغربي مع جزء حساس من الجناح الشرقي للوطن العربي بالاستعمار الفرنسي على مدى سنين طوال. وكان لفرنسا،

ولم يزل، وزن كبير في الشؤون الدولية ومجمل السياسة العالمية. فلا شك، اذن، في ان دراسة تاريخ فرنسا كدولة كبرى ضرورة علمية وعملية ملحة.

فرنسا والحرب العالمية الاولى:

عندما تحدثنا عن الحرب العالمية الاولى لاحظنا كيف ان جانبا كبيرا من عبئها وقع على عاتق فرنسا التي لم تتوقف العمليات العسكرية فوق اراضيها طيلة سنوات الحرب، لذا فأن خسائرها جراء الحرب كانت اكبر من خسائر معظم الدولة الاوربية الاخرى التي اشتركت فيها. فقد بلغ عدد قتلى الفرنسيين مليون و ٣٠٠ الف شخص الى جانب ٧٥٠ الفا اخرين ظلوا مشوهين حتى النهاية. وقد سويت المقاطعات العشر الشمالية الشرقية الفرنسية الاكثر تطورا مع الارض، كما تم تدمير ٦ الاف كيو متر من السكك الحديدية و٥٢ الف كم من الطرق المعبدة التي كانت تربط بين اجزاء مختلفة من البلاد وخرب الالمان كليا او جزئيا ما لايقل عن ٥٥٠ الف دار وحوالي ٢٣ الف معمل ومصنع ومنجم و ٤الاف قرية بحيث ان ترميم ما خربته الحرب كلف الميزانية الفرنسية مبالغ طائلة تجاوز مجموعها ٩٠ مليار فرنك. فكان من الطبيعي ان تتحول فرنسا، مثل انكلترا، من دولة دائنة قبل الحرب الى دولة مديونة في سنوات الحرب وبعدها، فقد بلغ مجموع القروض الخارجية التي ترتب على فرنسا دفعها حوالي ٦٢ مليار فرنك، اما مجموع قروض الدولة فقد بلغ ٣٠٠ مليار فرنك في العام ١٩٢٠.

ولكن مع ذلك لم تجن فرنسا القليل من انتصارها في الحرب العالمية الاولى، فبعد اندحار عدوتها التقليدية المانيا تحولت هي الى اقوى دولة من الناحية العسكرية على صعيد القارة الاوربية بأسرها وقد اصبحت تتمتع بنفوذ سياسي واقتصادي كبير في العديد من اقطار اوربا الشرقية والبلقان، وتمكنت من توسيع

مساحة مستعمراتها على حساب المستعمرات الالمانية والممتلكات العثمانية. وقد انتقل اكثر من نصف ما دفع التعويضات الحربية الى الخزينة الفرنسية. والاهم من كل ما تقدم فأن اعادة مقاطعتي الالزاس واللورين الى فرنسا وفرض سيطرتها على فحم السار وعوامل اخرى مرتبطة بأنتهاء الحرب وفرت لها امكانات هائلة لتطوير صناعتها، ولاسيما صناعة التعدين التي ارتفعت طائقتها بمقدار حوالي ١٥٠%.

كان من شأن كل ما تقدم ان يترك بصماته على الهيكل الاجتماعي لفرنسا التي تقوت اسس صناعتها وتعززت اركان الرأسمالية فيها بسرعة، بحيث ان حوالي ٢٠٠ اسرة ثرية من امثال روتشيلد وشنييدر وتومسون وغيرها من الاسر المعروفة بدأت تسيطر على جميع المفاتيح الرئيسية لاقتصاديات البلاد.

تطورت الطبقة الفرنسية بنفس الوتيرة، ولكن من الملاحظ ان نسبة كبيرة من العمال الفرنسيين ظلت تعمل لفترة غير قصيرة بعد انتهاء الحرب في المؤسسات الصناعية المتوسطة والصغيرة. ففي العام ١٩٢١ الف العمال الذين كانوا يشتغلون في المؤسسات التي يزيد عدد عمال الواحدة منها عن ١٠٠ شخص ٣٢,٥% فقط من مجموع العمال الصناعيين، بينما الف العمال الذين كانوا يشتغلون في المؤسسات التي يتراوح عدد عمالها بين الواحد والمائه حوالي ٦٨% من مجموع العمال الصناعيين. وفضلا عن ذلك لم تفقد الزراعة وزنها النسبي في حياة فرنسا الاقتصادية، ففي السنة نفسها كان سكان الريف الفرنسي يؤلفون حوالي ٥٤% من مجموع سكان البلاد. وبالطبع ان كل ذلك انعكس بشكل او بآخر على واقع الحياة السياسية لفرنسا سواء في سنوات الحرب العالمية الاولى او بعدها مباشرة.

لمحات من الحياة السياسية لفرنسا في سنوات الحرب وبعدها:

لم يسيطر كبار الرأسماليين الفرنسيين على مفاتيح الحياة الاقتصادية لــبلادهم حسب، بل انهم سيطروا ايضا على مقاليد الامور فيها معتمدين فــي ذلــك علــى امكاناتهم المادية وعلى مساندة الكنيسة الكاثوليكية ذات النفوذ الكبير في المجتمــع الفرنسي وعلى ما كان يسود هذا المجتمع من تقليد تعدد الاحزاب بصــورة قلمــا وجد لها مثيل في بلد اخر. فبعد الحرب، كما قبلها، عملت في فرنســا عشــرات الاحزاب البورجوازية التي ارتبط ظهور قسم منها بالحملات الانتخابيــة الجديــدة ليختفي بعدها مباشرة سواء بحل هذا القسم لنفسه او بالانضــمام الــى الاحــزاب الاخرى.

تنقسم الاحزاب البورجوازية الفرنسية في جميــع الاحــوال علــى ثــلاث مجموعات رئيسة هي احزاب اليمين المتطرف واحزاب الوسط واحزاب اليســار البورجوازية، وتدخل الاخيرة منها عادة فــي جبهــة واحــدة مــع الاشــتراكيين الديمقراطيين. وكان " الحزب الجمهوري للراديكاليين والراديكاليين الاشــتراكيين" المعروف بأسمه المختصر " الحزب الراديكالي" من ابرز الاحزاب البورجوازيــة اليسارية في تلك الفترة.

تأسس " الحزب الراديكالي" في مطلع القرن العشرين، وقد رفــع شــعارات مهمة بالنسبة لوقتها من قبيل فرض الضريبة التصــاعدية علــى الــدخل ومــنح الفلاحين القروض بفوائد غير عالية وتأميم المؤسسات التي تقدم خدمات ضرورية مباشرة للناس من قبيل وسائط النقل داخل المدن والسكك خارجها وما شابه مــن مشاريع. ولكن تمكن كبار البزرجوازيين من تثبيت مواقع اقدامهم بالتدريج داخــل الحزب الراديكالي الذي كان في الاصل بتأرجح في مواقفه بين اليمين واليســار.

وفي الوقت نفسه غذا الحزب الاشتراكي يؤلف واحدا مـــن الاحـــزاب الفرنســـية المعاصرة المهمة والذي لعب دورا ملموسا في حياة البلاد السياسية.

قبل ان تنتهي الحرب العالمية الاولى بفترة غير قصيرة نسبيا نشطت الحركة السياسية من جديد بين الاوساط الشعبية الفرنسية بصورة فلما ظهر لها مثيل فـــي كل القارة الاوربية. فقد عاود العمال اضراباتهم، وهم لم يطالبوا فقـــط بتحســـين ظروف عملهم ورفع اجورهم، بل رفعوا كذلك شعار وقف الحـــرب مـــع المانيـــا وحلفائها، الشعار الذي تغلغل في صفوف الجنود الفرنسيين كـــذلك. ففـــي الفتـــرة الواقعة بين شهري نيسان وحزيران عام ١٩١٧ وقعت اضـــطرابات عديـــد بـــين القطعات الفرنسية العاملة في الجبهة الغربية حيث رفض الجنود التقدم، بل انهـــم تركوا خنادقهم في بعض المناطق.

ادخلت هذه الوقائع الذعر في نفوس حكام فرنسا الذين بالمقابل تشددوا وأكثر في سياساتهم اليمينة، فأنهم الغوا جميع مظاهر الحياة الديمقراطية في البلاد وطبقوا قوانين الحرب على العمال من اجل القضاء على اضراباتهم، كمـــا نفـــذوا حكـــم الموت بحق مجموعات كبيرة من الجند بهدف انهاء اضطراباتهم.

ولتعزيز هذا الاتجاه اكثر عهد الحكم في اواخر عـــام ١٩١٧ الـــى الطبيـــب والصحفي المعروف جورج كليمنصو الذي كان يمثل الجناح الاكثر يمينة والاكثر شوفينية في صفوف البورجوازية الفرنسية، وكان من اشد المتحمسين لاســـتمرار الحرب مع المانيا. وكما كان متوقعا لجأت الوزارة الجديدة الى اجراءات متشددة، امتدت اثارها حتى الى الاوساط البورجوازية التي كانت تميل الى عقد الصلح مع المانيا، فالقي القبض على العديد من زعمائها بمن فيهم عدد من الوزراء السابقين.

وقد عبر رئيس الوزراء كليمنصو عن سياسته بصراحه حينما اعلن امام البرلمان قائلا بالحرف الواحد:

" انني اخوض الحرب في كل مكان، انني احارب علـى صـعيد السياسـة الداخلية كما احارب على صعيد السياسة الخارجية".

لم يكن بوسع كليمنصو وضح نهاية لاستياء الاوساط الشعبية الفرنسية التـي انفجرت بقوة مع انتهاء الحرب العالمية الاولى. ففي العام ١٩١٩، مثلا، شـهدت فرنسا اكثر من الفي اضراب عمالي بلغ عدد المشتركين فيها حوالي مليون و ٢٠٠ الف عامل ولئن تقلص عدد الاضرابات في العام التالي الـى اقـل مـن ١٨٥٠ اضرابا، ولكن بالمقابل ارتفع عدد المشتركين فيها بمقدار ١٥٠ الف عامل.

وفي كل الاحوال كان المضربون يطالبون بتخفيض ساعات اليومية الى ثمان وتحسين ظروف عملهم وتوسيع الضمان الاجتماعي بالنسبة لهم. وقد اجبر ثبـات العمال الحكومة الفرنسية على تلبية جانب من مطاليبهم الاساسية. ففي نيسان عام ١٩١٩ اصدر البرلمان قانونا حدد بموجبه ساعات العمل اليومية بثمان ساعات في جميع المصانع والمعامل الفرنسية.

ومن الجدير بالذكر ان الحركة العمالية الفرنسية لم تركز في نضـالها بعـد الحرب على مطاليب العمال المهنية فقط، بل انها رفعت كذلك شعارات سياسـية صرفة واقتصادية عامة تتفق مع طبيعة المرحلة الجديدة ومهامها التأريخية. ففـي الاول من أيار عام ١٩١٩ أعلن عمال فرنسا اضرابا عاما لمدة ٢٤ ساعة رفعـوا خلاله شعارات من قبيل " تصريح كل الجيش " و " سلم بدون اغتصاب" و " عدم التدخل في روسيا السوفيتية" و " الغاء الضرائب العالية على الرواتب". وقد رافقت الاضراب مظاهرات جماهيرية صاخبة اشترك فيها المثقفون الثوريون بحمـاس.

ففي العاصمة باريس وحدها نزل اكثر من نصف مليون شخص الى الشوارع حاملين الشعارات نفسها. وقد فتح رجال الشرطة النار على المتظاهرين مما ادى الى اصابة المئات منهم بجروح، ومن الجدير بالذكر ان الجيش سد الطريق على احدى المسيرات الجماهيرية التي كان يقودها بعض الكتاب الثوريين الفرنسيين يوم الاضراب، ولكن الجنود بدلاً من تنفيذ الاوامر الصادرة اليهم بفتح النار على المتظاهرين انظموا الى صفوفهم وساروا معهم الى قصر بوربون مقر الحكومة.

وبالرغم من بعض تراجعاته الا ان اليمين الفرنسي عمل بذكاء للحفاظ على مواقعه، فقد جرت في تشرين الثاني عام ١٩١٩ اول انتخابات برلمانية في فرنسا بعد الحرب تحالفت الاحزاب اليمينية اثناءها في جبهة اطلقت عليها اسم " الكتلة الوطنية" التي وقف كبار الاحتكاريين الفرنسيين وراءها، كما دخلها الحزب الراديكالي ايضا. وقد ساعد موقف الاخير وكذلك شعارات الاحزاب اليمينية من قبيل " الخطر الاحمر" و" الالمان سوف يدفعون كل الثمن" كثيرا في الفوز الكبير الذي حققته " الكتلة الوطنية" في الانتخابات العامة، فقد حصلت على ٤٠٠ مقعدا، ولم يكن عبثا ان اطلق الفرنسيون على البرلمان الجديد اسم " برلمان القرش" ، فأن ١٤٠ من ممثلي الكتلة الوطنية كانوا من اغنى مليونيري فرنسا المعروفين.

وقد ساد نفس الاتجاه انتخابات الرئاسة التي جرت في كانون الثاني عام ١٩٢٠. فالبرغم من كل خدماته واصالته في فكرة اليميني الاستعماري لم ينجح كليمنصو في هذه الانتخابات لان الرأسماليين لم يكونوا مرتاحين من فشله في تحقيق كل ما ارادوا، ولاسيما فيما يخص القضاء المبرم على الحركة الثورية على الصعيد الداخلي والقضاء على روسيا السوفيتية وازالة المانيا من خارجة الدول الكبرى عن طريق مؤتمر فيرساي على الصعيد الخارجي.

بعد فشله في انتخابات الرئاسة استقال كليمنصو من منصبه كرئيس للوزراء. واعتزل السياسة الى ان وافاه الاجل عام ١٩٢٩، وقد جاء الى رئاسة الدولة الاشتراكي السابق الكسندر مليران الذي كان يحظى بالثقة المطلقة لكبار الاحتكاريين به، اما رئاسة الحكومة فقد انتقلت الى الكتلة الوطنية.

فرنسا في العشرينات:

ظلت " الكتلة الوطنية" تحكم فرنسا بزعامة عدد من كبار السياسيين كان اخرهم بوانكاربيه الذي اصبح رئيسا للوزراء خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٩٢٢ و ١٩٢٤، وقد حاول هو واسلافه دون استثناء حل مشاكل البلاد على حساب الشغيلة في الداخل وبواسطة مغامرات عسكرية في الخارج. فبحجة تلكؤ المانيا في دفع التعويضات الحربية المقررة في مؤتمر فيرساي قامت القوات الفرنسية بالاشتراك مع القوات البلجيكية بأحتلال منطقة روهر الالمانية في مطلع عام ١٩٢٣، المغامرة التي انتهت بالفشل بسبب مقاومة الالمان وأستياء الجماهير الفرنسية والرأي العام العالمي والموقف الذي تبنته الدول الكبرى الاخرى، ولاسيما الولايات المتحدة الامريكية والمملكة المتحدة، وجراء الصعوبات المالية التي جابهت حكومة بوانكاربيه. وان فشل مغامرة روهر كان يعني في الوقت نفسه فشل كل سياسة" الكتلة الوطنية"، ولاسيما لان الكتلة بمغامرتها تلك وضعت البلاد على شفى حرب جديدة.

عانت " الكتلة الوطنية" من ازمة جدية، خاصة بعد ان ابتعدت عنها الاوساط البورجوازية الصغيرة التي الفت" كتلة اليسار" وقد ضمت بالاساس الراديكاليين والاشتراكيين، حققت الكتلة الجديدة الانتصار في انتخابات أيار ١٩٢٤ فأضطر برانكاربيه الى تقديم استقالته، وفشلت محاولات رئيس الجمهورية ميليران لعرقلة

انتقال السلطة الى " كتلة اليسار" التي بدأت تحكم البلاد منذ اوائـل صـيف عـام ١٩٢٤ برئاسة الزعيم الراديكالي والاستاذ الجامعي ادوارد ايريو.

انجزت حكومة "اليسار" بعض الاعمال المهمة من قبيل اعلان العفو العام عن قسم كبير من السجناء السياسيين واعادة القسم الاكبر من عمال السكك المفصولين بسبب اضرابات مابعد الحرب الى اعمالهم وتخصيص ٣٠٠ مليون فرنك لمشاريع السكن وتوحيد المدارس وجعل التعليم مجانيا على الصعيد الداخلي والانسحاب من منطقة الروهر والاعتراف بالاتحاد السوفيتي على الصعيد الخارجي.

ولكن بالمقابل قدمت حكومة "اليسار" خدمات مهمـة للرأسـمالية الفرنسـية تجسدت قبل كل شيء في قيامها بقمع حركة التحرر الوطني في كل من المغـرب وسوريا بقوة السلاح الامر الذي ولد استياء كبيرا في صفوف القوى الديمقراطيـة الفرنسية الواعية التي قامت بتنظيم مظاهرات احتجـاج فـي ١٢ تشـرين الاول ١٩٢٥ بلغ عدد المشتركين فيها حوالي ٩٠٠ الف شخص اصطدموا بالشرطة في بعض المناطق.

مع ذلك لم يرض الاحتكاريون من "حكومة اليسار" فخلقوا لها مشاكل مختلفة بلغت حد امتناع المصارف عن تزويدها بالاموال الضرورية حتى لدفع الاقسـاط المترتبة على الديون السابقة للدولة. وفضلا عن ذلك بدأ المودعون بسحب اموالهم من المصارف والرأسماليون بنقل رسما ميلهم الى خارج البلاد. ففي العام ١٩٢٦ وحده نقل كبار الاحتكاريين الفرنسيين حوالي ١٧ مليار فرنك الى الخارج. وهكذا اصبحت" حكومة اليسار" تعاني من ازمة ماليه فعلية، الامر الذي مهد السبيل لعوده الاحزاب اليمينية الى السلطة، ففي تموز ١٩٢٦ الف برانكاريـه وزارة جديـدة اشترك فيها الراديكاليون مره اخرى.

تمكنت حكومة برانكاربيه وضح نهاية للازمة المالية وذلك بفضل تعاون كبار الرأسماليين معها ونتيجة للاجراءات الجديدة التي اتخذتها على حساب الجماهير الفرنسية بالاساس فأن الحكومة رفعت الضرائب غير المباشرة بحيث انها ضمنت للخزينة مبلغا اضافيا يربو على ١١ مليار فرنك في معدله السنوي، وزادت من اسعار النقل بواسطة السكك والطرق المائية ورفعت من كلفة الخدمات البريدية، وكما لا يخفي ان الطبقات الفقيرة هي التي تعاني من مثل هذه الاجراءات اكثر من غيرها.

ولكن مع ذلكِ كانت تتوفر مجموعة عوامل اساسية اخرى ادت الى ان يعيش الاقتصاد الفرنسي فترة استقرار وانتعاش نسبيين خلال النصف الثاني من العشرينات، منها اعادة بناء ما دمرته الحرب وظهور ثمار عودة الالزاس واللورين الغنيتين الى الوطن الام وايجاد اسواق جديدة للبضاعة الفرنسية وتشديد استغلال المستعمرات ومقاطعة السار وتسلم قسم من التعوضيات الحربية التي فرضت على المانيا، ولم يلعب تشييد التحصينات على الحدود الشرقية من فرنسا والتي دخلت التأريخ بأسم " خط ماجينو" الدور الاخير في تهئية بعض مستلزمات انتعاش الاقتصاد الفرنسي. فأن تشييد هذا الخط الدفاعي الذي بلغ طوله ٣٨٠كم واستغرق بناؤه خمس سنوات ساعد على استيعاب عدد كبير من العمال العاطلين عن العمل. ولكن سرعان ما انتهت فترة الانتعاش النسبي لتتعرض فرنسا كغيرها من الدول الرأسمالية الكبرى الى آثار الازمة الاقتصادية العالمية.

فرنسا في سنوات الازمة الاقتصادية:

تأخرت بداية ظهور الازمة الاقتصادية وكذلك نهايتها في فرنسا التي بدأت تعاني من اثارها بصورة مباشرة اعتبارا من خريف عام ١٩٣٠ وهي استمرت

تعاني منها لغاية عام ١٩٣٦. وفي فرنسا ظهرت اثار الازمة علـــى الصـــناعات الاستهلاكية اكثر من غيرها، ولاسيما على صناعة الاقمشة بمختلف انواعها. فعلى سبيل المثال ان انتاج الحرير الذي كان يصدر قسم كبير منه الى الخارج قد تقلص في العام ١٩٣٤ بمقدار ٤٤%. اما مجمل الانتاج الصناعي الفرنسي فقد تقلص في ذروة ايام الازمة بمقدار الثلث قياسا مع مستوى العام ١٩١٣.

ارتفع عدد العاطلين عن العمل في سنوات الازمة بصورة ملموسة. فقد بلـــغ عدد المسجلين منهم فقط ما لا يقل عن نصف مليون شخص عـــام ١٩٣٥ مقابـــل ١٥٠ الف شخص عام ١٩٣١، اما مجموع العاطلين الحقيقيين فقد تجاوز مليـــون شخص في ذلك العام، هذا فضلا عن البطال المقنعة التي امتدت الى اعداد كبيـــرة من العمال الفرنسيين ممن كانوا لايجدون العمل في كل ايام الاسبوع، وجاء وقـــع الازمة على العمال الزراعيين اكبر حتى من ذلك، ففي بعض المناطق فقد حوالي ٧٥% منهم اعمالهم.

تركت الازمة الاقتصادية اثار عميقة على الحياة السياسية داخل فرنسا، الامر الذي انعكس بسرعة في النشاط الاحتجاجي الكبير الذي ابدته شغيلة المدن والريف على حد سواء، فأنتعشت من جديد الحركة الاضرابية والمســيرات الاحتجاجيــة الجماهيرية التي تعرضت لنيران رجال الشرطة في العديد من المدن والمناطق.

ومن جانب آخر هيأت المتغيرات التي رافقت الازمة منذ البدايـــة الظـــروف المواتية لظهور "كتلة اليسار" فوق المسرح من جديد. وقد رفعت الكتلة التي ضمت كالسابق الراديكالين والاشتراكيين والجماعات القريبة مـــنهم ، شـــعارات تطالـــب بتثبيت دعائم الديمقراطية في البلاد ورفع المساعدات الممنوحة للعاطلين عن العمل وتطوير العلاقات التجارية مع الاتحاد السوفيتي.

فازت "كتلة اليسار" في الانتخابات العامة التي جرت عام ١٩٣٢ فأنتقل الحكم اليها للمرة الثانية. الا أن جميع الوزارات التي شكلتها الكتلة كانت ضعيفة وغير ثابتة، وهي لم تحقق للجماهير الفرنسية سوى النزر اليسير. وعلى العموم لم يدم حكم "كتلة اليسار" طويلا فقد بقيت في دست الحكم لغاية كانون الثاني ١٩٣٤ فقط عندما سقطت وزارة الزعيم الراديكالي شوتان لذي لم يمض عليه في منصبه سوى اقل من ثلاثة اشهر حينما تمكن الفاشيون الفرنسيون اجباره على الابتعاد عن الحكم. ففي سنوات الازمة الاقتصادية ظهر عامل خارجي جديد ترك اثارا كبيرة على الحياة السياسية داخل فرنسا، وقد تمخض هذا العامل عن انتقال السلطة في المانيا المجاورة الى الهتلرين. فبتأثير احداث ايطاليا ولاسيما المانيا ظهرت في فرنسا منظمات فاشية تمتعت بتأييد واسع من لدن العديد من كبار الاحتكاريين وزعماء اليمين في البلاد. وقد خططت هذه المنظمات لالغاء الحياة البرلمانية في فرنسا واقامة دكتاتورية فاشية مكانها على غرار ما جرى في المانيا، ومن اجل ذلك حاولت استغلال ما عرف بقضية ستافسكي التي تورط فيها حوالي ١٢٠٠ مسؤول فرنسي بارز. فأن رجل الاعمال الروسي المهاجر الى فرنسا الكسندر ستافسكي الذي ودع في بداية العقد الرابع كميات كبيرة من الذهب والاحجار الكريمة في احد المصارف قام بصرف صكوك بمبلغ حوالي ٤٠ مليون فرنك. ولكن تبين في كانون الاول عام ١٩٣٣ ان جانبا من ودائع ستافسكي كان مسروقا وان القسم الاخر منها كان مزورا. وادعت السلطات المسؤولة ان ستافسكي قد انتحر عندما حاولت اعتقاله، الامر الذي ادى الى انفجار ازمة سياسية استغلها الفاشيون على نطاق واسع بحيث اضطر رئيس الوزراء شوتان الى تقديم استقالته في كانون الثاني ١٩٣٤. ولم يكتف الفاشيون بذلك، بل انهم تجرأوا اكثر بعد اسقاطهم لوزارة اليسار فحاولوا تنظيم عصيان فاشي للقضاء على الحياة البرلمانية

في البلاد في أول ايام حكم دوميرغ الذي خلف شوتان. ففي السادس من شباط عام ١٩٣٤ قاموا بتنظيم أشبه ما يكون بانقلاب مسلح في العاصمة باريس وذلك حينما توجهت كتائبهم المسلحة الى قصر بوربون وهي ترفع لافتات كتب عليها شعار ديماغوجي هو " الموت للسراق" وحاول المسلحون الفاشيون الاستيلاء على اهم الدوائر الحكومية. وفي الواقع لو لم تهب الجماهير الفرنسية لكانت حكومة دوميرغ تعجز عن السيطرة على الفاشيين الفرنسيين الذين كان يقدر عددهم في مدينة باريس وحدها بعشرات الالوف من المتطرفين ممن كان في حوزتهم كميات كبيرة من مختلف انواع الاسلحة المتطورة، بما في ذلك حتى الطائرات. ولردع هؤلاء نزل الى الشوارع العاصمة حوالي ٥٠ الف عامل في التاسع من شباط وبعد مرور ثلاثة ايام فقط اعلن ما لايقل عن اربعة ملايين ونصف مليون فرنسي اضرابا عاما ضد الفاشية.

وبهذا الاسلوب فقد اصبح بالامكان وضع حد حاسم لمغامرة الفاشيين الفرنسيين ولكن لم يستطع الموقف الذي ابدته الجماهير الفرنسية ضد الفاشية ان يدفع حكومة دوميرغ الى التخلي عن سياستها اليمينية، خاصة وانها كانت تضم الى جانب الراديكاليين اكثرية يمينية تعادي الفاشية واليسار في آن واحد، الاولى لانها كانت واجهة لالمانيا واليسار لانه كان ثابتا في موقفه من الاحتكارات الفرنسية. وهكذا بدأت الاتجاهات اليمينية لحكومة دومبرغ تطفو الى السطح بسرعة. فلم يمض على قمع العصيان الفاشي اكثر من شهر عندما اتخذت الحكومة اجراءات تمخض عنها طرد حوالي ٨٥ ألف موظف حكومي من وظائفهم وفصل ٥ آلاف معلم عن مدارسهم، فضلا عن تخفيض رواتب عمال السكك والمتقاعدين من ضحايا الحرب. وسرعان ما قامت الحكومة برفع الضرائب كذلك. كما انها

كانت تغض الطرف عمليا عن اعتداءات المنظمات الفاشية على العمال والساسة المعروفين بميولهم المعادية للفكر الفاشي.

وبالرغم من كل ذلك كان اليمين الفرنسي يميل الى اقامة حكومة اكثر تشددا من حكومة دوميرغ التي كان لوجود الراديكاليين في صفوفها بعض التأثير في سياستها على الصعيدين الداخلي والخارجي. وقد تحقق لليمين ما اراد اثر حادث اغتيال الملك اليوغسلافي الكسندر ووزير خارجية فرنسا لوي بارت المعروف بميوله المعادية لالمانيا النازية والذي كان في استقبال ضيف بلاده بمارسيل. اثار الحادث الذي دبره عملاء هتلر موجة سخط شعبي واسعة اجبرت حكومة دوميرغ على تقديم استقالتها في تشرين الاول عام ١٩٣٤، فألف فلاندين ومن بعده لافال (في حزيران ١٩٣٥) حكومة اكثر يمينية من سابقتها.

لجأت حكومتا فلاندين ولافال الى اجراءات جديدة معادية لمصالح اكثرية الشعب الفرنسي. فقبل كل شيء انهما شددا من اجراءاتهما اللاديمقراطية، بحيث ارتفع عدد المعتقلين السياسيين في عهدهما بصورة ملحوظة. كما وضعت الحكومة في آيار – حزيران عام ١٩٣٥ خطة استهدفت تقليص عدد موظفي الدولة بمقدار ٥٥ الف شخص وحصر الراتب التقاعدي بالنسبة لمشوهيي الحرب بالبالغين من العر ٦٠ عاما فما فوق واجراءات اخرى اثارت الاستياء في نفوس قطاع واسع من الشعب الفرنسي، الامر الذي قرب انتقال السلطة الى الجبهة الشعبية.

حكومة الجبهة الشعبية:

لم تقف القوى الديمقراطية الفرنسية مكتوفة الايدي ازاء سياسة اليمين الذي، فضلا عن كل ما سبق، بدأ يغازل المانيا الهتلرية في الخارج والفاشية في الداخل، فبدأت هذه القوى وفي مقدمتها الحزب الاشتراكي والحزب الراديكالي والحزب

الشيوعي، توحد صفوفها وتتفق على الشعارات الاساسية لنضال الجماهير في تلك المرحلة. ففي ٢٤ حزيران عام ١٩٣٥ طالب ممثلو الاحـزاب المـذكورة مـن الحكومة اتخاذ اجراءات صارمة لمنع نشاط المنظمات الفاشية داخل البلاد. وفـي الرابع عشر من تموز، ذكرى الثورة الفرنسية، شهدت فرنسا مظاهرات جماهيرية معادية للفاشية. ففي العاصمة وحدها اشترك في تلك المظاهرات اكثر من نصـف مليون شخص كانوا يحملون الاعلام الفرنسـية والرايـات الحمـراء وينشـدون المارسيليز والاناشيد الثورية الاخرى.

لم تتراجع الحكومة عن نهجها، بل على العكس من ذلك لجأت وزارة لافـال الى اجراءات جديدة قللت بموجبها رواتب العمال والمـوظفين فـي المؤسسـات والمشاريع الحكومية وقلصت الرواتب التقاعدية وضغطت على الحرفيين وصغار التجار والفلاحيين، كما انها قررت تخفيض مصروفات الميزانية بمقـدار حـوالي ١١ مليار فرنك، مما كان يؤثر بصورة جدية على الخدمات الاجتماعية.

ساعد تعنت الحكومة على رص المعارضة لصفوفها اكثر فـأكثر فتوحـدت الاحزاب الثلاثة- الشيوعي والاشتراكي والراديكالي مع سـبع منظمـات اخـرى ديمقراطية في الجبهة الشعبية التي نشرت برنامجها في ١١ كانون الثاني ١٩٣٦. وقد تركزت الاهداف الاساسية للبرنامج على النقاط التالية:

١- العفو السياسي العام والغاء قوانين الطوارئ والتشريعات التي تقيـد حريـة الصحافة.

٢- منع المنظمات الفاشية عن مزاولة اي نشاط وجمع كل ما لديها من الاسـلحة والمعدات.

٣- النضال ضد خطر نشوب حرب عالمية جديدة.

٤- تقليص امكانات الاحتكاريين بواسطة تأميم المصارف الكبيرة والصناعات الحربية وفرض الضرائب التصاعدية.

٥- تحسين ظروف الشغيلة عن طريق تطوير الضمان وزيادة منح العاطلين عن العمل وتخفيض ساعات العمل من ٤٨ الى ٤٠ ساعة في الاسبوع دون ان يؤثر ذلك على اجور العمال ومساعدة الفلاحين بأقامة تعاونيات خاصة بهم وتأسيس مكتب خاص لبيع الحبوب وفرض اسعار ثابتة على المنتوجات الزراعية لانقاذ الفلاح من الاعيب التجار والمرابين.

٦- تحسين الظروف الحياتية للفئات الاجتماعية المتوسطة عن طريق اعادة النظر في نظام الضرائب وتوسيع الخدمات الاجتماعية وتطوير الحريات الديمقراطية وغيرها.

استطاعت الجبهة الشعبية جمع قطاع عريض من الشعب الفرنسي حول اهدافها بسرعة مما انعكس جليا في نتائج الانتخابات الدورية التي جرت في ربيع ١٩٣٦ (اواخر نيسان - بداية آيار). ففي الانتخابات المذكورة صوت حوالي خمسة ملايين ناخب فرنسي لمرشحي الجبهة التي حصلت على ٣٨١ مقعدا ٢٣٧ مقعد كانت من نصيب الاحزاب اليمينية.

هكذا انتقلت السلطة الى الجبهة الشعبية. ففي الرابع من حزيران عام ١٩٣٦ الف زعيم الحزب الاشتراكي ليون بلوم وزارة جديدة دخلها ١٢ وزيرا من حزبه و٩ وزراء من الحزب الراديكالي مع ممثلي عدد من المنظمات الداخلة في الجبهة الشعبية. اما الحزب الشيوعي فأنه لم يشترك في الوزارة الجديدة ولكنه تعهد بمساندتها شريطة التزامها بما ورد من وعود في برنامج الجبهة.

حاول الاحتكاريون ضرب الجبهة الشعبية وبث بذور الشقاق في صفوفها منذ اليوم الاول لتأسيسها. وبعد انتصار الجبهة الساحق في الانتخابات العامة فقدت الاوساط اليمينية الفرنسية اعصابها، فبدأ الرأسماليون يهددون علنا بأنهم سوف لن يخضعوا لاجراءات الحكومة التي تؤلفها الجبهة، مما ولد رد فعل قويا بين عمال فرنسا الذين قاموا منذ نهاية ايار، اي قبل تأليف بلوم لحكومته، بموجة من الاضرابات شملت اكثر من مليوني عامل والتي اسفر عنها غلق حوالي ١٢ الف مؤسسة صناعية ابوابها. وقد سيطر العمال على العديد من المعامل ورفعوا فوقها الاعلام والرايات، فحاول اليمين من جانبه استغلال هذه الاحداث لتخويف الفئات الاجتماعية الوسطى على اساس ان البلاد مقدمة على ثورة اشتراكية، وفعلا لاح في الافق خطر تفتيت الجبهة الشعبية. ومن اجل الحيلولة دون ذلك رجع العمال الى اعمالهم ولكن بعد ان وقع ممثلوهم مع اصحاب المشاريع ما عرف بـ "اتفاقيات ماتينون (نسبة الى فندق ما تينون بباريس حيث تم التفاهم بين الطرفين) في ٧ حزيران ١٩٣٦ والتي اقرت للعمال حق ٤٠ ساعة عمل في الاسبوع ودفع اجور كاملة عن اجازة اسبوعين في السنة مع الوعد بالنظر في رفع الاجور وابرام عقود جماعية للعمل بين اصحاب المشاريع والعمال.

سهلت هذه الاحداث مهمة حكومة بلوم الى حد ما في تنفيذ جانب من الاصلاحات التي اخذتها الجبهة الشعبية على عاتقها قبل الانتخابات. فأنها، مثلا، وضعت تشريعات خاصة بصدد الامور التي تفاهم حولها الطرفان في " اتفاقيات ماتينون" حول تخفيض ساعات العمل الاسبوعية ودفع الاجور عن الاجازات السنوية.

وفضلا عن ذلك قامت حكومة " الجبهة الشعبية" باصلاحات اخرى من قبيل منح الحرفيين وصغار التجار القروض للحيلولة دون انهيار اقتصادياتهم وتأسيس

هيئة حكومية خاصة لشراء المنتوجات الزراعية باسعار ثابتة، واعادة النظر في القرارات الاستثنائية التي ادت الى تخفيض رواتب الموظفين والغاء الضرائب المفروضة على الرواتب التقاعدية المخصصة لضحايا الحرب. وأممت حكومة بلوم كذلك بعض الصناعات الحربية ورفعت مقدار الضرائب المفروضة على الدخل السنوي الذي يتجاوز ٧٥ الف فرنك وعلى الميراث الذي يزيد عن حد معين. كما اصدرت حكومة الجبهة بعد تأليفها مباشرة (حزيران ١٩٣٦) قراراً يقضي يمنع المنظمات الفاشية عن مزاولة اي نشاط كان.

اعطت اصلاحات حكومة " الجبهة الشعبية" ثمارها خلال السنة الاولى من وجودها، فقد ارتفعت اجور العمال بنسبة تتراوح بين ٧ و ٥٠ بالمائة، وتمتع حوالي نصف مليون عامل فرنسي باجازاتهم السنوية المدفوعة خلال صيف عام ١٩٣٦. تحسن ايضا وضع الفلاحين بصورة ملموسة وذلك جراء عمل الهيئة الخاصة بشراء منتوجاتهم ولتأجيل دفع الديون الحكومية المتراكمة عليهم ورفع رواتب العمال الزراعيين واجراءات اخرى مشابهة. وانتعش كذلك وضع صغار التجار واصحاب الحوانيت والحرفيين خاصة بعد شمولهم بقرارات اطفاء ديون الدولة المترتبة عليهم.

ولكن لم يدم ربيع فرنسا طويلا، فسرعان ما ساتعاد اليمين انفاسه ونشط على جميع الاصعدة بهدف جر البساط من تحت اقدام حكومة " الجبهة الشعبية" ولتفريغ قراراتها من محتواها الفعلي، الامر الذي حدد المسار اللاحق للحياة السياسية في فرنسا.

فرنسا عشية الحرب العالمية الثانية:

في صراعهم مع حكومة " الجبهة الشعبية" لجأ الاحتكاريون الى نفس الورقة التي جربوها بنجاح في العام ١٩٢٦. فقد بدأ كبار اصحاب المصارف والمؤسسات الصناعية بنقل جانب كبير من ودائعهم وما لديهم من ذهب وغيره الى الخارج بحيث هزوا الاقتصاد الفرنسي الذي لم يستعد بعد جانبا كبيرا من المواقع التي فقدها بسبب الازمة الاقتصادية. ولم يتجزأ بلوم ان يتخذ اجراءات صارمة من شأنها وضع حد لتصرفات الاحتكاريين الذين، على العكس، بدأ يتراجع امامهم. فقد وافق على تخفيض سعر الفرنك بأن قلص من غطائه الذهبي بمقدار يزيد عن الربع. وتطيبنا لهم اعلن في شباط ١٩٣٧ عن ايقاف تنفيذ برنامج الجبهة الشعبية " وقتيا".

ولكن لم يكن اليمين مستعدا لقبول الحد الادنى من التنازلات، انه كان يطمح في اكثر من ذلك بكثير فاستمر في تنفيذ مخططاته، مما اجبر بلوم على طلب صلاحات استثنائية من البرلمان بهدف وضع حد لالاعيب الرأسماليين الذين نجحوا في خلق ازمة مالية فعلية في البلاد. وفي الواقع لم يكن بلوم حاسما في موقفه هذا، خاصة انه لم يكن على استعداد للاعتماد على الجماهير لفرض ارادة الجبهة الشعبية. بالرغم من وقوف اكثرية نواب الاخيرة الى جانبه الا ان رفض مجلس الشيوخ، لا المجلس الوطني لسياسته المالية مرتين متتاليتين كان كافيا لدفعه الى تقديم استقالته في حزيران عام ١٩٣٧.

الف الراديكاليي اليميني شوتان الوزارة الجديدة التي ضمت بدورها الحزبين الراديكالي والاشتراكي . ولم يمر سوى شهر على الوزارة الجديدة عندما قامت بتخفيض سعر الفرنك مرة اخرى ليتحقق بذلك للرأسماليين ما أرادوا من تفريغ

اصلاحات حكومة الجبهة الشعبية عند تأسيسها من محتواها، فان زيادات الاجور والرواتب التي حصل عليها العمال وغيرهم اصبحت لا تعني شيئا عمليا بعد تخفيض سعر الفرنك مرتين خلال اقل من ستة اشهر. وقد شجعت تراجعات الحكومة المستمرة المنظمات الفاشية على الظهور فوق المسرح من جديد حتى ان " منظمة الكاجولار"[٢٢] المحظورة قامت في تشرين الاول عام ١٩٣٧ بتنظيم مؤامرة مسلحة واسعة استهدفت منها قلب نظام الحكم واقامة دكتاتورية فاشية بزعامة احد ابرز قادة الجيش في الحرب العالمية الاولى وقائد القوات الفرنسية التي اغرقت انتفاضة الريف في الدم المارشال بيتان. وبما ان هذه المنظمة كانت تتمتع بعطف ساسة كبار من امثال لافال فأن الحكومة لم تتجرأ على اتخاذ اجراءات مشددة ضدها، بل ان الاجهزة الحكومية التي بقيت ادارتها محصورة بايدي اليمين كالسابق كانت تحول في الغالب دون اعتقال اعضائها.

تفاقم التوتر وعدم الاستقرار السياسيين في فرنسا اكثر فاكثر، فان الابتعاد المتزايد عن الجماهير من جهة وضغط اليمين المتزايد من جهة اخرى اجبرا شوتان على تقديم استقالة وزارته في نيسان ١٩٣٨، فجاء بلوم الى دست الحكم للمرة الثانية ولكن ليبقى فيه هذه المرة لمدة قصيرة للغاية مع ان تشكيلة وزارته لم تختلف عن تشكيلة وزارته السابقة. ففي الشهر التالي اضطر بلوم الى تقديم استقالته لينتقل الحكم من بعده الى الجناح اليميني من الحزب الراديكالي بزعامة دالاديية الذي تعاونت معه بعض الاوساط البرجوازية اليمنية المعروفة بميولها الرجعية وبمعادتها للجبهة الشعبية.

---

[٢٢] اي ذوي القلانس نسبة الى كلمة كاجول الفرنسية التي تعني القلنسوة، فان اعضاء هذه المنظمة كانوا يرتدون قلانس ذات فتحتين للرؤية فقط.

وكما كان متوقعا لجأت حكومة دالا دييه الى اجراءات نسفت المكتسبات التي تحققت للجماهير الفرنسية في عهد اول حكومة للجبهة الشعبية،وهي استخدمت لتحقيق ذلك الصلاحيات الاستثنائية التي خولها البرلمان بحجة انهاض الوضع للبلاد. ففي ١٢ تشرين الثاني عام ١٩٣٨ اصدرت الحكومة مجموعة قرارات ادت الى اجراء تخفيض اخر في سعر الفرنسك والى فرض ضرائب جديدية على دخل الفرد الفرنسي يبلغ حدها الادنى ٢% ، فضلا عن رفع الضرائب غير المباشرة وتقليص المبالغ المخصصة في ميزانية الدولة للخدمات الاجتماعية. وقد الغت القرارات الجديدة العديد من المكاسب العمالية الخاصة، بما في ذلك قرار تقليص ساعات العمل الى ٤٠ ساعة في الاسبوع، الامر الذي دفع باربعة ملايين عامل فرنسي الى اعلان اضراب احتجاجي لمدة ٢٤ ساعة في ٣٠ تشرين الثاني. وقد اتخذت حكومة دالادييه من الاضراب ذريعة لتمديد مدةصلاحيتها لغاية ٣٠ تشرين الثاني عام ١٩٣٩، كما قامت بطرد واعتقال العديد من العمال.

وفي ظل مثل هذه الظروف كان من الطبيعي ان تنحل الجبهة الشعبية التي بدأت تعاني من تناقضات حادة نجمت عن تمادي بعض اطراف الجبهة في تراجعاتها امام اليمين من جهة ومن رفض اطرافها الاخرى التخلي عن الاهداف الاصلية التي قامت الجبهة على اساسها من جهة اخرى. ففي اواخر عام ١٩٣٨ انسحب الراديكاليون من الجهة رسميا ثم اتبعهم الاشتراكيون في ايار من العام التالي. وقد لعبت سياسة فرنسا الخارجية عشية الحرب دورا مهما في نسف الجبهة.

سياسة فرنسا الخارجية عشية الحرب العالمية الثانية:

تطرقنا الى اهم جوانب السياسة الخارجية لفرنسا بعد الحرب العالمية الاولى وذلك عن الحديث في مؤتمر الصلح وعصبة الامم ومغامرة الروهر. ومنذ اواخر العشرينيات بدأ الواقع السياسي الداخلي للبلاد ينعكس على سياستها الخارجية اكثر فاكثر. فقد طغى طابع التأرجح وعدم الثبات على سياسة فرنسا الخارجية في العقد الرابع من القرن العشرين، الامر الذي كان يعكس الى حد كبير حقيقة الصراعات الحادة التي كانت تسود علاقات الاطراف السياسية والفئات الاجتماعية الفرنسية ببعضها فضلا عن التناسب الجديد للقوى على الصعيد الدولي. ففي حين عقدت حكومة " كتلة اليسار" معاهدة عدم الاعتداء مع الاتحاد السوفيتي في تشرين الثاني عام ١٩٣٢ واتخذت اجراءات من شأنها تطوير العلاقات التجارية القائمة بين البلدين نرى حكومتي فلاندين ولافال تبديان بعد اقل من سنتين ميلا واضحا نحو المانيا الهتلرية وايطاليا الفاشية[٢٣] مع ان حكومة فلاندين وقعت في مطلع ايار عام ١٩٣٥ معاهدة للتعاون المتبادل مع الحكومة السوفيتية.

وقد ظهر طابع التذبذب الذي تميزت به اول حكومة للجبهة الشعبية في سياستها الخارجية ايضا، وهو ما انعكس بصورة خاصة في موقفها من التمرد الفاشي الذي وقع في اسبانيا عام ١٩٣٦ والذي اتبعه تدخل القوات الالمانية والايطالية للقضاء على الجمهورية الاسبانية الديمقراطية. فان حكومة بلوم رفضت بيع الاسلحة للجمهوريين وذلك بحجة عدم رغبتها في التدخل في شؤون اسبانيا، مع العلم ان قطاعا واسعا من الراي العام الفرنسي كان يميل الى االوقوف بحزم ضد تدخل القوات الالمانية والايطالية في اسبانيا على الاقل لانه كان يؤلف تهديدا

---

[٢٣] اتخذت فرنسا موقف المشجع عمليا للغزو الايطالي لاثيوبيا ، الموضوع الذي نعود الى تفاصيله عند الحديث عن الحرب الاثيوبية.

لامن فرنسا التي لها حدود مشتركة مع الدول الثلاث. ولم يكن مجرد صـــدفة ان تطوع اكثر من ثمانية الاف فرنسي للدفاع عن الجمهورية الاسبانية وقد لقى مـــا لايقل عن ثلاثة الاف منهم مصرعهم في ميادين القتال ضد الغزاة الفاشست.

ولكن مع ذلك فأن ايا من حكومات فرنسا السابقة لم تتجــرأ علـــى مســـاومة المانيا الهتلرية والتراجع امامها كما فعلت دلادييه التي اعطت الضـــوء الاخضـــر لهتلر ليقوم في العام ١٩٣٨ باحتلال جيكوسلوفاكيا التي كانت تعتبر الىذلك الحين من اكبر حليفات فرنسا . ولم يلعب موقف الوفد الفرنسي الدور الاخير في افشال مفاوضات موسكو الثلاثية التي جرت في صيف عام ١٩٣٩ بين انكلترا والاتحاد السوفيتي وفرنسا بهدف عقد معاهدة للامن الجماعي بين الاطراف الثلاثة.

وهكذا فان حكام فرنسا لم يتحملوا مسؤولية قليلة في تقريب موعـــد انـــدلاع نيران الحرب العالمية الثانية التي اصبحت فرنسا نفسها واحدة من أكبر ضحاياها.

المانيـــــــا

مقدمة عامة

من خلال استعراضنا لاحداث الدول الكبرى ضمن المواضيع السابقة لاحظنا جوانب معينة من تاريخ اوربا وحياتها الاقتصادية والاجتماعية قبل الحرب العالمية الاولى وفي سنواتها ، ورأينا دورها الفعال كدولة كبرى في الحياة السياسية علـــى الصعيد الدولي. وبالرغم من اندحار المانيا في الحرب الا انها سرعان ما بـــرزت فوق المسرح السياسي الاوربي والعالمي من جديد وذلك بفعـــل عوامـــل داخليـــة وخارجية تفاعلت فيما بينها وحددت المسار التاريخي المؤثر لهذا البلد الاوربي في الفترة الحساسة الواقعة بين الحربين العالميتين. وقد تميز التاريخ الالمـــاني فـــي مرحلته الجديدة باحداثه ومتغيراته السريعة يمكن تلخـــيص اهـــم ملامحهـــا فـــي المواضيع التالية.

الصراع السياسي في المانيا

(١٩١٨-١٩٢٣)

ثورة تشرين الثاني ١٩١٨:

جلبت الحرب العالمية الاولى ويلات كبيرة للمجتمع الالماني الذي فقد حوالي ٧,٥مليون شخص من افضل قواه الانتاجية، اذ بلغ عدد القتلى الالمـــان حـــوالي مليوني شخص وعدد اسراهم وجرحاهم ما لايقل عن ٥,٥ مليون شـــخص. وأدت الحرب الى تدمير الاف المعامل والمصانع والمؤسسات المختلفة والـــى تخريـــب الحقول والمزارع في طول البلاد وعرضها. وبالاجمال فان الحرب كلفت المانيـــا ١٥٠ مليار مارك الى جانب عدة مليارات اخرى اضطرت المانيا الى دفعها على شكل تعويضات للدول المنتصرة وقد وقع الجانب الاكبر من عبء هذه الخســـائر على كاهل الشغيلة من عمال وفلاحين وعلـــى ابنـــاء الفئـــات الاجتماعيـــة دون

المتوسطة من منتجين صغار وموظفين ومثقفين وغيرهم من الذين بدأوا يعـــانون من البطالة وانخفاض الاجور والرواتب وارتفاع ساعات العمل ومن الظرائب غير المباشرةوشحة المواد الغذائية وارتفاع اسعارها. وربما يكفي ان نشير هنا الى ان الانتاج الزراعي في المانيا قد تقلص في العام ١٩١٨ بمقدار حـــوالي ٤٠-٥٠% بالقياس مع سنوات ما قبل الحرب، والى ان يوم العمل بدأ يســـتمر فـــي معظـــم المؤسسات الصناعية لمدة ١٢ ساعة او اكثر احياناً، فضلا عن استخدام الاطفـــال على نطاق واسع فيها.

وبالمقابل حقق الاحتكاريون الالمان ارباحا طائلة في سنوات الحرب وذلـــك بغض النظر عن اندحار بلادهم عسكريا. فكما ذكرنا في حينه ان رساميل مؤسسة كروب المعرفة تضاعفت في ١٩١٤ -١٩١٨ بمقدار ست مرات. فان ارباح هذه المؤسسة بلغت في ١٩١٦-١٩١٧، اي في عز ايام الحرب، ١٧٠ مليون مـــارك مقابل ٧٥ مليون مارك عام ١٩١٣- ١٩١٤، اي في عشية الحرب. وينطبق المثل على معظم الاحتكاريين الالمان الاخرين .

ساعد هذا الواقع مع فشل اليمين الذريع سياسيا اثر اندحار المانيا في الحرب على تعميق التناقضات داخل المجتمع الالماني بشكل خطير مما ادى الى خلق مد ثوري عارم تأثر في اطار التفاعل الافقي بانتصار اول ثورة اشتراكية في التاريخ على مقربة من الحدود الالمانية. " فقد كان لقصة الثورة الروسية – كمـــا يقـــول المؤرخ الانكليزي المحافظ المعروف هربرت فيشر – اثر كبير في نفوس اغلبيـــة العمال في ارجاء اوربا الوسطى، وبنوع خاص في المانا، ولم تستطع المحن التي صحبت نهوض البلاشفة ووصولهم الى السلطة ان تزحزح من اذهان العمال هذه الحقيقة البعيدة الاثار وهي انه في روسيا من بين جميع امصـــار العـــالم، امكـــن

للشعب ان يطرح عن كاهله نير اسياده، وصار يحكم امبراطورية مترامية الاطراف لخير الفقير وفائدته"[٢٤].

انعكس المد الثوري الجديد في المانيا في ظهور اتجاه قوى معاد للحرب قبل ان تضع الاخيرة اوزارها. ولم يكن مجرد صدفة ان هز المانيا في تشرين الاول عام ١٩١٨ اضراب عمالي سياسي عام لم تكد السلطات تقمعه حتى اجتاحت البلاد موجة عاتية من الاضرابات والتظاهرات رفع المشاركون فيها شعارات السلام والديمقراطية وتحسين الظروف المعاشية. وقد بلغ عدد الذين اشتركوا في الاضرابات الاخيرة حوالي مليونين ونصف مليون عامل، وهو أمر لم يسبق له مثيل في كل التاريخ السياسي لالمانيا الرأسمالية. وعند تقييم مغزى هذا الرقم يجب ان يؤخذ بنظر الاعتبار ايضا ان عدة ملايين من الالمان كانوا في الجبهة وكانوا في مشاعرهم مع الشعارات المطروحة.

وسرعان ما تحولت هذه الحركة الى ثورة اطاحت بالنظام الملكي الالماني المستبد الذي غدا وجوده يتنافى مع منطق التاريخ ومصلحة البلاد . فحينما حاول حكام المانيا المتغطرسين تجربة ورقة خطيرة في الايام الاخيرة من الحرب بان اصدروا الاوامر لاسطولهم الحربي الراسي في مينائي كيل ووليمسخافن بالتوجه الى ضرب الاسطول البريطاني في عرض البحر امتنع البحارة في كيل عن تنفيذ الاوامر الصادرة اليهم لان كان من شأن هذه المغامرة ان تؤدي في حالة تنفيذها، بحياة ما لايقل عن ٨٠ الف بحار.

---

[٢٤] ه. فيشر ، تاريخ اوربا في العصر الحديث ، القاهرة، ١٩٦٤ ، ص ٦٠٧ . راجع كذلك ص ٦٠٠ حيث ورد تقييم مشابه للمؤلف حول الوضع في ايطاليا.

هب عمال كيل الى مساندة البحارة فاتخذت الاحداث شكل انتفاضة عامة في ٣ تشرين الثاني عام ١٩١٨، وخاصة اثر تشكيل العمال والبحارة لمجلسين استحوذا خلال اليومين التاليين على مقاليد السلطة في المدينة.

وجدت انتفاضة كيل صدى واسعا لها في جميع ارجاء البلاد، فتحرك العمال والجنود في معظم المدن وشكلوا مجالس ثورية اخذت زمام الحكم بيدها. وانفجرت الاحداث الثورية في العاصمة برلين بقوة بحيث تمكن العمال بمساندة الجنود ان يسيطروا عليها كليا في ٩ تشرين الثاني مما اجبر وليم الثاني على التنازل على العرش واللجوء الى هولندا فتشكلت على اثر ذلك حكومة جمهورية برئاسة زعيم الحزب الاشتراكي الديمقراطي أيبرت والتي وقعت على عاتقها مهمة انهاء الحرب باسرع ما يمكن.

لم تكن حكومة ايبرت الانتقالية واجراءاتها بمستوى طموح الجماهير ومهمات الثورة الراديكالية التي توفرت ظروف انتصارها في المانيا يؤمذاك. فلم يمض سوى يوم واحد على انتصار الثورة عندما اتفق ايبرت سرا مع القائد العام للجيش الالماني هند نبرغ على العمل المشترك لما اسموه "بفرض النظام" ، الامر الذي كان يقصد به في الواقع ضرب العناصر الاكثر ثورية عند الضرورة. ومع ان النظام الجديد ادعى التمسك بالافكار والاصلاحات الاشتراكية الا انه لم يمس مصالح كبار الرأسماليين الذين طمأنهم مباشرة بالتأكيد على تمسكه بالتملك الخاص لوسائل الانتاج، ولم يعالج المشكلة الزراعية، بل وحتى لم يلغ الاجراءات الاستثنائية التي اتخذت في ميدان الزراعة اثناء الحرب وظل نظام استخدام الاطفال قائما كالسابق طيلة عهد الحكومة الانتقالية.

اما على الصعيد الخارجي فقد اتبعت حكومة ايبرت الانتقالية سياسة التقرب من الولايات المتحدة والمساومة معها وذلك بأمل الحصول على شروط افضل لالمانيا في معاهدة فيرساي التي كان الحلفاء يتفاوضون في باريس من اجل وضع بنودها، مما ترك بضمات واضحة على سياسة المانيا اللاحقة.

ولكن بالرغم من كل ذلك فأن مجرد اعلان النظام الجمهوري ليحل محل نظام ملكي مستبد بفعل عمل ثوري عام يعتبر خطوة كبيرة الى امام في تاريخ المانيا المعاصر. ثم أن النظام الجديد لم يكن بوسعه ان يغض الطرف عن مطاليب القوى الثورية الالمانية كليا، فأنها اقدمت على اجراءات كان من شأنها رفع بعض الحيف عن الشغيلة الالمانية بما في ذلك تقليص ساعات العمل في المؤسسات الصناعية الى ٨ ساعات من جديد. وقد انجزت حكومة ايبرت كذلك مجموعة من الاجراءات الديمقراطية يأتي في مقدمتها وضع دستور جديد للبلاد.

دستور فايمار:

اقر النظام الجديد حق الانتخاب العام لجميع الالمان البالغين بما في ذلك النساء. وقد جرت في ١٩ كانون الثاني عام ١٩١٩ انتخابات عامة في البلاد اشترك فيها ٣٠ مليون ناخبا صوت ١١,٥ مليون منهم الى جانب الحزب الاشتراكي الديمقراطي و ٢,٥ مليون آخر الى جانب الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل. ولم يحصل اي من الاحزاب البورجوازية الرئيسة (الوسط الكاثوليكي والديمقراطي والشعبي) بشكل منفرد على عدد متساو لما حصل عليه الاشتراكيون الديمقراطيون، مما له مغزاة السياسي بالنسبة لظروف المانيا مابعد الحرب، مع العلم ان القوى اليمينية استعجلت في اجراء الانتخابات بعد انتصار الثورة مباشرة حتى تفوت الفرصة على القوى الراديكالية فلا تسمح لها بتنظيم

نفسها وحشد طاقاتها كما يجب من اجل تعبئة الجماهير وكسبها الى جانب الفكر الثوري اكثر فاكثر. ومن الجدير بالذكر ان الموقف الانتهازي للحزب الاشتراكي الديمقراطي وضرب الانتفاضة الثورية التي انفجرت في برلين عشية الانتخابات اعطيا البورجوازيين فرصة افضل لتمرير خطتهم.

افتتحت الجمعية الوطنية (التأسيسية) في ٦ شباط ١٩١٩ في بلدة فايمار وفي اليوم نفسه اتخذ المجلس المركزي للعمال والجنود بطلب من قيادة الاشتراكيين الديمقراطيين قراراً بالتخلي عن جميع حقوقه وصلاحياته للجمعية الوطنية. وبعد خمسة ايام انتخبت الجمعية ايبرت رئيسا للجمهورية ثم تشكلت حكومة ائتلافية ضمت الى جانب الاشتراكيين الديمقراطيين ممثلين من حزبي الوسط الكاثوليكي والديمقراطي.

وبعد مناقشات طويلة اقرت الجمعية في ٣١ تموز دستورا لالمانيا دخل التاريخ بأسم "دستور فايمار" الذي اعترفت مواده بحرية الكلام والاجتماع والتنظيم والنشر، وبحق الانتخاب السري المباشر وبالمساواة امام القانون وغير ذلك من الحريات والحقق للشعب الالماني الامر الذي كان يعكس بدوره واقع المخاض الثوري الذي عاشه البلاد.

ومع ان دستور فايمار كان يومذاك اكثر الدساتير ديمقراطية بالنسبة للبلدان الرأسمالية قاطبة الا ان المادة ٤٨ منه منحت رئيس الدولة حق الغاء جميع الحقوق الديمقراطية "في حالة تعرض الامن العام للخطر" كما ورد في نص الماد المذكورة. وقد اناط الدستور برئيس الدولة صلاحيات واسعة اخرى من قبيل تعيين مستشار المانيا والوزراء والقيادة العليا للجيش واعلان حالة الطوارئ وما شابه.

اما رئيس الدولة (رئيس الجمهورية) فقد تقرر بموجب دستور فايمار أن ينتخب عن طريق التصويت العام لمدة سبع سنوات.

وهكذا فأن دستور فايمار كان يعكس بوضوح وجهي الواقع السياسي لالمانيا بعد الحرب مباشرة، وهو لم يستطع بحكم ذلك ضمان الاستقرار السياسي للبلاد.

المانيا في ظل دستور فايمار:

استمر الصراع السياسي على اشده في المانيا بعد اقرار دستور فايمار الذي لم يستطع حسم ذلك الصراع لصالح احد القطبين المتعارضيين المؤثرين داخل المجتمع الالماني. فمن جهة لم تلب مواده طموحات القوى الراديكالية، ولاسيما الشغيلة كما يجب ومن جهة اخرى لم ترض القوى اليمينية.

انعكست اثار هذا الواقع فوق المسرح السياسي بشكل ملموس فبعد اقرار الدستور باقل من عام حاولت القوى اليمينية قلب النظام القائم وذلك عندما نظم الرجعيون بقيادة الملاك الكبير الملكي النزعة (كاب Kapp) وبالتعاون مع عدد من كبار العسكريين عصيانا في اذار ١٩٢٠ استهدف مكتسبات ثورة تشرين الثاني في الصميم. فقد تحرك الانقلابيون في العاشر من اذار صوب العاصمة برلين ووجهوا انذارا الى الحكومة يطلبون منها حل المجلس الوطني واجراء انتخابات جديدة للرئاسة ومطاليب اخرى كان من شأنها فرض نظام دكتاتوري متخلف على الشعب الالماني من جديد. وبالرغم من ذلك لم تتخذ حكومة الاشتراكيين الديمقراطيين اي اجراء جدى ضد المتمردين الذين تجرأوا جراء ذلك التراخي فقاموا باحتلال برلين وبتأليف حكومة جديدة بعد ثلاثة ايام فقط. اما ايبرت واعضاء حكومة فقد تركوا العاصمة وانتقلوا الى المدينة شتوتغارت. حينذاك اخذت القوى الراديكالية زمام المبادرة بيدها فحركت الجماهير التي اعلنت اضرابا عاما في كل البلاد بلغ عدد

المشتركين فيه مالا يقل عن ١٢مليون شخص. وبفضل التعاون الوثيق بين العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين ومقاومتهم التي استمرت خمسة ايام تم القضاء على المتمردين.

وفي ايام المؤامرة بالذات كادت الاحداث ان تتطور باتجاه تعميق نتائج ثورة تشرين الثاني، وخاصة بعد ان الف الكادحون في منطقة الروهر جيشا قوامه مئة الف مسلح، الا ان حكومة أيبرت لم تتوان عن اتخاذ اي اجراء، بما في ذلك التعاون مع فلول المتمردين، من اجل الحيلولة دون ذلك، مما أثر على سمعة الاشتراكيين الديمقراطيين ورصيدهم بين الجماهير بحيث تمكن منافسوهم من النيل منهم. ففي حزيران ١٩٢٠ جرى تأليف اول حكومة بدونهم منذ انتصار ثورة تشرين الثاني.

ومن جانب اخر تحول موقف الحلفاء الى عامل مساعد لعدم الاستقرار السياسي في المانيا. فقد لجأ الحلفاء الى اساليب في غاية التناقض كانوا يهدفون منها الحيلولة دون انهيار الرأسمالية الالمانية وتحويلها الى سد امام تيار الافكار الاشتراكية التي اخذت تقض مضاجع الرأسماليين في وسط أوربا وغربها. وفي سبيل ربط المانيا بعجلتها حاولت الدول الحليفة استغلال مسألة التعويضات الحربية التي اقرتها معاهدة فيرساي، مما ساعد كثيرا على تفاقم الازمة السياسية في المانيا. فعندما وجه الحلفاء في ايار عام ١٩٢١ انذارا اليها طالبين منها الاعتراف بمبلغ التعويض المقرر في حدود ١٣٢ مليار مارك ودفع قسطه الاول المقدر بمليار مارك انفجرت ازمة سياسية في البلاد اسفرت عن تأليف حكومة جديدة برئاسة زعيم حزب الوسط الكاثوليكي الدكتور فيرت.

حاول المستشار الجديد الدكتور فيرت ووزير خارجيته راتيناو حل مشاكل بلادهما باتباع سياسة مزدوجة تتلخص في التمسك ببنود معاهدة فيرساي ارضاء للحلفاء من جهة واعادة العلاقات مع روسيا السوفيتية واستغلال ظروفها واسواقها لصالحها من جهة اخرى، فاقدمت في نيسان من العام ١٩٢٢ على توقيع معاهدة مع روسيا اعادت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين الا ان ذلك لم يرض الاوساط المتطرفة في الداخل والحلفاء في الخارج، فاغتيل راتيناو في حزيران ١٩٢٢ . سرعان ما اضطر الدكتور فيرت الى تقديم استقالته فألف ف. كونو حكومة ائتلافية في تشرين الاول من العام نفسه ضمت احزاب الوسط الكاثوليكي والديمقراطي الشعبي.

ان كونو الذي كان على اتصال وثيق بالرأسماليين الالمان والامريكان اراد الامتناع عن دفع التعويضات الحربية، الامر الذي حاول المستعمرون الفرنسيون استغلاله لتحقيق حلمهم القديم باحتلال منطقة الروهر الغنية.

احتلال الروهر والازمة الثورية الجديدة:

قامت القوات الفرنسية والبلجيكية باحتلال منطقة الروهر في كانون الثاني عام ١٩٢٣، فدعت الحكومة الالمانية سكانها الى "المقاومة السلبية" وذلك بالامتناع عن تنفيذ اوامر المحتلين وعن دفع الضرائب والعمل في المناجم والمؤسسات الصناعية التي كانت منتوجاتها تحول الى فرنسا وبلجيكا. وقامت حكومة كونو بتعويض الرأسماليين الذين توقفت مصالحهم في الروهر.

عمق احتلال الروهر مشاكل البلاد السياسية والاقتصادية ففي تلك الايام بلغت ازمة المارك الالماني ذروتها وذلك بسبب ازدياد اصدار النقود الورقية غير المسندة برصيد ذهبي. ففي اواخر ايلول عام ١٩٢٣ اصبحت قيمة المارك الذهبي

الواحد تعادل مالايقل عن ٣٨مليون مارك ورقي. وقد ادى ذلك الى تفاقم مشـاكل البلاد الاقتصادية التي عانى منها الكادحون وذووا الدخل المتوسط، فيمـا تمكـن الاغنياء استغلالها لمصالحهم، فأزداد الاستياء بين الجماهير التي لم تكن راضـية اصلا من الموقف غير الحازم الذي اتخذته حكومة كونو ازاء الاحتلال الفرنسي – البلجيكي لمنظمة الروهر فانفجرتحركة ثورية عارمة شملت معظم مناطق المانيـا التي شهدت مظاهرات واسعة ضد حكومة كونو والمحتلين الاجانب.

وقد بلغت حركة الاحتجاج هذه الذروة في منطقة الروهر نفسها، حيث اعلـن حوالي ٤٠٠ الف من عمالها الاضراب عن العمل في ايار عام ١٩٢٣. ولم تتوان حكومة كونو عن التعاون مع المحتلين للقضاء على الحركة الثورية في المنطقـة، اذ سمح الفرنسيون والبلجيك للقوات الالمانية بالدخل الى روهر من اجل ضـرب الانتفاضة العمالية فيها. ولكن عبثا حاولت حكومة كونو وضع نهايـة للاسـتياء الجماهيري الذي انصب في اضراب عام امتدت اثاره الى كل المانيا في آب مـن العام نفسه، مما اجبر كونو على تقديم استقالته.

الف شتريزمن زعيم الحزب الشعبي الالماني الحكومة الجديدة التي اشـترك فيها الحزب الاشتراكي باربعة مقاعد. اخذت حكومة شتريزمن على عاتقها مهمـة القضاء على مظاهر الحركة الثرية الجديدة في البلاد، ومن اجـل التفـرغ لهـذه المهمة دخلت في مساومة صريحة مع المحتلين اذ دعت حتى الى الغاء " المقاومة السلبية" المعلنة في منطقة الروهر ضدهم. وحينما ازداد زخم الحركـة الثوريـة الجديدة وبلغ حد استيلاء العمال على السلطة في بعض المناطق لجـأت الاوسـاط الحاكمة الى استخدام القوة لقمعها.

وفي هذه الفترة بالذات اصبحت الرأسمالية الالمانية بحاجة الى عون الحلفـــاء حتى تستطيع التخلص من مشاكلها وتتفرغ لمقارعة اعدائها في الـــداخل، الامـــر الذي مهد الطريق لمساومة اخرى بين الطرفين انعكست ابعادها فيما عرف بخطة داوس.

خطة داوس ونتائجها الاقتصادية والسياسية:

الفت عام ١٩٢٤ بمبادرة امريكية لجنة خاصة برئاسة الخبير الامريكي داوس وعضوية عدد من الخبراء الاقتصاديين المنتمين الى اقطار مختلفة وذلك للنظر في مسألة التعويضات الالمانية. وضعت اللجنة خطة تقضي بأن تدفع المانيا من مليار واحد الى مليار و٧٥٠ مليون فرنك سنويا لغاية العـــام ١٩٢٨ ومبلـــغ مليـــارين ونصف مليار مارك سنويا فيما بعد.

وافقت المانيا على الخطة خاصة وان الولايات المتحدة الامريكية وعدتها بأن تقدم لها ما تحتاج من القروض والمساعدات المالية. وهكذا ظهر مجال واسع امام تغلغل الرساميل الامريكية في المانيا. فأن ابرز المؤسسات الرأسمالية الامريكيـــة من قبيل ستانندرد اويل وجنرال الكتريك وجنرال موتـــورز وفـــورد وروكفلـــر وغيرها وضعت رساميلها في المشاريع الالمانية. ولكفي ان نشير بهذا الصدد الى ان كونسيرن جنرال الكتريك استحوذ لغاية اواخر العشرينات على ٣٠% من اسهم شركة الكهرباء العامة الالمانية.

ساعدت خطة داوس والقروض الامريكية الرأسمال الاحتكاري الالماني كثيرا بحيث انه تمكن ان يقف على قدميه من جديد وبقوة. ففـــي العـــام ١٩٢٧، مـــثلا، تضاعف الانتاج الصناعي الالماني قياسا مع العام ١٩٢٣ وتجاوز انتاج ما قبـــل الحرب بمقدار ٥%. وكان من الطبيعي ان ينعكس ذلك على الوضع السياسي في

البلاد، فقد تقوى موقع الرأسماليين ونفوذهم بشكل ملموس، وزاد تـأثيرهم علـى سياسة الدولة التي اتجهت نحو اليمين اكثر فأكثر، الامر الذي تبلـور اكثـر فـي سنوات الازمة الاقتصادية.

المانيا في سنوات الازمة الاقتصادية العالمية:

تأثرت المانيا بالازمة الاقتصادية اكثر من جميع الاقطار الاوربية الاخـرى. ففي العام ١٩٣٢ تقلص الانتاج الصناعي الالماني بمقدار حوالي ٤٧% قياسا مـع العام ١٩١٣، وفي سنوات الازمة اشهرت ٦٨ مؤسسة رأسمالية المانية الافلاس، كما ابتلعت المصارف الكبيرة والمشاريع الاحتكارية الضخمة عشرات الالوف من المصارف والمشاريع الصغيرة. فيما اضطرت المصارف الكبيـرة الـى طلـب الشرطة لتحميها من الوف المودعين الذين غدوا يخشون مصير ودائعهم. وفي عز ايام الازمة صدر مرسوم يعلن عن ما سمي بالاجازة المصرفية فأقفلت المصارف الالمانية كافة ابوابها وتوقفت البورصات عن العمل ولم تعاود المصارف نشـاطها الا تدريجيا. وارتفعت نسبة البطالة بين العمال بشكل خطير حتى انها غدت تشمل حوالي ٤٥% من ابناء الطبقة العاملة ففي العام ١٩٢٨ بلغ عدد العمال العـاطلين عن العمل اقل من مليون ونصف مليون شخص، وفي العـام ١٩٢٩ اقـل مـن مليونين. وفي العام ١٩٣٠ ارتفع الرقم الى اكثر من ثلاثة ملايين ومن ثـم الـى اكثر من اربعة ملايين ونصف المليون في العام ١٩٣١ والى اكثر مـن خمسـة ملايين ونصف المليون في العام ١٩٣٢ وفي كانون الثاني عام ١٩٣٣ بلغ الـرقم ذروته – اكثر من ٦ ملايين. وفقد في الوقت نفسه مئات الالوف مـن المـوظفين والمعلمين والمدرسين والاطباء والمهندسين والفنانين العمل وعاش صغار الفلاحين كذلك ظروفا صعبة للغاية، فخلال العام ١٩٣٠ وحده اضطر مـا لا يقـل عـن عشرين الف فلاح الى بيع اطيانهم.

وقع الجانب من ثقل الازمة على عاتق الفئات الاجتماعية الدنيا والمتوسطة التي انخفض موردها بشكل ملموس. فعلى سبيل المثال ان اجور العمال الالمان قد تقلصت عام ١٩٣٢ بمقدار الضعف تقريبا قياسا مع العام ١٩٢٩. بينما منحت الحكومة الاحتكاريين امتيازات واسعة ومساعدات سخية. فأن ما تلقاه كبار الصناعيين من المنح الحكومية خلال سنوات الازمة تجاوز ثلاثة مليارات مارك اما المساعدات التي قدمتها الحكومة لاصحاب المصارف الكبيرة فقد بلغت ١,٢ مليار مارك.

اضطرت الشغيلة الالمانية اللجؤ الى النضال من جديد دفاعا عن حقوقها فشهد العام ١٩٣٠ اكثر من ٣٥٠ اضرابا عماليا بلغ عدد المشتركين فيها حوالي ربع مليون شخص. وفي العام التالي ارتفع عدد الاضرابات الى حوالي ٥٠٠ اضراب ثم ارتفع الى اكثر من ٨٠٠ اضراب وقعت خلال اربعة اشهر فقط من العام ١٩٣٢.

حاولت القوى السياسية في البلاد استغلال ظروف الازمة الاقتصادية لصالحها كل حسب فلسفتها ومنطلقاتها الفكرية. وعرف الحزب النازي كيف يستفيد من الظروف التي تمخضت عن الازمة وبشكل اسهم في ثقل السلطة اليه بزعامة هتلر.

هتلر والحزب النازي:

ولد ادولف هتلر عام ١٨٨٩ في النمسا. كان والده موظفا بسيطا في الكمارك.قبل الحرب العالمية الاولى كان هتلر يعيش من مورد غير ثابت يأتيه من عمله كمصور، حتى انه قضى جانبا من حياته في مأوى للاجئين بفينا. ومنذ ذلك الوقت أيد هتلر بحماس بالغ الاحزاب والمنظمات القومية العنصرية المتطرفة

النمساوية والالمانية وانتقل في العام ١٩١٣ الى ميونيخ بالمانيا حيث اصبح عريفا في جيشها خلال سنوات الحرب.

كان هتلر مكيافيليا اصيلا في افكاره، حتى يقال ان كتاب"الامير" لـم يغـادر مكتبه. وفعلا تمسك طوال حياته بروح الفلسفة الميكافيلية التي تؤكد على ان الغاية تبرر الواسطة ايا كانت، فهو لم يتوان عن تزوير الحقائق واثارة عواطف البسطاء واستخدام الرشوة واللجؤ الى الارهاب والغدر والخيانة. جمع هتلر في ذاته صفات متناقضة، فقد كان الرجل ذكيا، ثاقب النظر في تقدير الامور السياسـية، خطيبـا لامعا متهمكا، جريئاً ومغامرا وعنودا.

في آب عام ١٩١٩ اسس هتلر مع حـوالي خمسـين شخصـا مـن الـذين يشاطرونه الفكر الشوفيني المتطرف الحزب القومي الاشتراكي العمالي الالمـاني الذي دخل التأريخ بأسم (الحزب النازي) وهو اختصـار للكلمـة الاولـى لاسـم الحزب. اسس هتلر الحزب النازي بمدينة ميونيخ التي تحولت فيما بعد الى مقـر لقيادته.

آمن الحزب النازي بالافكار الفاشية[٢٥] التي ظهرت الى الوجود في عدد من الاقطار الاوربية المتطورة في القرن التاسع عشر وبالتحديد في عهد الامبرياليـة. ومع ان الحزب النازي هو ثاني تنظيم سياسي فاشي(ظهر قبلة باشـهر الحـزب الفاشي الايطالي) يظهر الى الوجود الا انه ترك اثرا اكبر من غيره على الحيـاة السياسية في اوربا وعلى مصير العالم بأسره.

---

[٢٥] الفاشية (Fascio) كلمة ايطالية تعني الحزمة والباقة والرزمة او الرابطة والجامعة والوحدة. المنطلقات الفكرية للاحزاب الفاشية وممارستها اسبغت على الكلمة مفهوما جديدا سلبيا في ميدان السياسة.

وضع الحزب النازي اول برنامج عمل له في العام ١٩٢٠. كان البرنامج يتألف من ٣٥ بندا وردت فيها الى جانب المسائل القومية بصياغة عاطفية مؤثرة، امور كان من شأنها في ظروف المانيا جذب قطاعات واسعة من الناس الى صفوف الحزب. فقد اكد البرنامج على ضرورة هيمنة الدولة على التريستات والغاء ضغط البنوك على صغار المنتجين والقيام بالاصلاح الزراعي وجعل حكم الموت عقابا للمرابين والعاملين في السوق السوداء.

ولكن هتلر الذي اصبح زعيما للحزب منذ العام ١٩٢١ هو الذي صاغ المنطلقات الفكرية الاساسية للنازي في كتابة "كفاحي" الذي انتهى من تأليفه في العام ١٩٢٥. تحدث هتلر في "كفاحي" عن تاريخ حياته باسلوب مثير ومبالغ فيه مع تاريخ حزبه وافكاره العنصرية وتعليماته.

يغلب الطابع العرقي المتطرف والدعوة الصريحة الى حرب انتقامية والتوسع على حساب الغير معظم ما ورد في " كفاحي" . فحسب " كفاحي" يعود الفضل في تقدم البشرية الى عنصر واحد هو العنصر الارى الذي خلق الحضارة فاصبح جديرا بحمل رايتها. وعلى الاريين ان يصونوا نقاوة مهم فحيثما قبلوا " الاختلاط مع العروق الاخرى المنحطة" فقدوا دورهم الحضاري.

يدعو "كفاحي" الى مكافحة الحرية في الحقلين السياسي والاقتصادي والغاء الحياة البرلمانية والقضاء على "فكرة السواد الديمقراطية" والاكثرية على صعيد السياسة الداخلية التي يجب ان يكون هدفها كذلك تأسيس دولة قادرة على "الحفاظ على الشعب الالماني وتنميته وتغذيته" دولة توسع حدود المانيا الى ما وراء حدود عام ١٩١٤بحيث تضم جميع الالمان، بمن فيهم المان النمسا اولا"، وتزود بمجال حيوي يقع في اوربا الشرقية وبالتحديد لغاية الاورال. ولتحقيق كل ذلك لابد من

اهراق الدماء ولابد من استعمال السلاح، ولا مفر من ابادة فرنسا" العدوة لابدية للشعب الالماني" حتى يتسنى بعد ذلك التوجه نحو الشرق. ومقابل هذا التصلب تجاه فرنسا والطمع في اوربا الشرقية وردت في " كفاحي" افكار تنم عن مساومة صريحة مع الرأسماليتين الانكليزية والامريكية، فقد كان هتلر يميل يومذاك الى الاتفاق بل وحتى التحالف مع انكلترا ثم غير رأيه بهذا الصدد فيما بعد، وهو لم يتردد في البداية عن التعاون مع الرأسماليين الامريكان وحماية مصالحهم في المانيا كما نوضح ذلك فيما بعد.

وجدت افكار "كفاحي" صدى واسعا بين اوساط المانية مختلفة جمعها التعصب الاعمى وحب الانتقام والغرور الاجوف وكذلك الرغبة من منطلقات متناقضة في تجربة طريق جديد لحل المشاكل المستعصية التي كانت تعاني منها، الامر الذي ساعد كثيرا على مجئ الحزب النازي الى الحكم.

مجيء حزب النازي الى الحكم:

كان تسنم السلطة بكل السبل (التآمر، الارهاب، الخداع، الدعاية وما شابه) يؤلف الهدف الرئيس والغاية الاسمى بالنسبة للحزب النازي. فلم تمر على تأليف الحزب سوى أربع سنوات ونيف حينما دبر هتلر بالتعاون مع عدد من كبار العسكريين السابقين في تشرين الثاني عام ١٩٢٣ مؤامرة لقلب نظام الحكم اعتقل على اثر فشلها وحكم لمدة خمسة اعوام كما منع حزبه عن مزاولة النشاط السياسي. ولكن لم يبق هتلر اكثر من سنة واحدة في السجن قضاها في تأليف القسم الاكبر من كتاب "كفاحي".

بعد خروجه من السجن لجأ هتلر الى اسلوب اخر يضمن له القفز الى دست الحكم، فقد حاول جذب الجماهير الالمانية الى صفوف حزبه وكسب اصواتها في

الانتخابات بهدف ضمان مركز قوى له في الرايخشتاغ. وفعلا تمكـــن هتلـــر ان يحقق نجاحا مشهودا في هذا المجال. فبينما لم يحصل النازي في انتخابـــات عـــام ١٩٢٨ على اصوات حتى مليون ناخب نراه يجمع في انتخابات عام ١٩٣٠ اكثر من ٦ ملايين صوتا وفي انتخابات ١٩٣٢ يجمع ١٣ مليون صـــوت، اي بزيـــادة تقدر باكثر من ١٣٠٠ بالمئة قياسا مع اربع سنوات مضت على ذلك التاريخ.

هكذا تحول الحزب النازي الى قوة سياسية كبيرة في البلاد. ولكن رغم ذلـــك لو لم تتظافر مجموعة من العوامل لما تمكن النازيون من تبؤ السلطة فـــي اوائـــل العام ١٩٣٣، ذلك لان ميزان القوى لم يكن يميل كليا لصالحهم بحيث يســـتطيعون الاستيلاء على السلطة والتفرد بها.

العوامل التي ساعدت النازيين على تسلم السلطة:

يمكن تلخيص العوامل التي مكنت الحزب النازي على تسلم السلطة في النقاط الرئيسة التالية:

١- منذ الايام الاولى لتأسيسه رفع الحزب النـــازي شـــعارات كانـــت تهـــز عواطف الالمان بعمق، من قبيل "الموت لفيرساي والاضطهاد القومي" و "من اجل المانيا قوية، من اجل امبراطورية جديدة " الى جانب الشعارات والافكار الاخـــرى التي سبقت الاشارة اليها عند الكلام عن حياة هتلر وتأسيس الحزب.

٢- لا ينكر ان الافكار الحزب النازي كانت تغرى اوساطا اجتماعية مختلفة، ولكن ذلك وحده ما كان يكفي لجذب الناس افواجا الى صفوفه، فأن الحزب النازي عرف ايضا كيف يستغل الثغرات والظروف لكسب الناس الى جانبه بسرعة وعلى نطاق واسع. ففي سنوات الازمة الاقتصادية، مثلا، وعد النازيون العـــاطلين عـــن العمل بايجاد الاعمال لهم ووعدوا العاملين برفع الاجور وتحسين ظروف العمـــل،

وصغار الفلاحين بتخفيض الريع والغاء الضرائب ومنح الضمان، وصغار التجار والحرفيين بتخفيض الضرائب ومنح القروض لهم بفوائد قليلة وحل المخازن الكبيرة التي تحولت الى عبء عليهم، ووعدوا الضباط السابقين بتأسيس جيش قوى واعادة تسليح البلاد، وكانوا يغرون البورجوازيين بأتصالاتهم المستمرة بهم وبمواقفهم من القوى الراديكالية وبوعيدهم للثورة الاشتراكية. وكسب النازيون كذلك المثقفين الذين كانوا يعانون في سنوات الازمة من حالة يأس وتشاؤم وذلك بالتأكيد على حل مشاكلهم والنضال بأخلاص من اجل ثقافة المانية متفوقة. وهكذا تمكن النازيون من كسب فئات اجتماعية متناقضة، فأن دعاتهم كانوا يجيدون الف لغة ولغة فيخاطبون كل فئة باللغة التي تفهمها، قاطعين لها وعدوا متباينة. فأنهم لم يترددوا في اعتبار حزبهم عماليا واشتراكيا في نفس الوقت الذي كان زعيم الحزب يؤكد على حماية مصالح الرأسماليين في مناسبات مختلفة.

٣- اثر ضعف القيادة العمالية وانشقاق الطبقة العاملة على نفسها والموقف المساوم للاشتراكيين الديمقراطيين على الحركة الثورية في البلاد بحيث انها عجزت عن وقف التيار النازي الجارف.

٤- فشل الاحزاب البورجوازية التقليدية في ضمان مصالح الرأسمالية كما يجب والقضاء نهائيا على المد الثوري الذي اجتاح المانيا مرات عديدة وهدد وجود كل النظام الرأسمالي الالماني في الصميم. ومن الجدير بالذكر ان هذه الاحزاب بدأت تفقد رصيدها الجماهيري في اواخر العشرينات بشكل ملموس، الامر الذي انعكس واضحا في انخفاض عدد المصوتين لمرشيحها في الانتخابات التي سبقت مجيء النازيين الى الحكم. وهكذا تحول الحزب النازي الى منفذ يرنوا اليه اليمين والوسط الى جانب فئات اجتماعية دنيا سئمت من عجز الاخرين في حل مشاكلها التي اخذت بخناقها.

٥- منذ بداية العشرينات كل الحزب النازي يتلقى مساعدات ضخمة من اوساط احتكارية المانية مثل مجموعة تيسين واحتكاريي روهر وغيرهم، ومن الشركات الرأسمالية الاجنبية والامريكية منها بشكل خاص، من قبيل شركة فورد وغيرها. وقد مكنت هذه المساعدات الحزب النازي على تنظيم دعاية واسعة لافكاره وتأسيس منظمات ارهابية استهدف منها السيطرة على الشارع مثل الـ . S. S اي فصائل الامن او فرق المقاومة، والـ .S. A اي فصائل الصدام او فرق الهجوم.

المانيا في ظل الحكم النازي:

في ٣٠ كانون الثاني عام ١٩٣٣ كلف الرئيس هند نبرغ هتلر بتأليف حكومة جديدة لتبدأ بذلك صفحة حالكة في تأريخ المانيا سرعان ما انعكست اثارها على البشرية بأسرها. فخلال الاسابيع الستة الاولى فقط من حكمهم القى النازيون بحوالي ١٨ الف شخص في السجون وسرعان ما ارتفع هذا الرقم الى عشرات الالوف زج بقسم كبير منهم في معسكرات خاصة شيدت في مناطق مختلفة من البلاد، وكان يوجد بين المعتلقين افضل المفكرين والكتاب والادباء وغيرهم من الوطنيين الالمان الذين لقي الالاف منهم مصرعهم.

ومن اجل توسيع دائرة ارهابهم وتشديد قبضتهم على مقاليد الحكم لم يكتف النازيون بمنظماتهم السابقة، بل قاموا ايضا بتأسيس الكوستابو (البوليس السري) الذي تعدى رجاله كل القيم والحدود الانسانية، وخاصة بعد أن صدر قانون في العام ١٩٣٥ يعفيهم من الملاحقة القانونية بسبب اعمالهم في المستقبل. ومن الجدير بالذكر ان رجال الكوستابو بدأوا يصولون ويجولون لا داخل المانيا حسب بل وحتى في الخارج كذلك.

وعلى الغرار نفسه انتهى كل مظهر من مظاهر الديمقراطية الليبرالية في الحكم لمجرد انتقاله الى ايدي النازيين الذين لم يتحملوا دستور فايمار فالغوه وحولوا الرايخشتاغ الى مؤسسة ميتة لا مهمة لها سوى تثنية اراء هتلر وصياغاتها في قوالب قانونية جديدة. ولم يمر عام واحد على مجيء هتلر الى السلطة حينما تقرر نظام الحزب الواحد في المانيا وذلك بأصدار قانون "ضمان وحده الحزب والدولة" الذي اعتبر النازي" المثل الاعلى لحمل فكرة الدولة". وتحول رئيس الدولة الى اقل من مجرد رمز، وعندما توفي هند نبرغ في آب ١٩٣٤ لم ينتخب او يعين رئيس جديد مكانه، فقد اختار هتلر لنفسه لقب الفيورر اي الزعيم الاعلى.

اقام النازيون جهازا اداريا بيروقراطيا ضخما حاولوا ربط افراده بأنفسهم بخيوط مختلفة، فخلال سنوات قليلة من حكمهم ارتفع عدد الموظفين من ٢,٧ مليون شخص الى ٤ ملايين تحولوا الى عبء ثقيل على كاهل خزينة الدولة وعلى الناس البسطاء الذين بدأوا يعانون الامرين من العناصر المستهترة الكثيرة في هذا الجهاز المهم.

أولى النازيون الدعاية جانبا كبيرا من اهتمامهم. فلم يمض سوى شهرين على مجيء هتلر الى الحكم عندما احدث وزارة جديدة للدعاية سيطرت على النشاطات الثقافية في البلاد، ولاسيما على الصحافة، ووضع على رأسها كوبلز الذي كان احد اقرب اعوانه. مارس كوبلز ومؤسسات وزارته تعاملا غريبا مع الفكر، فكان " فلسفة" الوزير تتلخص في أن " أكذب، ثم اكذب حتى تصدق كذبك بنفسك". وعلى ضوء ذلك لم يتردد النازيون في تزوير حقائق تأريخ بلادهم، بل والتاريخ الانساني بحيث ان المسيح غدا تيوتونيا اصيلا عرقا ودما وفكرا، واصبح دانتي نموذجا للتفوق الارى. وامتدت يد التزوير النازي الى العلوم الاخرى ايضا

كالجغرافية وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا وغيرها. ولتحقيق غرضهم على الوجه الاكمل اصدر النازيون مئات الكتب المشوهة للحقائق ونظموا "احتفالات جماهيرية "في الساحات والميادين لحرق الالوف من الكتب في مختلـف حقـول المعرفـة الانسانية.

وسرعان ما بينت الحقائق المادية الملموسة لصالح من كان مجيء النـازيين الى السلطة. فخلال ١٠٠ يوم من حكمهم قضى الهتلريون عمليا على كل ما حققته الشغيلة الالمانية من مكاسب على مدى ١٠٠ عام. فقد تحولت النقابات العماليـة، مثلا، الى مجرد بيادق يحركها النازيون كما يشاؤون. ومع انهـا لا ينكـر بـأن التطور الصناعي في ظل النظام الهتلري ادى الى تقليص عدد العاطلين عن العمل خاصة بالقياس مع ما كان عليه الامر في سنوات الازمة الاقتصادية العالميـة، الا ان النازية عجزت عن حل هذه المشكلة جذريا، ففي العام ١٩٣٧ كـان لايـزال يوجد في المانيا ملا يقل عن ٢,٧ مليون عاطل عـن العمـل (تعتـرف الوثـائق الهتلرية بـ ٩٠٠ الف عاطل فقط).

ومقابل ذلك تشير الحقائق الى ان الرأسمال الاحتكاري الالماني ثبت مواقـع اقدامه في ظل النازي بشكل لم يسبق له مثيل، فقد غدا هذا الرأسمال يسيطر على ٧٠% من الانتاج الصناعي، بينما تعرض المنتجون الصغار الى ضغط واضـح ظهرت بوادره خلال الاشهر الاولى من حكم هتلر حينما تقرر في تمـوز ١٩٣٣ الغاء جميع الشركات المساهمة التي يقل رأسمالها عن ١٠٠ الف مارك ومنع اقامة اخرى جديدة برأسمال اقل من ٥٠٠ ألف مارك. ولاشك في ان الارباح الخياليـة التي بدأ كبار الاحتكاريين الالمان يجنونها برعاية النازيين يعتبر مؤشرا مهما اخر لتوضيح ابعاد الواقع الذي نحن بصدده. فأن الارباح الصافية لمؤسسة كروب مثلا ارتفعت بمقدار حوالي ٣٠٠% خلال اربع سنوات فقط من الحكم النـازي- مـن

١١٨ مليون مارك عام ١٩٣٣ الى ٣١٧ مليون عام ١٩٣٧. وفي العام ١٩٤٢ تبين صراحة ان كروب وعددا اخر من كبار الرأسماليين الالمان هم اعضاء في لجنة نازية عليا.

وعلى الرغم من الظروف العصيبة لم يتخل الديمقراطيون عن النضال المعادي للهتلرية، الامر الذي عبر عن ذاته بأشكال مختلفة. فتحولت السجون ومعسكرات الاعتقال المكتضة بخيرة عناصر الشعب الالماني الى احد رموز ذلك النضال الثابت كما انتقلت اعداد كبيرة من اخلص الالمان الى خارج البلاد كأسلوب نضال سلبي واحتجاج ضد الحكم الهتلري المقيت، وكان يوجد بين هؤلاء اعلام اطبقت شهرتهم على العالم بأسره، منهم العالم الفيزياوي الكبير البرت انشتين الذي لم يكتف بترك وطنه حسب بل تنازل ايضا عن جنسيته الالمانية احتجاجا على ما كان يقترفه النازيون في اديم بلاده، ومنهم كذلك الكاتب المسرحي العالمي المعروف بريخت والكاتب القصصي ستيفان زيفايغ.

وفي الداخل كل العمال يضطرون الى مجابهة الموت بلجوئهم الى الاضراب وحتى التخريب تعبيرا عن استيائهم. ففي شهري تموز وآب عام ١٩٣٥ فقط تم تسجيل ١٣ اضرابا عماليا و ٣٩ سابوتاجا (اعمال تخريب الالات في المؤسسات الصناعية). وتحولت النشرات السرية الى مظهر آخر من مظاهر التعبير عن استياء الوطنيين الالمان، فخلال عام ١٩٣٥ وحده عثرت اجهزة الكوستابو فقط على مليون و ٦٧٠ الف نسخة من هذه المنشورات، وفي العام الذي تلاه على مليون و ٦٤٣ الف نسخة اخرى.

سياسة هتلر الخارجية:

كانت سياسة هتلر الخارجية تؤلف الوجه الاخر لعملة واحدة. فان السياسة الخارجية لالمانيا النازية كانت تستهدف تحقيق الزعامة على اوربا والسيادة على العالم. ومن المهم ان نشير بهذا الصدد الى حقيقة اساسية هي ان موقف الدول الرأسمالية الكبرى ساعد هتلر كثيرا لكي يتمكن من ان يخطو خطوات خطيرة نحو تحقيق اهدافه على الصعيد الخارجي، ذلك لان تلك الدول كانت تعتقد بأنها تستطيع تحويل المانيا الهتلرية الى رأس حربه ضد الاشتراكية المتمثلة في الاتحاد السوفيتي وضد الحركات الثورية التي ظل خطرها يهدد مصالحها في منطاق حساسة من العالم، ولاسيما في القارة الاوربية نفسها.

شرع ادولف هتلر بتنفيذ سياسته الخارجية بشكل متواز تقريبا مع سياسته الداخلية، فلم يمر حتى عام واحد على مجيئه الى الحكم عندما قرر خروج المانيا من عصبة الامم(في اواخر عام ١٩٣٣) كمنظمة دولية تحول بشكل او بآخر، على الاقل من الوجهة الادبية، دون تصرف النازيين بحرية مطلقة. كما ان اسمها كان مرتبطا بمعاهدة فيرساي بصورة مباشرة، فضلا عن ان الكلمة الحاسمة فيها كانت للانكليز والفرنسيين، الامر الذي لم يكن بوسع النازيين ان يرتضوه في كل الاحوال. وقد جرى الانسحاب الالماني من العصبة وكأن شيئا لم يكن، بل ان الاوساط الامريكية المتنفذة لم تخف ارتياحها من خطوة الهتلريين تلك.

تطلب تحقيق اهداف السياسة الخارجية للنازيين التهيئة لخوض حرب جديدة اعتبروها امرا حتميا منذ ان ظهروا الى الوجود فوق المسرح السياسي لالمانيا. وقد باشر الهتلريون باتخاذ خطوات سريعة وثابتة بهذا الاتجاه من شأن بعض الارقام القاء الضوء الكافي على ابعادها. ففي العام ١٩٣٢، اي قبل تسلم الهتلريين

للسلطة كانت المصاريف العسكرية لالمانيا تؤلف مليار مارك فقط، اي حوالي ٢% من الدخل القومي، واذا بهذا الرقم يرتفع خلال ثلاث سنوات فقط من حكم النازيين الى ١٠ مليارات مارك، اي بمقدار عشر مرات، بحيث اصبح يؤلف ١٧% من الدخل القومي. وعشية الحرب العالمية الثانية قفز الرقم الى ٣٧ مليار الفت ٣٤% من الدخل القومي.

وكان من الطبيعي ان تتطور قدرة المانيا العسكرية بنفس الزخم. ففي العام ١٩٣٢ لم تتجاوز القوات البرية الالمانية ١٠ فرق، بينما انها بلغت ٣٠ فرقة عام ١٩٣٥، وفي العام ١٩٣٨ ارتفع الرقم الى ٥١ فرقة مدربة أحسن تدريب ومزودة بافضل الاسلحة. وفي العام ١٩٣١ لم تمتلك المانيا سوى ١٣ طائرة مدنية بينما تجاوز عدد الطائرات الالمانية في العام ١٩٣٥ اكثر من ثلاثة الاف طائرة اكثر من ٢٥٠٠ منها كانت حربية.

ولم تلعب الدول الرأسمالية الكبرى الدور الاخير في تهيئة المستلزمات الضرورية لمثل هذا التطور العسكري الالماني العارم. فقبل كل شيء ان هذه الدول كان يحق لها بموجب بنود معاهدة فيرساي ان تتدخل بشكل فعال لتحول دون احياء العسكرية الالمانية ولكن الدول المذكورة لم تكتف باتخاذ الموقف المقترح ازاء ما كان يجري في هذا الميدان بل انها مدت يد المساعدة المباشرة للنازيين ليتمكنوا من تحقيق برامجهم العسكرية. فأن المانيا كانت تستورد جانبا اساسيا من حاجتها الى المواد الخام السترتيجية من انكلترا وفرنسا ومستعمراتهما ومن الولايات المتحدة الامريكية. ولم تكتف الاخيرة بتلبية قسم كبير من حاجات المانيا الى المواد الخام، بل انها اقدمت على خطوة خطيرة في بابها حينما قامت بتزويدها، فضلا عن ذلك، بمحركات الطائرات. وفي العام ١٩٣٤ خطا الانكليز خطوة لم تختلف من حيث نتائجها عن الخطوة الامريكية وذلك عندما هبوا

لمساعدة النازيين للحصول على جانب مما يحتاجون من العملة الصعبة ليشتروا بها مواد خام ستراتيجية لمصانعهم. ففي السنة المذكورة ابرمت انكلترا اتفاقية تجارية مع المانيا تنص بنودها على ان تشتري انكلترا بضائع المانية بقيمة ١٠٠ باون مقابل كل ٥٥ باونا من مبيعاتها لالمانيا، مما اعطى الاخيرة امكانية استخدام مالا يقل عن ١٠٠ مليون باون من العملة الصعبة لشراء مواد خام ستراتيجية في العام المذكور.

ومن شأن الاتفاقية البحرية التي وقعتها انكلترا مع المانيا في حزيران عام ١٩٣٥ ان تلقي الضوء اكثر على ما نحن بصدده. فأن انكلترا التي كانت حريصة كل الحرص على الاحتفاظ بتفوقها البحري منحت المانيا بموجب بنود الاتفاقية الجديدة الحق في ان تمتلك اسطولا للسفن تعادل طاقته ٣٥% من طاقة الاسطول البريطاني مع اسطول للغواصات تعادل طاقته ٤٥% من طاقة الغواصات البريطانية، وهذا كان يعني- فيما يعني- ان القوة البحرية الالمانية اصبحت بمستوى القوة البحرية الفرنسية. ولكن الاخطر من ذلك هو ان الاتفاقية اعطت المانيا حق تطوير اسطولها بمقدار خمسة اضعاف وغواصاتها بنسبة اكبر من ذلك اذا ما " ظهرت حالات خاصة"، مما كان يقصد به صراحة الحرب بين المانيا والاتحاد السوفيتي. وهذا يعني ان المجال اصبح مفتوحا امام المانيا لتطوير صنف الغواصات في اسطولها الحربي الى مستوى نفس الصنف في الاسطول البريطاني. وهكذا ازالت جميع العوائق امام احياء البحرية الالمانية في بحر الشمال ولاسيما في بحر البلطيق مما يبين الاهداف الخفية للانكليز من هذه الاتفاقية.

باشرت المانيا الهتلري بتطبيق اهدافها العسكرية خطوة بعد اخرى، فان القوات الالمانية دخلت منطقة الراين المنزوعة السلاح في بداية اذار عام ١٩٣٦

دونما ان تتحرك الدول الكبرى من جانبها على الاقل تمسكا ببنود معاهدة فيرساي. ومن المهم بهذا الصدد ان نشير الى ان قوة فرنسا المجاورة كانت تفوق يومـذاك قوة المانيا العسكرية فكان بامكانها ردعها، حتى ان القوات الالمانية التي دخلت الراين كان لديها اوامر صريحة بالانسحاب الفوري في حالـة تحـرك القـوات الفرنسية ضدها.

ولم تتردد المانيا عن التدخل العسكري في اسبانيا بهدف مساعدة المتمـردين هناك. ففي اسبانيا تمكنت الحركة الثورية من فرض نفسها بشكل حاسم منذ العـام ١٩٣١ حيث اعلنت في البلاد جمهورية ديمقراطية لم ترض القوى الرجعية فـي الداخل والخارج، فتم تدبير مؤامرة لقلب الجمهورية ادت الى اندلاع نيران حـرب اهلية اعتبارا من اواسط العام ١٩٣٦، ولم تتوان القوات الالمانية والايطالية عـن التدخل في اسبانيا الى جانب المتمردين اعتبارا من تموز ١٩٣٦. وقد بلـغ عـدد القوات الالمانية والايطالية والمجندين المغاربة حوالي ٣٠٠ الف شخص استخدموا على مدى ٣٢ شهرا كل ما توفر لديهم من ادوات القمع للقضـاء علـى الحركـة الثورية الاسبانية.

هيأت الاوضاع نفسها الظروف لاقدام المانيا على احتلال النمسا وضمها الى المانيا في اذار عام ١٩٣٨ ومن ثم احتلال جيكوسلوفاكيا في اذار من العام التالي.

تؤلف توجهات المانيا لعقد الاحلاف الدولية حلقة مهمة في سياستها الخارجية التي كانت ترمي التهيئة لحرب عالمية جديدة. ففي تشرين الاول عام ١٩٣٦ تمت الصياغة القانونية لمحو (روما- برلين) الذي ظهر الى الوجود فعلا قبل ذلك، وقد اتفقت الدولتان الفاشيتان على تحديد مناطق التغلغل الاقتصادي بالنسبة لهمـا فـي جنوب شرقي اوربا. وبعد مرور شهر واحد عقدت المانيا اتفاقيـة مشـابهة مـع

اليابان نصت صراحة على محاربة الحركات الثورية والقوى التقدمية في الــداخل والخارج، وتضمنت الاتفاقية ملحقا سريا اكد على ضرورة تعاون الدولتين ضــد الاتحاد السوفيتي. ولم يمض اكثر من عام واحد عندما انضمت ايطاليا بدورها الى الحلف الالماني – الياباني.

وهكذا هيأت سياسة المانيا الهتلرية الطريق الى الحرب العالمية التي تتحمــل هي وزرها اكثر من غيرها. ومن المفيد ان نشير الى ان النازيين كانوا يؤكــدون عشية الحرب وفي كل المناسبات ان الحرب " تجلب للجميع العمل والخبز".

ايطاليا

مقدمة عامة:

يحتل تأريخ ايطاليا الحافل مكانه بارزة في تأريخ العالم منذ العصور القديمة ومروراً بعصر النهضة وعهد الحركات القومية على صعيد القارة الاوربية وحتى وقتنا الحاضر. ويستحق تاريخ ايطاليا المعاصر تأكيدا خاصا لا لان هــذه الــبلاد تؤلف واحدة من الدول الكبرى حسب، بل كذلك لان اوساطها الحاكمة تتحمل جانبا غير قليل من مسؤولية اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية، الامــر الــذي تعــود جذوره الاساسية الى فترة ما بعد الحرب العالمية الاولــى التــي شــهدت مجــئ الفاشيين الى الحكم.

ايطاليا عشية الحكم الفاشي:

لاحظنا من خلال بحثنا عن الحرب العالمية الاولى العوامــل التــي دفعــت بايطاليا الى ربط مصيرها بالحلفاء في تلك الحرب، ولم يات ذلك عبثا، ولا بمعزل عن التطورات التاريخية والاقتصادية والاجتماعية الداخلية في هذا البلــد. ولقــد

تركت احداث الحرب العالمية الاولى ونتائجها اثارا كبيرة على مسار هذه التطورات باتجاه تعميق التناقضات الداخلية في ايطاليا وبشكل جعل من تأريخها بين الحربين العالميتين صورة مصغرة لتاريخ المانيا الى حد كبير.

فقبل كل شيء ان الحرب تركت لايطاليا اكثر من مليون شخص مشوه الى جانب حوالي ٧٠٠ الف اخرين لقوا مصرعهم في ميادين القتال، كما سببت عملياتها في تدمير المناطق الشمالية الشرقية المحاذية للحدود النمساوية التي شهدت في سنوات الحرب معارك ضارية بين القوات الايطالية والنمساوية، وفقدت ايطاليا ايضا ما لايقل عن ٦٠% من سفنها التجارية.

ساعدت ظروف الحرب على تطور بعض القطاعات الصناعية الايطالية من قبيل التعدين والمنتجات الكيمياوية بحيث ان ايطاليا تحولت الى بلد زراعي- صناعي بعد ان كانت قبل الحرب بلدا زراعيا بالاساس. ولكن بعد ان انتهت الحرب، ولاسباب عديدة فقدت البضائع الصناعية الايطالية رواجها السابق مما ادى الى ان تعاني البلاد من ازمة اقتصادية فعلية. ادى كل ذلك الى تعميق التناقضات الاجتماعية في ايطاليا بشكل ملموس الامر الذي وجد له انعكاسات واضحة في حياتها السياسية التي تميزت بعد الحرب بسمات جديدة اهمها التحرك الثوري العارم للشغيلة ورواج الفكر الاشتراكي بين قطاعات واسعة من الشعب الايطالي ولاسيما بين الفئات الاجتماعية الكادحة والمثقفين الثوريين.

اما بالنسبة لتحرك الشغيلة الايطالية في السنوات الاولى التي اتبعت الحرب فيكفي ان نقول ان عدد الاضرابات العمالية في العام ١٩١٩ بلغ حوالي ١٨٠٠ اضرابا وفي العام ١٩٢٠ اكثر من ٢٠٠٠ اضراب وفي شهري آب وايلول من

السنة نفسها سيطر حوالي ٦٠٠ الف عامل ايطالي على مؤسسات التعـدين فـي البلاد، مما اجبر الرأسماليين على تلبية جانب من مطاليبهم.

وعلى الغرار نفسه تتوفر ادلة كثيرة تبين مدى رواج الفكر الاشتراكي بـين الشعب الايطالي بعد الحرب العالمية الاولى مباشرة. ففي اول انتخابات جرت في البلاد بعد الحرب في العام ١٩١٩ حصل الحزب الاشتراكي الايطالي على ثلاثـة اضعاف الاصوات التي حصل عليها في اخر انتخابات جرت قبل الحرب في العام ١٩١٣. وفي العام ١٩٢٠ بلغ عدد اعضاء الحزب المذكور اكثر من ٢٠٠ الـف شخص فغدا يؤلف قوة سياسية مؤثرة سواء داخل البرلمان او خارجه، خاصة بعد ان اصبح يتمتع بـ ١٥٦ مقعدا في مجلس النواب.

وبالطبع لم يرض الرأسماليين الايطاليون عن هذه الاوضاع التي كانت تهـدد مصالحهم في الصميم، فحاولوا وضع حد لها باسرع ما يمكن، ولاسـيما بعـد ان تحول عدم الاستقرار الى واحدة من السمات البارزة للحياة السياسية الايطالية فـي السنوات الاولى التي اتبعت الحرب، ولم يكن مجرد صدفة ان شهدت البلاد تغيير خمسة رؤساء للوزراء خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٩١٩ و ١٩٣٢. وفضـلا عن ذلك فأن الرأسمالية الايطالية لم تكن مرتاحة اصلا من نتائج الحرب العالميـة الاولى التي لم تضمن لها سوى جزء محدود من طموحاتها التي دخلـت ايطاليـا الحرب الى جانب الحلفاء بأمل تحقيقها. وهكذا اصبحت الرأسمالية الايطالية ترنو الى ظهور حكومة قوية تستطيع ضمان مصـالحها علـى الصـعيدين الـداخلي والخارجي، مما تحول الى عامل اساس مهد الطريق امام مجيء الحزب الفاشـي بزعامة موسوليني الى السلطة.

موسوليني والحزب الفاشي الايطالي :

ينتمي بنيتو موسوليني (١٨٨٢-١٩٤٥) الى عائلة متوسطة، فقد كان والده حرفيا (حدادا) وامه معلمه، زاول التدريس في بداية حياته العملية. استهوته السياسة في شرخ شبابه فأنضم بحماس الى صفوف الحركة الاشتراكية وسرعان ما اصبح واحدا من قادة الاتجاه الثوري المتطرف في الحزب الاشتراكي الايطالي الذي اصبح موسوليني رئيس تحرير جريدته المركزية " آفانتي" (الى امام) في الفترة الواقعة بين عامي ١٩١٢ و ١٩١٤.

عرف موسوليني بالذكاء وقوة التأثير والبلاغة. آمن بالفلسفة الميكافيللية بعمق حتى انه كرس رسالة علمية لدراستها نال عنها شهادة الماجستير . يقول المؤرخ البريطاني هربرت فيشر عن موسوليني انه " برز كزعيم مغامر من مغامري الحرب، يبيع نفسه لاي حزب، رجل متأهب ناري المزاج، جلي الفكر، لا ينكص عن ارتكاب اي عنف او قسوة، واستاذ مطبوع على افانين الختل والمؤامرات".

وفعلا هكذا كان موسوليني. فما ان اندلعت نيران الحرب العالمية الاولى حتى تحول الى داعية حرب متطرف فطالب انضمام بلاده الى جانب الحلفاء بحرارة مما حدا بالحزب الاشتراكي الى فصله من الحزب.

في اذار عام ١٩١٩ الف موسوليني من عدد من المحاربين القدماء اول تنظيم سياسي فاشي في العالم بمدينة ميلان دخل التأريخ باسم الحزب الفاشي الذي صرف اعضاؤه بذوي القمصان السود. وقد قام الحزب على اسس شوفينية متطرفة وعلى معاداة الافكار الحرة، بما في ذلك منح النساء حق الانتخاب، وآمن بتفرد الزعيم بمقاليد الحكم.

جذب الحزب الفاشي الى صفوفه في البداية عــددا كبيــرا مــن المغــامرين والشباب المتطرف والعسكريين السابقين بسبب اهمال امرهم. والف الحزب فرقــا مسلحة ومنظمات فاشية زاولت منذ ربيع عام ١٩٢١ اعمالا ارهابية منظمة ضــد المؤسسات العمالية وجميع القوى الديمقراطية في البلاد، وهي لم تســتنكف مــن اللجؤ الى أحط الاساليب من المخالفين لها فكريا بدءا بفرض تناول جرعات كبيرة من زيت الخروع عليهم وانتهاء بتصفيتهم جسديا باساليب في غاية الوحشية. امــا على صعيد السياسة الخارجية فقد دعا زعماء الحزب الفاشي منذ البداية الى اقامة "ايطاليا الكبرى" تكون جديرة –حسب رايهم– لحمــل رايــة الرومــان القــدماء. ولاضفاء صبغة مثالية جذابة على شعارهم هذا لم يتردد الفاشــيون فــي تزويــر حقائق تاريخ الماضي.

وقف جانب كبير من الرأسماليين الايطاليين الى جانب الحزب الفاشــي منــذ تأسيسه، فأبدوا له مساعدات مادية ومعنوية كبيرة الامر الذي انعكس بشكل خاص في موقف " جمعية الصناعيين الايطاليين" التي اعلنت تأييدها المطلق لموســوليني في نفس اليوم الذي تسلم فيه مقاليد الحكم، كما لعبت الجمعية بعد ذلك دوراً مباشرا في توجيه سياسة الحزب الفاشي الذي لم يعترض اكثر الرأسماليين تحفظا يومذاك على انتقال السلطة اليه.

مجيء موسوليني الى الحكم:

لم تمر سوى فترة وجيزة على نشاط الفاشيين الجم عندما ادرك موســوليني بأن الظروف مواتية لاشتراكهم في السلطة. ففي ٢٤ تشــرين الاول عــام ١٩٢٢ عندما كان موتمر الحزب الفاشي منعقدا بمدينة نابولي طالب موســوليني الملــك فكتور عمانوئيل الثالث باشراك حزبه في السلطة. ومن اجل فرض ارادته طلــب

موسوليني من الفاشيين القيام بتنظيم مسيرة مسلحة الى روما بوشر بتنفيـذها فـي ٣٠ تشرين الاول والتي دخلت التاريخ بأسم " المسيرة الـى رومـا" بلـغ عـدد المشتركين فيها حوالي ٤٠ الف من ذوي القمصان السود المسلحين. وقد رفـض الملك من جانبه منح رئيس الوزراء الصلاحيات الاستثنائية التي طالب بها التفريق الفاشيين مما أجبره على تقديم استقالته، فأبرق الملك في الحال الى موسوليني الذي كان يراقب الاحداث بالقرب من الحدود السويسرية يطلب منـه الحضـور الـى العاصمة ليأخذ على عاتقه تأليف الوزارة الجديدة. وبهذا الاسلوب قفز موسـوليني الى دست الحكم في ٣١ تشرين الاول عام ١٩٢٢ لتبدأ منذ ذلـك اليـوم صـفحة جديدة مليئة بالاحداث في تاريخ ايطاليا المعاصر.

تظافرت مجموعة عوامل فيما بينها ساعدت علـى تسـهيل مسـألة تسـنم موسوليني لاعلى سلطة تنفيذية في البلاد من ان جل مطاليبه في البداية تركـزت على منح حزبه خمس حقئتب وزارية فقط. فقبل كل شيء ان الحركـة الثوريـة الايطالية بالرغم من زخمها العارم كانت تفتقر يومذاك الى قيادة محنكة وتعاني من الانشقاق في صفوفها ومن سيادة الافكار الاصلاحية بين اجنحتها المنطقـة. ولـم يتخذ الحزب الاشتراكي الايطالي المتنفذ موقفا حازما من الحزب الفاشي بـالرغم من تجربته القريبة مع مؤسس هذا الحزب. وقد بلغ موقف الحـزب الاشـتراكي المتخاذل تجاه الحزب الفاشي حد ان تنظيمه العمالي أبـرم معـه " ميثـاق عـدم الاعتداء" عشية مجئ موسوليني الـى الحكـم. كمـا صـوت معظـم النـواب البورجوازيين في البرلمان الى جانب حكومة موسوليني دون ادنى تردد. ولاينكر ان العديد من العناصر المخلصة انخدعوا بشعارات الحزب الفاشـي وادعـاءات موسوليني الذي لم يكن في وسعه ان يكشف القناع كليا عن وجهه الحقيقـي فـي

البداية على الاقل، الامر الذي اعنكس بشكل واضح في طبيعة الاولى من الحكم الفاشي لايطاليا.

المرحلة الاولى من الحكم الفاشي:

بسبب ظروف ايطاليا الخاصة ونتيجة لضعف الحزب الفاشي النسبي لم يستطع موسوليني ان يوجه مثل نظيره هتلر ضربات سريعة ومباشرة الى القوى السياسية الاخرى في البلاد، فأبقى مضطروا على الحياة البرلمانية والاحزاب البرجوازية الليبرالية وبعض المظاهر الديمقراطية في البلاد لغاية العام ١٩٢٦. ولكن حتى خلال هذه السنوات من المساومة السياسية الاضطرارية عمل موسوليني بنشاط من اجل تهيئة الطريق لانفراد حزبه بالحكم. وكان من الطبيعي ان يبدأ بضرب اكثر العناصر ثورية وباسلوب من شأنه ارضاء الاحتكاريين الطليان. فبعد مجيئه الى الحكم مباشرة الف موسوليني البوليس السري الذي كان يشبه الكوستابو من جميع الاوجه، كما حول ميليشيا الامن القومي، التي ضمت المتطوعين الى اداة فعالة لضرب المعارضة.

وهكذا لم يمض اكثر من شهر ونصف على مجيء موسوليني الى الحكم عندما نظم الفاشيون مذبحة عمالية في مدينة تورين حيث قاموا في ليلة واحدة بذبح عشرين عاملا امام زوجاتهم واطفالهم. وتعرض عمال المدن الاخرى الى ملاحقة الفاشيين الذين كانوا يلجأون الى جميع السبل للحيلولة دون قيام اضرابات عمالية جديدة في ظل حكمهم.

وبالمقابل اتخذ موسوليني في الفترة نفسها مجموعة من الاجراءات التي جاءت في توافق كلي من مصلحة كبار الرأسماليين من قبيل الغاء اللجنة الخاصة التي الفت تحت ضغط الجماهير للنظر في الارباح غير المشروعة التي حققها

هؤلاء في سنوات الحرب وتخفيض الضرائب المباشرة ورفع غير المباشر منهـا وتقليص اجور الشغيلة وما شابه. وقد هيأت هذه الامور، مـع عوامـل اخـرى، ظروفاً انسب لتطور الصناعة والتجارة الايطاليين بعد مجئ الفاشيين الى الحكـم. فخلال عامين فقط (١٩٢٤-١٩٢٥) ارتفع انتاج الطاقة الكهربائية بمقـدار ٤٣% والصلب بمقدار ٥٥% وازدادت الصادرات بمقدار ٦٥%، وبفضل ذلك انخفـض عدد العاطلين عن العمل خلال الفترة نفسها من ٢٤٠ الف شخص الى ١٠٠ الـف فقط. ولكن بالرغم من ذلك تدنى مستوى معيشة الشغيلة وذلك جراء ارتفاع اسعار الحاجيات الضرورية وانخفاض القوة الشرائية لليرة الايطالية في تلك الفترة بنسبة ١٤%.

بالرغم من جميع اساليبه الديماغوغية وشعاراته البراقة فشل الحزب الفاشـي في كسب قطاع واسع من الشعب الايطالي. ففي انتخابات نيسان ١٩٢٤ حصـلت المعارضة على اصوات ٢,٥ مليون شخص من اصـل ٧ ملايـين و٢٠٠ الـف شخص اشتركوا في التصويت علما بان اوساطا بورجوازية مؤثرة قد تحالفت في هذه الانتخابات مع موسوليني منها جماعة رئيس الوزراء الاسبق وممثل ايطاليـا الى مؤتمر الصلح بباريس اورلاندو.

وقد تجلت هذه الحقيقة في حزيران من العام نفسه وذلـك عنـدما اختطـف الفاشيون عضو البرلمان وقطب المعارضة جاكوموماتيوتي (J. Matteoti) الذي اغتالوه بأسلوب وحشي اثار الرأي العام بشكل ادخل الفزع في نفـوس الفاشـيين الذين استقال عدد كبير منهم من الحزب. وبلغ الامر بشخص موسوليني الذي كان يتحمل تبعة اغتيال ماتيوتي، ان اعلن في مجلس الشيوخ عن عزمه على الابتعـاد عن الحكم.

ان الموقف غير الحازم الذي تبينته قوى المعارضة، بما في ذلك الاشتراكيين، فوت فرصة اسقاط نظام موسوليني. ففي ايام الازمة لم تلجأ المعارضة الى تحريك الجماهير المستاءة باتجاه الفعل الثوري لحساسيتها ازاء مثل هذا الاسلوب من النضال ولانها توقعت سقوط النظام تلقائيا وعن طريق النضال البرلماني، لذا فأن اقصى ما فعلته المعارضة انها سحبت نوابها من المجلس، مما اعطى موسوليني امكانية فرض محكمه الدكتاتورية الفردي.

اقامة الدكتاتورية الفاشية:

تمكن موسوليني استغلال الثغرة التي نجمت عن موقف المعارضة ايام الازمة السياسية الجديدة التي اتبعت اغتيال ماتيوتي. فما ان بدأت الاوضاع تهدأ قليلاً حتى باشر باصدار مجموعة من القوانين الرجعية التي مست نظام الانتخابات والصحافة والنقابات والاجهزة الادارية وما شابه. وفي اواخر العام ١٩٢٦ بلغت هذه الاجراءات ذروتها عندما أصدر موسوليني مجموعة قوانين استثنائية ضمنت الاحتكار السياسي للدكتاتورية الفاشية، فقد منعت الاحزاب الاخرى من مزاولة النشاط السياسي وفرضت السيطرة المطلقة للفاشيين على جميع النقابات والجمعيات والهيئات الجماهيرية، والفت محاكم خاصة لمحاكمة الوطنيين الذين القيت اعداد كبيرة منهم (بالالاف) في فياهب السجون ومعسكرات الاعتقال.

ولكن بالرغم من جهودها، وبسبب من سياستها اللادمقراطية ومعاداتها للشغيلة لم تستطع الفاشية حل مشاكل البلاد، ولاسيما الاقتصادية منها كما يجب. ففي العام ١٩٢٦ سجلت الليرة الايطالية انخفاضا جديدا كان يهدد مصالح الرأسماليين في الصميم. وقد هيأ ذلك ظروفاً مناسبة للتقارب السريع بين

الرأسماليتين الايطالية والامريكية، فمنذ العام ١٩٢٥ بدأت الرساميل الامريكية تتوجه الى ايطاليا بحيث تجاوز مجموعها لغاية العام ١٩٢٩ نصف مليار دولار أسهم بصورة مباشرة في انقاذ الرأسمالية الايطالية وفي تثبيت اقدام الفاشية. ففي العام ١٩٢٩ بلغ الانتاج الصناعي الايطالي مستوى يزيد بمقدار ٤٠% عما كان عليه قبل الحرب. ولكن لم يؤد هذا التطور الى تحسين اوضاع الشغيلة، فخلال ثلاث سنوات من عهد "الازدهار الفاشي" (من ١٩٢٦ حتى ١٩٢٩) ارتفع عدد العاطلين عن العمل من جديد بمقدار ثلاث مرات (من ١٠٠ الى ٣٠٠ الف) وجرى تقليص ملموس في اجور العمال ورواتب الموظفين الى جانب رفع الضرائب غير المباشرة التي وقع عبئها على عاتقهم قبل غيرهم. وقد تردت اوضاع الفئات الاجتماعية الدنيا والمتوسطة اكثر في سنوات الازمة الاقتصادية العالمية.

ايطاليا في سنوات الازمة الاقتصادية العالمية:

كان من الطبيعي ان تتأثر ايطاليا كبلد رأسمالي بأثار الازمة الاقتصادية العالمية ففي العام ١٩٣٢ تقلص مجمل الانتاج الصناعي الايطالي بمقدار ٣٣% قياسا من العام ١٩٢٩، مع العلم ان تاثير الازمة على بعض الحقول الانتاجية الحياتية كان اعمق من ذلك، فأن انتاج صناعة الاقمشة، مثلا، قد انخفض بمقدار حوالي ٥٠%. وخلال الفترة نفسها تقلصت التجارة الخارجية الايطالية بمقدار ثلاث مرات.

ومرة اخرى اثبت النظام الفاشي انه خير من يحمي مصالح الرأسماليين، فأن التعويضات التي قدمتها حكومة موسوليني للاحتكاريين في سنوات الازمة بلغت حوالي ١٠ مليارات ليرة ايطالية، هذا الى جانب كميات كبيرة من اسهم المؤسسات

الرأسمالية التي اشترتها الدولة. وبالمقابل فأن اوضاع الشغيلة وصغار المنتجين والموظفين قد ترديت بشكل ملموس، خاصة وان سخاء الدولة تجاه الرأسماليين جاء على حساب هؤلاء بالاساس. ففي سنوات الازمة تقلصت اجور العمال في حقل الصناعة الثقيلة بمقدار ٥٠% وارتفع عدد العاطلين عن العمل عام ١٩٣١ الى حوالي مليون شخص، كما ان اكثر من ٥٥ الف مشروع صغير ومتوسط اشهرت الافلاس تحت ضغط منافسة كبار الاحتكاريين. وفي بداية الازمة اصدرت الحكومة قرارا يقضي بتقليص الموظفين بنسبة ١٢%.

ادى هذا الوضع الى خلق رد فعل قوى بين اوساط الشغيلة التي قامت في سنوات الازمة بسلسلة من الاضرابات والمظاهرات ضد تقليص الاجور ورفع الضرائب. ففي العام ١٩٣٠ مثلا اعلنت اعداد كبيرة من العمال في ميلان الاضراب عن العمل بالرغم من ان الاوساط الفاشية قامت باعتقال اكثر من ثلاثة الاف عامل عشية الاقراب بهدف نشر الذعر بين الاوساط العمالية. ومنذ العام ١٩٣٠ ايضا لجأت عشرات الالوف من الفلاحين الى الاضراب وتنظيم المسيرات احتجاجا على وضعها البائس. ولكن اتسمت نضالات الشغيلة في هذه الفترة بطابع عفوي بالاساس فلم تستطع ان تحقق اهدافها الا في حدود ضيقة.

ومن جهة اخرى شهدت ايطاليا في هذه المرحلة مدا جديدا في الحركة الديمقراطية العامة المعادية للفاشية والتي بدأ نشاطها يمتد الى خارج البلاد كذلك. ففي العام ١٩٢٩ ألفت اوساط ايطالية معارضة للفاشية حركة جمهورية في الخارج عرفت بأسم " العدالة والحرية".

ولكن تمكنت الفاشية الايطالية تحقيق مكسب مهم في هذه المرحلة الحساسة من تاريخها وذلك بفضل توصلها في العام ١٩٢٩ الى اتفاقية خاصة من البابوية

انهت أزمة سياسية جدية عانت منها ايطاليا على مدى عقود طويلة، فقد اعترفــت البابوية بنظام موسوليني الذي اعترف بدوره بالفتيكان دولة مستقلة داخل ايطاليــا، الامر الذي اثر على موقف الكنيسة الكاثوليكية في الداخل والخارج مــن النظـــام الفاشي الايطالي ولو الى حين. ومن المفيد ان نشير الى انه ظهرت في هذه الفترة كتائب مسلحة خاصة بالقسس وغيرهم من رجال الدين الكاثوليك.

والى جانب ذلك حاول بنيتو موسوليني منذ تسمنه الســلطة اتبـــاع سياســة خارجية من شأنها، حسب تقديراته، تثبيت اركان نظامه والتخفيف من اثار مشاكله الداخلية.

السياسية الخارجية للفاشية الايطالية:

اتبعت حكومة موسوليني على الصعيد الخارجي سياسة كانــت تعكــس فـــي ابعادها واقع الفكر الفاشي ومنطلقاته. فمنذ الايام الاولى لتأسيســه رفـــع الحـــزب الفاشي شعار"ايطاليا الكبرى" الذي كان يهدف الى التوسع الاقليمـــي المباشـــر او التغلغل الاقتصادي والهيمنة السياسية بالنسبة لمناطق اوربية مختلفة تأتي منطقتـــا البلقان وحوض الدانوب على رأسها، والى التوسع الكولونيالي على صعيد القـــارة الافريقية، ولاسيما في مصر وتونس واثيوبيا. وكان من اهداف الشعار المـــذكور ايضا تحويل البحر المتوسط الى بحيرة ايطالية وذلك بالاستناد الى حجج تاريخيـــة واهية تعود الى عهد الرومان القدماء. ولم يكن مجرد صدفة ان الفاشـــيين كـــانوا يطلقون في ادبياتهم اسم" بحرنا " على البحر المتوسط.

هكذا صاغ الفاشيون برنامجا طموحا للتوسع الخارجي يفوق طاقاتهم الى حد كبير ويتعارض كليا من واقع تناسب القوى على الصعيد الدولي يومذاك، لذا لـــم تستطع حكومة موسوليني ان تحقق سوى جانب متواضع من برنامجها التوســـعي

الذي كان يصطدم في معظم نقاطه بمصالح الدول الكبرى الاخـرى ومخططاتهـا بصورة مباشرة. فعلى صعيد القارة الاوربية وقفت انكلترا ولاسيما فرنسا حجـر عثرة ثابتة امام طموحات ايطاليا في البلقان والبحر المتوسط. ولئن كانت المانيـا الهتلرية تساند الطموحات الايطالية في البلقان والبحر المتوسط الى حد معـين الا انها بالمقابل وقفت بشدة ضد كل ما كان يصبو اليه الفاشيون في حوض الدانوب، وخاصة في النمسا وهنكاريا.

وفي الغرار نفسه اصطدمت اطماع ايطاليا في شمال افريقيا بمصالح الـدول الكبرى الاخرى التي سبقتها في ميدان التوسع الكولونيالي، فضلا عن انها كانـت تتمتع بمواقع اقدام ثابتة في جميع اصقاع هـذه المنطقـة التـي كانـت حكومـة موسوليني تفكر في السيطرة عليها. فأن وجود الانكليز في مصر والفرنسيين فـي تونس كان يدخل تحقيق اطماع الفاشية فيهما انـذاك فـي عـداد المسـتحيلات، الموضوع الذي تعود الى تفاصليله اثناء الكلام عن الحرب الاثيوبية.

مع ذلك لم تتوان حكومة موسوليني في تطبيق سياستها الخارجية سواء على صعيد اوربا او افريقيا. فلم يمر عام واحد على تأليف الحكومة المـذكورة حينهـا حاولت القوات الايطالية احتلال جزيرة كورفو اليونانية وأقدمت فعلا على احتلال مدينة فيومي اليوغسلافية. وفي الواقع لم تحرز ايطاليا اي نجاح يذكر على صعيد القارة الاوربية الا فيما يخص البانيا. فمنذ اواسط العشرينات حولت ايطاليـا هـذا الجزء الغربي الصغير من شبه جزيرة البلقان (تبلغ مساحة البانيا حوالي ٢٩ الف كم٢ فقط) الى شبه محمية تابعة لها. فقد سيطرت ايطاليـا علـى اهـم المرافـق الاقتصادية في البانيا من قبيل المصرف الوطني الذي تأسس عام ١٩٢٥ برأسمال ايطالي- الباني مشترك. كما حصل الايطاليون على امتيازات مختلفة لاسـتغلال ثروات البانيا المعدنية. ولغاية العام ١٩٣٠ اصبحت ايطاليا تسيطر على ٥٠% من

واردات البانيا و٧٠% من صادراتها. وفضلا عن ذلك تمكنت ايطاليا من فـرض هيمنتها السياسية على البانيا عن طريق فرض عدد من المعاهدات عليهـا. ففـي العام ١٩٢٦ وقعت ايطاليا معاهدة للصداقة والامن المتبادل معها الحقتها في العام التالي بمعاهدة اخرى للدفاع المشترك.

لم تستطع ايطاليا الفاشية ان تحقق اكثر من هذه المكاسب المحـدودة علـى صعيد القارة الاوربية، مما تحول الى دافع اضافي لها للتركيز اكثر على التوسـع الكولونيالي في افريقيا، الامر الذي تمخضت عنه الحرب الاثيوبية التـي تعتبـر واحدة من اهم الاحداث الدولية الدامية عشية الحرب العالمية الثانية.

الحرب الاثيوبية:

دفعت الظروف بايطاليا الى التركيز بشكل متزايد على التوسع الكولونيالي في افريقيا وخاصة بعد ان تفاقمت مشاكلها الداخلية اثر الازمة الاقتصادية العالميـة. ومثلما ذكرنا فكرت ايطاليا بالتغلغل في مصر وتونس واثيوبيا قبل غيرها لانهـا كانت غنية اولا وتحتل مناطق ستراتيجية حساسة تشرف على سواحل مهمة مـن بحري الابيض المتوسط والاحمر او تقع بالقرب منهما ثانيا، واخيـرا لان هـذه الاقطار كانت تقع بصورة مباشرة على حدود مستعمراتها ارتيريـا والصـومال اللتين احتلتهما ايطاليا في اواخر القرن التاسع عشر وليبيا التـي احتلتهـا عشـية الحرب العالمية الاولى.

وكما مر بنا لم تستطع حكومة موسوليني ان تفعـل شـيئا بالنسـبة لمصـر وتونس، لذا ركزت على احتلال اثيوبيا التي جعلتها الدول الكبـرى كـبش فـداء لمساوما تها السياسية. فأن فرنسا التي كانت مواقفها تلتقي مع ايطاليا تجاه اطماع المانيا في منطقة حوض الدانوب اعطت الضوء الاخضر للفاشين بالنسبة لاثيوبيـا

خاصة بعد ان توصلت حكومتا البلدين الى عقد معاهدة ثنائية بينهما مطلع العـــام ١٩٣٥ بصدد المسائل الاوربية. ولم يكن عبثا ان صرح لافال وزيـــر خارجيـــة فرنسا الذي مثل بلاده في التفاوض مع موسوليني لعقد المعاهدة المذكورة، صرح فيما بعد قائلا بالحرف الواحد " انني اهديت اثيوبيا الى موسوليني". ومن المفيد ان نشير الى ان فرنسا كانت لها مصالحها الاستعمارية في المنطقة المجاورة لاثيوبيا، وبالذات في جيبوتي التي كانت تقع تحت سيطرتها.

ولم يختلف موقف انكلترا عن موقف فرنسا كثيرا، مع العلم انها كانت تحتفظ بمواقع اقدام اقوى من اي دولة كبرى اخرى في المناطق المجـــاورة لاثيوبيـــا(في كينيا والسودان والصومال البريطانية). وقد تجلى واقع الموقف الانكلو – فرنســـي من الموضوع بصورة واضحة للغاية من خلال الموقف الذي تبنته عصبة الامـــم ازاء الاعتداء الايطالي على اثيوبيا. فأن هذه المنظمة لم تبدأ بالبت في الموضـــوع الا في ٤ ايلول عام ١٩٣٥، اي بعد مرور تسعة اشهر على اول صدام وقع بـــين قوات الطرفين على الحدود الاثيوبية. وتتوضح ابعاد هذه المهزلة اكثر اذا اخـــذنا بنظر الاعتبار حقيقة ان معالجة مثل هذه القضايا كانت تدخل فـــي طلـــب مهـــام العصبة وميثاقها وان اثيوبيا كانت عضوة في العصبة منذ العام ١٩٢٣ وهي قبلت فيها بمساندة مباشرة من قبل فرنسا لا غيرها، واخيرا ان الحكومة الاثيوبية طالبت رسميا بتاريخ ٣ كانون الثاني عام ١٩٣٥ النظر في امر التحرشات الايطالية على حدودها، اي بالتحديد قبل ان تباشر العصبة بالنظر في الامر بثمانية اشهر ويـــوم واحد. وعندما اتخذت العصبة اخيرا قرارا يقضي بمقاطعة ايطاليا اقتصاديا فأنهـــا وبتأثير من انكلترا وفرنسا استثنت النفط من قائمة المواد الممنوعة مـــع العلـــم ان ماكنة الحرب الايطالية كانت بحاجة الى النفط اكثر من اي شيء آخر.

ولم يختلف موقف الولايات المتحدة الامريكية كثيرا عن موقف الدول الكبرى الاخرى. ففي آب عام ١٩٣٥ اعلن الكونكريس "حياد" الولايات المتحدة من الاعتداء الايطالي على اثيوبيا، الامر الذي كان يعني- فيما يعني- حرمان اثيوبيا من شراء الاسلحة الامريكية التي كانت بأمس الحاجة اليها، بينما استمرت الولايات المتحدة بشأنها في ذلك شأن انكلترا وفرنسا، في تزويد ايطاليا بالاسلحة وبمواد الخام الستراتيجية.

حشدت ايطاليا قوات كبيرة في افريقيا الشرقية للاعتداء على اثيوبيا، فلغاية آب ١٩٣٥ تجاوز عدد قواتها في المنطقة ربع مليون شخص الى جانب حوالي ٧٥٠ الف شخص من سكان مستعمراتها وضعتهم تحت السلاح. وكانت القوات الايطالية مزودة بأحدث الاسلحة بما في ذلك الطائرات الحربية، وهي كانت متفوقة من جميع الاوجه على الجيش الاثيوبي الذي كان يتألف من ٣٥٠ الف شخص كان عشرة الاف منهم فقط من الجند النظاميين وكانوا جمعيا مزودين باسلحة قديمة وغير مدربين بما فيه الكفاية وتمزقهم العلاقات العشيرية.

استمرت التحرشات الايطالية على الحدود الاثيوبية لمدة عدة اشهر، في الثالث من تشرين الاول عام ١٩٣٥ قامت قوات موسوليني بخرق سيادة اثيوبيا دون اعلان الحرب. وبالرغم من تفوقها الكبير عددا وعدة لجأت القوات الايطالية في حربها ضد اثيوبيا الى اقسى الاساليب، فقد ورد في امر اصدره جنرال ايطالي الى جنده ما نصه: " احرقوا ودمروا كل ما يمكن حرقه وتدميره، امسحوا من وجه الارض كل ما يمكن مسحه! " . وهذا ما فعله الغزاة في اثيوبيا فعلا. فانهم لم يتورعوا عن ضرب السكان الامنين بالمدافع وقصفهم بالطائرات، ولم تنج حتى سيارات الاسعاف التابعى للصليب الاحمر الدولي من نيران القوات الايطالية.. والانكى من ذلك ان الفاشيين لم يعيروا القوانين الدولية والاعراف الانسانية ادنى

اعتبار حينما لجأوا الى استخدام الغازات السامة في حربهم العدوانية، الامر الـــذي نجمت عنه خسائر جسيمة فـــي الارواح بــين الاثيــوبيين دون اســتثناء. يقــول الامبراطور السابق هيلاسي لاسي في مذكراته ان ضحايا الغازات في اليوم الاول من استخدامها كانت كبيرة الى درجة بحيث " تخونني الشجاعة ان اذكر رقمهــا". ولم يبتعد هيلاسي لاسي عن الحقيقة، فأن الذين قتلوا في اثيوبيا بواسطة الغــازات السامة وحدها بلغ مالا يقل عن ٢٧٥ الف شخص.

ولكن بالرغم من ذلك طال امد الحرب وجرى تقدم القوات الايطالية الغازيــة ببطء كبير وذلك جراء المقاومة الباسلة التي ابداها الشعب الاثيوبي. ففــي شــباط ١٩٣٦ اي بعد دخول الحرب شهرها الخامس لم تتقدم القوات الايطالية في الجبهة الشمالية اكثر من ١٠٠ كم فقط. ولم يختلف الوضع عن ذلك كثيرا فــي ميــادين القتال الاخرى بالرغم من تأكيدات موسوليني علــى ضــرورة التقــدم الســريع والخاطف. وهكذا فان القوات الايطالية لم تستطع دخول العاصمة اديس ابابــا الا في الخامس من ايار عام ١٩٣٦. وبعد ذلك باربعة ايام، اي في التاسع من ايــار، اصدر الملك فكتور عمانوئيل قرارا يقضي بضم اثيوبيــا الــى ايطاليــا، واعلــن موسوليني في اليوم نفسه عن قيام ما اسماه بالامبراطورية الايطالية.

وفي الشهر التالي اعلنت ايطاليا عن تكوين مستعمرة افريقيا الشرقية الايطالية التي ضمن اثيوبيا وارتيريا والصومال.

زاول الايطاليون سياسة عنصرية متخلفة من الاثيوبيين، فقد كانوا ينظــرون اليهم نظرة شوفينية متعالية ويعتبرونهم عنصرا منحطا فابعدوا اعدادا كبيرة مــنهم من العاصمة والمدن الكبرى التي خصصوا لانفسهم فيها محلات خاصة للســكن، كما منح المحتلون الاثيوبيين من استخدام وسائط النقل وما شابه.

قاوم الاثيوبيين الاحتلال الايطالي على مدى خمس سنوات، وقد بلـــغ عـــدد الفدائيين الذين لقوا حتفهم في سوح النضال خلال تلك الفترة اكثر مـــن ٧٥ الـــف شخص. اما عدد الاثيوبيين الذين ماتوا في ميادين القتال او بسبب الغازات السامة او جراء الجوع في سنوات الاحتلال الفاشي لبلادهم فقد تجاوزا الــــ ٧٥٠ الـــف شخص. وبالطبع لم يكن بوسع الحرب الاثيوبية ان تحل مشاكل ايطاليـــا الفاشـــية التي بدأت تعاني من ازمة جدية عشية الحرب العالمية الثانية.

ايطاليا عشية الحرب العالمية الثانية:

جلبت سياسة الفاشيين الويلات على ايطاليا، فلم تنته الحرب الاثيوبية عنـــدما ورط موسوليني بلاده في مغامرة جديدة بالتدخل في اسبانيا مع القـــوات الهتلريـــة كما مر بنا ذلك عند البحث عن تاريخ المانيا. وقد تحولـــت الحربـــان الاثيوبيـــة والاسبانية الى عبء ثقيل على كاهل الشعب الايطالي وخزينة الدولـــة اذ بلغـــت المصروفات العسكرية للبلاد في السنة المالية ١٩٣٦-١٩٣٧ حوالي ٥٤% مـــن الميزانية العامة.

وهكذا تعمقت مشاكل ايطاليا اكثر فأكثر. ففي السنوات التي ســـبقت الحـــرب العالمية الثانية لم يطرأي تطور على الانتاج الصـــناعي فـــي ايطاليـــا بأســـتثناء الصناعات الحربية ، فلغاية العام ١٩٣٨ ظل الانتـــاج الصـــناعي الايطـــالي دون مستوى العام ١٩٢٩. وطرأ انخفاض ملموس على بعض الحقول الانتاجية المهمة مثل صناعة الاقمشة التي تقلصت بمقدار حوالي ١٩%. وخلال الفترة الممتدة بين عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٨ بلغ العجز في ميزانية الدولة حـــوالي ٥٥ مليـــار ليـــرة. وخلال ثلاث سنوات فقط (من ١٩٣٥ حتى ١٩٣٨) ارتفعت اســـعار الحاجيـــات الاساسية بمقدار اكثر من ٣٠%، الامر الذي ترك اثارا مباشـــرة علـــى اوضـــاع

الفئات الدنيا والمتوسطة التي عبرت عن استيائها باساليب مختلفة على الرغم من الارهاب الفاشي المسلط عليها. ففي العام ١٩٣٨، مثلا، اشترك اكثر من مليون عامل ايطالي في الصراع مع الاحتكاريين والنقابات الفاشية. ولم يكن الاستياء بين الفلاحين باقل من ذلك.

وبالتدريج بدأ الاستياء يدب كذلك في صفوف قطاع من كبار البورجوازيين والعسكريين ورجال الدين الايطاليين الذين لم يكونوا مرتاحين من سياسة التقرب المتزايد من المانيا الهتلرية. فأن مصالح العديد من الرأسماليين تأثرت كثيرا من ابتعاد ايطاليا التدريجي عن التعاون الاقتصادي من الولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا ومن الاتفاقية التجارية التي عقدتها بلادهم من المانيا والتي منحت بنودها امتيازات كبيرة للرأسماليين الالمان. كما استاء العسكريون ورجال الدين والبرجوازيين من احتلال النمسا المجاورة لبلادهم من قبل القوات الالمانية. واخيرا انتقلت اثار هذه الظواهر الى داخل الحزب الفاشي نفسه الذي ظهرت في صفوفه معارضة ملموسة لسياسة موسوليني وتفرده بالحكم. ولم يكن مجرد صدفة ان قام الاخير في العام ١٩٣٨ بطرد عدد كبير من قادة الحزب البارزين بحجة "خيانتهم للمبادئ الفاشية".

حاول بنيتو موسوليني ايجاد مخرج لمشاكل نظامه عن طريق ربط مصيره اكثر فأكثر بالمانيا الهتلرية. ففي العام ١٩٣٧ خرجت ايطاليا من عصبة الامم وانظمت الى الحلف الالماني – الياباني الذي سبق ذكره. وفي نيسان ١٩٣٩ اقدمت حكومة موسوليني على مغامرة جديدة عندما احتلت قواتها البانيا واعلنت روما عن ضمها الى ايطاليا. وعشية الحرب مباشرة(في ٢٢ أيار ١٩٣٩) عقدت ايطاليا اتفاقية جديدة مع المانيا عرفت باسم الحلف الفولاذي او الميثاق الحديدي الذي مهد الطريق بدوره لاندلاع الحرب العالمية الثانية.

ايطاليا في سنوات الحرب العالمية الثانية:

اخرت اوضاع ايطاليا وحاجتها الملحة للمواد الخام الستراتيجية دخولها في الحرب العالمية الثانية لغاية ١١ حزيران عام ١٩٤٠، وحتى انذاك لم يلعب سقوط فرنسا والوضع الحرج لانكلترا الدور الاخير في دفع موسوليني ببلاده الى أتون الحرب. وفي الواقع لم يؤثر دخول ايطاليا في الحرب الى جانب المانيا على ميزان القوى كثيرا، فقد منيت قواتها باندحارات متلاحقة في اكثر المعارك التي خاضتها سواء في شمال افريقيا او في الجبهة الشرقية في الاتحاد السوفيتي. فخلال شتاء ١٩٤٢-١٩٤٣، مثلا، دمرت عشر فرق ايطالية في الجبهة الشرقية وحدها.

فجرت الحرب التناقضات الداخلية في ايطاليا بقوة، ولم ينجم ذلك عن الاندحارات المستمرة لقواتها في ميادين القتال حسب، بل نجم كذلك عن تردي الاوضاع الاقتصادية للشعب الايطالي بوتائر سريعة، وعن ازدياد ربط مصير ايطاليا بالمانيا. وبالنسبة للنقطة الاخيرة ربما يكفي ان نشير هنا الى ان ايطاليا التي عانت بنفسها من قلة الايدي العاملة في سنوات الحرب بعثت بـ٣٠٠ الف ايطالي الى المانيا للعمل في مؤسساتها الصناعية.

وهكذا بدأ الاستياء ينمو في صفوف جميع القوى والفئات الاجتماعية الايطالية، بما في ذلك البلاط والفاتيكان والحزب الفاشي الذي تحول الى العوبة بيد شخص موسوليني، بحيث انه لم يجمع على مدى سنوات مجلسه الاعلى مع انه كان يضم اكثر العناصر ارتباطا به. وبلغ الاستياء اوجه في اواسط عام ١٩٤٣ فدبر البلاط في ٢٥ تموز امر تنحيه موسوليني عن الحكم واعتقاله.

راقبت المانيا تطور الاحداث على الساحة الايطالية عن كثب، فقد كانت تخشى انهيار محور روما.. برلين وارتماء ايطاليا في احضان الحلفاء، وتحسبا للاحتمالات القادمة دبر هتلر خطف صديقه موسوليني الذي كان يعتبره"النموذج الوحيد للروماني القديم" بين الشعب الايطالي بأسره. وقد تم الخطف بعملية جريئة نفذها عدد من رجال هتلر المغامرون. وعندما وقعت الحكومة الايطالية الجديدة الهدنة مع الحلفاء اسرعت القوات الالمانية الى احتلال شمال ايطاليا ووسطها من العاصمة روما في ٨ ايلول عام ١٩٤٣ بينما احتلت القوات الامريكية والبريطانية صقلية والمناطق الجنوبية من البلاد. وقد انتقلت الحكومة الايطالية الجديدة مع البلاط الى الجنوب وعاد موسوليني الى حكم المناطق الواقعة تحت الاحتلال الالماني مدشنا عهده الجديد بتنفيذ احكام الموت بحق عدد من قادة الحزب الفاشي الذي اتهموا بالخيانة العظمى.

ولكن رفض الشعب الايطالي موسوليني وحزبه الفاشي وحلفاءه الالمان الذين تحولوا الى اسياد فعليين في البلاد. وتجسد هذا الرفض بشكل خاص في حرب العصابات الواسعة النطاق التي نظمها الايطاليون ضد الفاشيين والنازيين في وسط البلاد وشمالها. وقد ارتفع عدد المتطوعين في صفوف المقاومة بسرعة كبيرة بحيث انه تجاوز في الاخير ربع مليون شخص تمكنوا من توجيه ضربات قوية الى الهتلريين والفاشيين الايطاليين وتحرير مناطق واسعة في شمال ايطاليا ووسطها. وقبيل انتهاء الحرب اصبح موسوليني معزولا الى درجة انه عجز عن جمع ثلاثة الاف مسلح حوله، فظل وحيدا في الميدان الى ان وقع في اسر رجال المقاومة الذين حاكموه ونفذوا فيه حكم الموت رميا بالرصاص.

الاتحاد السوفيتي

مقدمة عامة:

تتوفر عوامل عديدة تفرض دراسة تأريخ الاتحاد السوفيتي كدولة كبرى. فقبل كل شيء ان الاتحاد السوفيتي هو اكبر بلد في العالم كله من حيث مساحته التي تبلغ حوالي ٢٢,٥ مليون كم٢. اي ما يعادل سدس اليابسة في كوكبنا. والاتحاد السوفيتي بلد اوروآسيوي يقع حوالي ٢٥% من مساحته داخل اوربا والبقية منها داخل اسيا، فهي، اذن، اكبر دولة اوربية واكبر دولة اسيوية في آن واحد.

تبلغ الحدود الدولية للاتحاد السوفيتي اكثر من ٦٠ الف كم، اي ما يعادل خط الاستواء بمقدار يزيد عن مرة ونصف المرة. وللاتحاد السوفيتي حدود برية مشتركة مع ١٢ دولة ست منها اوربية والست الباقية اسيوية، وهي الصين وكوريا ومنغوليا وافغانستان وايران وتركيا والنرويج وفنلندا وبولندا وجيكوسلوفاكيا ورومانيا وهنكاريا، كما يشرف الاتحاد السوفيتي على سواحل ١٢ بحرا تتصل بثلاثة محيطات في الهادي والاطلسي والمنجمد الشمالي، وان لبعض من البحار التي تؤلف سواحلها جزءا من الحدود السوفيتية اهمية ستراتيجية وتجارية كبيرة مثل بحار الاسود والبلطيق وقزوين والشمال. ومن المهم ان نشير الى ان الاتحاد السوفيتي هو الدولة الكبرى الوحيدة في العالم لها حدود مشتركة مع منطقة الشرق الاوسط الحساسة وذلك من خلال تركيا وايران وافغانستان.

يشغل الاتحاد السوفيتي الموقع الثالث في العالم من حيث عدد سكانه الذي يبلغ حوالي ٢٧٠ مليون نسمة. وكما لاحظنا لعبت روسيا دورا كبيرا في الحرب العالمية الاولى، وكان دور الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية حاسما. واخيرا فأن اول نظام اشتراكي في العالم ظهر في هذه البلاد، مما كان له مردود

مباشر على تناسب القوى على الصعيد الدولي، فالاتحاد السوفيتي اليوم هو واحد من القوتين العظميين المتحكمتين بمصير العالم.

لمحة من تاريخ روسيا قبل الحرب العالمية الاولى:

بدأت روسيا تعيش تغييرات مهمة منذ القرن السابع عشر، فقد شهدت البلاد في ذلك القرن اولى العلاقات الرأسمالية في الانتاج ونمو التبادل البضائع على الصعيد الاقتصادي وامتزاج اجزاء مختلف منها في وحدة متماسكة على الصعيد السياسي. وفي مطلع ذلك القرن بالذات جاءت اسرة رومانوف الى الحكم، وقد ظلت فيه لغاية ثورة شباط عام ١٩١٧. وكان بطرس الكبير(١٦٨٢-١٧٢٥) ابرز قياصرة روسيا الذي حقق لبلاده مكاسب مهمة جعلتها واحدة من الدول الاوربية الكبرى. فقد ادرك بطرس ان تحقيق طموحات بلاده والوصول الى البحر الاسود في الجنوب وبحر البلطيق في الغرب يتطلب بناء اقتصاد رصين وجيش قوى واسطول ونظام اداري حديث. وقد اكتملت "سمير اميس الشمال" الالمانية الاصل كاترين الثانية (١٧٦٢-١٧٩٢) ما بدأه سلفها بطرس الكبير.

مع ذلك فأن روسيا القيصرية كانت تمثل اسوأ نموذج أوربي للاستبداد والتخلف. فقد بقي نظام القنانة المشين قائما فيها لغاية النصف الثاني من القرن التاسع عشر (الغي قانونا عام ١٨٦١) فكان يحق للاقطاعي شراء الاطيان وبيعها واهدائها مع من عليها من الفلاحين، ويستطيع بكل بساطة فصل الازواج عن زوجاتهم والاباء عن اولادهم كما يشاء، بل كان يتمتع بحق غريب في بابه هو تزويج الفتيان والفتيات بموجب قوائم جماعية يضعها حسب اهوائه ودونما ان يكون للشاب او الشابة ادنى علم مسبق بالامر.

وفي عهد "القيصرة المتنورة" كاترين الثانية غدت مبادلة كلب بفلاح او مجموعة فلاحين بفرس او لعب القمار على مصير عدد من الاقنان من الامور الشائعة في قصور نبلاء روسيا واعيانها.

ومن اجل تقديم صورة معبرة عن مثل هذه الحالة المزرية نورد فيما يلي ترجمة ثلاثة اعلانات نشرت في صدر احدى الصحف الموسكوية في وقت متأخر هو الرابع من تموز سنة ١٨٠٠:

الاول: "يباع ما يلي من خدم القصر لعدم الحاجة اليهم: اسكافي يبلغ من العمر ٢٢ عاما وزوجته غسالة. السعر ٥٠٠ روبلا. والاخر .. يبلغ من العمر ٢٠ عاما وزوجته غسالة جيدة وتخيط الملابس بصورة جيدة. السعر ٤٠٠ روبلا. وجميعهم من ذوي السلك الحسن وفي وضع جيد. يمكن مشاهدتهم في استوجينك رقم الدار ٣٠٩".

الثاني: "تباع ثلاث فتيات تتراوح اعمارهن بين ١٤ و ١٥ عاما ممن يعرفن كل الاشغال اليدوية، وهن يجدن حياكة اكياس النقود المطرزة، وتعرف احداهن العزف على السنطور. يمكن مشاهدتهن ومعرفة اسعارهن على العنوان التالي: منطقة أربات، الحارة الاولى، رقم الدار ١١٧".

الثالث: "تباع ستة خيول صغيرة من الجنس الخفيف.. بـ ١٢٠٠ روبل كسعر اخير. يمكن مشاهدتها على العنوان التالي..".

لم يكن وضع العمال افضل من ذلك كثيرا. فلغاية ثورة اكتوبر كانت ساعات العمل اليومية لا تقل في احسن الاحوال وفي اصعب الاعمال عن عشر ساعات ونصف الساعة، وهي كانت تمتد في حالات كثيرة الى ١٣ ساعة فأكثر. وكان العمال يتلقون لقاء جهدهم المضني اجورا تافهة لم يكن لها مثيل في القارة

الاوربية. وفضلا عن ذلك كان العمال الروس يخضعون لعقوبات نقدية لاتفه الاسباب. ففي العام ١٩٠٤، مثلا، فرضت حوالي ثلاثة ملايين عقوبة من هذا النوع على العمال في مختلف المشاريع.

وكان الشعب الروسي محروما من ابسط مظاهر الديمقراطية. فقد "ازدهرت" السجون والمعتقلات بصورة ملحوظة في طول البلاد وعرضها. وربما كان النفي الى مجاهل سيبريا القارصة البرد أهون عقوبة يتعرض لها الديمقراطيون وكل من يتجرأ الوقوف بوجه الاستبداد القيصري الشاذ.

ظهر في روسيا القيصرية مناخ ملائم جدا لصولات الانتهازيين وجولاتهم، كان راسبوتين الشهير آخر نموذج معبر لهم. وراسبوتين هو الوصيف الاخير للقيصر الروسي نيقولاى الثاني، كان فلاحا في الاصل، عمل في شبابه ضمن عصابة زاولت سرقة الخيول، وقد عرف التأثير والشعوذة. أصبح راسبوتين راهبا وانتقل الى العاصمة بتروغراد حيث تمكن من التغلغل بين العوائل الارستقراطية وعن طريقها بلغ البلاط عام ١٩٠٧ فوقع القيصر وزوجته تحت تأثيره المباشر، خاصة بعد ان تمكن – كما يقال– من علاج ولي العهد الكسيي من مرض عضال ألم به.

بلغ راسبوتين من الحظوة لدى الاسرة المالكة حد انه كان يؤثر بصورة مباشرة في تعيين كبار رجال الدين ومسؤولي الدولة، بمن فيهم الوزراء وقادة الجيش، وفي منح الالقاب والامتيازات وما شابه. وقد غدا استهتاره مع الارستقراطيات ونساء القصر والعديد من الامراء البارزين بحيث لم يتحمل عدد من الملكيين تصرفاته فدبروا مؤامرة اغتياله في ١٧ كانون الاول عام ١٩١٦، اي قبل انهيار النظام القيصري بشهرين فقط.

وفي جو الارهاب والتسيب والاستغلال الفظيع وفي ظل الاضطهاد القـومي الكبير الذي مارسه النظام القيصري تطورت الحركة الثورية في روسيا بسـرعة وبلغت مستوى من الوعي الفريد في وقت مبكر نسبيا. فلـم يمـر عهـد اقـوى القياصرة واقساهم دون ان يشهد اكثر من انتفاضة فلاحية عامة كان قادة بعضـها يتجزأون بالتوجه نحو موسكو وبتوجيه رسائل تهديد الى شخص القيصر كما فعل بولافين مع بطرس الكبير في العام ١٧٠٧. وبعد مرور حوالي سبعة عقود فقـط اضطرت كاترين الثانية الى عقد الصلح مع تركيا ليتسنى لها توجيه قوات كافيـة لقمع الانتفاضة الفلاحية العارمة التي انفجرت في ذلك الوقت ضد نظامها.

واشتد ساعد الحركة العمالية الروسية بسرعة، بحيث انها تحولت الـى احـد المظاهر الاساسية في حياة البلاد السياسية منذ بدايات القرن التاسع عشر. ومـن الجدير بالذكر ان الطبقة العاملة سبقت البورجوازية في اقامة تنظيمـات سياسـية خاصة بها في روسيا الامر الذي يعد حالة نادرة في اوربا. وقد ادى ذلك الـى ان يلعب العمال دورا سياسيا ملموسا في احداث البلاد المهمة، مما انعكس بصـورة واضحة جدا في ثورة العام ١٩٠٥- ١٩٠٧.

ثورة ١٩٠٥-١٩٠٧:

اشتدت الحركة الثورية في روسيا وعاشت مدا كبيرا في بداية القرن العشرين وقد انصبت عام ١٩٠٥ في ثورة كبرى ذات صدى عالمي.

بدأت الثورة في بتروغراد في كانون الثاني عام ١٩٠٥ بأضرابات عماليـة امتدت اثارها قبل نهاية الشهر الى عمال ٦٦ مدينة اخرى. وقد رافقت الاضرابات مظاهرات جماهيرية رفعت شعارات معادية للحكم القيصري وللحرب مع اليابـان واخرى تطالب بتقليص ساعات العمل اليومية الى ثمان فقط، ويمـنح الحريـات

الديمقراطية وتحسين الظروف المعاشية لعامة الناس. وفي ايـام الثـورة امتـزج نضال الفلاحين في الريف مع نضال سكان المدن. ففي صيف عام ١٩٠٥ وحـده وقعت حوالي ٩٠٠ انتفاضة فلاحية شملت ما لايقل عن خمس القسم الاوربي من روسيا، وكان الشعار الرئيس للفلاحين هو تحويل ملكية الارض الى ملكية عامة.

وقد اشتد خطر الثورة على النظام عندما انتقلت اثارها الى صـفوف بعـض قطعات الجيش والاسطول كذلك. ففي ايام الثورة تم تسجيل حوالي ٢٥٠ انتفاضة بين الجنود والبحارة في مختلف مناطق روسيا التي شهدت مظـاهرات مشـتركة للمدنيين والعسكريين. ومن المهم ان نلاحظ ايضا ان قومية واحدة غير روسية لم تتخلف عن الاشتراك في صنع اهم احداث تلك الفترة الحرجة من تأريخ روسيا.

ومع ان احداث الثورة استمرت لغاية اواسط عام ١٩٠٧ وهزت اسس النظام القيصري الا ان الاخير تمكن في نهاية الامر من القضاء عليهـا بقسـوة، وقـد ساعدته على ذلك عوامل عديدة داخلية وخارجية منها عدم تماسك قـوى الثـورة الرئيسة في مجرى واحد ومنظم كما يجب وانتهازة بعض الاوساط السياسية وبقاء قطاع من الجيش والاسطول على ولائه التقليدي للقيصر وانتهاء الحرب الروسـية اليابانية والمساعدات السخية التي ابدتها للنظام الاوساط الرأسمالية الغربية التـي اقلقها مصير رساملها المستغلة في روسيا من جهة وخشيت انتقال شبح الثورة الى بلدانها من جهة اخرى، خاصة وان القوى الديمقراطية في الغرب وقفت بحمـاس الى جانب ثوار روسيا. لذا لم يكن عبثا ان قامت تلك الاوسـاط بتقـديم قـروض كبيرة لحكومة القيصر بلغت في العام ١٩٠٦ وحده ٨٤٣ مليون روبل، الامر الذي لعب دورا مباشرا في انقاذ النظام من ازمة مالية خطيرة.

بعد القضاء على ثورة ١٩٠٥-١٩٠٧ بدأ مد رجعي في روسيا لم تنته اثاره لغاية ثورة شباط عام ١٩١٧. ومما يلاحظ في تاريخ روسيا خلال تلك الحقبة بروز النظام القيصري على صعيد السياسة الخارجية ودور روسيا الكبير في الحرب العالمية الاولى، وقد سبق ان تطرقنا الى اهم جوانبها عند الحديث عن الحرب المذكورة التي شهدت روسيا في ايامها انتصار ثورتين حددتا مسارها السياسي اللاحق.

ثورة شباط ١٩١٧:

جاء عبء الحرب ثقيلا على كاهل شعوب روسيا القيصرية التي بدأت تعاني من فقر مدقع وظروف حياتية صعبة للغاية هزت اركان المجتمع بقوة وعمقت من تناقضاته الداخلية. فلم تمر سوى فترة وجيزة على بدء الحرب عندما اشتدت الحركة الاضرابية والتمردات الفلاحية من جديد. ففي العام ١٩١٥ انفجر اكثر من ٩٠٠ اضراب عمالي اقتصادي وسياسي تجاوز عدد المشتركين فيها نصف مليون شخص. وفي العام التالي ارتفع الرقم الاول الى اكثر من ١٤٠٠ اضراب وتجاوز الرقم الثاني مليون شخص، اي بلغ ضعف عدد العمال المضربين عام ١٩١٥. وساد الاستياء الريف كذلك، كما حدث مد ملحوظ في النظام التحرري للشعوب غير الروسية ايام الحرب.

وهكذا اصبح النظام القيصري يعيش ازمة سياسية واقتصادية خانقة لم يفد معها تغيير اربعة رؤوساء وزارات وستة وزراء للداخلية ايام الحرب. وفي مطلع عام ١٩١٧ انصب استياء الجماهير في ثورة عامة اطاحت بالنظام القيصري.

بدأت الثورة في ٢٣ شباط (اي ٨ اذار يوم النساء العالمي) عام ١٩١٧ باعلان اضراب عمالي في بيتروغراد بلغ عدد المشتركين فيه في اليوم التالي

٢٠٠ الف عامل. وفي ٢٥ شباط اصبح الاضراب عاماً صاحبته مظاهرات ومصادمات في شوارع العاصمة. وفي ٢٧ شباط انضمت حامية المدينة المؤلفة من ٦٦ الف جندي الى العمال المضربين. ومنذ ٢٨ شباط بدأت الثورة تنتقل الى المناطق الاخرى من البلاد. ففي ذلك اليوم انفجرت الثورة في موسكو التي اصبحت في قبضة الثوار.

وهكذا تظافرت جميع مستلزمات انتصار الثورة، فقد تنازل نيقولاى الثاني من العرش لصالح شقيقه ميخائيل في ٢٥ آذار، ولكن لم يمر على القيصر الجديد سوى يوم واحد عندما اضطر بدوره الى التنازل عن العرش. وبعد صراع شديد بين اجنحة الثورة المختلفة انتقلت السلطة الى ما عرف بالحكومة المؤقتة برئاسة الاميرلفوف الذي كان من كبار ملاكي الارض. وقد ضمت هذه الحكومة زعماء الاحزاب البورجوازية وعددا من كبار الملاكيين والاشتراكي الثوري كيرينسكي. وقد نشط البلاشفة تحت زعامة لينين باتجاه اخر بان اعتمدوا على مجالس سوفيتات العمال المنتخبة، فاصبحت السلطة في البلاد بعد انتصار الثورة مباشرة مزدوجة في واقعها.

الحكومة المؤقتة:

ان ثورة شباط بمجرد قضائها على النظام القيصري الاستبدادي اصبحت تؤلف خطوة كبرى الى امام في تاريخ روسيا. ولكن مع ذلك وبالرغم من ضغط سوفيتات العمال وقطاعات واسعة من الشعب لم تتخذ الحكومة المؤقتة خطوات اخرى على طريق القضاء نهائيا على اثار النظام القيصري وبقاياه، فأنها لم تمس القوانين والتشريعات السابقة، وابقت على الجهاز الاداري القيصري اذ لم تغير سوى حكام المقاطعات، وقد احتفظ الملاكون والرأسماليون بثرواتهم وامتيازاتهم

السابقة، بل ولم يفقدوا حتى القابهم. ولم تصدر الحكومة المؤقتة اي تشريع لصالح العمال الذين الفوا رأس حربة ثورة شباط، فحتى ساعات العمل اليومية لم تقلص قانونا الى ثمان، بل ان العمال انفسهم قاموا بتنفيذ ذلك اما بصورة عقوبة او بمبادرة من السوفيتات وعلى الغرار نفسه لم تبت الحكومة المؤقتة في مشكلة الارض ولا في مسألة القوميات او موضوع السلم والحرب، بل انها لم تردد في استخدام القوة لقمع التحركات الفلاحية وعن التقرب بصورة متزايدة من الحلفاء، مما ولد استياء كبيرا في نفوس الفلاحين والجنود. اما القوميات غير الروسية فأنها نشطت في كل من اوكرانيا وبيلوروسيا ومناطق البلطيق وارمينيا واذربيجان واسيا الوسطى وغيرها من المناطق التي برزت فيها الاحزاب القومية مثل الداشناق الارمني والمساواة الاذربيجاني و "شوارى علماء" و "المجلس الاسلامي" في اسيا الوسطى، فضلا عن الاحزاب القوية في القسم الاوربي من البلاد.

وعلى العكس من الحكومة المؤقتة وقفت سوفيتات العمال بحماس الى جانب مطاليب العمال والفلاحين والجنود وابناء القوميات غير الروسية وحاولت من جانبها فرض اجراءات عملية بصددها، فبدأ الناس يلتفون حولها بصورة متزايدة ويطالبون بنقل السلطة اليها. ففي اليوم الاول من تموز عام ١٩١٧ تظاهر في العاصمة بيتروغراد اكثر من ٤٠٠ الف من العمال والجنود تحت شعارين مركزيين هما " كل السلطة للسوفيتات " و " لتسقط الحرب".

وفي نفس اليوم قامت القوات الروسية بأمر من الحكومة المؤقتة وبتشجيع من الحلفاء بهجوم فاشل في الجبهة. وما ان انتشر النبأ بين جماهير المدن الكبيرة بعد اسبوعين حتى هبت احتجاجا ضد سياسة الحكومة المؤقتة فأنفجر في البلاد ما عرف بأزمة تموز. وفي السابع عشر من تموز وقع اخطر حدث رافق هذه الازمة حينما نظم اكثر من ٥٠٠ الف شخص مظاهرة سلمية في بيتروغراد تعرضت

لهجوم مسلح من جانب طلاب المدارس الحربية والضباط بناء على اوامر صدرت اليهم من الحكومة المؤقتة، فسقط اكثر من ٤٠٠ شخص بين قتيل وجـريح. وقـد دشن ذلك بداية فترة ارهاب قامت الحكومة المؤقتة اثناءها باعتقالات واسعة ودمر رجالها مكتب جريدة" البرافدا" ومطبعتها ومقر اللجنة المركزية للحزب البلشفي في بيتروغراد، كما صدر امر باعتقال زعيم البلاشفة لينين الـذي اضـطر الـى ان يختفي من جديد.

ادت احداث تموز الى وضع نهاية الازدواجية السلطة اولا ولاحتمال تطوير الثورة سليما ثانيا، فقد انحصرت مقاليد الدولة بيـد الحكومـة المؤقتـة برئاسـة كيربنسكي الذي لم يحد عن النهج السابق للحكومة فيما يخـص قضـايا الحـرب والسلام وطموحات الشغيلة والقوميات غير الروسية مما ادى الى تعميق الصراع بين البلاشفة والحكومة المؤقتة. فتوالت تحركات العمال واضراباتهم في العاصمة وفي موسكو وغيرهما من المراكز الصناعية. ففي الاضراب الـذي حـدث فـي موسكو وحدها في اواخر آب اشترك ما لايقل عن ٤٠٠ الف عامل.

وفي بداية ايلول حدث تطور خطير اخر في سير الاحـداث علـى السـاحة الروسية عندما حاول الجنرال كورنيلوف الذي عينته الحكومة المؤقتة قائدا عامـا للجيش ضرب بؤر الثورة في بيتروغراد. الا ان الجنود رفضـوا تنفيـذ اوامـر كورنيلوف ففشلت بذلك خطته، الامر الذي اسفر عنه اختلال واضح فـي ميـزان القوى لصالح البلاشفة الذين عرفوا كيف يستغلون تردي ظروف الناس اكثر مـن السابق في ظل الحكومة المؤقتة، فقد تقلص الانتاج الصناعي الروسي فـي العـام ١٩١٧ بنسبة تزيد عن الثلث قياسا مع انتاج العام الذي سبق الثورة، وان مئـات المشاريع الصناعية اغلقت ابوابها فارتفع عدد العـاطلين عـن العمـل بصـورة ملحوظة. وهبطت اجور العمال الفعلية بمقدار ٤٠% قياساً مـع معـدل الاجـور

السائدة في العام ١٩١٣، بينما بلغ معدل ارتفاع الاسعار خلال الفترة نفسها حوالي ٢٥٠%.

ولم يكن الوضع في الريف الروسي افضل عما كان عليه الامر في المدينة، فبلغ استياء الفلاحين اشده، الامر الذي انعكس بوجه خاص في استيلائهم على اراضي كبار الملاكين، ففي شهر ايلول وحده سجلت الجهات المسؤولة حوالي الف حالة من هذا النوع. وازداد التذمر بين الجنود، حتى ان بعض القطعات اعلنت صراحة انهاء لن تتمثل لاوامر الحكومة المؤقتة. وفي الواقع لم يكن من السهل ان تقتنع شعوب روسيا بجدوى استمرار الحرب بعد ان قدمت لغاية شباط ١٩١٧ ضحايا بشرية ومادية جسيمة تقدر الاولى منهما بأكثر من ستة ملايين شخص بين قتيل وجريح ومفقود او اسير، اما الثانية فقد كانت كبيرة جدا بدورها، فأن نفقات الحرب وحدها قد اربت على ٣٠ مليار روبل. وهكذا نضجت ظروف انتصار ثورة جديدة في روسيا.

ثورة اكتوبر:

عرف حزب العمال الاشتراكي- الديمقراطي الروسي (البلشفي) كيف يستغل الظروف المستجدة ويكرسها لقلب الحكومة المؤقتة التي لم تتوان بدورها عن محاربة البلاشفة كما وجدت الى ذلك سبيلا. فاتخذت اللجنة المركزية للحزب البلشفي قرارا في ٢٣ تشرين الاول ١٩١٧ يقضي بتسلم السلطة بقوة السلاح، ولم يعترض على القرار سوى عضوين هما زينوفيف وكامينيف وقد افشيا سره بعد ايام قلائل ضمن مقال نشراه في احدى الجرائد المنشفية، الامر الذي جلب انتباه الحكومة المؤقتة الى خطط البلاشفة فاسرعت الى اتخاذ اجراءات مشددة بهدف تحطيم قواعدهم ومنظماتهم وهي لم تكتف بتعبئة جميع قواها في العاصمة والمدن

الاخرى بل لجأت كذلك الى استدعاء القطعات العسكرية التي لم تشك في ولائها من الجبهة.

اصبح البلاشفة في وضع حرج للغاية، فلم يبق امامهم سوى العمل السريع والحاسم. وقد تحولت محاولة السلطة في اليوم السادس من تشرين الثاني غلق مكاتب الجريدة المركزية للبلاشفة الى السبب المباشر لاندلاع نيران ثورة اكتوبر. ففي مساء اليوم نفسه سيطر البلاشفة على جسور العاصمة ونقاطها الستراتيجية الحساسة. بما في ذلك جميع مداخل المدينة. وفي اليوم التالي، اي في ٧ تشرين الثاني، احتل الثوار البريد المركزي القريب من مقر الحكومة المؤقتة ومحطات السكك والكهرباء ودوائر العاصمة الرئيسة بحيث لم يبق في حوزة الحكومة سوى قصر الشتاء وعدد قليل من المقرات، فنشر البلاشفة في الساعة العاشرة من صباح اليوم نفسه بيانا الى الشعب الروسي يعلنون فيه انتصار الثورة وسقوط الحكومة المؤقتة التي تمكن الثوار في ٨ تشرين الثاني من اقتحام مقرها في القصر الشتوي واعتقال اعضائها الموجودين هناك فيما تمكن رئيسها كيرينسكي من الفرار بواسطة سيارة زودته بها السفارة الامريكية.

اصدرت السلطة السوفيتية الجديدة في ٨ تشرين الثاني مرسومين الاول باسم "مرسوم السلام" والثاني باسم " مرسوم الارض". طلب المرسوم الاول من الدول المشتركة في الحرب العالمية الاولى اجراء مفاوضات عاجلة ومباشرة من اجل عقد صلح عادل بينها. اما بموجب المرسوم الثاني فقد تقرر توزيع جميع اراضي الملاكين على الفلاحين مما تحول الى عامل حاسم لالتفاف فقراء الريف حول ثورة اكتوبر التي تظافرت مجموعة من العوامل لضمان الانتصار لها.

اسباب انتصار ثورة اكتوبر:

لاشك في انه لولا تفاعل مجموعة في العوامل الاساسية فيما بينها لما امكن لاول ثورة اشتراكية ان تنتصر في روسيا التي كانت تأتي على رأس قائمة البلدان المتخلفة في العالم الرأسمالي. وبمكن حصر اهم تلك العوامل في النقاط التالية:

١- ضعف الرأسمالية الروسية وانحلال النظام الذي اقامه القياصرة.
٢- قوة الطبعة العاملة، خاصة من حيث التنظيم والاستعداد للتضحية.
٣- القيادة الناجحة التي عرفت كيف تتحرك ومتى، وبأي اسلوب يمكن ابعاد الجماهير، ولاسيما العمال، عن الحكومة المؤقتة والفئات السياسية الاخرى.
٤- الحركات القومية وتلاحمها مع الحركة الثورية في عموم البلاد.
٥- كسب البلاشفة لقطاع مهم من الجنود والبحارة وزجهم بنجاح في الاحداث الجارية في العاصمة بشكل خاص.
٦- فشل البورجوازية متمثلة متمثلة بالحكومة المؤقتة في حل مشاكل البلاد الاقتصادية والسياسية وازدياد ارتباط روسيا بالدول الرأسمالية (الحلفاء) في عهدها.
٧- ضعف الدول الرأسمالية وانهماكها بالحرب فأصبحت عاجزة عن التدخل المباشرة والسريع للقضاء على ثورة اكتوبر.

ولكن لم يعن الانتصار السريع والحاسم لثورة اكتوبر انها تستطيع تثبيت اقدامها وتحقيق اهدافها بسهولة، فقد جابهت الثورة منذ ايامها الاولى صعوبات كبيرة تجسدت قبل كل شيء في اندلاع نيران الحرب الاهلية والتدخل الاجنبي للقضاء على الثورة.

الحرب الاهلية والتدخل الاجنبي:

كان من الطبيعي ان يعمل اعداء الاشتراكية في الداخل والخارج بنشاط من اجل وأد ثورة اكتوبر في مهدها. فلم يمر سوى يومين على انتصار الثورة حينما نظم كيرينسكي بالتعاون من الجنرال كراسنوف زحفا مسلحا على العاصمة بيتروغراد انتهى خلال اسبوع واحد باسركراسنوف وفرار كيرينسكي. ولم يمر اسبوع آخر عندما تمكنت الوحدات الثورية الاستيلاء على مقر القائد العام للجيش الروسي الجنرال دوخونين الذي تحول الى رأس خطر من رؤوس المؤامرة ضد الثورة.

توسعت تحركات اعداء الثورة في الداخل فيما بعد بفضل المساندة الكبيرة التي تلقوها من الدول الرأسمالية التي بذلت بدورها كل ما في وسعها للقضاء على ثورة اكتوبر. ففي ٢٨ تشرين الثاني عام ١٩١٧، اي بعد مرور ثلاثة اسابيع فقط على انتصار الثورة، عقد الحلفاء مؤتمرا قرروا فيه التدخل في روسيا بغية اسقاط السلطة السوفيتية. وفي اواخر كانون الاول ابرم المسؤلون الانكليز والفرنسيون اتفاقية ثنائية بصدد تقسيم مناطق النفوذ في روسيا، ولاسيما في مناطق ما وراء القفقاس الغنية.

ولم يختلف موقف المانيا من ذلك في شيء، بل ان الظروف مكنتها ان تسبق اعداءها في التدخل في شؤون روسيا السوفيتية. فان الاخيرة بعد أن فشلت في حمل الاطراف المتحاربة على عقد صلح فيما بينها اضطرت الى الى ان تعمل من اجل عقد صلح منفرد من المانيا. وقد اثار هذا الموضوع انشقاقاً خطيرا في صفوف الثوار الروس لان التروتسكيين والاشتراكيين الثوريين اليساريين والشيوعيين اليساريين عارضوا خطط لينين بهذا الصدد. وقد بلغ الامر بتروتسكي الذي كان على رأس الوفد المفاوض مع الالمان في بريست ان اخل بتوجيهات

القيادة ورفض في شباط ١٩١٨ التوقيع على الصلح من الحكومة الالمانية التي اسرعت قواتها بالهجوم على روسيا، ولم يكن بوسع الجيش الروسي القديم بسبب انحلاله، والجيش الاحمر الجديد بسبب حداثته صد القوات الغازية التي تمكنت احتلال مناطق جديدة واسعة من البلاد، وبصعوبة كبيرة استطاع السوفييت وقف الزحف الالماني ودرء الخطر عن العاصمة بتروغراد.

وبعد وقف الزحف وافقت الحكومة الالمانية على استئناف المفاوضات التي انتهت بالتوقيع على معاهدة صلح بريست في اذار ١٩١٨. ففقدت روسيا بموجب بنود هذه المعاهدة اراضي تبلغ مساحتها حوالي ١٥٠ الف كم٢، وبموجب اتفاق لاحق الزم الجانب السوفيتي بدفع تعويضات مالية كبيرة الى المانيا. وعلى ما يبدو لم يكن امام لينين سوى القبول بهذه التضحيات الكبيرة في سبيل الحفاظ على السلطة السوفيتية.

تأخر الحلفاء في التدخل لانهم كانوا يراقبون الاحداث عن كثب ويتوقعون تطورها باتجاه تجديد الحرب بين المانيا وروسيا. ولكن عندما خيب صلح بريست امالهم بدأوا بالتدخل مباشرة. ففي نفس الشهر الذي وقع فيه الصلح باشرت القوات الانكليزية والفرنسية والامريكية بالتدخل في روسيا ثم اتبعتها القوات اليابانية والايطالية. اما رومانيا فأنها سبقت الجميع عندما احتلت قواتها بيسارابيا في كانون الثاني ١٩١٨. وقد جرى تعاون وثيق بين المتدخلين الاجانب واعداء الثورة في الداخل والذين كان الحرس الابيض يمثل حربتهم. وهكذا لم يحل صيف عام ١٩١٨ حتى غدت ثلاثة ارباع البلاد الروسية الشاسعة في قبضة الغزاة الاجانب والحرس الابيض.

وبعد ان وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها شدد الحلفاء من تدخلهم في روسيا السوفيتية فقد حلت الجيوش الانكليزية والفرنسية محل الجيوش الالمانية في

اوكرانيا ومناطق ما وراء القفقاس، كما انزل الفرنسيون والانكليز قواتهم في معظم الموانئ الجنوبية بضمنها مينائي اوديسا وسيوا ستوبل الحيويين. وهكذا بلغ عـــدد القوات المغيرة على الجنوب وحده حوالي ١٣٠ الف شخص. ولغاية ربيـــع عـــام ١٩١٩ بلغ عدد قوات الحلفاء والحرس الابيض حوالي مليون جندي كانوا يعملون في جميع الجبهات من اجل تقويض السلطة السوفيتية. ولتحقيق غرضها هـــذا لـــم تتوان الاوساط الحاكمة في البلدان الرأسمالية عن تقديم مساعدات سخية لحلفائهـــا من اعداء الثورة في الداخل. فيكفي ان نشير الى ان احد جيوش الحرس الابـــيض الرئيسيين قد تلقى من الخارج على شكل مساعدات عسكرية ٧٠٠ الف بندقيـــة و ٣١٥٠ رشاشة و ٥٣٠ مدفعا و٣٠ طائرة وكميات كبيرة جدا من العتاد والالبســـة من مليوني زوج من الاحذية العسكرية. وخلال اقل من ستة اشهر (من اذار حتى ايلول ١٩١٩) تلقى جيش اخر من جيوش الحرس الابيض ٥٥٨ مدفعا و١٢ دبابة ومليون و٧٠٠ الف قذيفة و١٦٠ مليون طلقة واعتدة اخرى من انكلتـــرا وفرنســـا وحدهما. اما الولايات المتحدة فقد قدمت الى نفس الجيش ملابس واعتـــدة مختلفـــة بلغت قيمتها حوالي ٨٧ مليون دولار.

احتاجت السلطة السوفيتية الى تضحيات بشرية ومادية جســـيمة مـــن اجـــل القضاء على اعدائها في الداخل والخارج ولردع المعتدين الاجانب وطردهم مـــن البلاد. وقد استغرق تحقيق ذلك عدة سنوات، وبالتحديد حتى تشـــرين الاول عـــام ١٩٢٢ عندما اضطرت القوات اليابانية الى الانسحاب من الشرق الاقصى لتبدأ من بعد ذلك مرحلة بناء صعبة للغاية.

" النيب"

دمرت احداث الحرب العالمية الاولى والحرب الاهلية والاعتداء الخـــارجي اقتصاديات البلاد. ففي العام ١٩٢٠ انخفض مجمل الانتاج الصـــناعي الســـوفيتي

بمقدار حوالي ٨٦% قياسا مع العام ١٩١٣، وهبط انتاج الفولاذ بمقدار اكثر من ٩٥% والحديد بمقدار ٩٧% والانتاج الزراعي بمقدار ٥٠%. وهكذا فأن اكثر البلدان التي عانت من الحرب لم يتدنى فيها الانتاج الى مثل هذا المستوى الخطير، فأن روسيا غدت تحتل المرتبة الاخيرة من حيث الانتاج بين الدول الصناعية بعد ان كانت تحتل المرتبة الخامسة قبل الحرب.

وللتغلب على هذه الظروف الصعبة كان لابد من العمل السريع والدقيق في آن واحد، فتوجهت السلطة السوفيتية الجديدة قبل كل شيء الى القضاء على الاسس الاقتصادية لاعداء الثورة الحقيقيين، فالغت حال انتصار الثورة ملكية الاراضي الكبيرة بوصفها الاساس الذي تستند اليه بقايا العلاقات الاقطاعية واصدرت مراسيم الغت بموجبها المراتب الاجتماعية واممت التجارة الخارجية والمؤسسات الخاصة، ولاسيما تلك التي رفض اصحابها التعاون من النظام الجديد، كما الغت جميع قروض الدولة الخارجية والداخلية.

وفي اذار ١٩٢١ بوشر بتطبيق " السياسة الاقتصادية الجديدة" (النيب) التي استهدفت بناء المجتمع الاشتراكي في ظروف التعاون بين القطاعين العام والخاص على اساس الاستفادة من السوق والتجارة والتداول النقدي تمهيدا لفرض السيطرة المطلقة للاول منهما.

عارض التروتسكيون وغيرهم من المتشددين "النيب" على اساس انه يؤلف تراجعا كبيرا عن الافكار الاشتراكية. ومع ان السياسة الاقتصادية الجديدة ادت الى ظهور فئة بورجوازية جديدة قوامها التجار والمقاولون والوكلاء وغيرهم من الذين بلغ تعدادهم مع افراد اسرهم اكثر من مليوني شخص عام ١٩٢٦ وان ٩٤ مؤسسة اجنبية ظلت تعمل على اساس امتيازات ممنوحة لها وقد بلغ عدد عمالها

عام ١٩٢٥ حوالي ٥٤ الف عامل، مع ذلك فأنه حسبما يبدو لم يكن هناك بد من اللجؤ الى "النيب" للتخفيف عن مشاكل البلاد الاقتصادية. ثم ان الرقابة الدقيقة التي خضع لها النشاط الخاص وسيطرة الدولة على المفاتيح الرئيسة لاقتصاديات البلاد وابتكارها لمشاريع السنوات الخمس القائمة على التخطيط الاشتراكي وعوامل اخرى مشابهة حالت فعلا دون تحول القطاع الخاص الى عائق امام التطور الاشتراكي للبلاد.

اما من الناحية السياسية فان السلطة قد جردت بتشددها الكبير الكولاك (بورجوازية الريف) والتجار وغيرهم عن حق ممارسة اي نشاط سياسي، بل وحتى حرمتهم من حق الانتخاب بموجب بند صريح ورد في دستور اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية الذي أقر في كانون الثاني عام ١٩٢٤.

وفي ظل "النيب" ركزت الدولة اساسا على مشاريع السنوات الخمس لبناء اقتصاد جديد ومتين. ففي ايار ١٩٢٩ صدر مشروع السنوات الخمس لبناء اقتصاد جديد ومتين. ففي ايار ١٩٢٩ صدر مشروع السنوات الخمس الاول الذي استهدف اكثر من اي شيء وضع قاعدة ثابتة لبناء صناعة ثقيلة متطورة بوصفها النواة المركزية لاقامة اقتصاد اشتراكي. وبعد تحقيق المشروع بنجاح وقبل الوقت المقرر بوشر في مطلع العام ١٩٣٣ بتطبيق مشروع السنوات الخمس الثاني الذي كان اضخم بكثير من المشروع الاول.

ارتطم تطبيق "النيب" بصعوبات جدية، خاصة وان المشاكل التي تصدى لمعالجتها كانت في غاية التعقيد. فبعد مرور خمس سنوات على انتصار الثورة كل لايزال يوجد في البلاد حوالي مليون عامل عاطل عن العمل، وكانت اسعار السلع الانتاجية الصناعية مرتفعة جدا. ولغاية عام ١٩٢٦ لم يسترجع اقتصاد البلاد

مستوى ما قبل الحرب العالمية الاولى الذي كان مستوى متخلفا بحد ذاته، يعتمد ثلثاه على انتاج زراعي متأخر والثلث الباقي على انتاج صناعي غير متطور ويشغل بالاجمال المرتبة الخامسة في العالم من ان روسيا كما ذكرنا في حينه تحتل المكان الاول بين جميع الدول من حيث المساحة والمكان الثالث من حيث عدد السكان.

ومن الجدير بالذكر ان التطور الثقافي البطيء في المرحلة الاولى بعد انتصار الثورة يعكس ذلك الواقع المتخلف وصعوبات العهد الجديد بصورة واضحة. ففي الحقيقة كان لدي السلطة الجديدة رغبة اكيدة في تطوير الحياة الثقافية لعامة الشعب باسرع ما يمكن، فأصدرت في كانون الاول ١٩١٩ مرسوم القضاء على الامية بين البالغين، فتعلم ما لايقل عن خمسة ملايين شخص القراءة والكتابة خلال ثلاث سنوات فقط، الا انه مع ذلك لم يكن بوسع النظام الجديد جعل التعليم الابتدائي الزاميا الا في اواسط العام ١٩٣٠، اي بعد مرور ١٣ سنة على انتصار الثورة. فضلا عن ذلك فأن عدد تلامذة المرحلتين الابتدائية والثانوية بلغ اكثر من عشرة ملايين وربع مليون بقليل عام ١٩٢٥-١٩٢٦ يقابلهم اكثر من تسعة ملايين ونصف مليون عام ١٩١٤-١٩١٥ في عز ايام الحرب مما يعني زيادة محدودة جدا لا تتناسب قطعا مع طموحات ثورة اشتراكية.

عقدت الاخطاء التي ارتكبت والبيروقراطية التي سادت في مجرى تطبيق "النيب" مشاكل البلاد اكثر، الامر الذي انعكس بصورة خاصة في مجال الاصلاح الزراعي الذي رافقه ضغط اقتصادي وسياسي غير مبرر على الفلاحين المتوسطي الحال حسب مقاييس روسيا يومذاك، فقد حرم هؤلاء، وغيرهم من حق الانتخاب وصودرت ممتلكاتهم الخاصة من مساكن وماشية صغيرة بل وحتى ما يمتلكون من طيور داجنة. كما عانت اعداد غفيرة منهم من صنوف التعذيب

والاعتقال والنفي، وقد ولد كل ذلك استياء مشروعا في نفوس الفلاحين تجاه المزارع التعاونية. وانعكست الاثار السلبية للاخطاء الجسيمة التي ارتكبت على وتأثر نمو الانتاج الزراعي نفسه. ولم يكن مجرد صدفة ان اضطرت الحكومة عام ١٩٢٨ الى تقنين توزيع عدد من الحاجيات الحياتية الضرورية من قبيل الخبز وغيره.

ومن جهة اخرى هيأ سير الامور بمثل هذا الاتجاه مناخا ملائما لتحرك عناصر الثورة المضادة في طول البلاد وعرضها. ففي سنة ١٩٢٨ اكتشفت في منطقة مناجم الفحم الرئيسة دونباس منظمة سرية كبيرة معادية للنظام الاشتراكي. ولم يمر اكثر من عامين عندما اكتشفت الدوائر المختصة احزابا سرية نشطت في صفوف العمال والفلاحين والمثقفين مثل "الحزب الصناعي" و " حزب العمل الفلاحي". وقد رافقت هذه النشاطات اعمال تخريبية وحملة دعاية واسعة ضد المزارع التعاونية التعاونية تدعو الفلاحين الى عدم التعاون معها او على الاقل نحر ماشيتهم قبل ان ينتسبوا اليها.

وبالرغم من جميع هذه الصعوبات فأن خطط التنمية السوفيتية حققت نجاحات مشهودة. ففي العام ١٩٢٧ تخطى الانتاج الصناعي الاجمالي السوفيتي مستوى عام ١٩١٣ بينما تفوق عليه في العام ١٩٣٧ بنسبة تربو على ٥٠٠ في المئة. وخلال تنفيذ مشروع السنوات الخمس الاول ظهرت فروع صناعية مهمة جديدة في البلاد مثل صناعة التراكتورات والسيارات والطائرات والمكائن الزراعية وغيرها. وقد اولت مشاريع التنمية كهربة روسيا اهتماما خاصا نابعا من منطلق نظري صاغه لينين هكذا: " الشيوعية تساوي السلطة السوفيتية زائدا كهربة البلاد من اقصاها الى اقصاها". وقد مهد كل ذلك الطريق ليتبوأ الانتاج الصناعي

السوفيتي عشية الحرب العالمية الثانية المركز الاول على صعيد اوربا والمركز الثاني على صعيد العالم.

وهكذا ظهرت الاسس المادية الضرورية لتطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للاتحاد السوفيتي. ففي بداية العام ١٩٣٥ الغي نظام تقنين الحاجيات الحياتية الضرورية بعد ان مرت على تطبيقه زهاء سبع سنوات. ومع انتهاء تنفيذ مشروع السنوات الخمس الاول تم القضاء نهائيا على البطالة بين العمال مع العلم ان عدد العمال والمستخدمين قد ارتفع بسرعة كبيرة (من حوالي ١١ مليون شخص عام ١٩٢٨ الى حوالي ٢٧ مليون شخص عام ١٩٣٧). وفي سنة ١٩٣٧ بلغ عدد تلامذة المدارس الابتدائية والثانوية ٣٠ مليونا اي بزيادة ٣٠٠ بالمئة قياسا مع ما كان عليه الامر في العام الدراسي ١٩٢٥-١٩٢٦. وقد اولى النظام الجديد التخصص في التعليم قسطا كبيرا من اهتمامه. ففي العام الدراسي ١٩٣٧-١٩٣٨ بلغ عدد طلبة المدارس العليا في الاتحاد السوفيتي ٥٤٨ الف طالبا، اي بزيادة مئة الف طالب عن عدد امثالهم في انكلترا والمانيا وفرنسا وايطاليا واليابان مجتمعة.

تم في كانون الاول عام ١٩٣٦ وضع مردودات هذه التغيرات في اطار دستور جديد اعلن تحقيق الاشتراكية في البلاد " كأدنى حد للشيوعية" ومنح جميع المواطنين حق الانتخاب العام المباشر عن طريق الاقتراع السري، ولكن دونما ان يؤثر ذلك في الواقع على نوعية الاشخاص الذين قدر لهم ان يصبحوا نوابا في مجالس السوفيتيات المحلية او في مجلس السوفيت الاعلى. ونص الدستور الجديد على ان الاتحاد السوفيتي دولة اشتراكية من العمال والفلاحين قائمة على اساس الاتحاد الاختياري بين الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية.

جرى الجانب الاكبر من هذه الاصلاحات في عهد ستالين الذي خلف لينين بعد وفاته في ٢١ كانون الثاني ١٩٢٤.

ستالين:

الجورجي جوغاشفيلي يوسف فيساريونوفيتش الملقب حزبيا بستالين (١٨٧٩-١٩٥٣) واحد من اقرب اعوان لينين ومن ابرز زعماء البلاشفة وأحد كبار قادة ثورة اكتوبر ومنظري فلسفتها، خلف لينين في زعامة الحرب البلشفي والدولة السوفيتية. عرف برباطة الجأش والحزم الى حد التطرف والاعتزاز بالنفس والارادة القوية التي كانت تبلغ حد الخشونة في تعامله مع اقرب رفاقه. وحسبما يبدو ان لينين عندما كان طريح فراش الموت حذر من صفات ستالين السلبية وابدى مخاوفه من ان تؤدي به الى اخطاء قد تكلف البلاد الكثير.

لم يمر وقت طويل على انتقال الزعامة الى ستالين عندما تحققت نبؤة لينين، فقد بدأ يميل الى التفرد بالحكم من غير منازع. فخلال السنوات العشر الاولى من حكمه، مثلا، عقد الحزب البلشفي اربعة مؤتمرات فقط مقابل ستة مؤتمرات عقدها الحزب خلال ست سنوات من حكم لينين الملئ بالاحداث والمخاطر.

والاسوأ من ذلك ان ستالين بدأ يمارس سياسة اتسمت بمنتهى القسوة استهدف منها تصفية مناوئيه داخل الحزب وخارجه وفي صفوف الجيش والاجهزة الحكومية، مما كلف حياة اعداد هائلة من زعماء الحزب وكبار مسؤولي الدولة وقادة الجيش وضباطه وبسطاء الناس وغيرهم من الاشخاص الابرياء الذين كان معظمهم من اخلص الناس له وللنظام الاشتراكي.

لا تتوفر احصاءات دقيقة عن ضحايا السياسة الستالينية التي توصف عادة بسياسة عبادة الفرد، ولكن من المعروف ان يد الموت كانت تمتد في بعض

الحالات حتى الى افراد اسر الزعماء المشنوقين بضمنهم اطفالهم الصغار. ففـــي شهر حزيران عام ١٩٣٧ وحده جرت محاكمـــات صـــورية لمارشـــال وســـبعة جنرالات في الجيش ونفذ فيهم جميعا حكم الموت رميا بالرصاص كما تـــم فـــي الوقت نفسه عزل الالوف من ضباط الجيش الاحمـــر ويقـــال ان الاســـتخبارات الالمانية كانت لها يد خفية في الموضوع على اساس انها لفقت تهما باطلـــة ضـــد هؤلاء القادة العسكريين.

وبالرغم من كل ذلك فأن ستالين لعب دورا مهما في ترسيخ دعـــائم الدولـــة السوفيتية وفي تحقيق النصر على الفاشية في الحرب العالمية الثانية ولئن كان قـــد ارتكب خطأ فظعيا على صعيد السياسة الخارجية عشية الحرب.

السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي:

على صعيد السياسة الخارجية حاولت السلطة السوفيتية قبل كل شيء اقامـــة علاقات طبيعية عبر قنوات دبلوماسية صرفة مع الدول المجاورة حتـــى تحـــول بذلك، قدر المستطاع، دون تحويل اراضيها الى قواعد انطلاق التدخل في شؤونها الداخلية من قبل الدول الكبرى فعقدت في العام ١٩٢٠ معاهدات ثنائية مع كل من ليتوانيا ولاتفيا واستونيا وفنلندة وفي العام التالي عقدت معاهدات مشابهة مع كـــل من ايران وافغانستان وتركيا وبولونيا وابرمت اتفاقات تجارية مع عدد من الـــدول الاوربية بضمنها انكلترا والمانيا وايطاليا وغيرها.

وفي نيسان ١٩٢٢ اشترك وفد سوفيتي في اعمال مؤتمر جنوا وقـــد طالـــب مندوبو الحلفاء الى المؤتمر من الوفد الاعتراف بديون النظام القيصري والحكومة المؤقتة والانظمة التي اقامها الحرس الابيض في سنوات الحرب الاهلية والوعـــد باعادة المؤسسات الصناعية الاجنبية المؤممة بعد ثورة اكتـــوبر الـــى اصـــحابها

وبالمقابل طالب الوفد السوفيتي بحصة روسيا من تعويضات الحرب العالمية الاولى وتعويض الاضرار التي سببها التدخل الاجنبي المسلح والتي قدرت باكثر من ضعف المبالغ التي كانت الدول الكبرى تريد استحصالها من الجانب السوفيتي فلم يتوصل الطرفان الى اتفاق بصدده.

استغل الوفد السوفيتي فرصة اشتراكه في مؤتمر جنوا لاجراء مفاوضات مباشرة مع الوفد الالماني اسفرت عن عقد معاهدة رابالو (١٦ نيسان ١٩٢٢) التي اقامت الدولتان بموجب بنودها علاقات دبلوماسية بينهما لم ترتح منها الدول الكبرى الاخرى التي سرعان ما قامت بتنظيم حملة دعائية واسعة ضد الاتحاد السوفيتي بلغت حد قيام وزير خارجية انكلترا اللورد كيرزن بالتهديد علنا بتنظيم حرب تدخل جديدة ضد السوفيت. وساءت العلاقات بين الدولتين من يوم الى آخر حتى ان انكلترا قامت بقطع علاقاتها الدبلوماسية والتجارية مع الاتحاد السوفيتي في العام ١٩٢٧. وشهدت تلك السنوات اعتداءات متكررة على مقرات الهيئات الدبلوماسية السوفيتية في الخارج وعلى حياة العاملين فيها.

ولكن على الرغم من كل ذلك بدأ الاتحاد السوفيتي يتمتع بوزن متزايد على الصعيد الدولي، الامر الذي انعكس في اواخر العشرينات في سلسلة المعاهدات الجديدة التي عقدها مع الدول المجاورة. وفي العام ١٩٢٧ دعي وفد سوفيتي للاشتراك في اعمال اللجنة التحضيرية لمؤتمر نزع السلاح، فتقدم بمشروع لنزع السلاح العام ينفذ دون تأخير. وفي اواخر سنة ١٩٢٩ استأنفت انكلترا علاقاتها الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي. وفي تشرين الثاني عام ١٩٣٢ وقعت الحكومة السوفيتية مع فرنسا معاهدة حياد وعدم اعتداء. وبعد سنة (تشرين الثاني ١٩٢٢) اقيمت العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي. وفي الفترة ذاتها دعي الاتحاد السوفيتي للدخول في عصبة الامم.

ومع تزايد الخطر الفاشي في النصف الثاني من العقد الرابع واقتراب الحرب واحتمال هجوم الماني باتجاه الشرق كان الغرب يراهن عليه، بدأ الاتحاد السوفيتي يولي تطوير الجيش اهتمام استثنائيا. فخلال الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣٤-١٩٣٩ ارتفع عدد جنود الجيش الاحمر بمقدار اكثر من مرتين، وطورت اسلحته كما ونوعا بمستوى اكبر حتى من ذلك. فأن عدد دباباته، مثلا، ازداد بمقدار يزيد عن ٤٣ ضعفا وعدد مدافعه ازداد بمقدار ٧ اضعاف وطائراته بنسبة ٥٥٠ بالمئة كما نمت البحرية السوفيتية التي الحق بها اسطولان جديدان الاول في المحيط الهادي والثاني في بحر الشمال.

وفي ظروف المناورات السياسية الذكية واللئيمة التي كان كل دولة كبرى تستهدف منها ابعاد شبح الحرب عن اراضيها وتفريغ الطاقات العسكرية الهائلة المتراكمة لدى غريماتها بمنجى عنها، حاول الغربيون ولاسيما الانكليز والفرنسيون، توجيه انظار هتلر نحو الشرق، كما لاحظنا ذلك في المواضيع السابقة. وبعد فشل مفاوضات موسكو لعقد اتفاقية للتعاون المتبادل بين الاتحاد السوفيتي وفرنسا وانكلترا سار الاتحاد السوفيتي على نفس نهج مساومة هتلر المبني على اسس وتوقعات خاطئة، ذلك النهج الذي طغى يومذاك على مجمل علاقات الدول الكبرى فيما بينها. فاستجاب الاتحاد السوفيتي لاقتراح الماني بعقد معاهدة عدم اعتداء بين الطرفين امدها عشر سنوات، وقد تم التوقيع عليها في آب ١٩٣٩ مما اعطى هتلر فرصة أفضل لاعلان الحرب على الجبهة الغربية بعد مرور شهر واحد فقط على ابرام المعاهدة السوفيتية- الالمانية التي اوقعت ستالين في خطأ كبير كلف بلاده والعالم الكثير. فقد غالى ستالين كثيرا في تقدير اهمية المعاهدة الالمانية السوفيتية بحيث انه لم يصدق حتى ادق المعلومات واوثقها التي كانت تؤكد له استعدادات القوات الالمانية لاقتحام الاراضي السوفيتية التي بقيت

دفاعات اجزائها الغربية دون المستوى المطلوب الى حد كبير، مما اعطى الهتلريين افضل فرصة لتوجيه ضربات مؤلمة غير متوقعة للقوات السوفيتية في بداية الغزو الالماني للاتحاد السوفيتي.

استغل الاتحاد السوفيتي ظروف الحرب على الجبهة الغربية لاستعادة بعض المناطق التي اقتطعت منه ايام الحرب الاهلية ولضم مناطق اخرى مجاورة لحدوده وذلك بحجج مختلفة اهمها الحجج العرقية والستراتيجية. فبعد الحرب الفنلندية السوفيتية التي بدأت في تشرين الثاني ١٩٣٩ بتحريض من الالمان واستسلام فنلندا اقرت حدود جديدة بين الدولتين لصالح الدفاع عن مدينة لينينغراد وميناء مورمانسك في الاتحاد السوفيتي. وفي حزيران ١٩٤٠ استعاد الاتحاد السوفيتي بيسارابيا التي استولت عليها رومانيا عام ١٩١٨. وفضلا عن ذلك اضطرت رومانيا الى التنازل للاتحاد السوفيتي عن القسم الشمالي من بوكوفينا الذي تقطنه اكثرية اوكراينية.

الولايات المتحدة الامريكية

مقدمة عامة:

تعتبر الولايات المتحدة الامريكية واحدة من القوتين العظميين في عالمنا المعاصر. تعود بداية ظهورها كدولة مستقلة الى مطلع تموز عام ١٧٧٦ باعلان ١٣ ولاية من المستعمرات البريطانية السابقة في امريكا الشمالية الاستقلال الذي اقرته بريطانيا في اواخر تشرين الثاني ١٧٨٢. وقد ارتفع عدد ولايات هذا الاتحاد اما شراء (لويزيانا من نابليون وفوريدا من اسبانيا والاسكا من روسيا) وضما (مثل المناطق المكسيكية في الجنوب – نيومكسيكو وغيرها) بحيث بلغ مجموعها

٤٨ ولاية في العام ١٨٥٣. وفي العام ١٩٥٨ تحول اقليم الاسكا الى الولاية ٤٩ وبعد سنة واحدة اصبحت جزر هاواي تؤلف الولاية الخمسين.

تبلغ مساحة الولايات المتحدة الامريكية ٩ ملايين و ٤٠٠ الف كم٢، فتشغل بذلك حوالي نصف مساحة امريكا الشمالية التي تربو على ٢١,٥ مليون كم٢. تطل الولايات المتحدة شرقا على المحيط الاطلسي وتتصل عن طريقه بالقارتين الاوربية والافريقية، وغربا على المحيط الهادي وتتصل عن طريقه بالقارة الاسيوية، وتقع كندا الشاسعة المساحة في شمالها والمكسك الصغيرة في جنوبها، ويفصلها عن جزيرة كوبا ممر مائي بعرض ٩٠ ميلا، وفي الوقت نفسه تتصل الولايات المتحدة بجميع اقطار امريكا اللاتينية تقريبا بواسطة طرق مائية تقطع الاطلس او الهادي.

يبلغ عدد سكان الولايات المتحدة الامريكية في الوقت الحاضر حوالي ٢٩٠ مليون نسمة (٢١٦ مليون حسب احصاء عام ١٩٧٦).

تعتبر الانكليزية لغة الام بالنسبة لحوالي ٨٠% من الشعب الامريكي، كما ان هناك مجموعات قومية كبيرة اخرى مثل الايطاليين الذين يتجاوز عددهم ٤ ملايين شخص والمكسيك(٤ ملايين) والالمان (٣,٦ مليون) والكنديين (٣ملايين) والبولونيين (٢,٥ مليون) والروس(٢,٣ مليون) وغيرهم. اما عدد الزنوج الامريكان فأنه لايقل عن ٢٥ مليون نسمة.

للولايات المتحدة الامريكية تاريخ حافل حديث ومعاصر، كما ان دورها مشهود في تطوير الحضارة الانسانية الحديثة، فهي بلد المخترعات المعروفة والتطورات العلمية الكبيرة. أما على الصعيد السياسي فأنها تزاول منذ عهد ليس بقريب التأثير المباشر وغير المباشر الكبير على سير الاحداث العالمية، وهي

تؤلف اليوم رأس حربه الاستعمار الجديد والسند الاكبر للكيان الصهيوني في انحاء العالم المختلفة الامور التي تستحق الدرس بعمق. وبالطبع يستند واقع الولايات المتحدة اليوم كدولة كبرى الى خلفية تأريخية واقتصادية يساعد توضيحها بصورة مركزة على فهم افضل لذلك الواقع.

الخلفية التأريخية:

اكتشف الاوربيون القارة الامريكية في العام ١٤٩٢، الا ان استيطانهم في امريكا الشمالية قد تأخر نسبيا وذلك تصور خاطئ مفاده ان تلك المناطق فقيرة أو انها " لا تجلب الخبر" كما ورد في خرائط الاسبان رواد كشف العالم الجديد. وقد سبق الفرنسيون غيرهم في التوجه الى امريكا الشمالية حيث استطونت مجموعاتهم الصغيرة في كندا التي اعتبرتها فرنسا مستعمرة تابعة لها منذ العام ١٥٤٠. ولغاية مطلع القرن السابع عشر لم تظهر للانكليز منطقة سكني ثابتة في امريكا الشمالية. ففي العام ١٦٠٧ فقط استقرت اول مجموعة انكليزية في منطقة جنوبية اختارت لها اسم (فيرجينيا) (العذراء) تيمنا باسم الملكة الزابث.

ومع ان الانكليز حاولوا منذ البداية لاستئثار بكل الاصقاع التي تؤلف الولايات المتحدة الامريكية حاليا ولم يقبلوا منافسة احد لهم فيها فدخلوا في صراع مع الهولنديين وغيرهم من اجلها، الا ان موجاتهم التي انتقلت اليها لم تكن كبيرة في البداية. فلغاية العام ١٧٧٥ لم يتجاوز عدد السكان في المستعمرات الثلاث عشرة البريطانية في امريكا الشمالية ٢,٦ مليون نسمة كان الزنوج يؤلفون حوالي ثلثهم. الا ان نوعية هؤلاء المستوطنين تجلب الانتباه في مجال بحثنا. فأن "العالم الجديد" قد تحول بصورة عامة الى ملجأ رئيس للمضطهدين فالقارة الاوربية من قبيل البيورتان والهيكونوت الحاذقين وغيرهم ممن انتقلوا مع خبراتهم الحرفية

الواسعة الى وطنهم الجديد، الامر الذي تحول الى عامل مساعد مهم مجرد صدفة ان الكاثوليك يؤلفون اليوم اقل من ٣٧% من مجموع سكان تلك البلاد يقابلهم فيها حوالي ٥٥% من البروتستانت.

لعب الواقع السكاني للولايات المتحدة الامريكية دورا مهما اخر في تهيئة جانب من المستلزمات الضرورية للتطور الجزئي الذي عاشته البلاد. فان الهنود الحمر- السكان الاصليون رحبوا في البداية بالجماعات الانكليزية الاولى الى درجة انهم في فيرجينا ، مثلا، تنازلوا لافرادها عن قسم من اراضيهم. ولكن سرعان ما تغير موقفهم تحت ضغط الموجات الانكليزية المتزايدة التي بدأت تستولى على افضل اراضيهم بل انهم أجبروا بالتدريج على السكن في مناطق محددة جعل الانكليز الموت عقوبة لكل هندي احمر يتجرأ على مغادرتها. وهكذا تحول السكان الاصليون الى غرباء في وطنهم، فتوترت علاقاتهم بالوافدين الجدد الاقوياء، مما وجد له انعكاسا صارخا في سلسلة من الانتفاضات والمصادمات الدموية التي قضت على امكانية التعاون بين الطرفين، فان الهنود الحمر غدوا يفضلون الموت على ان يستغلهم الانكليز، وازاء هذا الواقع، وجراء قلة الايدي العاملة قياسا مع الامكانيات الاقتصادية الهائلة للمنطقة، توجه الانكليز الى تجارة العبيد التي تحولت الى مهنة علية القوم وحظيت باهتمام الملوك ورعايتهم. ومن اجل تطوير هذه التجارة المشينة، ولكن المربحة جدا لم يتورع الانكليز ولم يتقززوا عن اللجوء الى احط الاساليب النقيضة لجميع القيم السماوية والانسانية. فأنهم، وهذا مجرد مثل بسيط، شجعوا الافريقيين على تداول الخمرة التي ازدهرت صناعتها بسرعة من اجلهم فلعبت دورها في رسم صورة غير حقيقية للفردوس الذي ينتظرهم في "العالم الجديد".

هكذا تمكن الانكليز من نقل الملايين من الزنوج الافريقيين الى الولايات المتحدة الامريكية حتى انهم غدوا يؤلفون مالا يقل عن ٤٠% من سكان الولايات الجنوبية في اواسط القرن الثامن عشر. وقد تحول هؤلاء، ودون استثناء، الى أرخص قوة انتاجية استخدمت في اشق الاعمال وأصعب المناطق، مما ساعد على تسريع لم يسبقه مثيل في عملية تراكم رأس المال في الولايات المتحدة الامريكية.

ولكن يبقى العامل الحاسم لتطور الولايات المتحدة الامريكية السريع يكمن في حقيقة ان افضل نبتة للرأسمالية نقلت الى اجود تربة صالحة لنموها في وقت ازدهار العلاقات الرأسمالية نفسها، فقد تفاعلت تجارب انكلترا- الدولة الرأسمالية الاكثر تقدما في العالم يومذاك مع الامكانات الاقتصادية الهائلة للولايات المتحدة الامريكية الذي تمخض عنه ميلاد مجتمع رأسمالي جديد سرعان ما تجاوز نظيراته في العالم بأسره. وعندما حاول الرأسماليون في المتربول عرقلة التطور الطبيعي لمستعمراتهم الامريكية كي تبقى بقرة حلوب بايديهم(*)نشبت حرب استقلال عاصفة (١٧٧٥-١٧٨٣) حظيت بتأييد جميع الامريكان، بمن فيهم تجار العبيد والمهربون. وكان من الطبيعي أن يهيء الاستقلال السياسي ظروفاً أنسب لتطور البلاد الاقتصادي والاجتماعي. وعندما تحول استغلال الزنوج باسلوب قروسطي في الجنوب المتخلف نسبيا الى عامل معرقل امام التطور اللاحق للبلاد هب الشمال المتطور لوضع حد لتلك الظاهرة الغريبة فاندلعت نيران حرب أهلية استمرت مدة اربع سنوات لتنتهي عام ١٨٦٥ بانتصار الشمال وتحرير الزنوج ليتحولوا الى قوة انتاجية اكثر فاعلية من السابق ولتظهر ظروف جديدة ساعدت

(*) من اجل ذلك اصدر المستعمرن الانكليز سلسلة من القوانين والتعليمات يمنعون بموجبها انتاج العديد من البضائع الصناعية المهمة واقامة مشاريع صناعية كبيرة ، بل وحتى نقل الحرفيين والمكائن والاختراعات الجديدة من انكلترا الى المستعمرات، كما شددوا من فرض الضرائب على الامريكان.

على توثيق الصلات بين اجزاء البلاد المختلفة في اطار سوق موحدة تحولت الى مصدر اخر لتعزيز مقومات تطور الولايات المتحدة الامريكية التي انتقلت بفضل كل ذلك الى المركز الاول في قائمة الدول الرأسمالية الاكثر تطورا قبل ان ينتهي القرن التاسع عشر. ولقد تعزز هذا التفوق اكثر لانه فضلا عن الامكانات الكبيرة للسوق الداخلية، وجد امامه ابواب امريكا اللاتينية مفتوحة الى حد كبير ولانه جذب قطاعات واسعة جديدة من افضل العمال والحرفيين الماهرين لامن اوربا حسب بل ومن اسيا ايضا. فخلال الربع الاخير من القرن التاسع عشر فقط انتقل اكثر من عشرة ملايين شخص جديد الى الولايات المتحدة الامريكية كان معظمهم من العمال والحرفيين الماهرين الاوربيين والاسيويين. وكما نلاحظ فيما بعد فأن ظروف الحرب العالمية الاول هيأت مناخا ملائما جدا لتثبيت دعائم التقدم والتفوق الامريكيين.

ولتوضيح ابعاد الصورة التي نحن بصددها بشكل افضل نورد فيما يلي بعض النماذج القليلة عن واقع لتطور الاقتصادي الامريكي في مرحلة الاحتكار. فعلى سبيل المثال ان انتاج عصب الصناعة الثقيلة الرئيس- الصلب والفحم – قد ارتفع في الولايات المتحدة الامريكية خلال عقدين فقط (من عام ١٨٧٧ حتى عام ١٨٩٩) بوتائر خيالية بلغت تسع عشرة مرة بالنسبة للاول وخمس مراتب بالنسبة للثاني. وخلال الفترة نفسها ازداد انتاج النفط- العنصر المحرك الجديد- بمقدار ست مرات. وهكذا لم يحل العام ١٨٩٤ الا واصبحت الولايات المتحدة تحتل المرتبة الاولى في العالم من حيث الانتاج الصناعي فسبقت في ذلك الاقطار الاوربية قاطبة اذ بلغت قيمة انتاجها الصناعي السنوي حوالي ٩,٥٠٠ مليون دولار، أي ضعف قيمة الانتاج في بريطانيا وحوالي ثلاثة اضعافها في المانيا واكثر من ذلك في فرنسا في السنة ذاتها. وعشية الحرب العالمية الاولى لم يبق

حقل انتاجي مهم واحد لم تحتل الولايات المتحدة فيه المرتبة الاولى. ففـــي العـــام ١٩١٣ بلغ انتاجها السنوي من الفولاذ ٣٣ مليون طن ومن الحديد ٣١ مليون طن ومن النفط ٣٣ مليون طن ومن الفحم ٥١٧ مليون طن.

جرى التطور الاقتصادي في الولايات المتحدة الامريكية على اساس التركز الرأسمالي منذ وقت مبكر نسبيا. ولم ينته القرن التاسع عشر عندما بـــدأ منتـــوج المؤسسات الكبيرة والشركات المساهمة يؤلف اكثر من ٦٦% من مجموع الانتاج الصناعي في البلاد، ومع بداية القرن العشرين اصبحت ثلاثة ارباع كل الانتـــاج الصناعي الامريكي خاضعة لاقل من ٥٠٠ تريست بلغ مجموع رأسمالها المستغل اكثر من ٢٠ الف مليون دولار.

رافق هذا الواقع وكنتيجة حتمية له استقطاب اجتماعي كبيـــر تحـــول الـــى نموذج صارخ للمجتمعات الرأسمالية الاحتكارية. ففي العام ١٩١٥ كان ٢% مـــن سكان الولايات المتحدة الامريكية يستحوذون لوحدهم على ٦٠% من كل الثـــروة القومية للبلاد، بينما كان ٦٥% من السكان يتمتعون بـــ٥٠% فقـــط مـــن الثـــروة القومية.

وكان من الطبيعي جدا ان ينعكس كل ذلك على واقع الحياة السياســـية فـــي الولايات المتحدة التي تعاني منذ زمن بعيد من مشاكل اجتماعية معقدة نســـتعرض اهمها باختصار بعد التطرق الى الحياة الحزبية في تلك البلاد والتي تعتبر بدورها وليدة الواقع نفسه.

الحياة الحزبية:

كان لابد من ان يظهر في الولايات المتحدة الامريكية اساس فكـــري مـــنظم يمثل هذه القاعدة الرأسمالية الواسعة ويأخذ اصحابه زمام الحكم بين أيديهم بهـــدف

حماية مصالح الاحتكارات وضمان افضل السبل لتطويرها على الصعيدين الداخلي والخارجي. من هنا جاء ميلاد حزبين رئيسيين في البلاد مع ظهور المهمات الجديدة امام المجتمع الامريكي، هما "الحزب الديمقراطي" و "الحزب الجمهوري" اللذين انعكست عليهما آثار كل ما طرأ من تغيير وتحول في البنيان الاقتصادي والهيكل الاجتماعي الامريكي منذ العقود الأولى من القرن التاسع عشر.

يعتبر "الحزب الديمقراطي" أقدم تنظيم سياسي كبير ظهر في الولايات المتحدة الامريكية. وضعت نواة هذا الحزب منذ سنة ١٧٩٧ عى يد الزعيم الوطني البارز توماس جيفرسون الذي وقف الى جانب تطوير الحكم اللامركزي للولايات وتقليص هيمنة الحكومة الفيدرالية عليها، الامر الذي لعب دورا كبيرا في ضمان فوزه في انتخابات الرئاسة للعام ١٨٠٤ كممثل لما كان يعرف بأسم "الحزب الديمقراطي – الجمهوري" . ولقد اقتصر اسم الحزب على كلمة(الديمقراطي) ايام الحملة الانتخابية للعام ١٨٢٨ عندما ظهر مرشح لمجموعة سياسية اخرى اطلقت على نفسها اسم الحزب الوطني الجمهوري. وعلى هذا الاساس غالبا ما يعتبر عام ١٨٢٨ التأريخ الرسمي لتأسيس "الحزب الديمقراطي".

كان "الحزب الديمقراطي" يمثل في البداية أساسا أصحاب الحقول والعبيد في الجنوب بعض من رأسمالي الشمال الذين كانت مصالحهم تتوافق مع الجنوب. ولكن بعد الحرب الاهلية وقبل ان ينتهي القرن التاسع عشر تحول الحزب الى احد الممثلين الرئيسيين للاحتكارات الرأسمالية ولم يبق فرق كبير بينه وبين "الحزب الجمهوري" في ذلك، مع العلم ان الديمقراطيين يحاولون اخفاء هذه الحقيقة وراء شعارات براقة واجراءات ليبرالية محدودة جذبت الى صفوف حزبهم الكثيرين من ذوي الدخل المحدود ليتحول بذلك في نظر العديد من المؤخرين الى ممثل لما يسمونه بـ"الرجل الصغير".

لاتوجد عضوية ثابتة في " الحزب الديمقراطي" بل يعتبر جميـــع المصـــوتين لمرشحيه اعضاء فيه، وهو يتمتع بنفوذ كبير ولاسيما في الولايات الجنوبية. ومن الجدير بالذكر ان صورة حمار تتوسط الشعار الرسمي للحزب الديمقراطي، ويعود تأريخ ذلك الى ايام الحملة الانتخابية لعام ١٨٧٤ عندما كان الرسام الكاريكـــارتير توماس ناست يصور "الحزب الجمهوري" على شكل فيل بينما كان يصور منافســـه الديمقراطي على شكل حمار.

اما "الحزب الجمهوري" فقد تأسس عام ١٨٥٤ وكـــان يضـــم فـــي البدايـــة البورجوازية التجارية ممثلين عن العمال والحرفيين وكل من كان يناهض استغلال عمل العبيد في الجنوب ويعارض سلطة "الحزب الديمقراطي". وبمعارضته القوية لاستغلال الزنوج بالاسلوب المتخلف الشائع في البلاد لعب "الحزب الجمهـــوري" في البداية دورا تقدميا مهما في تاريخ الولايات المتحدة الامريكية، ولاســـيما فـــي سنوات الحرب الاهلية، ولكنه تحول بعد ذلك بسرعة الـــى مـــدافع امـــين عـــن الرأسمالية الامريكية، الامر الذي يؤكد عليه القيمون على امـــور الحـــزب بكـــل صراحة حتى اصبح من الشائع عن الحزب بانه هو الممثل الشرعي لــــ "رجـــل الاعمال" الامريكي، مما دفع بالعناصر الديمقراطي والبورجوازية الصغيرة الـــى الابتعاد بالتدريج من صفوف "الحزب الجمهوري".

وفي الحقيقة لاتوجد اختلافات جوهرية بين الحزبين الديمقراطي والجمهوري حتى فيما يخص العديد من المسائل التفصيلية. فعلى ســـبيل المثـــال ان الخـــلاف الرئيس بينهما قد انصب في اواخر القرن التاسع عشر. في الموقف ازاء موضوع التعريفة الكمركية. فان الجمهوريين كانوا يميلون الى تبني سياسة من شأنها التشدد في فرض التعريفة الكمركية العالية على المنتوجات المستوردة من الخارج ليحموا بذلك البضائع الامريكية من منافسة البضائع المستوردة الارخص منها سعرا بحكم

الانخفاض النسبي لكلفتها. بينما على العكس منهم كان الديمقراطيون يميلون الى عدم التشدد في سياسة الحماية الكمركية لان الامر كان يهم كبار اصحاب الحقول في الجنوب والرأسماليين الذين كانت مصالحهم تعتمد على الصناعات التحويلية المرتبطة بالانتاج الزراعي. وكانت اجهزة دعاية الطرفين تعمل بحماس من منطلقين مختلفين لتبرير سياسة الحزبين هدف كسب الجماهير الامريكية فان "الحزب الجمهوري"، مثلا، كان يدعى ان "التعريفة العالية تعني اجورا اعلى "وهو كان يستهدف من طرح شعاره هذا كسب العمال الى جانبه. بينما كان "الحزب الديمقراطي "يؤكد على ان التعريف الكمركية المنخفضة تعني ضمان بضائع ارخص للمواطنين.

تمكنت البورجوازية الامريكية استغلال نظام الحزبين بنجاح كبير في سبيل تثبيت نفوذها السياسي. فان وجود احد الحزبين في المعارضة يجذب دائما العناصر المستاءة الى صفوفه، مما تحول الى عائق امام ظهور حزب شعبي حقيقي في البلاد.

ومثلما ذكرنا انحسرت السلطة بايدي الديمقراطيين لغاية عام ١٨٦١ ثم صعد بعد ذلك نجم الجمهوريين لان نتائج الحرب الاهلية تركت اثارا سلبية كبيرة على "الحزب الديمقراطي" الذي لم يتبوأ السلطة على مدى اكثر من نصف قرن بعد انتهاء الحرب سوى مرتين فقط، بينما حكم الجمهوريون البلاد خلال الاعوام ١٨٦٥-١٩١٣ عندما فاز ممثلهم ودور ولسن في دورتين انتخابيتين متتاليتين فبقى في الحكم حتى سنة ١٩٢١ ثم رجع الجمهوريون الى كرسي الرئاسة واحتفضوا به لغاية عام ١٩٣٣ ومرة اخرى عاد الديمقراطيون الى الحكم واحتفظوا به ثلاث دورات متتالية، اي حتى مطلع سنة ١٩٤٥.

وهكذا اصبح التناوب بين الحزبين في حكم الولايات المتحدة أمـراً مألوفـا، ولكن دونما ان يتمكن احداهما وضع حلول جذرية للعديد من مشاكل البلاد التـي ياتي التمييز العنصري على. رأس قائمتها.

الهنود الحمر والزنوج:

قال مكتشف العالم الجديد كريستوف كولومبس عن الهنود الحمر(*)في تقرير له رفعه الى ملك اسبانيا وملكتها انهم لايفهمون معنى السيف وجدواه، وهم مليئون بالحب، بعيدون عن الحقد، يحبون جيرانهم مثلما يحبون انفسهم، يبتسمون دائمـا ويتحدثون بصوت هو أنعم ما خلق الله من اصوات. وفـي ختـام تقريـره اكـد كولومبس بانه "لايوجد في اي مكان اخر من العالم اناس افضل او اكثـر وداعـة منهم".

الا ان هؤلاء الطيبين تعرضوا الى معاملة سيئة من الاوربيين الوافدين الـى بلادهم، فقد ادت ثلاث قرون من حكم الاسبان لامريكا اللاتينية الى فنـاء تسـعة اعشار سكانها من الهنود الحمر. ومع ان الهنود الحمر في امريكا الشمالية رحبوا بمقدم المستوطنين الانكليز الا ان تعامل هؤلاء معهم لم يختلف فـي شـيء عـن تعامل الاسبان في امريكا اللاتينية.

ولد هذا التعامل القاسي رد فعل قويا بين الهنود الحمر الـذين غالبـا كـانوا يلجأون الى حمل السلاح دفاعا عن وجودهم، فتعددت انتفاضاتهم منذ اواسط القرن

(*)ظهر اسم "الهنود الحمر" جراء تصور خاطئ لمكتشفي العالم الجديد الاوائل. فكما هو معلوم ان كولومبس واعوانه حينما وصلوا ارض امريكا تصوروا انهم بلغوا الهند غربا، ولما وجدوا ان لون بشرة سكان المنطقة يختلف عما هو معروف عن الهنود فقد اطلقوا عليهم اسم " الهنود الحمر" الذي بقي متداولا حتى اليوم.

السابع عشر وقد جوبهت بقسوة لا متناهية من قبل المستعمرين الانكليز. ففي العام ١٦٤٦ اصدر قائد الحملة البريطانية المرسلة لقمع احدى انتفاضات الهنود الحمر اوامر الى رجاله تقضى صراحه" بالقضاء على الهنود الحمر في البر والماء عن طريق قتلهم او اسرهم وحرق دورهم وتدمير مزروعاتهم وكل ممتلكاتهم الاخرى". وبهذا الاسلوب تعرض الهنود الحمر للانقراض فعلا.

ولم تتحسن ظروف الهنود الحمر فيما بعد ولغاية اليوم. فباعتراف التقارير الرسمية ان نسبة وفياتهم الناجمة عن الامراض كانت في اواسط الستينات اكثر بمقدار ١٤ مرة من نسبتها بين البيض، وان معدل العمر بينهم لايزيد عن ٤٤ عاما، وهو اقل بكثير عن معدل العمر بين البيض. وحسبما تعترف الصحافة الامريكية ان نسبة الامية بين الهنود الحمر تصل الى حوالي ٧٠%. وكما هو متوقع فان هناك تعاطف كبير بين الهنود الحمر والزنوج توطد تاريخيا وانعكس في البداية في اشتراك الاولين في الانتفاضات الزنجية مرارا.

في وقت ما كان الزنوج يؤلفون اكثرية سكان العديد من الولايات المتحدة الامريكية، وهم لايزالون يؤلفون نسبة كبيرة من سكان البلاد، فأن تعدادهم الان يربو على ٢٥ مليون نسمة، أي حوالي ١٢% من مجموع سكان البلاد، وهي نسبة عالية تنمو باستمرار بسبب ارتفاع نسبة الولادة بينهم، الامر الذي يثير قلق العنصريين بصورة جدية.

عانى الزنوج، ولايزالون يعانون الامرين من سياسة التمييز العنصري. وقد وصف الرحالة الاوائل الذين زاروا المنطقة ظروفهم الصعبة للغاية مؤكدين بانهم لم يشاهدوا "حتى بين العثمانيين والبرابرة مثيلا للوحشية التي تسود امريكا". ولم يقف الزنوج مكتوفي الايدي ازاء ذلك، بل انهم ثاروا مرارا بوجه مستغليهم. فان

عدد انتفاضات الزنوج قبل الاستقلال تجاوز ٢٥ انتفاضة اشترك الهنود الحمر في معظمها. وبما ان الاستقلال لم يجلب للزنوج شيئا يذكر فأن انتفاضاتهم قد تجددت فيما بعد. ففي انتفاضة صيف عام ١٩٣١ التي قادها نات تورنير(Nat Turner) الذي كان الزنوج يعتبرونه رسولا انتقل الثوار المدججين بالاسلحة البدائية من حقل الى اخر حيث قاموا بقتل اصحاب العبيد اينما وجدوهم.

ومع ان الحرب الاهلية ادت الى تحرير الزنوج الا انها لم تضع نهاية للعديد من مشاكلهم الاساسية الناجمة اصلا من سياسة التمييز العنصري المتبعة بحقهم. فان الرأسماليين لم يكونوا مستعدين لمنح الزنوج حقوقهم بصورة كاملة عن طريق الغاء جميع الفروق الموجودة بينهم وبين المواطنين البيض، ولم يتردد بعض الاحتكاريين حتى عن تمويل منظمات عنصرية ظهرت بعد الحرب الاهلية من قبيل منظمة " كوكلو كس كلان" السرية المعروفة التي تأسست عام ١٨٦٥ لتمارس أبشع أساليب الارهاب ضد الزنوج وانصار المساواة مع البيض . وتنشط منظمة "كو كاوكس كلان" وغيرها في الظروف الاستثنائية بصورة خاصة كما حدث ايام الحربين العالميتين وفي سنوات الازمة الاقتصادية العالمية (١٩٢٩-١٩٣٣).

لايزال يعاني الزنوج الامريكان الكثير من سياسة التمييز العنصري، ولاسيما في ولايتي ميسوري والباما. فباعتراف الوثائق الرسمية كان معدل اجور العمال الزنوج يؤلف ٥٢% فقط من اجور العمال البيض في وقت متأخر مثل العام ١٩٦٧. وباعتراف الصحافة الامريكية ان ٤٠% من الزنوج يدخلون في عداد الفقراء في الولايات المتحدة، فأن ٨٥% من الزنوج الامريكان هم عمال وان ٨٠% منهم يعملون في مجال الانتاج الزراعي، بينما ينتمي ٥% منهم فقط الى ما يعرفها بالطبقة المتوسطة.

وعلى غرار الهنود الحمر يعاني الزنوج بدورهم من وضع ثقـافي وصـحي سيء. فالى عهد قريب كان يمنع اطفال الزنوج من الدخول في مدارس البـيض، كما اغلقت الجامعات في العديد من الولايات أبوابها امام الزنوج.

اتخذ نضال الزنوج بعد الحرب ابعادا جديدة اتسم بالتنظيم. ففي العام ١٩٠٦، مثلا، ظهرت حركة سياسية زنجية باسم "نياغارا" ضـمت فـي صـفوفها ابـرز المثقفين الزنوج المعادين للتميز العنصري. ومنذ العام ١٩٥٧ فرضـت الحركـة الواسعة التي قادها الزعيم الزنجي المعروف الدكتور مارتن لوثر كنك نفسها على الحياة السياسية الامريكية بقوة كبيرة انعكس صداها، واسعا على الصعيد العـالمي ايضا. ومع ان الحركة اتسمت بطابع سلمي صرف وان زعيمها استحق جراء ذلك جائزة نوبل للسلام في العام ١٩٦٤، الا ان العنصريين لم يتحملوهـا فحاربوهـا بشدة، حتى انهم دبروا اغتيال الدكتور مارتن لوثر كنك في نيسان عام ١٩٦٨.

وبالرغم من ان هذه الحركات الزنجية تمكنت بفضل نضالها الدؤوب تحقيـق العديد من المكاسب للزنوج(*) الا انها كانت تعاني من نواقص كثيرة أثرت علـى نشاطاتها. فان منظمة "نياغارا" كانت لا تفرق بين الامريكان البـيض فـاعتبرتهم اعداء للزنوج دون استثناء. وقد بلغ التطرف بمنظمة زنجية اخرى حد انها دعت جميع السود الى مغادرة الولايات المتحدة الامريكية والعودة الى " افريقيا – الوطن الام". وكان من الطبيعي ان يترك مثل هذه المواقف اثارا سـلبية علـى مجمـل الحركة الديمقراطية، بما فيها الحركة العمالية.

(*)من الجدير بالذكر ان احد معاوني الرئيس الامريكي السابق جيسي كارتر كان مساعدا للدكتور مارتن لوثر كنك في حينه.

الحركة العمالية:

نمت الطبقة العاملة في الولايات المتحدة بسرعة وفي توافق مطلق مع نمـــو الرأسمالية الامريكية نفسها. فقد بلغ عدد العمال في الولايات المتحدة حوالي مليون ونصف مليون شخص في العام ١٨٦٠، ثم تضاعف الرقم بمقدار ســبع مــرات خلال اقل من نصف قرن ليصبح عشرة ملايين ونصف مليون مع انتهاء القـــرن التاسع عشر. وقد تضاعف الرقم فيما بعد، ولاسيما في سنوات الحــرب العالميـــة الاولى وبعدها.

عانى العمال الامريكان من صنوف الاستغلال، فلم يختلف وضعهم عن وضع اقرانهم الاوربيين الا في بعض التفاصيل الجزئية الناجمة عن واقـــع الامكانـــات الاقتصادية الكبيرة للولايات المتحدة. ولكن بالرغم من ذلك كان الــدخل الســنوي لثلثي العمال الذكور الامريكان لايزيد عن ٦٠٠ دولار في اواخر القــرن التاســع عشر، في حين كان الحد الادنى لكلفة الحياة للعائلة المؤلفة من خمســة اشــخاص يصل الى اكثر من ٨٠٠ دولار في بعض المناطق مثـــل نيويــورك. ولــم تكــن ظروف العمل في الولايات المتحدة الامريكية سهلة وظلت ساعات العمل اليــومي في مؤسساتها الصناعية تزيد عن ٨ ساعات لفترة طويلة من الزمن.

ولكن بالرغم من ذلك، ومع ان بدايات التنظيم العمالي في الولايات المتحــدة تعود الى العقود الاولى من القرن التاسع عشر الا ان الحركة العمالية الامريكية لم تبلغ بصورة عامة مستوى ما بلغته الحركة العمالية الاوربية، الامر الذي نجم عن مجموعة عوامل مهمة متفاعلة فيما بينها. فقبل كل شيء ان جانبــا سياســيا مـــن العمال كانوا من المهاجرين الجدد الذين انتقلوا الى الولايات المتحــدة الامريكيـــة كانت تزيد عن اجور العمال الاوربيين فكان مستوى معيشتهم بالتالي ارفـــع مـــن

الحركة العمالية:

نمت الطبقة العاملة في الولايات المتحدة بسرعة وفي توافق مطلق مع نمـو الرأسمالية الامريكية نفسها. فقد بلغ عدد العمال في الولايات المتحدة حوالي مليون ونصف مليون شخص في العام ١٨٦٠، ثم تضاعف الرقم بمقدار سـبع مـرات خلال اقل من نصف قرن ليصبح عشرة ملايين ونصف مليون مع انتهاء القـرن التاسع عشر. وقد تضاعف الرقم فيما بعد، ولاسيما في سنوات الحـرب العالميـة الاولى وبعدها.

عانى العمال الامريكان من صنوف الاستغلال، فلم يختلف وضعهم عن وضع اقرانهم الاوربيين الا في بعض التفاصيل الجزئية الناجمة عن واقـع الامكانـات الاقتصادية الكبيرة للولايات المتحدة. ولكن بالرغم من ذلك كان الـدخل السـنوي لثلثي العمال الذكور الامريكان لايزيد عن ٦٠٠ دولار في اواخر القـرن التاسـع عشر، في حين كان الحد الادنى لكلفة الحياة للعائلة المؤلفة من خمسـة اشـخاص يصل الى اكثر من ٨٠٠ دولار في بعض المناطق مثـل نيويـورك. ولـم تكـن ظروف العمل في الولايات المتحدة الامريكية سهلة وظلت ساعات العمل اليـومي في مؤسساتها الصناعية تزيد عن ٨ ساعات لفترة طويلة من الزمن.

ولكن بالرغم من ذلك، ومع ان بدايات التنظيم العمالي في الولايات المتحـدة تعود الى العقود الاولى من القرن التاسع عشر الا ان الحركة العمالية الامريكية لم تبلغ بصورة عامة مستوى ما بلغته الحركة العمالية الاوربية، الامر الذي نجم عن مجموعة عوامل مهمة متفاعلة فيما بينها. فقبل كل شيء ان جانبـا سياسـيا مـن العمال كانوا من المهاجرين الجدد الذين انتقلوا الى الولايات المتحـدة الامريكيـة كانت تزيد عن اجور العمال الاوربيين فكان مستوى معيشتهم بالتالي ارفـع مـن

مستواهم. والعامل الثاني المهم يكمن في الانقسام الصارخ للعمال الامريكان حسب انتمائهم القومي والعنصري والمذهبي وحتى الديني، وللاستبدلال على الاثار السلبية لهذا الواقع في ظل انخفاض الوعي الذاتي الشغيلة الامريكية تشير الى حقيقتين معبرتين في هذا المجال، الاولى تتعلق بالعلاقات المتبادلة بين العمال البيض والعمال السود، والثانية منهما تخص طبيعة الانتماء الى حزب العمال الاشتراكي الامريكي. فأن ٩٠% من اعضاء هذا الحزب الذي ظهر الى الوجود في الربع الاخير من القرن التاسع عشر كانوا من الالمان وحدهم قاعدة وقيادة. واخيرا فأن الطبقة العاملة الامريكية لم تعان من مشكلة البطالة في البداية على الاقل، ثم ان سعة الاراضي غير المستغلة تركت المجال مفتوحا امام العمال لاختيار ظروف حياتية انسب، كما أن الظروف الاقتصادية المواتية ساعدت على تكوين الارستقراطية العمالية الامريكية المؤثرة بسرعة.

وبغض النظر عن هذه الحقائق المهمة لم تبق الطبقة العاملة الامريكية مكتوفة الايدي. ولتوضيح هذا الامر نقتصر هنا على ذكر بعض الشواهد المعبرة. ففي العام ١٨٧٧ وقع اول اضراب شامل على صعيد البلاد شبهته الصحافة بكومونة باريس. وفي للفترة الواقعة بين عامي ١٨٨٠ و ١٨٨٥ بلغ معدل الاضرابات السنوية في الولايات المتحدة حوالي ٥٠٠ اضرابا وصل عدد المشتركين فيها الى ١٥٠ الف شخص، بينما في السنوات الخمس التالية (١٨٨٥-١٨٩٠) ارتفع الرقم الاول الى ١٢٠٠ واحيانا حتى الى ١٧٠٠ وارتفع الرقم الثاني الى اكثر من ٥٠٠ الف عامل.

وكان ابرز هذه الاضرابات ما وقع في ايار عام ١٨٨٦. ففي ذلك الشهر حدث اضراب شامل في البلاد وصل عدد المشتركين فيه الى ٣٥٠ الف عامل طالبوا بتقليص ساعات العمل الى ثمان ساعات وبتحسين ظروف العمل. وقد

تحولت مدينة شيكاغو الى المركز الرئيس للاضراب الذي انفجر هنا منذ اليوم الاول من ايار. وعندما تطور الاضراب وبدأ يجلب انتباه العمال الاخرين ويكسب عطف الجماهير المتزايد فتح رجال الشرطة النار على المضربين بمدينة شيكاغو في ١٣ ايار، وحينما عقد المضربون في اليوم التالي اجتماعا موسعا للاحتجاج على موقف السلطة القى احد المهندسين بقنبلة على رجال الشرطة فجعلت الاوساط الحاكمة من ذلك ذريعة لالقاء القبض على قادة الاضراب وتقديمهم الى المحكمة التي اصدرت حكم الموت بحق أربعة منهم. وقد اختتم شبايس، احد الاربعة، دفاعه بالقول:

" سوف يحين اليوم الذي يكون فيه سكوتنا اكثر دويا من خطبنا!". وهكذا كان فعلا. فلم تمر سوى ثلاث سنوات فقط عندما تقرر اختيار الاول من ايار، يوم اعلان الاضراب في شيكاغو، رمز للتضامن العمالي وعيدا للطبقة العاملة تعترف به رسميا كل الانظمة المتقدمة في عالم اليوم.

وبالرغم من ضربة ايار، فان الحركة الاضرابية الامريكية لم تتوقف. ففي العام ١٩٠٢ اضرب حوالي ١٥٠ الفا من عمال مناجم الفحم على مدى خمسة اشهر مطالبين برفع اجورهم بمقدار ٢٠% وبتحديد ساعات عملهم بثمان بدل عشر، وقد اضطر الرأسماليون الى بعض التراجع فمنحوا العمال زيادة ١٠% من الاجور وخفضوا ساعات عملهم بمقدار ساعة واحدة في اليوم.

وفي المرحلة نفسها شهدت الولايات المتحدة الامريكية سلسلة من الحركات الديمقراطية التي تحولت الى احدى سمات الحياة السياسية للبلاد.

عصبة مكافحة الامبريالية وحركة المشهرين:

ظهرت أبرز الحركات الديمقراطية المبكرة في عهد الامبريالية في الولايات المتحدة بالذات. ففي العام ١٨٩٨، أي بالتحديد اثناء الحرب بين الولايات المتحدة واسبانيا والتي تعتبر أول حرب امبريالية في التأريخ، تأسست بمدينة بوسطن" عصبة مكافحة الامبريالية" التي ضمت مجموعة كبيرة من أبرز المثقفين الثوريين الامريكان. وكان يقود هؤلاء عدد من الساسة المحنكين المنتمين الى الجيل الاول من الجمهوريين للذين ناضلوا باخلاص ضد العبودية في حينه. وكان يوجد بينهم ايضا اعضاء في عدد من المؤسسات الرسمية بما في ذلك الكونكريس. وتأثير من العصبة وافكارها ارتفعت اصوات الاحتجاج من بين جدران جامعات امريكية عديدة.

وبفضل عدد من الصحفيين تمكنت الحركة من كسب بعض المجلات التي تحول قسم منها، مثل مجلة " نيشن (Nation)" (الامة)، الى أشبه ما يكون بلسان حال العصبة. وقد وقف معظم الكتاب الامريكان، وبينهم عدد غير قليل من الكتاب الواقعيين، الى جانب الحركة منهم مارك توين وتوماس اولدريج وغيرهما ممن فضحوا حقيقة السياسة الامبريالية الامريكية باسلوب رائع كما فعل مارك توين، مثلا، في قصته"الى السائر في الظلام " التي طبعت العصبة منها ١٢٥ الف نسخة.

تأسست للعصبة في جميع الولايات المتحدة بحيث بلغ عدد المنتمين اليها حوالي مليون شخص ركزوا نشاطهم ضد اعمال الحكومة الامريكية في بورتوريكو وفليبين، فقاموا بنشر الادبيات المعادية للامبريالية وبعقد الاجتماعات والندوات والقاء المحاضرات وما شابه من اعمال ابتغوا منها تنبيه الاذهان الى مغبة سياسة بلادهم الخارجية.

ولكن بالرغم من كل ذلك فأن" عصبة مكافحة الامبريالية" لم تستطع ان تتطور بحكم عوامل مختلفة يأتي في مقدمتها افتقار الحركة الى اداة فاعلة للتنفيذ، فلم تفكر العصبة أصلا في التغلغل في صفوف العمال والفلاحين، كما ان هؤلاء بدورهم لم يفكروا بالانتماء الى العصبة التي ركزت فقط على انتقاد السياسة الخارجية للولايات المتحدة دون ان تعير المشاكل الداخلية اهتماما يذكر، الامر الذي كانت معالجته الحقيقية تعتمد على التغيير الجذري للنظام القائم. ثم أن اساليب عمل القيمين على العصبة كانت تعتمد اساسا على عقد الندوات والقاء الخطب المثالية التي من شأنها أن تؤثر الى حين لتبعث الملل في النفوس عندما لا يتحول مضمونه الى عمل مثمر ملموس. ومن الجدير بالذكر ان بعض الرأسماليين تمكنوا من التغلغل الى صفوف الحركة لبعض الوقت، خاصة اولئك الذين ما كان يهمهم التوسع الاقليمي بقدر التغلغل المال او التوسع بواسطة الدولار، وقد اثر ذلك بعض الشيء على سمعة العصبة وطبيعة قراراتها. واخيرا لم تستطع العصبة ان تتحالف مع القوى والحركات الاخرى. وجراء كل ذلك فقدت " عصبة مكافحة الامبريالية" وزنها بالتدريج خلال العقد الاول من القرن العشرين لتختفي بعد ذلك بفترة وجيزة.

وفي العام ١٩٠٢ ظهرت حركة ديمقراطية جديدة في الولايات المتحدة عرفت باسم " المشهرين"(*) التي ضمت في صفوفها نخبة من الكتاب البارزين والصحفين وعلماء الاجتماع وغيرهم من الذين وقفوا بحماس وعلى مدى حوالي

(*) " Muckrakors" اي كناس القاذورات. وقد اطلق الرئيس تيودور رزوغلت هذا الاسم تهكما على الحركة وقد ورد اصلا في قصة لاحد اعضائها الذين كانوا فصلا يبحثون عن فضائح الرأسماليين ومظالمهم ليفضحوها امام المجتمع الامريكي، انهم كوطنين مخلصين كانوا يريدون كنس قاذورات المجتمع الرأسمالي الاكبر.

عقدين ضد مساوئ المجتمع الامريكي التي كانوا يقيمونها كنقيضه للديمقراطية الصحيحة. فقام أنصار الحركة مَكركس خلال الفترة الممتدة بين عامي ١٩٠٢ و ١٩١٧ بنشاط صحفي واسع توخوا منه فضح الاحتكارات وسوء الادارة في المؤسسات الحكومية وتفشي الرشوة بين العاملين فيها. ومع ان الحركة الجديدة عجزت بدورها في دفع الشعب الامريكي الى تبني الوسيلة الناجمة للانعتاق الحقيقي ، الا انها لعبت، مثل شبيهاتها، دوراً ملموساً في خلق رأي عام معاد للاحتكارات، مما ساعد على تهيئة الاذهان اكثر لتقبل الحركات الديمقراطية اللاحقة.

ان هذه الحركات وغيرها كشفت بصورة واضحة حقيقة الازمة السياسية التي عاشتها الولايات المتحدة الامريكية قبل الحرب العالمية الاولى.

الازمة السياسية عشية الحرب:

قّيمت الاوساط الحاكمة في الولايات المتحدة الحركات العمالية والديمقراطية المتنامية باستمرار كخطر محدق يهدد الرأسمالية في الصميم، فأضطرت ان تلجأ الى اجراء بعض الاصلاحات بهدف امتصاص استياء الجماهير. وقد وقع تحقيق هذه المهمة على عاتق الزعيم الجمهوري تيودور روزفلت المعروف بمناوراته السياسية.

أصبح تيودور روزفلت رئيسا للولايات المتحدة اثر مقتل الرئيس ماك كينلي من قبل احد الفوضويين عام ١٩٠١، وقد أعيد انتخابه مرة اخرى عام ١٩٠٤. قام روزفلت في سنوات رئاسته التي استمرت لغاية مطلع ١٩٠٩ بعدد من الاصلاحات التوفيقية من قبيل فرض اشراف الدولة على نشاطات الاحتكارات وتوسيع القوانين الخاصة بالخدمات الاجتماعية وما شابه. ولكن الهدف النهائي

لهذه الاصلاحات كان انقاذ الرأسمالية الامريكية من مشاكلها، فقد وضع روزفلت اللبنات الاولى في الاتجاه الاقتصادي الجديد الذي يقضي باشراك الدولة في المؤسسات الاحتكارية بحجة تنظيم شؤونها، الخطوة المهمة التي كان لابد منه يومذاك لتقوية مواقع الرأسمالية الامريكية اكثر فاكثر. ومن الجدير بالذكر ان تيودور روزفلت سبق غيره في توضيح الابعاد الحقيقية لسياسته حينما ذكر صراحة بان من الضروري ان نشاطر الجوانب الايجابية في التريستات ونصارع جوانبها السلبية، مما كان يعني دون موارية عدم القضاء على التريستات بل اعادة تنظيمها. ولهذا السبب بالذات فان معظم اجراءات روزفلت الاصلاحية لم تؤد الى نتائج عملية ملموسة.

كان من الطبيعي جدا ان يتبع تيودور روزفلت سياسة خارجية متوافقة مع سياسته الداخلية، سياسة لم تختلف في شيء عن سياسة أسلافه ومن خلفوه في كرسي الرئاسة. فأنه أعطى تفسيرا جديدا لمبدأ مونرو يتفق كليا مع طموحات بلاده الواسعة وامكاناتها الهائلة الجديدة، فقد اعلن روزفلت دون ادنى تردد ان على الولايات المتحدة ان تأخذ على عاتقها استنادا الى مبدأ مونرو مسؤولية حل المشاكل التي قد تظهر بين اقطار امريكا اللاتينية والدول الاوربية، وفي حالة حدوث ما أسماه باضطراب مستديم في اي بلد امريكي فان الولايات المتحدة تصبح ملزمة بان تلعب دور درك دولي. ومن هذا المنطلق تدخلت القوات الامريكية في عهد روزفلت في شؤون كوبا الداخلية وقمعت الانتفاضة التحررية التي انفجرت فيها عام ١٩٠٦، وفي عهده بالذات تم فصل بنما عن كولومبيا وبوشر ببناء قناة بنما ومنحت الولايات المتحدة المساعدات المالية الضخمة لليابان في حربها ضد روسيا، الامر التي تعود الى تفاصيل بعضها فيما بعد.

ولكن بالرغم من كل ذلك لم ترضى سياسة تيودور روزفلت الاوساط الاكثر يمينية في البلاد فرشح الحزب الجمهوري القاضي السابق ووزير دفاع حكومة روزفلت وليام هوارد تافت للانتخابات الجديدة التي اسفرت عن فوزه فاصبح الرئيس السابع والعشرين للولايات المتحدة اعتبارا من كانون الثاني عام ١٩٠٩.

كان تافت استاذا جامعيا وحقوقيا مرعوفا ومثقفا مرموقا الا انه كان في الوقت نفسه غارقا حتى اذنيه في افكاره اليمينية وربما يكفي القول انه قبل ان يتبوأ كرسي الرئاسة اصبح رئيسا للجنة الخاصة التي عرفت بلجنة فليبين والتي اسهمت بصورة مباشرة في فرض الهيمنة الامريكية على الفليبين فاستحق ان يصبح اول حاكم امريكي فرض على تلك البلاد خلال الفترة ١٩٠١-١٩٠٤. وهو الذي قاد الحملة الامريكية ضد ثوار كوبا في العام ١٩٠٦.

كان تافت استاذا جامعيا وحقوقيا معروفيا ومثقفا مرموقا الا انه كان في الوقت نفسه غارقا حتى اذنيه في افكاره اليمينية، وربما يكفي القول انه قبل ان يتبوأ كرسي الرئاسة اصبح رئيسا للجنة الخاصة التي عرفت بلجنة فليبين فاستحق ان يصبح اول حاكم امريكي فرض على تلك البلاد خلال الفترة ١٩٠١-١٩٠٤. وهو الذي قاد الحملة الامريكية ضد ثوار كوبا في العام ١٩٠٦.

اتبع الرئيس تافت سياسة مساندة الاحتكارات بصورة مكشوفة مما ادى الى حدوث استياء جماهيري واسع امتدت اثاره الى داخل الحزبين الرئيسيين الجمهوري والديمقراطي. فقد ظهر في صفوف الحزب الجمهوري الحاكم تيار معارض قوى عرف باسم العصبة الوطنية التقدمية الجمهورية التي تزعمها عضو مجلس الشيوخ لافوليت. وقد رفع الجمهوريون اليساريون شعارات تطالب بفرض سيطرة فعلية للدولة على التريستات وباجراء تعديلات ديمقراطية على نظام

الانتخابات وضمان حقوق المنظمات وباجراء تعديلات ديمقراطية على نظام الانتخابات وضمان حقوق المنظمات العمالية .

ان ظهور مثل هذه الاتجاهات الراديكالية في صفوف الحزب الجمهوري، والى حد ما في صفوف الحزب الديمقراطي ايضا كان يعني، فيما يعني، حدوث تطور جديد في الحركة الديمقراطية الامريكية، الامر الذي ترك بصمات واضحة على نتائج انتخابات الرئاسة الجديدة.

انتخابات الرئاسة عام ١٩١٢:

خلقت سياسة وليام تافت وردود الفعل ازاءها ازمة سياسية حقيقية في البلاد هددت مصالح الاحتكاريين بصورة مباشرة. وقد عبر ودرولسن زعيم الحزب الديمقراطي عن هذه الحقيقة بصورة واضحة حينما ذكر في احدى المناسبات:

"يوجد استياء كبير غير مرئي لابد ان يجد لنفسه مخرجا. ان الجمهوريين سوف يرشحون تافت واذا لم يقدم الديمقراطيون مرشحا مقبولا من قبل الشعب كمعبر عن احتجاجه سيؤلف حزب راديكالي ثالث وحينذاك لا يستبعد ان نكون بعد الانتخابات على شفى ثورة".

وفي الحزب الجمهوري اخذ تيودور روزفلت على عاتقه مهمة مشابهة لتلك التي تبناها ولسن، فقد ادعى زعامة الاتجاه الجمهوري المعارض لسياسة تافت وتمكن بمناوراته ابعاد السيناتور لافوليت وجذب معظم اعضاء العصبة الوطنية التقدمية الجمهورية الى جانبه. وعندما رفضت قيادة الحزب الجمهوري اقتراح روزفلت باتباع سياسة اكثر اعتدالا انشق وانصاره عن الحزب وأسس حزبا جديدا بأسم "الحزب التقدمي" الذي اصبح هو مرشحه لانتخابات الرئاسة الجديدة. وقد اطلق روزفلت على نفسه لقب" المناضل ضد الاغنياء الجشعين" ووضع دون تردد

برنامجا انتخابيا ادعى فيه انه في حالة انتخابه سوف يقوم باصلاح نظام الانتخابات حسب اسس ديمقراطية ويمنح المرأة حق الانتخاب وفرض سيطرة الدولة الفعلية على التريستات وتطوير الزراعة وتقليص ساعات العمل الى ثمان ساعات فقط ورفع دخل العامل بحيث يضمن له الحد الادنى الضروري لمعيشته ومنع استخدام الاطفال وما شابه من وعود.

رشح الحزب الجمهوري وليام تافت والحزب الديمقراطي ودورلسن الذي اشغل لسنوات منصب رئيس جامعة بربنستون وكان يتمتع بسمعة جيدة لانه عندما اصبح حاكما على ولاية نيوجيرسي عام ١٩١٠ أنجز بعض الاصلاحات الضرورية. وقد اختار ولسن لبرنامجه الانتخابي اسم"الحرية الجديدة" التي كان لها وقع كبير على نفس الناخب الامريكي، ولكن مع ذلك لم يختلف برنامج ولسن في واقعة عن برنامج روزفلت في شيء، ولم يكن مجرد صدفة ان وقف الى جانبه عدد من كبار الرأسماليين على رأسهم مجموعة موركان المعروفة. أما الحزب الاشتراكي فانه رشح يوجين ديبس.

ساعد انشقاق الجمهوريين على انفسهم في فوز ولسن الذي حصل على حوالي٦ ملايين و٣٠٠الف صوت، بينما حصل روزفلت على اكثر من اربعة ملايين ونصف مليون صوت وحصل ديبس على حوالي مليون صوت.

الرئيس ودرو ولسن:

يعتبر الرئيس ودرو ولسن واحدا من ابرز من تبوأوا كرسي الرئاسة في الولايات المتحدة الامريكية وقد أثيرت ضجة كبيرة حول شخصيته وعهده لايزال يتردد صداها حتى يومنا هذا. لاينكر ان ولسن كان مثقفا من الطراز الاول، فقد حصل على درجة الدكتوراه ودخل الحياة العلمية من خلال دراسته القانون

والتاريخ والفلسفة التي اهلته، مع تدريسه الجامعي، لنيل لقب الاستاذية، وقد اشغل منصب رئيس جامعة بربنستون لمدة ثمان سنوات. انه صاحب مؤلفات عديدة في التاريخ والسياسة ترجم معظمها الى عدد من اللغات العالمية.

كان ولسن نشيطا الى حد كبير، خطيبا لامعا، سلس الكلام، ذا شخصية جالبة للنظر، كما عرف بطيبة القلب كأنسان وبالاباء الى حد التطرف. لكنه كـان فـي الوقت نفسه طموحا، حديا في تصرفاته، قاسيا في التعبير تجاه منافسيه.

استطاع ودرو ولسن جلب الانظار الى شخصيته في الداخل بسرعة، وبعد ان تسنم الحكم اصبح واحدا من ابرز شخصيات عصره. ولكن مـن الضـروري ان نشير الى ان الكثيرين يخلطون الاتجاه السياسي العام لولسن كرئيس لاكبر دولـة رأسمالية وبعض صفاته الشخصية التي ربما ادت دورا ما فـي تقريـر بعـض الامور، لكن دون ان تؤثره مطلقا على حقيقـة كونـه ممـثلا لمصـالح اكبـر الاحتكارات والتريستات العالمية التي تسنم بفضلها كرسي الرئاسـة فـي نظـام اجتماعي محدد لم يشكل ولم يستطع ان يشكل هو او غيره هيكل كيانه. وفي الواقع ان الاتجاهات التي كانت تتوافق كليا مع مصالح الاحتكارات الامريكية ظهرت في افكار ولسن قبل مجيئه الى كرسي الرئاسة بفترة طويلة، والا لما كان يبلغه قطعا. وهنا نكتفي بايراد قول واحد من اقواله تفوه به عندما كـان منهمكـا بالتـدريس الجامعي، وربما قبل ان يخطر على باله منصب رئاسة الدولة. ففي العـام ١٩٠٢ ذكر بالحرف الواحد:

" ان الولايات المتحدة بلغت مرحلة النضوج المتكامل وقد ولت ايام عزلتنـا من غير رجعة.. امامنا يفتتح عهد جديد وعلى ما يبدو فأن علينا وحدنا مـن الان قيادة العالم". وهل ارادت الاحتكارات الامريكية يوما اكثر من ذلك؟

سار الرئيس ودرو ولسن على نهج تيودرو روزفلت فانجز بدوره عددا مـــن الاصلاحات التي كان يطالب بها الامريكيون. فقد قام بتعديل الدستور بقصد فرض ضرائب تصاعدية على الدخل. فبموجب التعديل الجديد اصبحت الضريبة السنوية تقدر بنسبة ١% على ثلاثة الاف دولار فاكثر من دخل الفرد غير المتـــزوج، و٤ الاف دولار بالنسبة لاصحاب الاسر ولكن اذا تجاوز الدخل ٢٠ الف دولار فـــأن الضريبة كانت ترتفع بنسبة معينة لم تزد في كل الاحوال عن ٦% التي اصـــبحت الحد الاعلى المفروض على الدخل المقدر بنصف مليون دولار فاكثر، مما كـــان يخفف الى حد كبير من ضغط الضريبة الجديدة على المدخولات الضخمة لكبـــار الاحتكاريين. وفضلا عن ذلك فأن هؤلاء استفادوا كثيرا من اجراء اقتصادي آخر انجزه ولسن عشية الازمات الاقتصادية التي تحولت الى احدى السمات الملازمـــة للاقتصادي الامريكي.

اما بالنسبة لنظام الانتخابات فقد اتخذت حكومة ولسن في العام ١٩١٣ قرارا يقضي بانتخاب اعضاء مجلس الشيوخ عن طريق الاقتراع السري بدل اختيـــارهم من قبل المجالس التشريعية المحلية للولايات المتحدة. واحـــتفظ تعـــديل الدســـتور بالنسبة السابقة لتمثيل الولايات في مجلس الشيوخ- ممثلان عن كـــل ولايـــةبغض النظر عن حجمها السكاني. وفي اواخر عهده منحت المرأة الامريكية البالغة مـــن العمر ٢١ سنة فما فوق حق الترشيح والتصويت في الانتخابـــات، الامـــر الـــذي فرضته الحركة النسوية الامريكية النشيطة.

ولكن بالمقابل لم يتوان ولسن عن ضرب اي تحـــرك جمـــاهيري يســـتهدف اضعاف مواقع الاحتكار في الداخل، فقمعت حكومته الحركة والتنظيمات العماليـــة بقسوة، كما حدث، مثلا، بالنسبة لاضراب عمال التعدين في كلورادو عام ١٩١٣- ١٩١٤. وضربت السلطة ايضا قيادة "الحزب الاشتراكي" الذي اصـــبح مؤسســـة

ومرشحه لانتخابات الرئاسة الاخيرة ديبس من ضحايا عهد ولسن الذي حكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات.

وهكذا فان الرئيس ودرو ولسن خدم الرأسمالية الامريكية بـــذكاء مشـــهود، الامر الذي تجلى بوضوح اكبر في سنوات الحرب العالمية الاولى وفي سياســـته الخارجية.

الولايات المتحدة الامريكية في سنوات الحرب العالمية الاولى

"الحياد" الامريكي:

كما لاحظنا عند الحديث عن الحرب العالمية الاولى اتبعت الولايات المتحدة الامريكية سياسة ذكية للغاية في سنوات الحرب العالمية الاولى، بحيث انها اصبحت في النهاية الدولة الوحيدة التي جنت من الحرب اكبر الارباح باقل الخسائر (*). ففي بداية الحرب وعلى مدى عامين ونصف العام وقفت الولايات المتحدة على "الحياد" لعوامل عديدة أهمها كان رغبة الرأسمالية الامريكية في استغلال ظروف الحرب وانهماك الاطراف الاخرى بالانتاج العسكري لكي تفرض سيطرتها على الاسواق العالمية باكبر قدر ممكن. كما ان تطاحن الدول الكبرى الاخرى فيما بينها كان يعني، بلا شك، خلق ظروف افضل للهيمنة السياسية الامريكية على الصعيد العالمية، الهدف الذي بدأت الاوساط الحاكمة في الولايات المتحدة تخطط له وتحلم به قبل الحرب بفترة، ولاسيما بعد ان احتلت بلادها الموقع الاول في الانتاج الصناعي والقدرة الاقتصادية بالنسبة للعالم باسره. ولم تلعب التناقضات الامريكية البريطانية والامريكية- اليابانية في امريكا اللاتينية

(*)تشبه اليابان الولايات المتحدة الامريكية في ذلك، الا ان الارباح التي جنتها من الحرب لا يمكن مقايستها بارباح الولايات المتحدة.

والشرق الاقصى، والتي لم تكن اقل عمقا من التناقضات الامريكية- الالمانية، الدور الاخير في "الحياد" الامريكي" وبما ان الولايات المتحدة أصبحت بحاجة الى التوسع الكولونيالي بعد الدول الكبرى الاخرى فأنها بقيت لفترة طويلة بعيدة عن مشاكل الدول الاوربية ولم تتورط في المعاهدات والمحالفات الدولية التي مهدت الطريق لاندلاع نيران الحرب العالمية الاولى كما لاحظنا ذلك من قبل. ومن المهم جدا ان نلاحظ ايضا بأن الرأي العام الامريكي كان ضد الحرب. فأن أقرب صديق للرئيس ولسن وأكبر مساعديه هاوس قد أعلن في آب ١٩١٥ صراحة" أن ٩٠% من شعبنا يريدون أن يجنبنا الرئيس الحرب". وأخيرا فأن الولايات المتحدة الامريكية لم يكن لديها الاستعداد العسكري الكافي الذي يؤهلها للدخول مباشرة في حرب عالمية لم يسبق لها مثيل. فقد كان تعداد الجيش الامريكي في العام ١٩١٤ يربو على ربع مليون جندي فيما كانت جيوش الدول الكبرى الاخرى تعد بالملايين، وهي، فضلا عن ذلك، كانت مزودة بافضل الاسلحة واحدثها.

لم يغير الرأي العام الامريكي موقفه من الحرب خلال مرحلتها الاولى، الامر الذي انعكس بوضوح على نتائج انتخابات الرئاسة للعام ١٩١٦. فقد رشح الديمقراطيون مرة اخرى ودرو ولسن، وكان شعارهم الرئيس الذي طرحوه في الحملة الانتخابية يقول " انه (أي ولسن) جنبنا الحرب". بينما رشح الجمهوريون هيوز الذي كان من اكثر ساسة الولايات المتحدة تعطشا لاشراك بلاده في الحرب الجارية، وفي حملتهم الانتخابية الواسعة حاولوا طعن الحزب الديمقراطي النيل من رئيسه بسبب موقفهما من الحرب، والايحاء للمواطن الامريكي العادي بأن الديمقراطيين بموقفهم ذاك انما يفرطون بمصالح الوطن العليا. اما مرشح الحزب الاشتراكي فقد جعل السلام المحور الاساس لنشاطه الانتخابي.

جاء موقف الرأي العام الامريكي لصالح السلم مرة اخرى، فقد صوت الى جانب ولسن اكثر من ٩ ملايين ناخب بينما حصل منافسة على حوالي ٨,٥مليون صوت ونال المرشح الاشتراكي ٦٠٠الف صوت.

ولكن بالرغم من ذلك لم يكن بوسع الاحتكارات الامريكية ان تبقى بعيدة عن الحرب حتى النهاية.

دخول الولايات المتحدة الامريكية في الحرب العالمية الاولى:

منذ عام ١٩١٥ بدأ الحياد الامريكي يتزعزع بفعل مجموعة من العوامل المتفاعلة فيما بينها بقوة. فقبل كل شيء ان مصالح الولايات المتحدة الامريكية على مدى سنتين ونصف من "الحياد" قد ارتبطت بجبهة الحلفاء بصورة متزايد بحيث ان انهيارها في الحرب كان من شأنه أن يصيب اقتصاد الولايات المتحدة في الصميم، وقد سبق توضيح ذلك بشيء من التفصيل في القسم الخاص بالحرب العالمية الاولى. كما أن غطرسة الالمان ومحاولتهم الجدية لتوريط المكسيك في الحرب وتحريكها ضد الولايات المتحدة، واعتداءات الغواصات الالمانية المتكررة على سفن نقل الركاب والبضائع التجارية، مما أودى بحياة العديد من المواطنين المدنيين الامريكان، وعوامل اخرى مشابهة أثارت الرأي العام في الولايات المتحدة ضد المانيا بصورة متزايدة، لاسيما وان الجمهوريين عرفوا كيف يستغلون هذه الثغرات لصالحهم، وقد تحمسوا في ذلك كثيرا اذ أن مصالح كبار احتكاريين "الحزب الجمهوري" أرتبطت بالدول الحليفة أكثر من الرأسماليين الاخرين. وكان لدى هؤلاء، وبصورة خاصة لدى مجموعة مروكان العملاقة(*)، امكانيات دعائية

(*)مجموعة موركان (Morgan) تعتبر من اكبر وأوسع المؤسسات الاحتكارية الامريكية، ظهرت في النصف الاول من القرن التاسع عشر. تحولت قبل الحرب العالمية الاولى –

واسعة جدا. وتحول تيودور روزفلت بدوره الى داعية متحمس للحرب. وقد تمكن هؤلاء تنظيم مظاهرات صاخبة اشترك فيها العسكريون ورجال الشرطة والموظفون وغيرهم ممن كانوا يحملون لافتات تحرض الحكومة على الدخول في الحرب ضد المانيا. فقد بلغ عدد المشتركين في المظاهرة التي نظمت بمدينة نيويورك في ايار١٩١٦ما لايقل عن ١٥٠الف شخص. وحدثت مظاهرات مشابهة في العديد من كبريات المدن الامريكية، ولاسيما حيثما كان "الحزب الجمهوري" يتمتع بنفوذ قوى.

بدأ الديمقراطيون يقتنعون بدورهم وبلادهم يدب ان لا تبقى بعيدة عن أوار الحرب. ولم يكن مجرد صدفة أن اتخذت حكومة الرئيس ولسن قرارا في حزيران عام ١٩١٦ يقضي بتوسيع الجيش والميليشا.

وهكذا لم يبدأ العام الثالث من الحرب عندما تبلورت مؤشرات دخول الولايات المتحدة الامريكية فيها الى جانب الحلفاء. ففي السادس من نيسان عام ١٩١٧ اعلنت الحكومة الامريكية الحرب ضد المانيا. وقبل أن ينتهي العام المذكور دخلت الولايات المتحدة الحرب ضد النمسا المجر كذلك، الا انها لم تعلن الحرب ضد الامبراطورية العثمانية حتى النهاية.

أثر دخول الولايات المتحدة الامريكية في الحرب الى جانب الحلفاء على ميزان القوى في جبهات القتال بصورة ملموسة. ويكفي القول هنا أن معدل عدد الجنود الامريكان الذين كانوا يصلون البر الاوربي بعد دخول الولايات المتحدة

=الى أحد اكبر التريستات العالمية، كما تحولت خلال سنوات الحرب الى اهم مصدر لتزويد فرنسا وانكلترا بالمال والسلاح، لذا وقفت بحماس الى جانب الحلفاء ضد المانيا وقامت بدور كبير في الحملة الدعائية من اجل دخول الولايات المتحدة في الحرب، خاصة بفضل سيطرتها على جانب كبير من وسائل الدعاية الامريكية (الاذاعات والصحف ودور السينما وغيرها).

الحرب بلغ سبعة الاف جندي في اليوم، وان مجموع القوات الامريكية التي وصلت الاراضي الفرنسية- قلب الجبهة الغربية الاساسية- خلال عامي ١٩١٧- ١٩١٨ الحاسمين قد تجاوز مليوني مسلح. هذا فضلا عن الامكانات المادية الهائلة للولايات المتحدة التي القت بثقلها الى جانب الحلفاء بصورة مباشرة. وهنا يكفي القول أيضا ان الولايات المتحدة الامريكية انتجت لوحدها كميات من الحديد والفحم والصلب ما يعادل حوالي اربع مرات ما أنتجته المانيا الغنية في العام ١٩١٧.

وبالمستوى نفسه أثر اشتراك المباشر للولايات المتحدة الامريكية في الحرب العالمية الاولى على الاوضاع الداخلية العامة للبلاد.

الاوضاع الداخلية للولايات المتحدة الامريكية بعد دخولها في الحرب

كان من الطبيعي ان ينعكس الاشتراك الفعلي للولايات المتحدة الامريكية في الحرب العالمية الاولى على جميع نواحي الاوضاع السياسية والاقتصادية في الداخل بصورة ملموسة. فقبل كل شيء اختفت التناقضات السياسية الرئيسة بين الحزبين الاساسيين الديمقراطي الحاكم والجمهوري المعارض، فقد منح الجمهوريون في الكونكرس كامل تأييدهم لمعظم اجراءات حكومة ولسن بصدد الحرب.

وبسبب ظروف الحرب فرضت الدولة اشرافها المباشر على السكك الحديدية ومعظم المعامل والمصانع المنتجة للاسلحة والاعتدة الحربية، مما كان يعني في جميع الاحوال ضغطا متزايدا على العمال، بل ان العديد من الولايات بدأت تغض الطرف عن قوانين تحديد ساعات العمل اليومية وعن التعليمات الخاصة بتنظيم استخدام العمل النسوي في مجال الانتاج ومنع تشغيل الاطفال ومعظم ما يخص الضمان.

تركت تكاليف الحرب، وكذلك توسيع التجنيد، أثارا مباشرة على الوضع الاقتصادي العام للبلاد، فلغاية العام ١٩١٨ ارتفع عدد افراد الجيش الامريكي الى ثلاثة ملايين شخص، أي بمقدار ١٢ مرة اكثر قياسا مع العام ١٩١٤. كما أرتفع تسليح الجيش بالمستوى نفسه، فقد حولت مؤسسات صناعية عديدة الى مرافق الانتاج الحربي. وكالعادة وقع الجانب الاكبر من عبء كل ذلك على عاتق العمال والفلاحين، أبناء القطاعات الدنيا من أبناء الفئات الاجتماعية المتوسطة. ولتوضيح الموضوع نقتصر على ذكر مثل واحد فقط:

لاينكر ان اجور العمال في الولايات المتحدة قد ارتفعت في العام ١٩١٢ بمقدار ٣٣% قياسا مع العام ١٩١٣. ولكن بالمقابل فأن اسعار العديد من الحاجيات الحياتية الاساسية قد أرتفعت بنسبة اكبر من ذلك بكثير خلال الفترة نفسها. فأن سعر الخبز ،مثلا، قد أزداد بنسبة ٧٥% والبطاطس، المنتوج الامريكي الاصل والمادة الغذائية الشائعة بين عامة الشعب- بمقدار ٨٨% (بلغ معدل نسبة ارتفاع اسعار المنتوجات الزراعية ١٢١% والملابس بمقدار ١٠٦%، والكهرباء والوقود بمقدار ٨٣%).

لم يكن بوسع مثل هذا الواقع ان لا يؤثر على التحرك الجماهيري في الولايات المتحدة. فبالرغم من حظر الاضرابات واستخدام القوة ضد كل تحرك عمالي شهدت البلاد في سنوات الحرب احداثا تشهد على ما كان يكمن في النفوس من استياء متراكم. فأن عدد الاضرابات العمالية التي وقفت في الولايات المتحدة الامريكية خلال العام ١٩١٧ بلغ حوالي ٤٢٥٠ اضرابا(*) وهو ما يعادل تقريبا عدد الاضرابات التي حدثت في البلاد خلال سنتين سبقتا دخول الولايات المتحدة

(*) حسب الاحصاءات الرسمية ٤٢٣٣ اضرابا بالتحديد.

في الحرب. وفي الوقت نفسه نشطت الحركة المناوئة للحرب بين المثقفين الثوريين والاشتراكيين منهم بصورة خاصة.

وبالمقابل لجأت الاوساط الحاكمة الى شتى الاساليب لقمع الحركة الديمقراطية في البلاد واخماد جذوتها، فتعرض العديد من القادة النقابيين الى الاعتقال والمحاكمة، منهم الزعيم العمالي البارز، عضو الحزب الاشتراكي وصاحب جريدة "الثورة" (The Rovolt) توم مونى (Tom Moonoy) وزميله، هو الاخر القائد النقابي، بيلينكس (Billings) اللذان اعتقلا بتهمة ملفقة هي القاء قنبلة على مظاهرة مؤيدة للحرب وقعت في سان فرانسيسكو بتاريخ ٢٢تموز عام١٩١٦. ورغم ان اكثر من ٦٠شخصاً أدلوا بشهادا تصريحة تبرئ ساحتيهما، ومع أن شاهد الاثبات الوحيد الشرقي الاصل المدعو عثمان قد تراجع في لحظة من تأنيب الضمير عن افادته الا أن المحكمة بعد جلسات استمرت لمدة عامين كاملين اصدرت قرارها بشنق توم موني وبالسجن المؤبد لزميله، الامر الذي هز الرأي العام الامريكي بقوة وأثار موجه واسعة من الاحتجاج على الصعيد العالمي. ففي الولايات المتحدة نفسها اعلن ما لايقل عن مليون عامل الاضراب على مدى اربعة ايام احتجاجا على قرار المحكمة وطالب المضربون الرئيس الامريكي بالغاء حكم الموت الصادر بحق موني الذي أنقذ فعلا من حبل المشنقة تحت ضغط الجماهير، فقد اضطرت الحكومة أخيرا الى أصدار قرار يقضي بتبديل الحكم الصادر بحقه الى السجن المؤبد(*).

(*)افرج عن توم موني في العام ١٩٣٩ وذلك تحت ضغط موجه احتجاج جديدة امريكية وعالمية.

وفي سنوات الحرب نشطت "الامبراطورين غير المرئية"(*) كلوكلوكس كلان التي امتدت الاعتداءات اللانسانية لاعضائها الى مختلف انحاء البلاد، وتعدت هذه المرة الزنوج والديمقراطيين الامريكان لتشمل حتى العديد من الاجانب.

وفي الواقع كانت الاحتكارات الامريكية مستعدة للذهاب الى مدى أبعد بكثير حتى من ذلك من أجل فرض سياستها كما تشاء لان الحرب جلبت لها بالذات من الخيرات فوق ما كانت تتصور.

نتائج الحرب بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية:

لاحظنا فيما سبق من مواضيع كم كانت جسيمة الخسائر والويلات التي جلبتها الحرب العالمية الاولى معها للدول الاوربية الكبرى دون استثناء أما بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية فأن الوضع كان يختلف عن ذلك تماما، اذ ان خسائرها البشرية كانت محدودة جدا بينما كانت ارباحها التي جنتها من الحرب كبيرة للغاية. فطيلة سنوات الحرب لم تصل الارض الامريكية قنبلة واحدة، كما أن خسائرها في ساحات القتال لم تتجاوز ٤٥ الف قتيل و٢٠٤الاف جريح، أي أقل من١% من مجموع الخسائر البشرية للحرب في جميع الاحوال.

ولكي نتصور مدى الارباح الكبيرة التي حققتها الولايات المتحدة في سنوات الحرب نورد فيما يلي بعض الشواهد المعبرة فقط. فقبل كل شيء ان المعامل والمصانع الامريكية التي قلما كانت تشتغل بكامل طاقاتها لغاية صيف ١٩١٤، غدت في سنوات الحرب عاجزة عن تلبية الطلبات المتزايدة التي انهالت عليها من كل حدب وصوب، فظهرت مئات المؤسسات الانتاجية الجديدة في طول البلاد

(*)أطلق الناس على هذا الاسم على جمعية " كلوكلوكس كلان "السرية لامكاناتها الواسعة للغاية.

وعرضها، وكانت النتيجة ان ارتفعت قيمة مجمل الانتاج الامريكي مـن ٢٤٧٠٠ مليون دولار في العام ١٩١٤ الـى ٦٤٥٠٠ مليـون دولار العـام ١٩١٩) (*). وخلال الفترة نفسها ارتفع التبادل التجاري الامريكـي مـن ٤٢٥٨مليـون الـى ١١٨٢٤مليون دولار، وبفضل ذلك حققت الاحتكارات الامريكية ارباحـا خياليـة بلغت ٣٥الف مليون دولار خلال خمسة اعوام فقط من ١٩١٤ حتى ١٩١٩، كما تضاعفت الثروة القومية للولايات المتحدة وكذلك رساميلها المستغلة في الخـارج. ولقد بلغت الديون الامريكية التي تراكمت في سنوات الحرب على حوالي عشرين دولة، من بينها انكاترا وفرنسا، عشرة الاف مليون دولار. ويكتسب الرقم الاخير مغزى أعمق فيما لو علمنا أن الآية كانت معكوسة تماما قبل الحرب عندما كانـت الديون الاوربية المترتبة على الولايات المتحدة تبلـغ ٥٥٠٠مليـون دولار تبلـغ فوائدها السنوية٢٠٠ مليون دولار كانت الولايات المتحدة تدفعها صاغرة، بينمـا أصبحت هي التي تحصل بعد الحرب على فوائد سنوية تقدر باكثر من ضعف ما كانت تدفعه أنذاك.

والابلغ من كل ما سبق هو ان اكثر من ثلث احتياطي الـذهب العـالمي قـد تكدس في الولايات المتحدة الامريكية بالذات مع انتهاء الحرب، الامر الذي كـان يثير قلقا كبيرا لدى الاوساط المالية في جميع الدول الكبرى الاخرى.

انعكست أثار هذه التغييرات الجوهرية على تناسب القـوى علـى الصـعيد العالمي بصورة عميقة. فقد توسع نفوذ الولايات المتحدة الامريكية في كـل مـن أوربا وآسيا وأمريكا اللاتينية وكندا، الامر الذي نلاحظه بجلاء عند البحـث عـن سياسة الولايات المتحدة الخارجية، أما هنا فنقتصر على ايراد بعض الامثلة القليلة

(*)هناك معطيات اخرى بهذا الصدد الا انها لا تختلف عن الارقام المذكورة هنا سوى في بعض التفاصيل الجزئية.

لتبيان مدى التغلغل الاقتصادي الامريكي في الخارج بفضل احداث الحرب العالمية الاولى. فأن النصف الغربي للكرة الارضية قد تحول الى منطقة شبه مغلقة للرأسمالية الامريكية التي، مثلا لاحصرا، بلغ عدد مصارفها في اقطار امريكا الجنوبية بعد الحرب٤٥ مصرفا مقابل لاشيء قبلها. ويكفي ان نضيف أن دولة كبرى مثل انكلترا فقدت الكثير من مواقعها السابقة لصالح الولايات المتحدة حتى في بلاد مثل كندا التي كانت احد دومنيوناتها، اذ ارتفعت صادرات الولايات المتحدة اليها خلال سنوات الحرب بمقدار الضعف(من ٣٩٦مليون دولار في العام١٩١٤ الى٧٩٢مليون في العام١٩١٨) بينما تقلصت صادرات انكلترا اليها خلال الفترة نفسها من١٣٢مليون دولار الى٨٢مليون دولار فقط.

لم تتوقف مردوادت هذه التحولات ومعطياتها بالنسبة للمجتمع الامريكي مع انتهاء الحرب العالمية الاولى، بل على العكس من ذلك ان جانبا اساسيا من نتائجها السياسية والاقتصادية والاجتماعية بدأ يطفو فوق السطح في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين.

الولايات المتحدة الامريكية بين الحربين العالميتين

الولايات المتحدة بعد الحرب مباشرة (المرحلة الاخيرة من عهد ولسن)

ان الخيرات التي جنتها الولايات المتحدة الامريكية من الحرب انتقلت الى جيوب كبار الاحتكاريين قبل وأكثر من غيرهم، وهي اسهمت بذلك في تعميق الاستقطاب والتناقضات القائمة في المجتمع الامريكي، الامر الذي ترك بصمات واضحة على مجالات الحياة كافة.

وفي الولايات المتحدة، شأنها في ذلك شأن الدول الكبرى الاخرى، بدأت أثار الحرب العالمية الاولى السلبية تتعمق من اكثر فاكثر بالنسبة للاوساط الاجتماعية

الكادحة في السنوات الاولى التي اتبعت انتهاء الحرب. فأن معدل نسبة ارتفاع الاسعار بلغ في العام١٩١٨حوالي ١٦٧%قياسا مع معدلها قبل عقود ثلاثة من ذلك التاريخ، فيما بلغ معدل زيادة اجور العمال خلال الفترة نفسها حوالي٨٨% فقط، وهذا انخفاضا كبيرا للاجور الحقيقية، لا الاسمية، للعامل الامريكي. ومما كان يزيد من عبء زيادة الاسعار هذه هو أنها كانت حادة بالنسبة للعديد من الحاجيات الحياتية الضرورية، مثل الملابس التي أرتفعت أسعارها خلال سنوات الحرب فقط بمقدار مرتين ونصف المرة.

تعقد مشاكل العمال الامريكان اكثر بعد الحرب مباشرة جراء تسريح اربعة ملايين من الجنود الذين انضموا الى صفوف العاطلين ليزداد بذلك العرض على الطلب في سوق العمل بصورة مفاجئة، مما أعطى الاحتكاريين امكانية التراجع حتى عن عدد من المكاسب القليلة التي اضطرت ان تمنحها للعمال في ظروف الحرب.

في مثل هذه الاجواء، وكضرورة موضوعية، دخلت الحركة الاضرابية الامريكية مرحلة جديدة مع انتهاء الحرب. ففي العام١٩١٩ وحده حدث في الولايات المتحدة اكثر من ٣٥٠٠ اضرابا تجاوز عدد المشتركين فيها أربعة ملايين شخص، الامر الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ البلاد. واقتصرت شعارات المضربين على التاكيد على ضرورة حل اهم المشاكل العمالية المهنية الصرفة، فقد طالبوا بتثبيت الحد الادنى للعمل اليومي بثمان ساعات فقط وتحسين ظروف العمل ورفع الاجور بما يتناسب مع ارتفاع كلفة المعيشة والكف عن ابرام العقود الفردية في مجال استخدام العمال لما ترك من تأثير مباشر على اجورهم بسبب ما كانت تحدثه العقود المذكورة من تنافس بين العمال من اجل لقمة العيش.

ومن المهم ان نشير الى ان عددا كبيرا من اضرابات هذه المرحلة بدأت بصورة عفوية، أي بمعزل عن القيادة النقابية التي كانت تتألف أساسا من الارستقراطية العمالية. ولكن بالرغم من ذلك كانت اكثرية اضرابات عامي ١٩١٩ و ١٩٢٠قوية وعامة كل في حقله، مثل اضراب عمال السكك في شيكاغو الذي اشترك فيه٣٦٥ الف عامل، مما ادخل الرعب في نفوس المسؤولين الذين اعلنوا الاحكام العرفية في منطقة الاضراب التي تجمع فيها ايضا حوالي ٢٥الف مرتزق مسلح جمعهم اصحاب مصانع الصهر. وفي الوقت نفسه تقريبا أنفجر اضراب اكبر بين مالا يقل عن نصف مليون من عمال التعدين. ولم ينته الاضراب الاخر الا بعد تراجع قيادته امام وعيد السلطة وتهديداتها، اما اضراب عمال الصلب فقد استمر لغاية كانون الثاني من العام التالي، وعندما عجزت السلطة عن وضع حد له بالاساليب التقليدية لجأت الى استخدام السلاح ضد المضربين الذين خر العديد منهم صرعى، كما القى رجال الشرطة القبض على الالوف منهم. ولهذا الاضراب اهمية خاصة في الحركة العمالية الامريكية لا بسبب حجمه حسب بل وايضا لان المضربين كانوا ينتمون الى ٣٩قومية مختلفة في البلاد. وشهد العام ١٩٢٢ اضرابين كبيرين اشترك في الاول منهما اكثر من ٦٠٠الف عامل من عمال مناجم الفحم واشترك في الثاني حوالي نصف مليون من عمال السكك.

وفي هذه الفترة نشطت جمعية" كوكلوكس كلان" من جديد في الجنوب وكذلك في الشمال الذي انتقل اليه في سنوات الحرب ما لايقل عن نصف مليون زنجي جنوبي طالبا للعيش. ففي تموز ١٩١٩ وحده استمرت الحملات الدموية ضد زنوج واشنطن لمدة ثلاثة ايام وضد زنوج شيكاغو لمدة اسبوعين، وقد نشر ارهابيو الجمعية الذعر في العديد من المدن الاخر حيث قاموا على هيئة فرق ملثمة يرتدي افرادها ثيابا بيضاء ويحملون جماجم بشرية يشع لهيب لفحم من فتحاتها في ظلمة

الليل، بجلد مئات الزنوج او قتلهم شنقا على جذوع الاشجار في ضواحي المدن المذكورة.

جرت اول انتخابات عامة بعد الحرب في الولايات المتحدة في تشرين الثاني عام ١٩٢٠، وقد اسفرت عن فشل الديمقراطيين الذين ظل ودرو ولسن يحكم باسمهم طيلة دورتين انتخابيتين متتاليتين.

لم يأت فشل " الحزب الديمقراطي" في الانتخابات الجديدة اعتباطا، بل ان تظافر مجموعة من العوامل فيما بينها هو الذي دفع بالرأي العام الامريكي الى ان يغير موقفه من الديمقراطيين. والاول من بين تلك العوامل هو ان الاحتكارات الامريكية لم تعد بحاجة الى الشعارات الليبرالية البراقة التي رفعها ولسن في سنوات الحرب، ولاسيما لان تلك الشعارات لم تستطع ان تضمن في مؤتمر الصلح بباريس ما كانت تطمح اليه الرأسمالية الامريكية بطاقاتها الهائلة الجديدة.

واذا انتقلنا الى العوامل الاخرى فاننا نجد ان الجمهوريين تمكنوا استغلال استياء الجماهير الامريكية من سياستي ولسن الداخلية والخارجية بذكاء. اما الجماهير الايرلندية الاصل الواسعة(*) فانها لم تكن بحاجة الى تحريك احد لها، ذلك لانها لم تنس الموقف السلبي للرئيس ولسن من موضوع اشتراك ممثلي الشعب الايرلندي في مؤتمر الصلح بباريس. وقد اتخذ المواطنون الامريكان الذين كانوا ينتمون الى اصل الماني موقفا مشابها من ولسن خاصة لانه لم يستطيع ان يبر بجميع الوعود التي قطعها للوفد الالماني في مؤتمر الصلح. وكان الايطاليون الامريكان غير مرتاحين بدروهم من موقف الرئيس ولسن ازاء مطاليب ايطاليا في المؤتمر.

(*) سبق ان اشرنا عند البحث عن المشكلة الايرلندية الى ان تعداد الايرلنديين في الولايات المتحدة الامريكية يربو حاليا على حوالي ١٣ مليون شخص.

وهكذا فقد ودرو ولسن رصيده الشعبي الى درجة ان "الحزب الـــديمقراطي" فضل ان يرشح جيمس كوكس حاكم ولاية اوهايو لانتخابات عام١٩٢٠ بدلا عنه. وكان ولسن، فضلا عن نلك، يعاني من المرض ألم به انذاك. اما الجمهوريون فقد رشحوا هاردينك كما رشح الزعيم الاشتراكي دييس نفسه من السجن.

ومع ان مرشح الديمقراطيين كوكس رفع شعارات جديدة من قبيل العمل من اجل رفع مستوى المعيشة وتخفيض الضرائب ومنع استخدام الاطفــال وتحســين ظروف العمال الزراعيين على الصعيد الداخلي وتأييد استقلال الفليبــين ونضـــال الايرلنديين على الصعيد الخارجي الا انه لم يحصل سوى على ٩ ملايين صـــوت بينما حصل منافسه الجمهوري على ١٦مليون صوت. اما دييس فقد حصل علـــى حوالي مليون صوت.

هكذا رجع الجمهوريون الى الحكم ليبدأ في الولايات المتحدة عهد جديـــد لـــم يختلف في شيء اساسي عن العهد السابق مع انه غطى كـــل عشـــرينات القـــرن العشرين.

الولايات المتحدة الامريكية في عشرينات القرن العشرين:

عاشت الدول الرأسمالية الكبرى، وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية، فترة ازدهار واستقرار نسبيين في العشرينات، وبالتحديد لغاية العام ١٩٢٦، الامر الذي نجم اساسا عن انتهاء الحرب العالمية الاولى والمساومات السياسية التي ادت الى حدوث تخفيف نسبي للتوتر الكبير الذي كان يسود العلاقات الدولية، مما أعطى مجالاً اكبر من السابق للأهتمام بالبناء والتطوير.

وفي فترة الاستقرار النسبي هذه برز تفوق الاقتصاد الامريكي اكثر من السابق فقد تجاوز مجمل الانتاج الصناعي الامريكي في العام ١٩٢٣مستوى ما

قبل الحرب بمقدار ٤٢%وقد أدت الطفرة الجديدة في ١٩٢٢-١٩٢٩ الى أن يصبح الانتاج الصناعي الامريكي يؤلف ٤٤%من الانتاج الاجمالي لكل العالم الرأسمالي، وهو ما كان يفوق في الوقت نفسه الانتاج الكلي لانكلترا وفرنسا والمانيا وايطاليا واليابان مجتمعة. وقد قطع التفوق الامريكي في بعض حقول الانتاج شوطا بعيدا للغاية. ففي بداية العشرينات بلغ انتاج السيارات في الولايات المتحدة٨٥% من مجموع الانتاج العالمي والنفط٦٦% والنحاس٦٠% والفحم ٥٢% والصلب٤٠%.

من هنا فان البحث عن الاسواق الخارجية لتصريف الفائض من الانتاج قد تحول الى احدى اهم المهمات الاساسية القائمة امام حكام الولايات المتحدة الامريكية الذين حققوا نجاحا ملموسا في مجاله. فقد ارتفع نصيب الولايات المتحدة في قائمة واردات المانيا من٦% عام ١٩١٣ الى ١٨% عام ١٩٢٥ن وبالنسبة لفرنسا من ١١% الى ١٤% وايطاليا من ١٤% الى ٢٤% واليابان من ١٧% الى ٢٦% والصين، الشاسعة من ٦% الى ١٥% وبمقدار اكثر من مرة ونصف المرة(أي ١٥٠% فأكثر) بالنسبة لأرجنتين وبرازيل وشيلي في امريكا الجنوبية.

وفضلا عن البضائع فان الرساميل الامريكية نفسها بدأت تغزو الاسواق الخارجية بشكل متزايد، مما كان يعكس اكثر من اي شيء اخر قوة الاقتصاد الامريكي وتفوقه. ففي العشرينات تجاوز مجموع الرساميل الامريكية المستغة في الخارج ١١ مليار دولار. ولكن هذا الرقم بالرغم من ضخامته لا يصور الواقع الذي نحن بصدده بقدر ما تصوره خارطة توزيع هذه الرساميل، فقد بلغ نصيب أوربا منها ٤٠% وامريكا اللاتينية٢٢% وبقية انحاء العالم ٣٨%.

كان يجري تركز رأس المال في الولايات المتحدة لصالح كبار الاحتكاريين بشكل متواز مع هذا التطور الاقتصادي العارم. ففي العام ١٩٢٩ كان ٩٠% من العمال يشتغلون في المؤسسات الاحتكارية الكبرى التي كونت قيمة انتاجها ٩٢% من مجموع القيمة الاجمالية للانتاج الصناعي الامريكي. ويمكن الوقوف بصورة أفضل على ظاهرة التركز هذه من خلال الاحصاءات المتعلقة بالمصارف الامريكية التي تؤلف عادة عماد الرأسمالية ككل. فخلال الفترة الواقعة بين عامي ١٩٢٠و ١٩٢٩ تقلص عدد المصارف في الولايات المتحدة الامريكية من ٣٠ الى ٢٤ الف مصرف بينما ازداد رأسمالها بمقدار حوالي ٢١ مليار دولار.

ومن نافلة القول ان تركز رأس المال يؤدي في ظل الرأسمالية الى تعميق التناقض والاستقطاب في المجتمع. وفي هذا بالتحديد يكمن السبب الاول، والاساس لعدم اختفاء العديد من المشاكل التقليدية في الولايات المتحدة خلال العشرينات، اذ ان الازدهار النسبي لم يعلن، على أية حال، وضع نهاية للصعوبات التي كانت تعاني منها البلاد. فقبل كل شيء لم يكن هناك تناسق في التطور الاقتصادي الامريكي. فقد عانت صناعة السفن والاقمشة ومعدات السكك واستخراج الفحم والانتاج الزراعي من كساد ملحوظ. وكان عدد العاطلين عن العمل في ذروة الازدهار (١٩٢٤-١٠٢٩) تتراوح بين ثلاثة وأربعة ملايين شخص فاكثر. وبالرغم من الازدهار لم تتحسن اجور سوى العمال الماهرين في حدود، اما العمال الاخرين فان اجورهم ظلت على وضعها السابق او تراجعت في بعض الحالات. وكان البيع بالاقساط يزداد. ويتوسع من سنة الى اخرى، مما كان يعكس عدم التخطيط اولا ومشكلة التصريف ثانيا.

وفي عهد ورين هاردينك تفشت الرشوة بين كبار المسؤولين بشكل ملحوظ، فقد بيعت الاراضي النفطية الحكومية في البلاد الى كبار الاحتكاريين الذين دفعوا

لقاء ذلك رشاوي ضخمة الى عدد من المسؤولين، وبضغط من الجهات العليا فقط اغلقت القضية بعد عرضها على المحكمة. وقد أجبرت فضائح الرشاوي والسطو على اموال الدولة ثلاثة (فقط) من الوزراء الجمهوريين على تقديم استقالاتهم، قدم اثنان منهما لاحدى المحاكم الامريكية التي اضطرت، بالرغم من جميع الضغوط التي تعرضت لها، الى اصدار حكمها على احد الوزيرين لمدة سنة واحدة.

والمؤشر المهم لاخر لما نحن بصدده هو ان الاضرابات العمالية لم تختلف في عهد الازدهار النسبي، مع العلم ان القيادة العمالية الامريكية دخلت انذاك في مساومات جدية مع الرأسماليين. ففي العام ١٩٢٢، أي في بداية عهد الازدهار، شهدت الولايات المتحدة اضرابين كبيرين اشترك في الاول اكثر من ٦٠٠ الف من عمال مناجم الفحم وأشترك في الثاني حوالي نصف مليون من عمال السكك. وفي كانون الثاني عام ١٩٢٦، أي في عز أيام الازدهار، أعلن ١٦ ألف من عمال النسيج في ولاية نيوجيرسي الاضراب عن العمل احتجاجا على قرار تخفيض أجورهم بنسبة ١٠%. وكان هذا واحدا من الاضرابات التي أبدى فيها العمال اصرارا كبيرا وثباتا لم يتزعزعا على مدى ١٣ شهراً الامر الذي أجبر اصحاب المعامل على بعض التراجع امام مطاليب العمال، وفي نيسان عام ١٩٢٧ أعلن ما لايقل عن ٢٠٠الف عامل من عمال المناجم، الاضراب مطالبين بتحسين ظروفهم المعاشية.

وفي الوقت نفسه ساء وضع المزارعين الذين رفعت الحكومة من مقدار الضرائب المفروضة عليهم، مما أجبرهم على الاعتماد بصورة متزايدة على المصارف الزراعية التي استغلت ذلك الاستحواذ في العشرينات على حقول واسعة في مختلف المناطق وتبعا لذلك دب استياء كبير في نفوس المزارعين الامريكان ولاسيما الصغار منهم.

ولم تكن القوى الديمقراطية الاخرى راضية عن واقع الامور في البلاد، فالتفت أوساط واسعة منها حول الشخصية السياسية البارزة لافوليت الذي تزعم في أواسط العشرينات ما عرف بالجبهة التقدمية أو " حركة لافوليت". وقد رشحت الجبهة زعيمها لانتخابات الرئاسة في العام ١٩٢٤، ورفعت شعارات تعكس خيبة امل قطاع واسع من الشعب الامريكي من الحزبين الجمهوري والديمقراطي. فقد طالبت الجبهة باتخاذ اجراءات فعلية وعاجلة لوضع حد للنفوذ الاقتصادي والسياسي اللامحدود لكبار الاحتكاريين وباشاعة الحريات الديمقراطية الحقيقية في البلاد وتحسين ظروف الفئات الاجتماعية الدنيا، ولاسيما المزارعين. وحتما لم يكن مجرد صدفة أن حصل لافوليت على حوالي خمسة ملايين صوت.

ومع ذلك احتفظ الجمهوريون بالحكم طيلة العشرينات وذلك لانهم كانوا يتمتعون بمساندة كبار الاحتكاريين الذين كرسوا كامل امكانيتهم الدعائية لخدمتهم.

بعد وفاة ورين هاردينك في العام ١٩٢٣ حل محله نائبه كالفن كوليج الذي رشح نفسه لانتخابات العام التالي ممثلا عن " الحزب الجمهوري" وقد حصل على أغلبية الاصوات فتجددت رئاسته لمدة أربع سنوات اخرى أجهد نفسه خلالها لتقديم أفضل الخدمات للرأسمالية الامريكية. وربما يكفي القول بهذا الصدد ان شعاره الرئيس الذي كان يؤكد عليه باستمرار نص على انه ليست للولايات المتحدة مهمة اخرى غير الكسب!.

وفي انتخابات عام ١٩٢٨ وللدورة الثالثة فاز الجمهوريون الذين كان مرشحهم هذه المرة وزير تجارة حكومة هاردينك الرأسمالي الكبير المليونير هربرت هوفر الذي كان يتباهى كثيرا في بداية عهده بالازدهار الامريكي الذي

اعتبره أمرا ثابتا. ولكن لم يمر على عهده سوى عام ونصف عام عندما هزت الازمة الاقتصادية الولايات المتحدة في الصميم.

الولايات المتحدة في سنوات الازمة الاقتصادية:

لاحظنا في حينه كيف ان الازمة الاقتصادية العالمية المعروفة قد بدأت في الولايات المتحدة الامريكية وبلغت الذروة فيها ايضا كما اشرنا الى بعض الحقائق المتعلقة باوضاعها الاقتصادية والاجتماعية في تلك السنوات. ففي العام ١٩٣٢ تقلص الانتاج الصناعي الامريكي بمقدار ٤٦% قياسا مع العام ١٩٢٩. وخلال الفترة نفسها تقلص الدخل القومي الامريكي بمقدار مرتين وتجارة الولايات المتحدة الامريكية الخارجية بمقدار ثلاث مرات. وفضلا عن كل ذلك توقف تصدير الرأسمال الى الخارج كليا، وأشهرت عشرات الالوف من المؤسسات الاقتصادية الصغيرة الافلاس فظهرت، في ضواحي كبريات المدن الامريكية مقابر للمكائن والالات والادوات، كما أن عددا كبيرا من المعامل الصغيرة والمتوسطة ابتعلت من قبل الاحتكارات العملاقة. وفي سنوات الازمة اضطرت عشرة الاف مصرف امريكي الى غلق ابوابها.

عانت الفئات الاجتماعية الدنيا من اثار الازمة اكثر من غيرها. فان الفلاحين لم يجدوا منفذا لتصريف منتوجاتهم فأصبحوا في وضع بائس للغاية، حتى انهم تركوا استخدام الالات الحديثة في حقولهم وعادوا الى الوسائل والاساليب القديمة الشائعة في الانتاج. أما العمال فقد تقلصت اجورهم بمقدار ٥٠% في المعدل كما ارتفع عدد العاطلين بينهم بشكل لم يسبقه مثيل في التأريخ بحيث انه وصل الى ١٧مليون شخص في ربيع عام ١٩٣٣.

بذلت حكومة هربرت هوفر جهودا كبيرة لاسعاف كبار الرأسماليين دونما ان تعير الاوساط الفقيرة اهتماما يذكر، مع العلم ان رئيسها قطع وعودا كثيرة على نفسه بابداء المساعدات الضرورية الكفيلة بالقضاء على مشاكل العمال وغيرهم . ومن اجل ضمان الاسواق الداخلية للبضاعة الامريكية لجأت الحكومة الى رفع الرسوم المفروضة على البضائع المستوردة بمقدار ٥٣%، الا ان هذا الاجراء عقد أكثر من مشاكل الرأسمالية الامريكية ذلك لان الحكومات الاخرى لجأت هي الاخرى الى اجراء مشابه ردا على الموقف الامريكي، مما زاد من صعوبات تصدير البضاعة الامريكية أكثر.

انعكست هذه الظروف على الوضع السياسي العام في الولايات المتحدة، الامريكية والذي تميز في سنوات الازمة بقلق واضح تمخض عنه قبل كل شيء فشل الجمهوريين في الانتخابات الجديدة.

الولايات المتحدة الامريكية في عهد فرانكلين روزفلت:

كان من الطبيعي ان يبتعد الناخب الامريكي عن "الحزب الجمهوري" فقد ربط به كل كابوس الازمة الاقتصادية ومآسيها حتى ان بسطاء الناس اختاروا لهوفر لقبا معبرا هو " رئيس الجوع" الذي أصيب بفشل ذريع في انتخابات عام ١٩٣٢ فقد رجع كرسي الرئاسة الى "الحزب الديمقراطي" اذ حقق مرشحه فرانكلين روزفلت انتصارا ساحقا عندما صوت له حوالي ٢٣ مليون ناخب امريكي.

يعتبر فرانكلين روزفلت واحدا من ابرز الساسة الامريكان المعاصرين، بدأ نجمه بالصعود منذ العام ١٩١٠ عندما اختير عضوا في مجلس الشيوخ بولاية نيويورك، وفيما بعد أصبح مساعدا لوزير البحرية في عهد ودرو ولسن. وفي سنوات حكمه كرئيس للدولة أثبت فرانكلين روزفلت انه مفكر واقعي اكثر من

أسلافه سواء في سياسته الداخلية او في سياسته الخارجية. وقد تميز بالنشاط رغم اصابته بمرض عضال.

لا يعني هذا، بالطبع، ان فرانكلين روزفلت لم يكن في خدمة الرأسمالية الامريكية، غير انه ادرك ومعه العديد من الرأسماليين استحالة انقاذ البلاد من مشاكلها العويصة التي عمقتها الازمة الاقتصادية من غير تراجعات معينة أقلها في الحقل الاقتصادي، امام الفئات الاجتماعية الدنيا، والمتوسطة، الامر الذي أكد عليه بذكاء في برنامجه الانتخابي الذي اختار له اسم" التعامل الجديد" أو الاتجاه الجديد " أو " الخطة الجديدة" (Now Doal) الذي تحول الى خط سياسي لعهده.

وضع فرانكلين روزفلت خطة طموحه لعلاج اثار الازمة الاقتصادية في مجال الصناعة والزراع، وحقق فعلا نجاحا مشهودا في تحقيق العديد من جوانبها فبالنسبة للعمال، مثلا، سمح لهم باقامة نقابات خاصة بهم في جميع المجالات، ومن اجل القضاء على البطالة وسع من الخدمات الاجتماعية كثيرا مما ادى الى استيعاب الملايين من العاطلين عن العمل. وقد ساعد تحسن وضع الانتاج الصناعي بدوره على تقليص عدد العاطلين بصورة ملموسة، كما حظي المزارعون باهتمام الدولة في عهد روزفلت، مما ساعدهم على التخلص من جانب من مشاكلهم التي اخذت بخناقهم خاصة في سنوات الازمة.

وانتعشت الحركة الديمقراطية الامريكية من جديد في عهد الرئيس فرانكلين روزفلت. ففي العام ١٩٣٣ ظهرت " عصبة مكافحة الحرب والفاشية" التي تغير اسمها فيما بعد الى "عصبة النضال من اجل السلم والديمقراطية" وقد ضمت في صفوفها أربعة ملايين عضوا. ومن المفيد ان نشير الى ان اكثر من ثلاثة الاف

متطوع امريكي اشتركوا الى جانب القوى الديمقراطية الاسبانية في حربها ضد الفاشية، وقد ضحى حوالي ١٦٠٠منهم بحياتهم على مذبح الحرية في اسبانيا.

ولكن لم يعن كل ما سبق ان المجتمع الامريكي قد تخلص كليا من جميع مشاكله في عهد الرئيس فرانكلين روزفلت الذي كان العديد من اجراءاته المهمة تصطدم بمقاومة كبار الاحتكاريين. فمثلا أن روزفلت حاول فعلا التخفيف من ضغط الاحتكارات وتنظيم شؤونها من خلال تدخل الدولة، وقد أصدر بعض التشريعات بهذا الصدد، ولكن سرعان ما ألغتها المحكمة العليا بتدخل مباشر من الاحتكاريين المعروفين. لذا ليس غريبا ان الحركة الاضرابية لم تختف في عهد فرانكلين روزفلت. ففي الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٩ شهدت الولايات المتحدة الامريكية حوالي ١٦ الف اضراب عمالي بلغ عدد المشتركين فيها اكثر من ٧ملايين شخص. وقد اتسم العديد من اضرابات تلك المرحلة بالتنظيم والاتساع فقد بلغ عدد المشتركين في اضراب عمال السيارات العاملين لدى شركة "جنرال موتورز " (كانون الاول ١٩٣٦) حوالي ١٣٥ الف شخص، مما ادى الى تعطيل العمل في ٦٩ مؤسسة تابعة للشركة المذكورة. كما اسفرت بعض الاضرابات عن ضحايا وقعوا في صفوف العمال. ففي الاضراب العام الذي حدث في سان فرانسيسكو في ايار ١٩٣٤ قتل اثنان وجرح ١١٥ من العمال المضربين.

ولكن مهما يكن من امر فان الولايات المتحدة الامريكية لم تر عهدا افضل من عهد فرانكلين روزفلت منذ الحرب العالمية الاولى بل وحتى قبلها لفترة طويلة، لذا فأن الناخب الامريكي منحه ثقته للمرة الثانية في انتخابات عام ١٩٣٦ التي أكد روزفلت اثناء حملتها الدعائية رغبته من جديد في تحسين وضع ابناء الفئات الاجتماعية الدنيا. ومن المهم أن نشير هنا الى انها اعترف صراحة في احدى خطبه بما كان يعانيه هؤلاء، فقد ذكر ما نصه:

" .... أنني أرى ان ثلث سكان بلادنا بكاملهم يعيشون فـي بيـوت فظيعـة وملبسهم غير جيد ومأكلهم سيء".

ومما لاشك فيه ان واقعية فرانكلين روزفلت هـي التـي جعلتـه السياسـي الامريكي الوحيد في التأريخ ينتخب رئيسا للبلاد في اربع دورات متتالية وهو في كرسي الرئاسة (١٩٣٢، ١٩٣٦، ١٩٤٠، ١٩٤٤) فقد فاز مرتين اخـريين فـي انتخابات عام ١٩٤٠ و ١٩٤٤، ومات روزفلت عام ١٩٤٥ وهـو فـي كرسـي الرئاسة وكان هناك توافق كبيرين سياستي روزفلت الداخلية والخارجية.

سياسة الولايات المتحدة الامريكية

المنطلقات الاساسية للسياسة الخارجية الامريكية قبل الحرب العالمية الاولى:

تعكس السياسة الخارجية للولايات المتحدة الامريكية بصدق واقع تحولاتهـا الداخلية ففي بداية تطورها عندما لم يكن بوسع طاقاتها الواقعية الامتداد الى مـدى أبعد من نصف لكرة الغربية، وعندما كانت هناك قوى كبرى تفوقها في الاقتصاد والامكانات العسكرية، كان التقوقع في الامريكيتين السياسية النموذجية التي تتوافق كليا مع مصالحها، فظهر ما عرف بـ "مبدأ مونرو"(*) الى الوجـود فـي العـام ١٨٢٣. فقد استهدف " مبدأ مونرو" في البداية منع الدول الاوربية الكبـرى مـن التدخل في شؤون الامريكيتين حسب شعار "امريكا للامريكيين".

ولكن التقدم الكبير الذي احرزه الاقتصاد الامريكي والامكانات الهائلة الجديدة التي ظهرت في البلاد بفضله وعوامل اخرى مرتبطة بهما جعلت من غير الممكن ان تبقى سياسة الولايات المتحدة الخارجية تدور في فلك مونرو المغلق. وأن أول تغيير طرأ على السياسة المذكورة كان في اطار " مبدأ مونرو" نفسه الذي غيرت

(*)نسبة الى اسم جيمس مونرو الذي كان يومذاك رئيسا للولايات المتحدة الامريكية.

الاوساط الحاكمة الامريكية مفهومة حينما بدأت منذ اواخر القرن التاسع عشر تفسر شعار"امريكا للامرييكين "باسلوب يعني عمليا" امريكا للولايات المتحدة".

مع ذلك فان بعض العوامل المهمة اضفت على السياسة الخارجية الامريكية طابعا خاصا منذ بداية مرحلتها الجديدة فصحيح ان انتقال الرأسمالية الامريكية الى مرحلة الاحتكار ادى الى حدوث تغيير كبير في سياسة الولايات المتحدة الخارجية التي بدأ يطغي عليها الطابع الرجعي بسرعة، ولاسيما بعد ان بدأت الحكومة الامريكية تبحث منذ اواخر القرن التاسع عشر عن المستعمرات ومصادر الخامات ومجالات لاستغلال رساميلها، ولكن بما أن الولايات المتحدة بسبب ظروفها نزلت الى ميدان التوسع الكولونيالي في وقت متأخر قياسا مع الدول الكبرى الاخرى، وبما انها كانت مضطرة ان تأخذ تناسب القوى على الصعيد الدولي بنظر الاعتبار، فأنها لجأت الى أساليب للتوسع تختلف عن اساليب الدول الاخرى وتختلف من منطقة الى منطقة اخرى. فهي كانت تستطيع، مثلا، أن تسمح لنفسها بالتدخل المباشر في الشؤون الاقتصادية والسياسية لدول امريكا اللاتينية منذ العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر، لذا أبتدعت يومذاك فكرة " الوحدة الامريكية" (Pon – Americanism) التي بموجبها كان مفكرو الرأسمالية في الولايات المتحدة يؤكدون على ان العامل الجغرافي هو الذي يحدد الارتباط الاقتصادي والسياسي والروحي لجميع اقطار الامريكتين. وكان يعني خلق تبرير فكري لتغلغل الولايات المتحدة في اقطار امريكا اللاتينية. وفعلا ان الاوساط الحاكمة في الولايات المتحدة استغلت مبدأ " الوحدة الامريكية" اكثر من مرة للتدخل في شؤون بلدان امريكا الوسطى والجنوبية.

بينما لم تستطع الولايات المتحدة في اواخر القرن الماضي التدخل بمثل هذا الاسلوب السافر في مناطق الشرق الاقصى التي كانت تقع على مسافة أبعد منها

اولا وكان للدول الكبرى الاخرى مواقع اقدام اقوى وطموحات اوسع فيهـا مـن امريكا اللاتينية. ثانيا. أذن كان لابد من سياسة جديدة للشرق الاقصـى فحواهـا التغلغل بواسطة الدولار. وعلى هذا الاساس ابتدعت اروقة الخارجية الامريكية في العام ١٨٩٨"مبدأ " جديدا اطلقت عليه اسم "البـاب المفتـوح". الـذي اراد منـه الامريكان يومذاك ان يجعله وسيلة للتغلغل في الصين، بما في ذلك مناطق نفـوذ الدول الكبرى الاخرى هناك.

طرأت تغييرات كثيرة على هذه "المبادئ" وظهرت اشكال اخرى منها فيمـا بعد في ضوء ظروف الولايات المتحدة الامريكية نفسها وظروف الدول الكبـرى الاخرى، المواضيع التي نرجع الى تفاصيلها فيما بعد.

يضعنا الانتقال من التنظير الى التطبيق امام الصورة التالية للسياسة الخارجية الامريكية قبل الحرب العالمية الاولى. فبالنسبة لاقطار امريكا اللاتينية لم تتـردد الولايات المتحدة عن الدخول في المساومات والحروب مع الدول الاوربية التـي كان لها نفوذ هناك، كما لم تتردد عن استخدام القوة ضد شعوب المنطقـة حيثمـا تطلب الامر ذلك حسب منطقها. ومن اجل ذلك، مثلا، دخلت الولايات المتحدة في حرب مباشرة مع اسبانيا كان هدفها المباشر منها السيطرة على كوبا وبورتوريكو وجامايكا عام ١٨٩٨.

راقبت الاوساط الحاكمة في الولايات المتحدة الامريكية عـن كثـب تطـور الاحداث في جزيرة كوبا في اواخر القرن التاسع عشر. فأن كوبا كانـت قريبـة منها، مهمة بالنسبة لها، بينما كانت تخضع لدولة أوربية ضعيفة تعاني من التحلل والمشاكل فلم يكن من الصعب ازاحتها من امريكا اللاتينية كليا. وكان بالامكـان اضفاء طابع تحرري على العملية برمتها، فقد حاول حكـام الولايـات المتحـدة

استغلال الحركة التحررية الكوبية لصالحهم، فاحتجوا مرارا على قسوة اسبانيا في تعاملها مع الشعب الكوبي. وبحجة تأييد الكوبيين بعثت الحكومة الامريكية ببارجة حربية الى هافانا انفجرت بصورة مفاجئة في ليلة الخامس عشر من شباط عام ١٨٩٨ مما ادى الى مقتل ٢٦٠ شخصاً وجرح حوالي ١٠٠ اخرين. ومع ان التحقيق الدقيق الذي جرى بصدد الحادث لم يكشف عن الفاعل الحقيقي الا ان الولايات المتحدة القت بتبعته على عاتق اسبانيا التي حاولت بكل السبل تجنب الصدام المباشر مع الولايات المتحدة، ولكن لم تسفر كل محاولات اسبانيا وتراجعاتها عن نتيجة، اذ اعلن الكونكريس الامريكي حالة الحرب ضدها في ٢٥ نيسان من العام نفسه.

لم تستمر الحرب بين الطرفين لاكثر من ثلاثة اشهر، فقد اندحرت اسبانيا امام الولايات المتحدة واضطرت الى ان تطلب الصلح معها. وبموجب معاهدة الصلح التي وقعت بين الطرفين في باريس بتاريخ ١٠ كانون الاول عام ١٨٩٨، تنازلت اسبانيا عن جزيرتي بورتوركيو وجامايكا للولايات المتحدة وحصلت منها لقاء ذلك على تعويض مالي قدره ٢٠مليون دولار. وبموجب المعاهدة نفسها تنازلت اسبانيا عن جميع اطماعها في كوبا التي اصبحت جمهورية مستقلة أسميا بينما تحولت واقعيا الى محمية تابعة للولايات المتحدة بفضل الحرب التي خاضتها من اجل "استقلالها"!!.

ففي العام ١٩٠١ وضع النظام الكوبي الجديد دستورا للبلاد لم توافق عليه الولايات المتحدة الا بعد اجراء تعديلات جوهرية على موادها التي اصبحت تقر للولايات المتحدة حق التدخل في شؤون كوبا الداخلية بحجة حماية استقلالها، وتمنع الحكومة الكوبية عن عقد اي معاهدة مع دولة اخرى من شأن موادها ان تؤدي الى تنازل كوبا عن اراضيها او مياهها الاقليمية بهدف اقامة قواعد عليها

من قبل تلك الدولة، بينما بالمقابل منح التعديل الولايات المتحدة حق اقامة قواعد بحرية على السواحل الكوبية.

وفي ايام الحرب الاسبانية- الامريكية نفسها استغل حكام الولايات المتحدة النضال التحرري الفلبيني من اجل انعتاق من ربقة الاسبان لصالحهم بنجاح ايضا. فانهم فعلا ساعدوا الفيليبنيين لتحقيق استقلالهم. ولكن ما ان ظهرت الجمهورية الفيليبنية المستقلة حتى بدأ الامريكان يوجهون فوهات اسلحتهم الى حلفائهم في المنطقة بالامس، ذلك لان الولايات المتحدة كانت مصممة على تحويل دولتهم المستقلة الجديدة الى قاعدة خاضعة لها من جميع الاوجه. وهكذا سرعان ما اندلعت نيران حرب كولونيالية دافع الفيليبنيون خلالها بشجاعة عن وطنهم على مدى اكثر من ثلاث سنوات، مما كلفهم مئات الالوف من الضحايا.

سهل احتلال فيليبين وجاوه أمر التغلغل الامريكي في الشرق الاقصى وذلك بحكم وقوعهما على الطريق البحري بين الولايات المتحدة وبلدانه. ومع ان الولايات المتحدة تمكنت منذ الثمانينات من ايجاد منفذ لها في كوريا(*)، الا انها كانت مهمته بالصين ذات الامكانات الكبيرة اكثر من غيرها. وبدأ هذا الاهتمام ينعكس على اصعدة مختلفة، فلم يكن مجرد صدفة ان تأسست في الولايات المتحدة الامريكية عام ١٨٩٨ بالذات "الجمعية الاسيوية- الامريكية" التي ضمت ممثلي ابرز الشركات الصناعية والتجارية في البلاد بزعامة اصحاب كونسيرن "ستاندرد أويل" المعروف.

ولكن لم يكن التغلغل في الصين بالامر الهين، فان الدول الكبرى الاخرى كانت واقفة بالمرصاد لكل تحرك امريكي باتجاه ذلك الجزء المهم من الشرق

(*)في العام ١٨٨٢ ابرمت الولايات المتحدة الامريكية معاهدة مع كوريا تقضي بنودها بفتح كوريا لثلاثة من مواقعها امام البضائع الامريكية المصدرة اليها.

الاقصى. لذا لم يبق امام الولايات المتحدة سوى التأكيد على ضرورة ابقاء ابواب الصين مفتوحة امام بضائعها كخطوة اولى لتحقيق ما تريد. وقد ورد ذلك في نص المذكرة التي قدمتها الحكومة الامريكية الى كل من المملكة المتحدة والمانيا وروسيا واليابان وفرنسا وايطاليا في ايلول عام ١٨٩٨.

هكذا بدأت المحاولة العملية الاولى لخرق اسوار الصين من قبل الامريكان ومما له مغزاة في هذا المجال ان الخطوة الامريكية انطوت على اعتراض ضمني باستعمار الصين وتقسيمها الى مناطق نفوذ من جانب الدول الرأسمالية الاخرى. وسرعان ما أنكشفت النوايا الكولونيالية لسياسة "الباب المفتوح"، فلم يمر وقت طويل عندما اشتركت الولايات المتحدة الامريكية مع الدول الاخرى في قمع انتفاضة شعبية واسعة انفجرت في الصين.

لجأت الولايات المتحدة الى اساليب اخرى متنوعة للتغلغل في الشرق الاقصى بما في ذلك المناطق الشرقية من روسيا، بواسطة الدولار. فأنها، مثلا، منحت اليابان مساعدات مادية سخية ايام حربها المعروفة مع روسيا عام ١٩٠٥ بلغت ٤٥٠ مليون دولار وقدمتها لها على شكل قروض ساعدتها كثيرا في تحقيق النصر على روسيا القيصرية. ومن المهم ان نشير بهذا الصدد الى ان الرئيس الامريكي تيودور روزفلت هو الذي تحول الى وسيط بين البلدين المتحاربين لتوقيع معاهدة بروتسوث التي انهت الحرب بينهما.

وفي الوقت نفسه استمرت الولايات المتحدة على اتباع سياسة العصا الغليضة حيثما وجدت الى ذلك سبيلا في امريكا اللاتينية. ولاسيما في مناطقها ذات الاهمية الستراتيجية بالنسبة لمصالحها. ففي العام ١٨٩٣ قامت القوات الامريكية باحتلال جزر هاواي. ثم جاء دور بنما بعد سنوات قليلة.

تحتل بنما منطقة ضيقة(*) ولكن حساسة في امريكا الوسطى لوقوعها في اطار شريط محدود بين المحيطين الاطلسي والهادي ، وقد فكر الاوربيون بفتح قناة تمر عبر أراضيها للربط بينهما منذ مطلع القرن السادس عشر، أي بعد اكتشاف العالم الجديد بفترة وجيزة. ولكن الامر لم يتحول الى ضرورة ملحة الا بعد ان اصبحت الولايات المتحدة دولة كبرى ذات مصالح متشعبة في النصف الغربي من الكرة الارضية. فمنذ العام ١٨٤٦ بدأ الامريكان يولون المشروع اهتماما متزايدا، الامر الذي ترك بصمات واضحة على سياسة الولايات المتحدة الخارجية فيما بعد. ففي العام ١٩٠١ أجبرت الولايات المتحدة انكلترا، على الاعتراف لها بحق حفر قناة بنما وأدارتها. وبعد ذلك بعامين فرضت على كولومبيا التي كانت منطقة بنما تدخل ضمن حدودها السياسية، التوقيع على معاهدة تمنحها بدورها حق حفر القناة والاشراف عليها. وعندما رفض مجلس الشيوخ الكولومبي بالاجماع تصديق المعاهدة استغلت الحكومة الامريكية توجهات البنميين نحو الاستقلال فاثارت بينهم حركة انفصالية في اواخر عام ١٩٠٣ وبعثت من جانبها ببارجة حربية كبيرة الى سواحل بنما لدعم الحركة والحيلولة دون وصول القوات الكولومبية الى البر البنمي.

بهذا الاسلوب حققت بنما الاستقلال الذي اعترفت به الولايات المتحدة في الحال. وبالمقابل وقعت الجمهورية البنمية الجديدة معاهدة معها منحتها حق حفر القناة وتشييد المنشآت الضرورية، بما فيها السكك الحديدية، بمحاذاتها بعد ذلك مباشرة بدأت الولايات المتحدة بحفر القناة التي استغرق العمل فيها لمدة حوالي عشر سنوات(لغاية عام ١٩١٤) وقد كلفت عمليات حفرها حياة ما لايقل عن ٦٠ الف عامل. وبفضل هذه القناة التي يبلغ طولها حوالي ٨٢كم أصبح بالامكان

(*) تبلغ المساحة الكلية لجمهورية بنما حوالي ٧٨ الف كم٢.

اقتصار الطريق بين الامريكيتين بمقدار مرتين ونصف المرة الامر الذي كان يهم الولايات المتحدة كثيراً.

بلغت ادعاءات الولايات المتحدة بالنسبة لاقطار امريكا اللاتينية ضروتها قبل الحرب العالمية الاولى في عهد الرئيس تيودور روزفلت الذي اعطى لمبدأ مونرو تفسيراً جديداً. فقد أعلن صراحة ان مسؤولية حل الخلافات بين اقطار امريكا اللاتينية والدول الاوربية تقع على عاتق الولايات المتحدة دون غيرها وفق مبدأ مونرو. واعلن كذلك دون أدنى تردد بأنه في حالة وقوع ما أسماه باضطرابات مستمرة في أي بقعة من امريكا اللاتينية يترتب على الولايات المتحدة ان تقوم بدور بوليس دولي لقمعها.

هكذا تمكنت الولايات المتحدة الامريكية تحقيق جانب كبير من مخططاتها للتغلغل في المناطق الاخرى على مدى عقود قليلة قبل الحرب، وهي بدأت تجني ثمار ذلك على نطاق واسع. فعلى سبيل المثال لا الحصر نشير الى أن الرأسمال الامريكي المستغل في المكسك وحدها بلغ عند نهاية العام ١٩١١ حوالي مليار ونصف مليار دولار، مما كان يؤلف مبلغا ضخما للغاية حسب جميع المقاييس. فأن الاحتكاريين الامريكان سيطروا في تلك البلاد على ٥٨%من نفطها و ٦٨%من انتاج المطاط فيها و ٧٢%من مؤسساتها التعدينية و ٧٨%من مناجم الفحم فيها. ومن اجل ضمان هذه المصالح الضخمة لم تتردد الولايات المتحدة عن التدخل في شؤون المكسيك الداخلية اكثر من مرة.

خلق احداث الحرب العالمية الاولى ظروفا أنسب من السابق للتغلغل الامريكي على الصعيد الخارجي.

السياسة الخارجية الامريكية في سنوات الحرب العالمية الاولى

لم تحد الولايات المتحدة الامريكية عن سياستها الخارجية في سنوات الحرب العالمية الاولى، بل على العكس من ذلك انها عرفت كيف تستغل الظروف المستجدة لتحقيق اهدافها المرسومة. فأنها، كما لاحظنا عند البحث عن الحرب العالمية الاولى، حاولت في البداية ان تحافظ على علاقاتها مع دول الجبهتين المتحاربتين ومن ثم أرادت ان تلعب دورا قياديا عالميا بشأن موضوع انهاء الحرب.

وحيثما تمكنت الولايات المتحدة في الفترة ١٩١٤-١٩١٨ حاولت ان تثبت اقدامها وتنال من مواقع الدول الكبرى الاخرى، ولاسيما في اقطار الامريكيتين. فأنها ضيقت الخناق كلياً على الوجود الالماني في امريكا الوسطى والجنوبية وأصبحت تؤلف خطراً أكبر من السابق على النفوذ البريطاني في المنطقة ذاتها وفي العام ١٩١٧ اشترت من الدنمارك بعض الجزر القريبة من سواحلها والتي كانت تعرف بجزر الهند الغربية الدانماركية.

وفي الوقت نفسه شدد الامريكان من قبضتهم على العديد من اقطار امريكا اللاتينية، ولاسيما تلك التي كانت تتمتع بأهمية خاصة بالنسبة لمصالح بلادهم الاقتصادية أو السوقية. فمثلاً أنهم اهتموا بجمهورية نيكارغوا اكثر من قبل لوقوعها على مقربة من قناة بنما التي بدأت تعطي ثمارها الكبيرة بالنسبة لهم في السنة التي اندلعت فيها نيران الحرب العالمية الاولى. فقد اضطرت نيكاراغوا ان تعير اثنتين من جزرها للولايات المتحدة لتقيم عليها قواعد عسكرية تديرها بنفسها ولم تنته الحرب الا وأصبحت للامريكان اليد الطولى في كل الشؤون الداخلية والخارجية لكوبا. كما تحولت جمهورية هايتي المجاورة الى شبه محمية تابعة

للولايات المتحدة ومحتلة من قبل قواتها بعد أن حافظت على استقلالها لمدة حوالي قرن واحد. وفي العام ١٩١٦ احتلت القوات الامريكية جمهورية الدومنيكان.

أما المكاسب الاقتصادية التي حققتها الولايات المتحدة في اقطار الامريكيتين خلال سنوات الحرب فأنها كانت كبيرة بدورها. فقد سيطرت الاحتكارات الامريكية على الثروة النفطية لكل من المكسيك وفنزويلا وكولومبيا وعلى الانتاج الصناعي لبيرو وبوليفيا وعلى قهوة برازيل الشهيرة وبوتاس شيلي المعروف وثروات اخرى كثيرة في مختلف بلدان النصف الغربي للكرة الارضية.

ومع أن محاولات الولايات المتحدة بالنسبة للشرق الاقصى اصطدمت في سنوات الحرب بمقاومة قوية من قبل اليابان الا انها، مع ذلك، حاولت استغلال ظروف روسيا للتغلغل في اصقاعها الشرقية الغنية فمنحت القروض الحكومة كيرينسكي والمساعدات لقوات الحرس الابيض، ومن ثم اشتركت قواتها مع قوات الدول الكبرى الاخرى في حرب التدخل ضد روسيا السوفيتية بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية في ذلك البلد الاوربي اسيوي الواسع.

وهكذا فأن ظروف الحرب العالمية الاولى قد تحولت الى عامل محرك مهم لتنشيط السياسة الخارجية الامريكية التي دخلت مرحلة جديدة أهم مع انتهاء الحرب المذكورة، مما انعكس قبل كل شيء في بنود الرئيس ولسن المعروفة.

بنود الرئيس ولسن:

كما مر بنا في حينه ان الرئيس ودور ولسن كان يحكم البلاد بأسم "الحزب الديمقراطي" عندما نشبت نيران الحرب اعالمية الاولى، كما أعيد انتخابه للمرة الثانية في العام ١٩١٦، فعندما وضعت الحرب أوزارها كان لايزال يحكم البلاد. وقد لاحظنا فيما سبق من مواضيع المكاسب الهائلة التي حققتها الولايات المتحدة

الامريكية من الحرب، بحيث ازدادت الفجوة بينها وبين الدول الكبرى الى درجة لم يكن بوسعها ان لاتؤثر على ميزان القوى على الصعيد الدولي. اذن كان لابد من سياسة خارجية جديدة تتوافق مع هذا الواقع وتخدم طموحات الولايات المتحدة في السيادة العالمية. ومن هنا بالتحديد جاء ميلاد البنود الاربعة عشر المعروفة التي ارتبطت بأسم الرئيس ولسن واحدثت ضجة كبيرة في كل مكان.

ومهما قيل عن بنود الرئيس ولسن وبغض النظر عن صياغتها الذكية فأنها لم تخرج عن هذا الاطار قطعاً. وقد حدد ودور ولسن هذه الحقيقة بنفسه قبل الاعلان عن بنوده الاربعة عشر بفترة غير قصيرة حينما اكد في خطاب له القاه بين المواطنين الامريكان قائلاً لهم بالحرف الواحد:

"ان عصرنا هو عصر التحولات الكبيرة.. هل تفهمون أنتم معنى حقيقة واحدة فقط: خلال السنة أو السنتين الاخيرتين توقفنا عن ان نكون مديونين واصبحنا دائنين ولدينا فائض من الذهب العالمي اكثر من أي وقت مضى..علينا تمويل العالم بشكل جدي، وأن من يعطي المال عليه ان يفهم العالم ويقوده".

أعلن الرئيس ولسن عن بنوده الاربعة امام الكونكريس في ٨ كانون الثاني عام ١٩١٨، أي عندما بدأت نهاية الحرب تبدو في الافق. وقد نص البند الاول على ضرورة علانية معاهدات السلم ووضع نهاية للمعاهدات الدبلوماسية السرية، طالب البند الثاني" بالحرية المطلقة" للتجارة عبر البحار " خارج المياه الاقليمية في وقت السلم والحرب على حد سواء" ، وأكد البند الثالث على ضرورة "الغاء جميع العقبات الاقتصادية" امام التجارة الدولية، اما البند الرابع فقد بحث عن " تقليص تسلح الامم الى الحد الادنى بموجب ضمانات متبادلة" وفي البند الخامس دعا الرئيس ولسن بالنص الى ضرورة" حل حر وصريح ومنصف بشكل مطلق لجميع

النزاعات الخاصة بالمستعمرات، يستند الى التمسك الجدي بمبدأ يقضي بأنه في حالة حل جميع القضايا المتعلقة بالسيادة فأن مصالح سكان المستعمرات المعنية تتمتع بنفس الطموحات المشروعة للحكومة التي تحدد حقوقها. " بعد ذلك خصص البند السادس لحل " المسألة الروسية" على اساس منح روسيا الامكانات المطلقة " لاتخاذ قرار مستقل حول تطورها السياسي".

أما البنود ٧، ٨، ٩ ،١٠، ١١ فأنها كرست لمواضيع تتعلق بتحرير بلجيكا واعادة بنائها وتحرير الاراضي الفرنسية مع ارجاع الالزاس واللورين الى فرنسا واعادة تخطيط حدود ايطاليا حسب الاسس القومية مع ضمان" الحكم الذاتي" للشعوب الداخلة في الامبراطورية النمساوية –المجرية واخيرا انسحاب القوات الالمانية من الصرب ورومانيا والجبل الاسود وضمان منفذ بحري للاول منها.

وبعد ذلك يأتي دور الامبراطورية العثمانية التي خصص لها البند الثاني عشر وينص على ما يأتي: " يجب ضمان سيادة اكيدة للاجزاء التركية من الامبراطورية العثمانية الحالية، اما القوميات الاخرى التي هي الان تحت الحكم التركي فيجب ان يضمن لها أمن على الحياة لاشك فيه، وفرصة مطلقة لتطوير الاستقلال الذاتي، والدردنيل يجب فتحه بصورة دائمة وبضمانات دولية امام بواخر وتجارة جميع الشعوب.

ويتعلق البندان الاخيران من البنود الاربعة عشر بمنح بولونيا الاستقلال وبتأسيس منظمة دولية هي التي سميت فيما بعد بعصبة الامم.

ان تحليل هذه البنود في اطار الظروف الخاصة(في الداخل) والعامة(على الصعيد العالمي) يعطي امكانية تحديد الابعاد والمرامي الحقيقية لكل واحد منها، وهي في مجموعها وفي النهاية استهدفت سحب البساط من تحت اقدام الدول

الرأسمالية الاوربية الكبرى وفرض سيادة الولايات المتحدة الامريكية على العالم. فبالنسبة للبند الاول، مثلا، كان من الطبيعي جدا ان تكون الحكومة الامريكية ضد جميع المعاهدات والاتفاقات السرية التي لم تكن هي طرفا فيها، بينما استهدفت جميعها تقسيم مناطق النفوذ بين الدول الاوربية دون الولايات المتحدة. اما حرية البحار التي يتحدث عنها البند الثاني فإنها كانت تهم مصالح الاحتكارات الامريكية بصورة مباشرة، فكان من مصلحتها الاكيدة زحزحة بريطانيا من مكانتها الفذة في المياه غير الاقليمية. وجاء البند الثالث المتعلق بحرية التجارة الدولية متمما في اهدافه للبند الثاني. اما البند الخامس فأنه غامض في نصه، يحتمل كل تأويل وتفسير المجال امام جميع المساومات الممكنة. وكانت المرمي البعيدة من البند السادس هي دفع روسيا الى اتون الحرب من جديد. ولم يكن مجرد صدفة ان اقترح الامريكان انذاك دفع مائة روبل – وهي مبلغ كبير– عن كل جندي روسي يذهب الى الجبهة. وكان للرئيس ولسن مقاصد مشابهة من بنوده الاخرى، وخاصة فيما يتعلق بتأسيس منظمة دولية ارادتها الولايات المتحدة في الواقع ان تتحول الى اداة بيدها في سياستها الدولية الجديدة.

ولكن بالرغم من كل ذلك ان بنود الرئيس ولسن الاربعة عشر خدعت ولم تزل تخدع الكثيرين ممن علقوا عليها امالا كبيرة لم تكن تستند الى ارض الواقع.

ومع عودة الجمهوريين الى الحكم اثر انتخابات العام ١٩٢٠ اختفى الاهتمام ببنود الرئيس ولسن على الصعيدين الداخلي والخارجي ولكن دونما ان يطرأ تغيير جوهري على منطلقات السياسة الخارجية الامريكية بعد ذلك التأريخ.

السياسة الخارجية للولايات المتحدة بين الحربين العالميتين:

دفعت مجموعة من العوامل بالحزب الجمهوري الى تبني خط سياسي على الصعيد الخارجي يختلف على الاقل شكلا من خط " الحزب الديمقراطي" وذلك برفعهم لشعار العزلة والعودة الى " مبدأ مونرو". فقبل كل شيء ان بعض القادة. الجمهوريين كانوا يرون بأنه آن الاوان للتمتع بثمار الحرب والابتعاد مرة أخرى عن المشاكل الاوربية قدر المستطاع. يلعب الصراع الحزبي بين الجمهوريين الذين خسروا في دورتين انتخابيتين على التوالي والديمقراطيين الذين نجحوا في دورتين انتخابيتين على التوالي بعد فشل مستمر قبل ذلك التأريخ، لم يلعب ذلك الدور الاخير بالنسبة للموضوع فأن "الحزب الجمهوري" أدرك جيدا ان الورقة الرابحة في نظر المواطن الامريكي العادي في ظرف ما بعد الحرب هي التأكيد على جوانب معينة من " مبدأ مونرو" وتصوير الرئيس ودرو ولسن وكأنه يحاول الخروج على التقاليد السياسية الامريكية الاصلية.

ولكن سرعان ما تبين في " العهد الجمهوري الجديد " زيف شعار العزلة الذي أكد عليه الجمهوريون في حملتهم الانتخابية، فقد استمرت حكومتهم على اتباع نفس النهج السياسي للرئيس ولسن في ثوب من لون آخر ولكن دون أدنى تغيير في أدق تفاصيله. وفي الواقع ما كان بوسعها ان تفعل غير ذلك ومن المفيد أن نشير بهذا الصدد الى أن الاكثرية الجمهورية في الكونكريس لم تعترض على سياسة ولسن الخارجية في الايام الاخيرة من عهده والتي كانت تستهدف كما في السابق، الى تحقيق اهداف بنوده.

وبعد انتقال الرئاسة الى الجمهوريين برزت الولايات المتحدة فوق المسرح السياسي الدولي كما كانت عنصرا فعالاً ومؤثراً لك حد كبير. وقد دشن

الجمهوريين عهدهم بالتوقيع في آب ١٩٢٩ على مساندة منفصلة للسلام مع المانيا حصلت الولايات المتحدة بموجب بنودها على جميع الحقوق والامتيازات التي منحتها بنود" معاهدة فيرساي" للدول المنتصرة الاخرى. كما عقدت معاهدات مشابهة مع النمسا والمجر.

ومع مرور كل يوم جديد كانت الامور تظهر على حقيقتها جلية فمع ازدياد اهمية النفط تضاعف اهتمام المسؤولين الامريكان بسياسة" الباب المفتوح" التي كانت تستهدف افساح المجال للرأسمال الامريكي بالعمل على قدم المساواة مع المصالح الانكلو- فرنسية في هذا المجال الحيوي وبلغ الاتفاق بين الجمهوريين والديمقراطيين حول ضرورة هذه السياسية حد الاطلاق تطبيقها بصورة خاصة بالنسبة لمناطق النفوذ البريطاني لانها كانت تبشر بمستقبل نفطي مغر. وفي خصم الصراع حول هذا الموضوع تردت العلاقات بين الانكليز والامريكان في بداية العشرينات الى درجة أن العديد من المؤرخين والصحفيين كانوا يشبهونها بما كان يسود من علاقات متوترة بين الانكليز والالمان عشيلا الحرب العالمية الاولى.

وفي العشرينات ايضا وفي ظل الجمهوريين لم تحل مشكلة أوربية حاسمة بدون تدخل مباشر من الولايات المتحدة الامريكية، وقد أشرنا في المواضيع الخاصة بالدول الكبرى الاوربية الى جانب من هذا الموضوع(لجنة دلوس بالنسبة لالمانيا المساعدات لايطاليا وما شابه). وكما لاحظنا كان للويات المتحدة دور مباشر في انتعاش العسكرية الالمانية من جديد. وكما لاحظنا كان للويلات المتحدة دور مباشر في انتعاش العسكرية الالمانية من جديد. وفي الوقت نفسه تقريبا اشتركت الولايات المتحدة مع الدول الكبرى الاخرى في قمع انتفاضة جماهيرية جديدة انفجرت في الصين.

واذا انتقلنا الى النصف الغربي من الكرة الارضية فأننا نرى أن سياسة الولايات المتحدة الامريكية تجاه اقطار الامريكتين لم تتغير في ظل الجمهوريين قيد شعرة. فأنها لم تتردد عن استخدام القوة حيثما اعتبرت ذلك ضروريا بالنسبة لمصالحها، كما فعلت من نيكاراغوا في العام ١٩٢٧-١٩٢٨ مثلا.

والمثل الاخير عن العشرينات في ظل الجمهوريين هو العلاقات الامريكية السوفيتية. فقبل انتهاء العقد الثالث بقيت الولايات المتحدة هي الوحيدة من بين جميع الدول الكبرى لم تعترف بالاتحاد السوفيتي على الصعيد الديبلوماسي بينما، في الوقت نفسه لم تمنع شركاتها من اقامة أوثق الصلات الاقتصادية معه بحيث او الولايات المتحدة اصبحت تشغل المكانة الاولى في قائمة تصدير البضائع الى الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٣٠.

تركزت السياسة الخارجية الامريكية في سنوات الازمة الاقتصادية العالمية على العمل من اجل الحفاظ على مواقع الولايات المتحدة في الخارج بعد ان تعرضت لبعض التزعزع اثر التدهور النسبي الذي أصاب الموقع الاقتصادي الامريكي على الصعيد العالمي بسبب الصعوبات التي تمخضت عن الازمة نفسها. وفي تلك السنوات حدث تطور ملموس في العلاقات الالمانية – الامريكية.

وكما كان متوقعاً، وكأنعكاس طبيعي لما حدث في الداخل جرى انعطاف واضح في سياسة الولايات المتحدة الخارجية في عهد الرئيس فرانكلين روزفلت . فبالنسبة لامريكا اللاتينية رفع الرئيس الجديد شعار " الجيرة الطيبة"، اذ انه كان يفضل التغلغل الاقتصادي على التدخل العسكري في شؤونها الداخلية.. وفعلاً ان الحكومة الامريكية سحبت في عهده قواتها من نيكاراغوا وهايتي، ووقعت سلسلة من الاتفاقات التجارية مع معظم أقطار المنطقة.

ومن جانب آخر عمل الرئيس فرانكلين روزفلت على وضع حد للتغلغل الالماني في اقطار الامريكتين. كما ان حكومته اقامت علاقات ديبلوماسية طبيعية مع الاتحاد السوفيتي في أواخر العام ١٩٣٣، وأبرمت معه اتفاقيتين تجاريتين في عامي ١٩٣٥ و ١٩٣٧ ومرة اخرى لم يكن بوسع الولايات المتحدة الامريكية ان تبقى بعيدة عن الحرب العالمية الثانية التي لعبت فيها دوراً اكبر بكثير من دورها في الحرب العالمية الاولى.

بعد احتلال اليابان لبعض القواعد الامريكية في الشرق الاقصى وكذلك الفليبين والمناطق المجاورة في ٧ كانون الاول ١٩٤١ بدأت الحرب بين الدولتين، وبعد ٤ أيام اعلنت المانيا وايطاليا الحرب ضد الولايات المتحدة تأييداً لليابان. قبل ذلك التأريخ استفاد الامريكان، مثل الحرب الاولى، كثيراً من حالة الحرب اقتصادياً ولو أن ميلهم الى انكلترا وفرنسا كان اقوى من سنوات الحرب الاولى.

محاضرات في تاريخ الدول الكبرى

بين الحربين العالميتين

أ. د. كمال مظهر أحمد

((ان دراسة تاريخ الدول الكبرى تعتبر مهمة علمية ملحة للغاية لكون ذلك التاريخ حافلا بالأحداث المصيرية بالنسبة لكل العالم تقريبا ولأن منطقتنا عانت ولم تزل تعاني الكثير من سياسات الدول الكبرى ومن نفوذها المباشر وغير المباشر ومن ا لاعيبها المفضوحة والخفية ،كما ان التاريخ الخاص لكل دولة من هذه الدول مليء بالدروس والعبر المفيدة والنماذج التي تجعلنا اقدر على فهم حركة تطور التاريخ واستيعابها .

واخيرا فإن الدول الكبرى لاتزال تتمتع بوزن سياسي دولي حاسم الأمر الذي يفرض علينا فهم تاريخها على افضل صورة ممكنة .))*

* ((الناشر))

مقتبس من المقدمة





ISBN 9789922938791

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق

ببغداد (١٨٨٧) لسنة ٢٠٢٠